المجموعة الكاملة

الإمام

علي بن أبي طالب

عبد الفتاح عبد المقصود



منشورات مكتبة العرفان - بيروت


مكتبة الروضة الحيدرية

الإمام

عَلي بن أبي طالِب

الجزء السابع

تأليف

عبد الفتّاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان

بيروت



الفصل الأول

١

الى المدى الذى تستطيعه خطا التغافل المتثاقلة ، مشى الدواء الذى استطب به ابن ابي بكر من محنة مصر على درب الوقت ، جنبا الى جنب ، مع غد كسبح تبنته الكوفة !..

محنة ممطوطة ، ودواء كأنه داء . وليل بلا صباح ..

ولم تكن الحاضرة الاسلامية ، حينذاك ، تشكو من عجز أو من قلة . فجمعها غفير ، وخيرها كثير .. ولكنها بدت كالمضيع في بيداء قد مسه جنون الظمأ .فحار أين يتجه الى الماء . اذا لاحت لعينيه مظاهر الحياة في بقعة بين اثناء الرمل ، خايله بها شبح الهلاك وقد ظنها صورة موهتها يد السراب . واذا طالعه وهمه بخضرة نضرة ، ظنها واحة فيحاء فيها ما ينقع صداه . فهو بين الحقيقة التى تريبه ، والسراب الذى يستهويه ، لا يني يحرك الخطا على تردد ، يقدم ليحجم ، ويقبل لينكص ، ثم لا يجاوز آخر الأمر ، مهما جد في السعى واسرفت عليه قدماه بالطواف ، غير دائرة التيه !..

تلك آونة سيطر الضياع فيها على دولة الامام بما رحبت وبمن ضمت من جماهير كثيفة من سكانها في كل مكان .. في الكوفة والبصرة . في اليمن والحجاز . في مصر وفارس . في الثغور والأطراف . لا فرق في جموعهم بين عامة وسادة ، رعية وحكام ، همل وأشراف ..

أمة اخذتها غفوة فنام فيها الشعور وهمد التفكير .. لا مبالاة ولا اكتراث . تعيش واقعها الثقيل صاغرة كأنه قضاء نازل وقدر محتوم . وترنو الى الاحداث بعين مطبقة الجفون مسترخية الأهداب . وتجرفها الدنيا في تيارها الهادر الى غد تعلم حق العلم انه ظلم أو انه ظلام فلا تحاول أن تتهيأ للقائه الكريه المنتظر وفي يمينها سلاح او ذبالة مصباح !..

وياما كثر على السنتها الكلام !.. وياما توالت الوعود والعهود ! ولكنها ظلت دائما حريصة على الإخلاد للواقع ، والالتصاق به ، كأنه

الحياة ولا حياة سواه .. تماما كالحالم يغزو أقطار الأرض ، ويثل عروشها ، ويطأ بقدميه المربدتين صوالجها وتيجانها وهو ملتحف بدفء الفراش !.. تماما كالثمل يستعلي على الناس ، ويستذلهم في رؤاه المخمورة ، وهو يتمرغ عند مواطئهم في الوحل والتراب !..

أيام طويلة تمضي والموقف هو الموقف ، والوضع هو الوضع بلا تغيير .. الوعود تترى ، ولكنها دائما حبيسة قول معسول . الأقدام تتحرك ولكنها دائما لا تسير . السلاح يجتمع ولكنه دائما في الأغماد .. ومالك بن كعب من ورائهم يستحث التنفيذ فلا يظفر الا بالموعد الذى لا يحين ـ بكلمة « غدا » ، وغدا كما هو معلوم ، موعد يتجدد ، ويتأجل الى الأبد الآبد ، مع كل نهار !..

ولم يملك الإمام إلا الصبر ، أو هو لم يملك سوى القنوط . وما حيلته في هذا البلاء الداهم الذى يحييه في مجتمع لا يجمعه راى ، ولا تغضبه حمية ، ولا يحمسه دين ؟.. ما قصاراه والقوم يتشبثون بالدعة لانها تهبهم الحياة ، ويؤثرون العيش وان تلمسوه في كنف الخزى والذل والهوان ؟..

وكذلك انقضى الموعد المضروب على سيرهم لمصر مع مالك بن كعب لنجدة عاملها ، والانتصاف لاهلها وارضها من عدوان الشام . فمصر عندئذ تحفها المكاره ، وسيرهم اليها يسلبهم الدعة ، والقتال عليها ـ كأى قتال ـ هو في حسبان ضمائرهم الغافية وجه مكروه . ولو انك استبطنت دخائلهم اليوم ، لرايتهم يكرهونه ، ويقعدون عنه ، وان دوهموا في الكوفة بجيش صغير !..

شهر من الزمان فات على الوعد والاعداد عاشه ابن ابى بكر في جحيم الانتظار .. لا اثر لنجدة . لا ظل لمندوب . لا كلمة تقبل عليه من صوب الكوفة تبشره بجيش الانقاذ . انما الأنباء تأتيه سراعا بتقدم عمرو على أرض النيل باعداد من الجند لعل القلق في خياله ضاعفهم بضعة أضعاف . وبجموع من الثائرين عليه ، يلحقون بهم ، أو يزودونهم بالمؤن والسلاح ، ويبسطون امامهم ما جهلوا من فجاج ودروب في تيه الصحراء وعلى التربة الخضراء .. ومع ذلك فقد نثر الفتى ما بجعبته ، ونشط ومن معه لساعة الفصل ، وان جهد وسعه ليستأخر بها حتى حين عسى الايام أن تطلع عليه بأمله قبل أن تحين !.

كالبخيل الذى يمسك كفه ، وينفق بقدر مقدور لا يجاوز الكفاف ، أطلق الفتى جيشه للقاء المغيرين . لم يلقهم بكل حشده ، وان كان ذلك « الكل » لا يكاد يعنى شيئا في منطق الحروب ، ولا يكاد ايضا يغنى أمام قوة عـدوه التى بارحت الشـام لتعز عـدة ونفرا بالذين استلحقت وآزروها من النـافرين والمنتقضين وثعالب خربتا التى ابرزت مخالبها وخرجت من أوجرتها مسفرة بعد طول انجحار ..

سرح محمـد بن أبى بكر الى جيش عمرو مقـدمته ، في ألفين ، عليهم كنانة بن بشر ، كأنما يرجو بهم أن يناوش القوم ويؤخر تقدمهم ما وسعه التأخير حتى يقدم عليه المدد الموعود . ولقد أصاب حين فعل ، لانه لاءم بين الأمل ، والقـدرة الممكنة ، وظرف اللقاء . ولقـد أصاب ايضا ، لان غريمه سلك حياله مسلك مخدوع فلم يرمه بكل قوته وهى عندئذ طوفان حرى بأن يغرق قوة الدفاع ، وينهى المعركة في سويعة ينفتح أمامه بعدها الطريق الى الفسطاط .. لكن ابن العاص ، فيما بدا — عن هيبة أو عن تريث — آثر أن يدنو على حذر ، كأنما ليتحسس الأرض تحته أو يسبر غور خصمه ، او ينتقص رويدا رويدا من مقاومته ، فراح يرميه بكتائب الشام : كتيبة كتيبة ، أملا في نصر رخيص لا يكلفه سوى القليل ..

موجة بعـد موجة توالت الهجمات الشاميـة على جيش الدفاع الصغير فاذا هى تتكسر على صخرته ، ثم ترتد لتنحسر ويهدأ الصراع فترة ليشب من جديد . ما تقدمت كتيبة منها الى الجيش المصرى ، تحاول أن تقتحم عليه موقعه ، الا ثبت لها ابن بشر برجاله ثم ضربها فأعادها مقهورة إلى ما وراء الشقة الحرام . وما تراجعت كتيبة بعد فشل ، تلعق الدم ، وتضمد الجروح ، وتلتقط الأنفاس ، الا تقدمت اخرى الى الميدان تحاول بدورها كسر حدة الغريم العنيد . لكن كنانة ابن بشر لم يكن لينكسر ، ولم يـكن لينكص وينقلب على عقبيـه ، وامامه شهادة أو نصر كلاهما تشتهيه نفسه ، ذيادا عن الحق ودفعا لقوى الباطل أن تنتصر وتسود .

واخذت مراحل ذلك الصراع تتعاقب حلقات متشابهة في سلسلة طويلة بلا مدى معلوم . فلا الهجوم ينتصر ، ولا الدفاع ينكسر ، ولا اى الفريقين يجول بخاطره أن يطفىء سـعير القتال ، أو يجنح لراحة في هدنة مطلقة أو محدودة تكف عنه ، ابدا أو الى حين ، عوادى الهلاك .

إنما مضى الموت ، على ظبا الأسنة ، يتخطف ىن شاء من هنا ومن هناك . وراحت الخسائر في الأرواح والسلاح ، تنتقص من الجيشين ما شاء لها الاضرار .

وكانى بعمرو قد ايقن أن خطته تلك غير مبلغته غايته من النصر الرخيص الذى ارتجاه .. لعله توجس ان يكون وراء هـذا الثبات العنيد خدعة ينكشف عنها طول أمد القتال . ربما لمح بارقة خطر ، أو خشى ان يطلع الغد عليه بمدد يؤازر عدوه فيهدم رجاءه ، وينكسر لواءه ، ويسلمه وجيشه العادى إلى مصير مهين ..

كيفما كان تقدير الرجل آنذاك فإنه مل لعبته ، أو خطته ، وركبهمن مللهِ تطلع الى حسم الأمر بما لايدع مجالا لنشوء احتمال آخر ، غير النصر ، يلون النتيجة . وما كان له الا أن يسارع بذلك بعد أن تكرر ارتداد كتائبه ، وتكسرت امواجها تباعا على صخرة المقاومة العنيدة . وماله اذن لا يدع ما يريبه الى ما لا يريبه ، والأمور فد جرت أخيرا بما اشتهى فاكتمل له ، من خارجة مصر ، جند كثيف ، كأنه الجراد ، لو انه انتشر على أديم الموقعة وخلى بينه وبين عدوه لاجتثه وما ترك منه عودا أخضر ؟..

وعلى الاثر بعث الى معاوية بن حديج الكندى ، يستمده ويستنجد به من الموقف المتميع الذى وضع فيه نفسه واجناده .. فان هو الا قليل حتى جاءه الرجل ، في أعداد من انصاره مثل الدهم ، يزحمون الميدان ، ويسدون على القوة المصرية المدافعة منافذ الخلاص من كل ناحية ..

حتى الحركة لم تعد ميسورة لفرقة الدفاع . وحتى الارتداد لتقويم الخطوط وتنظيم تكتل متماسك يكر على العدو من بعض اطرافه لم يكن في الطاقة .. فقد رمت الخارجة بكل ثقلها في وجه كنانة ومن حوله . وضغطت عليه ضغطا شديدا التصق فيه الناس بالناس . وحطت تغشيه من أقطار ساحة المعركة ، تماما كما يحط الجراد على شجرة خضراء يغطى الجذع والورق والفروع ثم لا يطير عنها الا وهى خشبة يابسة جرداء !..

ولم يجزع ابن بشر . ولم الجزع وهـذا احد امليه ياتيه ؟.. الشهادة الآن على كثب منه . الجنة تخايله وتناديه ، وليس بينه

وبينها الا ان يثبت حيث كان ، يستقبل الموت وهو راض قرير ..

ونشط للجحافل الكثيفة ومن معه من بقية المدافعين يحاول ان ينقب سورهم الآدمي ويهدم جدره ما وسع سيفه ان يضرب ، ووسع فرسه ان تثبت على قوائمها ، وتتحرك به في تلك الرحلة القصيرة المميتة .. انه يكر ويرمي بنفسه على عدوه فاذا الكرة ترجعه ولاتدفعه الى الأمام كأنما يصطدم بمطاط !.. وانه ليثغر في صفوفهم فاذا الثغرة التي يفتحها تلتئم على الفور كأنما هو يحفر في ماء !.. حتى اذا رأى فرسه عجزت عن الحركة ، لفرط تزاحم عدوه عليه ، وثب عن ظهرها الى الأرض ، وارتمى على الحشود المطوقة يعمل فيها سيفا يتحرك كشيطان !..

واخذ يتلو وهو يضرب في ذلك السور الآدمي المنيع :

« وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا .. » .

وملكت سورة القتال أصحابه فنزلوا جميعا نزوله ، يخالطون عدوهم ، وينازعونهم مواقع الأقدام . وتغشت الموقف غاشية من الاضطراب والغموض لا يكاد أحد يعرف في ظلامها مدافعا من مهاجم ، ولا وليا من خصم ، ولا بشائر نصر من بوادر هزيمة .. فالصراع لم يعد معركة حربية تحكمها قواعد التنظيم وتناسق التحركات بقدر ما غدا لقاءات عشواء أو شبه عشواء ، تشتبك فيها اليد باليد ، ويصطدم الجسد بالجسد ، ويصطرع القوم في نطاقها على الشبر من الأرض ليتيح للرجل منهم موضعا لقدم واحدة تحمله ، وعلى كوة في جدار الأجسام الملتصقة المرصوصة ، تفسح له في نشقة هواء !..

غير أن الايمان والشجاعة والاصرار لم تكن وحدها العوامل التي ترجح كفة كنانة ، وتشيل كفة ابن العاص .. فلقد فرغت الجعبة ، وجف الزيت ، واخذت الذبالة تترنح وهي تخفق خفقاتها الأخيرة .. لم تعد في المقاومة بقية جهد ولا ذماء طاقة . حانت الخاتمة . حم القضاء . جاءت الشهادة تجتبى الأخيار ..

واستشهد ابن بشر وهو على تل من الجماجم !.. فلو استطعت عندئذ معاينة سيفه ، لوجدت على شفرته قطرة دم من كل قتيل . ولو استطاعت جثثهم ان تنطق ، لعاتبته على حدة الطعن وعبقرية

القتال !.. واستشهد مع القائد الباسل جمع جم من رجاله خلا بموتهم الميدان وفتح الطريق امام العادين ..

وعندما وسع ابن العاص ان يسترد بعض نفسه المبهور ، وينقشع عنه كابوس غمة الدفاع الرهيب ، ثم يتحرك ليفضي ببقية من معه إلى مؤخرة جيش مصر ، لم تكن ثمة حياله مقدمة ولا مؤخرة ، لأن القتال التهم من ثبت ، والهزيمة طارت بمن امتد به اجله ، وطوحته بعيدا ، بعيدا ، عن الميدان .

عن ابن بكر ، بعد أن مات كنانة وتقطعت الوسائل بقيادة الدفاع ، انفضت بقية جنوده ، وتفرقوا فرادى، وقد أعضل الموقف بهم ، وايسوا من جدوى الثبات والمقاومة دع توقع الغلبة والانتصار . بل لعلهم وجدوا الثبات عندئذ عصيا عليهم ، لا يدانى نطاق القدرة وان دخل في نطاق الرؤى والأحلام !.. بل لعلهم ــ والألوف المعادية تضغطهم ــ رأوا انهم على حافة منزلق لا يملكون عندها غير التردى من عل في هاوية بعيدة المهوى ، غائرة القاع !..

تلك كانت الحال ، وذاك كان السلوك الذى سلكه جيش ابن ابى بكر والستائر تنسدل على « المنشأة » كمعركة مصير .. واذا كان القدر قد شاء فان مشيئته لم تكن غير صدى لهمة الكوفة واهلها القاعدين !.. واذا كانت بقايا الدفاع عن مصر قد اكرهت على التفرق والانسحاب من الميدان . فان كنانة بن بشر كان خير اسوة لهم لو انتفعوا بالقدوة ، فعقدوا العزم وتمسكوا بالثبات . وإذا كانت ظنونهم قد خالت التشبث بمواقع الاقدام بعد مصرع كنانة ومحنة قواته محالا من المحال ، فان الشهادة ــ في حالة ابن بشر ، وفي كل حالة ــ ليست ضربا من المحال !.

٢

طبيعـــة البشر ، بلا شك ، اضـــافت سطرا ــ عبـــارة ــ كلمة واحدة ــ إلى سـفر الأسباب التى أدت إلى هزيمة جيش محمد بن ابى بكر ، ذلك اليوم من صفر ، في « المنشأة » على مسافة غير بعيدة من الفسطاط . . فنفره قليل وعدوه وفرة كاثرته ببضعة اضعاف . . وضغط الوقعة عليه فاق قوة الاحتمال . والرجاء في نجدة عاجلة تشد ازره لاح اعصى من المحال ... واليائس المضيع ، الذى يشق عليه الصبر ، حين تتبدى له ثغرة في سور الموت المحيط به من كل جانب ، لا يحركه عندئذ عقله ، وانما تقوده غريزة حب البقاء . .

على هذا النحو اصبحت بقية القوة الدفاعية بعد تلك الأمواج الهادرة المتلاحقة من الهجوم ، وبعد طوفان خارجة خربتا وانصار الشغب وسيطرتهم على ساحة القتال . . ولا لوم هنا على رجال ابن ابى بكر حين ينفضون أيديهم من قتال لا غناء فيه ولا جدوى لهم من ورائه ــ طال او قصر ــ غير الهلاك ، ما دمنا نقيسهم بمقياس الطبيعة البشرية ، التى تدور في فلك « الممكن » لا في فلك « الأمثل » الذى ينبغى ان يكون ! . . ولا لوم أيضا على محمد لو اخضعته هذه الطبيعة لسلطانها ، وجرفته بعيدا عن ساحة الموت إذ يتلفت فإذا المكان حوله خال ، قد هجره أصحابه ، فلا ناصر ، ولا رفيق ...

شريدا مضى الفتى عن موقع القتال ، يضرب في الأرض على مهل او على ذهول ، إلى غير غاية . . وهل من مقصـــد لتـــائه مضيع ؟ . . وهل من هاد لوحيد حيران ؟ . . بل لا يفرق بين مشرق ومغرب ، نهار وليـــل ، أخضر وجدب ، معمور وخراب . . وعيـــه انطمس ، وجمرة فكره تحولت إلى رماد . يتخبط في ظلمة . . يهيم في ضياع . . يفكر بقدميه ؟ . .

اهل الكوفة أيضا كانوا يفكرون بالقدم الضالة التى لا تعرف الى اين تسير ، تماما كابن أبى بكر وان اختلف بينه وبينهم المعيار ، اذ تكرهه طبيعة محنته وتتحكم فيه ، بينما يصدرون هم ، في سلوكهم الزائغ ،

عن اختيار !.. فما حركهم حدث . ولا حمسهم خطر ، ولا القوا السمع لدعوة داع تحثهم على العمل ، وتبصرهم بعواقب الجمود الذى آثروه .. وحتى حين حفزتهم النخوة اخيرا ، وشاءت لهم أن يلبسوا رداء المروءة ، كان كل قصاراهم بضع مئين غاية ما يقال عنهم إنهم « لافتة » جيش ، أو « شعار » يعلن عن الرغبة في النجدة ــ مجرد رغبة ! ــ وليسوا بقوة حربية فعالة ، تستطيع أن تؤثر في مصير معركة النيل ..

كانوا نوعا من التظاهر بالانصياع لأمر الامام ، والولاء الذى لا يستبطن الطاعة المجدية وإن خلع ثوب العصيان !.. ام لا فما جدواهم ولما ينتظم لهم عقد إلا بعد مرور شهر وبضعة ايام على دعوة الاستصراخ والاستنجاد ؟.. ما جدواهم وانهم لالفان يعلمون حق العلم أن اجتيازهم مراحل السفر البعيدة الى مصر سيضعهم في مواجهة عدد يقارب ثلاثين الفا كلهم مطيع مصابر عنيد ؟.. فان يكونوا تخيلوا القدرة على المواجهة ، او غرهم في انفسهم شيء ، افكانوا يحسبون الأحداث رهن مشيئتهم ، تجمد حيث هى فلا تتحرك الا اذا تحركوا وشدوا معهم الشمس لتسطع على ساعة اللقاء التى يريدون ؟..

بل هو وهم ما خالوا ، وعبث ما فعلوا ، وهباء وقبض الريح ما توقعوا ان يكون !.. فالمقدمات هى التى تنجب الخواتيم . والعاقبة مرئية معلومة ، لكل إدراك ثاقب نابه او ساذج غرير . والفاجعة مقدورة محتومة ، من قبل أن تتحرك اليها قدم ، أو تطيف بموقعها عين .. وكفاهم دلالة عليها ، أن الإمام إذ خرج يشيعهم . قد أقتحم جمعهم المتذائب القليل بعين غائمة ، وهتف في هدوء حزين :

« سيروا .. والله ما أنتم !.. ما اخالكم تدركون القوم حتى ينقضى امرهم !.. » .

فانطلقوا ..

لكنها انطلاقة الكرة من المطاط لا تلبث ان تعود ادراجها حيث كانت حين يستقبلها جدار !.. فإن هى إلا خمس ليال يسيرونها بين اثناء الرمل على دروب الصحراء ، حتى كان القدر قد ابرم قراره ، وجاء بنبئه رسولان من الشام ومن مصر يحملانه إلى الكوفة ..

من الشـــام قدم عبد الرحمن بن مسيب الفزارى ، وعلى وجهه ذهول المبغوت ، فدخل على الامام يخبره الخبر .. كان الرجل عينا في الأرض الأموية لعلى ، يشيم الأخبار ، ويستقرىء حركات القوم وسكناتهم ليفضى إلى صاحبه بما تكن أو تعلن ، ليكون من أمرهم على بينة .. فلما دهمه امر المنشـــأة ، تسـلل بليــل يحث مطيتـــه إلى امير المؤمنين ..

قال يرسم مشاهده :

« .. ما خرجت من الشام حتى قدمت البشرى اليها من قبـــل عمرو بن العاص ، يتبع بعضها بعضا بفتح مصر .. » .

ثم ؟..

« .. وقتل محمد بن أبى بكر .. » .

ثم ؟..

« .. وأذن معاوية على منبر دمشق بقتله ؟.. »

سلسلة طويلة من الهم والوصب والعـذاب طوت مراحلها بضع عبارات مجردة جافة لا تكاد تفصح عما لعل الفتى عاناه ، أو تومىء الى صدى الدوى الذى تفجر في نفس السامع وهو يصغى بأذن مرهفة، ووجه جامد متوتر الأسارير .. ولكنها لا ريب كانت طعنة مصمية تمزق القلب وتحطم الكيان .

وأكمل الفزارى حديثه :

« .. ووالله ، يا امير المؤمنين ، ما رايت قط سرورا مثل سرور رأيته بالشام حين قتل محمد .. » .

فلم يزد الامام على ان خفض راسه ، كأنما ليخفى عن صاحبه دمعة أسى همت أن تنحدر على وجنتيه ، وهو يقول :

« .. لقد فقدنا حبيبا ، وفقدوا بغيضا !.. اما ان حزننا على قتله لعلى قدر سرورهم به ، لا ، بل يزيد اضعافا .. » .

والكلام ، ابلغ الكلام ، لا يســـتطيع في مثل هذا المقام ان يصـــور العاطفة ، أو يكون أداة قادرة على التعبير . هو عندئذ اشبه بمرآة

نقية الصفحة . ينعكس على صقالها الشكل عن الأصل ، دقيقا واضحا بكل تفاصيله ولكنه لا يزيد بعد عن مجرد صورة بلا حياة !.. وهل يسع عبارة ما ان تنقل تفجع الامام على محمد ، وتلم بألمه أو تبلغ مداه ، وما كان منه تولده بل كان ولده حقا بكل المشاعر والأحاسيس والمقومات المادية والنفسية التى تربط الابن بأبيه ؟.. وإذا كانت بنوة الولد ،فصلا للفراش ، وبالنطف ، ومن الأصلاب ، فإنهما ايضا تكون بالصلة الروحية والتربية والرعاية .. واذا كان محمد ولدا - بالدم - لأبى بكر ، فإنه كان أيضا للإمام ولدا - بالحضانة - منذ يتم وهو طفل ، وآمت امه أسماء بنت عميس ثم دخلت تحت على زوجا بعد ترملها بقليل .. فالفتى من طفولته أوى الى ظله .. شب عن الطوق في حجره .. روى من عطفه وحبه .. عاش واحدا من أبنائه لا يعرف أبا غيره ، حتى لقد كان الامام نفسه يقول عنه :

« محمد ابنى من صلب أبى بكر .. » .

.. ومن مصر قدم الحجاج بن غزية الانصارى ، وعلى وجهه وجمة الناعى .. كان أحد رجال محمد ، صحبه بها ، وعاش معه ، وشهد مشاهده ثم غاص واياه في قاع المحنة .. فلما وقعت الواقعة ، وهاض الدفاع ، وتلبس الأفق بالسواد ، ثم تفرق عن عامل مصر أصحابه وراح مشردا يهيم في الأرض حتى عاجله مصرعه ، افلت الحجاج بحياته ، واقبل ، والفاجعة ما زالت تملأ قلبه وعينيه ، ليروى لأمير المؤمنين الخاتمة المرة ..

وما كان مصرعا كالمصارع ، ولا فاجعة كالفاجعات .. وكيف يكون، وقد اقتلع فيها الانسان قلبه الآدمى ، وتجرد من بشريته ، وأبرز الظفر والناب ليغدو وحشا كأقسى ما تستطيعه وحشية الحيوان ؟..

ليس غير الذهول ما لعله ران على الامام في تلك اللحظة وهو يصغى إلى القصة المحزنة . وليس غير التفجع على نكسة النفس البشرية ، وانحدارها الى قعر الشر .. لكنه عرف كيف يحكم تقززه ، ويعالج شعوره بالغثيان ، وهو يصبر النفس ويوطنها على تقبل المكروه ..

وهتف متجلدا وقلبه يذوب :

« رحم الله محمدا .. » .

وعندما وسعه من بعد ان يخلو الى افكاره ، ويسترجع في باله صور الأحداث التى أدت الى المصرع المفجع ، همست شفتاه :

« رحم الله محمدا .. كان غلاما حدثا .. لقد كنت اردت ان اولى المرقال هاشم بن عتبة مصر ، فإنه والله ، لو وليها ، لما خلى لابن العاص واعوانه العرصة ، ولا انهزهم الفرصة .. ولا قتل الا وسيفه في يده .. » .

غير انه ما لبث ان نفض الانسياق في التحسر على ما لا سبيل له إلى استرجاعه لأن « ليت » لا تصلح الأمور ولا تمنع المحذور المقدور.. ثم أستدرك وقد أخذه حنانه ينتصف للصريع :

« بلا ذم لمحمد ؟.. فلقد اجهد نفسه ، وقضى ما عليه .. » .

ولم يبرحه بعدها جزعه على الفتى حتى لقد كان هذا الجزع ـ وإن جهد لإخفائه تصبرا ومجالدة ـ يظهر في وجهه وحركاته .. وكم تحدث القوم بالأمر ، وكم حدثوه فيه رغبة منهم في كفه عنه والتهوين عليه ، فيقولون :

« لقد جزعت على محمد بن أبى بكر ، يا امير المؤمنين .. » .

فلا ينكر ، ولا يعتذر ، بل يقول :

« وما يمنعنى ؟.. إنه كان لى ربيبا ، وكان لبنى اخا ، وكنت له والدا اعده ولدا .. » .

ونعاه إلى الناس ، وهو يعلن عليهم اغتصاب مصر ، فيحسن الثناء عليه ولا يعفيهم من جريرة الكارثة . بدا فقال :

« .. الا وان مصر قد افتتحها الفجرة ، أولياء الجور والظلم ، الذين صدوا عن سبيل الله ، وبغوا الاسلام عوجا .. الا وان محمد ابن أبى بكر قد استشهد رحمه الله وعند الله نحتسبه .. اما والله لقد كان ما علمت ، ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحب سمت المؤمن ... » .

ثم عرج عليهم :

« .. وانتم القوم لا يدرك بكم الثأر ، ولا تنقض لكم الأوتار !..

دعوتكم إلى غياث اخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة ، فجرجرتم على جرجرة الجمل الآسر ، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من لا نية له في الجهاد . ولا راى له في الاكتساب للأجر . ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون !.. » .

ولقد بلغ من حزنه أن كاد يعتزل الناس لا يخالطهم ولا يضمهم واياه جمع ما وسعه أن ينأى عنهم ويعزف بنفسه عن اللقاء ، ضيقا بهم ، وزهادة فيهم ، بل قد بلغ منه ان برم بالحياة وود لو عاجله اجله فيرحمه ليغيب عن دنياهم إذ الموت خير من صحبتهم هذه التى تشقيه وتثقل عليه ..

بعث عندئذ الى ابن عباس يكاشفه شعوره :

« .. استشهد محمد بن أبى بكر .. وقد كنت كتبت الى الناس ، وتقدمت اليهم في بدء الأمر ، وامرتهم باغاثته قبل الوقعة ، ودعوتهم سرا وجهرا ، عودا وبدءا ، فمنهم الآتى كارها ، ومنهم المتعلل كاذبا ، ومنهم القاعد خاذلا .. أسأل الله ان يجعل لى منهم فرجا ، وان يريحنى منهم عاجلا .. فوالله لولا طمعى عند لقاء عدوى في الشهادة ، وتوطينى نفسى على ذلك لأحببت الا ابقى مع هؤلاء يوما واحدا .. » .

لكن لا غناء في حسرة ، ولا جدوى في جزع ، ولا دافع لبلاء حل فدهم ، ونزل فقصم .. فمصر ذهبت الى غير عود ، واجتزت من دولته كما تبتر الساق التى لا قدرة بغيرها لصاحبها على الاستباق !.. اقتطعت مصر وانها ــ بقوله ــ اعظم من الشام ، وخير اهلا ، بقاؤها في يديه وايدى شيعته عز لهم ، وكبت لعدوهم .. واحتجب ابناؤها عن طاعته وتثبيت أمره وإنهم لدعامة قوته ، واحسن اجناده .. واسدل الستار بها على محنة محمد بن ابى بكر فإذا هى محنة مصر ، ومحنة الأمة الاسلامية ، ومحنة القيم الانسانية .. واذا هى فصل من فصول الرواية ، يستشرف الخاتمة ويؤذن ببداية النهاية !..

٣

وهذه هي الفاجعة ..

بلا رفيق مضى محمد على وجهه ، يهيم في الفضاء الرحب الممتد حياله الى مدى الرؤية مطموس الخطوط مبهم المعالم تذوب حدوده في محيط الافق الأشهب المطبق عليه .. بلا رفيق من صاحب يؤنس وحشة ، ولا من قلب يستشعر ثقة ، ولا من ذهن يتطلع لغاية ..

كان جزءا من الفراغ الذى سرح فيه . ومن الصمت الذى علق بالجو كقطرات بخار . ومن الركود الرهيب الذى سيطر على المكان .. وما عسى يبقى من امرىء سلب الهدف والوعى والرجاء ؟..

خيال حياة !.. هيئة ذات ابعاد واعماق ، بسطح ، ومظهر ، وحجم ، وباطن اجوف ملؤه خواء !. هيكل بشر : بالشكل ، بالسمت ، بالقوام ، بالاهاب ، بالثياب !.. كأنه ظل . كأنه عود غاب !..

وعلى مدارج الرمل انسابت قدماه تطويان مسافات ليس يدرى أهى مفضية به الى شرق ام غرب ، امام أم وراء ، مكمن هلكة أم مورد نجاة .. وفوق طين الحقول ترنحتا بخطا ذاهل ، مشلول الوعى معطل الارادة .. فلو انه عندئذ ادرك لعرف انهما تكادان تلتويان تحت ثقله وتتقصفان !. ولو انهما أيضا ادركتا لثبتتا به ــ من اعياء ــ لا تبرحان!. لكنه مضى بهما يقطع مراحل الوقت والمكان بحركة آلية قسرته عليها قوة دافعة مجهولة لعلها غريزة حب البقاء !..

غير ان الجهد الذى اضناه ، بعد طول السرى والسير ، عطل الآلة !.. فالتعب استنزف القدرة . والرمل برى القدم . والطين اثقل الخطا ، ولفح الهواء الساخن في قيظ الصيف المصرى لف جوارح البدن كلها بالخمول ..

وزحف على لهثاته إلى موئل ظليل !..

عند منأى بعيد عن الطريق المطروق ، على حافة الخلاء ، تبين

طللا يتداعى ، ما زالت به بقية من « روح » تمسك بعض جدره البالية ـ كالثوب الخلق ـ أن تنهـار .. الى هـذا الحطام رنت مواجعـه ، واضطربت تحته رجلاه وهما تخطان في الأرض إذ يجرهما معه كما تجر غرارتي رمل ينوء بثقلهما العزم وينقصم الظهر وتنبهر الأنفاس .. وتحت اثر من سقف لا يكاد يستر عن العين طلعة السماء ، أوى بالمكان إلى ظل ارقط نقطت صفحته الداكنة بقع بيضاء من نور تسللت من ثقوب السطح الأخرم .. وعندما وسعه أن يفترش الظل ، ويلتحف بعض الشعاع المنحدر ، عزف بسمعه عن أنين عظامه وراح في سبات .

في هذه الخربة التى انتهى اليها شروده ، انطوى محمد بن أبى بكر على محنته ، ونامت عيناه ، لا يجاوره في ملاذه الموحش ـ مع الفراغ ـ إلا قدر يقظان !.. فما خايلته في الوحدة رؤى نعاس ، ولا أحلام تطلع ، ولا ذكريات غابر .. وانى له ووعيه المحطم المنهوك قد فقد القدرة على الحركة ليخرج من نطاق عالم الخمود الذى عاش ـ بل دفن ! ـ تلك الآونة فيه ؟.. وإذا كانت الراحة عندئذ قد قربت رويدا رديدا إلى أوصاله ، وأخذ بدنه المتهالك يمتص منها على مهل كما يمتص الجذر الظامىء قطرات الماء من بين الصخر ، فانها الراحة التى يغلب المرء عليها وتسير في جسده بالخدر سير طليعة تفسح الطريق فيه للهمود الأخير !..

فكم بقى محمـد من ساعات بموئله المهجور ؟.. وكم لان تحته الحصا والتراب ؟.. وكم نعمت بمرقدها الخشن عظامه ، ورقأت بعض دمع الأنين ؟..

فترة من عمره لعلها برهة ، ولعلها سـويعات ، ولعلها فوق هـذا أو دونه وإن كانت لا تحسب بمقياس الزمن لأنها لم تكن في مجـال الشـعور !.. لكنها ترجمت لبقاء موقوت ، وارتبطت بموئل ـ قصر او طال مكثه فيه ـ ليس بالخافي البعيد عن «الجار» اليقظ ، ذى العين الساهرة ابدا التى لا تغفل ، واليد الطولى التى لا تحد ذرعها اميال !.. وكيف لا وهذا قدره معه ، قد استدرجه الى مستقره ثم تركه يأمن ما شاء وانه ليتربص به لحظة الأجل المحتوم !..

ولم تتلكأ عليه النهاية .. فالطريدة أثخنها الاعياء . وكلاب الصيد ذات أعين يواقظ ، وآذان لاقطة ، وانوف مرهفة ، ترى بهـا الذر

والهباء في فحمة الليل ، وتسمع دبيب النملة في هدير العاصفة ، وتشم الريح على مدى المراحل ..

ما كان بعسير على العدوان أن يطلق نقمته وراء الفتى ، تتابع خبره، وترصد اتجاهه ، وتشم حركاته .. وللعرب عامة قدرة على اقتفاء الاثر ، ليس يعييها أن تقرأ ما خطته مواقع قدميه أينما سار ، على الرمل وفي الطين ، لتعلم أين افضى به الفرار ..

لكأن بعض ريح الجنوب قد أسفت غبارها فطمست المواقع .. او كأن جيرة الطلل كانت من مدر ليس يحفظ الاثر .. فالمكان أخرس، وحجارة الخربة المتناثرة فوقه صماء . والأرض حولها بلا وشم ولا علامة ، كصحيفة في يد امي لا يعرف كيف يمسك بقلم !.. والكلاب المسعورة التى تزاحمت على الأديم الأجرد ، تلف وتدور في ضياع وحيرة ، كأن كل واحد منها كان يحاول أن يلحق بذيله !..

لكن كبير الكلاب لم ترده هذه الصورة من الخواء عن السعى الدائب لإشباع نقمته .. بإصرار عنيد راح معاوية بن حديج ، زعيم خارجة مصر ، وصاحب فتنتها ، يتابع أثر الطريد . على مدى المسافات تابعه ، ومد البصر ، وشطحة الظنون !.. واينما وسعه أن يحرك قدميه ، أو يوجه رجاله ، او يتخيل مكانا يؤمه شريد مذعور ، راح يستقرىء السمات ، ويفتش الحصا والصخر ، وينشر الأرض ويطويها وهو يكاد ينفضها نفضا كأنها بساط !.. وعندما خذله جهده ، وقصر خياله عن تلمس الملاذ المجهول ، اخذ يستشفه في إخلاد كل من لقى من عابرى الطريق ..

ما ترك معاوية عندئذ احدا عرض له في طوافه الا سأله ، ثم استفسره ، ثم ألح عليه بالسؤال والاستفسار وهو يجمع الكلمة الى الكلمة ، ويزن الرد بالرد ، ويصفي القول بمصفاة الشواهد والاحتمالات لعل خيطا من ضوء ، ولو كبصيص جمرة ، يقوده إلى ما يريد ..

ولم يمل التجوال ، ولا اسامته الخيبة . بل قد كان عناده يتجدد كلما باء من بحثه بفشل يبعد محمدا الى حين عن براثنه وانيابه ، كانما الفشل المتوالى كان وقودا لنقمته يؤرث نارها الحاقدة ويزيدها التهابا وفورة . وهل لباله ان يهدأ ، ولعينه ان تطبق جفنيها على طمانينة

وغريمه ما برح حر الحركة مطلق السراح ان اختفى اليوم فانه في غد خليق بأنْ يظهر في صفوف جديدة من اعوانه تتناثر في جوانب الاقليم وتكون مراكز مقاومة تتصدى للجيش الغازى ، وتترصد له بمراصد الهلاك ؟..

وآن أخيرا لبذرة الحقد أن تثمر ، فاذا ابن حديج يبلغ من الخلاء ناحيــة على صفحتها آثار أقــدام ما زالت ندية لم يطمســها الزمن ولا سفت عليها الريح .. عندئذ عاوده أمله ، والحت عليه أحقاده ، فاقتفى الأثر على بحر من عرقه ولهثات أنفاسه المشتعلة حتى افضى به السير الى جماعة من علوج الروم تخلد الى الراحة بأعلى الطريق . فما أسرع ما التقط الخيط ! وما أسرع ما كان بينهم ، يرميهم بعين صقر ، ويتفحصهم بنظراته !.. فلما تبين ان ابن أبى بكر ليس فيهم ، راح يحاورهم ، ويتقصى الأمر .

وسألهم بعد طول استقصاء :

« ارايتموه ؟ .. » .

قالوا :

« لا » .

قال :

« هل مر بكم احد تنكرونه ؟.. » .

قالوا :

« لا » .

واوشك أن يرد طرفه عنهم ، وهو حسير ، ويعود أدراجه ، لولا أن الكلمة التى تحسر المد ، وتنحرف بالتيار ، وتغير المصــير قفزت فجأة على شفتى علج منهم ، ينفثها عفوا وهو لا يكاد يدرك لماذا يقولها ، وما أثرها في عقبى الأمور ..

قال العلج ، بلا مبالاة :

« انى دخلت هناك ، فاذا رجل جالس .. » .

واشار الى الخربة ..

عندئذ انتفض قلب ابن حديج ، وبرقت عيناه ، ثم طارت به قدماه الى الطلل البالى وما انتهى العلج من عبارته .. وان هى الا نظرة مخالسة ، رمى بها من بين احجار الخربة ، حتى هتف بأصحابه بهمسة طروب :

« هو !.. هو ورب الكعبة !.. » .

فانطلقت كلاب الصيد تركض إلى المأوى المهجور .. إلى الطريدة المهيضة التى برتها الشقة ، وحطمها الإعياء .

وانصبوا ، فاذا هم كالجرف يدفعه السيل فيملأ الفجاج حوله ويغطى وجه الأرض بما يحمل من حطام .. من كل جانب تزاحموا على النائم الذى خدره تعبه ، فما أفسحوا له في ثغرة يلتقط منها أنفاسه ..

ولم يكونوا بحاجة إلى الحذر منه ، ولا إلى الأطباق عليه هذا الإطباق الذى يكاد يعصره ، وهو لا يملك يدا للمقاومة ، ولا قدما للحركة ، ولا نهمة ترد عنه عادية خطر ، أو تبلغ به نطاق طمأنينة .. لكن الليث هو الليث . والكلاب حرية بأن تخشاه وهو متوثب في غابه ، أو هامد في اهابه !..

٤

ليس بالكلمة وحدها يمكن أن ترسم قصة الأسير .. ليس بالجرى ، ايضا ، وراء قدرة التخيل . فالواقع ، فيكثير من الأحايين • أبلغ إفصاحا عن نفسه وادق من عبارة تنقله إلى ذهن السامع وكل قصاراها أن تكون ظلا لأصل ، وصدى لهدير !..

فوق طاقة البشر ذلك الهول الذى عاشه ابن ابى بكر منذ وقعوا عليه في الخربة المهجورة . وفوق قمة الشر ذلك العنف الذى عاناه .. من مهاده الخشن اقتلعوه فما كانوا ، اذ فعلوا ، ارفق به منك على نبتة انتزعتها ، في لحظة عبث ، من تربتها وليس يعنيك ، أو يضيرك ، أتخرج سليمة أم يتمزق منها الجذر وينقصف العود .. وفي سربهم الصاخب قادوه على الطريق لا يهمهم أن يسوقوه امامهم راجلا يعالج تحريك قدميه او يجروه زاحفا على الشوك والحصا والتراب ..

بشراسة الفهد ، وخسة الثعلب ، وقسوة الزبانية تعاوروه .. كانوا عصابة من الحقد والمقت والضغينة . خلقا في هيئة بشر وما هم ببشر . أجسادا معتمة ، كآلات بلا قلوب !..

ولم يحفل بهم . ولا ألقى بالا الى ما يجترحون .. ولم احتفاله وفي دخيلته جانب مشرق ما زال يمده بشعاع هاد هو ايمانه بأنهم لا يملكون له إلا قدرا قدره الله ؟.. وكيف يكترث ووعيه الناضب الذى استنزفه الاعياء لم يعد يتأثر بشيء يصيبه ، وبدنه المنهوك قد ارتوى من التعب ومن الآلام الى ما فوق حق التشبع ؟..

وكانت مراحل السير عديدة ، طويلة عليهم دُونه . مضنية لهم لا له . فطول المسافة ، وتعاقب الوقت ، كلاهما ينبع من الاحساس بالزمان والمكان ، ولهما أبعاد لا يحددها إلا وعى المرء ، لا عدد الأميال او كر الساعات !..

على الأرض الصلبة ، التى شققها قيظ الصيف ، سار الفتى في موكب العذاب .. الى الفسطاط سار . الشمس فوقه لهب . الهواء

نار . الانفاس تحترق . الفضاء بخار وغبار .. وعندما شارف نهاية المطاف ، كان قطعة من الضنى والتهافت ، ومن الجفاف والنضوب ، كجمرة اكلت نفسها حتى بردت ، وغدت كومة هشة من رماد . او كغصن اجتز من شجرته ، وترك في ملافح الحر ومهاب الريح فتبخر ماؤه ، ويبس ، وتحول الى هشيم ..

ووقفت الحاضرة المصرية ، على قدم ، تستقبل الأسير .. تتطلع إلى الافق على تحرق ، وتصغى إلى الصدى والنأمة ، فتسمع خطاه في كل صوت يند ، وترى طلعته في كل غبرة تثور .. ثم تتعجل لقاءه ، فتستبق الوقت إلى موعده على جناح الحدس والتوقع لا على ظهور الرواحل وخطوات الاقدام . فالخبر عنه كان طليعة موكبه المرتقب ، بلغها وانه لبعيد محجوب عن الأعين وراء المراحل ، مستور دونها بالأميال ، لأن للخبر دائما قدرة اى قدرة على التنقل واجتياز المسافات — سباحة في الزمن — بسرعة البرق في الأفق وهدرة الرعد في الأثير !..

غير ان هذا التعجل الذى كابدته الفسطاط ، ذلك اليوم الصائف الملتهب من صفر ، كان ينبعث من عاطفتين متعارضتين ، كلتاهما على نقيض .. في جانب كانت اللهفة ، وفي الآخر كانت الشماتة .. فالذين يكنون للفتى المنكوب نفحة ود او اثر ولاء تقطعت نفوسهم عليه حسرات ، وماتوا موتة بعد موتة بعدد اللحظات التى عاشوها وهم في انتظار ظهوره وفي خشية من الردى ان يسبق إليه نظراتهم المبعثرة في الأفق ترقبا للموكب الحزين .. والذين يتنفسون الحقد والضغينة راحوا يسوطون الوقت مستحثينه ان يطلع عليهم بالأسير المقهور ليملأوا عيونهم بمحنته ، ويثلجوا صدورهم بمصيره .. وفيما بين اولئك وهؤلاء استوت مدينة الفسطاط نفسا بشرية بشطرى الخير والشر في طبيعة الإنسان ا نزعا إلى الشفافية والسمو ، ونزغا إلى الظلام والهبوط !..

اذ ذاك قست قلوب وذابت قلوب . تسعرت اعين وغامت اعين . تلمظت شفاه شماتة ونقمة واختلجت شفاه تفجعا ومرحمة .. على ان مظهر الشر كان اغلب واظهر . بل كانت السيادة له في الحشد المنتظر وقد وضع كل مشفق راحم وكل راث حزين على وجوههم اقنعة من

الجمود والتنكر لمشـــاعرهم اتقاء غضـــبة الوحش المتحفز في دخيلة الآخرين !..

لكن فتى من الراحمين آده هـــذا التظاهر ، فلم يملك نفســـه أن يتململ من قلق ، ويضطرب من خشـــية ، ويتذاءب على قدميه يمنة ويسرة لا تستقران تحته كأنما يقف على جمر احمر !.. وكان كالثمل او كالمحموم . في مقلتيه لهب الحميا أو الحمى ، ونظراته تزيغ في الفضاء ، والأرض تدور به وتميد ..

ذاك عبد الرحمن !.. وهي بدنا ونفسا حتى لأوشك أن يتهاوى كحطام . خذله أخيرا رياؤه وخانه تصبره . فما كانت له ـ قبل ـ مسكة من صبر تعينه على ما هو فيه وان حرص طويلا على أن يبدى الجلد والثبات .. وما عاد ـ بعد ـ يتشبث بأمل موهوم ينسـجه خياله ، هو أوهى من خيط عنكبوت ، وارق من شعرة حملت صخرة !. وهل غيره في القوم ، خيرهم وشرهم على السواء ، من كان لا يستشف من خلل الساعات القلائل المقبلة ، ذلك المصير القاتم المحتوم ، الذى ينتظر ـ لا محالة ـ أخاه الأسير ؟..

فلعله عندئذ قد أدمى شـــفته وهو يعض عليها ، ليكظم غيظه ، ويداجى حسرته ، ويخفى بعض ما يعانى أن تشى به ملامحه المهزوزة .. إنه لينقم الآن على صحبه ، وعلى نفسه ، وعلى هذه الدنيا التى استهواه منها العرض والزخرف ، وراودته عن دينه ، فمال إلى صفها عن صف أخيه ، ينصرها ولا ينصره ، ويخطبها ويتنكر له ، ويســـير في ركابها ويدع محمدا في موكب العذاب .. فلو أنه أصغى للحق لما تابع معاوية وحزبه ، ولكان الآن يستدبر جحيم الهوى ويستقبل جنة الضمير .. ولو أنه اطلع على الغد ، لسمع على لسان أموى خالص ، بأى عصبة ظالمة لحق ، واى عاهل جائر ظاهر ونصر .. لكن زينة الدنيا اعمته ، ورنين ذهبها أصم أذنيه ، وكثافة طبيعته طمست قلبه فلم يستطع ـ وهو بين ظهرانى الحزب الباغى ـ ان يفطن لغيهم ، فيبرأ منهم كما برأ معاوية بن يزيد من اثمهم بعد سنين وسنين ..

وهذه هى براءة الخليفة الشاب ..

من فوق منبر دمشـــق ، راح يكشف للملأ ســوأة أهله .. كان

عندئذ فتى في ضحوة العمر التي يطيب فيها الانس إلى الدنيا ، متعة وسطوة . وكانت امرة الدولة قد افضت اليه بعد أبيه . لكن ضميره ابى عليه أن ينعم بالملك فيلبس ثوبا ليس له ، ويسير سيرة ابيه وجده اللذين ابتزا الحكم من كان له ــ دونهما ــ الحق فيه .. فاذا هو يفاجيء أمته وذويه ، معلنا على الاشهاد :

« أيها الناس ..

الا إن جدى معاوية نازع الأمر اهله ومن هو احق به منه لقرابته من رسول الله وسابقته في الاسلام ، وهو على بن ابى طالب .. ولقد ركب بكم ما تعلمون ، حتى أتته منيته ، فصار في قبره ، رهين اعماله.. ثم تقلد ابى يزيد الأمر من بعده ، فكان « خير ! » .. اهل له .. ركب هواه ، وأخلفه الأمل ، وقصر به الأجل . ثم صار في قبره ، رهين ذنبه ، واسير اثمه .. وان من اعظم الأمور علينا علمنا بسوء منقلبه .. »

واستطرد الفتى الذى استنارت بصيرته ، وعجزت الدنيا أن تخدعه وتأخذ منه :

« أيها الناس ..

ما انا بالمتقلد امركم ، ولا بالمحتمل تبعاتكم ، فاختاروا لانفسكم .. والله لئن كانت الدنيا خيرا ، فلقد نلنا منها حظا . ولئن كانت شرا ، فكفى ذرية ابن أبى سفيان ما اصابوا .. » .

لكن عبد الرحمن بن ابى بكر لم يكن في صفاء معاوية بن يزيد ، ولو كانت له نفس زاجرة .. وان يكن شيء قد حرك الآن قلبه فهو موقفه بين جماعة غرقت في حماة الكراهية ، واخذت تتلمظ كالوحش لتنهش لحم اخيه .. فما كان اغيظ له من هذا الموقف الذى غرسه فيه القدر كما تغرس الزرعة في ارض محل ، فلا بتربتها ماء ولا بسمائها غيمة .. وما كان اقسى عليه من لحظة لن تلبث ان تقبل فيرى ابن ابيه لقى مضيعا على الثرى ، أمام بصره ، وليس بمقدوره إلا أن يحضر ، مع الحشد الشامت ، مصرعه بعين جامدة ، ولسان أخرس ، ويد شلاء !...

ولم يعد يطيق الانتظار .. بل انتفض يبارح الجمع ، وينطلق

كزوبعة مجنونة !.. ليس عن يقظة روح ، ولا استنارة بصيرة كان سعيه . ليس في نصرة الحق ومحق الباطل كان انطلاقه .. لكنه انعطاف الأخوة ، ونداء الدم ما وجه قدميه الى ابن العاص يستنجد به ويستعينه أن ينقذ الأسير المقهور من براثن جلاده .. فللقربى ، حينا ، قوة غامرة على تنقية النفس البشرية من الشر قدرتها ، أحيانا ، على تجريدها من الخير !..

وخاطب قائده الظافر بصوت محموم :

« ابعث الى معاوية بن حديج فانهه !.. » .

فأظهر له عمرو جانبه اللين ، لعله أن يهدأ بعض هدوء ..

لكن روعه لم يسكن .. وصاح :

« لا والله ، لا يقتل أخي صبرا... » .

واستبدت به ثورة عاطفته .

حينئذ ارسل ابن العاص رسولا الى معاوية بن حديج ، يقول له :

« ائتني بمحمد .. » .

غير أن الجلاد كان أنأى سمعا عن الاصغاء لهذا الأمر الذي انبعث ، لا ريب ، عن مروءة عارضة ان لم يكن عن مراءاة ، قبل أن ينبعث عن اقتناع بضراعة الضارع أو ايمان بحق الأسير .. فما ان سمع الرجل قول الرسول حتى عقد جبينه ، وضيق عينيه ، وابرز نابيه ، ثم أفاض من حقده على ملامحه كانما كانت لذلك الأمر سن حديدة وخزت قلبه فأسالت من الكراهية بعض ما فيه !..

وبكل مرارة الشماتة ، وبكل حرارة البغضاء ، اجاب بلهجة كضربة السيف :

« لا والله !.. اقتلتم كنانة بن بشر ، ابن عمي ، واخلي عن محمد ؟.. هيهات هيهات !.. » .

ثم تلا ، وهو يسخر :

« اكفاركم خير من اولئكم ، أم لكم براءة في الزبر !.. »

وانثنى يتفرغ لأسيره ..

٥

ما الذى بقي من محمد ؟..

سوى قوة ايمانه لم تكن فيه عزمة تقيمه بينهم مشدود القوام كالرمح ، شامخ الراس كالجبل ، متدفق اليقظة كشماع النور .. طوال الطريق إلى الفسطاط ، في لفح القيظ وعلى جمر الرمل ، لم تلن لهم قناته .. لم يخفض انفه .. لم يغض من طرفه الى مواطئه ، لم يذل لجلاديه بكلمة ولا ايماءة . انما ظل على ترفعه وكبريائه ، متساميا على الضعف والتعب والآلام ..

وتداكت المدينة ، من بعد ، عليه بكل صخبها وشغبها ، وما استبطنت او اظهرت من امتهان وشماتة . فما اكترث . ولا استقبل هديرها الوحشي باهتمام .. إن يكن ألقى أذنه مليا إلى الضجيج ، ورمى عينه ، فلا من رهبة فعل ، بل من تطلع تلقائي صادر عن طبيعة المهمة الوظيفية لكلا حاستي السمع والبصر فيه !.. فالجموع الحاشدة حياله لم تزد في خلده ، عن مجرد صورة مسطحة بغير عمق ولا بروز . وهرج الأصوات المنبعث عن الحركة او الصياح ، لم يكن غير صدى طرقات على طبل أجوف ..

حتى حين وقعت عيناه على ابن العاص بين الحشد المتربص ، لم يحس في قلبه حسرة ، ولا بحلقه غصة . فما قصارى الرجل ؟.. وما قصارى حشوده وجنوده ؟.. وما قصارى البشر كلهم ان يفعلوا به إلا ما قدر له ؟.. إن نفسه لمطمئنة إلى قضاء الله ..

ولم يكن ، بعد رحلته الشاقة ، يكاد يشعر بجوع . فبطنه قد التصق بظهره ولم يعد بجوفه فراغ لطعام !.. وشهوة الأكل تفتر مع طول الطوى كما تخمد النار اذا غاب عنها الوقود !.. لكن الجسد الذى اضواه الاعياء ، واعتصره الحر ، كان يهفو – كالغصن الذابل – الى ما يرطب جفافه ، ويبل صداه ..

وتلفت ولسانه قد التصق بحلقه ، يسأل من حوله بصوت خشن متعثر ، كأنما كلماته تضطرب في شقوق حلقه الجاف :

« اسقونى .. »

وحسب نداءه قد تاه في صخب ضجيجهم حينما لم يستجب له مجيب .. فعاد يقول :

« .. قطرة ماء .. »

فكم في القوم عطفتهم الرحمة ، ورقت نفوسهم لرغبة الفتى الذى احرقه الظمأ ، وأوشك الصدى أن يستنزف ما بقى فيه من حياة ؟.. ان تكن كثرة ، او قلة ، في الحشد الزاخر تحركت قلوبهم في جنوبهم حنانا ، فان واحدا منهم لم يجسر على التلبية وان أرهف السمع للاصغاء ..

وعلى الاثر وثبت ضراوة الوحش من صدر ابن حديج وثبة زلزلت كيانه ، وسعرت ناظريه ، وبعثته يفح كالأفعوان :

« قطرة ماء ؟.. لا سقانى الله ان سقيتك قطرة ابدا !.. »

فمن اية شرعة استقى هذا الحكم الهمجى المتنكر لكافة القيم الانسانية ومبادىء الاخلاق ؟.. امن شرعة الحرب ، والحرب لا تستبيح دما إلا في ظلال الأسنة ، واوان التراشق بالهلاك ، ثم تحقنه ، حين تسكن رحى القتال ، على الأعزل والمغلوب والأسير ؟.. أم من شرعة القصاص ، وانها لعين بعين ، وسن بسن ، وقتيل بقتيل ؟.. أم من شرعة الوحش في غابه وهى عندئذ تنازع على البقاء يمارسه احتفاظا بحياته لا رغبة رعناء في تبديد حياة كل ما عداه ؟..

لكنه اسلوب معاوية بن حديج في القضاء !..

وتلبث الرجل المدل ببأسه على من لا يملك دفع الضر عن نفسه بالبنان دع السنان !.. فلما ان لقف بعض لهثات حقده التى شاطت على نارها شفتاه ، حاول ان يبرر مسلكه ، فأردف ، وهو مزهو ، مصعرا خده يقول في شماتة :

« .. انكم منعتم عثمان ان يشرب الماء حتى قتلتموه صائما محرما ،

فسقاه الله من الرحيق المختوم .... والله لأقتلنك يا ابن أبى بكر وأنت ظمآن ، ويسقيك الله من الحميم والغسلين !.. »

فلم يهز وعيده شيئا من شجاعة محمد ، ولا شاب ايمانه بشائبة شك ، بل زاده ثباتا دفع الكلمات تتدفق كالحمم من فيه :

« يا ابن اليهودية النساجة !.. ليس ذلك اليوم اليك ، ولا الى عثمان . انما ذلك الى الله يسقى أولياءه ، ويظمىء اعداءه وهم انت وقرناؤك ومن تولاك وتوليته .. والله لو كان سيفى في يدى ما بلغتم منى ما بلغتم .. »

فحمى غضب الجلاد ، وصاح :

« أو تدرى ما أصنع بك ؟.. »

فتساءل الأسير دون اكتراث :

« وما تصنع ؟.. »

فكأنما اثاره هدوء غريمه ، فقال واسنانه تصرف من غيظ :

« ادخلك جوف هذا الحمار الميت ثم احرقه عليك بالنار !.. » .

واشار الى جيفة ملقاة ، اعدها لغرضه الخبيث .

فما زاد وعيده الفتى الا سكينة رسمت بسمة رقيقة على شفتيه ونورت محياه ..

وقال محمد وثقته في ربه تتدفق من فيه :

« ان فعلتم ذاك بى فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله .. »

ثم اجتاح بنظراته الثابتة المطمئنة جمعهم الحاشد ومن ضم من رءوس واذناب ، ومضى بلهجة المؤمن يكمل الحديث :

« ... وايم الله انى لأرجو أن يجعل الله هذه النار التى تخوفنى بها بردا وسلاما كما جعلها الله على ابراهيم خليله . وان يجعلها عليك ، وعلى اوليائك ، كما جعلها على نمرود واوليائه ... وانى لأرجو ان يحرقك الله وامامك معاوية ، وهذا .. » — ورمى بعين الى ابن العاص — « .. بنار تلظى ، كلما خبت زادها الله عليكم سعيرا .. »

وكادت هذه العبارات النابعة من ذوب قلب عارف بحقه ، مؤمن بقضاء الله ، تتجسد كيانا مخلقا له شواظ ودخان وحسيس ، يحيط بمعاوية ابن حديج ويملك عليه الفضاء حتى لأحس لسعا للنار يحرق انفاسه ، ويهرأ جلده ، ويشوى عظامه !.. فاذا هو يرتج من رهبة ، ويتداعى من خوف ، ثم لا يجد لنفسه سبيلا الا ان يبرر فعلته ، ويقدم بين يديها العذر الذى يسندها لعله يشفع له فيخفف عنه او ينجيه !..

قال وصوته يشى باضطرابه :

« انى .. لا اقتلك ظلما .. انما .. أقتلك بعثمان ... »

فلم يمهله محمد حتى بادره :

« وما انت وعثمان ؟.. »

وتريث هنيهة ، فلما لم يسعف معاوية لسانه ، استطرد يقول :

« ... رجل عمل بالجور ، وبدل حكم الله والقرآن ، وقد قال الله عز وجل : « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » ــ « فأولئك هم الظالمون » ــ « فأولئك هم الفاسقون » ... فنقمنا عليه اشياء عملها ، فأردنا أن يخلع من الخلافة علنا ، فلم يفعل ، فقتله من قتله من الناس ... »

ولا مجادلة هنا لما أحدث عثمان أو قارف ، أيوفي به فعله على ما يحل دمه ويستبيحه ، أم هو الحدث الذى تختلف فيه الآراء وتتفرق المذاهب بين طرفي العقوبة من تقرير يتسع للعفو الى تحريم يوجب القصاص ؟.. ولكنه ، على اى حال قد أحدث ، وركبه الناس في حدثه بعنف غالوا فيه حتى اغتالوه . ونهز بنو امية الفرصة ، سعيا وراء السلطان ، فألزموا عليا دمه ، تارة بحجة انه مالا ، وأخرى بحجة انه امر ، وإنهم لعلى بينة من امره ، يعلمون انه على كلا الحالين برىء .. فاذا لم تكن الحقيقة أسفرت عن وجهها لهم وهم في مستهل افترائهم عليه ، فانه بادر قطالعهم بما يفند ادعاءهم ، ويدحض تهمتهم ، بالحجة البالغة التى يعلمون صدقها ثم لا يمترى فيها إلا ممار مغلف القلب والجنان ...

في ذلك المقام قال الامام :

« .. او لم ينه بنى امية علمها بى عن قرفي ؟.. او ما وزع الجهال سابقتى عن تهمتى ، ولما وعظهم الله ابلغ من لسانى ؟.. »

بلى لقد علموا . رأوا الحق وتعاموا عنه . وحسب عليا نافيا لتهمتهم ان فضله معلوم لهم ، يرتفع به عن كل دنية ، وسابقته تطهره وتنأى به عن كل معصية . ولقد بين الله لهم في كتابه فقال عنه وعن زوجته وبنيه :

« انما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا .. »

وقال الرسول الكريم له :

« أنت منى بمنزلة هارون من موسى .. »

فاذا لم يكن في منزلته العالية في الدين التى لم يبلغها غيره من المسلمين ما يكف السنتهم عن رميه بهذه التهمة الفاحشة ، واذا لم يكن في شهادة الله وشهادة رسوله ما يعصمه عن مقارفة ما طعنوا به عليه ، فأى المنازل اذن واى الشهادات تزكيه ؟..

كيفما تعنت القوم واستطابوا البغى ، فقد بدا ابن حديج كأن قد جبهته عبارة الأسير ، واشعرته الهوان وذهنه عندئذ يسبح في عالم رحب من ذكريات الدعوة الاسلامية ليس من بينها الا ما يسمو بشأن على وينزل بشأن مناوئيه .. لكأن قدره انكفات ، وكأن كفته شالت ، وكأن محمدا ، وهو متهم ، قد غدا قاضيا يحاكم قاضيه !..

إن سطعة الحق التى انبعثت عندئذ من عبارة ابن ابى بكر ، تومض كالبرق من ثنايا الغمام ، قد خالجت بصيرة معاوية بما جعلها تطرف كعين النائم حين يفتحها بعد ظلمة الوسن فيفجاها النور . وبادرت قلبه الأصم بهدرة الرعد التى تصاحبها ،فهزته وزلزلته بين جنبيه .. لكنها ومضة موقوتة ، ورجفة الى اجل معلوم ليس عمره في حساب الزمن الا مقدار ما تمكث لمعة البرق في جانب الأفق المعتم او تعيش الرعشة على هدب محموم !.. فالعيون العمياء قد تحس الضياء ولكنها لا تراه ثم لا تتاثر به ولا توليه حقه من التقدير . والقلوب

الغلف تعلم بالرحمة ولكنها لا تمارس الرحمة . ومعاوية بن حديج ، كأيما رجل غيره في الجمع الزاخر المحتشد على ضغينة وموجدة ، قد كمه قلبا ، وعمى بصيرة ، واختنق في دخيلته صوت الضمير ..

ما من امرىء في الجمع ، تلك اللحظة ، إلا كان يعرف الحق ثم يباعد ما بينه وبين نفسه لكى لا يجمعهما طريق . ما من امرىء الا آثر المكابرة والالتواء لأنه كالخفاش لا يستطيع ان يعيش في النور .. حتى عبد الرحمن الذى عطفته رحمه حينا على محمد ، وقف في القوم كالمسحور ، لا يعرف كيف يحرك بنانا لحماية اخيه ، وقد استغرقه حرصه على دنياه ، أو جمدته ، في القليل — صعقه ذهول ! وحتى ابن العاص ، الذى تبدى منذ أيام قبيل الموقعة ، مترفقا بالفتى يضن بحياته ، ومنذ ساعات حريصا على تجنيبه بطش معاوية ، لاح كأن قد اخذته سورة حقده ، فاستمرأ الفاجعة ، وراح يتابع آخر حلقة فيها بلذة المستمتع المشغوف !..

وكذلك بدأ المشهد الأخير ...

بعناء المكابر ، وعتو الطاغية ، مشى ابن حديج على مدرجة ضغينته إلى ابن ابى بكر .. خطواته بطيئة ككابوس . عينه باردة كعين ثعبان . هيئته كئيبة كالموت ... وقبل أن ترتد عنه نظرة ، وتتبدد في الهواء زفرة ، سقط اسيره الأعزل على الثرى في كفن من دم !..

٦

قضى الحقد من ابن ابى بكر وطره ..

قتله معاوية بن حديج . ذبحه كما تذبح سائمة ، وانه حينذاك لوحيد بلا صاحب ، اعزل بلا سلاح ، معدم لا يملك فدية تشترى نفسه أن تسيل دما مسفوحا على ثرى الفسطاط ..

جهرة كان مصرعه . على ملأ ذبحه الطاغية غير متأثم ، وما من القوم من رفع بنانا يزجر ، أو حرك لسانا ينكر .. انما استقبلوا الحدث البشع على هدوء وسكينة ان لم يكن على رضى واقرار .. وكم منهم من طرب قلبه !.. وكم منهم من سالت الشماتة على شدقيه !.. بل لعل جمعا كبيرا منهم قد اختلط هتاف نشوته بقصفة السيف وهو يهوى فيفصل الرأس عن عنقه ..

ولم يدر احد اين توارت شيم المروءة والنجدة وغوث الملهوف التى لا زالت دائما طبيعة الإنسان العربى وكانت بضعة من سجاياه . لا شيء منها بدا او ظهر . لا هيئة ولا اثر . لكأنما انسى القوم نحلتهم وانسلخوا انسلاخا من خلائقهم الكريمة في نزوة عاصفة من نزوات الهمجية التى لا تجرد المرء من جنسه فحسب وانما تجرده ايضا من انسانيته ..

واردف معاوية بن حديج ضغن القتلة بضغن المثلة . فما سقط صريعه ينتفض بدنه ببعض رجفة الحياة فيه ، حتى اشار الى زبانيته فاحتملوا الجسد والرأس جميعا والدم يلطخ ايديهم فوضعوهما في الدابة النافقة ، يخلطونهما بأحشائها ، ثم يغلقون عليهما بطنها المبتور .

واشعلوا الحطب . وعلقوا محمدا مغلفا بجثة الحمار يشوونه واياها في اللهب المتأجج ، وهم يقلبونه على ألسنة النار وجمرها المتقد كما تقلب الذبيحة على السفود استعدادا لوليمة !..

ما كان افظعها مثلة !.. وما كان أعتاها قسوة تلك الأنفس التي وقفت تشهد هذا الحفل الذي يكرمون به الشيطان !..

فلمن الغلبة ؟.. لمن عقبى الأمر اليوم ؟.. لمن الخاتمة التي انطوى بها سجل الفتى وراحت بعدها حياته سيرة على شفة راوية وبين اسطر كتاب ؟.. لا لله ، ولا للحق ، ولا للمبادىء الرفيعة والمثل العليا وقيم الفضيلة التي شرعها الدين .. بل الوحشية القابعة في جوف الانسان هي التي نهشت الجسد الممزق وراحت تلتهم لحمه وعظمه .. بل بغضاؤهم الصديانة هي التي ارتوت من دمه ..

عندئذ جف من قلوبهم نبع انسانية البشر ، وتمزقت شريعة الله ثم احترقت وتناثرت رمادا ، كبدن الأسير ، تحت الأقدام . وانتصرت الجاهلية العمياء وعزت كعهدها قبل الاسلام ..

مع الريح ذهب هدى القرآن . امحت تعاليمه . انطمست معالم تلك الأمثال التي ضربها محمد رسول الله للناس تساميا بغرائزهم الفجة ، وتكريما وتحقيقا لانسانيتهم ، وتنزيها لهم عن الانحدار في حمأة الحيوانية .. ولو أن بتلك الطغمة المتجبرة الضالة من له قلب يعي وذهن يذكر ، لكره القتلة والمثلة جميعا ثم اباهما على اصحابه المقترفين وردهم عنهما ردا جميلا او غير جميل ، وله في الرسول الكريم الأسوة ، وفي القرآن المنهاج ..

لو استرجع القوم امسهم الداني ، وعادوا الى الوراء صفحة من تاريخ الهدى النبوي ، لراوا رسول الله على ارض أحد يتلمس ، بعد المعركة ، عمه حمزة في القتلى . فاذا عثر به ، ووجده مبقور البطن قد اقتلعت كبده من صدره والقيت ممزقة على الثرى ، اخذه من الحزن ما يطير بالجنان ثقال وهو محنق يناجيه ويعده الانتقام :

« لن اصاب بمثلك ابدا .. ما وقفت موقفا قط هو اغيظ الي من هذا .. ولئن أظفرني الله بقريش لأمثلن بثلاثين منهم .. » .

لكنه لا يلبث ان يهدأ ويصبر ، امتثالا لأمر ربه :

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ... ... »

ثم ينهى المسلمين عن المثلة :

« اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور .. »

ولو استرجع القوم ايضا امسهم الداني ، وعادوا صفحة اخرى إلى الوراء في تاريخهم ، لذكروا ان أصحاب محمد الذين خلفوه في امته ، قد ساروا على سنته ، احتذاء بهديه ، ورعاية لكرامة الانسانية وإن في شخص عدو مشاق لدود يتشبث بكفره ، ويذودهم بالسلاح أن ينشروا دعوة الله .. وها هم أولاء لا ريب قد أدركوا ابا بكر الصديق ابا القتيل ، وسمعوه يقول لأسامة وجيشه وهو يتقدمهم الى الشام :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا .. »

ولقد كان أحرى امرىء فيهم بأن يلتزم هذه الجادة عمرو بن العاص صاحب أمرهم وقائدهم اذ اجتاز تجربة خالف فيها الخلق الاسلامى وغدا بها محور لوم الخليفة الأول وتثريبه ..

كان اذ ذاك على راس القوات العربية المغيرة لفتح فلسطين والاسلام عندئذ في مطلع فجره ، فلما اظفره الله النصر ، واستخفته الفرحة ، شاء أن يدل بالظفر الذى حازه عسى ان يرتفع درجة في عينى الخليفة ، فبعث اليه بالمدينة بشرى نصره ، راس بنان بطريق الروم ، أعدى اعداء المسلمين ، واشد قومه عليهم في ساحة القتال ..

ولم ترض الفعلة أبا بكر ، بل روعته واسخطته على عمرو . وكانما شاء بعض من حضر الموقف ان يهون الأمر عليه ، ويبرر مسلك القائد الظافر فقال له :

« لكنهم يصنعون ذلك بنا ، يا خليفة رسول الله .. »

فلم يزده هذا العذر الا ثورة .. وزجر محدثه في انكار :

« اتستنون بفارس والروم !.. »

ثم القى بامره :

« .. الا لا يحمل الى راس . انما يكفى الكتاب والخبر .. »
هذا هو راى الاسلام ، وجادة سلوكه مع المسلم وغير المسلم على

السواء اذ هم جميعا ، في حساب خالقهم ، وبمعيار قيم الأخلاق ، بشر كرمهم الله ، وفضلهم على كافة خلقه ..

غير أن الطغمة الجائرة المتجبرة جنحت الى جاهليتها الأولى تحيي شرعتها البالية . وتقتدى القدوة التي لا يطيب لها أن تقتدى بسواها ، متنكرة لقيم الانسانية ، ومخالفة قواعد الدين .. وهل كان أدنى الى نفوسها المدخولة ، واقرب الى قلوبها الغلف الصماء التى لم يمس منها الاسلام غير قشرتها ، من تلك القدوة الأموية التى رسمتها هند ابنة عتبة ، أم عاهلهم معاوية ، وانحدرت مع دمها في عروقهم بطنا في عقب بطن ، وجيلا في اثر جيل ؟..

وما لها لا تكون قدوتهم وها هم أولاء يبارونها في الضراوة ؟.. لكأنهم آثروا إحياء سنتها ، إمعانا في الحقد واتباعا لنهمه ، فاستحضروها في أخيلتهم وهى تدور كالضبع على ارض معركة أحد تعبث بالقتلى ، فتلعق الدماء وتنهش الأشلاء !.. لكأنما طاب لهم أن يروها بعين التصور — وقد اغرت بحمزة من قتله — أن تأخذ جثته وتبقر بطنه وتقتلع كبده ثم تلوكها في فيها كلبؤة لتأكل منها ما لعلها تسيغ !.. لكأنما استهواهم أن راحت ، وصواحبها القرشيات ، يجدعن أنوف شهداء المسلمين ويقطعن آذانهم ، ليتخذنها لهن حلية : عقودا وقلائد تزين الأجياد والصدور الملساء !.. لكأنما شاءوا لأنفسهم أن يغدوا حلقة في سلسلة المثلة التى تصل بين بنت عتبة وبين حفيدها يزيد ابن معاوية إذ اندفع زبانيته يتلعبون بجثة الحسين سبط الرسول ، وقد اصيبت بسبعين طعنة ، فيدوسها عشرة من فرسانهم بخيلهم مرارا مرارا ، ذهابا وجيئة ، حتى دقوا عظمها وهرسوا لحمها وسووها بالأرض ، فلما أعياهم التركاض احتزوا راسها وحملوه لسيدهم ينكت في ثغره بقضيب معه ، تشفيا وشماتة ، محطما ثناياه ...

تلك طائفة من الناس كان التعذيب — فيما يلوح — لديها ملهاة ، وكانت المثلة تسلية !..

لو كان بهذه الفئة فضلة من طباع السباع — دون البشر — لعافت ما فعلت بابن ابى بكر بعد مصرعه ، ولانفض سامرها الخبيث ذلك اليوم بشهود راسه وهو يسقط على شفرة سيف ابن حديج ما دام حقدها حملها على قتله .. فالوحش قد يصرع فريسته دفعا لأذاها

عن نفسه ، وقد يلتهم لحمها سدا لجوعته وحفظا لحياته ، ولكنه يدعها ولا يتلعب بعد هذا بجيفتها ما دام قد قضى منها وطره ..

افكانوا اذن قوما ـ كما تضمنت سيرتهم ـ شغفوا بالشر وكلفوا به يجترحونه لذاته ، ويقترفونه للذاته ؟.. بارئهم اعلم بهم ، وبما اكنت قلوبهم وركب في طبائعهم .. ولكنهم دائما مضوا على هذا السنن لا يخرجون عنه . فاذا أعوزهم من عدوهم ما يبيح ـ في شرعتهم ـ تعذيبه وقتله والتمثيل بجثته ، لجأوا الى ركوبه بهجر القول ومقذع السباب إدلالا عليه بسطوتهم وإذلالا له . وحين خلا لهم الميدان من بعد ، واستطاعوا ان يخفتوا صوت الحق ويرزأوا اهله مجردينهم من كل سلاح حتى سلاح الكلمة ، غلوا في الفجور الى غايته ، وراحوا يفظعون في تحطيم اقدار خصمهم وتشويه سيرتهم على الأشهاد وهم آمنون منهم ان يدفعوا الافتراء عن انفسهم ، ويكيلوا الكيل لهم بمثله .. حالهم كحال المبارز الذى ينازل خصمه بعد ان يشد وثاقه !..

عواهل أمية وعمالهم أسرفوا في هذه النزعة ما شاءوا وشاءت الضغينة ، ينالون بأذاهم عليا ومن تبعه ، اهله وصحبه ، موتى واحياء .. ولقد اخذ معاوية يسبه ويغرى به رجاله يلعنونه على المنابر .. ولقد قيل انه لم يقلع من هذا الفحش بعد موت الامام ، بل امعن فيه .. فما ان افضى اليه الأمر ، عام الجماعة ، حتى كتب ـ وعهد الصلح بينه وبين الحسن بن على لما يجف مداده ـ يأمر عماله :

« برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبى تراب وأهل بيته .. »

ثم تعقبه وخلفاؤه ، في نسله وفي شيعته ، يطاردونهم وينكلون بهم في الذات وفي المال ، لا يجيزون لأحدهم شهادة ولا يؤدون له عطاءه .. وكم اهلكوا من حرث وأحرقوا من دور !.. وكم عذبوا سملا للأعين وقطعا للأيدى والأرجل ! وكم قتلوا وصلبوا على جذوع النخل وحملوا رءوسا على الحراب !.. لقد كانوا يأخذون الناس بالظنة ، وبالقربى وبالصلات الفكرية ويجتاحونهم بالحملات الارهابية حتى ان الرجل منهم ليقال عنه : زنديق او كافر أسلم له وابقى عليه من ان يقال من شيعة الامام !..

ومع ذلك فلم يعدم الزمن أن يطلع لهم من يثبت لبغيهم وهو مجرد من كل سلاح الا كلمة حق تنبعث من ايمانه وتلصق بشفتيه فاذا هو لا يكتمها بل يلفظها في وجوههم وان كان فيها حينه !.. من هذه الشاكلة التى التزمت الهدى واستمسكت بقداسة الراى : قيس بن مهر الصيداوى ، رسول الحسين الى ابن عمه مسلم بن عقيل بالكوفة .. دخل البلدة ومعه رسالة تعلن لمسلم مقدم ابن عمه بعد اذ دعاه أهلها وبايعوا له ، فاذا هو يقع في يدى عبيد الله بن زياد عامل بنى أمية عليها بعد أن خانت الكوفة عهدها ، ونكثت كلمتها ، وصبأت ثانية الى طاعة يزيد ...

وجيء بقيس أسيرا فلاينه عبيد الله مليا ، كأنما سيفسح له في عفوه ، حتى إذا حسب انه اطمأن ، قال يغريه بلعن الحسين وابيه على الأشهاد :

« اصعد القصر فسب الكذاب ابن الكذاب .. »

فأظهر الرجل الانصياع ، واعتلى الدار يشرف من فوقها على أهل الكوفة ، فلما اجتمع ملؤهم ، خطبهم يقول :

« أيها الناس .. هذا الحسين بن على خير خلق الله ، وابن فاطمة بنت رسول الله ، قادم عليكم .. وانا رسوله اليكم .. فأجيبوه .. »

ثم تمهل قليلا وصاح :

« اللهم العن عبيد الله بن زياد واباه .. اللهم العن .. »

ولم يكفه عن ترديد لعناته الا أن أمر ابن زياد رجاله فالقوا به من فوق القصر ..

وحتى النساء اقتحمن هذا المجال المحفوف بالمكاره ، غير هائبات غشما ولا خائفات لسطوة وانهن لفى احلك الظروف واشدها عليهن وجبروت القوم عندئذ على ارفع ذراه .. وهل ثمة احلك من يوم مقتل سيد الشهداء وآل بيته وصحبه ؟..

كان ذلك وقد حملت الرءوس بعد المذبحة الى يزيد ، واحاط به ذووه واشراف أهل الشام ، فدعا بمن سلم حيا من أهل الحسين ، صبية ونساء فأدخلوا عليه ..

وكانما عطفت الرحم يحيى بن الحكم ، اخا مروان عليهم وقد غاب عنهم سيد بيتهم بأجله ، وخلفوا وراءهم رجالهم جثثا على ارض الوقعة تصهرها الشمس وتسفى عليها الريح ، فقال وهو يرثى لحالهم ، ويذكر قرابتهم :

« لهام بجنب الطف ادنى قـــرابة
من ابن زياد العبد ذى النسب الدغل

سميـــة امسى نسلهـــا عـــدد الحصى
وليس لآل المصطفى اليوم من نسـل »

فعاجله يزيد بضرب في صدره ، ليكفه عن رقته :

« اسكت !.. »

وجلس الصبية والنســاء ينتظرن ما يكون من العاهل . فاذا رجل من رجاله قد اخذت عينه فاطمة ابنة الحسين ، اذ رآها وضيئة ريانة ، يقبل على يزيد يحدثه :

« يا امير المؤمنين .. هب لى هذه .. »

وارتاعت الصغيرة . وملكها خوف غامر دفعها أن تلتصق بزينب ، وتستتر بها عن هذا الشامى الاحمق ، تلتمس عندها الحماية ..

وعلى الاثر انبرت زينب للرجل تزجره ، وتضعه حيث يجب ان يكون :

« كذبت والله ولؤمت !.. ما ذلك لك ولا له !.. »

واشارت الى يزيد ..

فأغضبت العاهل الأموى جراتهــا التى لعله رآها تنتقص من سلطانه ، وتخفض مقداره في أعين بطانته ، وصاح بها مدلا بجبروته :

« بل كذبت أنت !.. والله ان ذلك لى ، ولو شئت ان افعله لفعلت .. »

كأنما آل الرسول قد غدوا ملك يمينه ، يبيع منهم من شاء ، ويهب من شاء لمن شاء !..

لكن ادعاءه لم يرهبها ، واجابت :

« كلا والله !.. ما جعل الله ذلك لك الا ان تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا .. »

فاستطار غيظا ، والحت عليه المكابرة فعصف يقول :

« أاياى تستقبلين بهذا ؟.. إنما خرج من الدين أبوك وأخوك ..

قالت وراسها رافع وانفها اشم ، ترد عليه الرد الذى لا رد غيره يقمؤه ويخزيه :

« بدين الله .. دين جدى وابى واخى ، اهتديت انت وابوك وجدك .. » .

فلما ابى إلا اللجاج وقال :

« كذبت يا عدوة الله .. » .

اجابته في هدوء :

« انت أمير مسلط ، تشتم ظالما ، وتقهر بسلطانك !.. » .

وكان قولها فصل الخطابّ ..

.. لا مراء اذن في جنوح اولئكم القوم الى الغشم ، ما انفسح لهم ميدانه ، وتوافرت لديهم وسائله ، يقارفونه بالفعل والقول : مثلة وقتلة وتعذيبا ، أو لعنا وشتما وافتراء على الخصم وهم آمنون منه أن يرد فعلهم وقولهم عليهم ، لأنهم يملكون دونه سطوة البطش وصولة الارهاب ..

وكذلك فعلوا ، يومهم هذا ، بابن أبى بكر ..

عذبوه ، ثم قتلوه ، ثم احرقوه وهو لا يملك دفعا عن نفسه الا بالكلمة .. لهوا به ما شاءوا ، ليطعموا الحقد ويرووا الشماتة .. صبأوا إلى شرعة جاهليتهم العمياء فثاروا ومثلوا . وهم بين الثأر وبين المثلة يجدون المتعة التى اياها يحرمهم القصاص العادل ، او الصفح الكريم ..

وتصاعد حولهم في الجو دخان لحمه المحترق وان انوفهم لتكاد تنتهيه . وان لعابهم ليوشك معه أن يسيل كحال الجائع المتضور يلتذ بريح الشواء قبل التهامه !.. أم لا فكم منهم من تقزز وقرف والنار تتلهب وتشوى أمامه جثة آدمية يفوح منها ما يملأ خياشيمه ؟.. كم منهم من غثت نفسه فجهد ليبعد عن الوليمة الكريهة ؟.. كم منهم، في اقل القليل، من حاول، ولو باللسان، أن يدعوهم الى سلوك مسلك غراب ابنى نوح ليواروا سواة القتيل وهو — ما بلغت العداوة — أخ لهم في الانسانية ؟..

وبلغ هذا البلاء عائشة فأذهلها النبأ، وجمد الدمع في مآقيها ان تذرفه، وحبس الحزن في صدرها أن تنفثه حتى آدها الكظم فتسخبت دما وهي تلجأ إلى الله بمسجدها، تبثه شكواها في وجوم، سليبة اللب مثقلة القلب معقودة اللسان .. وعندما وسعها من بعد أن تثوب، حرمت على نفسها الشواء لا تذوقه ما عاشت .. وكيف تسيغه وهو لحم كلحم، ورائحة كرائحة، يستحضران أمامها جثة اخيها وهى تشوى على النار ؟..

وظلت السيدة حياتها مكروبة، تجتر أساها على محمد، ولا تتوقف عن هذا الاجترار كأنما لتعيش مع الاخ الحبيب في حزنها عليه !.. ولم يكن في طوقها ان تأخذ له من جلاديه فقد وكلتهم الى الله . ولكنها اخذت نفسها بما في قصاراها فاستراحت الى الدعوة عليهم، كلما عثرت هتفت في لهفة وألم من قرار فؤادها المحطم المصدوع :

« تعس ابن أبى سفيان !. تعس ابن العاص !. تعس ابن حديج!.» .

وصدق رسول الله .

فلقد اوشك من قبل أن يلهم نبأ هذه المحنة الذى ختمت حياة محمد بن ابى بكر وانه عندئذ حمل مستور في بطن امه لم يكشف الغيب عنه .. ومن غير رسول الله اولى بأن يفتح له ربه، حين تشاء قدرته سبحانه، أبواب غيبه، ليطلع من خصاصها على بعض ما فيه ؟.

ذاك ما تجلى له في رؤيا أسماء، ذات ليلة في مستهل الدعوة، وقد خرج ابو بكر في غزاة .. فقد رأت السيدة زوجها الغائب، في المنام،

مخضوب الراس واللحية بالحناء ، وعليه ثياب بيض . فأقبلت تقص رؤياها على عائشة ، وتلتمس من لدنها التأويل .

وريعت عائشة لما سمعت ، وجزعت على ابيها .. ولكنها صارحت السيدة :

« ان صدقت رؤياك فقد قتل ابو بكر .. ان خضابه الدم ، وان ثيابه اكفانه » ..

وند دمع اسماء ، وعلا صوتها تبكى زوجها ، حتى سمعها رسول الله ..

فسأل :

« ما ابكاها ؟ .. »

قيل له :

« ما ابكاها احد ، ولكنها ذكرت رؤيا لابى بكر » .

وقصوا عليه الحلم وتأويله :

عندئذ قال :

« ليس كما عبرت عائشة . ولكن يرجع ابو بكر صالحا ، فيلقى اسماء ، فتحمل منه بغلام ، فتسميه محمدا يجعله الله غيظا على الكافرين والمنافقين » .

وسلم الصديق . وانجب غلاما كان من صفته ما ذكره الرسول ، وعبر عنه على من بعد بقوله : « يبغض شكل الفاجر » .. وكان من قدره انه هو الذى خضبت راسه ولحيته بالحناء !.

الفصل الثاني

١

تطير معاوية وهو يصغي لبعض خاصته حين حملوا اليه راى الفلك في بعثته التى شاء أشخاصها الى العراق . فالطالع نحس . والنجوم تحذره ان يوفدها في هذا الموعد . والخطر الذى يستشفه من مخالفة مشورة منجميه لا تجمل معه مجازفة .

وعلى الأثر كتب الى ابن الحضرمى يأمره :

« لا تبرح .. حتى يأتيك امرى . » .

وكذلك توقفت الى حين بعثة الارهاب والتخذيل التى اعدها لاغتصاب البصرة . الى غير هذه الساعة من يومه ارجأ سيرها واجله .. الى ساعة يمن تقبل فيقرن بها السير .. وماله لا يفعل حتى تأذن الأنجم .. ويقطع القمر في رحلة فلكه شوطا ينقله من برج نحسه إلى برج سعد يحسن برجاله الانطلاق في ابانه نحو غرضه بين يدى البركة واليمن الى الظفر ؟..

ان الجاهل ليتطير . وانه ليسترشد بأجرام السماء والكواكب استرشاد مستقرىء للغيب لا مهتد بها في بر أو بحر ،كأنما فياستطاعتها الكشف له عن نفع يقتنصه أو شر يجتنبه .. ولو انه علم لأدرك ان ايمانه هذا بما يظنها تومىء اليه وتنبئه به هو أدنى الى الوثوق بقدرتها على تشكيل مصاير الخلق وتلوينها فهو ادعى الى الحمل على محمل الشرك بالله ..

فلعله لا يعلم . او لعله يعلم ولم ينتفع بما يعلم .. ومنذ قريب اجتاز الامام نفس تجربته فأبى على الكواكب قدرتها ، ونها اصحابه عن الاصغاء لما يظنون أنها تشير به ، لأن استنباء الأنجم عقبى الأحداث ومصاير الناس ضرب من الكهانة ، من صدق به فقد كذب بالقرآن ..

على ان معاوية ، فيما بدا ، آثر الرضوخ للخرافة ، او لهذا الانحراف عن جادة الإيمان الخالص بربه ، فانس إلى مشورة منجميه .

وبقى من بعد اياما عدة يرقب صاحب بعثته حتى لقد حسب الرجل أنه عدل عن رأيه . ثم مكث يصابر الوقت ، ويهدىء ــ ما وسعه ــ من فورة رغبته الجامحة في العصف بالمصر من داخله ، بلوغا الى تمزيق وحدة أهله وانتقاضهم على عدوه .

وراح يشغل الوقت عندئذ بتدبر خطته ويحاول تجسيدها بدءا ونتيجة ــ في خياله ، ويسطر العوامل التى دفعته الى رسمها ، والأسباب التى علقت بها أمله ..

ولم يملك عندئذ الا الاقرار بالفضل لعباس بن الضحاك العبدى صنيعته بالبصرة . فهو موحي فكرة هذه البعثة اليه ، وغارس بذرتها في روعه . وهو عين له بالبلدة وعون ، خرج من اجل نصرته على اجماع قومه . وهو ، بعد هذا وقبله ، واضع الخطة ، ومبين دواعيها ، والمشير عليه بما يجمل اتباعه ..

فلقد كتب له ذلك الصنيعة ، غب غزو ارض النيل ، ودخولها في حوزة الشام ، يقول :

« ... بلغنا وقعتك بأهل مصر ، الذين بغوا على امامهم ، وقتلوا خليفتهم .. فقرت بذلك العيون .. وبردت افئدة أقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوه مفارقين ، ولكم موالين ، وبك راضين .. ان ابن عباس غائب عن المصر . فان رأيت أن تبعث الينا اميرا طيبا ذكيا ذا عفاف ودين ، للطلب بدم عثمان ، فعلت . فإني لا اخال الناس إلا مجمعين عليك ... »

واعجبت الخطة معاوية ، فأجاب :

« ... قبلت مشورتك ، رحمك الله وسددك .. فاثبت ، هداك الله ، على رأيك الرشيد . فكأنك بالرجل الذى سألت قد أتاك . وكأنك بالجيش قد أطل عليك .. »

وكانت الخطة يسيرة على التنفيذ ، خليقة بالنجاح .

فالفراغ الذى تركه رحيل عبد الله بن عباس ، عامل البصرة ، عنها إلى الكوفة ، ليواسى ابن عمه في فجيعته بمحمد بن أبى بكر ، وليهون عليه بعض ما لقى من محنة مصر ....

والمرارة التى ما زالت بقية منها ، لا يغفل قدرها ، عالقة بحلوق كثرة من البصريين منذ وقعة الجمل ، التى كسرت قواتهم ، وخضدت شوكتهم ، وجرحت كبرياءهم ، وقهرتهم على الخضوع للامام كارهين . . . .

ودعوة الثأر المكتومة في صدور عديدة للدماء والدموع التى فجرتها تلك الوقعة في كل اسرة ، وبجستها من كل عين . . . .

وشراذم العثمانية اللائذة بالمصر ، والعائذة باظهار الطاعة لعلى رياء ومداجاة حتى تلوح في الأفق فرصة للقود لعثمان من العهد الذى ألصقوا به ــ ظالمين أو مخدوعين ــ جريرة قتله . . . .

والتناحر القبلي ــ تيها بالبأس ، ومفاخرة بالأصل ــ بين العشائر المقيمة بالبصرة والضاربة على تخومها وفي ربوعها ، كالأزد ومضر وربيعة ، وما كان دائما يثيره هذا الاحساس الفج في نفوس رجالها من تنافس جموح قد يبلغ بهم ذروة التباغض ، ومن تنافر في المجتمع البصرى يكاد يشق وحدته ويضعه على حافة هاوية الانقسام . . . .

كل هذه عوامل لم تكن بخافية وان توارت ــ بعد الجمل ــ خلف حجاب غير كثيف من الهدوء قرابة عامين ، لا اقرارا بالهدوء ولا ايمانا بجدواه وانما لانصراف الأذهان حينذاك الى ما كان يدور بالدولة من أحداث عامة خطيرة ، متابعة لها ، وانشغالا بها عما عداها من ظروف خاصة ومن دواع محلية محصورة في نطاق الاقليم .

ولقد كان معاوية ، بطبيعة الحال ، خليقا بأن يعلم الكثير عن ذلك التمزق الذى ينخر في جسد البصرة ، وان يدرك انه « جند » له لا يلبث ، حين تأزف الآزفة ، أن يدعم قواته أو يكون طليعتها الى فتح البصرة وانتزاعها من يد الامام . ولعل يومه هذا لم يكن أول ما خايلته فيه الفكرة . غير ان الهيبة التى القاها علىّ في نفوس أهل البصرة بانتصاره الساحق في « الجمل » على أحزاب معارضيه ، والاستقرار الذى ساد فيها طوال ولاية ابن عباس واجتمع به شمث طوائفها المتناحرة تحت راية الولاء للامام ، والأحداث التى تعاقبت سراعا وشغلت عاهل الشام بنفسه وباقليمه عن كل ما عداه ، كلها لم تدع لمعاوية من قبل سبيلا الى الاقدام على تنفيذ ما عساه خايله واجتياز

تجربة قد لا تؤمن مغبتها وخليق بها ، لو اخفقت ، أن تدفنه تحت انقاض حلمه العريض !.

لكنه اليوم ، إذ جاءته مشورة العبدى ، غيره أمس ، بعد أن حالفه قدره وفتح عليه أرض النيل . فانتصار جيش ابن العاص قد أعز شأنه ، ونفخ في روح انصاره بكل مكان ، والقى هيبته في قلوب المسلمين بأرضه وأرض عدوه على السواء ، وأتاح له تأمين حدود دولته من ناحية فلسطين ، وضمن له ، الى جوار هذا كله ، موارد مصر من المال والرجال التى لا تعدلها موارد غيرها من الولايات .. فإذا هو الآن نازعته نفسه إلى فتح البصرة فإنه نزوع من أمن العاقبة واطمأن للنتيجة وقد غدا صاحب النجم الصاعد واليد العليا في الصراع المرير الناشب بينه وبين غريمه على السلطان .

ولم يخالف معاوية عن طبعه وهو يبنى « الخطة البصرية » على تلك العوامل المواتية التى هيأتها له الظروف ورآها كفيلة بتحقيق غرضه . فما كان ليتنكر لطبيعته الحذرة التى تؤثر الريث وتكاد تقدم الاحجام على الأمر على الاقدام عليه ما وسعه أن يرجىء ويتمهل ما دامت في الأفق بارقة رجاء في مطلع غد أنسب لغرضه وأجدى عليه . وما كان ليركن الى احتمالات تحدثه برجحان كفته ان هى دفعته لركوب مخاطرة قد تباغته فيها احتمالات غيرها معاكسة لم تطف بتقديره . وما كان ليجازف باقتحام خطر – وان كان أوهى من بيت عنكبوت – ليصل من خلاله إلى مغنم دان يراوده ويلمع له ، ضنا بما في يده ان يضيع لو خانه طالعه وأخفق في انقضاضه على ذلك المغنم الذى في يد سواه .

وها هى البصرة الآن .. انها كالثمرة اليانعة ، قد أنضجتها له الظروف فثقل بها غصنها ودنت للقاطف ، مغرية تخلب اللب ، شهية تثير الرغبة ، عاطلة من الشوك ، مستباحة بلا سياج .. ولكنه يكبح نفسه ، ويملك طموحه ان يمد اليها يده جهرة أمام العيون .. وهل كان ليفعل وقد علمته تجربة الأمس القاسية بصفين ان خيره كل خيره هو في السير الى آرابه في دروب خفية تحتية ، وأن دواعى الحال تقتضيه تجنب العلانية والمواجهة والاخذ بأسلوب الالتفاف والالتواء ؟

بل قد تعلم درس صفين ووعاه ، وخلص منه بحقيقة واضحة

لا يشوبها ظل من ريبة تومىء بكل اصابعها الى قصور جهده وعجز قدرته عن الثبات للامام في ميدان قتال .. وليس هو بمن يهدر التجربة .. ولا بمن تستخفه مخايل الظفر الميسور الذى يهيب به الآن — بلسان عوامل التمزق الضاربة في البصرة — أن يبعث الى البلدة بجيش ما أن يقارب مشارفها حتى تهبه الولاء .. ولئن كانت مصر ، منذ قليل ، قد دانت له بقوة الفتح ، فان الظروف غير الظروف ، ومصر غير البصرة ، والشقة من الكوفة الى كل منهما غير الشقة ، لأنها الى الأولى ابعد مدى واعسر مراحل ، والى الثانية ادنى وايسر . ولن يكون مصير البصرة كمصير مصر لانها بموضعها من العراق تكاد تقع على قيد الشبر من على أن لم تكن في قبضة يمينه . وفي نطاق المحال لا ريب أن يفلح جيش أموى ، مهما كانت خفة حركته وسرعة انقضاضه ، أن ينتزعها ويطير بها هدية لصاحب الشام !.

لا قبل اذن لمعاوية ، في ظل ذلك الوضع ، بحرب سافرة في البصرة ما بلغت قوة العوامل المرجحة لانتصاره . فالمرحلة إليها من دمشق طويلة . وجيشه الغازى سينتشر على مسافات ترق بها كثافته وتتبعثر قواته . واللقاء عندئذ وسط أرض غريبة عنه ، يعوزه فيها تأمين خطوطه . وعنصر المباغتة لا سبيل إلى تحقيقه والاعتماد عليه . والمقارنة بعد هذا بين كفاءة القيادة في كلا الجيشين المتناجزين ترجح بلا جدال كفة الامام .

فكانى بالرجل ، وقد استحضر كل هذا في باله ، يعدل عن الحرب المكشوفة الى الحرب المستترة ، وعن الغزو الى التسلل ، وعن اقتحام البصرة عنوة بجيش فاتح الى دخولها خلسة بفريق من اصحابه لهم القدرة على اثارة الخواطر واشاعة القلق ، وضرب اهلها بعضهم ببعض توسيعا لهوة الانقسام بينهم وتوهينا لوحدتهم . فاذا هو استطاع أن يبلغ من هذا وطره ، فقد وقعت الفتنة التى يعز بها حزبه ، وتشتد قوة انصاره ، وتعلو بها هيبته بقدر ما تهبط هيبة غريمه .

وكذلك ابرم معاوية أمره ، وعدّل خطته . فلأن يعصف بالبصرة من داخلها لهو أسلم عقبى من غزوها بجيش مغير . ولأن يقلب الحكم بها على الولى الشرعى لهو ايسر واضمن نتيجة . ولن تكون هى عندئذ

٤

اعصى عليه من مصر التى ما دانت له ـ في حقيقة الحال ـ إلا بانتشار دعوته ، واشـــتداد ساعد جيشـــه « السرى » فيها ، او « طابوره الخامس » بالتعبير الحديث !.

خطة يسيرة ، وجهد ايسر ثم تســقط الثمرة الناضجة تحت قدميه ..

ودبر الرجل كيده ، فأعد بعثة ابن الحضرمى لتتسلل الى البصرة ، لا في بزة قتـــال بل في طيالسـة دعاة يتباكون على الحق ويحشـــون على اتباعه . وكان الحق الذى يراه رحبا فسيحا يتسع لكل خدعة من اخاديعه ودعوى ظالمة لا تقرها حقائق الواقع ولا شرائع الأخلاق . فهو اثارة الأحقاد . وهو صـــدع الوحدة . وهو التنادى بالثــأر . وهو الاتهام الظالم والافتراء ، كلها مغلفة بالانتصاف لعثمان .

ومع ذلك فقد تردد معاوية مليا قبل ان ينفذ البعثة وان كاد يوقن انها تحالف الظفر وتسير في ركابه . فلعلها طيرته قد جعلته عندئذ لا يحسم .. ولعلها ايضا رويته التى تشده دائما إلى التريث . ولعله ، فوق هذه وتلك ، ذلك الاحســاس الثقيل بالفراغ الذى كان يملأ عليه حياته بعد غياب مشيره ومبدع الراى الأثير عنده بعيدا عنه حينئذ على شاطىء النيل .

ونشـط من لحظته الى كتاب دبجه الى رفيق كيده وشريك خدعه وصاحب شوراه عمرو بن العاص :

« ... رايت رايا هممت بامضائه ولم يخذلنى عنه الا استطلاع رايك ، فان توافقنى أحمد الله .. ..

انى نظرت في امر البصرة فوجدت معظم اهلها لنا وليا ، ولعلى وشيعته عدوا وقد اوقع بهم الوقعة التى علمت فأحقاد تلك الدماء في صدورهم لا تبرح .. ..

وقد علمت أن قتلنا ابن ابى بكر ، ووقعتنا بأهل مصر قد اطفات نيران على في الآفاق ، ورفعت رءوس أتباعنا اينما كانوا .. وقد بلغ من كان بالبصرة على راينا من ذلك ما بلغ الناس ، وليس احد اكثر عددا ولا اضر خلافا على على من أولئك .. » .

ومضى في كتابه يوجز امره الذى القاه لابن الحضرمى ، صاحب البعثة الموقدة لاحداث الفتنة بالبصرة :

« ... ينزل في مضر ، ويتودد الازد ، ويحذر ربيعة ، ويبتغى دم ابن عفان ، ويذكرهم وقعة علىّ بهم التى اهلكت صالحى اخوانهم وآبائهم وابنائهم . فقد رجوت عند ذلك ان يفسد على علىّ وشيعته ذلك الفرج من الارض .. .. » .

وختم يتعجل رده :

« .. هذا رايى فما رايك ؟.. لا تحبس رسولى الا قدر مضى الساعة التى ينتظر فيها جواب كتابى .. والسلام » .

٢

المحور الذى كان لا بد ان تدور عليه اية فتنة ينشبها القوم ضد على هو دعوة الثأر لعثمان . فهى باعثة وقعة الجمل . وهى سبب ضياع مصر . وهى الباب الواسع المفتوح على مصراعيه الى قلوب العامة لالهاب مشاعرهم ، وتحريك احقادهم النائمة ، واثارة كوامن اعتزازهم بالمروءة والنجدة والانتصاف للمظلوم . وهى دون هذا وفوقه دعوة اكتست ثوبا براقا يبهر الاعين ويستهوى الأنفس ثم لا يكاد يفتقر — في خواطر الجماهير التى تغرها القشور والمظاهر — من مسحة حق بعد ان ارتفعت بها من قبل اصوات عائشة والزبير وطلحة وفريق غيرهم من القوم من بين الصفوة الذين لهم في الامة مكانة وذكر ، وفي القلوب هيبة واكبار ، وفي الاسلام قدم وسابقة ..

ولقد كان من الطبيعى أن يقر عمرو بن العاص صاحبه على رايه الذى ساقه ويحثه على انفاذه . فمعاوية اليوم ذو نجم بازغ ، وصاحب دنيا مقبلة يفسح فيها لكل طامع تستذله شهوة النفس فلا يانف ان يشترى منها اربه ولو بدينه ، او بالمثل العالية ، او بمكارم الاخلاق . وعمرو اليف نهم بالنفوذ واسباب الجاه لا يكاد يشبع ولا تكف امانيه الكبار عن مخايلته منها بمزيد . واذا كان ماهل الشام قد اطمعه

مصر بملكها الثرى العريض ، فتلك طعمة لا تملأ جوفه ، ورايه المؤيد التبيع خليق بأن يوطد ثقة سيده فيه ، ويدعم رضاءه عنه ، وليس بالمستبعد ان يفيء عليه طعمة جديدة !.

ولا غرابة ، مع ذلك ، إن هو أنس للراى واقره لأن التآمر بعض شيمته ، والكيد لعلى سلكه ومولاه في خيط ، وادعاء الانتصاف لعثمان بالانتقام والثأر مبدأ التزماه ، منذ بدء تحالفهما عقب الجمل ، وسيلة خادعة وناجعة ، لانتزاع السلطان .

وكتب في جوابه :

« .. فهمت رايك الذى رايته .. وان الذى ألقاه في روعك هو الثأر لابن عفان والطالب بدمه .. ولم يك منك ، ولا منا ـ منذ نهضنا في هذه الحروب ـ ولا رأى الناس رأيا اضر على عدوك ولا أسر لوليك من هذا الأمر الذى الهمته .. فامض رايك !.. » .

وآن لجأش معاوية عندئذ ان ينبت ، ولباله أن يهدأ وقد أشاع كتاب عمرو في قلبه الثقة بنفسه ، وهون عليه وطأة احساسه بالفراغ لغياب مشيره .. فكأنما اطمأن الى صواب تدبيره . وكأنما طالعته النجوم أخيرا ببرج سعده وأذنت له أن ينفذ بعثه . فاذا هو يخف من فوره فيدعو اليه عبد الله بن عامر بن الحضرمى الذى لقنه الخطة وأعده لانتزاع البصرة من يد على ويأمره بالسير :

« سر على بركة الله. .. » .

ولم ينس وهو يكرر عليه ثانية خطته تلك التى تقوم على ايقاع الفرقة واثارة الأحقاد ودعوة الثأر أن يقرن ما ذكره بعنصر آخر درج دائما على ان يكون من أسلحته في النزاع ، هو عنصر الاغواء بزخرف المال الذى لا يستطيع أن يقاومه من النفوس الا القليل :

« .. ومن لمن سمع وأطاع دنيا لا تفنى ، وأثرة لا يفقدها حتى يفقدنا او نفقده .. » .

ثم لم يدع وعده هذا الذى يبتعث النهم ويسيل له لعاب الأطماع مجرد كلمة في فم ابن الحضرمى لو شاء بلعها او شاء لفظها ووضعها في الاسماع . وانما سجله عهدا على نفسه في كتاب مختوم يقطعه لكل

الذين يستهويهم نشبه وينحرفون اليــه ، ويثمن به الفتنة في قائمة الأسعار !..

قال في كتابه مع مبعوثه الى أولئك الذين ايقن انهم لا بد ــ من اجــل الدنيا ــ مناصروه ، وخارجون وراء دعوته على النظــام العام والولاء للامام :

« .. وان لكم ان أعطيكم في السنة عطاءين !.. ولا احتمل فضلا من فيئكم عنكم أبدا .. فسارعوا الى ما تدعون اليه .. » ..

وما كانوا بالقليل . ولا كان ينتظر منهم ان يتحرجوا أو يتوانوا عن اتباع دعوته أو دعواه وانهم ليطوون جوانحهم ــ منذ الجمل ــ على غل لعلي مقيم وان تحاملوا طويلا على انفســهم راغمين فأبدوا من نعــومة الطاعة مثل الزهو في جلد الثعبان !..

ومع طول الشقة من دمشق الى البصرة ، فقد استطاع ابن الحضرمي أن يمضي الطريق كله اليها آمنا موفور السلامة . واستطاع أن يتسلل الى المصر وليس من أحد ــ فيمن مر على كثب من ولاياتهم او اجتاز اراضيها ــ من عمال الامام من بدا انه تصدى له او حاول الوقوف في وجهه .. وهذه ظاهرة غالبة ومعجبــة تكاد تومىء الى ان هم كل عامل لم يكن الا منصرفا الى ضبط الأمن بداخل ولايته ما تعرضت لشغب محلي . فأما اذا مرت به ، أو بحدوده ، جماعة مريبة بل خارجة على الامام فذاك ما لا يكاد يعنيه ما دامت تمضي على حــدوده ولا تعرض لأرضه بشيء ..

والامثلة على هذا النوع من التهاون لا تغيب عن متقصيها . وهي توشك أن تنطق بضعف طائفة من العمال عن النهوض بتبعة واجبهم حيال الدولة جمعاء وافتقارهم الى القدرة على الارتفاع الى مستوى المسئولية المسندة اليهم . وتوشك كذلك أن تدلنا على عجزهم عن المبادرة الذاتية لمواجهة امثال هذه المواقف وايثارهم الانتظار حتى يأتيهم الأمر عنها من حاضرة الدولة . ثم يوشك ثالثة ان يبديهم ذوي ادراك يقصر عن تفهم حقيقة السياســة العملية التي شرعهــا الامام واخذ نفســه واصحابه بانتهاجها حيال اعدائه او مخالفيــه لا يفاتحهم بحرب الا اذا هم بداوا العدوان . فاذا فهم بعض أولئك العمال من

هـذا المبدا الا يـسدوا في ارضهم كل منفذ خلالهـا قد يجتازه مبتغى فتنة او غاز عاد الى ولاية اخرى في طاعة الامام فذاك فيه من التنكر للولاء ومن التفريط في الأمانة اكثر مما فيـه من تهاون وان حسنت النيات .

ولم يغب سوء عقبى مثل هذا السلوك عن على فحذر منه ، ولحا عليه أحد عماله فكتب اليه :

« .. قد صرت جسرا لمن اراد الغارة من أعدائك على أوليائك ، غير شديد المنكب ، ولا مهيب الجانب ، ولا ساد ثغرة ، ولا كاسر لعدو شوكة ، ولا مغن عن أهل النصرة ، ولا مجز عن اميره .. .. » .

بلغ ابن الحضرمى أذن البصرة ، متسللا او على عين أولى الأمر فيها فلم يلق من ينهض له ، او يحول بينه وبين دخولها لا بسيف ولا بكلمة. ومضى وجهته ، كمـا أمره عاهله ، فنزل في بنى تميم الذين يؤمن له تأييدهم ، ويؤمن منهم مخالفتهم عليه . وكان أصحابه ، فيما بدا ، قد سعوا بين يديه في جنبات المصر يحدثون عنه ويبثون دعوته ، فاذا جموع العثمانية تنساب اليه من كل ناحية ، الأذناب والرءوس على السواء . واذا هو حين يلتفون به ويستشعر بينهم المنعة وعزة الجوار، لا يجد بنفسه حاجة الى التزام اسلوب الدعاة الذى يبدأ عادة بالهوادة ولين الكلام تدرجا وئيدا الى لب الدعوة وغرضها الخطير . انما يحمله ما شاع حوله من تأييد الى القفز دفعة واحدة الى مطالبتهم ، بغير مواربة ، بالتشرع للعنف والثأر والانتقام :

« أيها الناس .. ان أمامكم ، امام الهدى عثمان بن عفان ، قتله على بن ابى طالب ظلما .. فطلبتم بدمه ، وقاتلتم من قتله ، واصيب منكم الملأ الأخيار .. وقد جاءكم الله بإخوان لكم ، لهم باس يتقى ، وعدد لا يحصى .. فمالئوهم وساعدوهم ، وتذكروا ثأركم لتشفوا صدوركم من عدوكم .. » .

وكان حريا بدعوته ان تلقى في الصدور أصداء مختلفة . بعضها يرحب ، وبعضهـا ينكر ، وبعضها يقف بين هـذه وتلك ــ على تردد أو بينة ــ لا يقطع الى اى الفريقين ينحاز .. فالبصرة كما علمنا ، من قبل الجمل ، جمعت في أهلها الطوائف الثلاث : العثمانية ، وأصحاب

على ، ومن رأوا الحيدة عن كليهما ، لا إيثارا للسلامة بل إيمانا بجدوى حيدتهم على الخير العام وتجنيب الأمة شر الانقسام . وهى اليوم كأمس وان عز نفر حزب وقل نفر آخر . ولكن الذى لا يستطاع اغفاله أن أناسا انضووا في الماضى تحت لواء المناهضة للامام ابوا الآن ان يعيدوا الكرة ويرجعوا كبدئهم . بل استمسكوا بولائهم للدولة ، انتفاعا بعبرة الأحداث ..

وقام منهم من صاح في وجه الداعية :

« قبح الله ما جئتنا به !.. جئتنا بمثل ما جاء به صاحباك طلحة والزبير .. اتيانا وقد بايعنا عليا ، فكلمتنا واحدة .. فدعوانا الى الفرقة حتى ضربنا بعضنا ببعض عدوانا وظلما .. فما سلمنا من عظيم وبال .. » .

فقطع عليه رجل من الحزب الآخر حديثه :

« اسكت فلست بأهل أن تتكلم في أمر العامة .. » .

لكنه تابع قوله :

« .. نحن الآن مجمعون على بيعة هذا العبد الصالح الذى اقال العثرة ، وعفا عن المسيء ، واخذ بيعة غائبنا وشاهدنا .. » .

ثم التفت الى ابن الحضرمى يقول له كالساخر :

« .. افتأمرنا الآن ان نختلع أسيافنا من أغمادها ثم يضرب بعضنا بعضا ليكون معاوية أميرا ، وتكون له وزيرا ، ونعدل بهذا الأمر عن على ؟.. لا والله !.. ليوم من أيام على مع رسول الله خير من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدنيا ما الدنيا باقية !.. » .

واشتبكت الآراء . واستعر الحديث حتى غدا سبابا وملاحاة . وأوشك العنف أن يصرف القوم عن ابن الحضرمى ويغرق دعوته في لجة التهاتر .. عندئذ تصدى لهم ، عبد الرحمن بن عمير ، أحد بنى تميم ، وهو يلوذ فيحديثه بهوادة الدعاة وترفقهم ، لعله يزخرفالقول والموعظة الحسنة يهيىء لدعوة الداعية في نفوسهم ما لم يهيئه خشن الحديث .

قال في هدوء :

« عباد الله ، انا لم ندعكم الى الاختلاف والفرقة ، ولا نريد ان تقتتلوا .. انما ندعوكم ان تجمعوا كلمتكم ، وتؤازروا اخوانكم الذين هم على رايكم .. وتصلحوا ذات بينكم .. فمهلا مهلا رحمكم الله ، واستمعوا لهذا الكتاب ..... »

فألقوا السمع .

ونفض امامهم كتاب معاوية ، ونشر عليهم ما فيه :

« .. ان سفك الدماء بغير حلها .... هلاك موبق وخسران مبين.. وقد رايتم آثار ابن عفان وسيرته ، ومعدلته .... حتى توثب عليه المتوثبون ، وتظاهر الظالمون ، فقتلوه مسلما محرما ظمآن صائما لم يسفك فيهم دما .... وانما ندعوكم ، أيها المسلمون ، الى الطلب بدمه ، وقتال من قتله .... فاذا اجتمعت الكلمة ، اقر الظالمون الذين قتلوا امامهم بغير حق فأخذوا بجرائرهم ....»

دعوة ذكية . لانها مرسلة ، لا تحصر الاتهام في امرىء بعينه ، فليفهمها اذن من شاء وليؤولها كيف شاء !.. وهي بعد دعوة عادلة ، في راى كل مجتمع بشرى ، وفي راى الدين ، لانها تحث على القود والقصاص ، انتصافا من القاتل للمقتول ..

ومع هذا نقد قرنها معاوية بالتلويح لمن سمعها وتابعه عليها بدنياه ، وانه ليعلم ان الدنيا احيانا اقرب الى استهواء الأنفس وأقدر من الدين !.. وها هو الآن — على البعد — قد ضمن من الكثرة المجتمعة حول مبعوثه الانضمام اليه ، ان لم يكن من اجل الشرع ، فاستجابة لما وعدهم في كتابه من مضاعفة العطاء !..

وعقب ابن الحضرمى :

« اجيبونى الى الحق ، وانصرونى .... »

فنهض على الاثر ابن ضحاك العبدى ، صاحب خطة هذا البعث ، المشير به على معاوية ، يبادر بتلبية الدعوة :

« والذى له اسعى ، واياه اخشى ، لننصرنك باسيافنا وأيدينا .. »

فما اكمل عبارته حتى تبعته كثرة من القوم ، لمعظمهم هوى — بلا شك — في نشب صاحب الشام وسخائه المعروض :

« سمعنا واطعنا .. »

وطفا على هزيم هتافهم ، طفو الزبد على الماء ، صوت خافت ، كأنما يعلن على استحياء عن رأى حزب الحياد بلسان الاحنف بن قيس :

« اما انا فلا !.. لا ناقة لى ولا جمل في هذا الأمر .... »

وعندما حسب انصار معاوية ان كلمة حزبهم قد طغت على ماعداها واستقر لهم الامر ، باغتهم المثنى بن مخرمة العبدى بصوته الجهير :

« لا والذى لا اله الا هو !.. »

ثم رمق ابن الحضرمي بعين ملتهبة النظـرة . وقال – توعـدا وتهديدا – وهو يضغط على حروف كلماته ، إبانة عن العزم والاصرار :

« .. لئن لم ترجع الى مكانك الذى اقبلت منه لنجاهدنك !.. اندع ابن عم رسول الله وسيد المسلمين وندخل في طاعة حزب من الاحزاب طاغ ؟.. والله لا يكون ذلك حتي تفلق السيوف السهام !.. »

٣

مع ما أسفر عنه الاتجاه العام من انتصار دعاة الانتقام ، فقد راى ابن الحضرمي ان الحذر اولى به ما دامت ثمة طائفة بالبصرة ، كابن مخرمة ، لم ترهبها كثرة ناصره ، ولم يخدعها التلويح بجاه المال عما استمسكت به واتخذت نفسها بالتزامه وفاء وطاعة ، وان غدت وقودا للنار ..

ولم يكن الرجل قد سعى بعد الى الأزد يعرض نفسه وامره ، متوددا كرأى عاقله ، او متحسسا نبضهم كما ينبغى على مشعل فتنة ان يفعل قبل ان يقدح الزناد !.. تلك خطوة تالية في منهج عمله آن له ان يقطعها بعد ان فرغ من لقائه الميمون المشهود . فماله لا يحث الخطى الى حى اولئك الذين عليه ان يتالفهم ليجمعهم حوله فيامن بانضمامهم اليه . ما قد لا يامن اذا تركهم في صفوف اعدائه ، او على الاقل منحازين عنه ، لا يعادونه ولا ينصرونه ؟..

وكذلك مضى . واقبل على سيدهم بحدثه ، ويحرك في نفسه لواعج المواجد القديمة ، وحصاد « الجمل » الذى كان له فيهم بكل قلب ضغن ، وبكل بيت ضحية :

« يا صبرة .. انت راس قومك ، وعظيم من عظماء العرب ، واحد الطلبة بدم عثمان . راينا رايك ، ورايك راينا ، وبلاء القوم عندك في نفسك وعشيرتك ما قد ذقت ورايت .. فانصرنى وكن من دونى . »

فتفكر صبرة مليا يتدبر ..

انها لدعوة الى الثار سافرة . والى الفتنة . والى الانسلاخ من الطاعة . لها بلا ريب صدى في قلب كل موتور .. ولقد وتره على وتر قومه . ونال منهم يوم الوقعة اذ هم سور حول عائشة حتى شاعت فيهم المقتلة كما لم تشع في غيرهم من الناس .. ومع ذلك فذاك بالأمس ، والأمس ذهب . الدم جف والجراح التامت . والعفو الكريم — مع القدرة — عن ارتدادهم عن بيعة على ، ونكثهم عهده ، قد مسح هونا على قلوبهم وماقيهم .. فهل يا ترى يعود كرة أخرى بقومه الى خلاف جديد ومحنة جديدة ؟..

لكأنى به قد تذاءب هنيهة بين النكوث وبين الثبات . بين الاستجابة لدعوة الثار والاستقامة على واجب الولاء . بين المشاركة في انقسام الأمة وبين الابقاء على وحدتها التى كادت أخيرا تلتئم بعد دم وقعقعة سلاح .. لكأنه كان نهبا بين واجبه وعاطفته . عقله وقلبه ، امته وقبيله ..

تلك اللحظات القلائل التى عاشها الرجل عندئذ كانت — فيما يلوح — دهرا طويلا من الصراع النفسى في دخيلته ، عانى ابانه ما لم يعان من قبل مثله في كل ما قطع من سنى الحياة . فكذلك تختبر الانفس . وكذلك تجرب الضمائر . والهنيهات التى يواجه المرء فيها مفرق الطرق ليحسم الى اين وجهته هى اشق محنة يجتازها واقدرها على تشكيل مصيره وتغيير اتجاه التيار ..

وبدا من صبرة كأنما حزم أمره فطالع ضيفه بوجه باسر لا تكاد بشرته تنم عما وراءه ، ثم عرض عليه ما تمليه شيمة الأريحية العربية التى تأبى أن ترد طالب حاجة ، لائذا بالكنف ، عائذا بالجوار ..

قال في هدوء :

« ان أنت اتيتني فنزلت في داري نصرتك ومنعتك .. »

فكان بهذا العرض ، من دعوة ضيفه ، لا الى الرفض ولا الى القبول ..

لكن هذا الرد منه راق ابن الحضرمي لانه نضح بالرد المأمول ، وأفسح له الأمل في نجاح بعثته . فلم ير خيرا من ان يقول ، كاشفا عن رضاه واعتذاره في آن :

« .. لولا ان امير المؤمنين معاوية أمرني ان انزل في قومه من مضر .... »

فعقب صبرة على الأثر :

« فاتبع ما أمرك به .. »

وخرج وافد عاهل الشام من لدنه مطمئن البال وقد حسب انه كفى بهذا الحديث امر الأزد فاحتواهم بجعبته وضمهم لجمهور انصاره. ولو درى الرجل لسارع الى اقتناص دعوة الجوار التى عرضها صبرة عليه في لحظة اريحية ، ولما غادر الأزد ليلحق بمضر وانه ليعلم أن هذه الأخيرة موالية لمولاه لا يغيرها عليه نزول وافده في غيرها من القبائل . ولكنه آثر التزام امر أميره واحتذاء خطته بالشبر والفتر ، بغير ترخص ولا تبديل ، فخلى جوار الأزد لمن شاء — غيره — أن يلتمس فيه الحماية . وقضى بهذا على نفسه وامره بالوبال ..

والواقع ان طبيعة التقاليد العربية ، في تلك الآونة ، كان لها اكبر اثر في توجيه الأحداث ، وفي تحويلها أحيانا عديدة عن المجرى الذى يظن انه كان لابد لها أن تسير فيه .. وما أكثر ما لهذه التقاليد من اصول وفروع !.. وما ارحب جنبات الميدان الذى تمارس صولتها فيه !.. فهى مرة منافرة ومباراة على التفوق بين خصمين رهانا برهان . وهى مرة ثانية نخوة وتعظهم ينشآن عادة من تملق الغرائز والعواطف الخرقاء فيسدر المرء — حتف عقله — في سلوك لا يلائم مقتضيات الواقع ولا تمليه طبيعة الاوضاع . وهى مرة ثالثة التزام اختيارى بحماية اللاجىء المستجير ، ولو كان عدوا موغلا في العداء ،

ومنعه كما يمنع الطفل والنساء .. وفي كل صورها والوانها نراها تفرض نفسها في المجتمع العربى على الاحداث كقوة محركة ، دافعة او معوقة ، تؤثر أبلغ الاثر في سير التاريخ ..

تقاليد قد تبدو لأول وهلة مجرد ظاهرات اجتماعية لا تزيد على ما عداها واشباهها من مألوف العادات ، ولا يكاد يظن لها ان تنشط الا ببيئتها الطبيعية – في اطار سلوك الأفراد – فاذا هى لا تلبث أن تطغى كالسيل وتستشرى كالنار ، فتقتحم السدود وتخترق الأسوار ، ثم تذهب في تغيير المصاير وتشكيل الغايات الى ابعد النتائج واقصى الآماد ..

ودع الامثلة فهى كثيرة تترى بها الصحف ، وتتواتر الروايات . فما خلت بعد أخيلة العرب من بقية اثر لقصة المنافرة القديمة بين هاشم وأمية التى انشبت بين البيتين تنافسا عنيفا ، قوامه الإدلال بالقدرة ، ما زال يتحدر في عقبيهما حتى تمثل اليوم ، في على ومعاوية ، خلافا دمويا ترامى مجاله على طول أرض الإسلام . وما غابت ايضا عن الاذهان تلك النخوة الجامحة التى ابتعثها غلو عائشة في الثناء على العشائر العربية بالبصرة غلوا تحلهم من الفخر وعلو القدر ما فتنهم عن انفسهم فنقضوا بيعتهم ، ثم فتنهم بالجمل فذادوا عنه ذيادهم عن اقدس المقدسات . وما يمكن الان ان نغفل هذه الأريحية التى استقبل بها صبرة بن شيمان ضيفه وافد معاوية ، وعرض بها عليه حمايته ومنعه لو انه نزل في رحابه وشاء لنفسه أن ينتفع بما تفرضه اصول الجوار ..

المنافرة يشبها هنا معاوية من جديد ، محاولا ان يحتاز البصرة بيمينه وسيلة من وسائل شتى اعدها للسيطرة على الدولة بملكها الواسع العريض . والنخوة يثيرها ابن الحضرمى من خلال التلويح بما كان للأزد ، وغيرهم من اهل الإقليم ، من « امجاد » أبان الجمل ، لا اعترافا بفضلهم بل تذكيرا بصرعاهم يوقظ في نفوسهم ولعها الجاهلى للثأر . ومنعة الجار التى تسربت من بين اصابع مبعوث الشام ، تجد من ينقض عليها كالصقر ، يحوزها ، ويدفع بها الى حلبة الصراع ، لتلعب دورها التقليدى في تغيير سير الاحداث .

كان زياد بن عبيد عند ذاك اميرا للبصرة بالاستخلاف . استخلفه ابن عباس عليها عند مخرجه للكوفة لتعزية الإمام في ابن أبي بكر . وكان ، مذ اقتحم ابن الحضرمى عليه ارضه ، يعيش كالمضيع . يوشك الا يعرف موضعا لقدمه في زحام الحوادث التى تتابعت سراعا ككسف الغيم في يوم عاصف وقد تدافعتها الرياح الهوج ..

في خلال أيام ، وربما ساعات ، بدا للرجل كأنما تشابكت وانتكثت الخيوط . الأمور تضطرب . الصدور تموج . الهدوء يلتحف بالتذمر .. ليكاد يوقن الآن أن الارض غير الأرض ، وان الناس غير الناس . فالبصرة تغيرت عليه . رفاق امسه ذابوا في هرج النقمة . الولى تنكر والعدو تنمر . وهو بين اولئك وهؤلاء في حيرة . إن استطاع أن يفكر فلا يستطيع أن يدبر . وإن وسعه أن يعزم فلا يسعه أن يحسم . فما هو إلا خليفة لابن عباس على المصر ، ليس في نطاق مهمته غير ان يرقب ويتابع ، ثم يبعث بالخبر ويطلب الراى من الأمير ..

وهاله ان تتهاوى هيبة الدولة من حوله كقصر من الرمال .. فقد علا شأن ابن الحضرمى واستفحل . واكبته العشائر . ترامت اليه الجموع . كثر تبعه وعز ناصره . اما شيعة على الذين كانت لهم من قبل الكلمة فقد غدوا على تخاذل . واما من عسى كان يرتجى منهم العون سواهم من قادة الراى في الإقليم ، فقد وقفوا موقفا غريبا ليس اشبه بهم وليس انسب له . انأى عنهم ، وابعد عن ظنه !..

واحس أن ظله يتقلص . ما تحت يده من رقعة عمله اصبح الآن محصورا في دار الإمارة ، لا يمتد إلى ما يجاوز الجدران !.. وهو بعد لا يدرى إلى متى يبقى له هذا الظل وما من رجل في اصحاب على يتقدم إليه بشيء من راى او من قوة يشد ازره ويسند ظهره ..

ولم يكن زياد بالذى يتطير . ولا بالكلف بالانحياز للريبة . ولكن سلوك ذوى ثقته لم يكشف له إلا عن الجوانب السوداء في الأمور .

وكفاه ان دعا إليه بعض سادتهم يعرض الموقف عليهم ، مستطلعا الراى ، وطالبا العون على كبح الفتنة المقبلة ، فلم يحظ منهم إلا بما يزيد قلقه ..

اوما لهم إلى دعوة ابن الحضرمي ، وانفجارها المدوى بين الناس :

« .. إنكم انصار امير المؤمنين وثقته . وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم .. فأجيروني حتى يأتيني أمر امير المؤمنين ورايه .. »

فأما احدهم فإنه موه ، فطالعه برد ظاهره استشارة قومه ، وباطنه تراخ وتخاذل .. إذ قال :

« هذا امر فيه نظر .. ارجع إلى من ورائي ، وانظر واستشير .. »

واما الآخر فقد أطلقها عبارة في كلماتها معنى الإقدام ، وفي جرسها فتور التردد :

« .. نحن فاعلون ، ولن نخذلك .. ولن نسلمك .. »

ولم يسترح زياد لما سمع . بل لعله ارتاح إذ عرف به خافية انفسهم فايس منهم وقد ايقن انهم لابد قاعدون عنه او خاذلوه .. فمعرفة الشر المنتظر خير من توقع خير موهوم . واليأس راحة على اية حال !..

عندئذ نفض منهم يده . فلا حيلة له فيهم . ولا طاقة بحملهم — حتف رغباتهم — على ما يشاء .

وقلب عينيه في اقوام اقليمه لعله يقع بينهم على نصير ، فإذا البصر يعود حسيرا إليه كأنما قد جال في فضاء رحب به ظلام فوقه ظلام !.. أو كأنما ارتاد غرفة مغلقة بغير كوى دارت بها النظرات حائرة تتخبط من جدار لجدار !.. فمضر عليه . وتميم ترامت إلى عدوه . والأزد لا أمل فيهم وموقعة الجمل ما زالت تفصل بينهم وبين علي بن أبي طالب بسور ضخم من جماجم صرعاهم التي لا تني تتنادى بالانتقام !..

وتذاكر الأمير الموقف وهو متقل القلب والفكر ، مع رفيقه ابي الأسود الدؤلي ، لينفض بعض ما يضيق به صدره ، وإن علم ان الامر قد اعضل وغدا عصيا على المذاكرة والنقاش :

« أما ترى ؟.. صغى اهل البصرة إلى معاوية . وما في الأزد لي مطمع .. »

فالتمعت على الأثر عينا الدؤلى .

الأزد !..

إن اللفظة لتحمل في حروفها قبسا من نور خليقا بأن يلقى شعاعا يضيء للأمير بعض الطريق !.. املا في غد !.. منفذا إلى الخلاص !..

كمثل خطفة البرق سطعت في خاطر ابى الأسود فكرة عابرة .. لعلها لمحة إلهام .. أو لعلها نتاج فطنة لم تكن ـ فيما بدا ـ لصاحبه ، وتفرد بها دونه عقل الدؤلى الذى هيأته طبيعته الذهنية للاستنباط الموفق السريع .. فلقد كانت للرجل ـ لا ريب ـ قدرة على استخلاص النتائج من المقدمات ، والنظريات من العموميات نعرفها له فيما استخرجه من كلام العرب من قواعد النحو التى تحكم اللغة وتسير بها على سننها السليم . وهذه القدرة هى التى يسرت له أن يغوص في الموقف الضنك الذى يقفه زياد ، ليأتى له بما قد يصلح شأنه ، ويحل عقدته . تماما كالغواص الذى لا تلفته ثورة البحر ولا ما يغطى صفحته من الزبد أو العشب عن انتجاع ابعد المواقع في قاعه وهو عليم بموضع اصدافه التى تحتوى درها الثمين ..

هنا يتبدى لنا ابو الاسود الدؤلى رجل سياسة متفتح الافق طويل الباع لا يعسر عليه ان يستقبل الأزمة العارضة بالعلاج الذى يكف عاديتها ، ويروضها ترويض فارس بارع لفرس جموح . وكيف يعسر عليه ان يفعل ، وقد عايشها في بيئتها ، بكل ظروفها ودواعيها ، منشأ وغاية ؟.. إنه إذن ليس بالفطن الذى يستنبط ويستخرج إن لم يسعفه ذهنه باستخلاص « قاعدة » تستطيع ان تتحكم في الموقف وتسير به على النسق المرغوب !..

وتريث هنيهة وقد زوى ما بين عينيه ..

الأزد !..

ثم قال للأمير :

« .. إن اصبحت فيهم منعوك . »

فهذه هى القاعدة !.. ان يطوع الأوضاع الاجتماعية لخدمة قضيته . ان يستخلص من التقاليد العربية مفتاح الحل . ان يطبق نظرية « الجوار » !..

وقلبت عبارته الأوضاع !..

فقد هب زياد على الأثر ، يبعث لصبرة :

« يابن شيمان .. انت سيد قومك ، واحد عظماء هذا المصر ، فإن يكن فيه احد هو اعظم اهله فانت ذاك .. افلا تجيرنى ، وتمنعنى وتمنع بيت مال المسلمين فإنما انا امين عليه ؟.. »

ولم تتنكر الاريحية العربية لطبيعتها فلم يتأخر الجواب ..

رد صبرة :

« إن تحملت حتى تنزل في دارى منعتك .. .. »

وعادت الطمأنينة الى قلب زياد .

٤

خرج من دار الإمارة بليل ، مستخفيا بالظلام . كأنما ليكتم عن العـدو حركته . او ليتقي نظرات الأعين الشـامتة . او لينأى بمال المسلمين ان تغتصبه فئة قد هان عليها سلطانه .. فما كان يملك بعد ان يرد عن نفسه ، وما في يمينه ، عادية من قد يعرضون له بسوء وانه عندئذ لمستباح الحرمة لم يبلغ مأمنه ..

وخلا منه القصر كما عطل هو من سمة السلطة بخروجه وان يكن استبدل بهما كليهما دار طمأنينة هي اروح لباله وامنع له .. فالبصرة الآن مرتع ثرى هين لابن الحضرمى واصـحابه ، ينشرون بهـا دعوتهم المتمردة ما شاءوا . ويملكون منها ما شاءوا . ويغشونها بسـطوتهم وقد غلبوا على ارجائها ونواحيها ، إلا ذلك الحى الأزدى الذى اصبح منها مثل جزيرة من الولاء في بحر صاخب من العداء والخصومة ..

حتى معالم الإمرة المظهرية قد اغتصبوها منه . فلهم انتهت إمامة الصـلاة . وهم الذين يجبون المـال . وفي أيديهم سياسـة الأمور . والإقليم يعنو لهم ويخضع ثم يصغى وراءهم لمعاوية صغيا كأنه قرية من قرى الشـام تقع في نطاق سيفه وماله !..

ومع ذلك فنحوة الأزد كانت له !.. بكل روحها ساندته .. بأيدها وغيرتها . ببأسها وشوكتها . باندفاعها المغامر الذى جل عن تصـوره وارتفع الى ما فوق طموحه .. فإن هى إلا ليلة قضاها في جوارهم حتى طلع عليه صبرة مع اول شروق يقول :

« .. ليس حسنا ان تقيم فينا مختفيا اكثر من يومك هذا .. » .

فرفع زياد إليه نظرة لعل فيها من اثر البغتة اكثر مما احتوته من ملامح التسـاؤل .. لكن الجواب المنتظر لم ترسـمه عبارة ، وإنمـا جسدته أعمال ..

فيما لا يكاد يستغرق وقتا ملحوظا كان سيد الأزد قد عوضه ما سلبته الفتنة من مظاهر السلطان .. أعد له مسجدا للصلاة ، ومنبرا للخطبة ، وسريرا للحكم ، وشرطا للأمن والحراسة . فهو إذن قد ارتدت له مقومات الإمارة : هيئة وكلمة وعدة ، لولا ان انحسر ظله عن بعض رقعة الأرض التى كان يغشاها بنفوذه ..

ومارس زياد مهمته على الفور ، فأم « شعبه » الأزد في صلاة الجمعة بمسجد الحدان الذى جعلوه مركز دعوته وحكمه . وصعد المنبر يخطب الجموع :

« يا معشر الأزد .. إنكم كنتم أعدائى فأصبحتم اوليائى .. ولو كنت في بنى تميم وابن الحضرمى فيكم لم أطمع فيه أبدا وانتم دونه . فلا يطمع أبن الحضرمى في وانتم دونى .. .. »

وتمهل قليلا ، ثم عرج مترفقا على ماضيهم :

« .. يا معشر الأزد .. ليس ابن آكلة الأكباد في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار . وقد رأينا وقفتكم يوم الجمل ، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل .. .. »

ثم ختم كلامه :

« .. إنكم لا تحمدون إلا على النجدة ، ولا تعذرون على الجبن .. وقد اصبحت فيكم مضمونا وامانة مؤداة !.. »

فالتهبت قلوبهم نخوة . وهب شيمان أبو صبرة يهيب بقومه :

« .. ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر !.. قد كنتم امس على على فكونوا اليوم له .. فأنتم حى مضماركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء .. .. »

وعقب ابنه بعده :

« .. .. لسنا نخاف من على ما نخاف من معاوية .. وهذا

زياد جاركم والجار مضمون ، فهبوا لنا أنفسكم ، وامنعوا جاركم او فأبلغوه مأمنه .. .. »

وكذلك انشطرت البصرة شطرين بين الأزد ومن عداهم كأنما غدت امارتين كل امارة منهما في طاعة امير وسلطانه تماما كانقسام الدولة نفوذا وولاء بين على ومعاوية . ولئن قيل ان مبدا من المبادىء — جادا كان أو موهوما — هو الذى شطر وحدة الأمة الإسلامية ، فليس عن ذلك المبدا نفسه ، ولا عن سواه ، انقسمت البصرة وافترق أهلها فرقتين ، وإنما الذى أدى بها إلى وضعها ذاك ما ركب في طبائع العرب من حرص بالغ على رعاية تقاليدهم والوفاء لها أعظم الوفاء وإن خاضوا إلى وفائهم هذا بحارا من الدم ، واجتازوا دروبا طويلة من الأشلاء والجماجم .

لا مراء في أن انضمام الأزد إلى زياد لم يكن منهم ولاء لعلى ، ولا رعاية لمبدأ ، ولا نصرة لرأى ارتأوه إذ قامت الحجة على رجحانه فظاهروه على ما عداه . فلو كان لمبدا في نفوسهم مكانة تعطفهم حينذاك على الرجل لما رحب صاحبهم بابن الحضرمى عندما اقبل ولا اوشك أن يفسح له في رحابه . ولو انهم حقا كانوا يكنون بضعة من ولاء لأمير المؤمنين لثاروا بوافد معاوية ، ولوقفوا دونه ودون بلدتهم ان يدخلها من البدء أو يجمع أهلها حول دعوته . ولو شاموا رايا خليقا بالاتباع والمناصرة في حديث زياد لشمناه معهم ، فليس بالحديث ما يطالعنا بفكرة جديدة او حجة مقنعة ، وكل عباراته استثارة للنخوة وتدرع بالجوار ..

إنما التفاخر هو الذى حركهم ودفعهم للالتفاف بالأمير الذى انفض عنه الناس . فالعار كله أن يستنجد بهم فلا تسعفه نجدتهم ، وان ينزل في جوارهم فلا يجد عندهم حق الجوار . والعار كله ، وقد أجاروه ، أن يعز جار تميم ويهون جارهم على أهل الإقليم . والعار كله ان يصبح ابن الحضرمى ذا صولة ويبقى زياد ، وهو بين ظهرانيهم ، عاطلا من مظاهر القوة ومقومات السلطان !..

هى إذن منافرة بينهم وبين تميم ومباراة على أى الفريقين اثبت في المضمار واقدر على الانتصار .. اما مظاهرة الحق على الباطل ، واما حماية وحدة الدولة ان تمزقها فتنة ، وأما الطاعة لعلى صاحب السلطة الشرعية في البلاد ، فكلها ليست اصلا لوقوفهم موقفهم هذا ، بل هى ذيل وتبع للغيرة على سمعتهم ان يقال اخلت الأزد بواجب الجوار !..

على هذا النحو سارت الأزمة وابلغت الكوفة بأمرها في كتاب ، بعث به زياد إلى اميره ابن عباس :

« .. .. ان عبد الله بن عامر بن الحضرمى اقبل من قبل معاوية حتى نزل في بنى تميم ، ونعى ابن عفان ، ودعا إلى حرب ، فبايعه جل أهل البصرة . فلما رأيت ذلك استجُرت بالأزد ، بصبرة بن شيمان وقومه لنفسى ، ولبيت مال المسلمين .. .. والقصر خال منا ومنهم .. .. فارفع الامر إلى امير المؤمنين ليرى فيه رايه ، واعجل إلى بالذى ترى ان يكون منه فيه .. .. »

وليس هذا الكتاب ـ فيما اخال ـ باول نبا وصل الكوفة عن دخول ابن الحضرمى البصرة ، ولا عن دعوته المعادية بها ، ولا عن اعتزاز شأنه فيها بامتناعه بمن بها من بنى تميم .. فلقد جرى الذكر بأن تميم الكوفة خشيت أن يستفحل الامر فتقع الحرب بين الأزد وبين عشيرتهم في البصرة ، فأسرع منها من يشير على الإمام وهو يرجو السلامة لقومه من خلال ابتغاء السلام !..

قال له :

« يا أمير المؤمنين .. ابعث إلى هذا الحى من تميم ، فادعه إلى طاعتك ، ولزوم بيعتك ، ولا تسلط عليهم ازدعمان البعداء البغضاء !.. فإن واحدا من قومك خير لك من عشرة من غيرهم .. »

وساءت عبارته هذه رفيقا من ازد الكوفة ، فثار :

« إن البعيد البغيض من عصى الله ، وخالف امير المؤمنين ، وهم

قومك !.. وأن الحبيب القريب من أطاع الله ، ونصر أمير المؤمنين ، وهم قومي !.. »

تفاخر آخر !.. ادلال بالمكارم والميزات يهم أن ينفث سمه ، ويوقع النفور والتباغض بين حليفي الكوفة وقوعهما بين عشيرتيهما في أرض زياد !.. لكن الإمام كان أسرع إلى حسم الداء ، فصاح بهما ينهرهما ومن وراءهما لدنه من الأزد وتميم ، ويؤدبهم جميعا بأدب القرآن :

« .. تناهوا أيها الناس !.. وليردعكم الإسلام ووقاره عن التباغي والتهاذي ، ولتجتمع كلمتكم .. .. واذكروا إذ كنتم قليلا مشركين ، متباغضين متفرقين ، فألف بينكم الإسلام فكثرتم .. فلا تفرقوا بعد إذ اجتمعتم . ولا تباغضوا بعد إذ تحاببتم .. .. فأما تلك الحمية من خطرات الشيطان فانتهوا عنها — لا أبا لكم ! — تفلحوا وتنجحوا .. »

وقد أخذ الإمام بالمشورة فاستنفر تميم الكوفة أن يفرقوا عن ابن الحضرمي عشيرتهم بالبصرة التي آوته ونصرته وأعزت شأنه في الإقليم .. ومضى يكرر دعوته فيهم . ويحثهم أن ينهضوا لها حماية لقومهم أن تقع بينهم وبين جيرانهم الأزد حرب قد لا تحمد مغبتها عليهم ..

لكنهم ، فيما بدا ، لم يصغوا له ، وإن ظل أياما عدة يهيب بهم ، وينتظر منهم أن يلبوا نداءه .. فما نهض منهم أحد . ولا قام عنهم بالأمر غيرهم من أصحابه . بل بقوا ، والكوفة وراءهم بجميع شعبها ، كدأبهم أجمعين في هذه الفترة في مختتم عهده ، سادرين فيما استمرأوا من تهاون وتخاذل وثبوط همة ، يستقبلون ما يطرأ من الحوادث — خطيرها كصغيرها — بغير احتفال !..

وضاق أخيرا بموقفهم :

« .. أليس من العجب أن ينصرني الأزد وتخذلني مضر !..

واعجب من ذلك تقاعد تميم الكوفة بي ، وخلاف تميم البصرة على !..
وان استنجد بطائفة منها تشخص إلى اخوانها فتدعوهم إلى الرشاد فإن اجابوا وإلا فالمنابذة والحرب فكأنى اخاطب صما بكما لا يفقهون حوارا .. جبنا عن الناس ، وحبا للحياة !.. »

وصمت هنيهة . إن العزم الذى كان يملأ القلوب بالأسى ، ويدفعها إلى اقتحام المكاره والغمرات ، اباء للضيم ، وأنفة من الاستسلام ـ ولو للأهل الأدنين ـ جدا في نصرة الحق واعلاء كلمة الله ، قد فتر اليوم . خبت ناره . بردت جذوته التى كان الإيمان يمدها من قبسه بما يشعل النفوس غيرة وتحولت إلى رماد !..

واتبع يقول :

« .. .. لقد كنا مع رسول الله فقتل آباءنا وأبناءنا واخوتنا واعمامنا ، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما .. فلما رأى الله صدقنا ، أنزل بعدونا الكبت ، وأنزل بنا النصر ، حتى استقر الإسلام .. .. ولعمرى لو كنا نأتى ما اتيتم ، ما قام الدين عمود ، ولا اخضر للإيمان عود .. .. »

ثم رماهم بنظرة أسف وزراية ، وهو ينهى حديثه :

« .. وايم الله لتحتلبنها دما ، ولتتبعنها ندما !.. »

فلعل كلماته تلك فعلت بعض فعلها في نفوس طائفة منهم ، فتهامست مليا ، ولغطت ، ثم أقبل بعضها على بعض يتلاومون .. كيفما كان أمرهم فإن احدهم قد حركه اللوم ، واثار غيرته ، فانبرى من بينهم يعتذر :

« لا تسأ يا أمير المؤمنين . ولا يكن ما تكره .. »

« ألم يبلغك ، يا أعين ، أن قومك وثبوا على عاملى مع ابن الحضرمى بالبصرة ، يدعون الى فراقى وشقاقى ، ويساعدون الضلال القاسطين علي !.. »

« فابعثني إليهم !.. انا لك زعيم بطاعتهم ، وتفريق جماعتهم ، ونفى ابن الحضرمى من البصرة او قتله .. »

« فاخرج الساعة . »

غير أن الحوادث بمستقر الفتنة لم تكن لتقف حيث هى لا تتقدم حتى يقدم اعين بن ضبيعة من الكوفة ليهدى قومه .. فللحوادث احيانا اقدام تمشى ، واحيانا تعدو ، واحيانا اخرى لها اجنحة ترفرف لتطير !.. والشرار يلد الشرار فينتشر وتندلع النار !..

في لحظة من لحظات زهوهم بما ادركوا من غلبة وبلغوا من نصر ؛ شاءت تميم وقيس ان تجمع لحزبها الظافر بالبصرة مظهر السلطة الى جوار قوة الحول وبسطة النفوذ .. فالكثرة لها . ورقعة أرض الاقليم تحت ظلها إلا ناحية . والمال يأتيها من جوانب الولاية وارجائها جباية . وهى من العدة والعدد على النحو الذى يمكن أن تستقيم لها به كافة الأمور .. فإذا هى شاءت ان يتوفر لها ايضا « شكل » الحكم فإنها إذن لا تطمع بهذه المشيئة إلى محال لأنها لا تجاوز حدود ما هيأه لها الواقع الملموس ..

وكذلك ارادوا الاستيلاء « رسميا » على السلطة — بعد استيلائهم فعلا عليها — تحقيقا للغرض الأصيل من وفادة مبعوث الشام . وهل شىء ايسر عليهم وادنى منه وليس امامهم غير خطا قصيرة يقطعونها وينزل بعدها صاحبهم بقصر الامارة المهجور ؟..

ورحب ابن الحضرمى لا ريب بالفكرة على الفور ، وقد راقه انهم ترجموا عن ضميره ، واخذوا انفسهم بتنفيذ ما رسمه إلى آخر مداه .. فإن هى إلا ساعة من زمان ويبلغ وطره .. يقتعد الأريكة الخالية في القصر ، فيصبح عاملا على البصرة ، يضمها الى ملك الشام تحت سلطان صاحبه ابن ابى سفيان ..

واتصدوا ..

لكنهم ما تهيأوا للمسير حتى علمت الأزد فثارت حمية .. وبرزت لهم في فرسان كفرسانهم ، وعدة كعدتهم ، وعلى عزيمة وتصميم

الا يدخل القوم القصر إلا بقتال !.. فالهوان كله ان يجلس ابن الحضرمى مجلس زياد . وان تنفرد تميم وقيس بتنصيب الوالى . وأن يتحدث الناس ان الأزد لم تحفظ على جارها ما هو له ، وما لم يدعه ــ طائعا ــ لسواه . وليس ابن الحضرمى ، على أية حال ، لهم برضا يخلون بينه وبين الامرة عليهم وسياسة الأمور في الاقليم .. فأما إذا كان لابد اليوم من أمير ، فليكن إذن رجلا يرضاه أولئك ويرضاه هؤلاء ..

وتأزم الموقف ..

ذاع في الجو عرف الحرب وقد أبى كل فريق إلا ما رآه .. فإذا الصدور تغلى . وإذا القلوب تشتعل . وإذا السيوف تتعرى وتبعث بريقها يخطف العيون .. لا معدى إذن عن لقاء دام بين الحزبين ، يحسم الخلاف ، ويضع الفخر منهما حيثما ينبغى أن يكون .

وهال الأحنف بن قيس ذلك الخطر المحلق على الرءوس ، فمشى إليهما جميعا يحاول أن يهدىء الثائرة ، ويحد من الغلواء .. إن الرجل لعلى حيدة من كليهما ، قد كف يده منذ البدء عن الدخول في الأمر ، فهو لا إلى ابن الحضرمى ولا إلى زياد . لكنه يخشى ، إن هو تركهم وما هم فيه ، أن تتسع الهوة ، ويلجوا في عنادهم حتى الدم .. والحمية دائما عشواء عمياء !..

واستطاع بعد طول جهد ان يكبح الجماح ..

وانصرف الجمعان .

ومع ذلك فقد شق على جماعة ابن الحضرمى ما كان . فرأت أن ترمى القوم بسهم قاتل مما في جعبتها من مكر ، لعلها أن تخضد شوكتهم ، وتكسر حدتهم ، وتقضى على هذه المعارضة التى لا تظنهم ــ وإن جنحوا الآن للهدوء ــ مقلعين عنها ما بقى الجانبان في تنافس على نصرة مستنصر أو حيازة نفوذ ..

وهداها خبثها إلى خدعة هى السبيل المفتوح إلى تحقيق ما تريد .. فماذا عليها لو ادعت الحيدة من الخلاف الناشب بين العاهلين بالكوفة ودمشق ، ودعت خصمها أن يسلك وإياها سلوكا سلبيا

ازاءهما ، وازاء كل ما لعله قد يؤازر احدهما او الآخر ، من اشخاص واعمال ؟ .. إنها إذن للسياسة الرشيدة الخليقة من كليهما بالاتباع ، والكفيلة بتجميد الموقف ثم حقن الدماء حتى تستبين الأمور .

وارسلت تميم الى الأزد :

« اخرجوا صاحبكم ، ونحن نخرج صاحبنا ، فأى الاميرين غلب : على او معاوية ، دخلنا في طاعته ، ولا نهلك عامتنا .. »

لكن الحيلة لم تجز على الأزد ، وكان جوابها على هذه الدعوة الخبيثة ، بلسان صبرة بن شيمان :

« لا !.. إنما كان هذا يرجى عندنا قبل ان نجيره .. ولعمرى ما قتل زياد وإخراجه إلا سواء .. .. »

٥

افترة هدات البصرة . قرت النفوس بها بعض قرار ، واظل ربوعها سلام ظاهر طفا على سطح الاضطراب !..

الأزد اراحها أن نجحت، في حسبانها ، وقادة الأحنف بن قيس فوقف خصمها عند القصر لا يجتاز تلك « الشقة الحرام ! » التي تمنعه طبيعة الوضع السياسي القائم بالاقليم أن يجتازها ، أو يعبث بحرمتها ، ما دام مجموع السكان لم يتفق على التغيير .. فالحاكم الشرعي هو زياد . والقصر ما زال قاعدة حكمه وإن أخلاه . وامتثال قيس وتميم ومن وراءهم نصيحة الأحنف بالكف عن اقتحامه فيه تسليم برأي الأزد ، واعتراف — رمزي على الأقل — بقدرتها على حماية الجار ..

وانصار ابن الحضرمي قبلوا الانسحاب — انصياعا للتعقل واخذا بسنة الدهاء — راضين ككارهين ، وكارهين كراضين !.. فأما الكره فلأنه حال بينهم وبين مظهر السلطة المنشود ، ولو إلى حين . واما الرضا فلأنه اسلوب عمل صاحبهم وجادة سلوكه في حدود الخطة التي رسمتها الشام .. فما قطع وافد معاوية كل هذه المراحل الطويلة إلى الجنوب البعيد ليدخل البصرة عنوة ، أو ليغتصب امارتها بحرب حامية على بحر هائج من الدماء هو القادم إليها في حفنة قليلة من الأعوان . بل قد جاء ليتسلل إلى نفوس اهلها ، وليختلس أرضها وسلطانها اختلاسا بانقلاب سلمي هادىء او بثورة باردة بيضاء !..

غير ان الاحداث ابت إلا ان تعجل القوم عن هدوئهم وتسرع إليهم بلحظة الحسم التي كان لابد أن تكون . فليس من طبيعة الأمور أن يسود السلام اقليما انشق اهله ، وتنازع مصيره فريقان منهم يتصارعان على النفوذ . وليس ايضا بمقبول أن تجمد الدولة فلا تتحرك وهي ترى جزءا منها يوشك ان يقع في براثن فتنة تفصله

عنها وتقتطمه نهبا مباحا لمتمرد خارج على النظام . وليس كذلك مما يساغ ان يصبر إلى الابد على هذا الوضع المتميع فريق لمست الظفر انامله ثم لا يمد إليه يده قيد اصبع ليحتويه في قبضته !..

تلك كانت العوامل والاحاسيس المحركة للظروف والموجهة للأحداث ووافد امير المؤمنين يمضى شوطه من الكوفة ليدعو اهاله وعشيرته بالبصرة أن يرشدوا فيلزموا الطاعة ويصموا الاذن عن وسوسة الشيطان !..

بدا اعين بن ضبيعة مهمته خير بدء ، وكما ينبغى ان يبدأ مثلها سفير . فلم يتجه لقومه وإن كانوا عساهم قد علموا بحضوره ، وإنما جعل همه ، من اول خطوة خطاها ، زيارة زياد ، إعلاما له من جانب بوفادته ، وإشعارا لجمهور السكان ، من جانب آخر ، إنه الأمير الذى يجب أن تحط عنده الرحال ولا محط لقادم عند سواه ..

وتذاكر الرجلان الأزمة . وأدلى كلاهما فيها بما يراه . ثم زودهما ، بعد قليل ، بريد الكوفة براى أمير المؤمنين :

« .. إنى قد بعثت بن ضبيعة ليفرق قومه عن ابن الحضرمى . فارقب ما يكون منه . فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظن به .. فهو ما نحب. وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان .. فجاهدهم .. وإلا فطاولهم .. فكأن كتائب المسلمين قد أطلت عليك .. » .

وقال اعين لزياد وقد سمع ما في الكتاب :

« إنى لأرجو أن يكفى هذا الأمر إن شاء الله .. » .

ثم خرج يشتد لتحقيق ما ندب له .

إن الكيل قد امتلأ وفاض . وسيرة الحسنى التى سارها الإمام في هذه الارض ــ عفوا ورحمة ــ لم تلق ، فيما يلوح ، عند قومها ما هى أهله من العرفان والوفاء . فالصبر إذن عليهم نقيصة ، والتسامح ضعف ، وليس لهم عند حاكم يعرف تبعته ، ويستشعر حق امته عليه إلا الحزم الذى يقطع ويردع ، وآخر الدواء الكى فيما يقال !..

بهذه النظرة انطلق اعين ليجتمع ببعض قومه يبصرهم الأمر ، ويحثهم ان يجتنبوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منهم خاصة :

« .. على ماذا تقتلون انفسكم ، وتهريقون دماءكم على الباطل مع السفهاء الأشرار ؟.. » .

ثم حذرهم :

« .. إني والله ما جئت حتى عبيت إليكم الجنود . فإن تنيبوا إلى الحق يقبل منكم ، ويكف عنكم . وإن ابيتم فهو والله استئصالكم وبواركم .. » .

فقبلوا منه . ومضوا وإياه إلى إخوانهم الذين التفوا حول دعوة ابن الحضرمى ، يحاولون معه نصحهم لعلهم يرشدون ..

لكن العصيان الذى خامرهم وترسبت في نفوسهم رواسبه حملهم على استقباله اسوا استقبال .. ما ان حل حيث كانوا حتى اسرعوا إليه بالسخط كانما قد جاء يدعوهم لغير الوفاء والشرف والسلام !.. بل قد خرجوا إليه مصطفين في العدة والسلاح !.. بل قد حشدوا حشودهم له كانه هو جيش وحده لا يجمل بهم لقاؤه إلا وهم على اهبة القتال !.. بل قد قدموا ابن الحضرمى امامهم يحفون به . ويلتفون حوله كانه علم الكتيبة ، إمعانا في التحدى ، وإغراقا في المجاهرة الرعناء بالمخالفة والعداء !..

وعجب الرجل لهذا السلوك منهم وإنه لابن عشيرتهم ، الناصح لهم ، الأمين عليهم ، القادم عبر تلك الشقة الطويلة المضنية ليكف عنهم البلاء .. وراح من إشفاق يناشدهم الله :

« يا قوم .. لا تنكثوا بيعتكم ، ولا تخالفوا إمامكم .. » .

ثم مضى يشرح ويبين ، آنا يذكر ، وآنا يحذر . فمنهم من يصغى، ومنهم من يعزف عنه ، ومنهم من يقطع عليه الحديث في تبرم وإنكار او في لدد سافر وعداء صريح ..

ومع ذلك فقد سار شوطه ، وشحذ كل منطقه وهو يحاور ويجادل، يبصر وينور ، يمنى وينذر . وماله لا يفصل وقد بدا له من ملامح

الوجوه ومن رشاش اللغط المتناثر من هنا ومن هناك أن ثمة ما يومىء إلى تصدع طائفة غير قليلة من الحاضرين عن ابن الحضرمى تصدعا يكاد يخرجها من صفوفه ، ويعود بها ــ وقد انجابت عن عيونها غشاوة الغى ــ إلى طاعة الإمام ؟..

ولقد كان من الطبيعى ان تهول هذه الظاهرة الخطرة حاملى دعوة ابن الحضرمى الباذرين معه بذور الشقاق . فما مآل حديث اعين إلا ان يرفع الاكنة عن قلوب كثيرة فترى النور . وما غاية النور إلا ان يبين ويهدى ، فتهدأ الخواطر وتثوب الألباب . وما نتيجة استنارة العقول إلا تصدع جمعهم ، وانفضاض جمهرة اعوانهم عنهم التى تابعتهم من قبل بروح القطيع وتهافتت عليهم تهافت الفراش ــ مسلوب الإرادة ــ على النار !..

جزعت إذن هذه الفئة المشاقة الغالية في العداء للإمام وهى تلمح الأثر الذى يتركه حوار ابن ضبيعة في الناس ، وخشيت إن هى املت له في الحديث ان ينقلب الأمر ، فتنطفىء نارها ، وتذهب قوتها ، ويتهاوى ذلك الصرح الشامخ للفتنة الذى اقامته بالخداع والدسيسة ليصبح غبارا تذروه الريح .. وعندئذ نشطت للعمل واخذت نفسها بالتصدى لأعين ، وللذين مالوا إليه ، لعلها ان تدرا عاديته عن دعوتها ، وتخرج من المحنة التى اغرقها فيها بخير ما تستطيع ..

ولم يكن لها ان تقابله حجة بحجة وبرهانا ببرهان لان الحوار في مثل هذا المقام له لا عليه . فهو ينضح عن قضية الوفاء بالعهد ، والولاء للدولة . وهو قادم لسلام يجنب الناس انقساما يشدهم لا محالة إلى دم .. وهو يأخذ على يد القوم أن يصبأوا إلى الوقوع ثانية فيما علمتهم التجربة وبال الوقوع فيه . وهو بعد هذا في فريق من اهله إن لم تعطفهم إليه صلة الرحم فقد عطفهم حرصه عليهم ان تقصفهم المصارع وتتخطفهم الحتوف ..

ليس بالمنطق يظهر صانعو الفتنة على اعين ، وإنما بدرء منطقه ان يبلغ المسامع ويرسخ في الافهام .. بعزل صاحب المنطق عن الناس وإن وقف فيهم لا تغيب هيئته عنهم ، وظل حديثه يجول بين الآذان.. بإقامة سور ضخم من الضجيج والضوضاء بينه وبين الإصغاء !..

وفعلوا .

ضجوا على اعين ، وشغبوا على حديثه بأصوات نكراء كالعواء .

والشغب دائما سلاح كل متهور عاجز ، وسلاح كل فتنة تفتقر من الحق او من القوة إلى ما تقدر به على التماس المسالك إلى العقول، لأنه السلاح الذى يستطيع صوته الهادر ان يطغى على ما عداه من اصوات ويملأ بهديره الأسماع ..

ولم ييأس الرجل ، بل ظل يعيد ما يقول ، ويكرر ما يعيد ، عسى ان تنفذ من ثغرة هنا او ثغرة هناك في سور هذا الضجيج كلمة او كلمات .. مرارا عديدة ثبت لهذه الضوضاء القاصفة ، وحاول ان يخترق سدها المنيع ، حتى مضت به عامة يومه ينصح واصحاب الفتنة يهدرون . يبصر ويضجون . يحذر ولا يكفون ، ومن ورائهم بقية الناس في معزل عن قوله ، لا يكادون يلقفون كلمة من عبارة ، ولا حرفا من كلمة ، او يعرفون لهم منفذا إلى الاستماع .. حتى إذا آده عنت أصحاب الصخب ، واعياه أن يحملهم على الإصغاء والهدوء . ثم أيس أن يرشدوا ويستقيموا ، صرح محاولا ان يذكرهم وبقية الجمع محنة امسهم القريب التى جرها عليهم مسلكهم الأحمق حين آثروا الخلاف والعصيان :

« .. يا قوم ، لا تجعلوا على انفسكم سبيلا .. قد رأيتم وجربتم كيف صنع الله بكم ، عند نكثكم بيعتكم ، وخلافكم ... » .

فإذا بمثيرى الفتنة ، وقد أضلهم هواهم ، وأعماهم عنادهم ، يثورون به أعنف ثورة تجزيه عن حرصه على سلامتهم شر جزاء .. فقد أفحشوا له في القول ، فلفطوا عليه بأقذع السباب . ثم نالوا منه باللفظ والإشارة . ثم أوشكوا أن يذيقوه حينه ..

ورأى الرجل ألا مناص — لحظته هذه — عن الانصراف عنهم ، فغادر مكانه وهو اسيف حزين وإن يكن قد استشعر الرضا وراحة الضمير .. فكفاه ان فئة منهم وعت قوله في مستهل الاجتماع ولعلها تكون نواة الهداية وبشائر الجنوح للسلام في الإقليم . وكفاه ان بلغ

رسالته للكافة ، ولم يكذبهم الرأى والمشورة ، مبينا لهم مغبة التمرد والانقسام ..

وهل هو إلا نذير ؟..

لكن اصحاب الشعب غالوا ــ إلى العمى ــ في سخطهم وحقدهم عليه ، حتى لقد نسوا انه منهم . وانه قد اتاهم برسالة سلام ووئام لا برسالة حرب وضغينة . وانه آمن بينهم ــ أو ينبغى عليهم ان يكون ــ على ماله ونفسه إذ هو رسول ..

نسى القوم هذه العوامل ، ونسوا معها كل شيمة كريمة ، فابوا إلا التنكر لكافة ما تقضى به الشرائع ، وتوجبه قيم الأخلاق ، وتبرمه فروض التقاليد .. فإذا بجماعة منهم تتسلل إليه ، في جوف الليل ، وهو نائم برحله ، وحيدا بلا رفيق ، اعزل بلا سلاح ، وتنقض عليه بأسيافها تتعاوره لتقتله غيلة ..

واوشك اعين ان يفر منهم بجراحه وقد أيقظته الطعنات . ولكنهم لم يدعوه . إنما تبعوه في الطريق الخالى على خيط دمه وانين اوجاعه ، حتى مزقوا جسده وقضوا عليه ..

ونجح الغدر حيث اخفق الشغب فسكن المنطق الذى هالهم انتشار جرسه الوقور في الآذان ، وراعهم ان يسيطر على الأذهان ..

والتهب الموقف في البصرة من جديد نتيجة لهذه الفعلة النكراء ..

وعاد شبح الحرب ، كرة أخرى ، يطرق الباب ..

فلقد غضب مسجد الحدان لمصرع وافد الإمام .. غضب زياد ، وغضبت الازد معه بطبيعة الحال . ربما كان غضبها انتصارا للوافد ، وربما غيرة إنسانية للدم المراق .. لكنه لا ريب غضب قد انبعث من تشيعها لزياد ، ومن وفائها لتقاليدها العربية الكلفة عادة بإكرام الضيف ، ورعاية النازح الغريب ، وتأمين الرسل واصحاب الوفادات إذ هم امنة ، في اعتبار كافة الشرائع ، ايما كانوا ، وكيفما كانت الرسالات ..

٦

روعته النذر ..

في الجو رائحة عاصفة .. الهدوء يتحطم . الافق الصافي ينجاب صفاؤه ويتلون بالدكنة كأنما يلتف بدثار الليل . الغمام يتدافع ويتصارع ، ثم يتزاحم ويتلاحم ، ثم يلتئم كسفة واحدة شهباء تغشى السماء . البرق يخطف ويندلع كالحريق . الرعد يقصف فتترنح الأرض بهديره وترتعد رعدة محموم .. ومن وراء هذا كله سيول وصواعق تهم ان تنهمر وتنتشر ، لتنشر الغرق والنار والدمار ..

وتفكر مبعوث الشام .

وكان آونة كالحالم ، وآونة كالمبغوت .. فالصورة الآن أبعد عن ظنه واقرب إلى ما تسوقه صرعة كابوس !.. وذهنه فيها تائه ، ترامت امامه الأبعاد نائية ، وعمقت الاغوار سحيقة ، فكاد من حيرة يدور حول نفسه كدوامة !.. والخطر هذه المرة لا يخايل العيون والعقول من بعيد ، ولا هو متربص متاهب ينتظر ويرقب ، بل يوشك أن يطير بجناح !..

وقلّب الرجل امره ما أسعفه عند ذاك جنانه ..

افيكون أجدى عليه ، على نفسه ومجده ، وأقوم لسياسة صاحبه القابع هناك بدمشق يخطط ويدبر ، أن يخوضها الآن حربا سافرة على اعدائه ؟.. أم الخير في المطاولة ــ إرجاء للحظة الفصل ، إن وسعه إليها سبيل ؟..

كادت الفيلة الحمقاء ان تعجله عن أمره ، وتفسد تدبيره ، وتدفعه دفعا ، كأنما يحمله تيار جارف ، إلى مغادرة قلعة التريث المتحصن بها ، لتخرج به إلى الصراع في العراء المكشوف !.. حتى أمسه كان آمنا في حصنه ، يعمل على مهل ، من وراء جدر الإعداد الخفى ،

واسوار التآمر والدس ؛ ناسجا شراكه المتينة الدقيقة ليقتنص النصر. ليختلسه .. ليمتصه قطرة قطرة والخواطر مسترخية او غافلة عنه .. اما وقد غدر اصحابه بأعين ، وقتلوه غيلة ، فتلك الغدرة هي الوخزة المؤلمة التى نبهت عدوه من الغفوة وحفزته .. فها هو زياد يتنمر بعد ضعف ووهن ، أو بعد تماوت وقبوع إلى المسالمة أو الاستسلام .. ها هى الأزد تشتعل حمية أن يجللها سكوتها على الغدر بصاحب جارها الهوان والعار .. هاهم شيعة وأعوان اخر للإمام في الاقليم ، كانوا إلى الأمس في تردد ، يقهرهم الموقف — إذ انكشف عن بصيرتهم الغطاء — على نفض ذلك الجمود الذى صفدهم به ، طويلا ، التخاذل وكبلهم الشبوط ..

وحقا قد نهض زياد في السلاح ، بالأزد جميعا ، وبمن فاءوا إلى الهدى والطاعة من شيعة الإمام ، وبمن عساهم كذلك أثارتهم الغدرة الفاجرة بين أهل الإقليم .. ولم يكن له إلا ان ينهض نهوضه ، في لحظته تلك على الفور وقد جاءته حماقة تميم بفرصة العمر دون أن يجهد فتيلا لتحريك الأحداث .. ولم يكن له إلا ان يفيد ما استطاع من هذه البادرة التى — عن سوء تبصر وانطماس وعى — اهدتها زلة عدوه إليه ..

ونوشك ان نجد الآن من يقول إن هذا النزوع المفاجىء إلى العنف الذى باغتهم به زياد ، كان مجازفة غير مامونة المغبة ؛ خليقة بأن تصبح نتيجتها عليه ولا تصبح له لو استقبلها ابن الحضرمى وحزبه بعزم ثابت ، او برد جرىء .. ولكنه قول من يحكم بعد أن تجمعت لديه شوارد الشواهد والادلة من هنا وهناك ، وعرف مواطن الضعف والقوة في كلا الفريقين المتنافرين كانما يقراها في كتاب أو يزنها بكفتى ميزان !.. وهو ايضا الراى الحرى بان يبعد ، في تلك اللحظة ، عن ذهن ابن الحضرمى واذهان اعوانه هم الذين كانوا — إلى امس ، بل إلى ثوان معدودات قبل انتفاضة زياد ! — يدلون بالصولة والجبروت ولا يعلمون لهم بالبصرة كفئا يباريهم ، زيادا كان أو غير زياد !.. فإن يكن ، مع ذلك ، ما اقدم العامل عليه يعتبر في المجازفات ، فهى إذن

المجازفة التي لا سلوك غيرها أولى بالموقف ، ولا اليق منها بصاحبها ، او افعل منها وابلغ اثرا في مثل هذا المقام ..

مجازفة فيها من اليمن قدر ما فيها من الأمن ، دلت عقباها على أنها المبادرة الحكيمة لا المخاطرة الرعناء !.. فقد أخذت العدو الصلف على غرة ، وفاجأت أفراده وجماعاته بغير ما قر في روعهم وخلد في اذهانهم حتى لأوحت إليهم أن بروز غريمهم لهم في السلاح هـذا البروز لابد وراءه طاقة حرب مكتنزة ، قد أعدها خفية ، وعوض بها ما كان من افتقاره قبلها إلى القدرة على اللقاء !.. وهي — هكذا — كانت كفيلة بأن تهز ثقتهم القديمة بأنفسهم ، وتخرج بهم من نطاق الاعتزاز بشوكتهم ، والاطمئنان إلى ما لديهم من قوة وبأس ، وما ظنوه من تفوق واستعلاء .. وهي ، إلى جوار هذا وذاك ، بيان للناس ، يعلن للمُلِمّ ان سكوت العامل — إلى ما قبيل لحظة النهوض — على أصحاب الفتنة ، النافخين في حريق الخلاف ، لم يكن عن عجز او رهبة ، بل كان صدى لميله الكريم إلى معالجة العصاة والخارجين على النظام بالصبر والترفق ، تجنبا للحرب ، وتشبثا بالسلام ..

ومع هذا ، فليس يجمل أن يزعم زاعم أن زيادا ، حين برز بأصحابه يومئذ في عدة الحرب ، كان قد بيته نيته على القتال ، فذاك ما لا تشف عنه شواهد الظروف ولا قرائن الأحوال .. إنما الأرجح الأدنى إلى منطق الأمور ، أن يذكر للرجل انه — بتعبير اليوم ! — قد « ناور » فأجاد المناورة ، أو موه فأحسن التمويه !.. فلا مراء في أنه استطاع أن يظهر كمن كان على أهبة كاملة ، وعن طواعية واختيار ، لخوض معركة لابد له من خوضها ليحسم موقفا شق عليه أخيرا احتماله ، وليستعيد أزمة الأمور في يديه .. فأما ما يبطن ويوارى عن العيون والأفهام فالرغبة كل الرغبة في أرجاء الالتحام — إن لم نقل تجنبه — امتثالا واعيا منه لمقتضيات الأوضاع وأحكام الظروف المهيمنة ، حتى ساعته تلك ، على الاقليم ..

كذلك لا نحسب الرجل قد استخفه ان عز جانبه بعد ضعف ، وزاد انصاره بعد قلة ، فظن الظروف والأوضاع قد تحولت له ، فدانت لأمره ، وحشدت في صفوفه كافة عوامل النصر وإن كنا

لا ننكر انها ، حقا ، أبعدت عنه ، إلى مسافة غير قصيرة ، معظم احتمالات الهزيمة .. كلا . فما هو بالغافل عن الأغوار والابعاد تتغره المظاهر ، ولا بالأحمق فيخدع نفسه ويركن إلى الأماني والأحلام . وعندما نتعقب خبره ، ونتاثر خطاه على أرض الصراع ابان الأزمة ، لا نكاد نجد بسلوكه ، من قبل ومن بعد ، اثرا من نزق الحمق ولا من خطل الغفلة .. فها هو يرتضي من الأزد قرارها القاضي بكف الحرب ، ولما تنشب ، ولا يضيق به .. وها هو يجنح إلى الاستمانة كرة أخرى بمن عساه يعوض عليه ابن ضبيعة ويفرق بالدعوة أصحاب الفتنة ، فيحقق بالرفق ما قد يحقق القتال .. وها هو في تصرفه ، على نحويه ، يلتزم بسياسة المطاولة التى نصحه بها الإمام ، ويؤثرها ، عادة ، كل حريص متبصر يأخذ نفسه بتجنب المخاطرة حتى تستقيم الأمور له ، وتتجمع في يديه مُقومات الغلبة جميعها على وجه اليقين والقطع لا على وجه الاحتمال والترجيح ..

وإذن فلم يسؤ زيادا من الأزد أن تخلت عن القتال ، وفضت حشدها مستجيبة لطلب عدوه حين بعثت إليها تميم من يقول :

« .. .. والله ما عرضنا لجاركم إذ أجرتموه .. .. فما تريدون إلى حربنا ، وإلى جارنا !.. »

ما كان قط ليسوءه من انصاره موقفهم ذاك الذى مال بهم عن العنف إلى اللين ، وعن الحرب إلى الهدنة ، لأنه في حقيقته ليس الموقف الذى لابد له أن ينصاع لقبوله ، بل لأنه الموقف الذى كان يصبو إليه فعلا ويرجوه .. فكفاه أن يلغ بالمناورة في هذا المقام ما أغناه عن السلاح .. كفاه أن عز شأنه ، وبدت هيبته ، وظهرت للملأ قوته وقد تصدعت عن غريمه كثرة من رجاله ، بعضهم من شيعة على فاءوا إلى الطاعة بعد عصيان ، وبعضهم من عشيرة اعين ومن سواها هالتهم الغيلة ، واسخطهم ما كشفت عنه من خسة القوم ، واجترائهم الآثم الفاجر على شريعة التقاليد .. كفاه أن انحسر عن البصرة مد الموجة الإرهابية العاتية التى حركتها عصابة ابن الحضرمي ، واوشكت ان تجرف في تيارها الناس اجمعين لولا هذه المبادرة المسلحة التى

فاجأت اعداءه ، وحطمت ما كان قد اســتقر في الأذهان من خرافة تفوقهم ، ثم كبحت فتنتهم الهدامة ان تعم الاقليم ..

ولم يخف عن أمير المؤمنين انه رد نفســه عن لقاء القوم ، بعد أن اوشك ان يناجزهم ، لأسباب رأى الا يعلنها بكتابه كأنما قد خشى ان تذيع ، وصارح الإمام بحرصه ــ دون القتال ــ على انتهاج سياسة سلمية ، مآلها في رأيه ، محق الفرقة ، وجمع الشمل ، ووقاية البصرة المصارع . فهو آمل ان يبلغ بالرفق ما قد يبلغ بالعنف ، راغب أن يحسم بالكلمة ما قد يحسم بالسيف ..

كتب في رسالته وهو يشير إلى الغيلة :

« .. .. فأردت أن أناهض ابن الحضرمي عند ذلك .. فحدث امر أمرت صاحب كتابي هذا أن يذكره لأمير المؤمنين .. .. »

فلعله يوميء إلى مناورته التى جرت في إخــلاد خصمه مجرى اليقين ..

ومضى يعرض رأيه :

« .. وقــد رأيت ، إن رأى أمير المؤمنين ما رأيت ، ان يبعث إليهم جارية بن قدامة ، فإنه نافذ البصيرة ، مطاع في العشيرة ، شديد على عدو أمير المؤمنين .. فإن يقدم ، فإنه يفرق بينهم بإذن الله .. .. »

وأحسن الاختيار بدلالة الماضي والحاضر ، وبشــهادة ما انتهت إليه وفادة جارية ، وآلت إليه بعدها الأمور ..

فلقد كان الوافد الجديد كما قال ، من الألى عرفوا بالعزم والصبر وقوة الشكيمة ، الذين يشتعلون حمية ، ويلتهبون غيرة ، ويكادون من ولائهم للإمام ، وتشيعهم له ، يحملون بين جنوبهم قلوبا من نار ، لا تكف لها فورة ، ولا يهدأ ضرام . إنما تغلى وتتوثب برغبة عاصفة مشبوبة السعير تهم أن تطلع على العدو بكل نقمة مدمرة ، وعذاب مهين .. ولا أدل على الإفصاح عما في نفسه ، مما قاله يوم مخرجه من الكوفة إلى البصرة لكعب بن قعين ..

يومها استأذنه كعب أن يستلحقه في مهمته الخطرة :

« إن شئت كنت معك ، وإن شئت ملت إلى قومى ..

فإذا هو على الفور يقول :

« بل معى !.. فوالله لوددت أن الطير والبهائم تنصرنى عليهم ، فضلا عن الإنس !.. »

ومضى على الطريق كاعصار غاضب ، بين خمسين انتقاهم بطانة له من تميم الموتورة التى هاجها من أهلها بالبصرة أن شجت الطاعة ، ووالت العصيان ، ولم ترع ذمة العشيرة ، ولا صلة الرحم في دم اعين المراق ..

وكان في قلبه حريق تتوثب للاندلاع !..

٧

بدا جارية بن قدامة ، اول دخوله البصرة ، بمنزل زياد إذ هو الامير . ثم ثنى بمنازل الأزد وقد شاقه أن يحييهم ، ويذكر لهم بالخير ثباتهم في الحق ، ووقوفهم في وجه الباطل .. فلما استقر به المجلس ، وتشعب الحديث ، وطابت نفسه بما هم عليه ، تلا عليهم رسالة امير المؤمنين إلى اهل الاقليم ..

وكانت الرسالة كما تكون الرسالات امثالها في مثل هذا المقام ، نذيرا وبشيرا ، ووعيدا ووعدا في آن .. نذيرا لمن خالف وعصى ، وبشيرا لمن تابع واستقام ، تحمل الويل كما تحمل الأمان . وتشد الذاكرات إلى أمس الذاهب الذى تناثرت فيه على ارض البلدة المشاقة جوارح واشلاء استذل اصحابها التمرد واسلمهم طعمة شهية للبوار . ثم تهب الرضا للطائع ، والأمان للتائب ، وتتوعد بعد هذا أولئك الذين قد يستخفهم النزق والضلال إلى الصبوء القادر كرة أخرى لخيانة العهد ــ ردة حمقاء ــ للماضي المخذول !

« .. .. فها انا ذا قربت جيادى ، ورحلت ركابى !.. وأيم الله لو ألجأتمونى إلى المسير إليكم ، لأوقعن بكم وقعة لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلعقة لاعق ! .. .. .. »

وارتاحت الأزد للكتاب ارتياح من تفيأ الظل بعد وقدة الظهيرة المستعرة ، وطرق الواحة بعد تخبط في مفازة مقفرة .. فشتان بين يومهم الغابر ويومهم الحاضر .. بين جمحة الهوى الأرعن وثبوت اليقين الرصين .. بين الظلمة والنور !..

وتكلم عنهم صبرة بن شيمان :

« سمعنا واطعنا . نحن لمن حاربه أمير المؤمنين حرب ، ولمن سالم سلم .. .. »

ولم يكن الوافد الجديد من الكوفة بحاجة لسماع مثل هذا الكلام. فأمرهم الآن معلوم . وانحيازهم للإمام عن عدوه لا شبهة فيه . وخلوصهم من الفتنة القائمة يعرفه الولى والغريم .. ولكنه حين جاءهم إنما عساه قد شاء ان يستوثق ان وقوفهم إلى جوار عامل الإقليم لم يعد ـ كبدئه ـ عن مجرد حمية وتعصب للجوار ، بل هو أيضا عن ولاء وإيمان ..

وأردف صبرة يقول ، تعقيبا على مهمة الرسول :

« .. إن كفيت يا جارية قومك بقومك فذاك . وإن احببت ان ننصرك نصرناك .. »

وتوالت في عقبه احاديث المتحدثين ، ينهجون نهجه ، ويلتزمون رايه ، ويرددون ما عبر عنه ، وقد انسوا بالطاعة ، وصبت قلوبهم إلى قمع الفتنة من اى جحر تسللت ، وبأى اناس استعزت ومضت تضرب بسيف ، أو تجأر بعبارة ، أو تشير ببنان !..

وإنه لإجماع !..

وعندما نهض جارية ليغادر مجلسهم إلى ما قدم له وقد امتلأ ثقة ، همت كثرة منهم ، ولاء أو حمية ، ان ينهضوا معه ، ويلتحقوا به مؤازرين في سيره إلى قومه المخالفين ..

لكنه كفهم عن المسير ، وابى عليهم ان يصحبوه في رحلته ، وهو يستشعر الأمل ، بل القدرة ، على أن ينجز ــ دونهم ما يريد ..

ومضى الرجل يحث خطاه إلى تميم ..

إنهم عشيرته . هو اولى بهم وهم أولى به . وقد جاءهم من لدن أمير المؤمنين بالعتاب المعذر ، وبالأناة المسمحة ، إذ خاطبه حين راى إيفاده إليهم ليفضهم عن الفتنة :

« يا ابن قدامة .. تمنع الأزد عاملي ، وبيت مالي ، وتشاقني مضر وتنابذني !.. وبنا ابتداها الله بالكرامة ، وعرفها الهدى .. » .

لكم يأمل أن يصغوا له ، ويرشدوا بنصحه ، تجنبا لما يدرك انهم لا ريب ملاقوه لو ظلوا سادرين سدورهم هذا في ضلالتهم العمياء مع الذين حادوا الله ورسوله .. ولكنه الآن يكاد يستشعر الطمأنينة ، ويعجل لهم ، في باله ، بالانابة قبل الزيغ ، وبالقبول قبل الخلاف . وإذا كانوا قد شاقوا أعين ، وشقوا عليه بالأمس ، فإنه لمستيقن ان منزلته هو في نفوسهم ، وشأنه عندهم ، وكلمته فيهم ، كلها ــ فيما يقدر ويعتقد ــ أبعد عن الهوان وفوق العصيان !..

وابتسم عن اعتداد وثقة ، وهو يذكر عبارة زياد له حين ودعه لهذا اللقاء ، يوصيه :

« يا جارية .. احذر على نفسك ، واتق أن تلقى ما لقى صاحبك القادم قبلك .. » .

أفياترى هم مناوئوه ؟..

بل كلا ، فما جال هذا له في خاطر وإن كان قد عقد العزم قبل مقدمه ان ينهج إلى حملهم على الطاعة كل منهج ولو مشى إليهم على موعظة حسنة ، او عدة مأمولة ، او وعيد مرهب ، أو دم مسفوح ..

وكذلك مضى جارية شوطه ، إلى موقع قومه ، يحدوه رجاؤه .. على لسانه عظة ، وبقلبه طمانينة ، وفي خياله سلام ..

غير ان زيادا لم يشأ ان يترك امر صاحبه بين يدي أمله واعتداده .

فالأمل احيانا خادع ، والاعتداد خوان !.. إنما راى أن يتحوط فيعد له ما يحمى ظهره ؛ ويحوطه ومهمتـــه الخطرة بما يجنبه مصـــير سلفه ، ويكفل النجاح .. فما هو ان خرج جارية من لدن الأزد ، حتى خف إليهم العامل ، يكاشفهم . ويشحن صدورهم بالتحفز ..

وكان من قوله لهم :

« .. إنى والله ما اخترتـــكم إلا على تجربة .. فما رضـــيتم أن اجرتمونى حتى نصبتم لى منبرا وسريرا ، وجعلتم لى شرطا واعوانا ، ومناديا وجمعة .. فما فقدت بحضرتكم شيئا إلا هذا الدرهم لا أجبيه اليوم . فإن لم أجبه اليوم أجبه غدا إن شاء الله .. » .

فشد قلوبهم إليه هذا العرفان بما قدموا له ، وزادهم حمية ..

ومضى يقول :

« .. يا معشر الأزد .. إن حربكم اليوم معـــاوية أيسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم امس عليا ، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة.. ليصـــدع امر قومه ، وانتم الهامة العظمى ، والجمرة الحامية .. فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه ، إن رايتم .. » .

فأسرع أبو صبرة إليه برايه في خارجة الإقليم :

« .. لو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء .. ولكنها جماعـــة دماؤها حرام ، وجروحهـــا قصاص . ونحن معـــك نحب ما أحببت .. » .

وثنى ابنه في عزم صلب ، واصرار عنيد :

« .. يا زياد ، والله ما ادركت املك فينا ، ولا ادركنا أملنا فيك دون ردك إلى دارك . ونحن رادوك إليها غدا !.. » .

وادرك زياد غايته ..

لكن ظن جارية في عشيرته خاب .. ما إن طلع عليهم وطلعوا عليه حتى تبين انه كان مغرقا في الخيال كل الإغراق حين حسبهم ــ لا بد ــ

منتصحين بنصحه ، ممتثلين رايه الذى لا راى غيره يهبهم الشرف والأمن والكرامة .

وكذلك تهاوى أمام عينى رسـول الإمام ــ في لحظة ــ صرح تلك الطمأنينة الذى بناه رجاؤه المسرف عليه في التفاؤل ، كأنما نقضه زلزال !.. واستشعر ، والمرارة ملء قلبه ، انه عاش أيامه السوالف ، منذ مخرجه من الكوفة ، في تيه سراب .. إن عيونهم لتتقد بالغل ، وإن ملامحهم لترعـد بالحقد ، وإن جلودهم لتكاد تشـف عن عروق لا تمتلىء بالدما بل بالعداء ..

ومع هذا فلم تضـطرب فيه جارحة ، ولا اهتزت ثقته بنفسـه ولا إيمانه بصواب ما جاء فيه وإن تصدع أمله فيما خاله من إدراكهم المنصف .. ولئن كانت هـذه البادرة منهم ــ وهى بعـد عبسة على الوجوه الكالحة ــ قد وشت له بما يضمرون من شر ، ففي وفاضـه الدواء المر الذى تستطب به نفوسهم المريضة ، وتعتدل رقابهم التى لواها العنت ومالت بها الخيلاء !..

وكاد يحس عندئذ انه اعين بن ضبيعة وليس جارية بن قدامة !.. فالموقف كالموقف . الصورة هى الصورة ، والصوت هو الصوت .. قد اصطفوا له كسد أصم ، تتكسر عبارات دعوته الهادية على صخوره ثم ترتد إليه حطام اصداء !.. ولغطوا عليه بمثل هدير يغرق نصحه ونجواه في لجة الضياع .. وعندما استمسك بأناته ، وعاود مرارا مرارا حثهم على نبذ الفتنة والفىء إلى الطاعة ، خرج إليه من بينهم أوباش يقذعون له في السباب ما شاء الصلف وشاءت الضغينة . ثم راحت ثمانين الغدر تزحف إليه . ثم همت به لتنال منه ببطشة الكف ما لم تنل حدة اللسان !..

وهاله هذا الجحود من اناس يضن بهم على التلف فلا يكفيهم أن يقارعوه رايا براى وحجة بحجة لو انهم عرفوا سبيلا إلى الحجج والآراء، إنما تأبى عليهم نفوسهم السوداء إلا أن ينتاشوه كالكلاب المسعورة !.. ونفر به عندئذ حلمه كما ينفر جواد روعته حية !.. وتجمدت بين جنبيه الرحمة التى جاءهم بها إذ استقبلوها وعلى أيديهم أكفانه !..

هنا فار قلبه واندلع سعيره يرسل السنة النار !.. وماله لا يفور وإنه الآن لفى شرك طفمة حديثها غدر ، وعلى ارض ترابها عداوة ؟..

والهمته بديهته الصافية ، التى لم يطمسها الهول ، ما كان لابد أن تلهمه في هذا المقام .. فليس للرفق مكان . لم يبق للصبر منزع . لم يعد للجدل مجال .. إنما الألزم ، فضلا عن الأسلم ، ان تنسحب الكلمة من الميدان وتخلى موضعها للعنف وللسيف . فحديث الدم وحده ، الآن ، هو الحديث المسموع !..

وعلى الأثر بعث جارية إلى زياد وانصاره الأزد يستصرخهم أن يسيروا إليه ..

فكأنهم كانوا جميعهم تحت ثوبه !..

سويعة او بعضها تقضت ثم انصب حشدهم يجرى على الأرض حوله يحمل الموت على الأسنة المشرعات !.. موجة بعد موجة اقبلوا ، وصفا صفا تراصوا حيال اولئك الخارجة الغادرة الصابئة ، التى اسكرتها سطوتها ، وغرتها كثرتها ، فآثرت الفرقة على الألفة ، والنكث على الوفاء ، والحرب على السلام ..

وتواقف ابن الحضرمى واعوانه ، فرسانا وراجلين ، في وجه انتفاضة الأزد الجديدة .. لا مناص الآن من خروجه عن نطاق خطته إلى لقاء سافر بات والذين معه يرون الا موجب بعد لإرجائه . فالمداورة أصبحت لا تفيد ، وسياسة التسلل والدس وما انطوت عليه من حركات تحتية أو خلفية قد فرغ ما في جعبتها كله واعتصرت إلى آخر قطرة . والوقت عليه لا له ، كلما انفسخ رقت بقدر فسخته هيبة حزبه ، ورث نفوذه ، واستطار واستفحل شأن مناهضيه في الأقليم .. وإذا كان الأمس قد حمله على الإصغاء لدعوة الهدنة التى دعاهم إليها الأحنف ابن قيس ، فذهلة المباغتة هى التى حادت به عن القتال . فاما وقد جمعوا له اليوم ، وتشرعوا لحربه ، فإنها إذن الجرأة التي يأباها ولا تسندها ــ في رايه ــ قوة تفوق قوته ، او بأس يعلمه فيخشاه . والوضع هكذا يحتم عليه مبادرتها بما يقمعها قبل أن تطل على البصرة كتائب الكوفة التى وعدهم بها الإمام .

ووقعت الواقعة ..

ونوشك ان نقول إن سير القتال أفصح كل الإفصاح ان وافد معاوية كان أنأى عن الحكمة ، وأدنى إلى البطش ــ بل إلى الاغترار ــ حين مشى أولى خطواته إلى ذلك اللقاء .. فلم يبل رجاله البلاء الذى توقعه وتوقعناه . ولم يصبروا لعدوهم في الميدان صبر المستعز بالكثرة ، المدل بالطول ، الذى طالما رأيناهم قد لبسوا ثيابه ، واستعاروا إهابه ، وهم يشيعون الإرهاب ويركبون الناس في البصرة بالطغيان .

كلا ، فلم تطل الحرب . ولا بدت لنا من خلالها مواقف تصورهم مناجزين أكفاء .. بل أسرعت بهم الأقدام يهطعون كقطيع شارد إلى أيما وجهة لاح أنها تجنبهم عن ضربات خصمهم الغضوب وتقيم المهالك .. وكأنى بالكثرة الغالبة فيهم ، وقد حمى النزال ، وآنست من عدوها الصبر والإصرار على النصر ، تؤثر النجاة فتركن إلى الفرار . وكأنى بالبقية الباقية منهم ، وقد انجاب عن عيونهم وهم الاقتدار ، تلوذ بدار ابن سبيل التى كان مبعوث الشام ، منذ مقدمه عليهم ، يتخذها مقرا ودار إمارة ..

وكيفما تعددت أسباب هذا الانهيار المفاجىء الذى اصاب مثيرى الفتنة وتنوعت دواعيه ، فإن ابن الحضرمى لم يجد امنا بملاذه . إنما غدا حبيس هذه الدار التى طالما شهدت جبروته ، وخصمه حولها يحاصرونه ، ويغلقون دونه كل منافذ الخلاص حتى لقد بات منهم في قبضة ضخمة تشتد عليه وتعتصره لتستنزف ما به من حياة .. ولم يكن وحده في شرك الصياد ، بل كان في سبعين من الالى غرته نصرتهم ، وخدعتهم دعوته ، يتخبطون معا في الحبالة المحبوكة ، إن مدوا البصر ففى تيه من الذهول والضياع ، وإن ردوه فإلى حسرة واسترجاع ! ..

وسرعان ما عاجلتهم النهاية .. فإذا هى كأقسى ما تكون النهايات، وأفظع ما تسفر عنه العداوات في معترك قتال ..

في لحظة من لحظات الغضب العاصف ، فار تنور ذلك القلب النارى

المتأجج في جوف ابن قدامة ، وثارت ثائرته ، فاندبع لهيبه جحيما كأنما عن بركان تفجر وراح يرسل حممه طوفانا يجرف ويجتاح ..

وبدا نذير هذا الانفجار المدمر على طرف لسان جارية بكلمة هتف بها لمن حوله من الثوار :

« على بالنار !.. » .

فكانما صعقتهم الصيحة !..

طويلا ،كطول الدهر فيما حسبت الأخلاد ، تلبثوا في صمت أخرس، كتم الصوت ، وشل الجوارح ، وجمد الأنفاس . فالدهشة التى طغت عليهم عندئذ واغرقت منهم الأوصال والحواس في غمرة الخور لم تنبعث عن عجب وإنما عن صدمة عصبية جاءتهم بها دعوته المذهلة التى باغتتهم باغرب ما يجول في وهم ، ويطوف بخيال ، لأنه محال المحال!..

لكن صوته الغضوب عاد ثانية يكرر نداءه هادر الجرس ، حاد النبرة ، بارز المقاطع كأنما ليحفر في روع القوم انها الدعوة التى لا دعوة غيرها تناسب الوضع وتوافق الواقع .. حتى إذا ثاب بهم هديره إلى بعض الوعى ، واستطاعوا ان يشقوا الشفاه المزمومة ، ويحركوا الألسنة بالكلام ، صارحوه :

« لا !.. لسنا من الحريق في شيء .. » .

فلم يرده جوابهم عن الترديد . ولم يردهم ترديده عن إباء ما يريد ..

وحين اعياهم إقناعه : واستيقنوا منه الإصرار الذى لا يهزه جدل ولا يثنيه حوار ، عادوا يخاطبونه باللهجة الكفيلة بأن تحرك القلوب إن كان لا يسعها أن تحرك العقول ..

قالوا له يناشدونه الرحمة والرحم ووشائج العشيرة :

« يا جارية .. هم قومك ، وانت اعلم .. » .

غير انه اصم اذنيه . او لعله لم يسمع وهو هكذا في هدير ثورته . فما كفه قولهم عن عزمه . ولا عطفته القربى على تلكم الفئة المستخفية

خلف الجدران من بنى اصله . إنما زادت غلواء حنقه عليها ، وتضرمت سعيرا ما لبث ان تجسد حطبا يشتعل ويضرب نطاقا محكما من الحريق حول دار ابن سبيل ..

ولا نرانا هنا نعتذر لجارية — وما ينبغي — عن فعلته هذه وإن كانت اليق بحنقه واشبه بطبعه النارى الحاد . ولكننا كذلك لا نظننا ننكر انها لم تكن لتبدر عن مجرد رغبة خالصة في التنكيل ، أو عفو الخاطر دون مقدمات وأسباب ..

ففيما تنم عنه خاتمة ذلك الصراع ، يكاد ابن الحضرمى يتمثل لنا في صورة المتشبث بالمقاومة ، المتعلق بالثبات لأعدائه إلى آخر نفس وآخر قطرة دماء .. بدا الرجل ، حينئذ ، المصابر الذى يخلق بالكلفين بالمجد المتصدين للعظائم امثاله ان يكونوه ، والمجالد الذى إن ذل نفره لم تذل نفسه وإن أعوزه العتاد لا يعوزه الاعتداد .. فما نعلم انه — إذ خذلته جموع انصاره في ساحة القتال — قد وضع سلاحه او رفع راية أمان . بل قد اسرع إلى الدار والحفنة التى تابعته يتخذ منها قلعة ، ومن جدرها دريئة ، ويثبت بها ثبات المتأبى على التخاذل ، المترفع عن التسليم ، محاولا ان يقابل هجمات عدوه على ملاذه بكل ما يسعه صبر المستيئس الذى لا سلاح له غيره في مثل هذا المقام .

بهذا تطالعنا شواهد الحال . ثم تنطق بأن أمد هذه المقاومة اليائسة لم يكن بالقصير . ثم تظهر ابن الحضرمى قد لج في عناده ورفض ان ينزل على حكم الواقع فيخلى معقله ، ويلقى سلاحه ، ويضع نفسه ومن معه وديعة في ايدى المنتصرين وإن ايقن اليقين كله ان مقاومته هباء وفناء !.. ولا نشك هنا في انه دعى إلى التسلم وإن كنا لا نقطع اكان جارية ، ام زياد ، أم سواهما من أصحاب الراى في الجيش الظافر هو الذى دعاه . ولكنه دعى على اية حال . وأبى الاستجابة للدعوة . وتسامع الناس في البصرة بالدعوة وبالإباء كليهما فأقبلوا — على اختلاف ميولهم وعواطفهم : متشيعين أو معادين ، مشفقين او شامتين — ليشهدوا ما يكون : اهو استبسال فاستئصال ، ام انهيار فاسار!..

تكاد سيرة هذه المقاومة تنضح بما أسلفنا من صلابة ابن الحضرمى واصحابه المعتصمين وتابيهم على الاستسلام . فلقد اقبلت الجموع

لترى النهاية عسى أن نفرح بنجاة ولي أو ببلية غريم .. واقبلت فيها امة ولهى ، قد ملكها الجزع على ولدها الرابض وراء الاسوار .. ولعلها لم تكن إلا واحدة من امهات وآباء قد استطارهم خوفهم على الأبناء الذين اطبق عليهم الحصار .

وكانت حبشية ، داكنة اللون . ولكن وجهها الأسمر حال من هلع حتى غدا اشهب بلون شعرها الذى غزاه المشيب . وكانت تنصب ــ من عجل ــ في مشيتها كالسيل . وتضطرب ، من رعدة ، كشراع في بحر ثائر . وتمرق ، من لهفة ، في الزحام كالسيف وهى تهطع الى الدار . فلما أن أفضت الى الباب ، راحت تقرعه بكلتا كفيها وهى تصرخ منادية ولدها الذى أجنته الجدران ويوشك أن يجنه بعدها الهلاك ..

وظهر لها ، على صرخاتها ، ابنها بعد قليل ، يطل عليها من بعض شرف معقله . فلوحت تدعوه .. وراحت تناشده نفسه وقلبها ، أن يخرج الى الحياة ..

لكن الولد ابى ان يسلك غير مسلك اصحابه ، فلم يلب النداء ..

فالهمتها غريزتها أن تتوسل اليه بما قد يكرهه على طاعتها ، فكشفت راسها ، وابدت قناعها ، وعادت تناديه :

« يا بنى ، انزل الى .. »

فأبى ثانية ، أنفة ان يخون عهد الثبات ..

عندئذ صرخت المراة :

« والله لتنزلن ، او لأتعرين !.. »

واهوت بيدها الى ثيابها تهم أن تخلعها ، لتكشف سواتها للناس ، وتجلل ذلك العنيد بعار اقسى عليه من عار التسليم ..

هذه الصورة النابضة ، إذ ترسم ما كان من صلابة أولئك المستعصمين بالدار ، الثابتين للحصار ، ترسم لنا ايضا صلابة ابن الحضرمى واصراره العنيد على المقاومة ما بقى فيه دماء .. فهى

صدى لعزمته ، وظل لثباته . وما ينزع جندى مثل هذا النزوع إلا امتثالا لخطة قائده ، وترسما لخطاه ..

وكذلك جاءت النهاية كأقسى ما تكون النهايات . فتفحمت دار ابن سبيل بمن ضمت . وذهب الرجل الوافد من الشام ليشعل في البصرة نار الفتنة وقودا للنار . وتبددت خطته الخداعة مع دخان الحريق ..

وعندما انطفأت الشعلة ونشر الموت ظلاله الثقيلة على المكان ، سارت الأزد بزياد فأنزلته قصر الإمارة ومعه بيت المال . فلا منازع له اليوم ، ولا كلمة في الإقليم لسواه ..

وقال له قائلهم :

« هل بقى علينا من جوارك شيء ؟.. »

« لا .. »

« فبرئنا منه .. »

فلقد وفوا بالعهد ، وقضوا حق الجوار ..

الفصل الثالث

١

ما عن الحسد وحده حورب الإمام بالسيف وبالكلمة !..

عن الجهل الجامح في الظلمة رغت به قلوب مطموسة لا تعرف الحق ، ثم تأبى — وإن تبلج واضاء — أن تراه ، سدورا في المكابرة والعناد ، ولجاجة في العمى والغواية ..

عن انحياز ظالم عن الله ، وافتتان صلف عن دينه .

عن قصور ذليل عن تفهم المثل والمبادىء القويمة ، وافتقار عاجز الى التطبع بالخلائق الكريمة ..

عن انتقام أرعن لماض ملوث مقهور ..

عن كل هذه الدنايا ، وغيرها ، التى فجرت حوله العداوات حورب الإمام رجلا وخليفة ، قوة وفكرة .. ولكل هذه العداوات ، وما حالفها ، ثبت مناضلا عن الحق والفضيلة انتصارا لكرامة الإنسان. فما عرف قط من سلوكه أنه سعى في مرحلة من مراحل كفاحه الطويل لتعزيز قدره أو لتحقيق مأرب خاص . ولا رنا يوما في عمره من الدنيا العريضة الطويلة الى غاية لنفسه من مغنم مال أو مغنم صولة..

.. .. .. فما المال ؟..

فيه قال كلمته التي ظلت دائما شعاره :

« المال مادة الشهوات . »

وإليه وجه نظرة العارف الزاهد الذى يراه تبعة ثقيلة على جامعه ، وعبئا يعييه لانه يشقيه ولا يكاد يغنيه :

« يا ابن آدم .. ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك .. »

ومن حصيلة بصيرة ملهمة وروح شفاف أوصى ولده الحسن ومن عسى ـ غيره ـ يصغى لنصحه ويعتبر :

« لا تخلفن وراءك شيئا من الدنيا ، فإنك تخلفه لأحد رجلين : إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت به ، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فكنت عونا له على معصيته . وليس أحد هذين حقيقا أن تؤثره على نفسك .. »

.. .. .. وما السطوة ؟..

متاع يزول ، وعرض يحول فهى صفقة مغبون إلا أن تكون أداة لإعلاء الدين وتوكيد إنسانية الإنسان . أما جاهها فهباء ، وأما مجدها فطلاء .. دخل عليه ابن عباس إبان إمرته وهو جالس يخصف نعلا بالية ، فرفع بصره عما في يده ، وسأله :

« ما قيمة هذه النعل ؟.. »

قال ابن عباس :

« لا قيمة لها يا أمير المؤمنين .. »

فإذا هو يقول في هدوء :

« والله لهى أحب إلى من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقا ، أو أدفع باطلا .. »

.. .. .. وما الدنيا ؟..

سئل عنها فقال :

« ما أصف من دار أولها عناء ، وآخرها فناء .. في حلالها حساب ، وفي حرامها عقاب !.. »

ثم وصفها وهو يرجو أن يزوى عنها الناس :

« دار منى لها الفناء ، ولأهلها منها الجلاء . حلوة خضراء ، قد

عجلت للطالب ، والتبست بقلب الناظر .. فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف .. »

وعمل دائما بما قال . فإن هى إلا محنة واختبار . أو دار مجاز لدار قرار . ليس لها عليه سلطان ، ولا له فيها هوى ، لأنه ازهد من أن يتعلق منها بنشب ، أو يهفو إلى طلب . ولأن قصاراه فيها لقمة تقيم أوده هو اوثق بأنها حتما بالغته إذ هو أوثق بما عند الله منه بما في يده أو يد أى انسان ما بلغ الشأو في بسطة الغنى والثراء أو بسطة النفوذ والسلطان .

قيل له :

« لو سد على رجل باب بيته وترك فيه ، من أين كان يأتيه رزقه ؟.. »

فجرى جوابه على منطق السجية النقية والفطرة السليمة ، لا على منطق الشهوة الجشعة والرغبة المنهومة :

« من حيث كان يأتيه أجله !.. »

أفقد أصاب ؟..

كيف لا !..

وإنما الرزق منذ الأزل ، وإلى الأبد ، أمر مقدور ، وقدر محتوم مسطور .. فمن رأى في هذه النظرة إيمانا أوثق الإيمان بالله فقد عاين الصواب . ومن رأى فيها استكانة واستسلاما يحبسان صاحبها بين أسوار واقعه القائم ولا يسميان به إلى الخروج منه بتغييره لواقع « أفضل » ، فقد مشى على الخطأ وتردى فيه .. فالفضل ليس بالمال . والمال ليس الحياة . والسعي يتسع لنشدان قيم كثيرة اخرى فاضلة ، سوى المال ، أجدى على الفرد واصلح لشأنه كإنسان لا يعيش بدنا خالصا في هذه الدنيا بين ابناء جنسه وإنما يعيش ايضا بالروح .. والأصل في المال أن يكون دولة بين الناس ليحقق غرضه في إنعاش المجتمع وتنميته وليس الأصل ان يحتجز في أيدى فئة يستأثرون به ويستعلون على من عداهم بجبروته . فما ينبغى له ان

يكون أثرة ، كما لا ينبغى لهم ان يكونوا خزنة ، لأنه « وظيفة » هم العاملون فيها ، يعطلها بلا ريب حجبه واكتنازه .. وكفى المرء منه ما يسد حاجته ، كسرا لجشع نفسه ، ودفعا لحسده غيره ، وضمانا لقيام مجتمع بشرى متطهر على أسس خلقيــة كريمة ، ينحسر فيه طغيان المادة ، وتضعف سطوة الأنانية ، ويخف جموح السخط الذى يضطرب دائما بالعلاقات الاجتماعية بين الناس اضطراب الغرائز الحيوانية بالضوارى في الغاب خضوعا منها لشريعة الظفر والناب !..

أجل قد أصاب .. وما كان في هذا المجال إلا مترسما خطوات رســول الله الذى لو شاء ان تجتمع له كنوز الأرض لاجتمعت له ، أو يشير الى ذهبها لاقبل عليه ، فإذا هو يعف عنها ، ويزهد فيها لأن كل هذه الحياة وما تضم ليست سؤله . وإذا هو حين يأتيه جبريل ، عارضا عليه خزائن الدنيا يردها ويأباها رد غنى مستغن ، وإباء كاره عزوف :

« لا حاجة لى فيها .. بل جوعنان وشبعة !.. »

من معين النبوة نهل الإمام . وبخلق محمد تخلق . وبالهدى الإلهى اهتدى في علاقته بالناس اجمعين ، أولياء واعداء .. لم يكن قط يثيره أن يخسره احدهم بعض حقه ، او يعدو عاد على خاصة ماله ، لأن الحق الشــخصى ، في اعتباره ، ليس ســوى عرض زائل لا يرى ضيرا في الرخصة فيه .. ولكنه كان ، إلى جوار هذه الأريحية المسمحة ، يحنق الحنق كله ، ويثور اعنف الثورة ثم يشتد في حساب من يجور على حق الأمة أو يحاول الانتقاص منه إلا في الله ..

وها هو الآن ، وقد تضافرت عليه عوامل الظلام والضلالة ، لا يجنح فتيلا إلى مهادنتها أو الصبر عليها ، فلا يترخص في التصدى لها بكل ما في قلبه من إيمان ، وفي جنانه من ثبات ، وفي يمينه من سلاح لأنها قد طغت على حق الأمة ، واجترأت على شرعة الله .. ففى الترخص بهذا المقام صد عن سبيل ربه ، وزيغ عن جادة دينه ، وخذلان لما ألقى في روعه وقر في يقينه .. وهل قد ولى امور الناس ، تحت ضغط منهم ، وعلى كره منه ، إلا ليحمى الإسلام من نكسة كانت خليقة عندئذ أن تذهب بريحه ؟..

قال مرة يحــدث عما دفعه لقبول الإمرة بعد ما كان من تأبيه ، حرصا على إصلاح ما أفسـد الولاة في عهد عثمان ، وعودا بالدين الى نهجه الصحيح :

« .. .. أمسكت يدى ، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإســلام يدعون إلى محق دين محمد .. فخشيت إن لم انصر الإسلام وأهله ان أرى فيه ثلما أو هدما تكون المصيبة به على اعظم من فوت ولايتكم التى هى متاع أيام قلائل يزول منهــا ما كان كما يزول السراب .. .. »

لا حيلة له إذن فيما طرأ من تقلبات إلا ان يصدع بما يحتمه عليه إيمانه ، وما يرتقبه منه دينه . ولو انه كان غفلا من النفوذ ، أو قد قشر عنه سلطانه وذهبت شوكته كحاكم مسئول لما هادن ولا لان . بل لاستبدل الكف بالسيف ، واللسـان بالسنان حتى يقضي على قوى الشر والغواية ، التى راحت تناوىء الله في عباده ودينه ، ليطهر الأرض منها أو يلتقمه التراب .. فكيف وما زال بوفاضه ذخر من بأس يسنده ، ورفقة من صحب تؤيده وإن بدات الدنيا تشغل بنشبها وزخرفها كثرة ضخمة من رجاله وتلهيهم عنه ؟..

يقول في صدد نهوضـه لأعداء الله :

« .. .. وإنى والله لو لقيتهم واحدا ، وهم طلاع الأرض كلها ، ما باليت ، ولا استوحشت .. .. »

إن تلك العداوات لم تكن لترده عن عزمه وإن جمت ، ولا لتعجزه عن تعقبها وإن توالت ، ولا لتوئسه من صبره وإن اشتد ايدها وصلبت شوكتها ما دام يستطيع أن ينهض لها ــ ولو بالبقية الباقية من اعوانه على يقينه ، ولو بنضـه : بلسـانه او يمينه !.. ولقد كان فيما ظهر من انحرافها وهو بعد في مستهل عهده ، ما يكفيه للمعاجلة بالصراع ، فـكيف وقد أطلعت قرنيهــا ونشرت له زبانييهــا وبدأت الإغارة والانقضاض ؟.. إنما اتحادها اليوم على حربه ، وتفاقم خطرها على الضمير العام ، وامتداد طغيانها على الثرى الإسلامي حقيق بأن يزيد صلابته ، ويلهب حميته وإن تمثلت كوحش اسطورى اشبه شىء

بأخطبوط تعددت شعبه وأطرافه وأوشك ألا يسلم من عدوانها مكان أو إنسان ، بعد تزايدها فرقا وطوائف ، وتغايرها مذاهب وآراء ، وامتداد حركاتها المدمرة وتغلغلها – كسروح الزيت في الثوب – في كلا الأديمين السياسى والاجتماعى للدولة ..

أفيهدأ ؟.. أم يصانع ؟.. أم يصارع ؟..

في كلمات قلائل أجمل نظرته ، ورسم الدافع الذى يحدد اتجاهه :

« .. .. ولكننى آسى أن يلى أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها ، فيتخذوا مال الله دولا ، وعباده خولا ، والصالحين حربا ، والفاسقين حزبا .. .. »

نذر في الأفق تنبىء عن طوفان جاهلية ، وعاصفة استذلال ، وزلزال ردة عن كل كريم وقويم في حياة الإنسان ترسمه القيم الخلقية الرفيعة ، ويقوم عليه خير البشر ، ويحتمه الدين ..

محنة ماحقة ما لها غير الجهاد ..

٢

طولا من الشمال للجنوب ، وعرضا من الشرق للغرب ، وعمقا في السهول والقفار وفي الجبال والأغوار ، كانت تلك المداوات تنتفش وتنكمش ، وتنبسط وتنقبض كانبساط الصدر وانقباضه في الشهيق والزفير !.. كانت تتربص لتثب ، وتثب لتنقض ، وتنقض لتدمر ، ثم تفتر حدتها بعض فتور أو تسكن ، تلتقط النفس ، وتنظم الصف ، لتتربص ثانية وتعاود دورة حياتها من جديد ..

صور عدة عدوانية تلاحقت في سنى عهده القصير . إذا اجملت دلالتها فنبعها الذى لا ينضب ذات الإنسان بما ركب فيها من عقل ونفس وجسد . وبما انضمت عليه من فكرة خادعة او مخدوعة ، وهوى مضلل أو ضال ؛ ومادة معتمة صماء . وبما في طاقة ثالوثها

البشرى ان يفرز من اباطيل ومطامع وشهوات .. وإذا أوجزت غاياتها فإنها القضاء عليه ، إذ هو أمير المؤمنين أو هو واحد من جمهور الناس ، وضرب نفوذه : سلطة زمنية حاكمة كان هذا النفوذ تسندها قوة الإمرة ، أو سلطة روحية هادية تنبعث من قوة العقيدة .

فإذا قيل هنا إن الذات البشرية هي الذات البشرية في كل زمان ومكان ، وإن الإنسان على مدى الأعصر هو الإنسان ولا غرابة إذن أن تتحالف على على نزعات الانفس لأنها كانت خليقة أيضا أن تتحالف على سواه لقلنا إنها لكذلك . ولكن الغرابة ، مع ذلك في هذا الموضع ، ليست في نضح النفوس بما فيها وإصدارها في سلوكها الخبيث عما هي مجبولة عليه ، بل في انحرافها المسرف نحو الشر ، وإغراقها المسف في الدنايا في وقت ظن خلاله انها أقدر على التحكم في غرائزها الجلفة وادنى الى الترفع عن المغويات .. فمحمد عندئذ لم يكن قد طال العهد بغيابه ، والدين لم تخلق جدته ، وتعاليمه التى جاءت لتدعم الخير وتوهن الشر عن طريق تنقية السلائق وتهذيب الطبائع لم تكد صحفها تطوى وترفع عنها الأقلام !..

والحركات المضادة التى شنها عليه أعداؤه توشك أن تعلم لنا بملامح وسمات قد تباين بعضها عن بعضها الآخر حتى لتبدو للباحث تلك العداوات التى تنشبها كالمتفرقة أو المنقسمة على نفسها لاختلاف الأسباب التى أنجبتها ، والبواعث التى حركتها ودفعتها الى المجاهرة بالعداء . ولكنها ، وإن تفردت كل واحدة منها باتجاه احادى وبسلوك خاص أفرزته طبيعتها ، قد اجتمعت كلها على غرض عام موحد هو محق الرجل الذى تعاديه ، تماما كالفيالق التى تحارب على عدة جبهات ، لكل فيلق قيادته ، وأسلوبه القتالى ، وهدفه المحدود ثم لا تكون غايتها الكبرى غير نصر مشترك يحقق الغرض العام .

على هذا النحو نرى الإمام موزع الجهد والتفكير بين العناصر المعادية التى تشرعت لحربه ، وبخاصة في هذه الآونة الأخيرة من عهده إذ تبدت حصائل الماضى القريب والبعيد وقد تراكمت ووجدت التربة الخصبة لاستنبات الخلافات .. ولا مجال هنا لتتبع هذه الحصائل إلى جذورها فرادى أو بطول الاستقصاء .. ولكن طبيعة العصر يمكن

ان تمدنا بخيط يسلكها كلها وتنتظم فيه كحبات العقد تتوالى وتتجاور كيانا متسقا وإن اختلفت فيهما الحجوم والالوان ثم تباينت مصادر النشاة او تغايرت مناجم التعدين !.. ولعل اقدر ما قد يعيننا على استكناه هذه الطبيعة ، وهتك سرها ، هو أن نرد اصلها قليلا إلى الوراء ، ثم نستشف كيف كان السلوك العام للمجتمع العربى الأول تجاه الإسلام في مستهل فجره .. عندئذ تقع العين الناقدة على دين جديد يطلع بكل ما هو غير مألوف على مجتمع متمزق ، يحيا حياة كالبدائية ، وتسوده روح القبيلة المنبعثة من السلطة « الأبوية » تمثلها السيطرة « الفردية » للشيخ ، ويضطرب فيما تثيره هذه الروح من حمية وتعصب ، فمن تنافر وتناحر ، ثم من تخلخل وتفكك في المجتمع الكلى بمقدار تعدد القبائل والعشائر ، أو الوحدات الاجتماعية التى تعيش فيه ..

فما هو المنحى الخليق بمثل هذا المجتمع ان ينحوه ، وما هو المنتظر من مثله أن يسلك إزاء ذلك الدين ؟..

مفتاح سلوكه ، أو دافع اتجاهه ، بغير جدال ، ومن أقرب مورد ، هو « النفع » الذى يستطيع ذلك الدين ان يحققه لكل وحدة من وحدات المجتمع كمجموعة ، ثم لكل طبقة او فئة في النسيج الاجتماعي للوحدة على انفراد .. وتقدير قيمة هذا النفع في هذا المقام رهن — بطبيعة الحال — بعوامل شتى تتصل بمكونات امزجة الافراد والجماعات ، وأوضاعهم النفسية ، واساليب تفكيرهم ، ودوافعهم السلوكية التى تحددها جميعا البيئة المكانية والزمانية ، والطباع والتقاليد ، وتراثات تواريخهم القبلية المنحدرة في عروقهم عبر الأجيال . ولكنه ، آخر الأمر ، أشبه شيء بحساب الأرباح والخسائر الذى لا يعول فيه على دلالة المفردات الرقمية واتجاهاتها إلى الصعود والهبوط ، الغنم أو الغرم ، بل على الحصيلة النهائية لهذا الجانب او ذاك .

ولا يمكن أن يطعن هنا بأن تناول الدين من هذه الناحية لا يتفق وما له من طبيعة روحانية لا توزن عناصرها ، ولا آثارها ، بميزان الذهب أو تعاير بمعيار المال فلا وجه إذن لإخضاعه لتفكير مادى يربط بينه وبين المنافع المادية ، ويعتبره سلعة في سوق المتاجرة بالبيع والشراء

يروجها الكسب ، وتكسدها الخسارة .. لا يمكن هذا ولا يسوغ اعتباره إلا ان تكون النفوس كافة ــ وعلى غير حقيقتها « الأرضية » ــ ذات جبلة « سماوية » خالصة صيغت من الصفاء والنور فتنجذب تلقائيا إلى الدعوات الإلهية دون التأثر قليلا ولا كثيرا بالمرغبات والمرهبات . فأما والبشر هم البشر ، ونفوسهم فيها جانب مظلم وجانب مضيء ، فنظرتهم إلى الدين خليقة بالا تتجرد مما بنظرتهم إلى أى معروض يقاس إقبالهم عليه بمقدار الرغبة فيه ، والحاجة إليه ، والمنفعة المنتظرة منه !..

وإذا كان علينا الا ننكر ان مواكب الإنسانية على طريق التاريخ لم تخل ــ حتى في اظلم العصور واشدها جاهلية ــ من نفوس لاهوتية نقية وبشر ربانيين فنوا في ذات الله ، وقصدوا بابه شغفا وحبا وليس خشية عقاب او ابتغاء ثواب ، فإن لنا أيضا ان نقرر ان جموع هؤلاء في كل عصر ــ ولا نقول في كل جيل ــ لا تجاوز الآحاد المعدودة والأفراد المحدودة ، وهم بهذا خروج على الإجماع ، وشذوذ عن القاعدة كحبة اللؤلؤ في صحراء شاسعة من الحصباء !..

المنفعة على اختلاف صورها ، وبتعدد قيمها في حدود تباين التقدير ، هى التى ربطت العرب بالإسلام ، من بدء نزوله ، ومن بعد اشتداد أيده وانتشاره ، ثم صنفتهم طوائف ومجموعات نمت لها على الزمن خصائص مميزة ذات اثر فعال في تحديد سلوك كل مجموعة ، ففى توجيه السلوك العام .. ولا حاجة هنا لذكر اولئك الذين صفوا نفوسا وضمائر ، وهيأتهم خلائقهم السوية لاستقبال دين الله بالقبول عن إيمان مرده حاسة روحية مرهفة أو تقدير عقلى سليم . فهؤلاء هم الرواد وبناة الدعوة الذين امتلأوا بها ، واخذوا انفسهم بغرسها في القلوب والأذهان .. أما من نعرض لهم بالحديث في هذا الموضع ، إبانة عن صنوفهم ، وكشفا عن مناحى سلوكهم ــ حينئذ ومن بعد ــ كيف كانت ، وكيف حولت حركة التاريخ خلال عهد الإمام ، فإنهم من عداهم من اتباع الدين .

ولقد يضفى على المنظر ما يدنيه إلى الواقع الإنسانى في كل آن ، أن نقرر هنا أن السلوك العربى تجاه الإسلام لم يخالف الطبيعة البشرية

في شيء وإنما طابقها ونضح عندئذ باتجاهها « التقليدى » المألوف حيال كل ما جد ــ قبله ــ من عقائد وأديان . فعبادة الله دائما على الوان ، بقدر تفاوت استنارة البصائر ، واختلاف القدرة على الإحاطة بذاته ، أو تغاير حدود الإحساس بالعقيدة ودرجات التقدير لما بها من شرائع ونواميس .. وفيما رسمه الإمام لهذه الألوان من الاتجاهات ما قد يصنف صور الإيمان ..

قال :

« .. إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد . وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار .. » .

ويكاد الأمر لا يتطرق بنا بعيدا عن النهج الحق لو رأينا أن الكثرة الغالبة ممن دخلوا الإسلام ، بدء ظهوره ، ومضوا عليه ، كانوا مشايعين لبضعة من قادة الرأى فيهم ، متأثرين لخطاهم ، استجابة لداعى الإبقاء على وحدة القبيلة وهيبتها ، أو نزولا على مشيئة السلطة الأبوية فيها المتمثلة في الشيخ . فكما وقفت العشائر العربية ، بزعامة شيوخها ، تناوئه عند إعلان مولده ، وتنكر عليه حقه في الذيوع بين رجالها ، وقفت ايضا تساند الدعوة ، بعد قليل ، بزعامة أولئك الشيوخ ، حين آن لهم أن يلحظوا ارتفاع نجمه وعجزهم عن حسر موجه المتدافع كالطوفان ..

وليس هذا ــ بطبيعة الحال ــ بالقول الفصل ، ولا القاعدة التى لا تقبل الاستثناء ، بل هو الرأى الذى نجده يؤخذ على الترجيح والتغليب فإذا هو يظفر من الحقيقة بأوفر قدر ومن الصواب بأكبر نصيب فما يغيب عن البال أن الإسلام قد أخذ ــ في البدء ــ يشيع في الناس فرادى ووحدانا ، ينصل المرء إليه من طاعة قومه ، ويخرج بإيمانه به على إجماع راى القبيلة . وما يغيب أيضا أن الإيمان « الجمعى » به لم يكد يقع إلا من السنة التاسعة للهجرة حين توالت الوفود العربية على المدينة بزعامة رءوس العشائر أو ممثليهم يبايعون الرسول لأنفسهم واقوامهم على الإسلام بعد أن رأوا قريشا ، وهى أمام العرب حينذاك ، تدين له ، ويخضع سادتها لسلطانه صاغرين ..

ومع ذلك ، فليس يطعن على القـادة ، او على طائفـة منهم ، أن دخلوا الدين خوفا وطمعا ، إذ خايلتهم فيه منفعة منتظرة او مؤكدة ، تحفظ عليهم هيبتهم ، أو تعيد لهم عزا دارسا وترفع شأنا موضوعا يغدون بفضله وهم رءوس من بعد ذيول وصدور من بعد أعجاز ، ما دام المظنون بتنافسهم على ارتياده ان يتقدموا في الدولة الجديدة على من عداهم من المتخلفين عنه من الاشباه المناظرين أو الغرماء المنافسين . وما دام تعضيدهم إياه ، وسيرهم في ركابه ـ كيفما كانت الدوافع ـ قد حسر المد الكفرى ، واضعف موجاته ، ثم حول الجزر العقيدى إلى تيار دافق كأنه شلال ..

وكما كان الإيمان على الوان ، فكذلك كانت الدوافع إليه عديدة بقدر تعدد الرغبات والمثيرات ..

فحمزة ، وهو على الكفر ، دفعه غضبه لابن اخيه إذ آذاه اناس من قريش أن يذهب إليهم ، فيشتمهم ، ويشج كبيرهم ابا جهل بن هشام، قصاصا وثأرا ، ثم يتحداهم ويعلن إسلامه ..

وعمر أخذته الرقة على أخته فاطمة بعد أن ضربها لإسلامها واسال دمها ، فاسترجع وأناب ، وتابعها على دينها الذى طالما وقف منه ومن أتباعه أشد مواقف العنف والعداء ..

والأنصار في العقبـة الأولى حفزتهم منافسـتهم يهود المدينة ان يسرعوا إلى محمد بالبيعة ، ويسـلموا على يديه ، وبعضـهم لبعض يقول :

« هذا والله النبى الذى تحدثكم به اليهود ، فلا يسبقونا إليه !.. »

وأبو سفيان بن حرب يعقدها صفقة تجارية ليسلم !.. فلا يقر بأن محمدا رسول من عند الله ، عن اقتناع وطيب نفس ، بل خشية سـيف يهم أن يومض وهو يهوى على عنقه ، ولقاء فخر يميزه به الرسول ..

وتتواتر الأمثلة لتعرض صور الرغبات فإذا هى تجل عن الحصر لأنها تكاد تتعدد عدد الأفراد !.. فإنما الناس أهواء . وإنما الدنيا امل.

وإنما الدين سلعة « نفسية » تخضع ، كالسلع المادية ، لقواعد البيع والشراء !.. وفي حديث رسول الله لعدى بن حاتم وقد وفد من الشام المدينة عملا بمشورة اخته ليرى رأيه في الالتحاق بالإسلام ما يلقى ضوءا على جانبى الخوف والطمع في النفس البشرية إذ هما معين الرغبات ..

يقول الرسول لعدى ، باسطا له أوجه « المنفعة » المنتظرة من الدين :

« .. لعله يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فيوشك ان يفيض المال فيهم حتى لا يوجد من يأخذه .. او لعله يمنعك ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف.. او لعلك إنما يمنعك من الدخول فيه انك ترى الملك والسلطان لغيرهم ، فيوشك ان تسمع بالقصور البيض من بابل قد فتحت .. » .

هكذا كانت حالة العرب العقيدية ، وكان انفعالهم بالدين في فجر دعوته . ولئن بدت لنا الصورة منتقصة لا تنقل لنا الهيئة الكاملة لوضع المسلمين العام في عهد الإمام بعد جيل وبعض جيل من ظهور الإسلام ، فإنها لا ريب شريحة من هذا الوضع الكلى ، أو ـ بالتعبير المألوف ـ « قطاع » منه ، تجتمع فيه كافة خصائص الأصل وصفاته فلا يختلف احدهما عن الآخر في الكيف ، وإن اختلفا في الكم . ولا في النوع وإن اختلفا في المساحة او المقدار .. فإذا كان العرب ـ وهم على عهد الرسول قلة في مجتمع كالبدائى محدود المطالب ، وبحكم طبيعة بيئتهم اقل الشعوب المعاصرة إغراقا في ترف المدينة ـ لم يستطيعوا الارتفاع فوق طبيعتهم البشرية وتجريد نظرتهم إلى الدين من رغائب الطموح المادى ، فأولى بغيرهم من الأجناس المترفة ، التى التحقت بالإسلام ، أن تستفيض بهم الأمانى ، وتنبسط رقعة الطموح ، وتكثر المطالب والرغبات .. وإذا كانوا ايضا قد تسقطوا في الدين بابا للمنفعة اجتازوه فأحرى بهؤلاء إذن ، وإنهم لمتمرسون بالدنيا ، خبيرون بالآراب ، أن يتسقطوا فيه لمنافعهم عدة ابواب !..

٣

في حدود الإطار النفسي الذى ضم صورة المسلمين عامة في تلك الايام ، يتبدى لنا ان جمهرة كبرى منهم قد اعتنقت الإسلام عن اتباع لا عن اقتناع ، شانهم في هذا السلوك شأن غيرهم من انصار كل مبدأ ، واشياع كل عقيدة يتكاثرون وينتشرون وهم في حقيقة الأمر كثرة تنقاد لقلة تقود .. فإيمانهم به مشابعة لما هو اقوى او لمن هو اقدر ، يثيرها ما ركب في غرائز البشر من تطلع دائم إلى بلوغ الأمثل الأقوم ، ونزوع مضطرد إلى الوصول للأنفع الأجدى ــ او هو التعبير الصادق والتفسير الذاتي لظاهرة اجتماعية حتمية الحدوث في كافة المجتمعات الإنسانية هي ظاهرة التقليــد .. ودوافعهم إلى اعتناقه تتغاير وتتعدد بتغاير مذاهب الامزجة وتعدد مناهج التفكير ثم لا يحول التغاير والتعدد دون التفافهم حوله كيانا موحــدا ــ وإن تباينت عناصره ــ هو المجتمــع الإسلامي الجديد ، لأن اجتماعهم عندئذ ليس اجتماع تنافر وتضاد بل هو أشبه أن يكون اجتماع « تماهد » وتضافر إن لم يكن هو التناسق والتكامل ، كوحدة الجســد تقوم على تآلف عناصر متعارضة الطبائع متضاربة الخواص ، وكبنية المجتمعات تتحقق بترابط انسجة شتى فيها التماثل وفيها الاختلاف ..

أشتات من الناس سلكها الإسلام في خيط دولته لا نقول بتناقضها من تعدد الألوان أو تباين الأجناس ، وإنما نقول به عن تفرق الدوافع ، وتغاير الانفعالات ، واختلاف الاتجاهات . ولقد نرى انها تضافرت على نشر الدين ، وبناء الدولة ، وبسط النفوذ الإسلامي على وجه الأرض إلى ابعــد الآماد واقصى الأبعاد ، ولكننا لا نستطيع ايضا أن نغفل اقتدارها ــ ككافة البنيات الحية ــ على النمو ، ولا أن ننكر خضوعها ــ كغيرها من الاحياء ــ لقانون التطور الذى يحقق الانتقاء الطبيعي للصفات كما يحققه للأنواع ، فليس إذن بمستغرب أن تبرز ، مع الزمن،

لكل طائفة منها خصائصها المميزة التى تعينها ، أو تحملها ، على التفرد بانتهاج لون خاص من السلوك .

هكذا غدت الحال والإمام عندئذ يخطو خطواته الأولى على جادة الخلافة ، ويحاول ما وسعه الجهد أن يجعل الحكم والرعية كليهما يعملان في نطاق دين الله ، ويسيران على ما شرعه الإسلام .. وليس معنى هذا ، بطبيعة الحال ، أن الثلاثة الذين سبقوه في سياسة الامور قد تهاونوا في التزام ما يلتزمه ولم يرعوا ما يرعاه . ولكن طفرة التغيير الواسعة التى طفرتها الدعوة في فترات إمرتهم القصيرة ، وفاقت بها كل وثبات الأديان وقفزات الثورات ، كانت قد طوت إلى ابعد الحدود احياز المكان وأجناس الإنسان .. فعلى المستوى الأرضى غزت بقاعا تتنوع بها الفصول والأجواء في آن ، وتتغاير طبيعة ثراها وتربتها بين جدب ويانع ، وحزن وسهل ، وجبال ووديان .. وعلى المستوى البشرى شملت شعوبا وامما بينها تمايز في الأصول والمناشىء ، وتفرق في اللغات واللهجات ، وتباين في الأبشار والالوان ثم ما يلي ذلك من تغاير الحضارات والثقافات .. فإذا تلاقحت عندئذ نظرات كل هذه الجموع إلى الدين الجديد ببذور العناصر الحضارية مجتمعة إلى رواسب التراثات البيئية ومقومات الفكر القومى ، فإن هذا هو التلاقح المتوقع المقبول ، والتأثر الطبيعى الحتمى الذى تقره طبيعة الأوضاع ولا يأباه منطق العقول ..

على هذا المدخل تراكمت ، بمرور الاعوام ، كافة التيارات الفكرية والسياسية لكل هذا المحيط الكبير من اخلاط الأجناس والوان الشعوب والاجناس . ومن خلاله راحت — ما تهيأت فرصة وما اشتد تيار — تتسرب قطرة قطرة إلى أساس النظام العام ..

وقد بدت هذه التيارات إلى نهاية الشطر الأكبر من العهد العمرى باهتة لا تكاد تأخذ العين أو تثير الاهتمام ، ولكنها كانت بلا ريب حية في النفوس تعتمل أو تختمر ، وإن بردت حرارتها ، وجمدت حركتها كذوات الدم البارد في موسم البيات الشتوى الذى تكاد تنفصل إبانه عن دنيا الأحياء !.. حتى إذا أوشك ذلك العهد أن يطوى صحائفه ، كانت قد اخذت تنتفض بالحياة ، وتتحرك حركة محدودة ، آنا تدور

حول محورها ، وانا نسير في فلكها او تضطرب اضطرابة تكاد تخرج بها عن مداره المعلوم . فلما أن انتصف عهد عثمان نشطت النشاط الذى ينبىء عنها ، وينبه إليها ، وإن لاحت عند ذاك للخليفة ولكثيرين من ذوى الرأى أو السلطان غير ذات خطر ملحوظ . فكانها كانت ادنى إلى طبيعة البراكين ، تحسب في رأى العين خامدة وهى لاتنى تعتمل في جوف الأرض والسطح ثابت هادىء لا يريب حتى يئين لها ان تقع على موطن ضعف في القشرة الأرضية فتقتحمه منفذا للانفجار !..

ولم يكن عجبا ألا تستطيع سرعة هذه التيارات المتفضة ان تبارى سرعة انتشار الدين أو تسير معها ، على الأقل ، جنبا إلى جنب ما دامت عوامل تفجرها تجيش منذ البدء في النفوس .. فإنما الطبيعى أن تقصر بها خطاها ، والعجب الا تتأخر عن موعدها المقدور والا تتخلف بعض تخلف عن مسيرة الدعوة ثم تلهث في أعقابها وهى تحاول طى الزمن والعقبات لتفرض نفسها على الوجود الإسلامى وتقوم فيه بدورها الخطير .. ومن شاء هنا أن يتقصى لهذا التخلف من الأسباب والدواعى ما شاء فلن يعضل الأمر به ، ولن يكون بحاجة لتسقطها على مشقة ، لأنها في الحقيقة تعلو الندرة إلى الكثرة ، وتعسر على الغموض والخفاء فلا تغيب عن إحصاء ولا يعيى بها استقصاء ..

فما هى الدواعى والأسباب ؟..

لأن يطيف بها الذهن فيلتقط شواردها واشتاتها من هنا ومن هناك فهو التزيد الذى لا موجب له ولا حاجة فيه ما دام الإقصار يغنى عن الإطالة ، وذكر المحصلة الكلية يجزى عن الإفاضة في إيراد المفردات والأعداد .. فإنما يكفى ان يقال ، في هذا المقام ، إن علة العلل ، ومحور الأسباب والدواعى التى ادت إلى تأخير ظهور تلك التيارات يمثلها لنا أصلان جامعان ، هما نضرة الدين وصلابة اليقين وما أفاده كلاهما على طلائع أبطال الدعوة الإسلامية من قوة روحية لم تعدلها ، وما كانت لتثبت لها ، اية قوة مناهضة في تاريخ الإنسان . فانطلاقة الدين ، كعقيدة ، إلى النفوس على عهد رسول الله ، وهو عندئذ في رواء نضرته واوج عنفوانه ، كانت كاندفاعة السهم عن قوسه إلى الرمية ، إذا ضرب أصمى واصاب ، وإذا اصاب نفذ وغار ، وإذا غار لم يسهل نزعه ..

وصـــلابة اليقين في نفوس الطليعة المؤمنة كانت الردء لهــم ، والدرع الواقية التى تهب الطمأنينة وتورث الثبات والإقدام عند الدفاع والهجوم . وفي رسوخ قدم الرسول في التبشير بدين الله ، وصبر أصحابه الأول معه ، ونضـالهم واياه ذلك النضـال الأسـطورى العنيد الذى لم يلن لوعد ، ولم يخف بوعيد ، ولم ينل من شأو حدته تعذيب ولا تشريد ، ما يغنى عن كل بيان ولا حاجة بعده لبرهان ..

فأما النضرة فإنها تكسب الموصوف بها ــ فيما تكسب ــ سحر المنظر وبهاء الرونق . وهى على إطلاق مفهومها وطبيعتها ــ ســواء اكانت في الأمور أم الأشـياء ، في المعنويات أم الماديات ــ ظاهرة قادرة على الاستهواء وتحريك الفضول لأنها دائما تقترن بانفعال الدهشة نتيجة لاستحداثها خلاف المأمول وبروزها فجأة من وراء المجهول .. فما بها من جدة خليق بأن يعلق بها الأنظار والمشاعر طويلا أو قليلا من عجب أو من إعجاب . ولقد يسفر هذا التعلق البغتى ، بعد تأمل وتفكير ، عن انكار ونفور ، ولكنه قد يسفر أيضا عن رضا وقبول ..

وقد استطـــاع الإسلام ، وهو النضر في الأفكار والاتجاهات ، الحديث بين الأديان والمعتقدات ، أن يظفر ــ ككل جديد ، دع جانبا انه رسالة سماوية واجبة الاتباع ــ بطائفة من الأعوان المبهورين بجدته أو المتطلعين من خلاله الى الانسلاخ من القديم لتغيير الأوضاع .. وإذ هو عندئذ في زهرة عمره أخضر العود في قلوب انصاره الأول من الدعاة المؤمنين بدعوته ، او الأشياع المأخوذين بنضرته ، فإنه أولى بألا تخلق له جــدة ، او يبهت لون ، فيفتر أثره في نفوسهم ، او يتهاوى تمسكهم به ولما يطل بعد عليه الأمد طولا يغير النظـــرة او يقسى القلوب .. وإذ محمد ما زال في الناس يأتيهم من السماء يوما يوما ، وساعة ساعة ، بالجديد من التنزيل ، ثم يفسر ويقرر ، ويرشد ويبصر ، فإنه لا سبيل حينئذ إلى نزوع أيما إنسان في المجتمع الإسلامى الجديد الى التأويل في الدين بما قد ينحرف بتعاليمه ، ولا لتطرق افكار وآراء اليه من خارجه ــ وعبر ما عداه من الأديان والمعتقدات ، او الفلسفات ونظرات العقول والأفهام ــ تطرفا يخلط

به ما يشوب صفوه ، أو يلتوى به عن نهجه ، بالانتقاص منه او الإضافة إليه ..

واما اليقين فإن صلابته التى لم تكن لتلين قد جعلت من القلة المؤمنين بالدين ، المناضلين دون الاعداء والعقبات على بقائه وانتصاره ، قوة تعز في القوى ثم تهون امامها الكثرات .. فالإيمان هو خالق العزائم والإرادات ، وباعث الثبات والإصرار ، وموقظ القدرات الكامنة ومحركها لتندفع قدما اندفاع الاعصار . وهو بهذا سلاح باتر قاطع في مجالات الصراع والكفاح بل هو اول سلاح واقطع سلاح .

ولا غرابة هنا ، وقد اجتمع للإسلام عنصرا القوة : النضرة والإيمان ، ان يظهر على أعدائه ومناوئيه ، ويقتحم ما يعترضه من عراقيل وعقبات . فما رده عن انطلاقه أن ناواه ــ وهو ينشق أولى نسمات حياته ــ طاغوت قريش والقبائل العربية الأخريات التى اخذها عنت الكفر ، وازدهتها حمية الجاهلية ، واستطار بها ــ صلفا وكبرا ــ ولاؤها الأعمى للماضي ، وثباتها الجامد على القديم .. ولا حسر موجة انتشاره ، في إشراقة عمره ، أن تصدت له مدنيات ذلك العصر بما لها من تفوق علمي ومادى ، وبروز في جوانب الحرب والسياسة ، وبما تمثل من دول عظمى وامم عريقة كفارس والروم ، ومصر والشام ، وغيرها من بلاد وشعوب طوت حينذاك رقعة عالم تلك الايام ، وضربت في الحضارة وشأو القدرة إلى ابعد الحدود وأعلى الآفاق .. ولا غرابة ولا شبه غرابة في ظهور الإسلام ، تلك الآونة ، على جميع من اعترضوا طريقه ، وتحطيمه كل ما واجه من السدود والقيود . ولكن الغريب ، أو ما هو أشبه بالغريب ، أن عنصرى قوته اللذين تفاعلا معا ، وولدا طاقته الذاتية الهائلة ، كانت تجثم فيهما ، ومن نفس طبيعتهما لا من خارجها ، جراثيم هدم وتحلل ما لبثت ــ حين آن لها من بعد أن تختمر ــ أن اشاعت الضعف في انطلاقته ، وراحت تتعثر بخطاه ..

في جانب « النضرة » اخذ النفور ــ الذى يثور احيانا على الجديد بعد انحسار المفاجأة عن نفوس فريق من المبهورين ــ يطفو على السطح

إذ امتد الزمن بعض امتداد ، وبعد عهد هذه القلوب بالدين « الجديد » فخلقت فيها جدته وبهت رواؤه . ولا عبرة هنا بطول المدة محسوبا بالشهور والأيام أو القرون والأعوام . بل العبرة بمدى الشعور بهذا الطول . فقد يرث الجديد وهو في زهرة عمره لأن الإحساس به ـ إعجابا به أو عجبا منه ـ قد زال . وقد يرث لما قد يطرأ عليه من عوامل ناخرة وآكلة تنال منه وتغير فيه . كالثوب يرث بآفة قارضة ، أو بالقذر كتراب وغبار ، أو بلسع النار ..

وفي جانب « الإيمان » فشت فاشية من تعصب في نفوس طائفة من الذين تخطفوا الدين تخطفا كعقيدة استجابت لها مشاعرهم المتعطشة عند ذاك للتدين ليملأوا بها في دخائلهم فراغا روحيا كان لابد أن يملأوه .. فالإنسان « عابد » بالسليقة . منهوم بالاعتقاد . مشوق عادة إلى ربوبية إله لأن فيها التفسير الوحيد للأسرار الكونية المحيطة التى لا يستطيع ذهنه أن يرقى اليها على جناح تعليل ، ولأنها ملاذه من سطوة الغوامض والمجاهيل .. فإذا هم جنحوا الى اعتناق الإسلام فذاك انسياق طبيعى مع العاطفة الدينية وإن كان هذا الانسياق العاطفى لا يجيء دائما مطابقا للاقتناع الموضوعى الذى قد تبلغه العقول بعد روية كيفما كان استواء تفكيرها أو التواؤه ، ومدى قدرتها على الإحاطة بالموضوع .. وإذا هم دفعتهم العاطفة وحدها إلى أخذ الدين فإنه الأخذ المتعجد الذى يغدون به أوعية صماء قصاراها الامتلاء ، لأنهم احتووه ولم يفهموه ، شربوه ولم يشربوه !.. فكأنهم النهم الممعود الذى لا ينفعه بشيء إقباله المسرف على المآكل مقادير وألوانا إلا أن يتخم جوفه ، ويزيد داءه ما دامت معدته لا تقوى على الهضم فلا تتمثل عناصر الغذاء !.. وكأنه لديهم ليس سوى طقوس واشكال ، وسور وآيات ، أشبه بهم أن يأخذوه على ظاهر هيئته وفي حدود حروفه بغير اقتدار على الغوص فيه تعرفا على أبعاده وأعماقه ، وتفهما لغاياته وأهدافه . وأن يترسموه شعائر ومعالم دون إدراكه كحكم وتعاليم ، لأنهم يرونه نصوصا تستظهر ، وحركات تؤدى وليس اسلوب حياة ..

من هاتين الثغرتين نفذت عوامل الانتقاض والانتكاس إلى المجتمع

الإسلامي الوليد ـ كمجتمع إنساني فاضل ـ ثم راحت تتسرب في كيانه رويدا رويدا تسرب العلة في الجسد المملول لتجول فيه بالضعف والتحلل دولة وامة ، مادة وعقيدة ، وما كان قد قطع بعد من أشواط حياته غير جيل وبعض جيل .. ولا نشك هنا في ان مرجع هذه النكسة الخطيرة ، لو أحيط به ، ومسحت رقعته الممدودة ، ثم اريد وصفه بما يحدد معالمه ، ويخطط حدوده ، لكانت العبارة التى تطابقه هى قصور أسلوب السلوك عن متابعة نهج الدين ..

فهل عن العجز كان هذا القصور ؟.. أم العمد وسوء النية ؟.. أم التهاون ؟.. أم الضيق بالتزام القيود ؟.. أم شطحات التأويل ينجبها الجهل أو يسوقها الادعاء المغرور ؟..

كل اولاء ، وأكثر ، بغير مراء !..

لكنها جميعا ، وان تستر بعضها بمنطوق النص ، كانت مجافاة خالصة لفلسفة الدين ، وخروجا على مضمونه ، أخلت بالتوازن المفترض بين الظاهر والباطن . الحرف والمعنى . الشكل والروح ..

٤

الاتجاهات السلوكية في اى مجتمع من المجتمعات ليست حركات عفوية عشواء تصدر عنه بغير بواعث محددة . ولا هى أيضا حركات إرادية معبرة يراد لها أن تكون فتكون . ولكنها مجموعة من الظواهر الاجتماعية التى قد تؤثر في تكوينها الصدفة كما قد يؤثر الإعداد ثم لا تكون آخر الأمر ، بعد نضجها واكتمال بنيتها ، إلا مستقلة الكيان بغير حد ، مطلقة اليد بغير عائق ، يحكمها في انطلاقها قانون طبيعى ثابت لا يتغير ولا يختل ميزانه ، فإذا هى به « التعبير » المجسد العملى عن الميول والنزعات ، والنتيجة المنطقية الحتمية للدوافع والتطلعات ، ممثلة في « الفعل » ناشئا عن مدى التكيف مع الظروف المحيطة بذلك المجتمع ومقدار الانفعال بالنظم السائدة فيه ..

وفي ابان تلك الفترة المتقدمة من تاريخ الإسلام ، فعلت هـذه الاتجاهات فعلها في المجتمع ، فحددت ملامحه ، وحركت خطاه ، وتفردت له بأسلوب حياة يخالف بلا ريب أسلوبه الأول عند نشأة الدعوة ، نتيجة لما طرأ من تغيرات عديدة على الأوضاع والنفوس باعدت ما بين الأصل والواقع ، والقديم والحديث .. ولا سبيل هنا الى الادعاء بأن هذا من طبيعة الأشياء إذا اخذت حتمية التطور في الاعتبار ، لأن التطور ــ بمفهومه السليم ــ نمو . والنمو زيادة وارتقاء وليس نقصانا أو رجوعا الى الوراء ..

ويدلنا الاستقراء على أن خط الاتجاه السـلوكي عامة ، في ذلك الحين ، كان يتدلى ، جاذبا معه حركة التطور الى الانخفاض .. وهو بهذا لم يساير بأية حال من الأحوال سنة التطور السليم .. ولا كان صدى صادقا لروح التقدم التي احتواها الإسلام في طوايا تعاليمه . إنما كان ، في حقيقة الأمر ، نكوصا على العقب ، وردة عن النهج ، وخروجا على القواعد التي أرساها الدين ..

فالانحراف عن مضمون الدين آنذاك ، وإن جاء عن جهل به ، او قصور عن ادراكه ، أو تخبط في التأويل ، أو انسياقا مع الأهواء ، او كيفما كانت الدوافع والأسباب وتعددت التعللات والتبريرات ، هو الذي وضع بذرة التحلل في النفس المسلمة ، وفي المجتمع الإسلامي على السواء ، ثم تعهدها لتثمر كل عوامل الضعف والتخلخل التي راحت تنخر فيها وفيه .. ولقد يحسم الجدل في هذا المقام ان ننأى هنيهة عن التخصيص الى التعميم فلا نلصق التهمة بفرد بذاته ، ولا بطائفة من الطوائف ، ولا بجنس من الأجناس دون سواه ، لأن الانحراف فيما نرى ــ كان ظاهرة « مشتركة » . أو قد كان ــ مع الترفق في التعبير ! ــ أشبه بخطأ مشاع بين كافة الطبقات ومختلف الأشياع ..

هذه هي القضية !..

أما أن يقال إن اتساع نطاق الدولة الجديدة قد خلخل قدرتها الذاتية على التماسك كما تمط الثوب بين يديك مطا شديدا لا يكون مآله بعده غير تفكك نسيجه ، وإنفراط قوامه ، وظهور تمزق به هنا

او خرق هناك .. وأما ان يقال إن تعدد الاجناس ، وتنوع الثقافات ، وتضارب الطبائع وغيرها من وجوه التناقض والاختلاف ، قد يسفر اجتماعها عن كيان سياسى موحد هو الدولة ثم لا يسفر قط عن قوام عضوى واحد هو الشعب لانه عندئذ اجتماع اختلاط وتجاور وليس اجتماع تكامل وانسجام .. .. أما أن يقال هذا أو يقال ذاك فهو القول – لا ريب – الذى لا يسوغ أن يؤخذ به على إطلاق ظاهره وباطنه ، مبناه ومعناه ، كأنه قانون طبيعى ثابت . ولا ينبغى أيضا أن يعول عليه التعويل كله في تفسير ظاهرة الضعف والتحلل التى راحت تدب في مجتمع تلك الأيام . ذلك لانه القول الذى يلقى به عادة في مثل هذه الظروف تعليلا وتدليلا فلا يخلو هو نفسه من افتقار الى تعليل وحاجة لتدليل ، إذ لا يلبث أن يصطدم في مجرى منطق الأمور ، وفي نطاق واقع الحياة على السواء ، بشواهد لا تسنده ، وأمثلة لا تؤيده ان لم تنسخه وتنقضه او تجرده – في اقل القليل – من القدرة على الاطراد بغير استثناء في كافة الظروف والأحوال ..

فاتساع نطاق اية دولة ، وترامى حدودها ، أدنى الى ان يحسب لها ثقلا في ميزان القوة لا ان يحسب عليها سببا للوهن لأنه يمدها من الموارد الطبيعية والبشرية – الخليقة بأن تتوفر على امتداد المساحة ونتيجة لتنوع المناخ والتربة – بما يحقق لها من أسباب المنعة والتفوق ما لا يتحقق مثله لدولة صغيرة نصيبها من الارض والبشر قليل .. والتعدد العنصرى أيضا على أديم هذا النطاق الفسيح لا يحتم وقوع تنافر بين الاجناس يؤدى لا محالة الى الخروج على الدولة الأم وتفتيت وحدتها الاقليمية وكيانها السياسى الى دويلات عنصرية .. فكم هى الامم ذات الأثر في الحياة الإنسانية على هذا الكوكب ، التى أوشك بنوها ان يكونوا انقياء الدم إذا ما أردنا بالنقاوة وحدانية العنصر ؟.. وهل من دولة ، قديما وحديثا ، في الشرق وفي الغرب ، قد حركت موكب الحضارة على طريق التاريخ ، ولم يكن قوامها يتالف من اجناس عدة تلاقحت – حيويا او فكريا – وتوحدت ، على الأقل ، في تعاهد سياسى اقليمى إن لم تكن قد انصهرت في عنصر جنسى جديد ؟.. وما هى الفواصل الحادة بين الاجناس البشرية التى

تستطيع أن تحبس ، إلى أبد الدهر ، جنسا وراء اسوارها الشواهق فلا يتصل أو يمتزج بسواه ؟..

ليوشك هذا ان يردنا والزمن إلى الوراء حقبا سحيقة ، غائرة في القدم إلى الأعماق حتى مستهل النشأة الإنسانية على الأرض وجماعات البشر آنذاك شراذم مقطعة يعيشون معيشة بدائية ، لا يمكن أن توصف ـ إلا تجاوزا ورمزا ـ بأنها حياة ، أو يوصفوا بأنهم مجتمعات !.. فتلك كانت بداية « التجمع » الإنسانى او نواة الالتئام والاجتماع . وحركة الإنسان في آونتها هذه لا يكاد يحس لها بأثر في التاريخ العام للجنس البشرى لأنها عندئذ لم تكن لتدور إلا في حيز محدود مغلق من العزلة هو الأسرة او هو القبيلة مع سخاء التقدير .. فأما وقد سارت البشرية في طريقها أشواطا شبت بها عن الطوق ، وخلفت بعدها طفولتها الغريرة الى مرحلة النضج عبر أعصر طويلة ، فإن إحساس الإنسان بذاته ، وإدراكه لدوره في الحياة ، ووعيه بالانتماء لأصل معلوم تناثرت آحاده وجماعاته هنا وهناك على مدى الأزمنة والمسافات ، قد غدت كلها ـ إلى جوار غريزته الاجتماعية ـ قوى فعالة تسيطر على سلوكه ، نفسيا وعضويا ، وتدفعه دفعا الى الالتقاء ببنى جنسه اينما شرقت به وغربت قدماه .

وكذلك تنشأ المجتمعات . بل كذلك يعود الإنسان ، بعد طول تجواله الضال ، الى بيئته الحيوية الأصيلة ، وتعود الشراذم البشرية المقطعة لتتصل وتلتئم كما تثوب الغنمات الشاردة الى مربض القطيع !..

ولا حاجة قط لتأييد هذه النتيجة استهداء بعلم الاجتماع ، ولا عن طريق استقراء التاريخ ، لأنها النتيجة الميسرة الظاهرة لأية نظرة عابرة بغير استهداء ولا استقراء . فالفرع لا ينفر من أصله . والشكل ينعطف على شكله . ولا عبرة أيضا بطول فترات الشرود والانفصال ، ولا باختلاف الألوان وتفاوتها كما بين غنمة سوداء وأخرى بيضاء !.. فمنطق الأمور ، وشواهد الحال يوما وراء يوم تؤكد ، بغير جدال ، ازدياد توثق الصلات بين جماعات البشر على تباعد المواقع البيئية ، وتباين السمات البدنية ، وتمايز الخصائص الفكرية وكل

ما يعلم مجتمعا عن مجتمع وإنسانا عن إنسان . وهذه المواقع والسمات والخصائص واشباهها مهما تعددت وجلت ليست سوى مظاهر خارجية لا تضرب في النفس الآدمية إلى عمق غريزة الاجتماع ، ولا في القدم الى عراقة النوع . فهى إذن فوارق عارضة ، كالرغوة الطافية على سطح الماء تغير مظهره ولا تغير جوهره ، الماء بها وبغيرها ماء !.. ولا مآل لهذه الفوارق ، طال بها المهد ام قصر ، إلا إلى الزوال والذوبان فناء في الأصل الثابت وتوحدا فيه ، وهو « الإنسان » على عموم معناه كنوع من المخلوقات ميزه الله بصفات خاصة ينفرد بها دون سائر الأنواع .

هذه هى نظرة الإسلام التى تنطق بها سطور القرآن ، وتقوم عليها أوامره ونواهيه . وهى دعامة فيه بغيرها يختل بناؤه ، وتهدر أهدافه ، ويفقد معانيه ومراميه ، لأنها تمثل في حقيقتها احد طرفي المحور الذى يدور عليه موضوعه ، وتنهض احكامه ، وهما : الله والإنسان .

فالدين الإسلامى ليس عقيدة بحتة لا تتناول إلا ما يرهف حاسة التدين ، ويهذبها ، ويوطد الرابطة بين الرب والمربوب بما رسم من شعائر ، وفرض من فروض .. لكنه عقيدة وتشريع وإن غلبت صفته الدينية الأذهان على حقيقة ما فيه فكادت — توهما وظنا — تجتزىء منه بشطر التأله دون شطره الآخر الذى يعرض لشئون هذه الحياة ..

والقرآن ليس قصصا يروى ، وكلاما يزجى ، وبيانا يستعذب فيردد ويستعاد . ولكنه قطعا قانون بالشكل والمضمون . وبالمعنى الكامل الصريح لكلمة قانون ، أريد به إنارة الطريق أمام المجتمع الذى سن له إلى حياة إجتماعية يسودها العدل ، ويتحقق لها الخير ، وينتشر في ربوعها السلام . فمن الطبيعى إذن ، وصولا لغرضه ، وابتغاء لغايته ، أن يجيء بما ينظم العلاقات في ذلك المجتمع بين أفراده وجماعاته من ناحية ، ثم بينهم وبين السلطة العليا التى يمثلها من ناحية أخرى ، مقيما تنظيمه على أساس من الدواعى والاسباب ، ومعقبا بأحكام الثواب والعقاب .. ومن اللازم الا يغفل ، أو يتغافل عن هذا الجانب الاجتماعى فيه ، تمحلا بأنه دين « الروحانيات ،

والغيبيات هى مجاله الأصيل . فلا جدوى قط من قانون تقتصر نصوصه على تحديد الصلة بين الحاكم والمحكومين دون ان يضع صلة رعاياه بعضهم ببعض موضع تقدير لانه عندئذ يجرى على التخصيص . والأصل في القوانين أن تكون على العموم لا على الخصوص ..

في هذا الضوء لا يعسر على من يستخلص الأسس العامة ، أن يرى في الإسلام حقيقة كبرى قد ابرزها كراس قواعده ، هى « الوحدانية » الخالصة التى تنتفى معها كل صور التعدد والوان التجزئة وما قد تومىء اليه هذه أو تلك بالتصريح أو التلميح . فالوحدانية التى يقول بها ثابتة لا تتغير ، كلية لا تتجزأ ، جلية لا تتناولها شبهة ، لأن التغير والتجزئة والاشتباه آفات خليقة لو وقعت بأن تذهب بالعقول مذاهب شتى في فهم ذلك القانون القرآنى ، وتغاير بين أساليب السلوك تجاه كل حكم من أحكامه ، ثم تفاوت بعد هذا بين العقوبات والمثوبات بغير ما يقتضيه الإنصاف . وما لمثل هذا شرعت القوانين ، ولا بمثله تساس الأمور والمجتمعات .

ولا يراد بهذا القول أن يعاد ما هو ثابت مستقر من « توحيد » الله في الإسلام فذلك طالما جرت به الأحاديث ، ووعته الأفهام ، حتى غدا بديهية في غنى عن التأييد . لكن الذى ينبغى بيانه أن التوحيد ، بشمول معناه ، وعلى تعدد مجالاته ، هو أساس الإسلام ، وأصل قواعده ، والمبدأ العام الذى يتقدم به ، ويعرض نفسه على العالمين عقيدة وشريعة ، دينا وقانونا ، سياسة ونهجا للإيمان والسلوك . فهذا التوحيد هو الوسيلة لتحديد علاقة الله بالبشر ، وعلاقة الناس بالناس ، دون ما ترخص هناك أو تأويل ، ودون ما تحيز هنا او تجاوز . وهو الضمان الكامل لاستقرار الأمور في المجتمع : حاكما « علويا » ومحكومين « أرضيين » بغير زيادة ولا نقصان ..

فالإسلام كعقيدة لا يبيح مطلقا اى ترخص في شرائط الإيمان اخذا ببعضها وتركا للاخر وإن لاح ان فيها ما يجل أو يهون ، وإن اختلف حولها المكان او تغير الزمان ، لان الإيمان « وحدة » متسقة لا تقبل التجزئة ، كما لا تقبل الإفراط أو التفريط ..

والإسلام كشريعة له وحدته القانونية التي تربط احكامه ، وتلائم بينها ، وتعرف عادة في لغة العرف او العصر بروح القانون . فلا سبيل قط إلى الاحتكام إلى نص فيه بعيدا عن « جو » بقية النصوص . ولا إلى المغايرة قليلا أو كثيرا في التطبيق بسبب تفاوت اقدار المحتكمين أو المختصمين ، وتغاير عناصرهم ، واختلاف النظرة في التقدير بين هذا وذاك ممن يتصدون للتطبيق ، لأن في هذا ما فيه من إهدار الوحدة ومجافاة الروح ..

وكما لا يجزىء الإسلام الله فإنه لا يجزىء أيضا الإنسان . إنما يقضي بوحدة الربوبية الإلهية ووحدة العبودية البشرية في آن . ويحرص الحرص كله على أن يرسخ هذا المبدأ في القلوب والأخلاد بكلا طرفيه : الله والبشر ، بما يبثه في تعاليمه ، وتردده آيات كتابه بجلى الحرف ومستتر الإيماء سواء بسواء ..

فتوحيدا لله ، ينزه الإسلام الذات العلوية عن مخالطة الأحياز زمانية ومكانية ، وعن المشاركة في الملك بالاجتزاء او المشورة ، وفي القدرة بالقول أو الفعل ، وعن المقارنة بالنظائر والأشباه ولو مقارنة تمثيل . فتنزيهه الله خالص كامل ، وقاطع مانع ، يجل عن الوصف ويعلو فوق تطاول المقول ..

ولقد صور الإمام هذا التنزيه ببيان راى ، أمام كماله سبحانه ، ان ينهى فيه عن وصف ذاته ، لقصور الأفهام عن الإحاطة بحقيقته ، وعجز الكلام عن رسم صفاته :

قال :

« .. كمال توحيده الإخلاص له . وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف انه غير الصفة .. فمن وصف الله فقد قرنه . ومن قرنه فقد ثناه . ومن ثناه فقد جزاه . ومن جزاه فقد جهله . ومن جهله فقد اشار إليه ومن اشار إليه فقد حده . ومن حده فقد عده .. » .

وقال مما جرى على نفس المثال :

« .. وحده لا شريك له . الأول لا شيء قبله . والآخر لا غاية له .. لا تقع الأوهام له على صفة . ولا تقعد القلوب منه على كيفية . ولا تناله التجزئة والتبعيض .. » .

وتوحيدا للبشرية أعلن الإسلام أنه دين الفطرة التى فطر الله عليها الناس قبل أن تفسدها الانحرافات المتسربة إلى النفوس والعقول من خلال المعتقدات والأفكار ، أو العادات والتقاليد ، أو فوارق العنصريات . أو حدود الزمان والمكان .. فهو يرد الإنسان إلى سجيته النقية الأولى، كبدء نشأته ، مطهرا من أدرانه ، خالصا من شوائبه ، كأنما يلده من جديد . وهو بهذا يسوى بينه وبين كل من عداه من بنى نوعه لأن الفطرة هى العامل الوحيد المشترك فيهم جميعا فأساس المقارنة بينهم على هذا الوضع ثابت لأنه مساواة مطلقة لا وجه فيها للمفاضلة او الترجيح .. وهو يقيم رسالته على هذه القاعدة ، فلا يوجهها لطائفة من الناس ارتفعت — في حساب المعايير الدنيوية الموضوعة — بجاه ومال ، أو بعلم وثقافة ، أو بقدرة وقوة ، أو بجنس وعنصر .. لكنه يوجه هذه الرسالة إلى البشر كافة ، ثم يحتويهم في رحابها سواسية ، لأنهم وحدة مكتملة لا تقبل التجزئة ولا التفريق .. وليس أدل على هذه الحقيقة من نأيه في الدعوة إلى الإيمان عن التخصيص إلى التعميم فلا يخاطب إلا « الناس » أو « الإنسان » أو « بنى آدم » أو « عباد الله » دون أن يختص أى جنس أو عنصر بالخطاب ..

ويشير الإمام إلى وحدة البشر فيقول :

« .. إنما أنتم إخوان على دين الله ما فرق بينكم إلا خبث السرائر .. » .

ويحذر من عصبية الأحساب والأنساب والعناصر ، بل يهدر طاعة ذوى السلطان الذين يتخلقون بهذه العصبية، لأنها — في حقيقة الأمر — تجافي منطق الطبيعة الذى يجمعهم وغيرهم من مدلوليهم المرجوحين ، في نسب واحد ، أصله واحد لا اختلاف فيه .

قال وهو يفرد العلو لله :

« .. لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه ، وجعلهما

حمى وحرما على غيره ، واصطفاهما لجلاله ، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده .. الا فالحذر الحذر من طاعة سادتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم ، وترفعوا فوق نسبهم .. فإنهم قواعد اساس العصبية ، ودعائم أركان الفتنة ، وسيوف اعتزاء الجاهلية .. » .

ونسبهم هو الإنسانية فكيف يترفع إنسان على إنسان !

وانكر المفاوتة في تطبيق شريعة الله عند الاحتكام ، فقال فيمن يفاوتون ، منحرفين بهذه المفاوتة إلى آرائهم عن رأى الدين :

« .. إلههم واحد . ونبيهم واحد . وكتابهم واحد .. افأمرهم الله بالاختلاف فأطاعوه ؟.. أم نهاهم عنه فعصوه ؟.. ام انزل دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه ؟.. أم كانوا شركاء له فلهم ان يقولوا وعليه أن يرضى ؟.. أم انزل دينا تاما فقصر الرسول عن تبليغه وادائه ؟.. » .

هكذا هو المجتمع الذى عناه الإسلام ، وبناه على قواعد راسخة لا تهتز ، واضحة لا تستبهم على العقول ، لانها تجرى على جادة الميسرات البديهية التي لا تحتاج في إثباتها إلى عناء الجدال ، وتقوم على حقائق الواقع الملموس ومنطق الأمور الطبيعى لا على النظرات المنبثقة من التصور والافتراضات المستمدة من تطلعات الخيال !..

وحدة ..

وحدة سلطة عليا ، لا تتجزأ فلا تنقسم على نفسها . ولا تتغير فتختلف عليها البدائه أو تضطرب الآراء .

ووحدة أمة واحدة الأصل ، متفردة النوع ، بغير تباين بين جماعاتها وأفرادها في النشأة والفطرة والصفات النوعية ، هى البشرية . او هى الإنسان على اختلاف الزمان والمكان ..

ووحدة شريعة مكتملة ، تؤكد وحدة السلطة ووحدة الأمة ، وتتناول العقيدة والمعاملات ، بغير مجاز إلى تبديل في اصولها ، أو ترخص في قواعدها العامة ، لأن تعديل الشرائع موكول إلى الهيئة التى اصدرتها ، ومرتهن بحاجة المجتمع إلى هذا التعديل نتيجة

لافتقار المشرع إلى الإحاطة الكاملة بمـــا قد يطرأ من بعـــد على ذلك المجتمع من ظروف ويجد من احوال ، وحاشى أن ينسب مثل هـــذا الافتقار إلى الله !..

ومســاواة ..

مســاواة بالنشأة ، لأن المجتمع البشرى كله من آدم ، فهو إذن متوحد في النوع ، مختزل في الإنســان على عموم صفته ، بغير تجنيس ولا تفريع ..

ومســاواة بالكنه ، وهو الفطرة الأولى التى يشترك فيها أبناء ذلك النوع كافة ، قبل أن تغير منها او تفسـد فيها عوامل الفرقة «الوضعية» التى تستند إلى تفاوت البيئات والألوان ، او تغاير الأهواء والثقافات..

ومســاواة في التقــدير أمام شريعة واحدة ، لا تمالىء إنسانا على إنســـان ، لأنها عادلة شاملة ، لا تتغير من مكان لمكان ، ولا من زمان لزمان ..

٥

عوامل الضعف كلها التى انتابت المجتمع الإسلامى في ذلك الحين ، ومن بعد ، نبعث ــ فيما تنبىء الشواهد وتثبت الخواتيم ــ من قصور اسلوب السلوك عن متابعة نهج الدين ، أو ، بلغة اليوم ، من المفارقة بين النظرية وبين التطبيق .. فهذه المفارقة آفة مدمرة ، كغيرها من جراثيم الأوبئة والعلل الفتاكة ، قد تهدأ حينا ، وقد تنشط حينا ، ولكنها في الحالين لا تنقضى ولا تنقطع لما لها من طاقة ذاتية تجددها على الدوام وتعينهـــا على البقاء والانتشــــار في كافة الظروف وتحت كل الأجواء بقدر استطاعتها التكيف بأوضاع المجتمع الذى تنشأ فيه !.

ذلك ما لا سبيل إلى نقضه ولا الطعن عليه وإن تعقبنا المجتمعات البشرية بأنواعها على مختلف مراحل التاريخ ، صعودا وهى في ذروة القوة والازدهار وهبوطا في حضيض التـدلى والانهيار .. فما نشـــأ

مجتمع قط في هذه الدنيا إلا على مبدأ عام ـ إلهى او وضعى ـ يرمى إلى تحقيق لون من الخير يشيع في ربوعه ، كيفما تغايرت النظرات من خارجه إلى هذا الخير أو تفاوتت الآراء في تقديره .. وما قام مبدأ في مجتمع إلا على اساس من التوفيق بين مصالح القوى المتعارضة ونقائض الأفكار السائدة فيه ـ طبقية كانت أم فردية هذه المصالح والأفكار ـ ضمانا لخلق توازن نسبى بين أهله ، يذيب الفوارق او يكسر حدتها ، ويجمع شتات الآراء والجهود في وحدة تسعى لتبلغ الخير المقدور .. وما من خلل أصاب هذا التوازن وخلخل اتساقه في مجتمع من المجتمعات إلا كان ناجما من افتقار بنيه إلى الإحساس بالانتماء إليه افتقارا يهز إيمانهم به وثقتهم فيه ، بسبب اضطراب المعايير ، والمفاوتة في التقدير على خلاف ما يقضى به المبدأ العام ..

وظاهرة المفارقة بين النظرية وبين التطبيق برزت في المجتمع الإسلامى الجديد وهو يوشك أن ينسلخ من الخلافة « الراشدة » بأسلوب حكمها الخاضع لناموس علوى لا يأخذ بالملك القائم على مزايا وضعية كالعنصر والنسب وبسطة النفوذ . ولا مدعاة هنا لسوق الحديث إلى المفاضلة بين النظامين لاتساع الهوة ـ قطعا ودون حاجة للتدليل ـ بين الفاضل وبين المفضول ، سواء بالنتائج والعواقب أو بالأسس والأصول ، وكفى أن يقال إنها الهوة التى تضع إنكار الذات في جانب والأنانية في آخر ، وتقدم القهر على حرية الاختيار ، والاجتزاء على الشمول .. ولا مجال أيضا للزعم بأن هذه الظاهرة قد طفت فجأة على سطح المجتمع الإسلامى ، أو اقتحمته على حين غرة حينئذ ، لأن في هذا ما يخالف طبيعة الأمور . إنما الحق ان نقرر أنها ولدت مع المجتمع منذ نشأته ، وعاشت وتربت فيه . فلكل شىء آفة من جنسه ، كما يقال . والإسلام آنذاك ، وعلى عموم معناه ، « مبدأ » جديد . والمبادىء ، في كل موقع وعهد ، خليقة بأن تقابل دائما ، منذ نشوئها وطروئها على المجتمعات بما يضادها . ويصطلح عادة على تسميته « رد فعل » ، تماما كما تنشط كرات الدم في الجسد وتولد طاقة ذاتية لمقاومة اى طارىء دخيل !..

وهذا ما كان .

فلقد ظهرت قوى المقاومة للدين الجديد منذ نشأته ، واخذت ايضا عوامل التحلل والتخلخل تسرى في المجتمع في نفس الآونة ، وإن مشت حينا على استخفاء وحينا على سفور . ولقد لاح ، فيما سبق به الحديث ، كأنما كان أولى بهذه العوامل ، أن تفعل فعلها التخريبى منذ بدات ، ما دامت قد عاصرت مولد الدين ، ومشت وإياه إلى المجتمع خطوة خطوة على الطريق .. لاح هـذا ، وكان أولى به الحدوث قبل موعده ببضع سنين ، اولا ان ظروفا غلابة قد عوقتها ، وقهرت ضراوتها على أن ترجىء نشاطها الى حين !..

فلا شبهة قط في أن انطلاقة الدين بتلك السرعة البرقية من قلب مهده في الجزيرة العربية ، وعجز الجحافل الضخمة المادية ــ سياسية كانت ، أم عسكرية ، أم عقيدية ــ عن الثبات أمامه ، ثم تعاقب تساقطها ممزقة صرعى تحت قدميه ، قد شل عوامل التحلل أن تتحرك ، وجمد خطاها المتسللة الى المجتمع الجديد .. ولا شبهة أيضا في أن صليل السيوف ، وضجيج الخيل ، ودوى الأبواق التى انعقدت بها ألوية النصر لكتائب الطلائع الداعية في كل مكان قد شغلت الدنيا كلها بثورة الطوفان العارم الذى فجره الدين .. فالناس ، هنا وهناك ، في الجزيرة العربية وما وراءها ، مؤيدين ومعارضين ، قد أذهلهم عن أنفسهم ، وعن المطامع الشخصية والقومية جميعا ، ذلك الزحف الأسطورى الخاطف الذى حققته الدعوة الإسلامية في مجالى غزوها للأرض وللنفس فيما لا يكاد يحسب شيئا يذكر في عمر شعب ، أو دولة ، أو مبدأ ، بل في عمر فرد من الأفراد ، ثم يوشك الا يدع مهلة لالتقاط النفس المبهور ، او فرصة لإمعان النظر فيما جد من الأوضاع والأمور ومقابلته بالتمرد أو التغيير ..

فعلى الأديم « العربى » نحلت حركة الفتوح أمة العرب ، التى ولد في حجرها الإسلام ، نوعا من الشعور بالتفوق على الحضارات العظيمة المعاصرة إن يكن قد حملها على الاعتزاز بالدين الجديد كطاقة معنوية تدفع إلى الاستهانة بالأخطار ، او كمشعل يضىء لها الطريق إلى النصر ويفرش ساحات الكفاح بالنور ، فإنه قد بسط لها أيضا في الثقة بالنفس ، والاعتداد بالجنس ، اعتدادا وثقة صورا لها

ـ أو كشفا ـ في دخائلها قدرات وملكات ذاتية ، شاهقة خارقة ، ظلت خبيئة عنها على مدى الأعصر الطوال حتى عرفت الآن اين السبيل للظهور .. وإذا كانت للنصر سورة كسورة الخمر التى تعرى بالمعاقرة ، وتحفز علي الإدمان انتجاعا للنشوة في كل كأس وبأى مكان ، فان تعاقب الليل والنهار على انتصار وراء انتصار ، قد أبدل العرب زهواً بثقة ، وخيلاء باعتداد ، فزادوا عصبية على عصبية ، وحمية فوق حمية ، وغدوا ـ ولما يطل بهم عهد الازدهار ـ أفخر بأصلهم والصق ، فخرا يكاد يعمى عما عداه من أصول فيورث الاستعلاء . ولصوقا يهم أن يحتازهم الى ركن قصى من « القومية الإسلامية » الجديدة ، إن صح هذا التعبير ، ويبنى حولهم غلافا من العزلة ، كصدفة القوقعة ، يفصل بينهم وبين سواهم من الأقوام الأخر الذين احتواهم الدين وإياهم على سواء في أمة موحدة محت شريعتها السماوية طبقية الجنس وأذابت القوميات .. فإذا لم يكن في تعاقب النصر المؤزر السريع ما يشحذ إحساسهم بالتفوق ، ويلهب في نفوسهم غلواء افتتانها القديم بالعنصر ، فأى شيء غيره إذن ـ في اعتبار النظرة العربية المباهية ـ قادر أن يشعرهم أنهم وحدهم هم الجوهر الأنقى ، والأصل الأعرق ، وأن غيرهم من الشعوب والأقوام ، الملتحقة بفضلهم بالإسلام ، تبع لصقاء ، وطارئون دخلاء !..

وعلى الأديم « الأعجمى » قرنت صيحة الدين الجديد ، في البلاد التى مشت عليها الفتوح ، صدمة المفاجأة برغبة التغيير .. فلقد هالت الناس فيها تلك الطاقة المذهلة التى فجرها الإسلام في أمة مستضعفة ، لم تكن قبله شيئا مذكورا ، فإذا هى به تزلزل الدنيا ، وتقلب موازين القوى ، وتغير المعايير والأوضاع ، فتصبح قبائلها المبعثرة دولة تديل شوامخ الدول ، وتلتهم اعظم الحضارات ، وتنسخ العقائد والاعراف ، ثم تطوى في قبضتها عالم يومها ذاك من طرفيه في بضع سنين .. وكان الانفعال الذى خلفته الصدمة المباغتة في البلاد المفتوحة ، ان دينا كهذا قد استطاع ـ وهو بعد وليد طرى العود بين عمالقة الشرائع والمعتقدات ، وبأنصار لا يحفل بهم في حساب كثرة او قدرة ـ أن يفعل مثل هذه الخوارق ، ويأتى من

النتائج بما لا تنم عنه المقدمات ، ولا يوحى التسلسل المنطقى للأمور ، محققا ما يخالف كل متوقع ومنظور ، لهو لابد دين جدير بأوفى اكبار وابلغ تقدير .. فإذا ارتبط هذا الانفعال — وهو في ذروة نشاطه ، والعقول لما تفق بعد من صدمة الدهشة — بما طبع عليه البشر عامة من تطلع نهم الى الجديد ، وبما راود عندئذ نفوس ابناء الأمم والشعوب التى طالما استعبدتها دول ذلك الحين قبل الإسلام من نزوع الى التبرم بأسلوب حياتها المهين ، والتمرد على الظروف والأوضاع التى حبستها في هذا الاسلوب ، فأى مسلك إذن كانتَ تلكم الشعوب والأمم تسلكه حيال طغيان الامبراطوريات واستبداد الحكام الا ان ترى الأمل ثم تتلمس المهرب في هذا الدين الذى بشر بالعدالة والمساواة بين الأجناس ولكل الناس ، ولا مكان فيه لتسلط إنسان على إنسان ، إدلالا بقوته او إشباعا لهواه ، لأن السلطة كلها في يد الله دون سواه ؟.. وأى موقف عسى أن يقفه بنو هذه الأمم التى اظلها الإسلام لو آنسوا من العرب ، وهم الهداة والاعلام ، تقحما على هذه السلطة ، وميلا إلى التجبر والاستعلاء — كحكامهم الغابرين — على خلاف الشعار الذى رفعوه ؟..

هذه هى الملامح النفسية التى أخذت تبرز في اقوام عالم تلك الأيام والإسلام يلمس بعصاه السحرية البشر فيفجر فيهم الطاقات والقدرات ، أو يبجس الآمال والتطلعات كما فجر موسى من الصخر عيونا عدة من الماء بعصاه !..

تباعد وتعال في جانب ، وتوجس وتحد في آخر على رقعة الدول الإسلامية الفسيحة ، في بكرة نشأتها ، كانت هى السمات التى أعلمت نفوس جماعة المسلمين آنذاك ، ووجهت سلوكهم ، وراحت تحاول أن تشق وحدتهم فريقين متقابلين ، على تحفز وتناقض ولو لم يكونا على خلاف ، وما انقضت بعد على التقائهما تحت العلم فترة الزمن التى تكفيهما للانصهار . فكأنه التقاء مادة بمادة تتجاوران ولاتتفاعلان ، وقد تلتصقان ولكنهما لا تمتزجان !..

ويجاوز حدود الإنصاف وسلامة التقدير ، بغير جدال ، أن يزعم زاعم أن العرب — كجنس — كانوا جميعا على استعلاء . او ان خيلاء

العنصر سادت منهم رجال الطبقة الحاكمة فرادى وجماعات . فذاك ما لا تؤيده حقيقة السلوك العام لأولئك وهؤلاء في تلك الفترة كقوة داعية الى الدين أو كسلطة تسوس الأمور .. ولكن ظاهرة الاستعلاء برزت ، بلا مراء ، في صفوف الحكام ، منبثقة من تراثهم النفسي وطبيعة العصبية العربية التقليدية تؤجج نارها مفاخر النصر وسطوة النفوذ . فإذا هي تسم غير قليلين من أصحاب السلطان وتوجه اليهم الاهتمام العام . وإذا هي عندئذ الظاهرة التي يفشو أمرها بين الناس، ويجري ذكرها على الألسنة بكل مكان في كل مقال ، كثر أو قل الموسومون وتعددت أو ندرت الأمثال .. وليس هذا بمستغرب . ولا هو مما يخالف منطق الأشياء . لأن الكبير — كل كبير — وصاحب الجاه ، وذا السلطة المرموقين في المجتمعات يتعلق بهم عادة اهتمام من وراءهم وحولهم من الجماهير ، وتتربص العيون والاخلاد بصور تصرفاتهم ، وألوان سلوكهم — ما جل منها وما هان — في مناحي حياتهم العامة والخاصة على السواء ، تلاحقها بالنظرة الفاحصة والرأي الناقد حتى لتوشك أن تعد عليهم الخطوات وتحصي الأنفاس ثم لا تذكر لهم ، آخر الأمر ، مما يقولون أو يفعلون ، إلا الأخطاء والمساوىء ملفوفة في المبالغة والمغالاة وإن كن هنات ، كشأن الشعوب دائما في محاسبة الحكام ..

ويجاوز أيضا حدود الإنصاف وسلامة التقدير أن يقال عن الشعوب الأعجمية الملتحقة بالإسلام ، إنها ظلت أبدا خافضة الجناح ، بريئة من داء الاستعلاء . فذاك أيضا يجافي حقيقة الحال .. إنما المعلوم المشهور ان بذرة الإحساس بعراقة حضارتها والازدهاء بأصول مدنياتها القديمة ، بائدة أو مقيمة ، لم تقتلع من المشاعر ، فظلت معتزة بما سلف وكان ، تجتره بين حين وحين وإن أضافت إليه فخرا جديدا بهذا الدين .. فما كانت لتنسى قط اعتزازها بصولة الاكاسرة ، وتراث الروم ، وشموخ الاهرام .. ولا هي اغفلت تلمس العزاء في أمجادها الغوابر كلما ساءها من العرب أمر ودفعها الى المقارنة بين ماضيها كرعايا وماضيهم كحكام . وفيما تدلنا عليه نفثات الفكر المستعرب وآثار كتابه وشعرائه ، التي راحت رويدا رويدا تطفو على سطح الثقافة الإسلامية ، ما يكشف لنا عن نواة

الحركات « الشعوبية » الخطيرة التي كان لها ، من بعد ، أثر بالغ في توهين سلطة الدولة ، وحسر مد الإسلام ..

ولا ينبغي هنا أن تحمل كلمات الضعف والتحلل والوهن وأمثالها من أسماء الصفات والنعوت ، التي نراها أسندت لهذا العهد والتصقت به ؛ على مطلق معناها ، لأن « الإطلاق » في حقيقة دلالته تجريد ، والتجريد شمول بلا معالم ، وشيوع بلا حدود ، وما هكذا تكون الأمور في واقع الوجود . فإنما المعنى نسبي . والصفة مرنة وليست بقالب جامد تصاغ فيه كافة الموصوفات في حجم واحد وهيئة واحدة بلا سمة من تباين ولا مظهر من خلاف بين موصوف وموصوف . فلقد يفعل رجل فعلا فيقال كريم . ولقد يفعل غيره نفس فعله فيوصف بوصفه ثم لا تكون دلالة الصفة في هذا هي دلالتها في ذاك . بل لقد يجزى ثالث على ذات الفعل بنقيض الوصف ، لأن مرونة الصفة تتيح تشكلها بحسب الموصوف ، كما يتشكل السائل بشكل الإناء !..

فإذا قيل ببدء تحدر الدولة الإسلامية ، في هذه الآونة ، الى منزلق الضعف ، فإنه التحدر الذي لا يؤخذ بالحرف وظاهر الوصف لأن الدولة الإسلامية آنذاك ، وبعده بعدة أجيال ، كانت الدولة التي لا ترقى إلى شأوها دولة معاصرة ، والقوة التي تكاد تتفرد في عالم ذلك الزمان بامتلاك ناصية شعوبه وأحداثه ، تسوس فيها الأمور وترسم المصاير والمقادير .. ومع ذلك فهو ترد بلا جدال إذا قورنت الدولة بالأليق بها والأوفق بمقوماتها وما كان ينتظر منها أن تكون لو أنها سارت ، وسار بنوها — بذرع خطاهم واستقامتها ، كأول أمرهم — ممتثلين مضمون الإسلام .. فأما وقد جانبوا النهج وانحرفوا عنه ، فإنهم إذن قد أغفلوا معين القوة الذي لا ينفد وفرطوا فيــه ، وأصبح محتوما عليهم بهذا الإغفال الانزلاق يوما الى هاوية الضعف قصر الأمد وقرب من ذلك اليوم أو بعد وطال !..

٦

سرح الظل على الضوء !..

الشروق ينحسر . الأصيل ينتشر . الشهبة تصبغ الأفق وتغير عليه نذيرا بمقدم الغروب . الصفاء يذوب في كدر العتمة .. ومن خلال ذلك بدت صورة المجتمع الإسلامي حينذاك ، بخلاف أمسها ، مهزوزة المعالم على غير جلاء . كأنما رثت . كأنما اختلطت فيها الألوان . كأنما راحت تعوم في ضباب !..

ولم تكن أصابع الزمن هى التى أنهكت الديباجة ، او عبثت باللون ، أو كسفت النور . فالعمر غض والمدى قصير .. ولكنها أصابع الإنسان . هواه وغروره . الترخص الذى استباحه لنفسه ، بغير حق ، في الركون للتهاون او النزوع للتغيير هو الذى شوه الصورة .. فقد اطلق على الملامح ريشة نزواته تجرى عليها كما يشاء .. أحيانا عدل فبدل . وأحيانا ظلل فطمس . وأحيانا لون فهول حتى لقد غام الضوء وبهت الظل وخيف الا يبقى على حاله الأول شيء من الصورة الأصيلة سوى الإطار !..

صنوف من السلوك الناجم عن جموح النفس البشرية اخذت تشيع في المجتمع ، ثم تتسرب ، قطرة قطرة ، الى أعمق أعماقه لتنخر في الأسس التى قام صرحه الباذخ عليها كمجتمع ركين سليم .. ما فطن آنذاك كثيرون فيه الى انحراف تلك الصنوف السلوكية عن مجرى الدين . ولا شام ، الا الأقلون ، خطرها المحتوم . ففى مجال التأويل والجدل دائما فسحة لاصطياد الاسناد أو تقديم التبرير ..

وعسير بلا ريب ، كما سلف القول ، ان يرد الانحراف الى هذه الطائفة او تلك ، او هذا الفرد او ذاك من الناس إذا نحن اردنا ان نحصر التهمة لنحسم الامر ونحدد على من تقع تبعة الانزلاق . ولكنه هين وحق ان يوسم بها قادة الراى عامة في الأمة الإسلامية على غير

تخصيص وعلى اختلاف المواقع والدرجات ، من كان منهم صاحب كلمة ترشد وتوجه أو كان منهم ذا سلطة تردع وتأخذ المخالفين بالجزاء .. فأولئك بفتيهم قد أعانوا ، بلا شك ، من وراءهم على الخروج عن الجادة ، وأملوا لهم في مقارفة الانحراف سواء أجاء إملاؤهم عن قلة تبصر ، أم قصور فهم ، أم غرور أهوج إن لم يجيء بسوء نية عن خبث طوية أو جنوح مقصود إلى التنكب عن الطريق السوي لإشباع شهوة النفس ونهمها ، بلوغا لهدف ماثل أو طموحا إلى مأرب بعيد .. لكنه ، على مختلف وجوهه ، تجاوز عن استقامة السلوك وسلامة التصرف واستواء القصد التي يدعو اليها مضمون الدين .. وحين يصدر القول من صاحب سلطة فكرية أو زمنية ، فإنه إذن إيحاء أو أمر ، وحين يصدر الفعل منه فإنه اغواء أو مثل ، وكلاهما يحمل الناس على الانصياع أو يغريهم بالاتباع .. ولا عجب . فالقادة قدوة ، آراؤهم وأعمالهم أعلام منشورة يرنو اليها اهتمام الخواطر ، ومعالم على الطريق يحتذيها انطلاق الرغبات . ودائما القدوة هي التي تصنع السلوك العام في المجتمعات ..

من هذه الثغرة اتى مجتمع الإسلام . وتسربت اليه عوامل الوهن من بين يديه لا من خلفه ، ومن قمة بنائه لا من القاع ، إذ نفذت فيه من خلال نفوس « سادته » ورجاله الكبار قبل أن تنفذ من خلال نفوس العامة وعرض الجمهور حتى اتسع الخرق ، مع الزمن ، لشتى الأخطار .. ولا حاجة هنا لتوكيد هذه النظرة بما يزكيها .. فهي — في ضوء الواقع — تساير طبيعة المحاكاة والتقليد التي تسيطر على السلوك الجمعي في المجتمعات ، وتقود حركاتها الحيوية الى التغير المستمر — كسنة التطور — صاعدة بها الى الارتقاء والنمو ، أو هابطة الى الضعف والانهيار .. وهي أيضا الحقيقة التي تنطق بها شواهد الحال ، وتتوالى أدلتها وأمثالها في حياة الإنسان في كل مكان وزمان ، دليلا من بعد دليل ، ومثالا وراء مثال .. وما المجتمع الإسلامي ، بعد هذا ، إلا بيئة إنسانية ، تخضع لحكم هذا الناموس الطبيعي الحتمي ، ويحق به عليها ما يحق على غيرها من بيئات ..

ولقد يميل امرؤ الى الإفاضة في الاستقصاء ليتعقب خط الإسلام وخط السلوك العام ، في تلك الاونة ، محاولا ان يطابق بينهما لعله

يتبين من أية نقطة كان بدء الخطا ، ومدى فداحته ، ومتى وقع ، وإلى من يعزى ، وكيف تكرر ، وما هي تبعة اولئك او هؤلاء من الذين قارفوه أو شاركوا فيه .. لكنها عندئذ الإفاضة التي يتشعب عليها المقال ، ويتواتر بها الجدال ثم يغنى عنها الإجمال !.. وكفى هنا أن يقال إن الخطأ قد وقع ، فمهـد للانحراف . وإن الانحراف قد باعد بين الخط المرسوم والخط المطروق ، أو بين النظـرية وبين التطبيق .. تماما كما يؤدى الميل — ولو بمثل قيد شعرة ، أو اقل — الى اتساع زاوية الانفراج !..

وخيف عندئذ ألا يظل على حاله الاول من الصورة الأصيلة سوى الإطار !.. وغلت الغيرة في الضمائر النقية على الدين أن يغدو مظهرا بغير جوهر ، وعلى الأمة إن ينتهبها الانحراف . فان يصبح الإسلام نصا يتلى وشعيرة تقام فلن يكون قصاراه إذن إلا أن يتردد على الشفاه ألفاظا جوفاء ويتمثل في المراسم حركات آلية دون ان يخالط السلوك ويكون — كرسالته — اسلوب حياة !.. وأن تخرج الأمة الإسلامية عن الجادة التى شرعها الله فقد عادت إذن الى مسلك من سلف وباد من الأمم والعباد فحقت عليها سنة الله في الغابرين !..

في فترة نمائه تلك ، لم يخل المجتمع الإسلامى من اناس على بصيرة ، فطنوا لمعالم الانحراف ، ودعوا ما وسعهم — درءا لخطره — الى المبادرة بالتقويم . وإذا كان من التجني الادعاء بأن هذه الدعوات كانت بلا أصداء أو تبددت في الهواء ، فإن من الحق أيضا أن يقال إن الفطنة والدعوة كلتيهما لم تحققا ما أريد من ورائهما على النحو الذى ابتغتاه ، لا لمجرد قصـور في التلقى والاسـتقبال ، وعجز في الاستجابة والانفعال ، بل لأن طبيعة المرحلة ، من ناحية ، وتباين النظرات الى صورة السلوك ، من ناحية اخرى ، قد عاونتا كذلك على إرجاء الحسم المطلوب ..

اما طبيعة المرحلة فقد كانت زحاما شديدا من الاحداث ، كسور هائل بجدران صماء ، لا ثغرة به تتيح للناس آنذاك ان ينفذوا ، بنظرهم ووعيهم ، الى غير ما بداخله وما هم فيه .. فالدعوة منهومة بالانتشار ولا وقت للتريث لكيلا تخبو النار !.. والقتال ، ضد قوى

طاغية التفوق ، يتوالى في كل مكان توالى الشهيق والزفير حتى ليوشك أن يشغل الدقائق والساعات فضلا عن الأيام والشهور !.. والفتوح سرح على وجه العالم لتضم تحت العلم بقاعا الى بقاع وامصارا الى امصار !.. ومن وراء ذلك وفي إبانه تنشأ وتترى مشكلات — في شتى مجالات الحرب والسياسة والإدارة والمال وامثالها مما يتصل بحياة الدولة الجديدة وحياة الشعوب المختلفة التى احتواها نطاق الإسلام — تتطلب معالجتها ، لحظة بعد لحظة ، بأسرع الحلول ..

وأما تباين النظرات إلى اتجاهات السلوك فقد كان لا بد من ظهوره ، في تلك الآونة ، نتيجة لتعدد أساليب التفكير وتغاير درجات التقدير للأمور . ولا غرابة هنا في حدوث التباين لأنه أخلق باختلاف الطبائع وأولى بتنوع مقومات الإدراك ومبلغها من الإحاطة أو القصور . ولا غرابة أيضا فيه لأن الأمور — في حيز الرأى — ليست « رقائق » مسطوحة بل هى « حجوم » مجسمة ذات اعماق وابعاد ، تختلف فيها الآراء بحسب موقع النظرة اليها على غور عمق ، أو طول بعد ، أو ميل سطح من السطوح !.. فإذا قر هذا في حسابنا ، الى جوار التفاوت الطبيعى بين القدرات الذهنية وملكات التفكير ، فمن الإنصاف أن تستند كثرة من أسباب الانحراف إلى خطأ الاجتهاد أو اضطراب التقدير قبل أن تسند إلى فساد الطوية وخبث الضمير ..

وليس هذا بتمهيد للعذر بين يدى كل من عسى أن أسهم آنذاك — بقول أو فعل — في بناء الانحراف بنصيب كبير أو قليل . بل هو التبرير الذى نراه يضع طائفة من المسلمين ، خاصة وعامة ، في تلك الفترة ، حيثما تضعهم سابقتهم ونواياهم — ويجب أن يكونوا — من الفضل وإن تعثرت ببعضهم الألسن أو زلت بآخرين الأقدام . فما عن الهوى الزلل ، ولا عن تجانف لسوء . لكنه تحرر النظرة ، وانطلاق الفكر ، عن رغبة مخلصة ، إلى ما وراء آفاق المألوف بلوغا إلى ما ظن انه انفع واقوم في حيز واقع جديد تطورت فيه الأوضاع وتغيرت الظروف .. أم لا ، فكيف يمكن في غير هذا الشعاع أن تفسر نظرة ابن الخطاب عندما اشار على أبى بكر أن يقسم للناس على خلاف ما قسم لهم رسول الله من قبل ، فيفاوت بينهم بحسب منازلهم من

الإسلام ، من هجرة ، وصحبة وجهاد ، وسابقة ، ويصنفهم عليها درجات وكان الرسول قد جعلهم في القسم سواء ؟.. وأية علة — غير إيثار سلامة المجتمع الإسلامى الناشيء ، في مستهل الخلافة الأولى ، وسوى الخشية أن ينفرط عقد الدولة ولما تستتب بعد — كانت خليقة بأن تدفع رجلا في شدة عمر ، وقوة بأسه ، واشتعال غيرته الدينية ، إلى الجنوح للين كالخور يوم شاء أن يكف أبا بكر عن قتال مانعى الزكاة ؟.. كلتا النظرتين ، من ناحية ، قد انبثقتا من رأى طليق لذهن متحرر يحاول التكيف مع التغير ملاءمة بين الممكن والأمثل ، وبين الواقع والمأمول . ولكنهما ، ولا ريب من ناحية أخرى ، تؤخذان على الخليفة الثانى ، وتحسبان — موضوعيا — في قائمة السقطات التى لا يكاد يهونها تبرير شاف لولا ما هو معلوم عنه من غيرة على نشر الدين ، ودأب على تثبيت الدولة ، مع سلامة القصد ونقاوة الضمير ، لأن أولاهما ليست مجرد تغيير نمط التقسيم الذى ارتآه الرسول بقدر ما هى إخلال بمبدأ عام هو المساواة ، ولأن الثانية تخرج بهدفها من نطاق الاجتهاد المقبول إلى حيز الترخص في حماية ركن من أركان الإسلام أن يعبث به فينهار ، وهو ركن الزكاة !..

والتمحل بالدوافع التى حملت الناس ، من عامة وخاصة في الأمة الإسلامية — تحت ضغط الظروف او بسبب تغير الأوضاع — على « التخفف » في التزام السلوك المشروع ، أو الإغضاء عن هذا التخفف ، قد يضع بعض وقر التبعة عن كاهل طائفة ، وقد يزيد ثقلها على آخرين .. ولكنه ، بطبيعة الحال ، لا يعفى أولئك ولا هؤلاء — من أيسر وجه ، وبأهون تعبير — من خطل التقدير !..

فلقد ادت حصيلة الأيام من تصرفات القوم ، حاكمين ومحكومين ، إلى اتساع زاوية الانفراج بين الطريق المرسوم والطريق المطروق ، وباعدت ما بين خطوط النظرية وخطوات التطبيق .. وإذا كان قد كتب على المجتمع الإسلامى حينذاك أن يسير ، نتيجة لهذا السلوك ، على غير السنن المفروض إلى غير الغاية المبتغاة ، فإن تبعة الانحراف ، ولا جدال ، ما كانت لتسند إلى فرد او فئة من الناس دون البقية ، بل هى قسمة بين الدولة والشعب ، الرعاة والرعية ، لان أولئك لم

يزعوا بقوة السلطان وهؤلاء لم يقاوموا بقوة الإيمان وإن كان السهم الأوفر من اللوم يقع في جعبة ذوى النفوذ ..

ولا محيص عن الإقرار بان فريقا غير قليل من اصحاب السلطة او الراى قد عملوا جاهدين على تدارك الأمور في إبانها ضربا بالسطوة او ردعا بالدعوة ، وجروا في هذا السبيل اشواطا واسعة كان أولى بها ان ترسى غد الأمة على بر السلامة لولا ان الأنفس في اغلبها ، كانت ضحلة قريبة انقاع ، وريح الاحداث والأهواء الدنيوية كانت أعتى على الاحتمال والمقاومة فتعثرت السفينة واضطرب الشراع !.. فكم من صور سلوكية مشرقة أعزت المبادىء وارتفعت بها فوق طوفان المادة ومد النزوات !.. وكم من جهود توالت ، على مدى عهد الخلافة الراشدة ، لحمل الناس على التزام مضمون الدين ، قد انبعثت عن إحساس مرهف بالتبعة ورغبة صادقة في بناء مجتمع سليم !..

فما ينسى لأبى بكر الصديق أن إيمانه العميق بالمساواة قد أبى عليه المفاوتة في التقسيم . وإن شكيمته الصلبة قد دفعته إلى نبذ دعوة المهادنة أو سياسة التهدئة ليقف كالطود الراسخ في وجه فتنة المرتدة ومانعى الزكاة يقصفها قصفا بقوة يقينه قبل قوة السلاح .. وهو في كلا مسلكيه رجل الدولة الأريب الواعى الذى لا يقبل ان يداجى الأهواء او يصانع الخطوب على حساب المبادىء ، وإنما يقارع كل ما يتصدى له ، لانه يؤمن اكمل ايمان ان هذه المبادىء وحدها هى الدعائم القويمة التى لا تبنى على غيرها عظمة الشعوب ..

وما ينكر أيضا فضل صاحبه ابن الخطاب الذى علا بانسانيته فوق ما يثيره عادة في القلوب من نزوع إلى الانحياز تباين الألوان واختلاف الأديان ، ضاربا اروع الأمثال في التجرد وكبح النفس عن الشطط العاطفى الذى نراه دائما يستبد بالنفوس ويسوقها إلى ممالأة بنى العقيدة والجنس على كل من عداهم من الآدميين .. فهو يؤمن إيمانا لا يتزعزع بوحدة البشر ، وكرامة الإنسان ، مهما كان ، وكيفما ذهبت بها ــ علوا وخفضا ــ مذاهب الآراء التى تتمحل باللون أو تتعلل بالدين .. وهو يصدر في سلوكه ، بهذا المجال ، عن انصاف مطلق ــ دع السماحة الكريمة ــ تتسع رحابه لكافة الناس على تغاير الملل

وتعدد الأجناس .. وهو لهذا لا يتوانى عن المبادرة الحازمة إلى قمع نزعة التمييز العنصرى حين لاح من أحد أولاد عمرو بن العاص مسلك شف عن هذه النزعة إذ دفعته خيلاء جاهه وسطوة أبيه إلى الاستعلاء — إدلالا بأصله العربى — على مواطن من المصريين .. ثم لا يتردد كذلك مع ما يعلم من كراهية اليهود للإسلام وذويه ، عن رعاية هؤلاء الأعداء الموغلين في اللدد والمسرفين في البغضاء ، فيضع الجزية عن فقرائهم ، وعن ضربائهم من الذميين ، ويفرض لهم ما يقيتهم ويصلح امرهم من بيت المال أسوة بالمسلمين ..

وما يغفل هنا ذلك الكفاح العنيد الذى أخذ ابو ذر الغفارى نفسه به لتحرير الإنسان من عبودية المال .. فلم تمنع الرجل زهادته ان يدرك ما لشهوة المال من قدرة على الإغواء يستطير بها سلطانه فلا يكاد ينهض له مناهض إذا ما اطلق له العنان — تماما كالنار ، تدمر وتلتهم إن لم تجد من يخضعها ويحصر لهبها في نطاق محدود .. فالمال وسيلة للنفع العام . وأصحابه أمنة عليه لإحسان إنفاقه وتوظيفه لا لتكديسه وتضعيفه .. فلا عجب ان ينشط هذا الداعية لنشر رايه أينما وسعه أن تسعى به قدماه ، وأن يناضل دونه وإن تصدى لحربه أصحاب الثروات وذوى النفوذ في آن . ولا ان يمضى وما راى متمردا على سلطة الدولة وجشع الغنى والتواء الأوضاع ، غير مبال بما يصيبه في هذا السبيل من قسوة وتشريد .. إنما ينطلق صابرا صلب العزم ، بلا تلوم ولا تهيب ، يحث بلسانه في دولة الذهب وفي طاغوت كنزته لكيلا تبرز في المجتمع طبقة فاحشة الثراء تستعلى على سواها من بنيه ، وتستطيع بجبروت المال ان تنفذ ، من خلال الفقر والحاجة ، إلى استذلال الناس بطرح الذمم والضمائر سلعة رخيصة في سوق الدرهم والدينار !..

كثرة بالغة من هذه الجهود راحت تترى نضالا عن الحق ، وتثبيتا لأصول المبادىء الرفيعة .. وهى تعلن ان الحرص لم يفتر قط للعمل بمضمون الدين عن إحساس قوى بالتبعة أمام الله وامام الناس . ورغبة صادقة في السير على النهج الأمثل ابتغاء إقامة المجتمع الإنسانى السليم ، وامل متفتح في التقويم ..

وكم من صور لتلك الجهود والوان صاحبت الزمن ، وانتشرت

على بقاع المكان !.. وكم من نظائر لأولئك الرجال وأمثال . برزوا فرادى وزمرا من بين الخاصة ومن صفوف الجمهور !.. وكم من كفاح مجالد صابر استعذب العناء واستروح الرجاء !..

ومع ذلك فلم يكف الانحراف . لم تقف حركته . ولم تخف حدته . بل اشتد واستطار . وأنصب حجارة وصخورا من المطامع والأهواء ، يقلعها ويدفعها إقبال الدنيا المتحدر كالشلال ويلقى بها في وادى الحياة ليطمر تحتها نقاوة القلوب ..

وعلى الأيام ، تعالى الركام والحطام !..

٧

ما حمل امرؤ في المسلمين ، عند ذاك ، عبئا هو أبغض إلى نفسه ، وأثقل عليها من الإمرة على الإمام .. كان طعمها كالحنظل . وكان وقرها كالجبل . وكان وقعها كالأسنة ، حتى لكأنه ، حين أفضت إليه ، قد اكتسى مثل طيلسان من حديد مسنن ، مبطن بجمر النار !..

ولم يكن عبؤه ثقيلا لانتشار تبعته – على أديم الدولة الفسيحة التى يحكمها بين مشرقى الشمس ومغربيها – انتشار الظلال السارحة أبدا في كل آن ومكان على معالم الضياء ، كلما انبثق فجر ، أو سطع نهار ، أو تهادى في ربوعها الخضر والجرد أصيل .. ولا بغيضا لتواتر الشدائد والأزمات ، وتدافع الصعاب والمشكلات ، في كل لحظة وبقعة ؛ تواتر النفس المبهور وتدافعه عن جسد واهن أرهقه الإعياء .. فليست التبعة تقاس ، طولا وعرضا باتساع مواقع العمل وامتداد أطرافه . ولا هى أيضا تعاير ، ثقلا ووزنا ، بكثرة صوره وتنوع أصنافه .. لكنها تزيد وتثقل ، وتخف وتقل ، بمقدار رقة الحس ورهافة الشعور – تماما كالوخزة ، ليست هى التى تحدد الألم . وكالمر ، ليس هو الذى يغير مذاق الفم . بل كلاهما عارضان حقيق بأحدهما ، كما بالآخر ، أن يفقد صفته ، ويفنى ، كيانا ، ودلالة ، في العدم إن لم يجد المجرى الصالح

الذى ينطلق فيه إلى مراكز الحس لتعكس اثره على الجوارح !..

ولقد نشط امير المؤمنين إلى النهوض بتبعته ؛ على غضاضة وضيق، ليحق الحق ويمحق الباطل ، غير حافل بما يلقى من العنف والمشقة . كان يجتاز اللهب . ويمشي على الشوك . ويلوك العلقم . ومع ذلك فلم يلفته عن العمل شيء . ما نكص . ولا تمهل أو قصر خطاه . فالخطر يقبل . الغد يغيم ، والظلام يزحف على النور . والوقت اضيق على النكوص والتمهل . وهل عمله اليوم سوى امتداد لكفاحه الدائب قبله منذ طلعة صباه لإعزاز الإسلام ، وهو بعد غلام حتى نيفت به الأعوام على خريف عمره ، لولا أنه الآن قد ترامت حدوده ، وتناثرت ميادينه ، بين دان وشتيت ، إلى أقصى الآماد ، بعيدا بعيدا في اقطار الارض ، وعميقا عميقا في أغوار النفوس ؟..

وهب يعمل . بكل ما يملك هب يعمل بقلبه . بعقله . بيده . بالسليقة المستنيرة الملهمة ، والرأى المقنع الفصل ، والسلاح القاطع الساحق.. يدعو ليهدى ويعلم . ويزع ليهذب ويؤدب . ويقسو ليردع ويقوم .. وبين اللين والعنف ، الدعوة المضيئة والقتال المدمر ، سن القلم وشفرة الحسام ، عالم من الجهاد مترامى الحدود والأبعاد هو فيه الرقيق الحميم ، والأب الراعى ، والمعلم المرشد ، والحاكم المنصف ، والقدوة الطيبة الحسنة ، التى تحتذى دائما ويؤتسى بسيرها وسيرتها ، كلما اشتبكت على اقوامه المسالك ، واشتبهت المناهج ، ودعتهم الحال للاقتداء بمثال ..

ومن الإفاضة فيما لا تجمل الإفاضة فيه إذ يغنى الإيجاز ، أن يسترسل الحديث عن الإمام كأخى قتال ببز بسيفه الأقران في ساحة الوغى ، حنكة وشجاعة ، إن كان له في مجالات الصراع الدموى قرين !.. فما كان شيء احب إلى نفسه من مخاطبة القلوب والافهام . من السعى للسلام بالسلام . من اللقاء بالكلمة . من الحرب البيضاء !.. ولا كان شيء أبغض إليها — وإن كان أخف عليه ، وأهون مؤونة — من التجييش والإعداد . ومن قيادة الجنود . ومن الإقدام قبل الإحجام . ومن الصبر عند اللقاء . ومن الكر وسيلة للدفاع . ومن مطاردة الموت أينما بدت له أطيافه او تكتلت صفوفه ، تحديا له ، واستهانة به ، وازدراء

لجبروته الرهيب الذى يخلع القلوب مقتحما عليه عقر غابه لينتزع الظفر من انيابه !..

كان يؤثر السلم ولا يعدل عنه ما وسعه أن يصل إليه من سبيل.. فالحرب لم تكن له شاغلا كما لم تكن ملهاة وإن الفها دائما حليفا وفيا لا يغدر به ، ولا يخرج عليه .. ومع ذلك فقد كان ينبو بها كل نبو لانها ، في قرارة يقينه ، اهون جهاد . وكان يبرم بنصرها العالق ابدا بذؤابة سيفه لأنه ، فيما يحس ويشيم ، أرخص انتصار !.. إنها الباب الذى ينبغى أن يوصد بألف رتاج ورتاج .. وهى الكى الذى لا يستطب به كدواء إلا إذا استعصى الداء على كل علاج .. وهى الأداة التى قد تقهر على الانصياع بغير اقتناع ، وعلى الإذعان بلا إيمان !.. أما السلم فدنيا من الهدوء والطمأنينة ، يقر فيها القلب ، وتأمن الجوارح ، ولا تطغى على صوت العقل قعقعة سلاح .. فكأنها صومعة راهب ، هو التأمل !.. أو كأنها حلبة سباق ، المنافرة فيها بالفكر ، والمصاولة بالرأى ، والغلبة بالبرهان !..

حتى في ساحة الحرب كانت « الكلمة » تسبق الحسام . ثم تلازمه. ثم تقطع القتال ، أحيانا ، لتنفرد دونه في الميدان .. كانت الدعوة ، بالحجة البالغة والموعظة الحسنة ، أول سلاح ، واهم سلاح ..كانت دائما حاضرة مشهرة ، مصقولة مسلولة ، تجول في الواقع وتصول بغير فتور ولا قرار . لا تعرف غمدا تثوب إليه ، ولا هدنة تهدأ فيها وإن طالما ، في غمرة الوغى ، وضعت الأسنة ، وعرفت السيوف الأغماد !..

ويوشك الاستطراد أن يطول حتى ليصبح مثل ضرب من المحال ، لو تعقب المرء دعوة الإمام ، محاولا حصرها في نطاق محدود من مقتضيات الحكم في عهده ، ودواعى سياسة الأمور إذ هو أمير .. فليست كذلك .. بل هى اوسع رقعة وافسح مجالا ، اتساع الحياة البشرية ، أمة بعد أمة ، على أديم هذه الدنيا ، وانفساح الزمان ، عصرا وراء عصر ، على مدى الدهر .. فإن هى إلا رسالة حياة ، تساير التطور ، وتهذب التغير ، وتتجدد على الأيام مع مشرق كل نهار ، وسكون كل ليل ، وظهور كل بادرة تعلن عن تجدد الحياة !..

رسالة كاملة شاملة . لليوم وللغد . للحاضر وللمستقبل . تنند

عن حكمة تدفق من ذهن مخصب رواه نبع النبوة ، ويخفق بها قلب نقي جلاه فضل الرسول .. فوق متنها كان يذرع دائما مجاهل النفس وخباياها ، ذرع عليم خبير ، ليكشف عن مكامن المرض وخطره ، ومواطن النقص وأثره ، باليد البارعة الصناع ، وبالقدرة المحيطة التي لا تخطىء التقدير . وعلى جناحها كان يحلق أبدا في آفاق من نور الله ، تهيىء له أن يقلع الشبهة ليغرس اليقين ، ويمحو الجهالة لينشر المعرفة ، ويبني الكمال حيثما كانت فجوة ، ويضع الشفاء حيثما كان داء !.. وهل من عجب ؟.. فمحمد مدينة العلم ، التي أهداها الله للإنسانية ، وعليّ بابها الذي يفضي إلى ما تضم من كنوز وذخائر ، بها تستضيء العقول ، فتصفو الأنفس ، وتنقى السرائر !..

هدى من هدى ، ونور من نور كانت الدعوة التي أخذ نفسه يبثها بين قومه ، لا يسكت عنها في شدة حرب ، ولا في هداة سلام .. كانت تتردد مع أنفاسه .. كان يحياها ، ولها كان يعيش .. وفي خلال أعوام عهده القلائل ، لم يكن شيء يعوقه عن تبليغها حيثما استطاع ، بالكلمة المكتوبة ، أو الكلمة المسموعة . في كتبه إلى عماله ورجال دولته . في خطبه إلى الجماهير والجموع . في أحاديثه اليومية مع أهل بيته ، وخاصة رفاقه ، وعامة الناس .. وحين نتقصى منها ما خطه قلمه أو لفظه لسانه ، نراها تلم بكل جوانب الحياة ، وتعرض لكافة نزعات الإنسان .. فهي تقابل الخلجة ، وتتداعى للخفقة ، وتتحرك للفكرة ، وتسرع للحاجة . ثم تبادر بعد هذا التفهم الواعي إلى علاج مواضع الخلل والقصور ..

وعسير بلا ريب ان نحيط في مقام كهذا المقام بما تضمنته هذه الدعوة الهادية لأنها عندئذ الإحاطة التي تضيق دونها الصحائف ، وتعيى الأقلام . ولكننا نصغي لجرسها فإذا هي أصداء لرسالة السماء . ونذرع رقعتها فإذا هي خطة عمل ، وسياسة أداء .. وحين نطوف بما تحوي ، نقع فيها على كل ما يصلح الأمر والشيء ــ الشطر المعنوى والشطر المادى من حياة البشر ، من قواعد وأسس هي أولى بأن تكون الدعامة الركينة للمجتمع الإنساني الفاضل ، الذى تربطه وحدة بلا آفة لانفصال ، وتسوده مساواة بلا تمايز ، وتقوده عدالة بلا ترخص ، وتظله أخوة بلا منّ . فلا أثانية فرد ، ولا طغيان سلطة ، ولا استكبار

طبقة . بل جسد واحد يملك وثاق نفسه ، متوحد المشاعر ، متوافق الحركات ، تعمل أعضاؤه جميعا في تكاتف وتعاون ، وفي تعاطف واتساق ..

ولا يقال في هذا المجال إن الإمام كان مبدعا لما نشر وأذاع على العيون والأسماع . بل هو ناقل من الذكر ، وعارض لما أورده التنزيل .. فما كان ليبتكر ، او يأتى من لدنه بجديد يضيف إلى ما شرع الله ، او يغير فيه .. وليس قصاراه – ولا قصارى غيره من العقول البشرية، مهما بلغ شأوها من الإدراك والعلم ، وبلغت قدرتها من الاستشفاف والاستبصار بأمور الدنيا ، وفي تقلبات النفس – أن يعدل ، بزيادة او تكميل ، في ذلك القانون الإلهى ، الذى يحيط بكافة جوانب الحياة، وينظم السلوك الإنسانى على خير ما يكون التنظيم .. إنما كان له ، في حقيقة الحال ، جهد الدارس الباحث ، الذى يغوص بوعيه المقتدر إلى الأعماق ليستخلص الدر من الأصداف .. فهو يرجع إلى كتاب الله ، ويتابع سنة الرسول ، ويتعمق كليهما ، بذهن ثاقب وبصيرة مستنيرة ، منقبا عن المبادىء التى تتناول ، من قريب أو بعيد ، كل الوان النشاط البشرى ، في مختلف مواقع العمل وميادينه . حتى إذا نفذ منها إلى هذه الغاية ، تفحص حكمتها بنظرة الاقتناع العقلى لا بنظرة العاطفة التى قد تميل للتسليم .. وقاس أثرها بمقياس الواقع الذى يعيشه ، والشواهد التى أسفرت عنها من قبل تجربة النوع الإنسانى منذ سعى على هذه الأرض لغرض ، والتأم آحاده في دول وشعوب .. ومن خلال المبدأ وحكمته ، والتجربة ونتيجتها ، كان يصل إلى معايير سليمة للعمل ، يصنفها كصنوفه ، ويعرضها واضحة ليتبعها من شاء أن يسير على صراط سوى ، وجادة مستقيمة ، مطابقا سلوكه على ما يرضى ربه ، ويطهر قلبه ، ويصلح شانه ، ويرفع أمته ، ويعز كرامة الإنسان ، روحا وبدنا ، كما ينبغى أن يكون الإعزاز ..

وتيسيرا على الناس ، وتطويعا لهم ، لم يغب عنه قط – وهو يعرض ما يعرض – أن يستخرج من حياتهم العامة ، ومن عملهم اليومى ، كل ما يجدر بهم إخضاعه لهذه المعايير . فكل مبدأ لحكمة . وكل حكمة لغاية . وكل غاية بسلوك . وكل سلوك بمعيار .. فلا سبيل إذن لأن

يفوتهم شيء فتكون لهم عليه حجة . ولا أن يشتبه أمر فتتفرق بهم طرق التطبيق ..

بهـذا النهج السليم الميسر ، حـدد ورسم ، وبين وبلغ ، مترجما نصوص الدين إلى مضمون ، ومضمونه إلى أسلوب حياة .. فإذا هو عندئذ قد أحاط بطبيعة البشر : غريزة وأملا وحاجة . وبطاقة الإنسان: خفقة وخلجة وحركة .. وإذا بدعوته التي وسعت الإنسانية ، قد التقى في رحابها لكل عقدة حل ، ولـكل خطأ تصويب ، ولكل ضيق فرجة ، ولكل علة علاج ..

٨

إلى القمـة التي لا يسـتطيع أن يرقى إلى شأوها ذهن متحرر ، حلقت الدعوة الإسلامية بقيمة الإنسان .. فقد تنادت بوحدة البشرية . ثم كرمت أبناءها . ثم صورت حياتهم في هـذه الدنيا سادة يملكونها ولا تملكهم ، ويصرفون كل ما فيها على ما يحفظ أهم هذه الكرامة أبدا لو ترسموا النهج الذي شقته ولم ينحرفوا عنه ..

ولقد يسر الإمام هذه الدعوة للناس خطة وهدفا ، أسلوبا وغاية ، بالفعل والقول ، بالقدوة الحسنة وضرب الأمثال . فإيمانه الكامل بتلك الوحدة ، هو الذي كان ، في كل آن ، يرهف حسه ، ويشحذ قلمه ، ويحرك لسانه لتنطلق عباراته على جلاء ، تدعو بالدعوة ، وتروج لها ، وتؤكد دائما أن الوحـدة ـــ المفترضة والمنشـودة ـــ لا شبهة فيهـا ، ولا عائق دونها ، ليس فحسب عن استجابة عقيدية لما شرعه الإسلام ، بل عن إدراك لكنه الطبيعة ، وخضوع لمنطق العقل واستقامة التفكير .. فأينما جالت عين فيما سطر ، وأصغى سمع لما قال ، وأمعن ذهن بالاستقراء والتفهم فيما وراء الحرف والجرس ، بدت له وحدة الإنسانية وهي على شمول ولزوم ، بلا مكان لتمييز فرد ، أو تعالي طبقة ، أو اعتزاء عنصر ، وبغير ترخص أو التواء أو استثناء ..

فالبشر كافة في رحابها سواء وإن تباينوا بالأجناس ، وتفاوتوا بالأحساب ، واختلف آحادهم بالأقدار في نظرة المنصب ، أو المعرفة ، أو المال ، لأنهم كما يقول :

« .. إما أخ في الدين ، وإما نظير في الخلق .. » .

وتلك هى الوحدة الوثيقة التى لا يتطرق إليها انفصام ..

فلو زعم زاعم أن هذا الراى الذى يسوقه الإمام يجرد الدين من حقه في ترجيح الميزان عند المفاضلة بين إنسان وإنسان ، فإنه إذن زعم متعسف ، يلتوى بالموضوع ليتخطف نتيجة لا تسفر عنها حقيقة الحال .. فالإسلام لا يهدر المساواة ، وما كان ليهدرها وهو القائم عليها لأنه قائم على الفطرة التى يشترك فيها كافة أبناء آدم ولا يمكن أن تختلف فيهم من واحد لآخر وإن اختلف — دونها — كل ما عداها من خصائص وصفات .. والإسلام إذ يفاضل بين الناس لا يفاضل بالأبشار والألوان، ولا بالأحساب والأنساب ، بل يفاضل بينهم بمعيار ثابت هو العقيدة التي شرعها لهم كافة على سواء ، فيغاير في الجزاء بين مؤمن وكافر ، طائع وعاص ، حسبما يكون قربهم وبعدهم من الله .. بل شرائع الجزاء نفسها التى وضعها ، من عقاب وثواب ، لحساب البشر ، لا تترتب على شخص الفاعل بل على موضوع الفعل ، فتزن لهم جميعهم بقسطاس واحد ، لا يبخس أحدهم ليطفف للآخر ، لأن عدالة الجزاء لا يتأتى أن تتحقق إلا بهذه المساواة ..

صدقت إذن نظرة الإمام ، وأصابت الحق كل الحق بغير تحيف منها على الإسلام ، وبدون ثغرة فيها لطعن طاعن أو لريبة مرتاب .. وفيم الطعن ؟.. وكيف المراء والارتياب لمن لعله يحاول تلمس سبب للادعاء والتقول ، والمساواة أصلا لم تترتب على الإسلام ، ولم تكن نتيجة له ؟. بل قد كانت — قبل تنزل نصوصه ، وبدء دعوة الرسول — حقيقة واقعة نشأت في الدنيا بنشأة الإنسان ، ثم جاءت هذه الرسالة السماوية كاشفة عنها ، مذكرة بها ، داعية إلى التزامها وامتثال جادتها بعد أن غمرها على البشر ، وقست عليها قلوبهم ، ومزقتها الأهواء ..

ومن الترسل الذى لا يحتمله المجال أن يتطرق الحديث إلى كنه

هذه المساواة ، مخططا حدودها ، محددا معالمها ، معددا ما تحتويه من عناصر ومقومات .. فعمومها وشمولها يكفيان الاسترسال ، ويجزيان عن التحليل ، ويغنيان عن التخريج والتأويل ، إذ يكشفان عن حقيقتها جلية بغير حاجة إلى عناء الوصف والتحديد ، وجهد الإحصاء والتعديد، لأنها – وقد صاحبت البشرية منذ بدئها ، مقترنة بالفطرة – تتسع لكافة أبناء النوع الإنساني ، وتطبع حياتهم بطابعها ، فلا تدع حقا من الحقوق يترتب على هذه الحياة « المشتركة » ويحفظ عليهم إنسانيتهم ، إلا سوت بينهم فيه ..

وحق الحياة من المسلمات الأولية التي لا يمكن أن يختلف عليها ، ولا تقع في نطاق المجادلة والنقاش ، لأنه يمثل الحياة نفسها ، بمعناها الإنساني ، وينطوي على العناصر والمقومات الأساسية لهذه الحياة .. فالحياة هبة الله وهي بهذا حق مقدس للإنسان ، لا يملك انتزاعه غير معطيه ، فلا ينبغي إذن لإنسان آخر أن يحرمه إياه ، أو ينتقص منه ، إلا أن يأذن الله .. ولا يخلق بكل ما يدخل في تكوين هذا الحق ويؤمنه إلا أن يكون مقدسا مثله ، وجديرا بالحماية أن ينال منه جور جائر بالإهدار أو الإنكار ..

ولقد يختلف بعض اختلاف على مكونات حق الحياة تبعا لتطور الأعصر ، أو تنوع البيئات ، أو تفاوت التقدير ، فلا يكاد هذا كله يغير شيئا في الأساسيات والأصول وإن غير ، قليلا او كثيرا ، في الجزئيات والتفاصيل . وحسبنا هنا ان نذكر – على وجه الإشهاد لا على وجه الإحاطة – ان الإسلام لم يكتف بإقرار هذا الحق ، تعبيرا عن رأيه بسيادة كل فرد على حياته سيادة المالك الذي لا ينازع ، بل ذهب في توطيده وتثبيته ، وفي تحرير الإرادة الإنسانية لتمارسه كما تشاء ، إلى ابعد الحدود . فلقد اباح – وهو الدين الذي نسخ كل الأديان – ان يتدين الإنسان بما يرتضي ويختار من عقائد وإن خالفته ، لأن لكل امرىء أن يحدد بنفسه ، وبوحي ضميره وتفكيره دون سواه ، نوع الصلة التي تربطه بالله ، بلا إكراه أو وصاية عليه ممن عداه من الناس ، كيفما كان وضعهم في المجتمع وكان شأنهم من القوة وبسطة النفوذ ..

هذه هي نظرة الإسلام إلى حق الحياة ..

نظرة منصفة سمحة ، توافق منطق الطبيعة ، وتمضى في التحرر إلى شأوه الذى يقصر عن بلوغه تطلع العقول وطموح الأفكار .. فهى ترسى المساواة بين الناس في انتفاعهم بحق الحياة على أساس الفطرة الواحدة التى لا تختلف من إنسان لإنسان . وهى تطلق لهم حريتهم في ممارسة هذا الحق إلى المدى الذى قد يأبون عنده اعتناق الدين القيم الذى أعزهم بتقرير هذه المساواة .. فإذا لم يكن في هذه النظرة ما يؤكد « عمومية » هذا الحق ، ثم يضمن « حرية » تطبيقه ، فأى شيء غيرها إذن أقدر على التوكيد والضمان ؟..

بل الحياة حق بشرى عام ، مقرر بحكم الطبيعة ، مكفول بحكم الإسلام . لا سبيل إلى المفاوتة فيه بين أصحابه بالانحياز أو بالتمييز . ولا إلى تعطيله ــ كلا أو جزءا ــ بانتزاعه أو بإهدار جانب من ضماناته أو مقوماته .. فأما ودين الله قد أقر بهذا الحق ، وحرر العمل به وإن على حساب العقيدة ، فالأخلق الأدنى إلى مطابقة نهجه والتزام منحاه ، أن يقر بما ينبنى على حق الحياة من حقوق ، وأن يتسع لما دون حرية العقيدة من حريات ، لأن ما يقضي بالكل لا ينكر الفروع ، وما يحرر الصلة بالله لا يقيد الصلة بالناس !.. وليس يخاف رأى الإسلام في تأييد الحريات العامة والحقوق الأساسية التى تهيىء للبشر ــ في المعنويات والماديات ــ حياة أبية كريمة ، لهم عليها الولاية . يعيشونها كمشيئتهم ، بالفكر الحر ، والإرادة الطليقة ، في ظلال من الأمان من الخوف ، والحماية من الحاجة ، والوقاية من الاستغلال ..

حق هو الحياة ، وحياة هى الحرية ، وضمان من الله يحيطهما بالسياج المنيع الذى يرد عنهما عادية العبث والطغيان والإرهاب ، ذلك ما شرعه الإسلام ، ودعا إليه ، بالنص والمعنى ، وبالعبارة والروح ..

ومع هذا فلا نرانا بحاجة إلى أن نعيذ كل من له عين تبصر ، وأذن تسمع ، وذهن يتدبر أن يستخفه من هذه النظرة الإسلامية إلى حقوق الإنسان طلاقتها السمحة ، فيجمح به وهمه أو همّه إلى تجريدها من العقل والضوابط ، ومن الحدود والقيود .. فذاك ما لا تقره بديهة ، وما يأباه منطق الحياة ، لأنه إذن الفوضى التى تراق فيها الحقوق وتستباح الحرمات .. ولأنه الانطلاق ليس الجموح .

والتحرر ليس التحلل .. ولأن كل حق بواجب . وكل حرية بالتزام..

وحملة واسعة من الدعوة الهادية شنها الإمام ، بالقدوة الرائدة ، وبالكلمة الناطقة ، وباللفظ المخطوط ، ترويجا لهـذا المبدأ العام ، وتبصرة للناس بحقهم فيه ، وحقه عليهم . وبالجدوى التى يفيئها على جوانب حياتهم الإنسـانية ما اتصـل منها بحاجة الفرد ككائن حى ، وبكرامتـه كإنسان .. ولم يكن من قبيـل التزيد والإسراف اهتمامه البالغ بتوجيهها إلى ذوى النفوذ من أصحاب الرأى ورجال دولته ، في مجالات الفكر والحرب والسياسة وشئون الدنيا والدين . ولا حرصه أن يعوا دقائقها ، ويلزموا حدودها ، في حياتهم الخاصة مع أنفسهم وذويهم ، قبل أن يلزموا بها ، في الحياة العامة ، من تحتهم من الناس.. فهذا هو السلوك الأمثل الذى لا ينبغي للقادة أن يسلكوا سواه ، لأنه السلوك الذى يعبر عن إيمانهم حق الإيمان ، ويستهوى كل من وراءهم أن يقتفوه .. وهو الإيمان الذى لا يطاوله إيمان ، لأنه يرتقي بصاحبه على انقاض الأثرة والهوى إلى ذروة التجرد ، ويدفع به إلى الأخذ من نفسه ليبذل لغيره وإنه للقادر عندئذ ، بسلطانه على كل من عداه من أبناء مجتمعه ، أن يضع نفعه الذاتي حيثما كان يطيب له أن يفعل لو أنه شاء .. فلا عجب إذن أن يحث الإمام النـاس عامة ــ نصرة للمساواة ــ على أن يفوها حقهـا فلا يسـتذلهم هواهم أن يكيلوا في تطبيقها على أنفسهم بمكيال وعلى الآخرين بمكيال !..

هنا يقول على التعميم :

« أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة من نفسه وأهله وماله .. » .

ثم يخص بدعوته كل ذى نفوذ :

« الزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيثما وقع .. » .

ثم يقرن بين هـذا الانتصاف ــ للناس جميعا ومنهم جميعا على سـواء ــ وبين الانتصاف لله .. وهل من مراء ؟.. فكلاهمـا حق . وكلاهما من نبع واحد هو الإسلام ، وإذا لم يتفق ، بالمساواة ، سلوك البشر بعضـهم إزاء بعض ، ونظراتهم آحادا إلى آحاد ، لم يسـتقم

أمر الدين . وأحر إذن بسلوكهم تجاه الله أن يتعدد ويختلف ، وبنظراتهم إليه أن تتفرق وتزيغ .. وهل من وراء هذا وذاك غير اعتداء على حق الإنسان هو ظلم ، وغير اجتراء على حق الله هو عصيان ؟..

يقول :

« أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك هوى فيه من رعيتك ، فإنك إلا تفعل تظلم .. » .

نهج أحق بقادة العمل أن يتبعوه إذ هم القدوة للناس ، والطلائع التى يسيرون خلفها في كل موقع إلى نوع الحياة الذى يلائم طبيعة البشر ، ويتفق ونظرة الدين . وما لم يكن سلوك أولئك على هذا الصراط السوى فسلوك كل من وراءهم تبع له على انحراف يفسد به المجتمع لاختلال الصفوف ، وانفراط النظام ..

على القادة ركز الإمام التوجيه ليكونوا : مبشرين برسالة الحياة الحقة كما سنتها الطبيعة ، أمنة على كنهها كما بينه الإسلام ، بعد أن اوشك مفهوم الحياة الميسر ، ومضمون الإسلام البين ، ان يغرقا في سيول هوج ، وتيارات رعناء من الهوى والجهل ، بجسها التأويل المغرض من خلال التلاعب بالعبارات والنصوص ..

ولقد بدا الإمام — لا ريب — خبيرا بنفسية المجتمعات وهو يركز هذا التركيز . فالجماعات مطبوعة دائما على التطلع الى كل ما هو « أعلى » . كلفة دائما بالتلقي عنه ، ثم تأثر خطواته السلوكية ، تشبها به ، واتباعا لنهمها الطبيعى بالمساواة . وليس شيء أقوى على التأثير في سلوكها من نزوعها الغريزى للتقليد ..

وكان القادة ، بطبيعة الحال ، من العمال وذوى الرأى واصحاب السلطة الزمنية في الدولة ، هم مرتقى التطلع الذى تتعالى إليه نظرات الجمهور ، ويحاول سلوكها أن يتسامى إلى سلوكه ، فراح الإمام يرسم لهم اسلوب عمل ، كفيلا إذا امتثلوه أن يصلحوا به ويصلح عملهم ، ثم يتداعى له — بغريزة التقليد والانقياد الجمعى — سلوك الجمهور تداعى الفراش للنور ..

فأى اسلوب ؟..

إنه الاسلوب الذى ينظر إليه من خلال الفطرة الموحدة ، فإذا هو ناضج بها ، موافق لسنة الطبيعة .. ومن خلال الدين ، فإذا هو آخذ عنه ، معبر عن مضمونه .. ومن خلال العلاقات الاجتماعية ، فإذا هو قاموس أخلاق . وهو بشعبه هذه الثلاث : الطبيعية والدينية والاجتماعية نابع من المساواة ، مقيم لاركانها ، مصدق لكل ما يفصح عن حقيقة كنهها كنواة وحيدة لالتقاء البشر كافة ــ على تباين الأوضاع والطبقات ، واختلاف الأجناس والعقائد ــ في وحدة وثيقة بلا انفصام.

ويعبر الإمام في يسر عن المساواة المنشودة ، فيحدد الأثرة آفة لها تعرقل نموها ، وتذهب بريحها ، وتقضى على الأمل في قيام المجتمع البشرى المتكامل ، لأن الأنانية او حب الذات تجمد إحساس المرء بكل من عداه ، فلا يرى إلا نفسه ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يقيس الأمور إلا بمقياس منفعته الخاصة وإن أهدر بهذا منافع سواه ..

يقول الإمام في كتاب لبعض عماله :

« إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة .. » .

والناس كلهم ، بطبيعة الحال ، سواء في حقوق الحياة ..

ثم لا يفوته ما تنطوى عليه النفس البشرية من نزوع إلى التفوق ، كثيرا ما يشطح بصاحب أى منصب عام إلى التسلط ، تباهيا بقدره ، وإظهارا لقدرته ..

إلى من قد تحدثه نفسه بالاندفاع إلى هذا المنزلق ، يكتب الإمام في وصاياه ، محذرا الاغترار بالنفوذ :

« لا تقولن إنى مؤمر آمر فأطاع ، فإن ذلك إدغال في القلب ، ومنهكة للدين .. »

فليست السلطة تسلطا وطغيانا ، ولكنها وظيفة لصون الحقوق ، ولا طاعة لها إلا في هذا النطاق ..

بل كاد يوحى في كتاباته أن المتسلط على الناس قرين المشرك بالله ،

لأن سلوك أمثال هــذا كسلوك أمثال ذاك ، ينم عما قر في روعهم من شعورهم الغلاب بانطلاق مشيئتهم انطلاقا لا تكفهم عنه قوة ، فلا يردهم شيء عن السدور في تجبرهم بالقول وبالفعل على من دونهم مكانة ، بلا تعقيب معقب أو محاسبة حسيب .. أو قد أنساهم الشــيطان أن لله وحــده التفرد بانطلاق المشــيئة ، بغير معقب على كلمــاته ، ولا ناقض لأحكامه ؟.. أم عساهم استمرأوا أن يشاركوا الله سلطانه على مصاير عباده استهانة بهم وجحودا له ؟..

مخافة الانخراط في سلك هذا النوع الذى يضله اغتراره ، ويعميه استكباره ، يبعث الإمام ، محذرا ، إلى بعض عماله :

« إياك ومساماة الله في عظمته ، والتشبه به في جبروته !.. » .

ثم يجاهر بدهشته أن يتعالى الإنسان صلفا وتيها بنفسه وليس فيه ما يدفع للاستعلاء ، أو يبرر الخيلاء :

« عجبت للمتكبر الذى كان بالأمس نطفة ، ويكون غدا جيفة !.. » .

لكنه إذ يعجب ويحذر ، يبصر وينور ، لأن ما لا يغيب عن نظرته الثاقبة وبصيرته المستنيرة قد يغيب عن إدراك سواه . فإذا هو لايكتفى بأن يدع الناس وهــذا السلوك الذى دلهم على انحرافه ، ويبين لهم عتوه وغلوه إذ يســتخفهم إلى التسلط ، بغير حق ، على بشر مثلهم هم لهم انداد نظراء . بل إنه ليقرن وصف زلتهم الضالة بما لا يملى لها في التمكن ، وما يكف شرتها عن الاستشراء لو ألقوا السمع والفؤاد لقوله منصفين .. وهل تجبرهم غير ضلال ؟.. وهل زهوهم إلا علة تفترس النفس ، تواتها كلفهم المنهوم بالاعتداد ، وإقبالهم المسف على الاستكثار من الثقة بالذات إلى حد التخمة التى تورث الغرور ؟.. وهل يغذى الاغترار وينمى ضراوته شيء كثنــاء مسرف خــداع هو في حقيقته الوسيلة الوحيدة لكل عاجز وخائف ومنافق إلى حماية نفسه من اى طاغية متجبر او استجلاب رضاه ؟..

لكم تفيض الحياة اليومية بصور لهذا الثناء المضل الضال ، تمر تحت الأعين فلا تكاد تقف عند إحداها نظرة عجب ـ دع الاستهجان !ـ ربما ، لفرط تعددها ، وتوالى مرورها ، قد اعتادها الناس ، وغدت

في حياتهم شيئا مألوفا لا يستحق أن يثير الفضول !.. فكأنما التمويه قطعة من طبيعة الإنسان !.. وكأنما النفاق بضعة من عمله !.. وكأنما الإطراء المنحرف يشيع في الجو فلا يملك أحد من البشر إلا أن يتنفسه — رضى أو كره — ويتمثله ، ليعيش عليه ، تيها وعجبا ، أو تحاميا وخشية !..

لكن الإمام ينزه إنسانية البشر أن يمتهنها هذا الضعف الخلقي ، فيرسم لنا صورة حية يتقابل على ديباجتها الرياء والتعفف تقابل الظلال والأضواء .. فيها الرياء يستذل صاحبه حتى ليهوى إلى ما تحت الأقدام متمسحا بها ، كأنما قصارى طموحه أن يلعق التراب، فإذا هو عندئذ ليس بإنسان ، بل الهوان في هيئة إنسان !.. وفيها التعفف يرفع صاحبه محلقا به إلى ما فوق شهوة النفس ، فإذا هو الأبي القوي على الإغراء والإغواء ، الذي يكرم نفسه أن تستمرىء الصلف أو تلوذ بالهوان فيكرم فيها نوع الإنسان ..

صورة من سلوك البشر في كل مجتمع وكل زمان ، ينتزعها الإمام من واقع حياتهم اليومية ليضعها — بغلوائها وتدليها — في المسامع والأبصار مثلا نابضا لضعف النفس : بالغرور كيف يكون ، وبالتذلل كيف يكون .. ثم يعتصر دلالتها ، ويستخرج حكمتها فإذا هي الدرس الذي يهذب النفوس ، ويروض الطبائع . والدعوة العملية التي تؤكد للناس أن الحياة ليست بحياة إن لم يعيشوها جميعهم ، حاكما ومحكوما ، كبيرا وصغيرا ، وهم سواء ، كرماء أباة .. فما الثناء برياء ، ولا الطاعة بتذلل ، ولا الولاء استخذاء .. وما القوة بتجبر ، ولا التواضع بضعف ، ولا السلطة خيلاء .

وهذه هي الصورة الناطقة بكل ما فيها .. بما يعرض للعين من أخلاط الألوان وعتمة الظلام وإشراق الأضواء . وبما تلقف الأذن من جرس النبرات ووقع الهمسات وخفق الإيماء :

رجل سولت له نفسه أن ينفذ إلى الرضا والحظوة ، أو إلى الأمان والسلامة من أقصر طريق شقه البشر ، ومن أوسع باب فتحوه والغوا ولوجه ، طوال تاريخهم على وجه الدنيا ، إلى هذا المآرب أو ذاك ، فلا يتردد أن يخف — وهو واهم أو عالم — إلى الإقبال على أمير المؤمنين،

متمسحا به كالهرة كمألوف عادة المحكومين مع الحكام ، مشيدا بقدره ، معددا مناقبه وشيمه ، متغنيا بمكارمه وسجاياه .. إنه ليمدح فيطنب ، ويثني فيغدق ، ويطري فيفيض .. حتى إذا بلغ شأو حديثه، وأفرغ ما في جعبته من بضاعة بيانه المنمق الأخاذ ، ثم حسب أنه استحق الجزاء الذى تطيب به نفسه ، فجأته من الإمام نبرة قاطعة حادة ، جمعت اللوم إلى الإنكار ، والرثاء مع الازدراء ..

كان الجزاء الذى تلقاه :

« أنا دون ما تقول ، وفوق ما في نفسك !.. » .

وعندئذ تبعثرت قرابين الملق ، وتناثرت آلهة الاغترار ، حطاما تحت الأقدام !..

حكمة وقدوة ..

حكمة تؤكد إيمانا بمبدأ ، وقدوة تجسد هذا الإيمان ، تتلازمان .

فليس بالدعوة وحدها يعيش مبدأ . وليس بالمبدأ وحده تصلح حياة .. وإنما لا بد من سلوك جاد يعبر عن القول بالعمل ، ويجسد المنطوق في تطبيق . وما من أحد هو أولى من الدعاة الرعاة بهذا السلوك القوال الفعال الذى يغرى من وراءهم بالتزامه لأنه يروج للمبدأ ، ويثبت أركانه ، ويجعل منه سياسة عامة للدولة وأسلوب حياة يعيشه أبناؤها وليس مجرد إيمان أخرس تكنه الأفئدة ، أو لفظ أجوف تهدر به الشفاه !..

ولا يغفل الإمام عن ترديد خلاصة هذه التجربة على من بيدهم مقاود الأمور من رجاله في الولايات والأقاليم وفي مراكز السلطة اينما كان لدولته سلطان ، لأنهم أحق الناس في مجتمعاتهم بإلزام أنفسهم امتثال السياسة المقررة التى شرعها الدين أسسا ومبادىء أو فصلتها الدولة فروعا وأجزاء . وكم أمر أن يتجنبوا الانزلاق على النفوذ إلى التجبر ، وعلى الثناء إلى الاغترار ، وعلى كليهما معا إلى طغيان الفردية التى لا تعيش إلا على دم الحريات !..

وها هو ذا لا يقتصر فيما يوصي به عماله على تزهيدهم في تقبل

الإطراء . بل يحاول أن يحاجز بينهم وبينه بأن يسد عليه سبيل التسلل إلى نفوسهم من خلال طائفة من المشيرين هم أخلق بأن يفتنوا في إرجائه من ألف باب وباب !..

تلك طائفة الخاصة من البطانة والأعوان ، الذين يعيشون عادة على زهو الحاكم كما تعيش الديدان على جيفة ، ويبنون حوله بآرائهم وأجسادهم سورا منيعا من التمويه ، فيه يسمع بأسماعهم ، ويرى بأعينهم ، ويفكر بعقولهم ، وتطيب نفسه المخدوعة بحياة هي الوهم ، بعيدا عن الحقائق ، معزولا عن الناس ..

من أولئك يحمى الإمام كل عامل من عماله فيدعوه الا ينقاد لهواه عند اختيار مشيريه ..

يقول :

« استعملهم اختبارا ، ولا تولهم محاباة .. » .

ولا يكتفى بتزهيد الولاة في الثناء المسوق من قبل هؤلاء ، بل يحثهم أيضا على تهجينه لرعاياهم من عامة أهل الإقليم ، ومكافحته في سلوكهم كما تكافح الموبقات !.. فيكتب في إحدى رسائله لبعض عماله يأمره أن يرد من قبله من الناس عن إطرائه لكيلا يفترسه الغرور :

« .. ورضهم على ألا يطروك . فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو ، وتدنى إلى الغرة .. » .

بل يأخذه بالإصغاء للصرحاء ، الذين لا يموهون ولا ينافقون ، وبتقديمهم في مشورته ومجلسه على من عداهم ، وإن ضاقت عادة بالنقد صدور الحكام :

« .. وليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق !.. » .

ولا مراء !..

فالثناء في أغلب الأحايين — إن لم يكن على الدوام ! — وسيلة لإخفاء رذيلة أو لتضخيم فضيلة ، تنتهجها النفوس الهشة جنوحا من الرذائل إلى مداهنة المرذول أو استجلابا لرضا الفاضل على المفضول . فهو

إذن مركب هوى ، وليس بأسلوب صدق لإبداء ولاء أو تعبير عن تقدير . ام لا ، وإنه لمن ضعيف لقوى . من صاحب حاجة لمالك امره . من حاكم لمحكوم ؟.. ام يستطيع ، وهو المرفوع ممن هو ادنى إلى من هو أعلى منه ، ان ينطق بالحق الخالص ، مترجما عن حقيقة الأوضاع ، او مفصحا عن مشاعر مزجيه ؟.. ام أخلق به وأليق أن يجيء كتلة من النفاق والزيف والتدليس ؟..

احرى به ، في مثل هذا الموقع ، ان يحق الباطل ، ويبطل الحق ، لأنه لن يكون عندئذ إلا أداة نفع لصاحبه أو مطيته إلى نجاة .. فإذا دعا الإمام رجال دولته العاملين من لدنه على الناس إلى العدول عن الإصغاء للإطراء إلى الإصغاء للمصارحة فهي الدعوة الكفيلة بأن تكف عادية الخيلاء وتحسر مد الطغيان ، لأنها تصد الرياء فتقلم أظفار الاغترار .. وهي الدعوة العاملة على تكريم العقل وإقامة الشورى وتوطيد حرية الراى لأنها تفسح للنقد فتهدر استبداد الفردية ، وتحفظ للشعب المحكوم حقه في مناقشة الحكام ...وهي ، بعد هذا أو قبله ، الدعوة التي تتصدى للانحراف بنوعيه : المتهاوى المتخاذل ، والمتشامخ الطاغي ، إذ تحارب الاستكبار والإرهاب كما تحارب الجبن والنفاق ، فترسم للدولة سياسة عمل ، وللأمة خطة اخلاق ..

٩

بغير مغالاة ، تكاد وصايا أمير المؤمنين وأوامره الى عماله في الأقاليم ، تمثل لنا تلك الخطة المتكاملة التى يحدد بها هدى الإسلام ما ينبغى أن تكون عليه سيرة المتبوع بين الاتباع ، واليا من قبل السلطة الشرعية الحاكمة ، او امرؤا هياه وضعه الاجتماعى لقيادة الناس في محيطه تجاوبا مع العرف والتقاليد . فهى الخطة الشاملة العامة التى يسعها أن تستوعب في نطاقها كل راع مسئول من ذى رأى أو سلطان بين أهله وذويه أو بين غيرهم ممن عسى أن يتداعوا اليه ، بحكم الصلات الاجتماعية أو بحكم الولاء السياسى .. وهى الخطة المحكمة التى تبين بجلاء ما يجدر بكل انسان أن يمتثله في حدود ما أتيح له من نفوذ جل أو هان ثم لا تترك ثغرة للترخص والاستثناء ولا للجموح والغلواء .. وهى بهذا خطة السلوك « الخلقى » المقبول الذى تستقيم به العلاقات الإنسانية في مجتمع العشيرة كما في مجتمع الأسرة ، وفي حيز الدولة كما في حيز الإقليم على السواء دون سبيل للمفاوتة في معاملة الناس بالإيثار او بالإجحاف .. بل هى ايضا السلوك « الطبيعى » العادى الذى لا بديل لأى جماعة بشرية عنه في سياسة الأمور وقيادة الأفراد والجماهير ، لأنه يوافق طبيعة البشر اجمعين حكاما ومحكومين على اختلاف الزمان والمكان ، وتنضح به الاخوة الآدمية التى تربطهم قبل أن تنضح به صولة الحكم وسطوة السلطان ، ويتداعى للفطرة الأصيلة فيهم بغير عناء او اعتساف ..

نهج طبيعى عادى ، ومسلك خلقى سوى دعت اليه وصايا أمير المؤمنين ، واجمل رسمه بأوجز وصف وأدناه في حديث له ..

فقد قال :

« .. .. واحذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكره لعامة المسلمين .. واحذر كل عمل يعمل به في السر ويستحيى منه في العلانية .. واحذر كل عمل اذا سئل عنه صاحبه انكره واعتذر منه .. .. »

وبهذه الكلمات خط المبدأ ثم حدد الأسلوب .

فأما المبدأ فهو أن تكبح النفس أن تستخفها الأثرة لإشباع نزواتها أو تغرها القدرة لتحقيق منافعها الخاصة ، انزلاقا على الهوى أو جنوحا مع الخيلاء ..

وأما الأسلوب فهو أن يوجه عمل الفرد إلى الصالح العام ، وإن أضر هذا التوجيه بالمآرب الذاتية ، أو كان الفرد صاحب السلطة العليا التي تقود ..

ومن هذا وذاك ينبثق السلوك الأمثل الذى ينبغى أن يكون . والذى يستجيب للرغبة العامة فيصلح الجماعة وترضيه . والذى يعز صاحبه ويسمو به ان يحس الهوان في دخيلته أو يحسه له الناس. فما يجنبه مثل هذا الشعور بالهوان أن يمتنع عن سخطهم ببأسه وجبروته . ولا باستهانته بشأنهم . ولا بالتغافل عما يكنون . وإنما يجنبه إياه أن يتحامى الوقوع فيما لعلهم ينكرونه عليه ويصبح به في مجال تثريبهم في العلن أو الخفاء ، وبالتصريح أو الإيماء .. فليس اكرم للمرء من أن يكون وحده الرقيب على فعله وقوله . وليس أليق به كإنسان من أن يصدر في تصرفه عن شعور عميق بإنسانية مشتركة تجمع بينه وبين من حوله وإن تفاوتوا في الأقدار . وليس أجدى عليه وعلى مجتمعه من انطلاقهم جميعا من وحدة الشعور إلى وحدة الفكر ، ومن وحدة الفكر إلى وحدة التعبير ، ومن وحدة التعبير إلى وحدة الغاية التي تلتقى عندها كافة الرغبات .

بغير هذا لا يمكن لكيان أى مجتمع من المجتمعات ان يتماسك لأنه عندئذ يفتقر إلى اتفاق كلمة أبنائه فإذا هم شيع وفلول تختلف وتتنازع، قد تضاربت ميولهم ، وتبعثرت جهودهم ، وتنافرت أعمالهم ، واضطربت بهم خطاهم في سيرها على أيما طريق قد يؤدى إلى نفع عام .. فما بإرادة فرد وحده يستطاع أن تساق الشعوب ما بلغ ذلك الفرد من سطوة النفوذ . ولا بمشيئة طبقة فيها من دون الطبقات يساغ ان تبرم الأمور ما بلغت تلكم الطبقة من بسطة الجاه .. إنما التنسيق بين كافة الإرادات والمشيئات ، والتوفيق بين مختلف الميول والاتجاهات هو الذى يدعم وحدة الأمة ، ويوطد كيانها ، ويصلح شأنها

بداية وغاية . فلا صلاح لأمة بصلاح بضعة فيها دون بضعة ، ولا بإيثار طائفة على طائفة ، لأن « الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض » — كما يقول الإمام .

تلك سياسة ثابتة كالجبل ، عادلة كالميزان ، خليقة بأن يرعاها كل محكوم كما يرعاها كل حاكم سواء بسواء لأنها تحقق التوازن في المجتمعات ، وتمنع بناءها أن يميد ..

فما هو إذن مقياس تطبيقها بلا انحراف ؟..

وما هو ضمان « الموازنة » فيما بين الأفراد ، وفيما بين الطبقات ، وفيما بين أولئك وهؤلاء ؟..

بديهية لا تختلف عليها الآراء أن يكون ذلك المقياس شاملا يتسع لكل قياس ، حاضرا ميسورا لكل الناس .

وإنه لكذاك !

فأن تضع نفسك موضع سواك ، قبل أن تصدر عن فعل أو قول ، فترضى لها ما ترضى له ، وتكره له ما تكره لها ، لهو المقياس الذى لا يبعد عن أحد لأنه يقع في متناول الجميع . وهو لا ريب المقياس الدقيق الذى يكفل استقامة التطبيق ، ولا مجال معه للمفاوتة في التقدير مهما تغيرت الأحوال واختلف الأشخاص .

إنك أدنى إلى أن تعيش بعيدا عن الحقائق ، معزولا عن الناس بغير هذا المقياس لأنك عندئذ لا تكابد ما يكابد سواك . ولكنك به تعيش في إهابهم !.. ترى بعين كل منهم . تسمع بأذنه . وتشعر شعوره . تفكر تفكيره حتى لتصبح أنت في قرارتك كأنك هو ، ويصبح هو في نظرتك كأنه أنت !. ولا شيء أوضح من هذا نهجا لاستقامة تقدير كل امرىء للأمور ، ولا أقوم سبيلا لسلامة تصرفه وسلوكه . ثم لا شيء بعد أصدق منه تعبيرا عن الإحساس الجمعى ، ولا أقوى ضمانا لتحقيق الإرادة العامة .

ولا يساغ هنا أن يقال بإقبال الناس كافة على هذا المقياس ، أو بعملهم به على اطراد وعن إجماع ، في كل الأحوال .. فلقد يحدث

ــ ولا عجب ــ أن يغفل عنه فريق ، كما قد يحدث ايضا أن يعبث به فريق .. فليس دائما كل أسلوب ميسور بمقبول . وليس دائما كل طريق معبد بمطروق . وليست الحياة الدنيوية بقالب يصب فيه البشر فإذا هم نمط واحد ، على اتساق وتماثل بلا تناقض وتضاد . ذلك لان الإجماع خيال . والاطراد إطلاق ، والإطلاق ــ بطبيعة الحال ، ومع اختلاف الطبائع البشرية ، وتشعب النزوات ، وتفاوت الوعى بين الأفراد ــ ضرب من المحال . والأولى إذن في هذا الضوء ان يقال إنه المقياس الذى إن فاته أن يقيس اتجاه الإجماع فلن يفوته أن يقيس الاتجاه الغالب الذى يعبر في اى تجمع إنسانى عن رأى الكثرة من اهله ، ويصلح على هذا الأساس ، ان يكون نقطة بداية لانطلاق الجهود إلى هدف عام « نسبى » ، إن لم تتحقق عنده إرادة الكافة فأحرى به ان يحقق إرادة جمهور الناس .

وإذن فإرادة هذا الجمهور اجدر بتقديمها على ما عداها من إرادات غيره من ابناء الأمة ، ما دام يمثل فيها ــ بمجموعه العددى ــ ما يوشك أن يقارب الإجماع ، ويفتقر ــ بوضعه الاجتماعى ــ إلى النصيب الأوفي من الخير العام .

هذه هى النظرة الواجبة إلى وظيفة الحكم كيف تكون ، وإلى تبعة الدولة عند وضع الخطط ورسم الأهداف . وهى النظرة التى تعلن دائما عن نفسها في طوايا وصايا الإمام وأوامره ، ويقرر بها ضرورة امتثال الإرادة الشعبية الغالبة وتوجيه العمل القومى ، سياسة ونتيجة ، إلى نفع العامة ــ إن لم يكن عدلا فإيثارا ــ لو عسر توجيه هذا العمل لنفعهم ونفع بقية من عداهم من الرعية على استواء . فإذا أوثروا ها هنا فإنه الإيثار الذى يعدل الحق ويكافىء الإنصاف ، تعويضا لهم عن الحرمان والتخلف ، ولو بدت فيه مسحة عطف او اثارة انحياز .. وإذا اختصوا دون غيرهم بمصلحة فإنه الاختصاص الذى يرقى بهم درجة في سلم المساواة ولا ينزل بسواهم من الطبقات .. وإذا استكثر لهم من الخير العام فذاك ما تبرره كثرتهم ، إذ هم قاعدة المجتمع الكبرى ، وأساس بنائه ، وعصب كفاحه في كافة المجالات ، وما من فئة ــ بهذا المعيار ــ هى أحق منهم باجتناء القسط الأوفر

من ثمرات العمـــل جزاء وفاقا لما يحملون من أعبـــاء ، وثمنا عادلا لما يبذلون من جهود ..

عن دورهم في حياة أمتهم يقول أمير المؤمنين :

« .. إنما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء : العامة من الأمة .. » .

وعن دور الدولة في رعايتهم ، وكفالة حقوقهم ، يذهب إلى المدى الذى لا يبالى عنـــده سخط من عداهم ، لأنه عندئذ السخط المنتظر المغفور ، الذى لا يلائم ضرورات الواقع ، ويكاد لا يخل بعدالة الميزان..

يقول :

« .. سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر برضا العامة .. » .

فهنا احتفال ، وهناك استهانة .. سخط المتكفف في كفة ، وسخط المكتفى في كفة ، ولا مندوحة ــ عند المفاضلة ــ عن درء أولهما بالآخر لأنه شتان بين ضاو محروم يصلحه النزر ، ومترف منهوم تفسده التخمة !..

ولم يكن رأيه هذا بقول الذى يسوق العبارات عشواء فيجانب بها حدود الاكتراث استهانة أو غفلة ، بل هو حديث المحيط بالحقائق، المتمرس بالتجربة ، الخبير بالنفوس الذى يبنى كلامه على شـــواهد عملية ، وأدلة يقينية من صميم حياة الناس يوشك الا ينفذ إليهـــا البطلان ..

بخلاصة ما خبر واستيقن ، يتحدث فيقول :

« ليس احد من الرعية اثقل على الوالى معونة في الرخاء ، واقل معونة له في البلاء ، واكره للإنصاف ، واسأل بالالحاف ، واقل شكرا عند الإعطاء ، وابطأ عذرا عند المنع ، واضعف صبرا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة !.. » .

ولا مراء !..

فتلك ــ عادة ــ خلائق المترفين السراة ..

ولا يغفل الإمام، بعد هذا، شأن الفرد، لأنه نواة جماعات الأمة ولا يصلح الدوح إن لم تصلح البذور!.. ومن هنا فإنه يرى لكافة المواطنين حقوقا على الدولة، ليس لها ان تتحلل منها، او تبخل بها وان تفاوتت قدرا او نوعا بحسب طبيعة الأوضاع الاجتماعية التي ينتسب إليها الافراد. ثم يرى، ضمانا لهذا الصلاح، ان تعاير الحقوق بالحاجات، فيقول:

«.. لكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه ..».

وقد ذهب امير المؤمنين في تقرير هذا الحق ابعد المذاهب، حتى لقد جعل الوفاء به اول ما ينبغي على الحاكم وإن جاء هذا الوفاء على حساب المال العام، أو اجتزأ منه بنصيب. فلا خير قط في سياسة قصاراها ان تكدس المال في الخزائن لتستند به هيبة الحكم او تعز السلطان إن لم تسخره وسيلة للرعاية الاجتماعية لمن يفتقرون لهذه الرعاية، لانها عندئذ السياسة الخليقة بأن تفقد الطبقات الدنيا والمحرومة في المجتمع شعورها بالانتماء للدولة، وتنزل بولائهم لها إلى اسفل درك إن لم تدفعهم دفعا إلى التنكر للنظام العام، وتزخر نفوسهم بالثورة عليه .. ولا بديل في امة تنوعت شعوبها، وتعددت وحداتها السياسية، عن عناية كل عامل على اية وحدة بأن يوفر للمعدمين والمحتاجين فيها ما يمسك عليهم مستوى كريما، أو مقبولا، من المعيشة، من دخلها قبل أن يوجهه إلى حاضرة الدولة .. فأهل الارض، لا ريب، اولى قبل غيرهم بما تغله. ونجاح الوالي لا يقاس باقتداره على جمع المال. وليس بمجهول انه قد أثر عن رسول الله قوله إنما بعث للهداية ولم يبعث للجباية ..

في هذا المقام يقول الإمام:

«.. يؤتى خراب الأرض من إعواز اهلها. وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على جمع المال ..».

ويرسم سياسة للجباية لا تهدر كرامة الإنسان، ولا تعضل به، وإن أعضلت بالدولة، وحرمتها بعض ما يستحق لها على الرعية من الاموال.

يامر اهل الخراج :

« .. لا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ، ولا صيف ، ولا دابة يعتملون عليها .. » .

فأما ذوو الحاجة من أبناء الإقليم ، فقد آثرهم بمال إقليمهم إلا ان تفضل فضلة تنفع أبناء سواه ..

يكتب إلى عامله على مكة قثم بن عباس في هذا الإيثار ، فيقول :

« أنظر ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوى العيال والمجاعة تصيب به مواضع الفاقة والخلات .. وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا .. » .

بل يحتم على الدولة أن تتولى ما نعبر عنه في لغة اليوم بالرعاية الطبية ، وإعانة التعطل ، لكل مريض ، وكل متعطل أعوزته الوسيلة إلى عمل يصلح امره او اعجزه عنه سبب من الاسباب .. فيبعث إلى ولاته :

« الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم ، والمساكين والمحتاجين واهل البؤس والزمنى .. اجعل لهم قسما من بيت المال ، وقسما من غلات صوافي الإسلام في كل بلد .. فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى .. » .

كافلا بهذا الرعاية للجميع ، في كل ركن من أركان الدولة ، بغير تمييز ولا استثناء ..

فإذا بلغ بأوامره إلى الحكام هذا المبلغ ، بادر فدعا كل قادر من ابناء الامة إلى التزام نفس السياسة تجاه ذوى الحاجات ، من ماله الخاص ، جودا بما يطيق مهما قل ، لأنه يعينهم على الحياة :

« .. لا تستح من إعطاء القليل ، فإن الحرمان أقل منه !.. » .

وكما سبقت وصايا الإمام — فيما نطقت به عن تعاليم الإسلام — كافة الشرائع والقوانين الوضعية إلى إلزام الدولة رعاية الفرد بتقرير حقه عليها في العمل والعلاج والمعونات المالية وكل ما يضمن له مستوى معيشيا يليق به كانسان ، فقد سبقتها ايضا الى حماية الفرد من

استغلال سواه الاستغلال الذى تشق به عليه الحياة . وكفى ان نذكر هنا ــ كمثال ــ انها حرمت الاحتكار ، وفرضت رقابة على اسعار السلع لكيلا تكون وسيلة بعض الجشعين من التجار الى الإثراء الفاحش عن طريق التحكم في الاسواق ..

فلقد كان من أوامر الإمام الى رجاله :

« .. فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله منع منه .. وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل ، واسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع .. .. »

تلك وغيرها من وصايا الإمام وآرائه . خطوط في السياسة العلوية ، ومعالم على طريقها ، وضعها صاحبها لتكون مشاعل هداية ونور للولاة والعمال في سياسة الناس والامور ، ومفازة امن وسلامة لابناء شعبه الى الحياة الكريمة .. فإن فيها من العناصر الواضحة ، ومن المفازى المستمرة ما يبدى لنا خطة وثيقة الكيان ، راسخة البنيان ، تؤكد كيف يمكن للسلوك البشرى أن يوافق شريعة الدين بلا اعتساف ، ويلائم طبيعة البشر دون إرهاق ، ليرقى بالأمة كلها ، حاكمين ومحكومين ، الى حيثما تهفو الأنفس النقية الطموح والقلوب السليمة الذكيــة ، وتترامى فطنة العقول الواعيــة ، إلى حياة من الصفاء والســـلام ، كل فرد فيها قدوة ، وكل جماعة فيها إخوة ، بلا تطاول بالأحساب والأنساب ، أو امتياز بالألوان والأبشـــار ، أو اغترار بالمناصب والأقدار .. بل أسرة واحدة . يعمل الفرد في ظلها للجماعة لانه يعيش بها ، وتعمل الجماعة للفرد كأنما تعيش فيــه .

غير انها خطة ــ كغيرها من السياسات والمبادىء ــ خليقة بأن تتجمد في الألفاظ ، ويجف ماء الحياة فيها قبل ان يجف بها المداد على الصحائف ، ما لم تجد رعاة ودعاة ينحلونها القدرة على الحركة ، فيعيشونها عملا مثمرا وممارسة حية ، ولا يكتفون برفعها شعارات ..

فهل هكذا كان سلوك المسلمين عامة ، في تلك الأيام ، وخطة الإمام هى لب الإسلام ، والأمة كلها ، بلسان محمد ، رعاة ؟..

لقد قال أمير المؤمنين وهو يحدد لقادة الرأى والعمل والسياسة حينذاك دورهم في هذا المجال :

« من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه .. .. »

لكنهم عامة ــ أولئك القادة في مختلف انحاء الدولة ــ لم يستجيبوا لهذه الدعوة الهادية ، سواء منهم من كان معه أو كان عليه .. الكثرة التى صمت عن الاصغاء تنكرت للأداء . والقلة التى لعلها أصغت للدعوة اكتفى أغلبها برفعها شعارات . ومن ورائهم جميعا جمهور الشعب ، يسيرون ، كما يسار بقطيع ، إلى دروب الهوى والنفع الذاتى التى شقتها لهم دنيا خداعة ، تخايلهم بمطامع وشهوات ، ليستدبروا طريق الحياة الحقة التى يلتئم فيها شمل البشرية ، ويعز الإنسان كإنسان !

الفصل الرابع

١

عندما سمع الإمام بفرار مصقلة ، زاحم الأسى في وجهه سمات الغضب ، اسفا على غلبة الوحل في طبيعة البشر !.. فما زال ضعفهم يشدهم الى الأرض وإن بدوا كأنما يحلقون في السماء . وما زال الادعاء لعبتهم الأثيرة . وما زالت النفوس غثة وان تسربلت بكبرياء ..

إن خلائق كثرتهم لأهون من أن توزن بمثقال . وإن شرفهم لأرخص من أن يثمن بدرهم . وإن كرامتهم لغشاء وطلاء .. هيئة ضخمة تهول ، وملمس ناعم يبهر ، ثم لا شيء بعد هذا غير خواء وفراغ ، كأنما القيم الخلقية التى يعلنونها ويظهرون ولاءهم لها مجرد كلمات رنانة ، قصارى هممهم منها ان تمتلىء بها الأفواه وتنتفخ الأشداق !..

ومصقلة مثال !..

واعرب الإمام عن اسفه :

« قبح الله مصقلة !.. فعل فعل السادة ، وفر فرار العبيد !.. »

فقد فر الرجل ، وقبلته الشام ، ليلقى لدى معاوية ما يلقاه كل آبق عليل الضمير ؛ آده أن يستمسك بما أخذ به نفسه من مبادىء ، وتعاهد عليه من ذمام .. باع دينه لدنياه . خلع الوفاء وارتدى الخيانة ، ومضى شوطه في الطريق الذى سبقه اليه كل ناكث خوان ، لينعم هنالك في وجار العاهل الاموى بجاه ما هو بجاه إلا أن تكون الاعتداء على حق الله ، والهوان على مكارم الاخلاق هو النجاه !.

ولم تكن حال مصقلة هذه إلا حلقة في سلسلة طويلة من سلوك طائفة جمة من الامة ، ذلك العهد ، قد آثروا الفرار بانفسهم من

مشقة الثبات على الحق ؛ والصبر على مرارة الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الدين ، الى حياة من الدعة والرغد يشترونها بانتقاضهم على الإمام . فهو عندئذ نمط شائع من الناس الذين بهرهم اقبال الدنيا ، فأكبوا عليها ، ينتهبون عرضها ونشبها ولو من حرام . وهو أيضا نمط من الخاصة تقدموا الصفوف قادة وعمالا في دولة على ، ليعبروا على ما اظهروا من ولائهم له ، وكفاحهم لنصرته ، الى ما يشتهون من مغانم ، فلما أن استطال امر هذا الكفاح ، تعجلوا اجتناء الثمرة المشتهاة التى رأوا صاحبهم يحاجز بينها وبينهم ان يقطفوها بغير حقها ، فاتخذوا سبيلهم الى اجتنائها صاحب الشام ..

وتفصح قصة مصقلة بن هبيرة الشيبانى ، كما لم تفصح أغرب القصص ، عن اضطراب المعايير الخلقية الاضطراب الذى تجتمع فيه نقائض الشرف والخسة ، الإباء والهوان ، الخطأ والصواب ، ثم تقوم — في راى صاحبها — بميزان المعادلة والحساب كأنها كلها شرف وإباء وصواب !..

فالرجل يمر به ، وهو عامل لعلى على اردشير خرة ، من كور فارس ، أسارى نصارى بنى ناجية ، فيبدو كمن يصدر عن خلال كريمة اصيلة فيه .. عن الشفقة والرحمة حين يراهم وتأخذه الرقة على ما هم فيه من بلاء . وعن المروءة والنجدة حين يستغيثونه أن يكف عنهم الأسر ..

ويبادر على الأثر فيشتريهم بخمسمائة الف درهم ، دينا عليه إلى اجل ، ويعتقهم من ذل الاسترقاق ، فإذا هو يبلغ بصنيعه هذا قمة الشرف الذى لا يكاد يرقى لشأوه ثناء .. ثم يمطل بدينه ، فلا يؤدى الفدية التى افتدى بها أسراه الى بيت المال وهو المؤتمن عليه ، ولا يرد منه إلا بعضه بعد ان يلحف عليه بالسؤال ، بل يتحلل من تبعته — افتئاتا وجورا — بان يخلع طاعة امير المؤمنين ويفر الى ابن ابى سفيان . فاذا هو بفعلته هذه يتهاوى الى درك الخسة الذى ليس تحته قاع !..

مناقص ومثالب تروع وتهول . جمعت خيانة الأمانة ، الى خلف

الوعد ، الى نقض البيعة ، الى المظاهرة الجائرة انتصارا للعدو على الولى ، وللمتمرد العاصى على صاحب السلطان الشرعى في البلاد ..

ولقد كانت لمصقلة عندئذ مندوحة ، عن سلوكه الزرى الذى اخل بدينه ، واهدر كرامته ، لو انه كان حقا صادق النية — منذ البدء — في طاعة الإمام ، مؤمنا إيمانا سليما بأهدافه .. وهل كان على ليعجله بالأداء ويرهقه عسرا وإنه الخليق — لا ريب — بأن يمهله ويتريث به وهو يقابل الزلة الوبيلة بالدافع الكريم ؟..

وكان هذا حقا هو اتجاه الإمام في معاملة مصقلة ، إذ عقب يقول :

« .. لو أقام لأخذنا ميسوره ، وانتظرنا بماله وفوره .. .. »

لكن مصقلة شاء لنفسه أن يقرن الصلف بالخيانة ، كأنما ترفعا عن المساءلة والاعتذار . فأعاد بذلك إلى الحياة صورة جبلة بن الايهم ، حين شكاه أحد الأعراب الى ابن الخطاب في لطمة لطمها اياه ، فدفعته كبرياؤه الحمقاء — انفة من القصاص — الى الارتداد عن الإسلام !..

صلف كصلف ، ومثال كمثال ، ثم يبقى بعد هذا ان سيرة مصقلة تنم ، قبل زلته تلك ، عن دخوله في طاعة على ، خداعا وغشا ، ابتغاء المصلحة وذيوع الصيت . فلقد سبق له ان اساء الى المال العام بوضعه حيثما راى انه يرفع ذكره ، وينفع قومه ، وإن اعضل فعله بمن لهم حق في هذا المال .. وها هو كتاب من الإمام إليه ، إبان عمله ، يتهمه ويكاد يهتك الستر عن خيانة قديمة ، خبيئة فيه :

« بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد اسخطت إلهك ، وعصيت إمامك .. انك تقسم فيء المسلمين ، الذى حازته رماحهم وخيولهم وأريقت عليه دماؤهم ، فيمن اعتامك من اعراب قومك .. فوالذى خلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لئن كان ذلك حقا لتجدن لك على هوانا ، ولتخفن عندى ميزانا !.. فلا تستهن بحق ربك . ولا تصلح دنياك بمحق دينك ، فتكون من الاخسرين عملا .. .. »

وختم كتابه يذكر بحق الأمة في الفيء بالسوية ، بلا مفاوتة على المنازل والاحساب :

« .. الا وان حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هـذا الفيء سواء ، يردون عندي عليه ، ويصدرون عنه .. » .

ومع ذلك فقد استمرا المرعى !..

فما هو ان طلع عليه بولايته اولئكم النصارى الأسارى ، حتى تحركت يده ، مرة أخرى ، نيختان المال العام ..

والقى بعينه على موكب الرق فإذا هو جسوم ضاوية محطومة من فرط مشقة الرحلة الطويلة من ساحل البحر في الجنوب . ووجوه مغبرة ، رهقها الإعياء وذل الانكسار .. ثم القى بسمعه إليهم فإذا كلامهم زفرات ، وإذا انفاسهم نواح ..

وتعالى اليه الصياح :

« يا ابا الفضل !.. يا حامل الثقل ، ومأوى الضعيف ، وفكاك العصاة !.. امنن علينا .. .. »

فكأنما لمسوا بعباراتهم وتر فخره ..

هب على الفور يقول :

« والله لاتصدقن عليهم !.. » .

وارسل الى معقل بن قيس ، صاحب الجيش الذى تعقب عصاة بنى ناجية من الكوفة الى البحرين عبر الوهاد والقفار والجبال ، قرابة عامين ، حتى اوقع بهم ، وقتل زعيمهم الخريت ، واظفره الله منهم بعدو عنيد ..

ارسل اليه :

« بعني نصارى ناجية .. »

واتفقا على خمسمائة الف درهم نسيئة ، يبعث بها الى امير المؤمنين بالكوفة بعد قليل ، ثم اعتق الارقاء ..

لكنه لم ينجز وعده .

مطل بالدين . بل قد اكل معظمه فرزا فيه بيت المال كما رزاه

من قبل . فإذا خيانة الأمانة خيانتان . وإذا مسلكا الأمس واليوم يتطابقان . وإذا هو بهما الخلاس السلاب الذى ينهب ليهب . ويهب فيسخو . ويسخو ليستطير بالشرف والفخار فلا يبلغ من شأو طموحه الى نباهة الذكر الا كرما هو التكرم ، ورفعة هى الصلف ، وشرفا هو الادعاء !..

ولم يعاجله الإمام بالبطش والحساب ، بل آثر الرفق والهوادة عسى أن يرجع عن غيه ، ويوفي ما عليه .. ولكن مصقلة ابطأ في الأداء فأطال الإبطاء ، حتى بدا للناس كأنه لا ينتوى الوفاء ..

عندئذ بادره أمير المؤمنين بكتاب مع رسول من لدنه يدعوه :

« أما بعد ..

فإن من أعظم الخيانات خيانة الامة . وأعظم الغش على اهل المصر غش الإمام . وعندك من حق المسلمين خمسمائة الف درهم ، فابعث بها الى حين يأتيك رسولى . وإلا فأقبل .. ..

والسلام . »

ولم يكن لمصقلة معدى عن الذهاب إلى الكوفة ، بعد إذ لزمه الرسول لا يبرح عنه انصياعا لأمر الإمام :

« إن تبعث بهذا المال ، وإلا فاشخص معى إلى أمير المؤمنين .. »

فانطلق صاغرا . ومكث اياماً بالكوفة ، يحاول أن يتدبر الأمر بحيلة العاجز الذى آده الأداء . ثم وسعه أخيرا ، حين سأله الإمام ، أن يدفع مائتى الف ، مكث بعدها يعالج القلق والحيرة ..

وكأنما أغراه تريث على به كل هذا التريث بالطمع في الالتواء ببقية الدين ، حتى لقد قال ذات ليلة لذهل بن الحارث :

« إن أمير المؤمنين يسألنى هذا المال ، ووالله ما أقدر عليه .. » .

قال صاحبه :

« لو شئت لم يمض عليك جمعة حتى تجمعه .. » .

فأنف :

« ما كنت لاحمله قومى ، ولا اطلب فيه إلى احد . . » .

واردف يقول كاشفا عن امنيته :

« والله لو ان ابن هند مطالبى به ، او ابن عفان ، لتركه لى . ألم تر إلى عثمان كيف اعطى الاشعث مائة الف درهم من خراج اذربيجان في كل سنة !. . » .

لكن جواب ذهل رده عن خياله :

« إن امير المؤمنين لا يرى ذلك الرأى . وما هو بتارك لك شيئا . . »

افكان حقا في حاجة لمن يخرجه من هذا الحلم الذى عاش فيه لحظات ، وود لو طال عليه أمده ؟. . إنه إذن لم يعرف الإمام ، ولا كان جديرا بالمنصب الذى شغله عاملا له أولى به ان يتخلق بخلقه ، ويسير سيرته ، تنائيا عن هوى النفس ، وخضوعا لشرعة الحق ، وامتثالا لما ينبغى أن ينتهجه كل من تصدى لقيادة الرأى والسياسة بين الناس.

ولم يطلع عليه بعد ليلته تلك في الكوفة صباح !. .

٢

طوى الإمام سيرة اسرى بنى ناجية في كلمات ..

قيل له :

« اردد الذين سبوا ولم تستوف اثمانهم في الرق .. » .

فابى ان يحرمهم حرية غنموها وإن من خطأ ، وان يتحيف على المال العام :

وقال :

« ليس ذلك في القضاء بحق .. » .

فألحوا عليه :

« وفيؤنا ؟.. » .

« صار على غريم من الغرماء ، فاطلبوه !.. » ..

واطبق السجل على جدل طال في حرية الإنسان ، مسلما أو غير مسلم ، كيف يتحمل المجتمع ضريبتها ، لأنها ، في اعتبار النظرة الإسلامية ، لها الصدارة بين كافة الحقوق ..

وعرض الإمام في احاديثه بالخريت ، صاحب محنة بنى ناجية :

قال عندما اتاه نبأ مصرعه :

« هوت امه !.. ما كان انقص عقله واجراه !.. » .

فما جنى هذا المتمرد الغاوى شيئا من وراء جراته الحمقاء ، أو حمقه الجرىء ، إلا ان حمل قومه على عصيان هم اغنى عنه ، واوغل بهم في مجاهله ومتاهاته على غير بينة ، حتى دل عليهم السيوف تذيقهم مرارة الذلة وغصص الحتوف .. وهل كان قصارى تمرده إلا ان اودى بهم ، واهلك نفسه ، وضيع من عمر الأمة الإسلامية قرابة عامين في

صراع دموى ما كان أحرى الناس عندئذ بأن ينفقوهما في تثبيت أركان الفيء سواء ، يردون عندى عليه ، ويصدرون عنه .. » .

لكن الخريت بن راشد الناجى سلك المسلك الذى لا يستغرب من مثله ، لأنه الأليق بكل من هو على شاكلته من الألى آمنوا على حرف ، الذين يتأرجح بهم دائما قلقهم النفسى ، وافتقارهم إلى اليقين الركين ، من النقيض للنقيض ، شاطحين مرة من اقصى اليمين إلى اقصى اليسار، ثم عادلين أخرى عن أقصى اليسار إلى اقصى اليمين ، بغير ما قد يوجب ميلا ولا عدولا سوى التعصب الأعمى وما يجره من اضطراب التفكير وخلل التقدير .

ولا عجب ان يأخذ الخريت في تمرده بمذهب الخوارج الذين سبقوه إلى الانتقاض على الإمام بسبب التحكيم . فله أن يرى رايه . وأن يدعو له . وأن يحاول تسويده ، بالمجادلة او بالثورة ، على غيره من الآراء ما دام قد اعتنقه عن اقتناع . لكن العجب كل العجب انه كان إلى ما قبيل تمرده بقليل ، مخالفا لهذا الرأى ، زاريا عليه ، حتى لقد نحا في خلافه إلى تأليب الإمام على كل من اعلنوه التأليب الذى ينكر الترفق بهم ، ويرى استئصالهم ولما يخرجوا بعد على النظام العام ...

فقد قال للإمام عندئذ يشيره على الخارجة :

« يا أمير المؤمنين . إن في أصحابك رجالا قد خشيت أن يفارقوك، فما ترى فيهم ؟ .. » .

فشرح له الإمام ما يرى أتباعه حيالهم وأمثالهم من مخالفيه :

« إنى لا آخذ على التهمة ، ولا اعاقب على الظن ، ولا اقاتل من خالفنى وناصبنى وأظهر العداوة لى .. ثم لست مقاتله حتى أدعوه ، وأعذر إليه . فإن تاب ورجع قبلنا منه . وإنابى إلا الاعتزام علىحربنا استعنا بالله عليه ، وناجزناه .. » .

ويبدو أن الرجل لم يرض من أميره بهذه السياسة ، فراح يلحف ويشتد ، حتى لقد ردعه الإمام :

« كف عنى ما شاء الله .. » .

لكنه عاود مرة أخرى الإلحاح عليه في معاقبة الزعماء :

« إني خشيت أن يفسد عليك عبد الله بن وهب وزيد بن حصين الطائي .. قد سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتها لم تفارقهما حتى تقتلهما ، أو توثقهما فلا يزالان بمحبسك ابدا .. » .

عندئذ شاء أمير المؤمنين أن يسبر غوره ، ليعلم مدى التزامه سياسته ، التي ترتب العقوبة على الجرم لا على الشبهة ..

فقال يسأله :

« إني مستشيرك فيهما ، فماذا تأمرني به ؟.. » .

قال الخريت :

« آمرك أن تدعو بهما فتضرب رقابهما !.. » .

فسفه الإمام قوله ، ورد عليه :

« .. لقد كان ينبغي لك أن تعلم أني لا أقتل من لم يقاتلني ، ولم يظهر لي عداوة .. وكان ينبغي لك — لو أنني أردت قتلهم — أن تقول لي : اتق الله ! بم تستحل قتلهم ولم يقتلوا أحدا ، ولم ينابذوك ، ولم يخرجوا من طاعتك !.. » .

فليس الخلاف في الرأى مما يستوجب القصاص .

ومع ذلك ، فما لبث الخريت ان فعل ما أراد قتل غيره ، لا على فعله ، بل على مجرد القول به !..

عصى . ودفع قومه إلى العصيان . وخرج بهم عن الطاعة والولاء بحرب شعواء شنها على الإمام تنشر الدماء على رقعة فسيحة من البلاد امتدت إلى أقصى الجنوب على الخليج الهندى بمنطقة البحرين .. ولم يساعد بفعله هذا على تحطيم حكم علىّ بقدر ما أعان على تفتيت وحدة الامة ، بتأليب المسيحيين ، وإحياء عنصرية الجنس في نفوس الفارسين والاكراد بتلك الانحاء ، ثم على ثلم الإسلام وإحداث خرق واسع في جداره بتحريضه الناس على منع الصدقات ، وإفساح المجال أمام كثيرين للارتداد عن الدين ..

وتبدأ هذه المحنة الخطيرة حين وسوس للرجل شيطانه أن يذهب عقب انتهاء التحكيم في ثلاثين من أصحابه إلى الإمام ، ذهاب زار مغاضب ، ليعلن في اجتراء أنه برم به ، خارج عليه ، آخذ حياله برأي الخارجية الذين طالما دعاه من قليل أن يعنف بهم ، ويقتل زعماءهم قبل أن يفسدوا عليه الناس !..

فأنى له هذا التحول ؟.. وكيف يقر ما نقم وكان يأمر بالبطش فيه ؟.. وهل هي نزوة نفسية أفرزها قلقه وتقلقل قدمه أن تثبت على موضع ، وضيق أفقه أن يتبين اليقين ؟.. أم كان يكن ميله الخارجي ويكبته حتى تبجس وتفجر ولم يجد وسيلة بعد لكتمانه؟.. أم قد أراد من قبل أن ينفرد بزعامة المبدأ حين أثار الإمام على سواه من زعمائه فلما فوت عليه غرضه آثر الآن النهوض بدوره في العصيان ؟..

فلعله أقبل لهذا السبب أو لذاك . أو لعله لكل هذه الأسباب ، أو بغير أسباب ، إن وضعنا تذبذب أمثاله من الخارجية بين نقائض الدواعي والأسباب في الحساب !..

وبادر في اعتداد أرعن وخيلاء حمقاء يثور بالإمام :

« .. لا والله لا أطيع أمرك ، ولا أصلي خلفك .. وإني غدا لمفارق لك !.. » .

فاستطارت الدهشة بأمير المؤمنين ، وحذره :

« ثكلتك أمك !.. إذا تنقض عهدك ، وتعصي ربك ، ولا تضر إلا نفسك .. » .

ثم تريث به قليلا ، وسأله سر انقلابه :

« .. أخبرني . لم تفعل ذلك ؟.. » .

أجاب :

« لأنك حكمت في الكتاب . وضعفت عن الحق إذ جد الجد . وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم . فأنا عليك زار ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين .. » .

نفس دواعى فرقة الخوارج ، ونفس حججهم ، كأنما تتردد على لسان زعيم القوم : الراسبى ذى الثفنات !..

ومع ذلك فقد ترفق به الإمام في الرد وهو يرجو أن لو أفسح له في التفكير ومراجعة النفس أن يرشد ، ويثوب عن هواه ..

قال :

« ويحك !.. فهلم إلى أدارسك ، وأناظرك في السنن ، وأفاتحك امورا من الحق أنا أعلم بهـا منك ، فلعلك تعرف ما أنت له منكر ، وتبصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل .. » .

فبدا الخريت كأنما قد استراح للنصيحة ، وقال :

« فإنى غاد عليك غدا .. » .

« أغد ، ولا يستهوينك الشيطان ، ولا يتقحمن بك رأى السوء ولا يستخفنك الجهلاء الذين لا يعلمون .. فوالله ان استرشدتنى واستنصحتنى وقبلت منى لأهدينك سبيل الرشاد .. »

وافترقا على عدة ولقاء ..

لكنها العدة التى أسلف لها الخلف ، واللقاء الذى سبقه في نفسه التنكر له والمراوغة فيه .. فما ان عاد الخريت الى قومه حتى كشف لهم عما أضمر وعزم أمره عليه :

« يا هؤلاء !.. انى قد رأيت أن أفارق هذا الرجل . وقد فارقته الآن على أن أرجع اليه من غد ولست أرى الا المفارقة . »

فراجعه في عزمه كثيرون :

« لا تفعل حتى تأتيه . فإن أتاك بأمر تعرفه قبلت منه . وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه .. .. »

فاظهر القبول .

غير أن الغد المرتجى لم تطلع شمسه !..

فقد آثر الرجل أن يلتوى بوعده ، ويمضى لعزمه ، ويملأ الدنيا

دما وشغبا وضغينة .. وإذا كان من الأولى علموا بما سلف من قبوله ذلك اللقاء بضعة صدقته فحسبته قد بات ليلته تلك على نية الوفاء، فإن بضعة غيرها رابها أمره، وقر في روعها أنه لا بد ناكث عهده، وخارج بما أضمر من خلاف وشر على الأمة غدا إن لم يحاول أن يشق وحدتها قبل أن يسفر الصباح ..

من هؤلاء المستريبين فيه عبد الله بن قعين، الذى بادر فسعى، مع ارتفاع النهار من غد، إلى الإمام يطالعه بما دار ليلة الأمس بين الخريت وأصحابه، ويكشف عن شكه فيه ..

فكان جواب ما طرحه أن قال على :

« .. ان قبل الحق ورجع عرفنا له ذلك، وقبلنا منه .. » .

اهاب ابن قعين به، توقيا وحيطة :

« فلم، يا أمير المؤمنين، لا تأخذه الآن فتستوثق منه ؟.. » .

فرد الإمام :

« .. لو فعلنا هذا بكل من يتهم من الناس، ملأنا السجون منهم . ولا أراني يسعنى الوثوب بالناس، والحبس لهم، وعقوبتهم، حتى يظهروا لى الخلاف .. » .

وعلت الضحوة . وطال الانتظار وصاحب الوعد لا يظهر له خيال !.. فمال الإمام على عبد الله بن قعين، يسر إليه :

« إذهب إلى منزل الرجل فاعلم ما فعل، فإنه قل يوم لم يكن يأتينى فيه قبل هذه الساعة .. » .

فمضى .. فإذا داره خاوية . وإذا ديار أصحابه ليس بها ديّار !.. انفذ العاصى إذن ما اراد .

وعند ما عاد عبد الله من وفادته، لم يمهله الإمام أن ينقل إليه ما عرف . بل بادره لحظة اقبل :

« أفطنوا فأقاموا، أم جبنوا فظعنوا ؟.. » .

« بل ظعنوا !.. » .

فقال وقد ملأ الأسف عينيه :

« ابعدهم الله كما بعدت ثمود !.. » .

ثم ألقى بنظرة ثاقبة إلى الأفق البعيد ، كأنما ليخترق بها حجابه ، وينفذ عليها إلى ما يكنه الزمان المقبل ..

وأضاف :

« .. أما والله لو قد اشرعت لهم الأسنة ، وصبت على هامهم السيوف ، لقد ندموا !.. إن الشيطان قد استهواهم وأضلهم . وهو غدا متبرىء منهم ، ومخلّ عنهم .. » .

كذلك شام . ولسوف يتمخض الزمان عما شام !..

٣

قال قائل من أصحاب على ، حين ظهر لهم ما كان خافيا من نية عصبة الخريت :

« يا امير المؤمنين .. إنه إن لم يكن من مضرة هؤلاء إلا فراقهم إيانا لم يعظم فقدهم علينا . فإنهم قلما يزيدون في عددنا لو اقاموا معنا ، وقلما ينقصون من عددنا بخروجهم منا .. ولكنا نخاف أن يفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقومون عليهم من اهل طاعتك .

فائذن لى في اتباعهم حتى أردهم .. » .

فاستجاب الإمام :

« فأخرج في آثارهم .. » .

ثم سأله :

« وهل تدرى اين توجه القوم ؟.. » .

قال زياد بن خصفه :

« لا والله . ولكنى اخرج فاسأل واتبع الأثر .. » .

فوجهه :

« اخرج حتى تنزل دير ابى موسى ، ثم لا تبرحه حتى يأتيك أمرى، فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس في جماعة ، فإن عمالى ستكتب إلى بذلك ، وإن كانوا متفرقين مستخفين فذلك اخفى لهم ، وسأكتب إلى من حولى من عمالى فيهم .. » .

وسارع فأرسل لكل وال من ولاته على الأقاليم والكور حول الكوفة ، وما جاورها ، كتابا يقول فيه عن أولئكم الآبقة الجانحين إلى العصيان :

« .. إن رجالا لنا عندهم تبعة خرجوا هرابا نظنهم خرجوا نحو بلاد البصرة . فاسأل عنهم أهل بلادك . واجعل عليهم العيون في كل ناحية من ارضك .. ثم اكتب إلى بما ينتهى إليك عنهم .. » .

وامتثل زياد بن خصفة أمر الإمام ، وما لزم به نفسه .. فدعا اصحابه ان ينتدبوا معه . فلما أن اجتمع له منهم مائة وثلاثون ، اكتفى بهم ، واخذ وإياهم على الطريق ، عبر الجسر ، إلى دير أبى موسى . ثم انتظر .

اما الخريت فقد تسربل ورفاقه بالليل ، يلجون من الكوفة خلسة إلى موقع يأمنون فيه على انفسهم ، ويسعهم منه ان يبدأوا دعوة الانتقاض على الدولة ، ويشعلوها نارا مدمرة ، تأكل الأمن والوحدة ، وتشيع الانقسام والخراب ..

ولم يكد امرهم ، فيما بدا لهم ، يستتب حتى عملوا بسيرة الخارجة ، ينشرون الإرهاب بين أيديهم ، ليفتنوا بالرعب من لا يفتنه شعار جماعتهم المعلوم .. يظهرون آونة ، ويستخفون آونات . وهم ، بين هذا وذاك ، لا يعدمون ناصرا يلحق بهم ، ويمضى وإياهم في رحلة الشؤم ، من كل ناقم وجاهل وعدو للدين ..

في « نفّر » التقوا برجلين : مسلم ويهودى فقطعوا عليهما الطريق ..

سألوا الاول :

« أمسلم انت أم كافر ؟.. » .

« مسلم .. » .

« فما تقول في علي ؟.. » .

« سيد البشر .. » .

فثاروا به :

« كفرت يا عدو الله !.. » .

ومزقوه بالسيوف .

وسألوا الآخر :

« ما دينك ؟.. » .

« يهودي » .

فتركوه ، وبعضهم لبعض يقول :

« خلوه .. فلا سبيل لكم عليه .. » .

ولعله ليس بآخر دم سفكوه ، ولا طريق قطعوه ..

وفي المدائن نزلوا يريحون . فأقاموا بها يوما وليلة على امان . جموا . وعلفت خيلهم . وتذاكروا الوجهة التي ييممون ..

لكن العيون التي بثها الولاة والعمال كانت لهم بالمرصاد . فما لبث امرهم ان انكشف ، وبعث بنبئهم إلى الإمام ، عامله قرظة بن كعب ، في كتاب يقول فيه :

« .. فإني اخبر امير المؤمنين ، ان خيلا مرت من قبل الكوفة ، متوجهة إلى نفر . وأن .. » .

فبادر الإمام يرسل لزياد :

« .. وقد بلغني انهم اخذوا نحو قرية من قرى السواد ، فاتبع

آثارهم ، وسل عنهم .. فإذا انت لحقت بهم فارددهم إلى . فإن أبوا فناجزهم ، واستعن بالله عليهم ، فإنهم قد فارقوا الحق ، وسفكوا الدم الحرام ، واخافوا السبيل .. » .

ولهث وراءهم زياد ، يشم ريحهم ، ويتأثر خطاهم ، من موقعه بدير ابي موسى ، إلى نفر ، فإلى المدائن حيث وجدهم مجنبين الخيل ، آنسين للدعة والطمأنينة ، ورجاله عندئذ قد تقطعت أنفاسهم من السفر الطويل ، وكادوا يذوبون من لغوب !.. فما هو ان دنا منهم حتى وثبت العصابة جميعا على الافراس ، وثابت إلى السلاح ..

ولم ير زياد ، في هذا المقام الذى لا رجحان له فيه ، إلا أن يرفق ويداور ما وسعه ان يفعل ، حماية لنفسه ولمن معه . فسار إلى القوم على مهلٍ ، كمن لا يخاف منهم غدرا ، ولا يوجس شرا . لعله ان ينال بالرفق والهوادة ما لا ينال بالعنف والشدة ..

غير أن الخريت عاجل الشقة بينهما أن تضيق ، فصاح به وبأصحابه :

« يا عميان القلوب والابصار !.. امع الله وكتابه انتم ، أم مع القوم الظالمين ؟.. » .

فرد زياد في هدوء .

« مع الله وكتابه وسنة رسوله ، ومع من الله ورسوله وكتابه آثر عنده من الدنيا ثوابا ، ولو أنها منذ يوم خلقت إلى يوم تفنى لآثر الله عليها .. » .

ثم زاد وهو يختم جوابه :

« .. أيها العمي الأبصار ، الصم الأسماع !.. » .

وكأنما اخذت زأرته الرجل ، فجنح إلى اللين في الخطاب ..

قال يسأل :

« فاخبرونا ما تريدون ؟.. » .

عندئذ رأى زياد أن يفارق الحدة ، ويركن إلى الرقة ، لأنها خليقة بأن تفسح له في الوقت ، وتسعف بالحيلة ..

قال :

« قد ترى ما بنا من النصب واللغوب . والذى جئنا له لا يصلح فيه الكلام علانية على رءوس أصحابك . ولكن تنزلون وننزل .. » .

فرفع الخريت حاجبه يستفسر ..

وأكمل زياد :

« .. ثم نخلو جميعا ، فنذاكر أمرنا وننظر فيه .. فإن رأيت فيما جئنا له حظاً لنفسك قبلته ، وإن رأيت فيما أسمع منك أمرا أرجو فيه العافية لنا ولك ، لم أرده عليك .. » .

ونجحت الحيلة ..

أو هى في الحق كانت فرجة الخلاص لكلا الفريقين من صراع ليس يأمن أحدهما عقباه على نفسه بهذا المنزل الذى لم يتهيأ فيه للقاء .. فإن هما إلا عدلان .. خيل كخيل ، وسلاح كسلاح ، وجمع كجمع لا يكاد ينقص فرد أو نحوه من عدد فريق لترجح كفة الآخر ..

وكيفما كانت الدوافع الخفية التى حملت الخريت بن راشد على الجنوح للسلم في تلك اللحظة ، وإرجاء المناجزة إلى حين ، فإنه لم يضق بنظرة غريمه ، ولم ينقضها . بل أخذ بها نقطة بدء للمفاوضة وتبادل الآراء ..

وقال لزياد يوافقه :

« أنزل .. » .

وعاد هو إلى عصبته .

ونزل زياد بصحبه على الماء ، فهم أولى بأن يرتووا من عطش ويجموا من إرهاق ، ثم يمهلوا الأذهان قليلا لتتبين معالم الموقف واحتمالاته ، وما عسى أن يجمعوا الرأى عليه .

ولم تخدع هوادة الخريت ، ولا سماحته البادية ، زيادا عن الحذر الخليق بمحارب متمرس في مثل هذا المقام . فما كاد يرى اصحابه قد علقوا على خيولهم مخاليها ، وانسوا للدعة يتفرقون هنا وهناك في غير مبالاة ، أو يتحلقون حلقات عشرة عشرة ، وسبعة سبعة ، وعددا عددا يتلهون بالحديث ، حتى اقبل عليهم في عجلة ، ينكر عليهم ما يفعلون ، ويزجرهم :

« سبحان الله !.. انتم اصحاب حرب !.. » .

فانتبهوا له من غفلتهم يصغون ..

ومضى يتابع لومه :

« .. والله لو ان هؤلاء جاءوكم الساعة وانتم على هذه الحالة ما ارادوا من غرتكم افضل من اعمالكم التى انتم عليها !.. عجلوا !.. قوموا إلى خيولكم !.. » .

فاندفعوا على الأثر وما اشار ، يعدون أنفسهم فيحسنون الإعداد لكل مباغتة قد تخطر بالبال ..

وقال لهم وقد غدوا على أهبة وانتباه :

« يا هؤلاء .. إنا قد لقينا العدو . وإن القوم لفى عدتكم .. لقد حزرتهم ، وما أظن احد الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر .. وإنى أرى امركم وامرهم سيصير إلى القتال . فإن كان ذلك فلا تكونوا اعجز الفريقين .. » .

ثم القى إليهم بخطته :

« ليأخذ كل منكم بعنان فرسه . فإذا دنوت منهم وكلمت صاحبهم ، فإن تابعنى على ما أريد .. وإلا فإذا دعوتكم فاستمدوا على متون خيلكم ، ثم أقبلوا معا غير متفرقين .. » .

وما نحسب الخريت كان ينتظر هذه النتيجة حين اباح زيادا وأصحابه النزول فأباحهم به الجمام بعد التعب ، والرى بعد العطش ، والشبع بعد الجوع ، والأهبة للقتال بعد اضطراب النظام .. إنما

كان ، فيما يلوح ، يظهر الهوادة ليأمنوا له ، والمسالمة ليغفلوا عنه ثم يتحين منهم غرة فإذا هم صرعى تحت الأقدام !.. لكن ابن خصفة كان أعتى من المخاتلة والخداع ، فقوت عليه غرضه . حتى لقد راح المارقون العصاة يتلاومون لأنهم ضيعوا من آيديهم نصرا ما كان أسهل عليهم أن يجتازوه ..

قال بعضهم لبعض :

« جاءكم القوم وهم كالّون معيون ، وأنتم جامون مريحون .. فتركتموهم حتى نزلوا ، فأكلوا وشربوا وأراحوا دوابهم . هذا والله سوء الرأى !.. » .

فرصة ولت ، ما لها أن تعود ..

ونادى زياد الخريت :

« اعتزل ننظر في أمرنا .. » .

فخرج في خمسة نفر من صحبه ، وخرج زياد في مثلهم ..

والتقى الوفدان ..

٤

استهل زياد بن خصفة الحديث :

« ما الذى نقمت على أمير المؤمنين وعلينا ، حتى فارقتنا ؟.. »

اجاب الخريت :

« لم ارض صاحبكم إماما ، ولم أرض سيرتكم سيرة .. فرأيت أن أعتزل ، وأكون مع من يدعو إلى الشورى .. .. »

فهو إذن لا ينقم لمأرب خاص . ولا لخطأ ذاتى في مسلك للإمام أو لأصحابه يزرى عليهم به ، ويمكن بمداواته أن يعود إلى حظيرة الولاء .. إنما قد خرج عليهم لمبدأ يناقض السياسة العامة ، ولاسبيل إلى تحقيقه إلا باجتثاث خلافة على من الأساس ..

الشورى !..

رأى لا يحتمل الجدل . ولا تغنى فيه المناقشة بين الرجلين وإن طالت دهرا ، لأنه لا التقاء بين نقيض ونقيض .. وهو الرأى الذى تستر به معاوية من قبل ليدرأ عن نفسه تهمة التمرد . ونادى به عمرو وأبو موسى ابان مفاوضات التحكيم ، واتخذه كل ناقم على الإمام ، حاسد له ، موتور منه ذريعة للطعن فيه ، وتأليبا للعامة عليه ، عندما أعوزتهم الوسائل ، وأعيتهم معها حيل السياسة ، وضربات الحرب ، للقضاء على حكمه الذى قام برغبة الشعب في كل الأمصار ..

وأصغى زياد للمتمرد الجديد :

« .. .. فإذا اجتمع الناس على رجل هو لجميع الأمة رضا ، كنت مع الناس .. »

افلم يكن امس مع الناس ، وقد نذر سيفه ونفسه للدفاع عن الإمام ، ووقف للمناضلة عن بيعته في وجه كل عاص ومفروح ؟..

وسأله زياد في استنكار :

« .. وهل يجتمع الناس على رجل يداني عليا ، عالما بالله وبكتابه وسنة رسوله ، مع قرابته وسابقته في الإسلام !.. »

فما عدل عن موقفه ، ولا أبدى ما لعله ينم عن عدول . أصر في مكابرة وعناد ، ضاق بهما مجال التفاهم ، وانقطع الرجاء في الالتقاء على حل جامع ، أو على آخر يقع من الجانبين في منتصف الطريق !..

ونشب القتال .

علت ناره ، وتلهب سعيره ، حتى لقد اختلط الفريقان اختلاطا شديدا اصطكت خلاله الهام بالهام ، والتصقت الأجسام بالأجسام . وتقطعت الرماح ، وانحنت الأسياف . وعقرت عامة خيل الجيشين . وفشت في المقاتلة الجراح .. فلولا أن حاجز بينهم ستار الليل ، واجن بعضهم عن بعضهم سواده ، لشهدهم الصبح ، إلا الأقلين ، صرعى وأشلاء ..

غير أن النهار لم يسفر عن أرض الوقعة ، بثرى المدائن ، وفيها الخريت .. فقد التف العاص وعصبته بالظلمة . وأولجوا مرة أخرى يسرون ، على مضض الإعياء ، بعيدا بعيدا إلى جنة جديدة يلعقون فيها الجراح ..

وكانت جنتهم الأهواز . فما يجد الخريت خيرا منها مسرحا لدعوته وإن أهلها لتسهل فتنتهم ، لكثرة فارسية بها كفار وبها من لم يقر في قلوبهم للإسلام قرار ، وفي جيرتها كذلك أعراب تدين منهم طائفة بمبدئه ، ولا يشق عليه ، مع جلافة بقيتهم وغلظة قلوبهم ، أن يلويهم كما يشاء ..

وانتأى الرجل بصحبه جانبا من الأهواز مستخفين . فلما استعزوا بمائتين من أقرانهم بالكوفة جاءوهم مددا ، راح يدور بدعوته بين أهل تلك النواحي ، يستميلهم بما يعطفهم . فما لبث إلا قليلا حتى لحقت به كثرة العلوج والأكراد . وفئة ضخمة من اللصوص وقاطعي الطريق . واخرى من الاعراب الذين يدينون بدعواه . واجتمع

له بهذا الأسلوب خلق كثير من الأولى راوا في حركته سبيلا إلى ضرب الدين ، وكسر الخراج ، وتحطيم الحكم القائم ، والتحلل من قيود القانون ..

وبلغ الإمام ــ من كتاب لزياد ــ ما وقع ، فدعا إليه معقل بن قيس، وندب معه الفين من الكوفة :

« تجهز يا معقل .. » .

ثم كتب إلى عامله على البصرة ؛ عبد الله بن عباس :

« .. فابعث رجلا من قبلك ، صليا شجاعا ، معروفا بالصلاح ، في الفي رجل من أهل البصرة ، فليتبع معقل بن قيس .. فإذا خرج من البصرة فهو أمير أصحابه حتى يلقى معقلا . فإذا لقيه فمعقل أمير الفريقين .. ومر زياد بن خصفة فليقبل علينا ؛ فنعم المرء زياد ، ونعم القبيل قبيله !.. » .

ولم يفت الإمام أن أمير جيشه متوجه إلى بلاد خليقة بألا تحسن استقباله ، ولا تخف إلى عونه لكثرة ما بها من غير أهل الإسلام ، فأراد أن يكف من غربه ، ويهدىء من فورة حماسه حتى لا يدفعه تشككه فيهم إلى الغلو في معاملتهم بما قد يميل به إلى التحيف ..

فأوصاه :

« يا معقل بن قيس !.. لا تبغ على أهل القبلة . ولا تظلم أهل الذمة . ولا تتكبر .. » .

فأذعن وامن :

« الله المستعان .. » .

« خير مستعان .. » .

وخرج القائد بجيشه يقطع القفار والعمار حتى نزل به الأهواز ، فعسكر حينا ينتظر بعث البصرة .. فلما أن أبطا عليه ، نهض بمن معه من مقاتلته يأخذ سبيله إلى المعركة المنتظرة حيثما توجهه الأرصاد ..

وقال يطمئن رجاله :

« .. ليس بنا بحمد الله قلة ، و لا وحشة إلى الناس .. » .

وانطلقوا ..

فما مضى بهم يوم أو بعضه في سيرهم ذاك ، حتى اقبل عليهم من جانب البصرة رسول بكتاب من عاملها ابن عباس ، يقول فيه :

« .. لا تبرحن من المكان الذى ينتهى إليك رسولى وانت فيه ، حتى يقدم عليك بعثنا الذى وجهناه إليك . فقد وجهت إليك خالد ابن معدان .. » .

واقبل خالد بفرقته بعد قليل . فالتأم الجيشان في عسكر واحد ، يقصد إلى عصبانة الخريت يتعقبها . فإذا هى قد انفلتت من الأرض السهلة ، تحاول الرقي في المرتفعات بجبال رامهرمز ؛ نحو قلعة حصينة رات أنها خير ما يحفظ عليها شوكتها ، ويعزها عن المطاردين ..

غير أن خبر الهراب لم يخف طويلا عن جيش التأديب .. فما أسرع ما دله عليهم اهل الإقليم . وما اسرع ما ادركهم جنود معقل وهم بعد عند سفح الجبل لا تزال خطاهم تتقلع وهى تتدافع بهم إلى الارتقاء .. حتى إذا تراءى الجمعان ، ولم يعد معدى عن اللقاء ، بادر معقل فنظم قواته . ثم مشى بينهم يحرضهم على الجهاد والصبر عند اللقاء وهو لا ينسى فيتذكيرهم واجب الجندى فيالميدان ، أن يدعوهم إلى التمسك بتقاليد القتال الشريف ..

قال يحذرهم :

« عباد الله .. لا تبداوا القوم حتى يبدأوكم .. » .

فتلك سنة سنها امير المؤمنين ، ولزمها في كل حرب وإن كانت السنة عند ذاك الغدر في الحروب ..

ثم اردف يقول :

« .. غضوا الابصار ، واقلوا الكلام .. وابشروا في قتالهم بالاجر

العظيم فإنما تقاتلون مارقة مرقت ، وعلوجا منعوا الخراج ، ولصوصا وأكرادا .. » .

وكانت عينه قد رمت بنظراتها إلى من حياله ، فإذا هو بهم وقد تمنطق الخريت بمن معه من العرب في الميمنة ، وصف الأكراد وعلوج العجم في الميسرة ، وبدا منه ما يشي بالتشرع للانقضاض ..

عندئذ وثب معقل إلى قلب جيشه ، وسط الصف ، وصاح برجاله:

« ما تنتظرون !.. » .

ومر بهم يتفقد النظام ، وهو يلقي بأمره :

« .. إذا حملت فشدوا .. » .

فالتفت عليه الأبصار ترى ما يفعل وما يشير .. أما هو ، فقد حرك رأسه يمنة ، ثم حركها يسرة ، كأنما يومىء لجناحيه أن يكونا على أهبة .. ثم انصب على الأثر يحمل على الأعداء فإذا جيشه كله وراءه يحمل حملته . ويضرب ضربة واحدة ، كأنما عن يد واحدة ، بسيف واحد ، حتى لقد أوشك مناجزوه أن يذهلوا عن أنفسهم ، وتشلهم سرعة المفاجأة أن ينهضوا بما يكافىء الهجوم ..

فإن هي إلا ساعة أو نحوها حتى شاعت المقتلة ، سابحة على الذعر ، في جيوش الغاوين .. فقتل من بني ناجية والأعراب سبعون . ومن الأكراد وعلوج العجم ثلاثمائة تمزقت بهم الصفوف وتهاوت المقاومة ، ولم يبق بعدهم للخريت ومن نجا من عصابته غير الفرار ..

فروا . وأمعنوا ، حسبما استطاعت أن تحملهم الأقدام ، وحيثما يسع القلوب أن تثوب .. ولم يكن لهم أن يقروا بجيرة ترتد منها الأخبار أو تبلغها العيون ، فآثروا اللياذ بأبعد منأى ما كان أحراهم بأن يجاوزوه لولا أن حال دونهم اليم ، فضربوا خيامهم على الماء ..

عسكروا في البحرين ، بأبعد بقعة تطولها يد الطراد ، بعد أن تقطعت أنفاسهم على أرض فارس ، من الشمال للجنوب ..

وكتب معقل إلى الإمام :

« .. لقينا المارقين وقد استظهروا علينا بالمشركين ، فقتلنا منهم ناسا كثيرا . ولم نعد فيهم سيرتك . فلم نقتل منهم مدبرا ولا اسيرا ، ولم نذفف على جريح . وقد نصرك الله والمسلمين .. » .

وقرىء الخبر في الكوفة على الناس ، ليشيروا ..

فأجمعوا الرأى :

« يا أمير المؤمنين .. نرى ان تكتب إلى معقل ، يتبع آثارهم ، ولا يزل في طلبهم حتى يقتلهم أو ينفيهم من ارض الإسلام .. » .

فانفــذ ما رأوا على الأثر . فما كان ليمطل قط بشــورى الامة ، ولا ليستبد دونها برأيه ..

وبعث إلى معقل ، يأمره :

« .. أحسنتم البلاء ، وقضيتم ما عليكم . فاسأل عن اخى بنى ناجية ، فإن بلغك انه استقر في بلد من البلدان فسر إليه حتى تقتله ، أو تنفيه .. » .

٥

مرة اخرى عادت المطاردة تشتد بين الفريقين ، تباريا على طي الارض ، وقطع الزمن ، إلى غاية تسود فيها إحدى الطائفتين ، فإما قرار وإما تغيير ..

قرابة عامين كاملين ، بعد صفين ، وغب التحكيم ، طارد النظام التمرد ، على رقعة الأرض الممتدة من حاضرة الدولة عند شط الفرات إلى سيف البحر عند الخليج ، يتعاقبان تعاقب الليل والنهار ، ويتتابعان كفرسي رهان .. وكلما اوشك الفلج ان يقع في سهم الدولة، سارع العصيان فنفض غبرة الهزيمة ، واستوى على سوقه .. ثم لقف انفاسه ، ونظم صفوفه ، وراح يبعث الصراع من جديد ..

إصرار مريد ، وعناد صارم ، وعزم متشبث من جانب الفئة الخارجة ، لو انها انفقت في رفع راية الدين ، وإعلاء كلمة المسلمين ، لذهبت ، على مدى الاعصر ، مثلا في التمسك بالمبدأ لا يطاوله شبيه ولا يعلوه قرين .. ولكنها انفقت في نزوة انجبتها جهالة حمقة ضالة ، وعصبية آثمة عمياء كطلع خبيث !..

فللصلف والهوى والخيانة كانت دعوة الخريت . ولوجه الشيطان لا لوجه الله .. وها هو الآن يسفر عن خبيئة ضميره ، فإذا هو ينقض بفعله كل ما ادعاه وتنادى به بين الناس من دفاعه عن الحق ، وغضبه للكتاب ، لينصر الكافر والآبق والضليل على كلمة الحق وشريعة الكتاب ..

ليس امره إذن امر من يعمل لمبدأ ، ويجهد لغرسه في الصدور ، وتطبيقه في الحياة ، بمنطق اللسان ومقطع السنان .. وكيف يكون ، وانه ليحالف – ليبلغ وطره من امرة الإمام – زمرة فاسقة تعيش في رحاب الشيطان !..

وكان امرأ ذا خديعة ومكر . تستوى عنده الوسائل ، شريفها وخسيسها ، ما دامت تحقق له غرضه .. وما له اليوم من مقصد إلا نفسه التى غدت لعبة في ايدى مطارديه لن تلبث اصابعهم ان تتقبض علبها وتعتصرها بعد أن تحلقوه ، واوشكوا ان يطبقوا عليه ..

فاستمان خبثه ..

مضى إلى الخوارج ممن حوله ، يرفع شمارهم ، ويؤكد لهم سلامة ما يمتنقون ..

لا حكم إلا لله !..

وقال لهم :

« إنى ارى رايكم .. إن عليا ما كان ينبغى له أن يحكم الرجال في دين الله .. »

وذهب للعثمانية ، الذين نقموا على الإمام حين وهموا ان عليه دم عثمان ..

تباكى لدعواهم ، وقال :

« انا على رايكم .. لقد قتل عثمان مظلوما معقولا .. »

وانثنى لمن منعوا الصدقات يزين لهم فعلهم إذ ثلموا ذلك الثلم في الإسلام ، ويحثهم ان يظلوا عليه :

« شدوا ايديكم على صدقاتكم ، ثم صلوا بها ارحامكم ، وعودوا إن شئتم على فقرائكم .. »

وعندما علم بارتداد كثيرين عن الإسلام إلى النصرانية التى فارقوها من قبل ، لم يحاول أن ينهاهم ، ولا أن يردهم عما وقعوا فيه .. بل اتخذ من ارتدادهم وسيلة لربطهم به ، وانتصارهم له ..

أسرع يدعوهم إلى الثبات على ردتهم :

« اتدرون ما حكم على فيمن اسلم من النصارى ثم رجع إلى النصرانية ؟.. لا والله لا يسمع له قولا ، ولا يرى له عذرا ، ولا يقبل

منه توبة ، ولا يدعوه إليها .. وإن حكمه فيه أن يضرب عنقه ساعة يستمكن منه .. ولن ينجيكم من القتل إلا الصبر لهؤلاء القوم ، وقتالهم !.. »

وكذلك فعل بعلوج العجم ، وناقمة الأكراد . ومن إليهم من أنصار العنصرية ، وأعداء الدين ، وإنهم لأدنى من سواهم إلى الانضمام لكل حركة تبتغى هدم الإسلام ..

دعوة ظالمة ، وأسلوب أظلم : نهج الرجل الذى لبس ثوب الإصلاح ، ليبدو للناس وهو الثائر على الضلال . المدافع عن الحق ، الغاضب لكتاب الله ..

لكن الرياء شفاف . والخبث كسيح . وخداع الناس كلهم محال، قصير عمره وإن طال ..

.. واطلت النهاية !..

فلم يكد معقل يبلغ البحرين ، حتى بادر ـــ قبل أن يشهر سيفا في وجه ذلك الخائن وعصبته ـــ إلى إذاعة بيان من الإمام ، على أهل الإقليم يقول لهم فيه :

« من عبد الله على أمير المؤمنين

إلى من قرىء عليه كتابى هذا من المسلمين والمؤمنين ، والمارقين والنصارى والمرتدين .

سلام على من اتبع الهدى .

اما بعد . فإنى ادعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه .. ..

فمن رجع منكم إلى رحله ، وكف يده ، واعتزل هذا المارق الهالك المحارب .. فله الأمان على ماله ودمه .

ومن تابعه على حربنا ، والخروج من طاعتنا .. استعنا بالله عليه .. » .

واتبع معقل إذاعة البيان على الناس ، براية أمان نصبها لهم على

أعين الخريت والذين لاذوا بشرذمته .. حتى إذا تطلعت إليها الخواطر، وتعلقت بها الأنظار ، انطلق ينادى على الملأ الحاشد ، ويعاود نداءه مرات ومرات :

« من أتى هذه الراية فهو آمن — إلا الخريت وأصحابه الذين نابذوا أول مرة .. » .

وفعل النداء فعله على الأثر . فكأنما كسفة من سحاب ثقيل بددتها الريح ، أو كأنما جدار وانهار كانت جموع الخريت !..

الزحام حول المارق يرق . الصفوف تتخلخل . الحشود تنجاب .. ليبدو الخائن عاريا مكشوفا بموقعه إلا من جنة واهية من عصابته كنسيج عنكبوت ، أو كديباجة رثة غزتها الخروق !..

دقائق ولحظات من عمر قلقه طالت عليه كالأيام وهو يشهد الناس يتفرقون عنه . يتقطعون من شرذمته فرادى ، وجماعات جماعات لينفضوا عنه . ويهرعون ، خيلا ورجلا ، إلى موقع الراية البيضاء كأنما يطيرون بجناح .. فإن هي إلا سويعة حتى غدا الخريت وما بجانبه من جيشه الكثيف إلا شوبة قومه الذين لا يملكون تنائيا عنه بعد أن صدهم عن التنائى النداء !..

وتلفت فيمن بقوا إلى جواره كالمضيع ، قد ثقل قلبه ، وغامت عينه ، واهتز لسانه يحاول أن يبث في نفوسهم ما افتقرت نفسه إليه من ثبات :

« .. إمنعوا اليوم حريمكم !.. قاتلوا عن نسائكم وأولادكم !..» .

فتلاغظ عليه أصحابه ، حسرة وندما . وصاح به منهم عاذل ناقم يلوم :

« هذا والله ما جرته علينا يداك .. ولسانك .. » .

فما استطاع إلا أن يقول بلهجة اليائس المحسور :

« سبق السيف العذل !.. قاتلوا !.. فوالله لئن ظهروا عليكم ليقتلنكم وليسبينكم .. » .

وكان لا بد لأمره أن يصير إلى ما خشي أن يكون ..

فسرعان ما نهض له معقل برجاله ..

بدا فحرضهم ، والإيمان دليله ، والثقة ملء قلبه ، والسلاح في الاكف على أهبة التباري إلى الرقاب !..

« أيها الناس .. أما تدرون ما سيق إليكم في هذا الموقف من الأجر العظيم ؟.. إن الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة ، وارتدوا عن الإسلام ، ونكثوا البيعة ظلما وعدوانا .. وإني شهيد لمن قتل منكم بالجنة . ولمن عاش بأن الله يقر عينه بالفتح والغنيمة .. » .

وسرح ميمنته ، دون بقية الجيش ، تقاتل أعداءه ..

ثم ردها وسرح إليهم ميسرته ..

حتى إذا رأى قتال جناحيه قد نال من القوم ، مع ما بدا منهم من صبر وعناد ، وأيقن أنه قد أوهنهم ، وثب على فرسه يحمل بكل جمعه..

فإن هي إلا ساعة واحدة ثم انهارت مقاومة الباغين .. هلك صاحبهم بضربة سيف من النعمان بن صهبان .. وتناثر كثيرون حوله على الثرى قتلى وجرحى ، تناثر الورق الذابل من أعواده في عنفوان الخريف .. وتفرقت بقيتهم يمنة ويسرة بعيدا عن الحلبة كقطيع شرده الذعر ، يفرون من مناجل الموت إلى حبائل الأسر ..

وعندما تطهرت الأرض من هذه الفتنة ، وسيق سبي المعركة إلى الكوفة ، حلا لمصقلة بن هبيرة أن يشرف بمنه على الأسرى . فما بلغ هذا به إلا أن أضاف لصورة التنكر لمبادىء الدين وقيم الأخلاق التي رسمها الخريت !!.. أضاف خيانة الأمانة إلى خيانة العهد . والفرار من الوفاء إلى الغدر . والخوف من الحق إلى حربه . والانتقاض خشية وطمعا إلى الانتقاض عنوة بالسلاح ..

واسدل الستار بعد عامين على محنة مما امتحن به عهد علي ، فإذا هي محنة خلقية قبل أن تكون محنة سياسية . وشرخ غائر في جدار الإسلام قبل أن يكون شرخا في إمرة الإمام !..

تم بحمد الله الجزء السابع

ويليه الجزء الثامن والأخير

الامام
علي بن أبي طالب

الجزء الثامن

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

الفصل الأول

١

لم ير إلا أن يغير إهابه ! . .

فيما مضى إلى اليوم من كفاحه ، استقبل الأمر بكل طاقته . بكل صبره . بكل دهائه . بكل قوة مادية لديه ، وكل قدرة ذهنية فيه . .

حشد الجند صفا صفا ، كأنهم قطعة من الليل الأسحم . .

جمع السلاح مشرعا حوله كثيفاً ، كثيفاً كأنه غاب . .

بنى الأحقاد والمواجد قلاعا حصينة . .

نصب المال كمائن وحبائل . .

سير الخديعة طليعة . .

ومع ذلك فقد قصر همه وعجزت همته عن الثبات لمريعه فى ميدان .

فما على بمن ينوء بالحيل . أو يبالى السلاح والرجال ، أو يزحزحه كل ذلك الإعداد والتشرع عن الحق الذى نهض فيه ، لأن إيمانه أعصى على الكتائب الكتيبة ، وشجاعته فوق طاقة الحشود . .

لقد خبره . فإذا الأسلحة تنبو عنه . وإذا الموت يفر منه . وإذا المعارك التى يخوضها لا تكاد تزيد عنده عن لعبة لاعب يتلهى بها فى ساعة فراغ ! . . .

كذلك علمه . .

فى البصرة إبان الجمل . فى لقائهما الضروس بصفين . فى حملة الخارجية بالنهروان . . هنالك علمه . وقبل ذلك علمه . وإن علمه لما لا ينسى ، يضيق به صدره ، ويتحشرج نفسه ، ويكبو لونه ، ثم يتقطع قلبه لذكره حسرة على أيام لا تزال غصة كاد فيها يلمس حلمه بسلطان الإسلام لولا أن أحاله غريمه إلى كابوس ! . . وعلى أيام قبلها توارت خلف الأعوام وتره فيها ابن أبى طالب فى صفوة أهله ، وطرحهم على الثرى الندى بدمهم ، فرائس سهلة لعقبان

والنسور حتى احتوام القليب .. وهل له أن ينسى محنة عثمان ، وفتنة طلحة والزبير ، ومهزلة التحكيم ، وكلها كانت خليقة بأن تدلى إليه بالإمرة بغير جهد أو بجهد قليل لولا اصطبار ذلك الغريم ، وثباته حيث كان لا يريم ؟ .. أم له أن ينسى « بدراً الكبرى » وفيها جندل على وحده نصف المشركين ومنهم حنظلة ابن أبى سفيان أخوه ، والوليد بن عقبة خاله ، وعقبة جده ، أو شيبة عمه ، وآخرون غيرهم من أماثل ذويه ؟ . .

ما نسى معاوية . وما كان ليسعه النسيان لو أنه أراد .. حتى بعد أن حالفته دنياه ، وخلصت الإمرة إليه ، وذهب خصمه إلى ربه ، كان يؤوب كثيرا — حتف رغبته — إلى سيرة على يستثير بها جلساءه أن يحدثوه عن هيبته عسى أن يحرك على بعض خلصاء على الندم والمواجد ، أو يذكر هو — حمزا لأوليائه — بعض مناقبه وفيها شجاعته التى ذلت لها شجاعة الشجعان ، وهالت مردة الوغى وأبطال القتال والنزال . .

يوما ما ، وابن أبى سفيان فى عنفوان سلطانه ، انتبه من غفوة أخذته أو من شرود ، فإذا ابن الزبير عند قدميه ، فأجفل واعتدل يلقى إلى الضيف باله . .

وابتسم عبد الله بن الزبير لحركته ، وقال يداعبه :

« يا أمير المؤمنين .. لو شئت أن أفتك بك لفعلت .. » .

فأسرع يرد الدعابة :

« لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر ! . . » .

قال عبد الله وفى صوته اعتزاز وزهو :

« وما الذى تنكره من شجاعتى وقد وقفت فى الصف إزاء على بن أبى طالب ! . . » .

عندئذ ضحك معاوية ، ولم يملك إلا أن يجيب وهو يسخر :

« لا جرم ! .. إنه قتلك وأباك بيسرى يديه ، وبقيت عناه فارغة ، يطلب من يقتله بها ! .. » .

ويوما آخر ، رأى أن يعابث قيس بن سعد فى سيرة الإمام ، وهو من كان من الولاء له حيث كان ، فقال له كأنما يستجيش غضبه :

« رحم الله أبا حسن ! .. لقد كان هشا بشا ذا فكاهة .. » .

فماجله قيس ، منكرا عليه تعريضه :

« نعم ، وقد كان رسول الله يمزح ويبتسم لأصحابه ! .. وإنى أراك تسر حسوا فى ارتغاء وتعيب ذلك . أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذى لبدتين قد مسه الطوى .. تلك هيبة التقوى ، وليس كما يهابك طغام أهل الشام ! .. » .

أفكان إذن لينسى ؟ ..

بل لا ! .. ماله إلى لقائه سبيل . جيشه لن يغنى عنه . وسلاحه . وكيده واتماره .. حتى قدماه ، لو أراد الثبات ، لن تطاوعاه ! .. والقتال المكشوف فى حرب تقابل فيها الصفوف الصفوف ، ضرب من التهلكة ، وغط من المناجزة وبيل عليه ..

فليس إلا أن يغير إهابه ! ..

وتبين العاهل الأموى نهجا جديدا من الحرب أجدى عليه ، وأدنى إلى تحقيق غايته ، حين عرف ، بعد مهزلة التحكيم ، أن الإمام تحمل مقبلا عليه .

عندئذ هاله الأمر ، فخرج فى البدء من دمشق معسكرا ، وبعث إلى كور الشام يستصرخ ويستغيث ..

كتب إلى عماله :

« ... إنا كنا كتبنا كتابا بيننا وبين على ، شرطنا فيه شروطا ، وحكمنا رجلين يحكمان علينا وعليه بحكم الكتاب لا يعدوانه .. وإن حكمى أثبتنى ،

وإن حكمه خلعه . . وقد أقبل إليكم ظالما . . فتجهزوا للحرب بأحسن الجهاز ... » .

وجمع رجاله يشاورهم . وهو يذكر آخر الأنباء :

« ... قد خرج من الكوفة . وعهد العاهد به أنه فارق النخيلة . . »

قال حبيب بن مسلمة ، يشير عليه بالسير إلى صفين :

« أرى أن نخرج حتى ننزل منزلنا الذى كنا فيه ، فإنه منزل مبارك ، وقد منعنا الله به ، وأعطانا من عدونا فيه النصف . . »

ورأى له ابن العاص أن يمضى بجيشه إلى ما وراء ذلك مما فى حوزة الإمام من تخوم :

« . . تسير بالجنود حتى توغلها فى سلطانهم من أرض الجزيرة ، فإن ذلك أقوى لجندك ، وأذل لأهل حربك . . »

وتردد معاوية فى القبول :

« والله إنى لأعرف أن الذى تقول كما تقول . ولكن الناس لا يطيعون ذلك ... »

وهون عليه عمرو ما يخشى :

« إنها أرض رفيقة ... »

لكنه أبى :

« إن جهد الناس أن يبلغوا منزلهم الذى كانوا به ... »

ولم يجمعوا كلمتهم . فتريث معاوية لا يقطع برأى بضعة أيام ، قلبوا خلالها الأمر ، يتدارسون المنازل والوجهات ، ويعايرون الاحتمالات ، حتى لقد ذهبت بهم أحاديثهم كل مذهب إلا موقعا لعسكرهم يصلح به اللقاء . فلما أوشكوا أن يعيوا حيلة ، جاءهم نبأ لم يكن فى حساب ! ...

قدمت عيونه عليه بخروج الخارجة ...

هنا تنفس الطمأنينة ! ...

وزف البشرى لرجاله :

« ... إن عليا اختلف عليه أصحابه ، ففارقته منهم فرقة أنكرت أمر الحكومة ... وقد رجع عنكم إليهم ... »

فكبروا فرحا بهذا الخلاص .

وبقوا بحشودهم حيث نزلت ، يتنسمون أخبار الكوفة من حيثما جاءت ريح ، وقد ذهب عنهم الروع ، وامتلأت قلوبهم سكينة ... وما لهم يخافون أو ينالهم قلق وإنهم ليأملون فى فتنة الخوارج أن تصيب عدوهم بما قد يغل يده ، ويفل غربه ، ويشغله عن الزحف إليهم بمستقرهم ولو إلى حين ؟ ...

ثم زادوا سكينة على سكينة بوقعة النهروان . ثم طربوا وهللوا بتفرق كلمة الكوفة . ثم علوا سرورا بقعودها عن السير ...

عندئذ استأسد الكلاب ، واستنسر الغراب ! ...

أسرع معاوية فأعد قرابة أربعة آلاف مقاتل ، دفع برايتهم إلى الضحاك ابن قيس الفهرى ، وألقى إليه بأمره :

« سر حتى تمر بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت . فمن وجدته من الأعراب فى طاعة على فأغر عليه . وإن وجدت له مسلحة فأغر عليها ... »

ثم عقب يبين له :

« وإذا أصبحت فى بلدة فأمس بأخرى . ولا تقيمن لخيل بلغك أنها قد سرحت إليك لتلقاها وتقاتلها ... »

اضرب واهرب ! ..

كانت هى الخطة الجديدة ...

٢

سرح الضحاك بن قيس آلافه ... هبط بهم من الشام على طريق مكة ، لا يرى فى سيره أخا سفر إلا ناله بعدوان ، تنفيذا لأمر صاحب مصيره ...

لم يسلم منه عرب البادية — من ضارب وظاعن — ينزلون على مواطن الكلأ بسائمتهم ، أو يشدون نحوها الرحال ... ولم يسلم منه آمو البيت الحرام من حجيج نشطوا لإقامة شعائر الله ... ولم يسلم منه كمى مسلح أو أعزل عاطل . جماعة أو فرد . شيخ أو شاب . صاحب منزل أو عابر سبيل ...

كان يقدم الهلكة بين يديه . ويبذر الدمار تحت قدميه ... الدم وحده لم يكن إربته لأنه لا يكاد يشفى نهمه ... بل الخراب أيضا ، قتلا للأنفس ، ونهبا المال ، وعصفا بالمتاع والثقل كمصف بالأموال والرجال ... وكلما جنى وحصد ، زاد فى الجنى والحصاد . وكلما طوى من الأرض مرحلة ، طوى معها صحيفة أمن وصحائف آجال ! ...

ولم يرعه شيء فى تقدمه ولا ريبة لإنسان فيه ... فما هذه التى يشنها على العزل الأمنة بحرب ، كما ألف النـاس قبل حملته الضارية ، وعهدهم بالحروب أن تعلن ، وبالصفوف أن تتراص ، وبالرايات أن تخفق ، نذرا وشواهد ببدء القتال ... إنما كان يمضى لوجهه على استخفاء . أو يكمن على تربص ، أو يهجم بغتة كأنه قاطع طريق ...

حرب ولا إعلان . وحمل ولا إعذار . وقتل ولا قتال . بل اعتداء غادر جبان يعز فينهض حين الغرة ، ويذل فيفر قبل اللقاء ! ...

تلك شرعة شرعها الرجل ، بأمر صاحبه الماهل ، ليس لها قبل هذا نظير ... إن هى وضعت فى ضوء الدين فهى عدوان ظالم . أو هى قيست بمقياس الأخلاق فهى غدر خسيس . أو هى وزنت بعرف العهد فهى خروج شاذ ... وهل غاب عنه ما اصطلح قومه عليه آنذاك وأقروه من آداب القتال ؟ ...

ما غاب هذا عن الضحاك . ولا عن ابن هند . ولا عن الطغمة الألى شاركوهما الإعداد ... فكلا الرجلين عاصر الصديق ، كما عاصر ابن الخطاب . وكلا الرجلين قد عرف ، بغير شبهة من شك ولا سبيل لنسيان ، ما ألزم به الخليفتان جيوش الإسلام من قواعد وأصول ، كلما سعت إلى فتح وخفت لجهاد فى أرض الشرك ، يضيف جديدا إلى رقعة الدولة إعلاء لكلمة الله ...

إن العهد لقريب . وإن المواقف لغضة ، لا تزال ماثلة فى الأذهان كأنما تراها العيون وتسمعها الآذان . .

فها هو أبو بكر يخرج إلى ظاهر المدينة ، يشيع أسامة وجيشه ، ويوصيهم وهم يهمون بالزحف على أرض الروم :

« لا تخونوا . ولا تغلوا . ولا تغدروا ولا تمثلوا .. ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة .. ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة .... » .

لأنها حرب ، ككل حرب ، تمثل فى كلا الفريقين نضالا على المبادىء بين إنسان وإنسان ، فلا ينبغى لها أن تجور على قواعد الأخلاق العامة أو يضيع فى ضوضائها صوت الضمير . .

وهاهو عمر بن الخطاب لا ينى يوصى جنوده وقواده ألا يعتدوا ، حين الجهاد فى ساحة الوغى . وأن يرعوا شرف الجندية ، ويحفظوا القيم الإنسانية عند كل لقاء ، لأن القتال مزيج من الشجاعة والصبر والمروءة مهما اختلفت الأسباب أو تباين الأعداء :

« . . ولا تجبنوا عند اللقاء . . ولا تمثلوا عند القدرة . ولا تسرفوا عند الظهور . . ولا تقتلوا هرما ولا وليدا ولا امرأة . . . » .

فتنزيه السلاح عن العدوان الآثم لا ينزل بالقوة . والسماحة حين القدرة تمكن فى النصر ، لأنها هى ذاتها طاقة فيه تذوده عن الإسفاف ، وتحميه الاغترار . .

بل قد علموا كذلك كيف كان غريمهم ابن أبى طالب ، وهو يحاربهم ، يأخذ نفسه وجيشه أشد الأخذ بآداب القتال وإن غلوا هم فى الخسة والغدر والبادأة

بالعدوان .. وكفى أن قد علموه يأمر جنده فى صفين ، قبل الالتحام ، فيقول :

« .. لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم .. ولا تقتلوا مدبرا ، ولا تصيبوا معورا ، ولا تجهزوا على جريح .. ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعيفات .. ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات . وكان الرجل يتناول المرأة فى الجاهلية بالقهر أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده ! .... »

ثم رأوا أيضا رأى العين ، حينذاك كيف تعفف عن قتل ابن العاص أثناء مبارزته ، عندما انكشفت له سوأته ، تأبيا على نفسه أن يدنس سيفه بدم غريم قد أخزاه الله ، فبدا منه مثل هذا الهوان ! ..

ثم قد كان هكذا الإمام . يدفع الغضب بالحلم ، والبطش باللين . ويسارع ماوسعه أن يفعل — كرما ومروءة — إلى الموادة بعدوه ، والتصبر عليه ، احتسابا لله ، وعرفاناً بفضله . شعاره فى هذا كما لعلهم يعرفون :

« إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ! .. »

لكن الضحاك بن قيس ، كسيده معاوية ، لا يقر هذه الفضائل ، ويؤثر أن ينحو عنها إلى أسلوب جديد فى تقاليد القتال والحرب ، لأنه هو نفسه ، طراز جديد من المحاربين الشجعان ..

فلا هو ارتقى بسلوكه فى الحرب إلى حكم الإسلام ، ولا هو وقف به على عرف الجاهلية ..

إنما مضى ، منذ مخرجه ، يقتل من يشاء ، ويسلب من يشاء ، لا يرعى الله ولا الخلق ولا التقاليد ..

فى أول مراحل انطلاقه ، قتل من التقى بهم على مواقع الماء من الرعيان والأعراب ، على حافة الصحراء . ونهب مالهم .. ثم مضى عن الجرم الذى قارفه فيهم إلى جرم غيره ليشبع نهم نفسه بسفك الدماء .. فما أن بلغ الثعلبية حتى أسرع يقطع الطريق على الحاج ، يغير على جموعهم ووحدانهم ، ما وسعه أن

يتربص ويغير ، فأشاع فيهم القتلة ، وأثخن الجراحة ، وتحمل ما لديهم من متاع .

وقد ظل الرجل على رأيه المرسوم ، ينال بالعنف والإرهاب كل من ساقهم قدرهم إليه ، وهو يتأرجح فى السير ، يأخذ وقتا على شاطئ الفرات ، ثم يندفع نائيا عن شريعته ، ثم يجنح بشرذمته يسرة أو يميل يمنة ، ولا يثبت بمكان خشية أن تعرض له قوة مسلحة قد تنال منه ..

وبلغ بحملته الإرهابية مداها فى الإقطاع بالناس إقطاعا لم يصب به وحسب أوامر الدين ونواهيه ، بل أهدر أيضا الشيم العربية التى تؤمن بالمروءة ، وتدين بالشهامة ، وترى أن تعفف القوى عن أذى غريمه الضعيف هو ذروة القوة لأن الصفح مع القدرة ليس كالكف عن عجز وقصور .. فعلى أى محمل إذن يحمل سلوكه وما قتل أو سلب إلا أناسا من المسلمين ، من عرض الناس ، ليس لهم دور معروف فى شئون السياسة يمكن به أن يسلكهم فى زمرة عدوه وعدو عاهل الشام ؟ ..

غير أنه الضحاك ! ... وهو طراز جديد من الشجعان الذين يغرهم أى نصر رخيص ، ويرفع شأنهم أن يدلوا بقوتهم على الضعاف ! .. فكذلك كل خسيس . وكذلك ازدهاه ذات يوم أن يعتز بما فعل بحملته ، حتى وقف بعد انتهاء عهد الإمام ، على منبر الكوفة يفخر بنصره المزيل ! ..

صعد عندئذ المنبر ، مباهيا بذلك النصر العجيب الذى أحرزته حملته الغادرة ، وهو يتهدد الناس بالويل لأن فيهم قوما سمع أنهم ينالون من سيرة ابن عفان ..

خطب فقال :

« ... بلغنى أن رجالا منكم ضلالا ، يشتمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافنا الصالحين . أما والذى ليس له ند ولا شريك ، لئن لم تنتهوا لأضعن فيكم سيف زياد ! .. أما وإنى لصاحبكم الذى أغرت على بلادكم ، فكنت أول من غزاها فى الإسلام ... لقد ذعرت المخدرات فى خدورهن ، وإن كانت المرأة ليبكى ابنها فلا ترهبه ولا تسكته إلا بذكر اسمى ! .. أنا الضحاك ! ... »

ومع ذلك فقد هرب بآلافه عند أول لقاء ...

هذه نفسه . وذلك قصاراه . .

... ومضى الرجل وغارته ، حتى انتهى خبره إلى الإمام ، فجمع الناس ، يدعوهم إلى درء شروره :

« يا أهل الكوفة .. اخرجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس ، وإلى جيوش لكم قد أصيب منهم طرف .. اخرجوا فقاتلوا عدوكم ، وامنعوا حريمكم إن كنتم فاعلين .. »

كان الضحاك عند ذاك قد فارق الثعلبية ، وتوجه إلى القطقطانة وفيها مسلحة لعلى عليها عمرو . . فاجأها ، وقتل عمرا ونفر معه . .

وتلكأت كدأبها الكوفة ، فلم تلق بسمعها إلى الدعوة كأنما لا يضيرها الخطر فى شىء . أو كأنما الكفاح قد بلغ من هوانه عليهم ألا يكافىء دعة يؤثرونها ، ودما لإخوانهم تلغ فيه الكلاب ! . .

وتصبر الإمام والقوم غافون ، لا يكادون يسمعون من أنفسهم إلا بالوعد بعد الوعد ، وبالتسويف بعد التسويف . . حتى إذا آده التصبر ، عنف بهم فى القال وأقذع فى الخطاب :

« أيها الناس ، المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم ! . . . ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم ! . . . أى دار بعد داركم تمنعون ، ومع أى إمام بعدى تقاتلون ! . . . أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم . . فما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ .. ما طبكم ، والقوم رجال أمثالكم ! . . »

فكأنما كان يضرب فى حديد بارد ! ..

وعندما أيقن منهم الفشل ، قال فى حسرة :

« ... لوددت أن لى بكل ثمانية منكم رجلا منهم ! . . ويحكم ! . . اخرجوا معى ثم فروا عنى ما بدالكم ! .. فوالله ما أكره لقاء ربى على نيتى وبصيرتى ، وفى ذلك روح لى عظيم ، وفرج من مناجاتكم ومقاساتكم ! . . »

وتركهم وهو غاضب ناقم . .

٣

ظل يوم ينفخ فى رمادهم الخامد حتى استطاع أن يعثر بقبس فيه يعينه على إشعال النار ! . . فما كان ليبأس . ولا أن ينفض يديه من أمرهم لطول إعضالهم به ، وعنتهم معه ، لأنه لو فعل لكان لهم شريكا . واضيع حق الأمة التى بوأته إمرتها . ولفتح الباب على مصراعيه للفتنة تقتحم منه على القلوب النقية البقية الباقية من الدين . .

ولم يكن الطريق إلى الفتنة إلا قصيرا ، فالحق طريقه أطول وأشق ، يكاد يتعثر به سالكه إلا أن يتزود بالإيمان والصبر والقدرة على تحمل المكاره . والباطل طريقه ممهد قصير ، لا يشق على الناس ، وتوشك النفس الإنسانية أن تنطلق عليه من هذا الجانب بغير جهد كأنها الراكب ، وكأنه المطية التى تسير ! . .

وكانت الشام منبع الفتنة ، أو هى القبلة التى يولى شطرها وجهه كل مفتون . فالحياة فيها عروض شهوات . والعمل فيها سعى للذات . والمبادىء المتمثلة دعوة لطغيان النفس وقمع الروح .. فهى مهوى الأمانى ، وملتقى المطامع ، ومناط آمال طالبى الجاه وعبيد المال . .

ولقد طالما استشف الإمام حالها ، وألهم خطرها الذى يهم أن يعم الناس . فإن هو إلا كماء بقيعة ، إذا زاد فاض ، وإذا فاض ساح ، وإذا ساح كان سيلا يهدر ويثور فلا يعوقه عائق ، ولا يحبسه سد ، وهو ينصب من معينه انصباب الشلال لينشر الدمار أينما سار ..

أما السد الذى ما زال يقف حتى اللحظة فى وجه السيل أن يطغى فإنه أرض « كوفان » .. أو الكوفة وما حولها من بقاع بقيت إلى اليوم فى حوزة حكم تعنو جبهته ، قليلا أو كثيرا ، لله .. فهى فى يد الإمام . وهو يمسكها جاهدا أن تشترى متاع الدنيا بعز الآخرة ، وزخرف الحياة بعدالة الدين . وهو يستعين قلة من صحبه فيها أن يؤازروه على سحق الفتنة ، وضرب الطغيان..

وكم حذر ؟ . . وكم حرك فيها الضمائر لتقاوم الخطر الماثل ، وتحمى سدها المانع أن ينهار ! . .

فنى مرة قال لأهلها ينذرهم ، وكأنما قد ألهمت بصيرته المصير المخوف :

« ... ألا إن أخوف الفتن عندى عليكم فتنة بنى أمية فإنها فتنة عمياء مظلمة ، عمت خطتها ، وخصت بليتها ، وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطأ البلاء من عمى عنها . . وأيم الله لتجدن بنى أمية لكم أرباب سوء بعدى ! . . لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعا لهم أو غير ضائر بهم . ولا يزال بلاؤهم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه ، والصاحب من مستصحبه ... » .

ومرة أخرى قال ، يومىء إلى معاوية ودوره فى الفتنة المنتظرة ، التى توشك أن تغطى أرضهم بطوفان :

« ... ولكأنى أنظر إلى ضليل ، قد نعق بالشام ، وفحص براياته فى ضواحى كوفان ! ... »

ومرات ومرات قال ..

كلهم أصغى له . وكلهم صدقه . لكن قلة قليلة هى التى قرنت الإصغاء بالتيقظ ، والتصديق بالمبادرة إلى درء الخطر ، والعمل ما وسعها على قمعه أو وقفه حيث كان . .

ومن القلة التي أردفت الاستماع بالاقتناع ، والإقبال على الإصغاء بالإقبال على المقاومة والكفاح : حجر بن عدى ، حين تقاعد غيره عن امتثال أمر الإمام بتعقب الضحاك . . فلقد وهب الصاحب الوفى نفسه لله ، وتقدم لقيادة حملة التأديب . .

وعقد الإمام له على أربعة آلاف . فخرج بهم يشم ريح الغارة الإرهابية ، ويتأثر خطاها المتذائبة على طريق مكة ، ووسط الصحراء . وكانت الأخبار قد تناثرت بأن الغير قد ضرب فى سيره جنوبا حتى بلغ أرض الحيرة ، فإذا ماشاع من أمره لم يكن غير تهاويل . فما أوغل بقواته المدوانية هذا الإيغال . ولا دانى

الحيرة أو ألم بما حولها من قريب ولا من بعيد إلى مئات من الأميال وهو العليم عندئذ بأن سيره ذاك كان خليقا بأن يفضى به إلى ما يجاور الكوفة وما قاربها من بلاد هى أعصى بلاريب على طغمته ، وأولى بأن تذيقه الدمار . . إنما كفاه أن يجول ببعض طريق مكة ، ويطوف بما تاخم دمشق حاضرة عاهله شمالا أو شرقا فى جيرة أرض الشام ، ليظل دائما فى نطاق الأمان ! . .

ولقد بلغ الخبر عن هذا الإيغال الموهوم حجر بن عدى ، فراح يستطلع وهو يمضى بقواته شمالا من الكوفة لعله أن يقع للغارة على أثر . وبلغ أيضا الإمام فسخر وقال :

« . على أهل الحيرة ؟ . . هو أقل وأذل من أن يلم بها ، أو يدنو منها !.. »

وصدق رأيه الاستطلاع . .

فما أن خلف ابن عدى الغريين عند الكوفة بعسكره ، حتى أخذ على طريق مكة إلى السماوة من أرض كلب ، وصحب منها امرأ القيس بن عدى الكلبى دليلا له على تلك الحجة الصحراوية وعلى ما بها من مواطن الماء . . فإذا هو يعلم أن المغيرين قد بارحوها إلى واقصة ، ثم شراف ، ثم القطقطانة . . فأغذ فى آثارهم يطوى المراحل ، ويصل الليل بالنهار .

لم يغب عن الضحاك أمر هذه المطاردة فشحذ وعصابته أقدامهم للفرار التماسا النجاة حتى لأوشكوا أن يفلتوا من يد الصياد ! . . لكن حجرا وأصحابه استبقوا المهرب ، وهبوا كالريح فى أثر الهارب المدل بيأسه على العزل ، المباهى ببطشه عندما يغيب القرين ! . .

ولحقت به حملة التأديب غربى تدمر وهو يشد مئزره ، ويشمر ذيله ، تهيؤا للانطلاق نحو مهرب جديد . . لكن أعداءه عاجلوه . .

ووقعت الواقعة التى لم يسعفه على اجتنابها الفرار . .

كانت الشمس عندئذ تطفل إلى المغيب . قرصها يذوب فى الأفق ، ونورها ينشر الشفق ، وخطوط الضياء التى يرسلها شعاعها الوانى تكاد تمتزج إلا قليلا بعتمة الغروب إيذانا بمقدم المساء . .

والتحم الفريقان . .

فى سويعة قصيرة سقط نحو عشرين من العصبة الباغيـــة قتلى ، يدفعون من دمهم المهراق بعض دينهم لصرعاهم الأبرياء لو كان دمهم يصلح للوفاء ! . .

وتلفت الضحاك من خوف ، والسلاح يطبق عليه . وأصحاب حجر يشدون على رجاله من كل ناحية .. هو الآن لا يعنيه أن يذود عن نفسه هجمة القوم . ولا يحاول أن يتوسم بينهم هدفا لسيفه . بل تجول عينه فيمن يحيطون به بحثا عن فرجة للخلاص . .

فلو كسفت الشمس ! لو اختفت من أفقه تذوب فيه كما تذوب ذرة ملح فى ماء محيط ! لو استطاع أن يسرع بها إلى المغيب مثلما استطاع يوشع أن يعيدها من الغروب ! . .

لـكأنى به حينذاك قد ملك الدنيا وهو يرى عتمة الليل تلقى ظلالها على الميدان ، ثم تغشيه بالسواد .. فهذه لحظته ! . . فرصة عمره ! . . هنيهة انتصاره على الموت ، واجتنابه تجرع غالة الهزيمة ! . .

وحالفه الظلام يجنه عن عيون السلاح ، فتسلل من خلف ستاره إلى النجاة .

ومع ذلك فقد شهدناه يفاخر ، من بعد ، ببلائه ، وببأسه الشديد ، وسيفه الحديد ، وهو يتهدد أهل الكوفة ، بعد أن عنا الحكم لابن أبى سفيان ..

عندها وقف امرؤ من الحاضرين ، شهد ما حدث بتدمر ، وقال للناس فى وجهه ، يعرض به ساخرا ، ويضفى عليه الهجاء بأسلوب ثناء :

« نعم صدق الأمير وأحسن القول . . فما أعرفنا والله بما ذكرت . لقد لقيناك بغربى تدمر فوجدناك المجرب الصبور الشجاع ! . . »

الفصل الثاني

١

ما لم يسر به رواة الأخبار سارت به وساوس الشائعات . وما لم تدركه حقائق الواقع أدركه خيال التوهم . . فقد ترامى إلى أسماع أهل الحجاز عن غارة الضحاك ما أوطأها أرضا لم يعر عليها من عصابته العادية مقاتل ، وعن انتصار بطلها مالم يلهه سيفه ! . .

قيل عن الرجل :

غزا الحيرة . .

عصف بمن فيها واحتمل ما فيها من مال . .

عاد سالما إلى الشام فى موكب نصر على أوراق الورد . .

وقيل وقيل . .

وأفسحت القالة الزائفة ، بصدور فتية بنى أمية وأحلامهم بمكة ، مرتعا خصبا لدولة أموية تهم شمسها أن تبزغ على العالمين ، فولوا وجوههم شطر سيدهم الماهل المنتظر ، يحثون الخطا سريعة واسعة إلى دمشق ، لكيلا يفوتهم من ملكه نصيب ! . .

هم أربعون . كلهم تتوثب به أطماعه وترامقه دنيا بالمجد والجاه . مشى فى صدارتهم ابن أبى سرح ، ولصقوا بذيله ، وهو يستبق القبلة ! . . وكانوا إلى أمس قارين بالبلدة الحرام ، يلوذون منها بمأمن ، بعيدا عن مواقع الخلاف ومظانه الذى نشب بين الإمام وبين معاوية ، كأنما قد تعاقدوا على عزلة ، لا إلى صاحب الإمرة ولا إلى متمرد الشام . . فلما انتهت صفين دون أن تحسم الأمر ، وانفض سامر التحكيم كلعبة هازلة . ووقعت مصر فى قبضة عمرو بالسم واللطف والخديعة ، ثم بلغ الضحاك بن قيس أخيرا ما أبلغته الشائعات من الظفر فى العراق ، خايلهم المجد ، فصحا فى صدورهم الأمل النائم . وانطلقوا إلى دنياهم الجديدة ، خفافا خفة الرياح ! . .

يومها صادفهم عقيل . كان قد خرج وهو معتمر ، ميمما مكة ، فإذا هم يضربون على طريقها نحو الشمال . رآهم قد ازدهتهم فرحة سرت لها في أبدانهم سورة النشوة . بخطاهم اعتزاز . في عيونهم ثقة . فوق شفاههم بقية مما لا كوه من نصر الضحاك ! .. وعندما قاربهم ، لم يحاولوا أن يداروا عنه ما اكتسته وجوههم من شماتة . .

وحدس وجهتهم ، فسألهم بمألوف حديثه الساخر :

« إلى أين يا أبناء الشانئين ؟ ... أبمعاوية تلحقون ؟ ... »

فلم يكتموه . بل تباروا — في صلف وخيلاء — يبادرونه بما يكمده ..

فثار :

« عداوة والله منكم قديمة ! ... تريدون إطفاء نور الله ، وتبديل أمره ! ... »

وبعث بخبرهم ، وما سمعه من انتصار بطلهم ، في كتاب إلى أخيه ، قال فيه :

« ... فأف لحياة في دهر جرأ عليك الضحاك ! . . وما الضحاك ! . . لقد توهمت حيث بلغني ذلك أن شيعتك وأنصارك خذلوك ... فاكتب إلى يابن أمي برأيك فإن كنت الموت تريد ، تحملت إليك ببني أخيك وولد أبيك فعشنا معك ما عشت ، ومتنا معك إذا مت ... »

فصحح له الإمام في رده ما بلغه من أمر الضحاك ... ووضع صدق الخبر مكان زيف الشائعة . ونفى بالواقع التوهم ... وكفه وأهله أن يلحقوا به ...

ثم قال :

« ... وإن رأيي جهاد المحلين حتى ألقى الله ، لا يزيدني كثرة الناس معي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة ، لأني محق ، والله مع المحق »

ومع ما بدا من تشدق معاوية وأتباعه ، بالشام وما دونها جنوبا ، بما أصابه الضحاك من فرار ألبسوه ثوب النصر ، ومن خزي لونوه بالفخر ، فقد كانوا

يدركون أن الانقضاض المباغت بالغارات الإرهابية مجازفة خطرة ، قد تضطرب بها عليهم العواقب ، وينكفئ الميزان ...

فلا جدال فى أنهم يعلمون من طبيعة على ما لا يطمعهم فى سكوته على أيما حركة غادرة يوجهونها إلى أى صقع يقع فى حدوده ، لأنه ليس بالذى يسكت على اعتداء ، أو ينام على ضيم ولو تخاذل رجاله عنه وشاقوه ، ولو انفرد وحده فى الميدان لرد العدوان ... فلن يدعهم وما شاءوا . ولن يكف عن ملاحقتهم ، وتعقب حملاتهم المباغتة بمن قد يصبر معه من صحابه ، أيما خطر للعادين أن يخافتوا بسيرها ويستخفوا بسيرها عن عيون السلاح ...

ذلك قد استيقنوه ... وذلك هو الذى كان يجنح بهم إلى التريث ولزوم الحرص كلما هموا بغارة جديدة . وإذا كان هذا العام التاسع والثلاثون من البعثة النبوية ، قد شهد منهم العديد من الغارات ، فإنها غارات تلاحقت على فترات ، ولم تنطلق مجتمعة ، فى وقت واحد ، لتتفرق هنا وهناك فى أطراف على ، فتأتى بالنتيجة المرجوة التى تشق من أجلها ، عادة ، حروب العصابات

ولا يخفى أن هذا النوع من الهجمات المفاجئة ، له أثره النفسى فيمن يصيبهم شره ، وفيمن يبلغهم أمره وهم بنجوة منه ، سواء بسواء ، لأنه خليق بأن يهز ثقتهم فى النظام الذى يستظلون به ، ويشيع فيهم القلق والإحساس بالافتقار للأمان والطمأنينة ... لكنه لا يخفى أيضا أن ما قد يحيق بالغارة الباغتة من هزيمة ، فى صورة ضربة قاصمة رادعة أو صورة إكراه مذل على الفرار ، هو خليق بلا ريب أن يهبط بنفس العادى درجة أو درجات عن مستوى الاعتداد ، وأن يرتفع بنفس عدوه ، فى المستوى ذاته ، درجة أو درجات . فإذا اصطنع معاوية الحذر ، وهو يهم أن يدفع بهذه الغارات ، وفارق ما بين الواحدة منها وتاليتها بفترة زمنية ، فإنه الحذر الذى لا مناص منه ، مع غريم له طبيعة الإمام ...

بل قد كاد عاهل الشام أن ينفض يده من هذه السياسة الإرهابية ، إذ استجاش رجاله ، يوما ، للنهوض بها فلم يسمعوا له ، أو أنصتوا ولم يلبوه ، أو تريثوا بدعوته وأمهلوه ...

قال عندئذ :

« أما من رجل أبعث به ، بجريدة خيل ، حتى يغير على شاطئ الفرات ، فإن الله يرعب بها أهل العراق ؟ ... »

وعلقت دعوته بالهواء ثلاثة شهور ! ...

حتى إذا كانت غارة الضحاك التي تباعدت بخطاها عن الكوفة ما استطاعت ، واكتفى منها معاوية بطريق مكة تغير فيه على الحاج ، وتلم ببعض نواحيه ، على حافة ما في نطاق السلطان الأموى ، آن لحملة الفرات أن ترى النور ...

جاءه النعمان بن بشير ، ينذر نفسه للمهمة العسيرة :

« ابعثني ! ... فإن لي في قتالهم نية وهوى ... »

فتطلقت أسارير العاهل ، وقال :

« فانتدب على اسم الله ... »

فانتدب الرجل . وانتدب معه ألفي رجل من المقاتلة أعدوا فأحسنوا الإعداد ...

ونصحهم معاوية وهم يهمون بالانطلاق ألا يدنوا من المدن ، وأن يتجنبوا الجماعات ، وأن ينقضوا على المسالح ثم لا يشغلهم شاغل عن التعجيل بالرجوع ...

وخرجوا يغذون السير

فإلى أية وجهة سار ؟ ...

بدا كأنه شاء أن يساحل بعصبته حتى يبلغ ماء الفرات ، كأمنية سيده ، فمضى من دمشق ، شرقا إلى الجنوب يجتاز الصحراء وقطع في زحفه على رمالها مائتين أو نحوها من الأميال ، ليعصف ببلدة عين التمر ، على مبعدة غير طويلة من النهر .

وأحسن النعمان الاختيار ...

فلقد كانت البلدة من المناطق التي يحسب لها حساب ، لأنها تقع قرب مجموعة من المدن . فعصفه بها إذن أولى بأن ينشر الذعر ويوقع الاضطراب فيما جاورها

من البلدان ... وكانت أيضا فى حماية ألف مقاتل من رجال على . فاقتحامها حين تسير به الأخبار ، مؤد لا محالة إلى استهانة الناس بجيش العراق ، ثم إلى تهاوى شوكة الإمام ...

لكنه ، إلى جانب هذا ، كان ماكراحذرا كثعلب ، فلم يقترب من عين التمر إلا بعد أن علم أن كعب بن مالك الأرحبى ، عاملها من قبل على ، قد أذن لرجاله الألف فيها — إلا مائة — أن يعودوا إلى الكوفة ...

وما تفعل مائة أمام ألفين إذا نشب قتال ؟ ...

توشك الحرب ألا تقع لأن هذه الحامية الصغيرة حرية بأن تلق السلاح . أو يوشك أن تستأصلهم الغارة المباغتة إن هم حاولوا الثبات . وفى هذه الحالة أو تلك لن يكون سيره إليها إلا نزهة . وهجومه عليها إلا تسلية . ونصيبه منها إلا النصيب من ذبيحة ذلول ، رقدت طائعة ، ومدت عنقها لسكين الجزار ! ...

وانتبه الناس فى عين التمر ، فإذا مشارفها قد أخذت عليهم بألفين من المقاتلة ، عتاة بغاة ، قد أشهروا السلاح ، ينصبون كالسيل على البلدة الآمنة ...

وعجب مالك وهو يرمى ببصره إلى الويل الزاحف ، يتصدره النعمان ابن بشير .

وتحركت شفتاه وما نطق ، كأنما يسر إلى نفسه بحديث ...

النعمان !

أفهكذا يجزيه على صنيعه الكريم هذا الزنيم ؟ ...

أفيؤدى إليه دينه : جحودا لقاء الجميل ، وغدرا لقاء الصفح ، وإساءة لقاء الإحسان ؟ ...

وامتلأ بالحزن قلبه ، وغص حلقه بمرارة الأسف والندم على اليد البيضاء التى سلفت منه للقائد المغير ..

لكنه أسرع يجمع مائته ، ويهيء لهم موضع اللقاء ...

فلقد عزم . ولا بد من قتال ...

ثم كتب عجالة قصيرة فى كتاب ، دفعه لرسول من لدنه للكوفة ، يبلغ الامام :

« . أما بعد ... »

فإن النعمان بن بشير قد نزل بى فى جمع كثيف . فر رأيك ، سددك الله ... .. »

٢

قصة النعمان بن بشير الأنصارى مع مالك بن كعب الأرحبي ، هى أمثولة منشورة الصحائف ، عالية الجرس ، ثابتة الألوان ، تعبر بالكلمة وبالواقعة عن ذلة النفاق ، وخسة الكنود ، ولؤم الغدر ... ثم تلقى ، بلفظها الظاهر ومغزاها المكنون ، بقائد غارة عين التمر إلى وهدة من الضعة ، يغوص فيها ضميره إلى أذنيه ! . .

فلقد خاف فذل . وذل فنافق . . حتى إذا أبيح الأمان — منة وكرما — وفتح له الطريق للنجاة ، استمان الكنود والجحود ، وكر بغدره الباغى على ذلك الذى وهبه الحياة ، جزاء على عفوه الكريم . .

وتلك شيمة عرفت هنالك بين أمثاله من أساطين الشام . .

وعلة خلقية فشت فاشيتها ، تلك الأيام ، فى كثيرين .

لكنها عند ذاك كانت — فى عيون أهل هذه المناقص — ميزة رفيعة . . شمارا رفعوه للفخار . . دلالة على الفطنة والاقتدار . . سلوكا ينسب صاحبه إلى الدهاء وحسن الحيلة ، ويعلو بقدمه درجات فى التمرس بسياسة الأمور . .

عن العزة الحقة التى ادعتها لنفسها هذه الفئة المعتزة بغير عزة ، التياهة بغير فضل ، قال الإمام فى كلام له جرى عن الوفاء :

« ... إن الوفاء توأم الصدق . ولا أعلم جنة أوقى منه ... وما يغدر من علم كيف المرجع ...

ولقد أصبحنا فى زمان قد اتخذ أهله الغدر كيسا ، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة ... »

فالوفاء — فى اعتباره إذن — قرين الإيمان . والغدر سلعة خاسرة فى سوق الآخرة ، لأنه لا إيمان لغادر . .

وبهذا أيضا نطق قبله رسول الله :

« .. لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة .» .

غير أن النعمان بن بشير الأنصارى — على فضل قومه الأنصار ، وسابقتهم المؤيدة لرسول الله تمكينا للدين — لم يكن ، فيما يلوح من قصته ، ممن يرعون هذه السنة .. وكيف يرعى ، وقد سولت له نفسه التنكر للوفاء فتنكر ، والجنوح إلى الغدر فغدر ؟ . . . ثم اختار ضحية لتنكره وغدره — من دون الناس أجمعين — مالك بن كعب الأرحبى الذى من عليه ، من قبل ، بالنجاة والحياة ؟ ..

هكذا حدث وكان .

وهذه بداية الأمر كله ..

. . . عندما خطر لمعاوية أن يعز جانبه ، ويرجح ميزانه ، رأى أن يمكر مكرة يبدو بها فى نظر المستريبين فيه ، والذين يعتزلونه ، كمن يحرص أبلغ الحرص على السلم فيطلبه من أى سبيل ، ويؤثر اجتماع كلمة المسلمين وتوثق عروتهم على كل ما عداها من مآرب وغايات أوقعت بينهم فتنة داهمة يصطلى بنارها اليوم فى ساحة الحرب ، فريقا العراق والشام . . فما أن عزم عزمه ، ورسم خطته ، حتى تلفت حوله يعجم الأعواد لينتقى منها أيها أصلح أن يكون مخلب القط الذى يخرج له الشواء من النار ! ..

وكان النعمان بن بشير إذ ذاك من القلة النادرة من الأنصار التى نزلت أرضه ، ولم تتابع عليا توقيا للدخول فى الفتنة ، واعتصاما بالحيدة حتى تتبين الأمور . . وكان أبو هريرة أيضا على هذا النهج ، قد قبع ساكنا يتابع سير الأحداث . . فوقع عليهما الاختيار . .

دعاهما معاوية إليه ذات يوم ، يرجوهما أن يكونا رسولى سلام من لدنه للإمام . قال :

« إئتيا عليا فأنشداه الله ، وسلاه بالله أن يدفع إلينا قتلة عثمان — فإنه قد آواهم ومنعهم — ثم لا حرب بيننا وبينه .. فإن أبى فكونا شهداء الله عليه . . »

جازت عليهما الحيلة . .

فانطلقا لمن أوفدا إليه يبلغانه :

« يا أبا حسن . . إن الله قد جعل لك فى الإسلام فضلا وشرفا . أنت ابن عم رسول الله . وقد بعثنا إليك ابن عمك معاوية يسألك أمرا تسكن به هذه الحرب ويصلح الله تعالى ذات البين ... »

ثم بينا مناط الرسالة :

« أن تدفع إليه قتلة عثمان ، فيقتلهم به . ويجمع الله أمرك وأمره . . وتسلم هذه الأمة من الفتنة والفرقة ... »

هذا إذن عن السلام ! . .

وعجب للرجلين كيف لم يفطنا لخدعة ابن أبى سفيان وما كانا أيجهلا قصة المقتل والغدر وقد طال فيها الحديث ، وسلف من الإمام عنها ما يغنى عن كل بيان . .

لكنها غفلة غافل ومكرة لئيم . ولو رجع الصاحبان ، أو غيرهما ، إلى ما دار عن مقتل عثمان من كتب وخطب وأحاديث ، قبل هذه الوفادة ، أو بعدها على السواء ، لما بقى لمستريب فى موقف على شبهة تحمل على التردد عن مظاهرته والانتصار له ضد أولئك الذين افتروا عليه هذه الأباطيل . .

لقد قطع على على معاوية ، بالحجة الدامغة التى يملنها واقع الحوادث ، سبيل اللجاج فى هذه القضية . . فحين اتهمه فى دم ابن عفان ، كتب إليه ، وجرت بما كتب الأخبار :

« أينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله ! . . أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه ، أمن استنصره فتراخى عنه وبث المنون إليه حتى أتى قدره عليه ؟ »

وقد عرف الناس كيف آزر الإمام الخليفة على مغاضبيه ، يسعى بينه وبينهم بالصلح ، أو يرد نقمتهم عنه ، ثم يدفع بأبنائه فى وجه المتربصين له وهو محصور وإن طالما كفه عثمان عن الصلح والدفاع . . وعرفوا أيضا أن معاوية ، حين استمده الخليفة مددا يذود عنه ثورة مناهضيه إبان الحصار ، لم يزد على أن بعث

اليه بجيش من الشام أمره أن يظل بظاهر المدينة يرقب الأمور بها من بعيد دون أن يدخلها أو يهز سلاحا فى وجه الثوار . . .

يومذاك قال هذا الباكى على دم عثمان ، لقائد مدده يزيد بن قيس القسرى :

« إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فإنى الشاهد وأنت الغائب ! . . » .

فلما قتل المحصور ، استقدم عاهل الشام مدده ، ثم ادعى لنفسه ولاية الدم المراق ، وأكثر فيها الحجاج واللجاج ! . .

وصدق فيه بفمه هذا ما دمغه به الإمام :

« . . . فأما إكثارك الحجاج فى عثمان وقتله ، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له ! . . »

ولا غرابة لأن نجاة المقتول لم تكن لتفتح لمعاوية سبيل الإدعاء ، ولا الائتمار بعلى تطلعا إلى السلطان . .

وما هو أيضا من دم عثمان ؟ . . وبأى حق يقيد وليس القصاص إلا لصاحب السلطة الشرعية لا لامرىء سواه ! . . لو أنه أراد العدالة لاستقاد ولى الأمر عندئذ نخاصم إليه العادين على دم القتيل . . لكنه ، هوى وعنتا ، لم يطرق السبيل القويم وأصم سمعه عن دعوة الإمام :

« ادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على كتاب الله . . » .

أمثال هذه الأحاديث والوقائع لم تكن غائبة عن أبى هريرة أو النعمان وقد طالما جرت بها الأخبار ، من قبل ومن بعد ، إلى كل مكان . . لكنهما تغافلا أمرها ، أو قد خدعا عنها — بأرفق الظن فيهما وأحسنه — بدهاء معاوية واحتياله . .

ليست الوحدة ما رام عاهل الشام ، بل الفرقة ، وليس دم عثمان بل ابتزاز السلطان ! . . وإذا كان على لم يعوزه إذ ذاك أن يذكرهما ما أخفته الغفلة ، وأن يهتك لهما سريرة صاحبهما فإذا حرصه على اجتماع كلمة الفريقين ادعاء ورياء ، وإذا

رغبته فى الفىء إلى الطاعة محال وخيال ، فقد شاء أن يميل بحديثه مع الرسولين ، بعد البراهين والأدلة إلى العتاب الرقيق الذى يزيل الوحشة ، ويهدى القلوب .

قال وهو يختم حديث الجدال والتدليل :

« دعا الكلام فى هذا . . »

ثم التفت إلى النعمان يسأله وكأنما يومىء بسؤاله إلى المكانة العلية لقومه الأنصار :

« حدثنى عنك يا نعمان .. أنت أهدى قومك سبيلا ؟ . . »

« لا . » .

« فكل قومك قد اتبعنى ، إلا شذاذا منهم : ثلاثة أو أربعة . . أفتكون أنت من الشذاذ ؟ . . » .

فأسرع الرجل ينفى التهمة عن نفسه . ويعلن الولاء :

— أصلحك الله ! .. إنما جئت لأكون معك وألزمك .. وقد كان معاوية سألنى أن أؤدى هذا الكلام . . وطمعت أن يجرى الله تعالى بينكما صلحا . . فإذا كان غير ذلك رأيك ، فأنا ملازمك ، وكائن معك .. »

وانتهى عند هذا الحديث .

أما أبو هريرة فعاد بالرد للشام .

وأما النعمان فآثر الإقامة مع الإمام على ولاء . .

لكنه إيثار نفاق .

فإن هو إلا شهر واحد قضاه بالكوفة ، ثم انتفض — كأنما وخزه الشيطان ! — يتسلل خفية عن العيون والأسماع ، ليؤوب إلى حيث كان ..

لهوى لم يفصح عنه كان قلبه مع الشام وهو يلوذ بالفرار .

كانت قدماه على الطريق للشمال . وكانت حواسه كلها على انتباه . وكانت عيناه خشية المطاردة — فى قفاه ! .. لكن حذره ذاك لم يغنه شيئا عن انكشاف سره ، فما كاد يبلغ عين التمر حتى علم مالك بن كعب خبره ، وحال بينه وبين مبتغاه . .

وجيء به إليه فاستفسره :

« ما ص بك بيننا ؟ . . »

قال عوه لعله يفلت :

« إنما أنا رسول ، بلغت رسالة صاحبي ، ثم انصرفت . . »

رسول ! . . فيم إذن كان مكثه بالكوفة ، دون رفيقه ، كل تلك الأيام ؟ . .

ولم يجز قوله على مالك ، بل زاده ريبة فيه . فأمر بحبسه حتى تأتيه فيه بينة .

« كما أنت ! . . حتى أكتب لعلى فيك . . »

هنا خشى الأسير أن يبلغ أمير المؤمنين أمره فيجزيه مغبة نكثه عهد الولاء ، فبعث سرا من فوره إلى ابن عمه قرظة ، صاحب خراج عين التمر ، يستغيثه أن يشفع له فلباه . .

وأبى كعب فى البدء شفاعة الشفيع :

« اتق الله يا قرظة ، ولا تتكلم فى هذا . . فلو أنه كان من عباد الأنصار ونساكهم ، لم يهرب من أمير المؤمنين إلى أمير المنافقين ! . . »

لكنه ما زال به حتى خلاه . .

وضرب النعمان فى الأرض ثلاثة أيام ضالا ، يهيم على وجهه فى تيه من الدعر والتعب والرمال ، حتى انتهى به السير إلى ماء دله على حاضرة الشام . . فقر فيها قراره ، على اعتزال للخلاف المشبوب بين عاهلها وبين الإمام ، لا يشارك بشيء فيه . .

ثم وخزه مرة أخرى الشيطان ! . . فإذا هو ينتفض ثانيـة ، بعد إذ دعا معاوية أصحابه للإغارة على الفرات بثلاثة شهور ، ويبيع العاهل نفسه وسيفه :

« ابعثنى ! . . فإن لى فى قتالهم نية وهوى . . »

واختار عين التمر هدفا لغارته . . .

ولم لا ؟ . .

ألم يهبه عاملها النجاة والحياة فحق إذن عليه — فى شرعة الجحود والغدر — أن يجزيه عن حسن صنيعه شر الجزاء ! . .

لم يصبر مالك بن كعب الأرحبي على رسوله إلى الامام أن يعود من السكونة بعدد أو كلمة . فلقد كان أدنى إلى طبيعة الناس فيها ، وسلوكهم حيال ما سلف من أزمات ، أن يضعفوا دعوته . يلوكونها طويلا فى قم المطل ماشاءوا ، قعودا عن النجدة ، وفرارا من النفر والجهاد ..

وقد فعلوا ..

فحين خرج إليهم الإمام برقعة عين التمر ، يحدثهم خبر النعمان ، سخوا بالسمع ثم بخلوا بالعمل . قدموا الهم وأخروا الهمة . سارعوا بالوعود وأبطأوا الإعداد .

أهاب بهم أمير المؤمنين :

« اخرجوا ، هداكم الله ، إلى مالك بن كعب أخيكم ، فإن النعمان بن بشير قد نزل به فى جمع من أهل الشام ، ليس بالكثير .. فانهضوا إلى إخوانكم ، لعل الله أن يقطع بكم من الكافرين طرفا . »

فبلعت الآذان الكلام دون أن يترك فى أصحابها أثراً ، كأنه قطرة ماء وقعت على رمل أحرقته وقدة الهجير ! ..

وكرر الإمام دعوته . .

واستقدم ، من بعد ، إليه وجوههم وكبراءهم يستنهضهم أن يسيروا ويحثوا من وراءهم من أقوامهم على السير . . .

فما كان ؟ .

لم يبلغ بهم بداية طرف ما أراد . وبلغوا به نهاية طرف ما نقم . وتمخضت بينهم دعوة الاستغاثة القادمة عليهم من مالك ، ودعوة الحث التى طاردهم بها على — بعد طول إلحاح — ثلثمائة فارس أو مادونهم تجمعوا للرحيل إلى عين التمر ..

وثقل على أمير المؤمنين أمرهم وأعياه حتى أحس كأنما السقم يلقاه ، نفسا وجارحة ،

ويهبط بقلبه إلى قدميه . . فما ملك إلا أن يثور بهم — كعادته — ويعنف فى خطابه لهم باللوم المقذع ، والذم الصريح :

« .. ألا إنى منيت بمن لا يطيع إذا أمرت ، ولا يجيب إذا دعوت . لا أبا لكم ! .. ما تنتظرون بنصركم ربكم ! . . دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الآسر .. ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت ! . . »

ونزل .

وغضب عدى بن حاتم لغضب على وضاق كضيقه بتقاعد أهل الكوفة ، وتبوط همتهم عن نصرة الحق ، فصاح بالناس :

« هذا والله الخذلان ! ..على هذا بايعنا أمير المؤمنين ! .. »

وانطلق على الأثر يلحق به فى داره ، يسترضيه :

« يا أمير المؤمنين . إن معى من طىء ألف رجل لايعصوننى فإن شئت أن أسير بهم سرت . . »

فهز الإمام رأسه يأبى قبول رأيه :

« لا . . ما كنت لأعرض قبيلة واحدة من قبائل العرب للناس . . لكن أخرج إلى النخيلة فعسكر بهم . . »

غير أن مالك بن كعب فى عين التمر كان أكيس من أن ينتظر عودة رسوله ، أو أن يعلم ختام هذا المشهد الحزين .. فالمغير يطرق عليه الباب ، ولن يدع له فرصة يزيد خلالها رجلا واحدا إلى مائته التى قدر عليها أن تقف فى وجه ألفيه لو أنها خالفت حدسه فصمدت وصممت على اندفاع ! . .

وأسرع فدعا إليه صاحبا له : عبد الله بن حوزة الأزدى ، يقول له :

« إن أقرب من هاهنا إلينا من شيعة أمير المؤمنين وأنصاره وعماله قرظة ابن كعب ومخنف بن سليم . فاركض إليهما ، فأعلمهما حالنا ، وقل لهما فلينصرانا بما استطاعا .. »

وركض عبد الله ، يشق طريقه إلى وجهته تحت ظلة من النبل كان رجال عين التمر قد بدأوا يراشقون بها جيش المغير .

ثم انثنى مالك إلى مائته .

كلا لن يسكت ، ولن يلقى سلاحه . . ما ترهبه الكثرة . وما يخشى من قلة . فليست القدرة على القتال دائما بضخامة الأعداد . وليس النصر دائما لكثافة الحشود . وإذا كان للإيمان دور حاسم فى نتائج المعارك فما يعوزه وأصحابه الإيمان . . ولسوف يلقى كل هذه الجموع العادية بفئته القليلة ، فيدمرها ، أو يردها ، أو يلقى الله . .

ونظم المائة لما أعد ، بثقة المؤمن ، وحنكة الخبير . . ثم دار على أفرادها يبين خطته ، ويحثهم على الاستبسال :

« قاتلوهم فى القرية . . واجعلوا الجدر فى ظهوركم . . ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . واعلموا أن الله تعالى ينصر العشرة على المائة ، والمائة على الألف والقليل على الكثير . . »

وجمع فى كلماته هذه ما لا تتسع بعده لمزيد من الوصايا والتوجيهات أوامر قائد لأجناده فى مثل تلك الظروف . .

فالحرب بين فئتين كهاتين ، تحتم على أقلهما نفرا أن تأخذ بالحذر ، وتجتنب الدفعة ، وتنأى بنفسها عن المجازفة ما استطاعت ، ثم تضرب حينما تتحقق أن الضربة تنهزها من غريمها مقتلا يوقع به أفدح الوبال ، ولا يصيبها إلا بأيسر خسارة . وهى داخل المدينة أسلم ، عادة ، للمدافعين من الحرب فى ميدان مكشوف ، لأنها أدعى إلى تبعثر قوة المغيرين ، وتفرق جموعهم هنا وهناك فلا يكادون يجدون سبيلا إلى لقاء حاميتها المناضلة بحشد كثيف . . وهى هكذا تشق على الكثرة المهاجمة ، بقدر ما تسهل على قلة المدافعين إذ هم أعلم بالدروب والمسالك فى بلدتهم ، وأقدر على التحصن بأمنها ، وعلى نصب الشراك والكمائن فيما يصلح من طرقاتها وأزقتها لهذا النوع من وسائل الدفاع وأساليب الإيقاع

بالدخيل . وهى أنسب لسهولة حركة القوة المدافعة فى الكر والفر ، وفى مباغتة المغير حيثما لا ينتظر ظهور مقاومة ، ولا يتوقع نزول ضربات . . وهى أقرب إلى أن ترهب العدو النازل منها بين جمهور من السكان هم أعدى له ، وأخلق أن يناوشوه ، أو يقطعوا عليه الطريق ، أو ينتقصوا أطرافه . وهى بعد هذا كله تتيح توفر الأمن والطمأنينة لحاميتها الصغيرة إذ يلوذ رجالها بالجدران توقيا لأى حصار أو حركة التفاف . .

أحسن مالك خطة الدفاع . وأحسنت فئته التنفيذ . واستطاع بهذا أن يصبر لأعدائه ، وينهك قواتهم وهو يرميهم من مواقعه المكنونة ، وعلى البعد ، بسهام أقواسه ، فإن أقدموا وقعوا فى مراميها . وإن أحجموا لم يغنهم الإحجام .

وطال تناوش الفريقين على هذا النحو . وامتد القتال بينهما — تراميا وتراشقا — بضع ساعات . وأقبل عليهم الأصيل ولما ينل المغير وطره ، ولا كلت القلة عن الثبات . . »

عندئذ آثر النعمان الهجوم وإن نالت من رجاله السهام . . فالشمس توشك أن تطفل . والأفق فوقه يهم أن يتناثر الشفق بأطرافه نذيرا بمقدم الغروب . والمساء بلا ريب حليف قوى لحامية البلدة ، يجنها عنه إلى جوار جنة الجدران ، فتقع غارته بين شقى الرحى : الليل والسلاح ! . .

وعاجل بالانقضاض . فلابد لإنهاء الوقعة من التحام . .

غير أنه لم يروع ، بجمعه الكثيف ، تلك الحفنة من المقاتلة الأجلاد الذين نذروا أرواحهم للموت ، وتعاقدوا على اتخاذ ميدان الوقعة طريقا قصيرا معبدا للقاء الله ! . . فما حياتهم ، بعد فلج عدوهم عليهم ، إلا موت . وما موتهم فى الدفاع إلا حياة . .

ثبت مالك . وثبت حوله أصحابه وقد كسروا جفان السيوف ، يصدون السيل ولا يكلون . لا تتزحزح لأحدهم قدم . لا يهدأ سلاح . لا ترنو عين ولا خاطرة إلى الوراء . فكأنهم قلعة حصينة . أو كأنهم شاطىء صخرى تتكسر عليه الأمواج ! . .

لكن النعمان بن بشير وعصبته قد رنوا إلى الوراء . . ثم روعوا . . . ثم أهطعوا إلى الجرى يستبقون للهروب ، كمثل قطيع مذعور أفزعه الذئب إذ غاب راعيه حاميه ! . . فهاهو مدد يقبل على البلدة ، فى السلاح والخيل ، مالهم قبل بملاقاته . إنه ليشرف . يدنو من الساحة . يحيث يحث الخطا ليلعق الدم ! .. هاهو يكاد يلتحم يطبق عليهم . بجناحهم ليلحق برفاقه . . فلو عهلوا لأعجلهم إلى المصارع ، وجاءهم بآجالهم على يديه . . ولو ظفر بهم لكانوا كأعواد عشب خضر ، وكان لهم منجل حصاد ! . .

فإلى الفرار ! . .

وراحوا ينكصون يرتفعون عن البلدة . . من ورائهم مالك بن كعب وحاميته يشدون عليهم . ومن أمامهم عبد الرحمن بن مخنف ومدده يستمرضونهم بالسيوف ، حتى طاروا بعيدا ، وأمعنوا فى الفلاة ، وقد تركوا بضعة منهم على ثرى البلدة ضريبة رخيصة للنجاة !

أيفخر النعمان بن بشير بعد هذا ببلائه فى اقتحام عين التمر ، كما فخر قبله صاحبه الضحاك بادعائه اقتحام الحيرة وظل يباهى كلما راقه التوهم واستمرأ السدور فى الخيال ؟ أم يكتم الرجل فى نفسه فشله ، ويدارى عن الذكر والتذكر بلواه ؟ ..

بل هو أدنى — كلما تذكر — إلى استشعار الخزى واجترار العار ! . . فما لبث إلا قليلا بعد ذلك الفرار ، حتى علم أن المدد الذى روعه ، وحطم أمله فى الغدر بمالك ، وفى الإغارة على الفرات ، لم يكن إلا نفرا قليلا لا يزيد على خمسين ، هم كل من استطاع مخنف ابن سليم أن يبعث بهم إلى عين التمر ، مع عبد الله . .

لكن جيش النعمان قد أفسد عليه تدبيره . غرر به . هول له أمر المدد فرأى العدو أضعاف الأضعاف ! . .

وكتب مالك بن كعب الأرحبى إلى الكوفة ، ولما تكن بعد قد سيرت إليه

النجدة التي استمدها لتنصره . فكان كتابه ذاك خاتمة قصة النفاق والكنود والغدر التي مثلها النعمان . .

وعندما بلغ الكتاب الإمام ، وقف في أهل الكوفة فقرأه عليهم ولهج بذكر حامية عين التمر ، وما أبلته في سبيل الله . . ثم رمى الجموع الحاشدة أمامه بنظرة ازدراء ، وقال :

« هذا بحمد الله ، وذم أكثركم ! . . »

فنكسوا الرءوس . ورموا بعيونهم إلى الأرض من استخذاء ! . .

٤

أمعن معاوية في غاراته العدوانية على أطراف الإمام ما شاء له أن يمعن وهو يراها خير سياسة يمكن اتباعها ليرضى بها الموتورين من أتباعه ، المنهومين بالاشتفاء من غريمه ، في فترة الزمن التي ركد فيها الصراع الحربي الجاد بين العراق والشام بعد انطفاء نار صفين .

ولقد ثبت العاهل الأموي نحو عامين على نظرته وإن طالما حثه بعض خاصته على المبادرة إلى المناجزة الشاملة المكشوفة وإنهم ليحسبونها الوسيلة المثلى ، والطريق الذي لا طريق غيره للقضاء الكامل على سلطان علي بعد ما ظهر لهم من اختلاف أنصاره عليه وثبوطهم عنه . واستقام على ما أخذ به نفسه من هذه السياسة المرنة ، المترددة عن الحسم ، المراوحة بين الإقدام والإحجام ، المتبدية ، أمام الناس ، كحرب وما هي بحرب ، والمؤثرة ، في جوهرها ، وفي حقيقة الأمر ، لسلام ما هو بسلام ! . .

ولا غرابة هنا في تشبث معاوية بنظرته ومخالفته بها نظرة أخلص خلصائه من آل بيته وأعوانه ، إعانامنه بأنها وحدها أداته الطيعة إلى الأمن على نفسه وإقليمه . وإلى التربص بالزمن حتى يسانحة تيسر له الوصول إلى غرضه من أقرب سبيل . وإذا كان قادة الرأي في الشام قد استنفروه إلى الحرب الفاصلة وألحوا عليه حتى أرهقوه . وإذا كان هو قد رائهم ألا يعجلوه على رغبتهم حتى نبوا به ، فإن هذا الإرهاق وهذا النبو لم يدفعاه إلى الرجوع عن رأيه بقدر ما دفعاه إلى الإصرار عليه ، وإلى رياضة نفسه على مراودتهم ومطاولتهم ما وسعته إلى ذلك حيلة .

لكنهم أثقلوا عليه بالمعاودة والمراجعة بين كل حين وحين .. وكان أثقلهم ، فيما يلوح ، الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، لأنه كان أنباهم بهذه السياسة لفرط حقده على الإمام ، وتعجله الشماتة فيه ! . . فلم يكن يرى الأناة في حربه .

ولا يستصلح الغارات على أطراف بلاده ولا يرتضى إلا المعاجلة بتسيير الجيوش الكثيفة إلى قلب دولته ليكون ذلك أبلغ فى هلاكه واجتثاث أصل سلطانه . . فدون هذا الاجتثاث والهلاك لم يكن ليهدأ لابن عقبة بال . .

وكأنما اشتهر الرجل بين رفاق معاوية بهذا التطرف ، فكان المحور الذى تدور حوله سياسة العنف السافر ، والعلم الذى يلتف به دعاة الحرب المعجلة ، يؤمونه ليذاكروه ما يجد من أمور وأحداث يرونها خليقة بتغيير أسلوب الهوادة والانتظار . ولم يكن الوليد — بغله وبغضائه — فى حاجة إلى أمثال هذه المذاكرات لتزيد من غلوه ، وتصب نقمته على الإمام فى أذن عاهله على هيئة غيرة حريصة على الملك الأموى النامى فى الشام . بل كان دائما أسرع بما يسمع ويرى إلى معاوية ، ليهيجه إلى القتال .

فى لقاء له مع نفر من رفاقه الغلاة ، على رأسهم ابن مسعدة الفزارى ، قيل له :

« إن الناس لا يشكون فى اختلاف الناس على على بالعراق ، فادخل إلى صاحبك ، فمره فليسر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم ، أو يصلح لصاحبهم ما قد فسد عليه من أمره . . »

فاستقبل الوليد إجماعهم على بعثه بكثير من الرضا ، وقليل من التمتع ، وقال :

« لقد قاولته فى ذلك وراجعته وعاتبته حتى لقد برم بى ، واستثقل طلعتى . . »

لكنه ما لبث أن أردف فى إصرار :

« وأيم الله ما أدع أن أبلغه ما مشيتم إلى فيه ! . . »

وانطلق فأبلغ على خيلاء ! . فقد طالما دعا معاوية إلى ما يدعون فرده بإباء أشبه بالازدراء . .

ودعاهم العاهل إليه :

« ما هذا الخبر الذى جاءنى به عنكم الوليد ؟ . . »

قالوا يحرضونه :

«خبر فى الناس سائر . . فشمر للحرب ، وناهض الأعداء .. اغتنم الغرة ! .. إنك لا تدرى متى تقدر على مثل حالهم التى هم عليها الآن ، فو الله لولا تفرق الناس عن صاحبك لقد نهض إليك ! . . »

عندئذ اصطنع معاوية الرفق فى الخطاب ساترا عنهم ضيقه بهذا الإعجال الذى يجيئونه اليوم فيه ، وطارده به قبلهم غيرهم من الغلاة . . فقال فى هدوء يبرر أخذه باجتناب الحرب المكشوفة مع على وإن مزقت شيعته الأهواء :

« . . هؤلاء الذين تذكرون تفرقهم على صاحبهم . . لم يبلغ عندى بهم أن أطمع فى استئصالهم واجتياحهم ، وأن أسير إليهم مخاطرا بجندى لا أدرى على تكون الدائرة أم لى . . . . »

ثم استطرد يحذرهم الدفعة وما يرومون ، ويبين لهم جدوى سياسة المراوحة بين القتال والسلام .

قال :

« . . إياكم واستبطائى ! . . إنى آخذ بهم فى وجه هو أرفق بكم ، وأبلغ فى هلكتهم . . قد شننت عليهم الغارات من كل جانب ، فخيلى مرة بالجزيرة ، ومرة بالحجاز . . وقد فتح الله مصر ، فأعز بفتحها ولينا ، وأذل عدونا . . وأشراف أهل العراق يأتوننا فى كل أيام . وهذا يزيدكم الله به وينقصهم ، ويقويكم ويضعفهم . . فاصبروا ، ولا تعجلوا فإنى لو رأيت فرصتى لاهتبلتها . »

على هذا اعتزم ، وثبت عامين ، تجنبا للحرب الشاملة التى يستحثه عليها أعوانه .. لأنها حرب صريحة ، معلومة الزمان والمكان ، لا مناص فيها من لقاء مكشوف مع من لا قبل له بلقائه وهو الإمام ! .. ولا عبرة ، إذا وقعت ، بتشتت أهواء أهل العراق ، واختلافهم على على ، لأنه عندئذ الاختلاف الذى قد يذيبه القتال ثم لا يغنى عن المخاطرة بجند الشام ! . . أما حربه الخفية التى يطلقها على غير توقع من عدوه ، ويرفع فيها شعار : « اضرب واهرب » ، فله فيها ولقومه جنة وأمان ولو إلى حين . .

ولقد مضى الرجل وما رأى بأسلوبه هذا حتى فوق من غاراته فى أطراف

على نحو عشر فى العام التاسع والثلاثين ، بوجهها لتقتل وتسلب ، وتسير فيما تنزل من مناطق سيرة قاطعى الطريق عسى أن يشيع بها فى نفوس الناس قلقا ينتهى بهم إلى الإحساس بالضياع والافتقار للطمأنينة ، فيسلبهم الثقة فى دولة تعجز عن حماية مواطنيها وتحقيق أمنهم على النفس والمال ليندفعوا من بعد فى طريق العصيان . .

بهذا الرجاء سير فرقه العدوانية ، ما مس منها بأدنى الأرض وما ضرب فى أقصى الأبعاد ، لتبث الإرهاب وتنشر الخراب . . ولسنا نراه حين فعل قد وطد نفسه — مع أسلوبه القتالى المتذائب — على الفلج فى كل الغارات . بل لعله حدس قبل بدئها ، كما أيقن من نتائجها ، أن جهد عسكره لن يجيئه منها — إن جاءه ! — بنصر مذكور ، ولن يبلغ به إلى اقتطاع سلخة من هنا أو سلخة من هناك من أرض الإمام . . فما أصاب شيئا إلا أن دمر وخرب ، ثم قتل أناسا ، ونهب آخرين كانوا ، فى حساب النفوذ ، غير ذوى حول فى تغيير الأوضاع السياسية القائمة ارتفاعا بسلطانه أو هبوطا بصولة غريمه . وما أدرك من غاراته كلها إلا فرار عصاباته بالخزى ، وجلها إلا الهزيمة . . وإذا كان قد استطاع بهذه الفرق العدوانية المنقضة أن يطأ ما جاوز حدود إقليمه ، فقد استطاع أيضا أولئك الذين سيرهم الإمام لردع المغيرين أن ينفذوا من حدوده ، ويقتحموا عليه ولايته ، ويوغلوا فى قلبها إلى بعلبك ، مصعدين منها لأقصى الشمال ليهبطوا ، بعد رحلة طويلة وتوغل عميق ، من الرقة عند شاطىء الفرات إلى الكوفة . .

بل قد أوشكت إحدى غاراته أن تبوء ، مع الهزيمة ، بالاستئصال ، لولا أن أنقذها الانعطاف للرحم من الوبال !

تلك غارة الفزارى على تيماء . .

شاء صاحب الشام عندئذ أن يعهد لأحد زبانيته للسير بغارة عجلية إلى بلاد لا يخطر انتهاك حرماتها بشطحة خيال أو تصور احتمال ، لعله حين يسلب أهلها أمنهم المفروض ، ويبذر فيهم الحزن والخوف أن يشيع فى العالمين اقتداره على إنزال الضربات حيثما أراد وإن أبت قواعد العرف ، أو شطت بهدفه المراحل وبعدت

المسافات . شاء هذا معاوية ، فبعث عندئذ إلى عبد الله بن مسعدة الفزارى ، وعقد له على نحو ألفين من مقاتلته مجهزين . .

وأمره : أن انزل تيماء . وسر منها إلى المدينة ومكة وما يليهما من بلاد الحجاز . وخذ الصدقات عنوة من الناس ، فمن امتنع عن اعطائك فالدماء فى الأداء ! . .

وكذلك أبرم العاهل قضاءه فى أولئك الأمنه من قاطنى الأرض الطيبة ، اللائذين بمهبط الوحى ، والبلدة الحرام ، والبيت العتيق ، ومهجر الرسول . فما ترده سياسته العدوانية عن اقتحام المقدسات .

وانحدر الفزارى بغارته جنوبا عبر الصحراء حتى بلغ تيماء على مبعدة نحو خمسمائة ميل من مكة ومثل نصفها من المدينة وإنه ليعصف بمن لقى من أهل البادية غير متأثم ، فيأخذ مالهم غصبا ، ودمهم إرهابا ، لا يكفه عنهم شىء إلا أن يذلوا له أو يتابعوه . . واستطاع بهذا الأسلوب الغاشم أن يلوى إليه كثيرا من الأعراب ، بعضهم لحق بشرذمته كالخراف المذعورة تتلمس الأمان فى ظل كلب القطيع وبعضهم يلحق بذيله ابتغاء الأسلاب ، كأنهم الضباع المنهومة تتبع الوحش الضارى ابتغاء ما يفضل منه من بقايا الفريسة ! . .

ولا عرو بعد هذا أن يمنى الفزارى نفسه بمواصلة ما بعث فيه ائتمارا بأمر عاهله ، وازدهاء بالجموع الكبيرة التى قهرت على السير فى ركابه . وأن يسبق المطايا بخياله إلى اجتياح الحجاز . . وما يعوقه الآن والطريق مفتوح ، وهذه المدن التى غدت مطمح إرهابه لا يكاد يحمها عنه جند مجيش أو تدانيها يد الكوفة إذا هى إرادت مقاومته وإنها منه بمنأى سحيق ؟ . .

وأوشك أن يطير إلى هدفه . فما هو أن أعد عدته ببارحة تيماء ، حتى فوجىء بفزارى مثله على رأس فرقة من رجال الإمام طوت إليه البادية والليالى ، لتوقظه من حلمه . .

وتلفت ينظر . .

ما ثمة منفذ لهرب ، أو ثغرة إلى نجاة . . وليس بد من دم ! . .

وتدانى الجمعان . عبد الله بن مسعدة الفزارى على رأس العصابة الأموية ، والمسيب بن نجبة الفزارى يقود نجدة العراق . . لا معدى الآن عن التحام . لا فرصة لأحد الرجلين للإدلال بأصله على غريمه . لا رجز المفاخرة بالآل ، كما هى عادة الغرماء عند اللقاء . . فكلاهما من نفس الدرجة . والمباهاة هاهنا للسلاح .

وعلى الأثر نشبت الحرب

تصاول بجنديهما الفزاريان . . التقى السلاح بالسلاح . . . هاجت الأسنة المشرعات . . تسعر الصراع حمما وصواعق . . حميت وقدة الوغى ساعات . . حتى إذا أوشك النهار أن يبلغ الزوال ، وتهادت الشمس للغروب وشفقها ينعكس على مرآة الأفق ما تناثر فوق ساحة المعركة من دماء ، بادر المسيب بن نجبة يحمل برجاله على عبد الله بن مسعدة وشرذمته ، ليفرغ منهم قبل غبشة المساء .

غير أن للرحم حقا . وعزيز دم القربى وإن جار . . وإن حم لهب القتال . . وإن ثارت السيوف ، وراحت حين غضبها تقد الهام أو تقد الأجسام ! . فما أن أطلق المسيب سيفه إلى غريمه ابن مسعدة ليصميه ، حتى سارع فكبحه أن يصيب مقتله ، كما يفعل الفارس بفرس حرون ! . .

ثم لمسه ببطن الحسام ثلاث لمسات . . وهتف يهمس بصوت خفيض :

« النجاء ! . . النجاء يا عبد الله ! . . »

وعندئذ اهتبل ابن عمه الفرصة التى مدت له فى الحياة ، وأسرع يتحول بمن معه عن الميدان . . بادروا يطلقون للجياد الأعنة . وينشرون أجنحة الأقدام فلم يمض إلا ما يكاد يشبه تردد النفس بين الشهيق والزفير حتى كان جمعهم قد خرج عن نطاق الأسنة ، وتفرق إلى ما يجنه من الهلاك المحتوم . . بعضهم تشرد فى الصحراء ، وبعضهم تبع قائده إلى حصن قريب

وتفرق عن الغارة من كان قد سار فى ركابها من البدو ، وآزرها خشية وطمعا ، التماسا لأمن أو ابتغاء منفعة . وأغار أعراب النواحى على فلول الفرار يسلبونهم ما نهبوه فى غارتهم من متاع ، وما أصابوه من صدقات . . واعتصم

القائد الهارب ومن معه بالحصن ثلاثة أيام ، لا يكاد يبالى الحصار المضروب عليه لأن للرحم حقا ، ودم القربى عزيز وإن جار ! . .

فكأنى بالفزارى الظافر قد لقى عنتا من صحبه إذ تلبث كل هذا التلبث بالفزارى المقهور .. حتى متى يرى أن يطول الحصار ؟ . . وفيم تصبره بالمتصمين وما يعوقه شيء عن اقتحام الحصن سوى الاصطبار ؟ . . وإلام يطاولهم وليسوا يملكون لأنفسهم غير الفناء أو الاستسلام ؟ . .

ولعله — وقد خشى إن هو ظل وما هو عليه ، أن يبوء بظنة ، أو يثور جنده به ، أو يجيء مدد من الشام ، أو يطمع فيه الأعراب — قد اصطنع الحيلة التى تغنيه عن قتل الآل ، وتكف عنه الارتياب . .

أحاط القلعة بحطب ، من كل مكان ، ثم أشعل النار . .

فلما أن تعالى اللهب ، وتكاثف الدخان ، واسودت السماء فوق الحصن كأنما تومىء إلى وشك تفحم المتحصين ، اندلع الصراخ من القلعة المحترقة ، تضرعا وابتهالا إلى المسيب أن يرحم وقود الحريق . . .

أشرفوا عليه بأبصار زائغة ووجوه مغبرة يستغيثون :

« يا مسيب . قومك ، قومك ! . . »

فما لبث غير قليل ، حتى قال لأصحابه فى عجلة كمن دهمته داهمة :

« . . قد جاءتنى عيون فأخبرونى أن جندا قد أقبل إليكم من الشام . . . »

ثم نادى جنوده كأنما يتوقع هجوما وشيكا رأى — حيطة وحذرا — أن يعدهم له :

« . . انضموا فى مكان واحد ! . . »

وأمر فأطفئت النار ، ليخلى بين أعدائه وبين الفرار . .

هنا عجب صاحب له ، وقد تنبه إلى تسلل عدوهم تحت ستر الظلام :

« سر بنا فى طلبهم ! . . »

« لا . . »

وعندما أخذت فرقة النجدة على طريق العودة إلى العراق ، لم يكن على وجوه رجالها من مخايل الفرحة بظهورهم على غارة تيماء إلا كمثل ما تركت النار من حطب القلعة ! . . فقد بدد قائدهم بلاءهم فى الريح ، وأراق نصرهم لتمتصه الرمال . .

وقال له منهم قائل :

« داهنت فى أمرهم . . »

وقال له آخر :

« غششت أمير المؤمنين . . »

لكنه شغل عنهم برجع تلك الأصداء التى ترددت عن قلبه المضطرب ، وملأت أذنيه بطنين داو ، يكاد يعزف على وقع خطاه : دم القربى عزيز وإن جار ! . .

الفصل الثالث

ما وراء هذا كله ؟ . .

ما يريدون من أمير المؤمنين ؟ .

أهم يملكون له أمره ؟ . . أم نبوا به ؟ . . أم يرون السكوت على أعدائهم — خلافا لرأيه — أقرب مدخل إلى غايتهم ، وأولى سلوك عليهم اتباعه لفض النزاع ، وترويض معاوية ورجاله فيسلس قياده ، ويكف غربه ، ويكبح عنهم غاراته التي مضت على وجهها ، شهوراً طويلة ، تعيث فسادا في أراضيهم وتركبهم بالضيم ، ناشرة الرعب والإرهاب بين أهلها أينما شاء أن يشير لعصاباته الوحشية ببنان ؟ . .

تيه من العجب والتساؤل تضل فيه العقول ، وتعمى الأذهان ولا تقع في دروبه الجرد على جواب مقبول .

فلولا أن يقال قاتم النظرة ، مسرف في سوء ظنه بهم ، لسلكهم ومن بالشام في خيط واحد حليفين عليه . ولأوردهم أجمعين نفس المورد . ولأولاهم النقمة كلما أتيح له أن يضرب بكلمة أو سلاح . . فما يراهم كافة : عراقا وشاما ، هنا في جيرة الرافدين ، وهناك على ضفاف بردى ، إلا في حلف وثيق مع البغي عليه ، يصدرون في شروطه بينهم عن مباينة له ، واختلاف عليه ، وتوافق على الفراغ منه . . .

لكنهم هاهنا في الكوفة ، أشد عليه من أولئك الذين يحركهم الساحل الأموي كالذي ليشهروا السيف في وجهه ، ويزلزلوا الأرض تحته ، وينكثوا في عينه خيوط الأمور والناس . . فعيشه بينهم قلق ، وثقته فيهم ريبة . . وصبره ملل ، وفكره توجس ، وجهده انتظار !

هم في ثياب أولياء وصحاب . . يرفعون شعاره ، يحشرون تحت رايته ، يلتمون إلى زمرة نصرائه ، يصفون في كثافة صفوفه . ثم يطالبونه بالولاء مع كل صباح

وإنهم لا يغلون حربا عليه — إن لم يزيدوا — عن أهل الشام الذين يناصبونه العداء على علانية وإسفار ... ودهم رياء . ولاؤهم زيف . طاعتهم قولة لسان تجمد دلالتها ما إن تلامس الشفاه ... وقلوبهم ، بعد هذا ، هباء وهواء إذا جد الجد لم ترع عهدا قطعوه ، أو أقبل الزمن عليهم بخطر ذابت كما تذوب ذرة الملح فى الماء ! . .

بررة أولياء حين العهد ، وجحدة عصاة ساعة الوفاء ! . فى كل يوم لهم غد يتعلقون به ، وفى كل حال لهم عذر يزوقونه ، وفى كل دعوة لهم علة يقدمونها : حججا حاضرة تحاول أن تبرر ثبوطهم عنه ، أو نكوصهم على الأعقاب كلما حثهم على الجهاد .

فما غاية هذه المشاقة ؟

ما قصارى تعللهم الذى أولعوا به وأحكموه ولا يزالون يلمزمونه حياله رياء له ، أو عبثا به . أو تخاذلا عنه . واستكاسا عليه ، كأنما التسلل قد غدا — فيما يخالون — هو سواء الصراط ! . .

لنوشك الآن — وهو يكابد محنته بهم وبلواه فيهم ، كما يكابد المصحر الظمآن قيظ الصحراء — أن نطوى معه الزمن والمسافة إلى الوراء . . أن ننىء ذهنا وبدنا إلى مدينة الرسول . . أن نعيش وإياه عهد الكفاح الأول المرير والرسالة بعد غرسة طرية العود . . نوشك أن نراه يعود القهقرى على جناح أحاديثه — ليجد كسفة من رجاله فى إهاب أولئك المنافقين وضعاف الإيمان الذين التووا أشد التواء بمحمد وهو يدعوهم حينذاك إلى الله . يظهرون له غير ما يبطنون ، ويكتمون ما يرومون . ويقولون ما لا يفعلون ، وإن بدوا للأسماع والعيون كمن يسيرون فى موكب الإسلام . .

سيرة هى السيرة ، وصورة كأنها الصورة لولا أن الشمس لم تجمد على حافة الأفق ، والظل لم يسكن ، وحركة الحياة راحت تمضى إلى غايتها المقدورة تقطع المراحل على مدى الأعوام والفراسخ لتستدبر قديما وتستقبل جديدا من الأمور والأحداث .

ومع ذلك فليس بقديم ذلك القديم الذى غاب ، ولا بجديد هذا الجديد الذى لاح ، لأن مظاهر الرثاثة ومظاهر الحداثة جميعا قد امتزجت ، وذاب بعضها فى بعضها الآخر دون معالم تميز هذا المظهر من ذاك . فكأنما « كوفة » الحاضر هى « مدينة » ذلك الغابر ! . كأنما الأمس لم تغرب شمسه واليوم لم يبزغ فجره . كأنما العين التى عاينت الماضى أخذتها عليه غفوة فلما انتبهت وقفت مرة أخرى على نفس ما كان فى مجال الشهود والعيان ! . .

أفهو تغيير ؟ . .

بل لا خلاف فى الحالين ، لا تباين بينهما إلا أن يكون فى اسم أو سحنة أو موقع من الأرض لم تكن لأنها من قبل هيئة فى العين أو البال . ثم نشط الخيال فإذا الذى درس قد تجسد وانبعث حيا لينطبق به ما كان على ما آن ! . . فما مضى نشر وعاد . وما وقع بالأمس يقع اليوم . العمل كالعمل . والمظهر كالمظهر ، والصورة القديمة التى انطوى عليها سجل مدينة الرسول قد انشق عنها هذه الآونة سجل كوفة الإمام ودبت فى أوصالها الحياة ! . .

عود على بدء !

زمرة النفاق والرياء طفت من القاع على سطح الزمن من بعد رسوب ! . .

أولئك الذين كانوا يدبون حوله على الأرض بالعراق لا يكادون يفترقون فتيلا عمن دبوا قبلهم بمقدار جيل على ثرى الحجاز . . لكأنهم لهم أشباح ! . . بل كأنهم خيال لأصل أو أصل لخيال ! . بل إنهم وهم سواء . ولو أنه تخفف قليلا من ثقل الزمن وحيز المكان لسمع محمدا ، من وراء حجب الماضى ، وهو يردد ما نزل فى أمثالهم على عهده بما وصفهم به الله ثم يكاد ما يردده فى أولئك أن ينطبق على هؤلاء :

« . . . إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة ليصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . . » .

كمنافقى المدينة غدت هذه الفئة من أهل الكوفة التى تماين عليا اليوم . .

قول ولا عمل . تظاهر وادعاء . وعد ولا وفاء . ولو قد انبعث فيهم ، هذه اللحظة ، رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ، لما أنكرهم ، ولا وجدهم تربة غريبة لاستنبات الفتنة والأذى والخلاف للإمام كاستنباتها للرسول . .

قليلا في بدء عهده كانوا ، ولا جدال . كان على العين آنذاك من عامين أو ثلاثة أعوام ، أن تقلب النظرة النافذة في الجموع لتقع بينها على نماذج منهم ، وعلى الفكر أن يقابل ويقارن ليفرق — بغير قليل من العناء والجهد — ندرة خبيثة توشك أن تغيب في غمار جمهرة نقية لم يلطخ قلوبها دنس النفاق . لكنهم ما لبثوا أن تكاثروا ، على الأيام ، أضعافا عديدة تهول ، كما يتكاثر العفن على الدمن الدوارس بأرض وبيئة ، ليغدوا وهم كثرة غالبة ، أصحاب الطهر بينها أشبه شيء بغرة بيضاء في رأس غراب ! . .

ولكم توقع من قبل هذه النتيجة الوبيلة ، وخاف على الجمهرة النقية من القلة العفنة ! . . كم خشى على السواد الأعظم من الناس أن يفتنه انحراف البضعة الجانحة لهواها ، ويجرفه نفاقها معها إلى الهوى وللنفس البشرية نزوات لها سطوات وجمحات ، وللنفاق عدوى ذريعة لا يسلم منها من القلوب إلا ما عصم الله .

من البدء أشفق على رجاله من هذه المغبة الوخيمة ، فراح يحذرهم الخطر عسى أن يحفظوا قلوبهم سليمة في جنة حصينة ، عصية على ثمرة النفاق . . لكنهم لم يصغوا له . لم يعوا قوله . لم يأبهوا قليلا ولا كثيرا بما كان يسديه من ذوب علمه وقد طالما ساق إليهم في أحاديثه الحكمة بعد الحكمة والنذير تلو النذير . .

كان من وصاياه :

« . . . عباد الله ، أحذركم أهل النفاق ، فإنهم الضالون المضلون ، والزالون المزلون . يتلونون ألوانا ، ويفتنون افتتانا . يعشون الخفاء ، ويدبون الضراء . قولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء . . قد أعدوا لكل حق باطلا . ولكل قائم مائلا . . ولكل باب مفتاحا ، ولكل ليل مصباحا . . يقولون فيشبهون ، ويصفون فيموهون . . أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . . . »

غير أنهم سدروا فى عمامم . أبى عليهم الغرور أن يسيروا على نهج نصحه منهم ادعاؤهم العلم أن يتلمسوا علما فى غير ما يعلمون كأنما قد أوتوا وحدهم خزائن للمعرفة ! . ولو أنهم أنصفوا أنفسهم ، وانتصفوا للحق من هواها ، لما كان لمثل الأشعث بن قيس فى حياتهم شأن . ولا للخريت ولا للخوارج . ولا لابن هند الذى تسربت إليهم دعاواه وزيوفه تزاحم الهدى فى قلوبهم ، وتطغى عليه ، وتغرق آخرتهم فى زخارف دنياه حتى تبدوا كأنما أشربوا حب العاجلة وجرى فى عروقهم مع مياه الحياة ! .

أفمن جهالة جرفهم هذا التيار ؟ . . أم عن غفلة ، أم اغترار ! . . أم هو العنت والإصرار ؟ . .

عن كل هؤلاء ! . .

فلقد قدم الإمام صورا عدة رسمتهم لنا من كل زاوية ، وفى كافة الأوضاع. فإذا هى لا تخالف الواقع المتلون الذى عاشوه . .

فهذه صورة :

« مالى أراكم أشباحا بلا أرواح ، وأرواحا بلا أشباح ، ونساكا بلا صلاح ، وتجارا بلا أرباح ، وأيقاظا نوما ، وشهودا غيبا ، وناظرة عمياء ، وسامعة صماء ، وناطقة بكماء ! . . »

وهذه صورة :

« . . . . يعيشون جهالا ، ويموتون ضلالا . . ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلى حق تلاوته . ولا سلعة أنفق بيعا ولا أغلى ثمنا من الكتاب إذا حرف عن مواضعه .. ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر .... »

وتوالت الصور فى كلامه مثلا وراء أمثال ، وشبها تلو أشباه .

هم الآن منهم فى محنة تفضله ، وبلاء يعييه . وهم منه فى تقريع ولوم ، اليوم بعد اليوم ، فلا قومهم التقريع ولا طوعهم اللوم . . فكم بصر وبين ، وأفصح وأوضح فإذا هم لا يعون . وإذا الشاذ هو دينهم ، والمعاج سبيلهم ، والمشاقة هى الجادة التى استقاموا عليها لو كانت استقامة على ضلال !

ما من ساعة فى عهده إلا طالعتهم بهداه ، وكاشفتهم من خبيء علمه بما يصلح حالهم ، ويزيد صحته منطق الحوادث لعلهم أن يرجعوا عن غيهم ويثوبوا إلى الصراط لو بقيت فيهم حاسة تميز الباطل من الحق ووعى يفرق الظلمة من النور .. وما أكثر ما ضاق منهم بالصلف والادعاء وتحجر القلوب وجمود الأفهام ! . . ما أكثر ما غضب فعذل ، وسخط فلام ، حتى لقد فاض فيهم حديثه بما لم تسر قبله بمثله أقوال أو تخط أقلام ! . .

مرة قال :

« .. . ولقد أحسنت جواركم ، وأحطت بجهدى من ورائكم ، وأعتقتكم من ربق الذل وحلق الضيم ، شكرا منى للبر القليل ، وإطراقا عما أدركه البصر وشهده البدن من المنكر الكثير .. . »

فهو يغفر جحود الكثرة ، ويغضى عما يصيبه من أذاها أو تقارف من السوء إكراما لحسنى القليلين . أو يصبر على شر غامر قناعة بخير يسير امتثالا — بلا تشبيه — للكلام الإلهى الذى قد يجزى السيئة بمثلها ولكنه يجزى الحسنة بعشرة أمثال ليوسع فى العفو ، ويخفف عن المسيئين . .

ومرة قال :

« .. . أحمد الله على ابتلائى بكم ، أيتها الفرقة التى إذا أمرت لم تطع ، وإذا دعوت لم تجب . . . إن أمهلتكم خضتم ، وإن حوربتم خرتم .. أما دين يجمعكم ! .. إنه لا يخرج إليكم من أمرى رضا فترضونه ، ولا سخط فتجتمعون عليه .. قد دارستكم الكتاب ، وفاتحتكم الحجاج ، وعرفتكم ما أنكرتم لو كان الأعمى يلحظ ، أو النائم يستيقظ ! . »

يناقش ولا يملى أو يأمر . ويقرع ليذكر ، ويثير ليؤثر ولئن لاح فى ثنايا هذه الأسطر كمن ضاق حتى دنا من اليأس ، فقد أورد فيها من الأسف ما يبديه كمن لم يهجر الرجاء ، لأن أسفك على ما يبدر من خطأ غيرك تعبير عن أملك فى رجوعه عنه ! .. ولئن كان ها هنا قد خاطب العقل خطاب من استنفد الحجج والأدلة ، فإنه قد خاطب العاطفة بأسلوب من يحرك الحمية والغيرة . .

ومرة قال :

« . . ما عزت دعوة من دعاكم ! . . ولا استراح قلب من قاساكم ! . أى دار بعد داركم تمنعون ، ومع أى إمام بعدى تقاتلون ! . . المغرور والله من غررتموه . . . »

فكأنما آده يأسه !

كأنما هم أن يرفع القلم ، ويطوى الصحيفة ، ويغسل يديه ! . .

واكتملت أمامنا ، من أحاديثه الصورة القديمة لزمرة المدينة أولئك ، من ضعاف القلوب والمنافقين ، فى مستهل عهدها بالإسلام . .

وكيف لا وهاهم أولاء قد تقمصوا جلود تلك الطائفة حتى ليشتبه الأمر بين الفئتين على المرء لولا فارق الزمن والمسافة ! . إنهم كأولئك سواء بسواء . . يتلونون ألوانا . يفتنون افتتانا . يمشون الخفاء . يدبون الضراء . .

أمامه تراهم بوجه ، ووراءه تراهم بآخر . . قولهم زيف . وعدلهم حيف . ووعدهم خلف . وولاؤهم رياء . . قلوبهم فى كلامهم جميع . وأهواؤهم فى فعالهم شتى . . لا يكادون يبرحون مجلسه حتى ينفرط عقدهم ، وينتكث عهدهم ، وتنفض كثرتهم — عنتا ومشاقة — عن رأيه الذى تابعته عليه منذ قليل ، كأنما يحرصون أن ينطبق عليهم قول الله :

« ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم . . »

بل ليمعنون أحيانا فى اللجاج والحجاج هربا من الحق الذى عشت قلوبهم عن ضيائه ، ولياذا بالباطل الذى استمرأوا العيش فى سراديبه كدأب الخفافيش فى فرارها من النور :

« يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . . »

ثم يريثونه عن الجهاد ، ويعطلون به ، كلما دعاهم بدعوته فيقعدون عنه — تخاذلا أو خوفا — ويحملون معهم من وراءهم على القبوط ابتغاء السلامة ، وحرصا على الدعة والعروض حتى ليحق فيهم ما أورد التنزيل :

« ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير . . » .

وكم من نماذج لهذا السلوك الذى التزموه مضت فى العصيان حتى قاربت المعصية ، واستدبرت الامتثال حتى أوشكت أن تباعد الإيمان ! . .

٢

ألوان من السلوك شتى ، اتفقت جوهرا واختلفت مظهرا ، لو أن أصلا ردت إليه فكان منبعا نبعت منه ، لكاد مصدرها ألا يكون سوى تطلعهم الشره إلى ما لم ييسره لهم الله من حظوظ ذاتية ، يعجلون قلوبهم وأنفسهم إلى طلبها طمعا وشهوة ، ابتغاء مغنم فى مادة ، أو شهرة فى جاه ، كأنما أبوا أن يرتضوا قسمة ربهم وتقديره فسعوا لاقتناص ما هفوا إليه ، بغير حقه ، وفى غير أوانه ...

ذاك سبيلهم وإنه لسبيل الجهال الضلال ، والغواية التى تلح دائما على أبناء البشرية فتلتوي بهم عن الجادة المستقيمة ، إلا من عصم الله ، ووقاه الفتنة ...

سبيل حبيب مرىء ، فى حساب النفس ، يستقبله ويهطع إليه زيغ الأهواء . خبيث وبىء — فى حساب الروح — يستدبره ويترفع عنه كرم الأخلاق ...

فأى الحداة حدا لهم ، وقاد قافلتهم ، وانطلق بهم فى مهامه الخلاف والشقاق والتناحر ، يضطرب بحطامهم ، ويتذاءب بها بين خوفهم على اليوم ، وقلقهم من الغد ، حتى أوغل بهم فى أعماق التيه ؟ ...

لا عن الخطأ البرىء الذى ينشأ — مع طهارة النيات — عن اجتهاد الرأى عند وزن الأمور بميزان التقدير ... ولا عن الجهل نتيجة لانطماس الحقائق والافتقار إلى الهداية والتبصير ... فما خلت سيرة الإمام فيهم ، تلك الآونة الحرجة فى حياة الإسلام ، من حجة دامغة تقدر فتحسن ، ومن عظة بالغة ترشد وتبين لو خلصت طوايا ، وصحت عزائم ، ووعت عقول ا ....

فإذا لم يكن الحسد هو مثير الأطماع ، والانحراف هو المطية الذلول إلى بلوغها فلا مطايا إذن ولا مثير ا ... ولا عجبا من بعد لو تبدى لنا الأيام ، فى وضاياه ، حربا على كليهما شعواء ، لأنهما منقصة للخلق الفاضل — الذى يستقيم به السلوك فتصلح العلاقات الإنسانية بين الأفراد وتعز المجتمعات — قبل أن يكون منقصة الدين ، أى دين ، وللإسلام — بخاصة — وقد بعث نبيه العظيم ليتمم مكارم الأخلاق ...

فى هذا المجال يقول الإمام :

« ... إن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة فى أهل أو مال أو نفس ، فلا تكون له فتنة »

تلك فتنة الحسد الذى تثور فى النفس ضواريه المنهومة وتدفع بصاحبها إلى التحلل من القيم والمبادىء إذا ما استقل حظه من الدنيا وهو يرى غفيرة تزيد فى حظ سواه من الناس فى الولد أو الرزق أو العمر وغيرها من فضول الحياة ...

ثم أوضح فقال :

« ... وإن المال والبنين حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد يجمعهما الله لأقوام ... فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه . واعملوا فى غير رياء ولا سمعة ، فإنه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له »

ولم يكن فى قوله بالسابق . ولكنه كان المترجم الأمين لما ورد عن هذه الفتنة فى الآثار .

فلقد نهى الله خلقه عن الحسد ، وأعاذهم من خطره وشره :

« قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد . ومن شر حاسد إذا حسد . »

وحذرهم سبحانه ما يجرهم إليه من ضياع :

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب . »

وأثر فى كتب الأولين أنه عز وجل قال :

« الحاسد عدو نعمتى ، متسخط لفعلى ، غير راض بقسمى .. »

وروى عن رسول الله :

« ألا لا تعادوا نعم الله . »

قيل :

« يا رسول الله ، ومن يعادى نعم الله ؟ ... »

قال :

« الذين يحسدون الناس . »

وليست هذه دعوة للتواكل ، تميت الطموح ، وتقتل الهمة ، وتحبس المرء فى واقع ضيق فلا يحاول — بالتزامها — أن يخرج من هـذا الواقع إلى ما هو أرحب وأجدى عليه . بل هى دعوة إلى الطهر والتعفف ، تعصم النفس البشرية من الحسد الذى يطلق الشهوة جامحة بلا عنان ، تعربد كما تشاء ...

فالطموح — كدلالة لفظه — نزوع إلى الأعلى الأرفع . فهو سمو وتحليق . وهو ، لهذا ، أدعى أن يبلغ به المرء شـأو غرض نبيل ، بحقه ، وفى أوانه ، من طريق نظيف ، بلا انحراف ولا اعتساف ، ودون ترخص منحاز فى اختيار الأساليب والوسائل ، لأنه ينشر جناحيه على أرض « عامة » قبل أن يرتادها حب الذات ...

والحسد شهوة نهمة . فهو تدل ونزول . وهو أدعى ، لهذا ، أن يشد صاحبه إلى قاع القاع ، لأنه شعور مسعور ، بجنون العطش والجوع ، يتخبط المرء مسه فلا يحس إلا بذاته ، ولا يعمل إلا لها ، حتى لا تكاد عينه تقع على شىء إلا جرعه أو التهمه ، ليرضى شراهته ، غير كاف عن غث أو ثمين ، قليل أو كثير ، له أو لغيره ، وبلا تحرج عن ركوب أخس الأساليب واصطناع أدنأ الوسائل بلوغا إلى مشتهاه ما دام قصاراه ملء ذلك الفراغ الرهيب الذى يعيش فى جوفه وفكره ولا يعرف الارتواء أو الامتلاء ...

داء عياء ولا كالأدواء ... يمزق صدر صاحبه ، ويفترس إنسانيته ، ثم لا يكون نقمة عليه وحده بل رزءا — بآثاره — من حوله ومن فى وثاقه من الناس ، لأنه يضربه هو بالبلاء ، وهو يضربهم بالابتلاء ! ... وقد جاء عن عقبى الحاسد وسوء مآله فى حديث مرفوع :

« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »

وأجمل الإمام ضراوة المحنة التي يوقع الحاسد فيها نفسه في صورة بيانية ، تجمع إلى وضوح المعالم لذع السخرية ، فقال :

« لله در الحسد ، ما أعدله ! بدأ بصاحبه فقتله ... »

ولا شفاء من بعد لهذا الداء إلا من داخل المرء ، لأن ذاته التي أفرزت العلة هي هي التي تفرز الدواء ... وهل ينشأ الحسد في نفس إنسان إلا من تطلعه النهم إلى حظ لم يقسمه له الله ؟ ... وهل يمارس دوره في الحياة إلا بتعجيل تحقيق الرغبات الخاصة تعجلا يدفع إلى النزو الآثم على حظوظ الناس ؟ .. فإذا لم يكن كبح النفس عن هذه الشهوة الشرهة ، ورياضتها على التعفف عما في يد غيرها هو العلاج ، فبأى وسيلة أخرى ينحسر الداء ؟ ...

الصبر وحده هو الوقاء ، وهو الدواء ... وهو أشبه شيء بسلوك المؤمن ، وأخلق بالاتباع فقد ورد عنه على لسان رسول الله :

« الصبر نصف الإيمان . »

واستفسروه الإيمان ما يكون ، فقال :

« الصـــبر والسماحة . »

وسئل الإمام :

« أى شيء أقرب إلى الكفر ؟ . »

فأجاب :

« ذو فاقة لا صبر له . . »

ولا مراء . .

فالحاجة تدفع وتحفز وتثير .. وقد تطيح بالصواب ، فهى إذن محنة واختبار ، والمحن محك الإيمان .

وكأنما شاء أن يبين للناس الصبر كيف يكون ثقة في الله ، وإسلاما له ، فقسمه ثلاثة أقسام :

« إما صبر على المصيبة ، أو على الطاعة ، أو عن المعصية . . »

وفى هذا تحصين للنفس — لا معدى عنه — من عادية اليأس والجزع ، وغواية الانتقاض والتمرد ، وإغراء الفسوق والكفران . . وهو رياضة لها تهيؤها — عند الغضب — لاستقبال ما تكره بالأناة التي تعمق النظر ، وتأخذ بالتثبت ، فتحسن التقدير وتجيد التدبير . . وهو إلى غير هذه وتلك من مزاياه ، قمع للشهوة ، وكبح للهوى ، ووقاية من الضلال ، وضمان لالتزام استواء السلوك . .

غير أنه المركب الخشن الذي لا يكاد يقدر عليه غير أولى الفهم الذين أشربوا الدين ، ولم يتخطفوه عبارات . . والدواء المر الذي يعافه — جهلا أو ظلما — كل من هفت نفسه ، كمثل هؤلاء ، إلى عرض دنياه ، وغلبه على الحق هواه .

فلو أنهم عقلوا ، لأكرهوا نفوسهم على حسوة منه ، تحقق البرء ، وتذهب بالداء . . ولاختاروا سلامة الروح . . ولآثروا طريق الإباء والترفع والعفة — وإن شق وطال — لأنه السبيل إلى الانتصار على النفس ، وتحطيم النقائص وسيادة المثل الرفيعة ومكارم الأخلاق ، خروجا بالسلوك البشرى من سجن الأنانية والنفع الخاص إلى رحابة إنكار الذات ، والنفع العام . وبلوغا إلى بناء مجتمع إنسانى فاضل يظله الصفاء ، ويسوده السلام . . وهل هو خاف أن الحسد مثير للبغضاء ، مؤجج للعداوات ، مؤد إلى التناحر لأنه ينبع من الحقد ، ويعمل للأنانية ، ويدفع إلى السطو على ما في يد المحسود وابتزازه ثم إلى تأمين ثمرة هذا الابتزاز بكل موبقة يعرفها الجشع ، أو يبتكرها ، من رياء ونفاق ، وافتراء وكذب ، ووقيعة ودس ، وقهر وإرهاب . .

على هذه الصورة كانت الحال ، تلك الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية تحت جهر الأحاديث والكتب التي أعلنها الإمام . في الشام كما في العراق . . في الأعداء كما في الرفاق . في القلب كما في الأطراف بغير كثير من التباين والاختلاف . . تحاسد على الحظوظ . وتهافت على الدنيا ، وتسابق على الاقتناص أو الابتزاز ، جريا وراء النفوذ ، أو المظهر ، أو الثراء . وكلها كفيل بأن

يشحن النفوس بالبغض ، ويدفع القوم فيما بينهم للتناحر ، لأنه قد تملك العقول والمشاعر ، وتحكم في الأفكار والأفعال .

ولا مدعاة هنا لوجوب القول بخرق هذا التعميم أو شدخه بالاستثناء أو الاستدراك لأن هذا بديهي معلوم . فالاستثناء قرين كل قاعدة ، والاستدراك رفيق كل اطراد ، لأن الظاهرة من الظواهر الاجتماعية : سقيمة أو سليمة . لا تسيطر على عموم وإطلاق .. بل هي تسم المجتمع وتطبعه بطابعها ثم لا تكون فاشية في كافة طبقاته وأفراده على سواء . . فهي تسود هنا بقدر ، وهناك بقدر ، على تفاوت ، متراوحة الانتشار فيه — من جانب لجانب ، وجماعة لجماعة — بين كثافة ورقة ، شيوع وندرة ، مد وجزر ، بروز واختفاء . .

تلك طبيعة الأمور في كل أوان . وهي ها هنا على نفس النسق والنظام . . فإذا مضت النظرة تتخلل الوضع عندئذ فإن المجتمع الإسلامي لم يكن بعد متسق الصفحة ، ساكن الوجه ، كسهل منبسط أو كبركة آسنة ، تتشابه في كليهما المعالم أو تكاد حتى المستوى فيبدو كأنه بلا فوارق ملحوظة تؤثر في رتابته ، وتميز مكانا به على مكان . . إنما كان أشبه شيء بأرض تغايرت سطوحها ، وتباينت مستوياتها بين لين وحزونة ، هبوط وارتفاع فإذا هي أنواع . فيها الهضاب والوهاد . وفيها الجبال والوديان . وفيها الكثبان والقيعان . فلقد كان مجتمع تلك الأيام يتألف من كتل عدة من الجماعات البشرية ، عليها رياسات شتى مؤتلفة ومختلفة ، كانت — على ما بها كلها من تقارب نسبي في مظهرها الاجمالي الذي طبعها به الدين والتوحد السياسي — يبرز بعضها على السطح الشعبي العام ، بفعل الأصل والتراث والظروف الاجتماعية ونزعات النفس ومذاهب الآراء ، كما تبرز الصخور والجنادل على سطح النهر ، فتؤثر في تدفقه ، وتضطرب بسيره ، وتحول مجراه . .

كتل عدة ذات رياسات مختلفة الطبائع ، متباينـــة التكوين ، متغايرة الاتجاهات كانت هي التي تلعب الدور الأول — على تفاوت وسائلها — في تطوير الأحداث . فهي وحدها التي تملك القدرة على الإعداد والتوجيه ، وعلى الحشد والتجمع . وهي وحدها التي تستطيع أن تتحكم في العمل القومي ، وتفرض

أسلوبه . وهي بهذا وذاك كانت بيدها أعنة الموقف ، تحرك الرأي ، وتسوق الأحداث ، منطلقة بالشعب في حيثما ارتضت له أن يسير إلى حيثما اشتهت أن يكون المصير . ولا غرو ! . . فما يمكن أن يقال ، إلا بحذر شديد ، إن التقليد العربي الذي يجعل مشاورة الرئيس للقبيلة وسيلة لحسم الأمور ، كان دائما — عند اختلاف الآراء — يفرض سلطانه ليحقق الحكمة منه ، فيرجح رأي الكثرة — أو الجمع كله ! — إذا كان الرئيس في الجانب المرجوح . ذاك ما تكاد طبيعة الحياة القبلية تأباه ، لأن أبناءها الذين نشئوا على توقير الكبير والولاء له ، يؤثرون — في الأغلب — لرأيه أن يطاع ، عن اقتناع أو عن اتباع ! . . . وما يمكن أيضا أن يقال ، إلا بحذر أشد ، إنه كان ثمة إذ ذاك « شعب » بمفهوم هذه الكلمة الحديث ، له رأي يعلن ، وإرادة تريد . بل تلكم الكتل ، برياساتها ، كان لها الأمر في الأمة ، تعزم وتبرم ، وتعلن فتسمع ، وتسوق وتقود وجمهور الناس من ورائها إما تابع أو قابع ، ينقادون أو يشاهدون ، فيجرفهم التيار ، أو يصيبهم رشاشه . .

ولقد كانت كثرة هذه الكتل المسيطرة قبلية ، بطبيعة الحال ، تجمع بين أفراد الواحدة منها صلة الدم أو رباط الاستلحاق . وكانت بقيتها ، بصفة عامة ، بضعا منها مقتطعة ، قد انفصلت عن أصولها ، نتيجة للتطور ، فرادى وشراذم ، واستقلت باعتناق رأي خرج بها عن حظيرة إجماع الآل من هذه القبيلة وتلك ، فإذا هي كتلة جديدة ، سياسية كالعثمانية ، أو مذهبية كالخوارج ، تضم أشتاتا من القبائل ، وتعمل لهدف خاص في نطاق مبدأ جديد ، لا في نطاق ولائها القبلي القديم . . .

في هذا الإطار ، وبنفس المجهر الذي تعدنا به أقوال علي في معاصريه ، تنجلي أمام الأعين تلك القوى المسيطرة على حركة تاريخ الدولة الإسلامية في ذلك الحين والمالكة لزمام موكب التطور ، فإذا هي في حقيقة الأمر قلة من الناس مكنت لهم أوضاع المجتمع في النفوذ ، ووضعتهم الظروف في مقدمة الصفوف . . قلة استبدت بالأمر دون الشعب ، وباسم الشعب ، وعلى كره من إرادة السلطة الشرعية ، ومباينة لاتجاهها وسياستها ، ثم على خلاف الناموس الإلهي الذي نزله الله للعالمين دستور هداية وخطة سلوك . . فإذا حسب حاسب أن

أمير المؤمنين — حين أنحى بلائمته على أعوانه ، وجرم فعالهم ، فيما سلف من أحاديثه — إنما كان يعنيهم « كافة » دون أن يدع منهم جماعة لم يلبسها التهمة ولم يلزمها الإثم ، فذاك حساب خاطئ ، وتأويل ضال ، لا جدال . لأنه يخالف طبائع الناس ويجاوز حدود المنطق . . فأنت تتكلم فتعمم وأنت تريد التخصيص . وتجمع وأنت تريد التحديد ثم لا يحمل قولك على ظاهر وجهه الذى ترسمه الألفاظ . وهو أسلوب فى اللغة معروف ، يعبر بالكل عن الجزء ، كأن تقول : أشارت يده وتعنى بنانه . وجاءت الأمة طائفة والمراد عدد من أبنائها ، كثير أو قليل ، على سبيل التصوير والتمثيل . .

قلة إذن ، بالقياس إلى المجموع ، كانت هذه الكتل التى دمغ الإمام سيرتها الناضحة باللوم والزراية إذ هى جنادل المرقلة وصخور التعويق التى تعترض التقدم الشعبى العام ، وتميل عمدا بتياره الدافق إلى الركود أو إلى الانحراف . . فهى عوامل تخلف فى طريق الانطلاق . وصنائع ردة فى طريق الأخلاق . وشراك خداع وتغرير ، وأوكار تمرد وانتقاض فى نظر الدعوة الصحيحة وفى حساب الولاء المشروع . يتساوى منها فى هذا من سكن الشام أو أقام بالعراق لأنهم آثروا لأنفسهم أن يعيشوا بها ، ويعملوا لنفعها ، بوحيها وهواها ، حائلين بين جمهور الشعب وبين وقائع الحال وحقائق الأمور بما التزموه من سياسة الرياء . . فهؤلاء هنا — ممثلين فى فرقة الخوارج ، وفى جمهرة الحزب العلوى — يموهون أولاها تظهر التقى والغيرة على حكم الله ، وأخراهما تظهر الطاعة والولاء للإمام ، دون أن تقرنا المظهر بالعمل المخلص الجاد وأولئك هناك — ممثلين فى الحزب الأموى — يموهون . يظهرون غضبهم للدم الحرام ، ويدعون الانتصاف للقتيل المظلوم إقرارا لشريعة الله ، فإذا دعوتهم ادعاء مضلل ، وغضبهم حيلة محتال ! . .

أولاء وأولئك فئتان زائغتان ، لم ترم كلتاهما ما تبدتا عليه أو دعتا إليه ، وإنما ابتغتا به السمعة وحسن الأحدوثة بين ظهرانى الأمة سبيلا إلى ما تشتهيان وتتطلع إليه الأطماع . . فلا فى قول تصدران عن رعاية للزواجر الخلقية والدينية التى تروع الأهواء ، وتهذب الاشتهاء . ولا فى عمل تصدران عن رغبة نقية فى مرضاة الله . بل القول والفعل جميعا رثاء الناس حتى ليعجب المرء كيف

يرتضون لأنفسهم مثل هذا السلوك ثم يسوغونه للشعب ، ويجيزونه عليه بما لهم من نفوذ ، وإنهم كافة لأول أجيال الإسلام ، وأقرب أبنائه عهدا برسول الله ، منهم كثيرون عاصروه ، وكثيرون عرفوه ، وكثيرون خالطوه وسمعوا منه ، أو سمعوا عنه ، ما كان أدعى لأن يعصمهم من الرياء . .

فلقد قال :

« إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . . »

قالوا :

« وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ . . »

قال :

« الرياء ! . يقول الله تعالى إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فاطلبوا جزاءكم منهم ! . »

بار سلعة لصاحبه ، وساء سيرة عند الناس ، وكبر مقتا عند الله مسلك المرائين ! . . فالعمل ذو الرياء ما هو بعمل على الحقيقة — لا فى حساب النية ، ولا بمقتضى النتيجة — لأنهم لم يضمروا ما أعلنوه ، ولم يصلوا به إلى ما ادعوا ابتغاءه والسعى إليه فلا مثوبة إذن عليه . . وهو خداع يتغفل الناس ، ويغرر بهم مستغلا ثقتهم ، منزلقا بخطاهم على التضليل إلى الضلال . . وهو تظاهر بنشدان حق أو بتغيير باطل يخفى المراءون قصدهم وراءه عبثا بالحقيقة وبالعقول كأنما سرهم ، أبدا ، مصون مكنون ، وكأنما ليس عليهم حسيب رقيب . . أفنسوا الله ؟ . . أم حسبوا أنهم يسترون عنه ما يضمرون ؟ . . أم غرتهم الأمانى فاستهانوا بعلمه هو الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ويعلم خافية الأنفس وما تكن الصدور ؟ . .

قيل :

« إذا راءى العبد ، قال الله سبحانه وتعالى للملائكة : انظروا إلى عبدى يستهزئ بى ! . . »

فلا إلى غير الله ينبغى اتجاه النيات . ولا لغير ابتغاء مرضاته تقال الأقوال وتؤدى الأعمال . ولا بغير وجهه يتعلق الأمل ويعقد الرجاء . .

فى مثل هذا يقول الإمام :

« لا يرجونّ أحدكم إلا ربه .. . . »

وإذا كان الرياء كريها منهيا عنه فى الدنيويات ، فإنه فى العبادات أدعى لأن يكون أشد عند الله مقتا ، وأزرى عند الناس بصاحب العبادة ، مهما أحسن وقدم من خير ، حتى إنه ليذهب فى الآخرة بإحسانه ، ويتهمه فى العاجلة فى دينه . .

فعلى ما اشتهر لابن الزبير من ورع ، طالما رأى الناس منه ألوانا ومعالم تفوق تقوى التقاة ، ونسك العباد . لم يعفه ما ظهر من عبادته من خوضهم فيه بما يشين سيرته ، ويلوث صفحته ، حتى لقد اتهموه بأنه إنما أراد بتقواه صولجان السلطان لم يرد وجه الله . .

فقد ذكر أنه ذهب — وهو إذ ذاك يناهض بنى أمية وينازعهم الحكم — إلى امرأة عبد الله بن عمر لتكلم زوجها فى أن يبايعه . . فما أن فعلت ، وأفاضت فى ذكر صلاته وصيامه وقيامه ، كأنما لترفع عند صاحبها قدره ، وترجح كفته على من عداه ، حتى بادرها ابن عمر بسؤال :

« أما رأيت البغلات الشهب التى كنا نراها تحت معاوية بالحجر إذا قدم مكة ؟ . . »

قالت تجيب :

« بلى »

فقال :

« فإياها يطلب ابن الزبير بصومه وصلاته ! . . »

وكيفما كانت هذه الرواية فإنها تفصح لنا عن جزاء الرياء عند الناس ، فإذا هو امتهان وازدراء ، راءى ابن الزبير أم أخلص النية لله فى تقواه ، وأخطأ ابن عمر فى حكمه أم أصاب . . فالحكم دائما على ظاهر . . والنية سر لا يعلمه

إلا الله . . والحد بين الظهور والتظاهر ، وبين الصدق والادعاء كمثل خيط رفيع ، كأنه غزل عنكبوت ، لا يكاد يدع سبيلا إلى تمييز هذا عن ذاك إلا أن يلهم المرء صواب التقدير . . ومع ذلك فالظهور فى العبادة قد يشين صاحبه ، لأنه يستجلب السمعة ، وطلب الشهرة ممقوت من أى سبيل . .

فمن حديث لرسول الله :

« بحسب المرء من الشر — إلا من عصمه الله من السوء — أن يشير إليه الناس بالأصابع فى دينه أو دنياه . . »

ونسب للسيد المسيح أنه قال :

« إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، وليمسح شفتيه ، لئلا يعلم الناس أنه صائم . وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله ، وإذا صلى فليرخ ستر بابه . . . » .

ومن كلام لعلى :

« تبذل لا تشتهر . ولا ترفع شخصك لتذكر بعلم . . . »

وقد سئل النبى الكريم :

— يا رسول الله ، فيم النجاة ؟ . . »

قال :

« ألا تعمل بطاعة الله وتريد بها الناس » .

وقال :

« يؤتى فى يوم القيامة بالرجل قد عمل أعمال الخير كالجبال — أو قال : كجبال تهامة — وله خطيئة واحدة فيقال : إنما عملتها ليقال عنك . فقد قيل : وذاك ثوابك . وهذه خطيئتك ، أدخلوه بها إلى جهنم . »

فكم منهم من لعله سيجتنب هذا المآل ؟

٣

كيفما كان ما غير القوم عليه ، لم تكن له هو يد في التغيير . فما بدل مسلكه ، ولا عدل عن رأيه ، ولا جاءهم بعد إمرته بما لم يعاقدهم عليه يوم اختاروه .

بل هم الذين بدلوا ونكلوا ، مللا أو شهوة ، من بعد أن ألقوا إليه بالزمام ، وحملوه تبعة الحكم ، وإنها عند ذاك ثقيلة كالجبال .. يومها لم يكن يرمى إلى الخلافة بطرف عينه ! .. لم يدعهم لنفسه . لم يطلب اجتماعهم عليه . لكنهم طاروا إليه حيارى، مضيعين ، يلتمسون فيه الخلاص .. طوعا وجزعا اقتحموا عليه عزلته ، غب مصرع عثمان ، ليكون الأمة ردءا من تلك الأحداث التي علت كالطوفان تجتاح البلاد والعباد ..

ولم يصغوا له . أنكروا عليه أن يأبى الإمرة . ألحفوا عليه في القبول . ناشدوه الله في وحدة الأمة وسلطان الدين أن تتمزق ويضيع .. ثم عنفوا به عند الإصرار . ثم أكرهوه بالسيوف . ثم تنفسوا الرضا والطمأنينة إذ أطاعهم ، فعاهدوه النصرة ليجتاز بهم المحنة الحازبة إلى محق الباطل ، وإحقاق الحق ، وإعلاء كلمة الله ..

فما بالهم الآن ؟ . ما الذي غيرهم ؟ .. كيف خرجوا من وثاق كلمتهم له ، وعهدهم الذي أبرموه ؟ . أقد استطالوا طريق الكفاح وأعياهم السير عليه ؟ أم نفد الصبر ؟ .. أم راودتهم الأنفس على النكوص ؟ ..

كلما دعا صموا . وكلما أومأ عموا . وكلما جمع شتوا . كأنما بعد أن عاقدوه على الآخرة حنوا إلى الدنيا فآثروها ، وصبوا إليها صبوة الطفل إلى ثدي أمه من بعد فطام ! ..

لم تكن له يد في التغيير وإن طالما اعتذر لهم عن سلوكهم إزاءه كل من شاءوا انحيازا إليهم ، على حسابه ، بتبرير الوقائع ، واعتساف الأسباب ، عن غرة وجهل ، أو على وجه الأدعاء والالتواء ..

ولقد قيل الكثير فى مجال التبرير ..

قيل :

أغفل على اختلاف الظروف والأوضاع بين ماضى الأمة وحاضرها لحكم الدولة المترامية الأطراف بنفس أسلوب الحكم فى « دويلة المدينة » التى كانها المجتمع الإسلامى عند نشأته ، غير مبال التطور الذى تناول بيد التغيير كل جوانب الحياة الاجتماعية : معنوية ومادية ، على مدى الرقعة الجديدة لشعبه الكبير . .

قيل :

نسى فى الناس طبيعتهم البشرية الكلفة بتمتع الدنيا وخيراتها ، الشغوف بالعبور على جسر السعى إلى تعديل نمط الحياة ببلوغ الأنفع الأحسن ، واحتياز الأوفر الأكثر وما يمثله هذا التعديل من رغد ورفاهة عن طريق إشباع غريزة التملك وحب الاقتناء ، فإذا هو يخالف هذه الطبيعة فيهم ، ويحاول — على خلاف سنة الحياة — أن يحبسهم فى واقعهم أو يردهم إلى الوراء ، حاملا إياهم على كل ما يشق عليهم ، ويؤود احتمالهم ، من تقشف وحرمان . .

قيل :

. هفت جمهرة أصحابه ، وإنهم لبشر — جزاء عادلا لجهدهم — إلى مثل حال أقرانهم بالشام الذين أوسع لهم معاوية فى العطاء والبذل : مالا وجاها . وسخا عليهم بكل أطايب الحياة وما يفوقونهم بفضل سابقة ولا بلاء ، مادام العمل هو الذى يحدد الجزاء .

قيل وقيل ، من التعلات والمعاذير — حسبما اشتهت ذرائع التدليل وحجج التبرير — كثير وكثير ..

فإلى أى مدى يلم ما قيل بجوانب الصدق من قريب أو بعيد ، فى الكثير أو فى القليل ؟ ..

وعلى أى نحو يطابق الحقيقة جوهرا — دع الهيئة — وفى الكليات — دع التفصيل — إذا ما وضع فى مجال النظرة الفاحصة ، ثم عورض بمعيار

الواقع السكانى فضلا عن معيار الدين ، ومعيار الخلق ، ومعيار الفطرة وأمثالها من ضوابط الأقيسة ودقائق المعايير ؟ . .

علل سقيمة عليلة . وذرائع مثلومة مفلولة ، كلها لاريب يتعلق بالجانب المعتم فى حياة الإنسان ، ويدور بفلكه ، كأنما المرء مادة خالصة ، من لحم ودم وعظام ، جبلت من طين الأرض فلا تقيته إلا المادة ، ولا ينميه غير الطين ، ولا موضع فى كتلة الصماء لقبس الضياء الذى نفثه روح الله ليشعل الفكر ، ويذكى القلب ، ويشحذ الضمير ، ويعادل فيه بهذه النفثة الربانية بين كثافة الظلمة وصفاء النور ! . .

إنما يقصر شأو كل هذه الأقاويل ، أصولا وظلالا ، أن يمس الإمام ، أو يلحق بتفكيره أو تدبيره كحاكم وكانسان ، لأنها جميعا فى نظرة الحق أباطيل . .

فلا عن إغفال ولا تغافل فعل الإمام ما فعل ، وساس الأمور والناس كما ساس ، وإن شاءت تهمة ظالمة أن ترميه وقد أغمض عينيه عن حركة التطور وما عليه أو تقتضيه . كأنما التطور ، فى حساب متهميه ، تحلل . وكأنما مسيرة التغيير تدعو ، لا محالة ، إلى الخروج على ما شرعه الدين من الأسس والقواعد ، ووضعه للحياة من الضوابط والمعايير ! . .

ولا عن نفع خاص ، أو رغبة فى التضييق على المسلمين ، حاجز بينهم وبين غريزة الاقتناء أن تمضى على سجيتها ، وحال دون الاكتناز أن يطغى فيهم ، فأعطى بمقدار ، أو حرم ومنع ، وقطع الطريق على الرفاهة والبذخ والثراء إلى الاستشراء . .

ولا عن جحود لبلاء أصحابه ، وإنكار لاقتدارهم ، أو عن شح وتقتير شد قبضته ، فأمسك عنهم ما أباح معاوية أضعافه رجالا مالأوه أو هادنوه لا ذكر لهم فى حساب فضيلة ، ولا خطر فى ساحة جلاد . .

فإن يكن قيل غفلة عن حركة التطور وعما لا بد أن تفرضه من تغيير ، فتلك غفلة قائل قوله مدحوض مردود بشهادة البداهة قبل شهادة الشهود . . فما كان

سلوك الإمام سلوك الغافل أو المتغافل ، بل سلوك المستيقن الواعي الذي تتبدى له خلف ستر التطور المموه بوادر التخلف والانهيار تهم أن تجتاح الأمة فلا يخدعه التمويه ولا يسترخي للتيار .. لكنه يبادر إلى مواجهة الموقف كما ينبغي أن ينهض فيه مناضل يعرف موقع قدميه ، ويرمي ببصره ، وحقيقة دورة فيثبت لعوامل الخلل والانحراف محاولا أن يكسر شرتها ، ويفل حدها ، ويقطع على جحافلها الغازية المادية طريقها ، درءا لخطرها ، وعودا بمجتمعه إلى القيم الفضلى التي أرساه عليها الإسلام وهل من يقول إن الخروج على قواعد الأخلاق ، وفصم الصلات الإنسانية الموثقة للإخاء والعدالة والمساواة — بالجنوح إلى الأنانية وتغليب الثروات الخاصة والمطامع الفردية على صالح الجماعة — تطور وارتقاء ؟. أم من يقول إن الدنيا تصلح بتدبير البشر — بكل ضعفهم وخطلهم واضطراب تقديرهم — مثلما تصلح بتدبير خالقهم الذي يحيط علمه بمشهود يومهم ، ومجهول غدهم ، وطاقة الطبائع ، وخبء السرائر ، ونزغ الصدور ، والخفايا المغيبات لهم في الدهر من الصروف والأمور ؟ . .

وإن يكن قيل شاء أن يحارب في رجاله طبيعتهم البشرية الكلفة بتوفير رغد العيش والاستزادة من طيبات الحياة . فحجر عليهم أن يبلغوا مشتهاهم . وضيق عن شح أو ابتغاء وجه التضييق . فتلك فرية شانئ خادع . أو نظرة غر مخدوع . لأن الإمام لم يرد أصحابه على شيء إلا بدأ أولا بنفسه . ولم يحملهم قط على ما يجاوز طاقتهم أو يؤودهم حمله من الشاق العسير من الأمور وإن حمل دائما نفسه على الأشق الأعسر ، تعففا وزهادة . .

قال في بعض أحاديثه :

« . . . إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها . ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها » :

وصدقت سيرته قوله . . .

وزار مرة صاحبه العلاء بن زياد الحارثي ، فقال له العلاء :

« يا أمير المؤمنين ، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد »

فسأله :

« وما له ؟ .. »

قال :

« لبس العباء ، وتخلى من الدنيا . »

فأمره :

« على به »

وجيء بعاصم وإنه لناسك عابد ، نبذ الدنيا ، واشتد في الزهد على نفسه . فإذا الإمام لا يحمد له سلوكه ، بل ينكره ، ويلومه عليه :

« يا أعدى نفسه ! . لقد استهام بك الخبيث . أما رحمت أهلك وولدك ! . أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها ؟ . . أنت أهون على الله من ذلك ! . . »

وكأنما عجب عصام لهذا اللوم على الزهد يسوقه إليه أزهد زاهد ، فقال في تعجب :

« يا أمير المؤمنين ، هذا أنت في خشونة ملبسك ، وجشوبة مأكلك ! . »

فكان الجواب الذى تلقاه :

« ويحك ! . . إنى لست كأنت . . إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره ! . . »

وليس هذا بقول من يرى التضييق على الناس وحملهم على التقشف ، ولكنه رأى من يحب أن يفسح لهم في الطيبات من الرزق ثم يعمل على أن يحد من الرغبات النهمة ، ليقمع الغلو في مطالب الجسد ، ويمنع استشراء الرفاهة أن يطغى على الروح . فإذا ارتأى أن يشد على بطونهم وأيديهم هونا ، ويأخذهم بزجر الشهوات ، فتلك خطة معلم مصلح ، تروض الطبائع ، وتهذب الغرائز ، وتطهر الأنفس توطينا لهم على الاحتمال والصبر ، وتوجيها إلى ما يردهم عن الجشع ويجنبهم البطنة النفسية ..

وهى طريق نظيفة مستقيمة إلى توثيق صلاتهم ، وتوطيد روابطهم ، ومنع وحدتهم أن تتصدع لأنها الوسيلة التى يقصر بها مسافة الخلف الاجتماعى بينهم من فرد لفرد ، ومن طبقة لطبقة ، بما تؤدى إليه من المقاربة السمحة اللينة بين ما فى أيديهم ، فلا يستطير بعضهم ، بما يملك ويقتنى ، على بعض . ولا تستفحل سطوة المال التى لا تؤمن بغير الأنانية والفردية ثم لا تثمر سوى التحاسد نتيجة لما تخلقه من تفاوت فادح فى الثروات مآله لا محالة وقوع البغضاء واشتمال المداوات . .

وإن يكن قد اختار لهم نهجا جعلهم فى مجال الأرزاق والأعطية خلف أصحاب معاوية ، وأقل حظا من المظهر والجاه ، فليس هذا لأنهم كانوا فى عينه ، وفى حساب الحقيقة ، دون غرمائهم أولئك درجات أو درجة فى السابقة أو فى البلاء . . بل لأنه كان يمثل أقوم شرعة إنسانية ، وأحقها بالاتباع فى ميدان السياسة وميدان الأخلاق على الإطلاق وهى شرعة المساواة . . فهو يسوى بين قومه كافة ، خاصة وعامة ، قريبين منه أو بعيدين عنه ، فيمنح بالحق ، ويمنع بالحق ، ويسوسهم أجمعين السياسة السليمة التى لا تزن الناس بميزان الأحساب والأنساب ، ولا تقيس أقدارهم بمقياس المداهنة والتزلف ، بل تضع العمل فى كفة ، والجزاء فى كفة ، وترتب الحقوق على الواجبات نوعا بنوع ، ومقدارا بمقدار ، بغير تحيز أو تحيف من زيادة أو انتقاص . . ولم تكن هذه سنة معاوية فيمن رعا من رعيته ، وإنما كان ميزانه هواه . يعطى من شاء كما شاء ، ويسخو على بطانته ومن يجتبيهم — من دون الناس — السخاء الذى يرفعه فى أعينهم جنوحا إلى الرياء ، وشراء للسمعة ، وهو عليم أنه بفعله يجافى العدالة ، ويهدر المساواة ، ويجور على حقوق من عداهم من الجمهور . .

وشتان هنا بين مطلب ومطلب ، وبين أسلوب وأسلوب فى نظرة الحق ، وفى حساب كبح الغرائز ، وتهذيب الأنفس ، وتقويم الأخلاق ، وتربية الأفراد والشعوب . فصاحب الشام ، وهو يعطى فيفيض ، كان يعول لنفسه بهذا العطاء والسخاء وإن بدا لأولئك المنتفعين — ولمن بهرتهم أريحيته الظاهرة من أصحاب على — فى هيئة العطوف الكريم . والإمام ، وهو يعطى فيقدر ، كان يعمل

للحق ، وللخلق ، وللأمة جمعاء وإن بدا المسلك المضيق فى ظن أولئك وهؤلاء . وهل من مراء ، ومعاوية إنما كان يبتغى الحكم ويسعى إليه من خلال مداهنة طائفة مستغلة من الزعماء ، مكن لها وضعها الاجتماعى فى السيطرة على من تحتها من أتباع . . وعلى إنما كان يرتجى وجه الله بحرصه على إعادة بناء المجتمع الإنسانى من جديد ، وفقا لناموس الحق ، وعلى أساس المساواة التى شرعها الإسلام سبيلا للحياة الكريمة بلا تمييز — فى جزاء العمل — يرفع الخاصة فوق العامة ، ويضع التابع تحت المتبوع ؟

كانت الإمرة لمعاوية غاية ، وكانت للإمام وسيلة . . فصارى صاحب الشام من سياسته ابتزاز الحكم إذ هو الغاية التى يستباح فى سبيلها كل مشروع وغير مشروع من الأسباب والوسائل ، وتهون دونها كافة الغايات والحرمات . . ومسلك الإمام تطويع الحكم وسيلة لغاية كريمة هى إقرار إنسانية الإنسان ، بقمع الانحراف ، وغرس الفضائل ، وسيادة العدل ، وتوزيع ناتج العمل وخير المجتمع — بالحق — على جميع من فيه . . ولا عجب وهو من شب فى حجر النبوة ونهل من مكارم خلق الرسول ، وتشرب دعوته بالفكر وبالقلب وبالروح حتى نفذ نورها إلى كيانه ، وشاع فيه إلى أبعد أغواره وأخفى خفاياه . . ولا عجب أيضاً وقد طالما تبين معاصروه ، من أقواله وأفعاله ، بيان يقين ، مدى زهده فى نشب الدنيا ، وعزوفه عن السلطان ، لولا تبعته أمام ربه ، وواجبه نحو شعبه .

اسمعه يقول ، فى أول حديث له إلى أمته وهو أمير ، تسمع قول متحرز هياب يقظ الحس ، مرهف الضمير ، يخشى الله ، ويرجو عونه على ابتلائه بمحنة السلطان :

« . . . ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أنى كنت كارها للولاية على أمة محمد ، حتى اجتمع رأيكم على ذلك ، لأنى سمعت رسول الله يقول : أيما وال ولى الأمر من بعدى ، أقيم على حد الصراط ، ونشرت الملائكة صحيفته ، فإن كان عادلا أنجاه الله بعدله ، وإن كان جائراً انتفض به الصراط حتى تتزايل مفاصله ، ثم يهوى إلى النار فيكون أول ما يتقيها به أنفه وحر وجهه — ولكنى لما اجتمع رأيكم لم يسعنى ترككم . . . . »

واسمعه أيضا بعد ذلك وهو خاشع يناجى الله ، تسمع قول معتذر أسيف على قبول السلطة ، وولاية أمور الناس :

« . . . . اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذى كان منا منافسة فى سلطان ، ولا التماس شىء من فضول الحطام . ولكن لنرد المعالم من دينك ، ونظهر الإصلاح فى بلادك ، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك . »

تهم زائفة مفتراة ، ونقد متهافت مردود ، تؤثم الناقد ولا تؤثم المنقود ! . .

فلقد شاء شانئو الإمام ومعارضوه ، فى حين عصره ، وفيما تلاه حق اليوم من عصور ، أن يلصقوا به إغفال حتمية التطور ، والعجز عن إدراك مقتضياته . فإذا هم ، بزعمهم هذا الذى زيفوه ، لا يتهمون إلا أنفسهم ، ولا يسمون غيرها بقصور الفهم ، وكلال النظرة ، وسوء التقدير لحقائق الأوضاع والأمور .

ودعهم وما يدعون ! . . فليس بالجسد وحده يحيا الإنسان . وليس بالتعيش يعيش . . أم يؤثرون — ولا نقول يخالون ! — أن تكون الحياة البشرية — حركة آليـة تائهة ، تمضى بأهلها من فراغ روحى إلى فراغ ؟ . . أم يرون الإنسان — رأى يقين — كتلة صماء خالصة ، من دم ولحم وعظام ؟ . . أم يحلو لهم أن يزنوا مطالبه فى هذه الدنيا بميزان المادة ، فلا تكون بهذا الميزان إلا حسية ، ولا يكون هو بها غير شهوة بطن منهوم ، ورغبة جنس شهوان ؟ . .

تلك دعواهم المفتراة ! .

٤

دلالات اختلافهم عليه لا تخفى وإن طالما أضمروها فى مظاهر الولاء . . تجثم فى مغاور الشعور . فى النظرة العابرة . فى نجوى اثنين . فى همس جماعة . فى حركة البنان وإيماء إلهام . . ففى الرغبة المكبوتة دليل . وفى التطلع الشره دليل وفى النقد المزخرف دليل . وفى التملق المائع دليل . وفى السلوك المتجانف دليل . ومن خلال هذا كله يتفجر اللوم فينحرف به كثيرون — عفوا أو عسفا — ليجرف الإمام ، ولا يصيب بتياره أولئك الحقيقين بأن يغمرهم فيضة من الأقدام حتى الرءوس ، لو أنه ترك لينطلق فى مجراه المنطقى السليم . . .

ولا غرو ، فتلك طبيعة الافتراء ولا تثريب على امرىء أن يجتهد الرأى فيضل الطريق ، أو يقدر فيخطىء التقدير . ولكن التثريب أن يعلم ويستيقن ثم ينأى عن الحق ليأخذ على جانب الخطأ ويمعن فى عماية السبيل . ثم يدعو بدعواه . ثم يستدرج غيره إلى الباطل . . ثم يتهم من أصاب .

هذه خطة فى الدعوة وفى العمل يقوم أساسها على التمويه . ولكنها سهلة ميسرة لكل ذى مأرب لا ترده النفس أن يدخل إليه من أى باب ، ويحصل عليه بأى أسلوب . فما الادعاء إلا تقحم . وما التقحم إلا اعتداء ينقض الحقيقة أو يقطعها أشلاء . فلا حرائج دون وصولى ، ولا حوائل دون ظلامى . .

ولقد فشت فاشية الادعاء على الإمام عند ذاك فيمن حسبوا عليه أو حسبوا له من الأعداء أو من الأولياء سواء بسواء ، على تفاوت فى الحجم والكم ، وفى القيمة والنوع ، بقدر التباين بين الغايات . وما كان لها إلا أن تفشو فى ذلك الأوان وتفيض ، لأنها الظاهرة التى تعايش القلق النفسى الناجم عن تمزق المجتمع بسبب تأزم الأحداث الذى شارك فى تكوينه وظهوره تضارب الأفكار ، وتصارع الأهواء ، واختلاف الأهداف .

ومن الخطأ أن يتبادر إلى الذهن أن معاوية كان منبع التمزق الاجتماعى

الذى أصيبت به ، فى هذه الآونة ، أمة الإسلام ، لأنه خطأ لا يفدح العاهل فحسب ، بل يحمل الحقيقة أيضاً فوق ما تطيق . لكنه كان رافدا دفاقا غذى المحنة وأمدها بأقوى مقومات النماء والحياة . أما نبتتها فليست بنت يومها ، ولا هى شامية خالصة ، أو عراقية محض ، تنتسب إلى ذلك الرجأ أو هذا دون سواهما من الأرجاء . . وأما أصلها فضارب فى أغوار ماضى هذه الدولة الجديدة إلى غير قريب . وأما نشأتها الأولى فمعزوة إلى عوامل عديدة مختلفات ، شاركت كلها فى تخليقها بذرة مخصبة . ثم فى غرسها بتربة الاستنبات . ثم فى تعهدها بالسقيا . ثم فى استوائها على ساقها دوحة ضخمة ، صلبة الجذع ، مشتبكة الفروع ، مورقة الأفنان .

عوامل شق — فى حساب الإحصاء — هذه التى أصابت المجتمع الإسلامى بعرض التمزق وهو فى أوج عزته ، وعارض واحد جميعها فى حساب التأثير . . إنها لتتباعد عهدا ، وتتنوع هيئة ، وتتغاير مواضع ، ولكنها إنما تختلف لتأتلف ، وتفترق لتتسق ، وتتناثر لتجتمع ، وتتعدد لتتوحد . فإذا بها قد تمثلت كتلة متماسكة فى آفة « النظرة الدنيوية » التى ملأت الأعين ، واخترقت القلوب ، وغزت الأذهان . ولا عجب أن يقع للأمة مثل هذا التبدل السريع . فخلائق الناس أدنى إلى حملهم على التعجيل بهذا التبديل ، لأن طبيعة الانسان أميل إلى الأخذ بالمحسوسات منها إلى الروحانيات . ولأن كيانه البشرى ليس به غير روح شفاف يحاول وحده ، كالمستيئس ، أن يتعادل فى ميزان النزعات ، مع نفسه الكثيفة ، وبدنه الصفيق الذى يضم عدة حواس !

النظرة الدنيوية هى التى سيطرت على الناس ، وصبغت بصبغتها الصارخة الرغبات والغايات . . فلقد جاءتهم الدنيا فى موكب ثرى يبهر العقول . وراودتهم على البذخ والرفاهة . وفاضت لهم بكل ما تهفو إليه الأمانى وتصبو الأحلام حتى ليوشك المرء منهم أن يبلغ قصارى مشتهاه وهو مريح لا يكاد يمد يدا إليه لاقتطافه بجهد مذكور كأنما الخير غيث منهمر من سماء مدرار ، سحابها لا يقلع ، وماؤها لا يغيض ! . الفىء كثير . الرزق موفور . . المغانم تقبل عليهم من كل مكان مشت عليه الفتوح بالمال والسبى والرياش . فبنوا الجزيرة العربية الذين كانوا ،

فى الأغلب الأعم ، يعيشون الـقشف والشظف والفراغ ، يطعمون التمر ، ويكتسون الوبر ، ويسامرون أنجم السماء ، سخت عليهم الدنيا بلذاتها . من كل طيب وناعم ومشتهى ، فأكلوا طعام كسرى وقيصر ، ولبسوا الحرير والديباج ، وسامروا الوتر والقيان . أفتراهم وقد تذوقوا هذه النعم ، واستطابوها وألفوها ، نابذيها طائعين ، وآخذين أنفسهم من بعد على ما كانوا عليه من نمط الحياة الغليظ الخشن الذى عاشوه فى مستهل الإسلام ؟ . .

عند هذا تخور عزائم وتضعف إرادات ! . . فالنفس هى النفس ، والإنسان هو الإنسان . وكم من خائر وضعيف أمام ملذات الدنيا ، لا تغمض عنها عينه ، ولا تكف يده ، ولا يتعفف هواه ! . . وما أحلى لامرئ من متعة تسعد بها أحاسيسه ، ويرضى بدنه . وأن يحقق من رغباته الأرضية قوة باحتياز سطوة ، وبذخا باكتناز ثروة ، ونشوة بإشباع شهوة ! . .

وقد استمرأ أناس هذا الضعف ، كما يستمرئ خدر الخمرة أليف الكأس ، لأنه يدغدغ مشاعرهم ، ويداهن غرورهم ، ويعلى لهم فى نزوعهم إلى الزهو وحب التفوق والاستعلاء ، فكان الأشبه الأليق بهم أن يغذوه لا أن يعجلوا بعلاجه أو القضاء عليه . . فما برؤهم منه إلا قمع للغرائز لعلهم لا يطيقونه ، وأحرى بهم ، إن أطاقوه ، أن يجتنبوه ، ما دام يأتيهم من طريق رياضة النفس على الحرمان ، وكبحها أن تنعم بما يرونه لذائذ شهية لا تحلو لهم بغيرها الحياة . . وعرف معاوية فيهم هذا الاستمراء فلم يحاول مناهضة الضعف أو مغالبة غلوائه أن تتفاقم . فلا هو خنقه فى ذات نفسه بضمير رجل من رواد الإسلام ليكون قدوة للاحتذاء ، ولا هو حاربه فى ذوات غيره من الناس بسلطان حاكم مسئول عن تقويم رعاياه . . . إنما أفسح له فى الاستفحال ، وخلى بينه وبين الاستشراء لأنه عامه وسيلته الكبرى إلى استجلاب الأعوان — بل استذلالهم لأمره ، واستغلالهم لأغراضه — جندا كثيفا ينصرونه فى صراعه لاستجلاب النفوذ . .

العاهل الأموى عرف طريقه ممهدا إلى تأليب طائفة من الأمة على الإمام ، وفض طائفة أخرى عنه ، والاستزادة لنفسه ، قبل هذا وبعده ، من الأتباع . .

من خلال المتع والمطامع نفذ الرجل إلى نفوس الكثيرين بما يخايلهم به من كل ما يشبع نهم الأهواء من النشب أو المنصب أو المال . . وبسلطان النزوات وغلبتها على الطبيعة البشرية استعبد الجموع ، سادة ومسودين ، وربطهم بركابه ، ثم ساقهم ، أو قادهم ، إلى حيثما شاء وهو ضامن أن يطيعوه ، لأنه استطاع أن ينمى غرائزهم ، ويربى شهواتهم ، ويغذى كلفهم بالظهور ، فلا غرابة — وهذه كلها ربائبه ! — أن يكون أصحابها أجمعين عضدا له على بلوغ مرماه . .

لا غرو إذن أن تصبح « المادة » فرس الرهان المجلاة فى ميدان الصراع بين معاوية وبين الإمام ، إذ هى العون الأول لصاحب الشام على الاستكثار من الأنصار ، ما دامت لها القدرة الفائقة على الإغراء والإغواء ، والقوة الأسطورية للجذب والاستهواء . . وعندما تقاس بها وسائل على فى الدعوة لأهدافه ، وكلها جهاد للنفس ، لا نعجب حين نرى كيف تتقدم الأولى ، وتتخلف الثانية عنها أشواطا ومراحل ، فى عالم بدأ ينحو إلى الحسيات ، ويدير ظهره للروحانيات . .

وهين يسير أن يعتذر لرجال معاوية بالشام إذ يقبلون على الدنيا يطلبون المال ، وينشدون الرغد ، ويصبون إلى الترف والرفاهة ، فذاك سبيلهم الذى شقه لهم صاحبهم ، ودفعهم إلى السير فيه . ولكنه عسير مستعص أن يعتذر لرجال الإمام بمثل هذا الاعتذار ، لأنه ، دائما ، قد دعاهم إلى التحرر من ربقة المادة ، وسلطان النفس ، مترفعا بهم أن يكونوا كمثل السوائم قصارى همهم من السعى فى الأرض لذة الجوارح ومتعة الأجواف ! . .

إنما قد شاء على لأصحابه أن يكونوا — على ما أرادهم الله — خير أمة أخرجت للناس ، تقتات لتحيا ، وتحيا لتعمل ، وتعمل لتخلد سيرة عطرة على هذه الأرض ، وأنفسا مطمئنة فى رضوان الله . . فالبدن تبع الروح ، والدنيا سبيل الآخرة ، وكل حسى مادى ما ينبغى أن يكون إلا وسيلة تخدم المبادىء الرفيعة التى تنق بها القلوب ، وتطهر المشاعر ، وتصفو الأخلاق ، ويعز الإنسان . .

فإذا كانوا قد استجابوا لغير دعوته فعن صمم .. أو مشوا على غير دربه فعن عمى وليس عن قصور منه فى بث الدعوة ، أو تهاون فى التطبيق .. وعود إلى

حديثه لهم يوم البيعة ينبه الغافل ويذكر السهوان ولا يدع لامرئ فيهم ولا من بعدهم مجالا للتعلل أو الاعتذار . .

في بيانه الجامع الذى ألقاه عليهم إذ ذاك ، نشر لهم صحيفته ، موضحا نهجه ، محددا أسلوب عمله بجلاء . .

قال بعد استهلال :

« . . . . إنما أنا رجل منكم ، لي مالكم ، وعلى ما عليكم . . . وإني حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به إن استقمتم . . . . فامضوا لما تؤمرون به ، وقفوا عند ما تنهون عنه . . . »

فطريقه إذن كتاب الله ، وسنة الرسول . أما استقامتهم له ، امتثالا لما يراه ، فهى عدتهم وعهدهم حين بايعوه . .

ثم دار في جموعهم ببصره ، يتنقل بينها من يسار ليمين ومن يمين ليسار ، كأنما يحصيهم عدا ليصرهم أجمعين في نظره صرة الدنانير والدراهم ، لا تدع فيها واحدا ، ثمينا أو غشا ، إلا احتوته وأطبقت عليه ! وعندما استوعبتهم عينه ، رفع صوته يخاطبهم بجرس جلي وقول صريح ، بلا إدغام أو إبهام ، وبغير موازبة أو تلميح ، لكيلا تكون لأحدهم حجة عليه من بعد ، أو يخوض في عباراته ومعانيه بما لا تطيق من تحميل وتأويل :

قال :

« . . . ألا يقولن رجال منكم غدا — قد غمرتهم الدنيا ، فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارهة ، واتخذوا الوصائف الروقة فصار ذلك عليهم عارا وشنارا — إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون : حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا ! . . . »

أفهو بلاغ ؟ . .

بل بلاغ ونذير ! . . بيان أبلج كالنور . ورأى قاطع كالسيف . ونهج مستقيم كالصراط . كلها تعلن على الأشهاد أن ذلك الثراء الفاحش الذى احتازته

طائفة منهم، فيما خلا من الأعوام، بغير موجب، من بيت المال، قد حانت الآن ساعة الفصل — حقا وعدلا — لرده إلى نبعه الأصيل. وأن ذلك التفاوت بين الناس فى قسم المال، بهذه الحجة أو تلك، لم يعد له بعد يومهم وجود فى مجتمعهم الجديد. ولو كان ما أخذوه، أو يأخذونه، منحة صلة لرحم. ولو كان عطية سخية عنا لجهاد.. ولو كان فيئا ضوعف مرة أو مرات لقاء سابقة صحبة، وسابقة إيمان. ولو كان أيضا فى حوزة رجال رفعهم الشرف، أو قدمتهم الأنساب على من عداهم من الجمهور. فالمال مال الله. والأمة كافة فى قسمه سواء. وما سنه الرسول من التسوية فيه بين الجميع لاناقض له، ولا نرخص فيه بزيادة أو بنقصان، لأى إنسان، ما بلغ به شأنه من شأو القوة، أو كرم العرق، أو عز السلطان..

وأردف الإمام:

«... ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله، يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته، فإن الفضل النير غدا عند الله، وثوابه وأجره على الله.. وأيما رجل استجاب لله وللرسول، فصدق ملتنا، ودخل فى ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده...»

لا إبهام!..

فلقد جمعهم الإسلام بكلمته وكانوا قبله كقطيع ضال. ألف بين شاردهم وواردهم، أحمرهم وأسودهم، كتلة واحدة على تماسك واتساق. وجه منهم القلوب والخواطر، والجوارح والمشاعر، وسدد الخطا إلى طريق الله، والجهود إلى العمل فى الله. جندتهم رسالته السماوية الكريمة جيشا قاهرا لغزو النفوس الغلف، وفتح العقول المستغلقة، لتكشف عنها غواشى الضلال. دفعت بهم أفياض نور لهتك الظلام الذى أغرق الدنيا فى دياجيره، ووضع حجابا كثيفا فصل الآدمى عن إنسانيته، وأخفى عن البشر حقيقة الحياة..

مهمة جليلة تهون أمامها الجلائل العظام، وتتضاءل كبار الهام.. فهى بعث جديد.. لأم الصدوع والشروخ، ورتق الخروق والفتوق التى أحدثها فى وحدة البشر صراع الطائفيات والعصبيات المثلة للون والجنس سباقا إلى السيطرة

وإشباعا لنهم الاستغلال . بناء عالم فاضل على أنقاض ذلك العالم المتداعى الذى أفسدته عبادة الذات واستذلته الشهوات . إعادة الحياة إلى « الضمير الإنسانى » الذى مات ! . .

لأولئك الذين كانوا يعيشون ظاهر الحياة جاءت رسالة السماء لتنتشلهم من وهدة السقوط . وإليهم انطلقت قوى الاسلام مجاهدة فى الله ، داعية إلى الله ، ابتغاء رضوان الله ليس ابتغاء عرض دنيوى من سلطة أو سمعة أو ثراء . فالأمر واحد هو الرسالة . والجيش واحد هو المسلمون . والعمل واحد هو الجهاد . والهدف واحد هو الهداية . ولا تباين قط بينهم فيما كلفوه ووجب عليهم بلوغه بهذا التكليف ؛ لأن التبعة هنا جماعية لا تتجزأ تماما كأنهم آلة تعمل بكل أجزائها من دقيقة وغليظة ، معا وعلى اتساق ووفاق ، فلا سبيل إذن للمفارقة بينهم فى الجزاء بأى حال . .

هذه هى نظرة الامام للناس والمال ، قضى بها حين قال :

« ... أنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، لا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله غدا أحسن الجزاء وأفضل الثواب . فلم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثوابا ... » .

وصدق فيما قال . . صدق ربه . وصدق رسوله . وصدق أمته بهذه النظرة الواعية التى تطابق الحق ، وتؤكد العدل ، وتتفق ومنطق الواقع الحى الذى كانت تعيشه الدولة فى ظروف الجهاد لنشر كلمة الله . بل قد امتثل عندئذ سنة الطبيعة وقانونها الذى يحكم الانسانية ليجعل منها وحدة ملتئمة ، ويجعل أهلها إخوة على تماثل واستواء . .

ثم صدق قوله فعله ، وهو يختم فيدعوهم إلى اللقاء :

« ... إذا كان غدا إن شاء الله ، فاغدوا علينا . فإن عندنا مالا نقسمه فيكم . فلا يتخلفن أحد منكم ، عربى ولا عجمى كان من أهل العطاء أو لم يكن إلا حضر ، إذا كان مسلما حرا ... » .

مساواة كاملة فى مال الله ، بلا مفاضلة ، ولا تمييز ، وإن تفاوتت المنازل ، واختلفت الأجناس ، لأنهم كافة فى الحق سواء .

الفصل الرابع

هل هو تغيير ؟ . .

أم هو نقلة بنظام الحكم ، وسياسة الأمور ، من أسلوب إلى أسلوب ؟ . .

أم هو ثورة شاملة على المألوف فى المجتمع الاسلامى ابتغاء إعادة بنائه من جديد ؟ . .

أشبه بهذا وهذه وتلك من الاتجاهات وما قد يجد غيرها من فروض ، أو يلوح وراءها من أهداف ، ما تضمنه حديث على ، يوم البيعة الصاخب إلى الناس ، حين نستقبله على ظاهر عبارته ، فى إطار الكلمات المحدود . ولكنه أيضا أبعد كل البعد عن هذا المنحى حين نتعمق معانيه . فغير الإمام ، بلا ريب ، من يفكر مثل هذا التفكير . ومن يهدف بالقول والعمل إلى النقلة أو الثورة أو التغيير ، لأنها ، مجتمعة أو فرادى ، تعنى هدما — شاملا أو جزئيا — للنظام المقرر ، يدك بنيانه ، ويقوض أركانه إن لم يجتثه من الأساس . .

خطاب أمير المؤمنين عقب ولايته — أو بلغة اليوم : بيان الحكومة ! — الذى ألقاه ، تظن النظرة العابرة أنه يعلن عن سياسة مغايرة تهم أن تقلب الأوضاع . فإذا أخذ على روية ، وأمعن الفكر فيه ، بدت حقيقته خطة لتغيير التغيير ، وتبديل التبديل ، وتعديل الانحراف الذى سدر فيه الناس — عن قصور الادراك أو خطأ التطبيق — بخروجهم على النظام الأصيل . .

ولا جدال . فلا شبهة فيما قال . ولا سبيل لتأويل على أى وجه من وجوه الاحتمال . لأن نقض النظم التى تعيشها المجتمعات أو تناول بعض جوانبها بالتعديل يستوجب — حتما — تغييرا هنا وإلغاء هناك فى قوانينها التى تحكم السلوك . وليس هذا ، بطبيعة الحال ، مبتغى الامام . ولا هو ممكن أن يجول فى باله . بل هو المحال الذى ليس مثله محال ، لأن القوانين آنذاك لم تكن سوى القرآن . .

إنما أراد الإمام — بداهة وحقا — أن يكف الانحراف ويسود بشعبه إلى

ما كان عليه من إلتزام دستور الله الذى نزل فيهم كتابا بينا من القوانين والأحكام سارت الأمة فى نوره وراء الرسول إبان حياته ، فخلف قلة قليلة بعده من رواد الإيمان زمنا قصيرا لا يكاد يحسب شيئا فى عمر الدول والشعوب .. ثم تفرقت بالمسلمين السبل ، يوما يوما ، ومرحلة مرحلة من الامتثال ، إلى الاجتهاد ، إلى التأويل ، إلى التحميل ، إلى التبديل ! ..

فكان الانتكاس ! ..

وتلك خدعة التحول ! . إنها لتسير بالأمور والناس ، رويدا رويدا ، بخطا وئيدة لا يكاد يسمع لها دبيب فإذا هم ، عن غير شعور ، يبدلون نظرة بنظرة ، وأسلوبا بأسلوب ، وعملا بعمل ، وحياة بحياة .. وإذا هم — ساهين — ينتقلون من نقيض لنقيض

وإذا كان الحديث المستفيض الجامع ، الذى واجه به الإمام القوم يوم البيعة ، قد أومأ بعض إيماء إلى ما غير الحال والنفوس وشدها إلى الوراء ، فإنه قد أفصح كل الافصاح وهو يصف لهم ما يراه — فى حسبانه — علاجا ناجعا لهذا التغيير الذى أفسد عليهم دنيا الإنسان الفاضل ، وبث فيها عوامل التقهقر والانحلال ..

وتتكشف للمرء عناصر الدواء الموصوف ، فيقع فيها على ألوان عدة ، تبرىء الفكر ، وتشفى القلب ، وتحيي الروح ، ثم تنشل المجتمع من كبوته قبل أن يتردى فى وهدة السقوط ، وتقيم صلبه قويا شامخا من جديد إذا ما ترجمت إلى سلوك ممتثل وعمل جاد ، بالوعى المصقول ، والارادة الحاسمة ، والتطبيق الرشيد ..

فما هو العلاج ؟ ..

تنائياً عن تفصيل ما يغنى فيه الإجمال ، واكتفاء بصفة الشامل عن تحليل المشمول ، نكاد نرى كلمة « عدالة » هى المنقوشة على بطاقة الدواء :

عدالة لكل الناس من كل الناس ..

عدالة سهلة ميسرة ، لا تشق على إنسان . معلومة مفهومة ، لا تغمض على

إنسان . شاملة عامة ، لا يحرم منها إنسان . . قاصدة بغير تقصير . محمة بغير مغالاة . نسبية بغير إطلاق . . تعيش فى الممكن المتاح ، فى حدود طاقات البشر ، وفى إطار قدرات التنفيذ ، وفى نطاق التغيير المستمر للظروف والأفكار . . واقعية تعرف أحياز قانون الله ، وتدرك طبيعة البشر ، وترتبط بالزمان والمكان . لا تقف حيث تكون فتجمد وتموت . ولا تعدو مع الخيال فتدور فى فراغ . ولا تجمح إلى الكمال فتصعد عن الدنيا إلى عالم بلا أناس ، لأن الكمال على الأرض وفى البشر محال .

إنها العدالة الدنيوية التى لاتبلغ الكمال ، ولكنها تتسم بالشمول ، ولاتطابق المعنى الأمثل ، ولكنها توافق المفهوم العام .

تلك طلبة الإمام . وهى خلاصة بيانه الذى ألقاه يوم السبت ، لإحدى عشرة ليلة بقين من ذى الحجة عام ولايته إمرة المسلمين . . وهى أيضاً خلاصة الدروس المستفادة من التجربة الإنسانية العظمى التى اجتازها مجتمعه فى السنين القلائل الماضيات منذ غاب رسول الله عن العيون والأسماع إلى الآن . . فحين يتعقب المرء حركة السلوك العام والسلوك الخاص ، لايفوته أن يتبين كيف يميل خط الانحراف فى كليهما إلى الانحدار هبوطا نحو نقطة الصفر ، أو علامة البداية ، والمجتمع الإسلامى متمسك بالعدالة كمنهاج فكر ، وخطة عمل ، وأسلوب حياة وكيف يأخذ هذا الخط فى الصعود — انسيابا أو طفرا — نحو أحرج آماده وأخطر ذراه ، كلما تراخى حرص المجتمع على استبقاء هذه العدالة نابضة فعالة ، وأفلتتها يداه . .

ومع ما هو ظاهر ، للوهلة الأولى ، من سهولة هذه الطلبة وقربها للتناول ، فليس إلى تحقيقها من سبيل إن هى لم تنفذ بدءاً ، إلى وجدان الإنسان . وليست هى بنافذة إن هو لم يحس عدالة عليا ، فوقها وفوقة تراها نحن عدالة الله . . ولا عجب . فالعدالة الإلهية ، بما لها من سمو وإحاطة وسلطان ، قبس علوى يضىء للبشر طريقهم إلى العدالة الدنيوية المنشودة . . ويد هاديه تنزعهم من كهوف الظلم ومغاور الإجحاف لتضع قلوبهم على أول الطريق المضىء . . ورقيب عتيد يلحظ سيرهم ، ويتابع خطاهم أن تنحرف وتميل . .

فمن المسلمات البديهية أنه بالإيمان — وليس بالعلم وحده — يأخذ الشعور بالعدالة الإلهية مساره إلى النفوس . . فلقد يجهل المرء أمرا فلا يؤمن به. ولقد يعلمه كذلك ثم لا يصل علمه — عنتا أو زيغا — إلى الإيمان به أو قد يعتقده على شك ودخل لاختلاط معرفته إياه بغيرها من حصيلة معارفه الأخرى عن سواه من معنويات وماديات فأما أن يحسه فإنه يتشربه ويستوعبه . وأن يستوعبه فإنه يختلط بكيانه فيصبح بضعة منه ، يعيه وعيا روحيا — يعلو على الوعى العقلى — لا يفتر وهجه ، ويطغى بأثره على كل مدركاته عداه . .

هكذا هى عدالة الله . أفياض نور تطل من سماء الشعور على البشر ، وتخفق فى هذه الحياة كومض السراج . تضىء قلوبهم لتهديهم السبيل . وتحلق فوقهم محيطة بهم كحارس لا ينام . وتكشف سلوكهم كالأشعة الثاقبة فلا يخفى عنها ظاهر باد ولا باطن خبىء . . فإذا نصب الميزان ، قومت كل بادرة لهم : فعلا وقولا ونية ، قيمتها الحقة ، ووزنت بقسطاس دقيق سليم ، لا يخل ولا يخطىء ، فلا يخسر لهذا ولا يستوفى لذاك ، لأنهم أجمعين يستوون عند ربهم فى الحساب . . ومع ذلك فإن الجزاء الذى ترتبه العدالة الإلهية لأى إنسان على الوفاء بالأداء ، يظل سرا مكنونا فى علم الله ، لا ينجاب عنه الحجاب تفصيلا للناس فى حياتهم الأولى ، ويعجز الإدراك البشرى القاصر عن أن يعرف نوعه أو يلم بعداه . .

ولا مراء . . فالعدالة الربانية أوفى وأرحم من أن تجعل هذا الأداء وحده أساس قياس كنه العمل وقيمته ، ومعيار مثوبة أو عقوبة عليه ، لأن الله سبحانه يحيط بما لم يحط به البشر علما من الأسرار الكونية ، والأسباب والمسببات الظاهرة والخفية ، والمؤثرات المرئية وغير المرئية التى تتحكم عادة فى سلوك الإنسان . ولأن عدله تعالى رهن بمشيئته ، قرين برحمته فيقدر جل تقديره ويعاقب إن شاء ، ويقدر ويعفو إن شاء . .

بين طرفى هذه العدالة العليا يسبح الإنسان ، على رؤاه الوجدانية ، فى عالم فسيح من العواطف والانفعالات . فإذا هو يقع ، فى هذه الرحلة الطويلة ، على صور شتى من مدركات نفسية وذهنية ينطبع منها على صفحة إحساسه حسبما

تـكون طاقة هذا الإحساس مهيأة للتلق والاستقبال . . هو آنا يرى بشعوره . وهو آنا يرى بعقله ولـكنه فى الحالتين يستيقن وجود الصور المدركة ، فيؤمن بها ، عن وعى روحى أو وعى عقلى . وإن اختلفت وسيلتا الاستيقان ،وتفاوتتا فى مقدار الايمـان . وإن أنـكرت إحداهما على أخراهما ماتراه أو وافقتها عليه .

أما الوعى الروحى فيروعه من العدالة الالهية ذلك الطرف المجهول ، المستر بغيب الله عن علم الناس ، المتعلق بمشيئته التى قد تمسك عنهم رحمته ، أو تفسح لهم فيها ، فتملأ هذه الروعة الإنسان خشية وأملا ، هيبة لحساب الله ، وارتجاء لغفرانه . .

وأما الوعى العقلى فيمضى على الطرف الآخر المعلوم ، الذى يبين الحدود ، ويوضح النواهى والأوامر ، ويرتب الجزاء نتيجة حتمية لـكنه العمل وقيمة الأداء ، فيدرك الإنسان كيف يسير ، وإلى أين ينتهى به سلوكه الاختيارى ، عند الحساب ، فى درجات الثواب أو دركات العقاب . .

رحلة طويلة للنفس البشرية فى عدالة الله . . طويلة طويلة على مدى العمر وامتداد الدهور . تتراوح فيها خطا ملـكات الانسان وقدراته الإرادية والعاطفية المـكتسبة والفطرية ، بين جانبي هذه العدالة العليا : طرفها الحـكمى اللازم ، الذى يضع حكما لـكل عمل ، وجزاء لـكل أداء . وطرفها الشيق الراحم ، الذى يفسح فى العفو ، ويرفع المغفرة فوق القصاص .

على هذه المسافة الشعورية من المراوحة بين المعلوم والمجهول ، القضاء المحسوب المسطور والقضاء المرتجى المستور ، ينشط الضمير الانسانى ، بالعقل وبالروح ، إلى التزام هذه العدالة المثلى ، أو محاكاتها باستلهامها أصولا وقواعد للعمل والحساب والجزاء ، ترسم المنهج ، وتنظم السلوك ، وتحدد الروادع والمثوبات ، فإذا هو ، بالالتزام الممكن والمحاكاة المقاربة ، فى ظل عدالة جديدة دنيوية الصيغة . كفيلة — فيما يراه — باطراد سير الحياة فى مجتمعه رضية رخية ، وبالتئام العلاقات بين كافة أفراده على غير اضطراب .

ولقد حاول الامام فى بيانه أن يظهر قومه على نمط العدالة الدنيوية المنشود

الذى يمنع الطغيان ، وينشر الطمأنينة ، ويهيىء حياة إنسانية كريمة ، تتوازن فيها القوى ، وتتعادل التناقضات ، ويستوى الدانى بالقاصى والعام بالخاص ، والشريف بالمشروف كاستوائهم قبلها أمام الله . فما جاءهم ، إذ فعل ، إلا بما أنسوه وغفلوا عنه وإنه لغير بعيد . وما زادهم شيئا على ما التووا عنه وكان لابد عاصمهم من الهوى والخلاف . ولو أنهم وعوا — إلى يومهم ذاك — حكم القرآن وأخذوا به أنفسهم بغير ترخص لاستقام لهم أمرهم أبدا ، واظلوا محلقين لاتشدهم غواياتهم إلى الطين !

لم يأتهم من لدنه بجديد . ولكنه بين لهم كيف يستطيعون أن يمارسوا عدالة الله على الأرض بالأسلوب البشرى الذى يطيقونه ، ويوافق تباين الأفكار ، وتغاير الظروف ، وتفاوت الأقدار ، وتعدد النزعات وكل ما عسى قد يلابس طبيعة الإنسان وأوضاع البيئات من تقلبات . . وحين ننعم النظر فيما ساقه من حديثه ، لا يغمض على المرء أن يخرج منه بمبادىء أساسية ، أو خطوط عريضة ، لسياسة الأمور والناس ، تبدو لنا من خلال عرضها المستنير تلك العدالة المنشودة ميسرة سهلة ، على أسس كلية تنأى عن الخوض فى الدقائق والتفصيلات اجتنابا لاختلاف الآراء . وتتسم بعمومية توفر لها من مقومات المرونة ، وخصائص القدرة على التشكل ما يجعلها صالحة للتطبيق بكافة المجتمعات ، فى أى زمان ، وفى أى مكان . .

عدالة كهذه لها امتداد الشمول ، وسعة الإمكان ، هى الخليقة لا ريب بتحرير البشرية من سطوة الظلم فى كلا حياتى المرء على الأرض : حياته الخاصة ، وحياته العامة . أو حياته إذ هو فرد ، وحياته إذ هو مجموع . .

ولا غرو . لأنها ذات قطبين : هما حق النفس وحق الغير ، يعيشان متقابلين فى ضمير الإنسان ، ولا ينبغى أن يعملا إلا معا ، وعلى تكافؤ واتزان . . فهما إذن كفيلان — بأسلوب العمل المتعادل — أن يحفظا على الحياة البشرية بشطريها : الخاص والعام ، نظامها أن يختل ويميد . وأن يمسكا دعامات الروابط الفردية والصلات الجماعية أن تتهاوى وتنهار . . وهما إذن — بدون هذا التعادل — خليقان أن يؤديا إلى تقويض النظام وهدم الصلات والروابط ، لأنهما سيخليان

حتما بين شعور المرء بذاته وبين الطغيان على شعوره بمن حوله من أفراد ، فيهيم فى أنانيته كيفما أراد . أو سيفضيان بالفرد إلى اهتزاز إيمانه بمجتمعه حين يرى أجحاف ذلك المجتمع به . وانحيازه عن إنصافه ممالأة لسواه ، فيضعف إحساسه بالانتماء إليه ، وتفتر رغبته للعمل له . . ولا قيمة هنا تكاد تذكر للإنصاف المادى المتمثل فى تزويد المرء بالطعام والشراب والكساء ، وما إليها من أشباه ، لأن حياة البشر على الأرض ، بمعناها الحق ، وجود حضارى ، وليس وجودا بهيميا قصاراه تأمين مثل تلك المقومات ولأن المناخ الملائم لمعيشة الإنسان ليس وحده ذلك الذى تتوفر له فيه مطالب الأبدان من محسوسات إن تكن تكفى الحيوان الأعجم الذى تسيره الغريزة ، فما هى بكافية أبدا لمعيشة البشر ككائنات ذوات إدراك ، للمعنويات وخفقات القلب وخطرات الفكر والانفعالات النفسية سلطانها المهيمن على كل ما يصدرون عنه من سلوك . .

لهذين الجانبين المتقابلين للعدالة الدنيوية الممكنة ، عرض أمير المؤمنين ، فى خطاب الاستهلال ، عرض خبير يتعمق الأوضاع كما يستكنه النفوس ، ويستخبر الوقائع كما يستنبىء التوقعات . فإذا هو لا يغفل الإشارة إلى مقومات الاتزان للضمير الإنسانى ليكون سويا فى نطاق طاقة الإنسان . لا ينكر ذات صاحبه ولا ينكر أيضا ذوات سواه . ويحس بغيره كما يحس بنفسه . فيعمل ، بقيادة هذا الاحساس المتعادل ، للناس فرادى وللناس كمجموع . وإذ هو يمضى فى خطابه على بصيرة من هذا المنطلق بين الأثرة والإيثار ، الأخذ والعطاء ، الذاتية والغيرية يضع القواعد الأولية لنهجه : قسمة عادلة بين شطرى طبيعة الناس الحيوية بما يتلان من مطالب الأجساد ومشاعر النفوس ، وبين شطرى طبيعة حياتهم الحضارية بما يتلان من فردية وجماعية . فما كان — إذ فعل — إلا كاشفا عن أسلم الأسس وأقومها لقيادة الأفراد والشعوب . وسابقا للنظرة الحديثة إلى العدالة الاجتماعية التى تخدم الفرد ، وإلى العدالة السياسية التى تسير الدولة ولم يحط بأيهما الفكر الانسانى المعاصر إلا بعد ظهورها فى الإسلام بقرون عديدة مضت بالناس فى نزاع مذهبى بين الفلسفات والعقائد الفكرية ، وفى صراع دموى بين قوى الطغيان التى حاربت للجمود وقوى التحرر التى ناضلت للتغيير .

فى مجال العدالة الاجتماعية — بمفهوم الاصطلاح المعاصر — التى تخدم الأفراد وترعاهم رعاية أناسى لا رعاية سوائم ، نظر إلى حياة الفرد كنواة لحياة الجماعه ، وإلى الأمة كبيئة عضوية جوارحها الجماعات . وخلص من نظرته إلى وجوب جمع النوى كلها على اتساق وتلاؤم ضمانا لصحة الجسم العام فوحد الإنسان . وما كان له إلا أن يأخذ بهذا التوحيد إذ هو رأى الاسلام وأحد مبادئه الرئيسية الذى يجمع الناس كلهم فى واحد ، ويراهم كافة سواء وإن اختلفوا عنصرا بين عرب وعجم ، وجاها بين خاصة وعامة ، وحسبا بين فقراء وثراة ، ولونا بين سود وبيض . . فالمنشأ الذى خرجوا منه أجمعين واحد . والأصل الذى تفرعوا عنه واحد . وأسس الخلق ومراحل التكوين — من عناصر المواد الأولية التى تتركب منها الأجسام ؛ إلى النطف والعلق والمضغ ، إلى خلايا البنية ، إلى أجهزة الحركة والسكون ، ومراكز الحس ، ووظائف الأعضاء ومعالمها الظاهرة والتشريحية — توحد بينهم على غير تباين ، إلى جوار الحقيقة الكبرى التى تؤكد هذه الوحدة وهى انتسابهم بالعبودية لله :

« أنتم عباد الله . . »

ولا مدعاة هنا للتساؤل : أهذه عدالة أم هى مساواة إذا وزنا الألفاظ بميزان الدلالات ، وطابقنا الصفات على المسميات . لا مدعاة لأن الحدود الفاصلة بين معانى المجردات الفاضلة كهذه وتلك وأشباههما من حق وخير وحرية ، تكاد تشف حتى لتذوب وتخفى عن التمييز . .

فالحرية — كمثال — تنقل إلى الأذهان مدلول الانطلاق . والانطلاق لا يعرف التضييق ، لأنه شمول يستوعب كل مشمول بغير تفرقة ولا تخصيص . فهى إذن على وجه من الوجوه مساواة . .

والمساواة أيضا سمة للكل ، وتوازن بينهم . تمنح هذا كما تمنح ذاك ، وتمنعه كما تمنعه ، فهى قوام بين العطاء والأخذ أو تكافؤ تام فى الحقوق وفى الواجبات . فهى إذن عدالة ليس من طبيعتها الإجحاف . .

وكذلك الأمر فى الحق ، والخير ، والأمانة ، والصدق والوفاء وغيرها من

فضليات المجردات ، تختلف فى مظاهر القوالب . ولكنها تنطوى على نفس المضمون إذا ما أخذنا بمعناها العام . .

على أنها جميعا — إن هى ظلت حبيسة فى أسوار التجريد — لن تعدو أن تكون صورا ذهنية جميلة ، قصاراها مخايلة الناس ببريق مستعار لا يشبه جوهرها ، بل تضفيه عليها رؤى الأخيلة وجوامح الأفكار كما تضفى الشمس لمعتها على ما يسبح فى شعاعها من ذرات الغبار ! . . إنها خليقة ، عندئذ ، بأن تهيم فى عوالم الوهم ودنى الفراغ ، بغير قرار ، وإلى غير غاية ، خفيفة بلا ثقل ، هشة بلا تأثير فى واقع الحياة . فأما أن تمارس دورها ، وتعيش دلالتها فذاك رهن بأن تجد لها بيئة صالحة يتيح لها الحركة والانطلاق ، ونطاقا معلوما تنشط فيه ، له أبعاد وأحياز ، بداية ونهاية ، معالم وحدود تماما كالماء الصافى الذى لا يرى ، ولا تدرك له هيئة إلا بلون الإناء وشكله الذى يوضع فيه . .

وأنسب نطاق ، كنهج ملائم لهذه المجردات ، يسع مدلولاتها أن تعمل فيه ، وتمضى أشواطها إلى غايتها على هدى وبينة ، هو ذلك الذى رسمه لها من هو أعلم بكنهها ، أعرف بوظائفها ، أقدر على توجيهها لخدمة الحياة . .

وهل أعلم وأعرف وأقدر من الله ؟ . .

وهل أوضح نهجا ، وأنسب نطاقا من القرآن لتطبيقها فى دنيا الانسان ؟ . .

لئن يكن العدل — كمبدأ — لا يمكن أن يقوم فى الأذهان إلا على أساس افتراض وحدة البشر ، فإن تجسيده — كواقع — لا يمكن أن يكون فى الحياة إلا بتحقيق وحدة القانون . . فكلتا الوحدتين لازمتان ضمانا للشمول والعموم ومنعاً للتحيف والطغيان . وكلتاهما متلازمتان متكاملتان لأن الفكرة — أية فكرة تعيش فى العقول — لا مناص من بقائها كلمة جوفاء بغير أثر فى حياة البشر ، كل همها أن تحوم فى الاخيلة ، وتتخبطها الأحلام ، ما لم تعرف الطريق ، من خلال التطبيق ، إلى عالم السلوك . .

وحدة إنسان يجتمع فيها كافة أبناء البشرية : عنصرا ولونا ولغة ومنزلة ، بغير تفاوت بحكم طبيعتهم الحيوية ، ووحدة قانون يحتكمون إليه عامة ، ويعملون

فى حدوده ، بحكم طبيعتهم الحضارية ، هما قوام المعاملة والتقدير ، وميزان المعادلة الذى لا يظلم ولا يجور .

وها هو الميزان ، يبينه الإمام :

« ... إنى حاملكم على منهاج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به .. »

فليس أحكم شريعة ، وأقوم جادة ، وأعدل فى معايرة الأعمال والأقوال ، فضلا عن النوايا ، من كتاب الله كما طبقه وبين تعاليمه الرسول ، لا كما ترتأى فيه النظرات الخاصة، وتذهب به شطحات التأويل ..

وليس سبيل ، مع هذا التحديد الدقيق للمنهاج اللازم المفروض ، إلى الترخص فى أحكامه ، أو تناول أصوله ومبادئه ، جزئيا أو كليا ، بالتعديل .. فهو ثابت لا يقبل التغيير، كامل لا يخضع للتجزئة ، باق لا يعرف الفناء ، لأنه خالد آبد كبقاء الله .. وهو قائم دائم على سطح هذا الكوكب الإنسانى قيام حياة النوع البشرى عليه ، ودوام الحقيقة الناطقة بوحدة الإنسان ..

وإذا نحن أمعنا النظر فى خصائص القرآن ومقوماته كقانون ، تكشف لنا أنه ينفرد ، دون غيره من القوانين ، براوفد قوة تساند سلطانه على مجتمعه لم يتوفر مثلها قبله لشريعة سواه ، ولا هى بعده بمتوفرة لكل ما عداه مما عسى أن يجد من شرائع وضعية قد يستحدثها فكر الإنسان فى أى مكان إلى آخر الزمان .

فالمفترض بداهة فى القوانين الوضعية أن تجىء صدى لرغبات المجتمعات التى سنت لها ، محققة لأمن أهلها ، كافلة لمنافعهم ثم لايسعها — مع هذا الافتراض — أن تبلغ الغاية المرجوة التى يرتقبها الجميع لأنها ، فى حقيقة الحال ، إنما صدرت عن طائفة منهم بيدها النفوذ لا يؤمن تأثرها بنظراتها الخاصة وأغراضها الذاتية عند وضع التشريع .. والمؤكد أيضا أن أى مجتمع إنما يمارس — من خلال قانونه — حقوق سيادته على كل من فيه ، وهم طائعون أو وهم كارهون ، لا على أساس ارتضائهم هذا القانون ، بل بمجرد ارتباطهم بالحياة فى نطاق المجتمع ، وانتمائهم إليه ، لأن الانتماء يستوجب الولاء ، والولاء يقضى بالاذعان للأمر الواقع والتسليم به تسليما لا رجعة فيه . والمعلوم بعد هذا أن يظل أبناء المجتمع راضخين

— ولا نقول مرتضين — القانون المسنون ، الذى يحتم عليهم أجمعين الأخذ بنصوصه ، ائتمارا بأوامره وانتهاء عند نواهيه وإن اكتنفها هنا تحيف ، أو اعتورها هناك قصور ، إلا أن يسع فئة منهم أن تستحدث تغييرا فيه ثم لا يسلم هذا التغيير من مالأنها إذ هى صاحبة النفوذ الجديد ! . .

أما القرآن كقانون ، فليس كهذه التشريعات الوضعية ، لا بطبيعته وصفاته ، ولا بأصوله واتجاهاته ، لأنه يختلف عنها أساسا ونشأة إلى حيث لاشبه . كما يختلف عمقا وإحاطة إلى حيث لا التقاء .. فهو يجمع الإنسان فى وعائه ولايفرقه شراذم وأجناسا وقوميات بحسب البيئات أو المجتمعات . ويجمع الزمان وحدة ولا يقسمه بين قديم بال ، وحديث حاضر ، وقابل نزاع إلى الانطلاق والتغيير . ويجمع المكان مقاما واحدا للبشر فى هذه الأرض أينا انطلقوا منها فى سهلها أو حزنها ، جدبها أو يانعها ، ولا يوزعها عليهم أوطانا مختلفة تفصل بينها خطوط الحدود .

والسلطة التى قدمت للناس القرآن قانونا ينظم حياتهم كخير ما يكون التنظيم سلطة لا يخفى اقتدارها وعدلها عن البشر — على تباين طباعهم ، وتعارض نظراتهم ، واختلاف منازلهم فى مدارج الادراك — لأنهم يعرفونها بوحى الفطرة أو ببدائه المعقول ، أو بخفقات الإيمان . .

إنها سلطة لا تسعى إلى تلمس النفع لنفسها من خلال نصوص هذا القانون استزادة فى أسباب القوة ، ومقومات النفوذ ، إذ هى ، بطبيعتها ، قادرة إلى غير نهاية ، وفوق كل السلطات والمشيئات . لها وحدها الخلق والأمر . تملك وحدها النفع والضر تصنع وحدها البدايات والمصاير بغير منازع ولا شريك . فلا حاجة إذن بها إلى استغلال البشر ، أو فئة منهم ، لأنها غنية عنهم كافة وهم إليها الفقراء . . وهى بهذا « محايدة » بكل مايعنى مدلول هذه اللفظة الحديث ، فلا وجه إذن لأن تمالىء — فى قانونها — فردا على فرد ، أو تنحاز إلى فريق دون فريق . . وهى تشرف بجلالها ، من علياء قدرتها ، على الكون ، محيطة بكل ما يدور فى عوالمه ودناه ، ومنها عالم البشر بما يموج فيه من نزاع على البقاء ، وما يعتمل فى نفوس أبنائه من رغبات ، أو يغير فى حياتهم من مؤثرات ترى ما يرنون إليه بالعيون والآمال وتلم بما يرومون اجتناءه من فوائد ، و بما

يرجون اجتنابه من أضرار . عارفة ما يعرفون ومايجهلون مدركة مايدركون وما لا يدركون . فهى إذن أعلم بما يؤدى إلى استقامة أمورهم وصلاح دنياهم : مناهج العمل كيف ترسم ، وعدالة القضاء كيف تحكم ، ومعالم السلوك وأساليبه إلى أين تقود . أيها أقوم جادة ، وخير عقبى ، وأولى بالاتباع ..

وينفرد صدور القرآن — كقانون — بظاهرة فذة عايشته لم تعايش قانونا قبله ، ولا نظنها اقترنت بعده ، إلى اليوم ، بصدور شريعة وضعية نفس الاقتران .. فلم تجزه السلطة المصدرة على الناس بمجرد إعلانها عنه . ولم تسر عليهم نصوصه وأحكامه سريان إلزام من خلال الإذعان . . بل الواقع المشهود أنه لم يمارس حقوق سيادته على أبناء مجتمعه بأسلوب الفرض الجبرى الذى تتبعه القوانين جميعا فى مختلفات المجتمعات ، عن طريقُ التبعية والانتماء . وإنما سرى عليهم سريان اختيار عن طريق التدليل والإقناع . .

فالثابت الذى لا اختلاف فيه ، أن القرآن قد عرض نفسه على ملأ الناس عرض تفهم ونظر ولم يفرضها فرض أمر وإملاء . . تقدم إليهم بنهجه مجملا فى « الوحدانية » مبدءا عاما تتفرع عنه كافة قواعده التشريعية التى تحدد الصلات بين الله والناس ، وبين الناس والناس فمن آمن بهذا المبدأ فقد دخل الاسلام . ومن دخل الاسلام فقد انتمى لمجتمعه . ومن انتمى لمجتمعه فقد قبل راضيا قانونه المنبثق من كلمة التوحيد .

ولا حاجة بنا لتحليل الوحدانية ليتبين لنا أنها ، حقا ، أساس كل أصل تشريعى فى الاسلام ، لأن عبارة : « لا إله إلا الله » تغنى عن هذا التحليل ، ولا تفتح السبيل للمكابرة والجدال . فهى قد نفت كل ربوبية إلا ربوبية الله ، ومحت كل قدرة إلا قدرته سبحانه ، وكل مشيئة إلا مشيئته ، وكل سلطة إلا سلطانه . . وهى بهذا قد جمعت البشر فى العبودية لله وحده ، وأمنتهم أن تعنو وجوههم لغير وجهه ، حررت العقل الإنسانى من الخوف والخرافة . حررته أن يخشى الناس أمثالهم من الناس وإنهم لجميعهم سواء فى العجز أمام سطوة خالقهم ، فى خوف عقابه ، وفى ارتجاء رضوانه ، فأهدرت بهذا عبودية الإنسان للانسان . وحررته من تحكم الخرافة الذى كان يدفعهم إلى عبادة

الظواهر الكونية أو الأوثان والأصنام ، أو الأبطال ممن سلف من الآل أو من الملوك والأقيال ، فقضت بهذا على ذلة العقول للأوهام .

من خلال مبدئه العام : وهو كلمة « التوحيد » عرض القانون القرآني على الناس ، لو شاءوا قبلوه ، أو شاءوا رفضوه . . فهو هكذا أول قانون في التاريخ — إيمانا بوظيفة العقل ، وقداسة الرأى الحر — يضع نفسه تحت نظرة الاختيار ، ويخضعها طواعية لاستفتاء ، عام ، قبل ممارسة حقوق سيادته الشرعية على المجتمع الذى يعيش فيه . .

هذه هي حال القرآن ، كقانون ، في نظرة الفكر « المحايد » الذى لايظلم ولا يميل ، وفي رأى الواقع التاريخي الذى تؤيده الأسناد . . كاملا من كامل ، عادلا من عادل ، سائدا على أبناء مجتمعه — دون بقية قوانين العالم ، قديمها وحديثها — بحق الارتضاء لا بحكم الانتماء . . فلقد كانت كلمة التوحيد ، ممثلة في عبارة : « لا إله إلا الله » — يعلنها ، بينه وبين نفسه ، من استنار قلبه للإيمان ، ومن اهتدى عقله للحقيقة ، أو يبايع عليها رسول الله — هي جواز مروره إلى المجتمع الإسلامى ، مسلما كغيره من أفراده . ووثيقة اعترافه الاختيارى بالقرآن ، قانونا يلزمه ، لأنه اعترف بمبدئه العام . والوسيلة ، على الأثر ، إلى كفالة ماله من حقوق ، واستيفائه ما عليه من واجبات ، تفصح له عنها نصوص هذا التشريع السماوى ، وتضع المسلمين منها على قاعدة سواء . .

ويتكلم الإمام ، في خطاب إمرته ، عن هذه المساواة الشاملة في الحقوق والواجبات ، فيظهر العدل الاجتماعى — أمنية البشرية إلى اليوم — كيف يكون وكيف هو ، عاما كاملا ، في الإسلام ، يحقق تماسك المجتمع ، ووحدة الناس ، لولا أن أنسيه الغافلون الغفاة . .

يقول :

« . . . أيما رجل استجاب لله وللرسول ، فصدق ملتنا ، ودخل في ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . . » .

ويستطرد من بعد ، في حديثه ، فيكشف عن ركن هام لهذا العدل

الاجتماعى ، لابد من توفيره ، هو المساواة الكاملة بين أبناء المجتمع الواحد ، فى ناتج العمل العام

ولا غرابة . فهذه المساواة فى ناتج العمل الجماعى ، أو المال العام ، نتيجة منطقية لازمة ، يسفر عنها تسلسل الاستقراء للوضع الاجتماعى المقرر ، وفرع لأصل لابد لهما ، كما تساويا فى البنية ، أن يتساويا فى الصفات ، لأن نظرة الإسلام ، التى توحد الإنسانية ، تقضى ، كخطوة أولى ، بوحدة أية قطعة « مستقلة » من انفراد ، أو أية وحدة من الوحدات الاجتماعية لهذه الانسانية - التى كان لاضطراب سلوك أبنائها منذ القدم ، وبلبلة الأفكار ، وضغط الظروف ، وحركة التاريخ أثرها فى تمزيق شملها الطبيعى ، وتقطيع أوصالها ، بخلق هذا النوع المصطنع من الاستقلال أو الانفصال — إلى أن يحين التئام هذه الشراذم المنتشرة وضم شتاتها فى وحدة شاملة هى المجتمع العالمى الكبير . فإذا اتجه الرأى هنا إلى توحيد المجتمع ، فإنه يتجه ، بداهة ، إلى ضرورة توحيد كافة جهود أبنائه تحقيقا لخيرهم العام ، فإلى حتمية توزيع هذا الخير عليهم بالسوية ، إذ هو ناتج عملهم الجميع ، وثمرة جهودهم المشتركة . وإذ هم ، كافة ، مستوون فى الحقوق استواءهم فى التبعات .

ويوضح الإمام هذه النظرة المنطقية العادلة إلى المال العام ، فيعرضها فى سهولة معجزة ، ومنطق ميسر ، لا حاجة معهما إلى تدليل . .

فيقول :

« . . . أنتم عباد الله . والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية . لا فضل فيه لأحد على أحد . . » .

فذاك رأى طبيعتهم الإنسانية الموحدة وقضاء وضعهم الذى يعيشونه الآن ، وكان يجب أن يعيش البشر من قبل ، ثم تنزل القرآن فقرره ، كما ينبغى أن يكون ، وبسلطته كقانون . .

ويقرن الإمام المبدأ بالتطبيق ، على الفور ، ودون تردد ، فيدعو الناس :

« . . . إذا كان غدا ، إن شاء الله ، فاغدوا علينا . فإن عندنا مالا نقسمه

فيكم . ولا يتخلفن أحد منكم ، عربى ولا عجمى ، كان من أهل العطاء أو لم يكن ، إلا حضر . . . » .

كلهم فى الإنسانية سواء .

كلهم لمجتمعهم أبناء .

ويتبع القول الفعل . .

فعلى الأثر يتجسد معنى العدل الاجتماعى واقعا حيا يعيش فى دنيا الناس . فى العمل كما فى الفكر . فى الحق كما فى الواجب . فى المغانم كما فى المغارم بغير استثناء بعد أن تعطل هذا العدل سنين عديدة كان خلالها مجرد صورة ذهنية جميلة تدور بها الأحلام والأمانى فى رؤى الأخيلة وفراغ الأوهام . . وبعد أن ظل لفظة عذبة الجرس ، وضاءة البريق ، يمسح بها التمويه والرياء فوق الشفاه كبسمة محزون ! . .

وعرفت المساواة الاجتماعية بين الأفراد ، فى المجتمع الاسلامى ، طريقها مرة أخرى إلى النور . بعثت إلى الحياة من جديد . تحققت صبيحة يوم الأحد ، الثانى عشر من ذى الحجة ، وما انقضت إلا ليلة ، أو بعضها ، على إمرة الإمام . . واستوى المسلمون ، عامة ، بهذا القرار الصريح الخاطف ، وكما أمر الله ، فى أنصبتهم من الحقوق المدنية ، وفى حظوظهم من الدخل القومى ، نتيجة طبيعية لاستوائهم فى الخلق أمام الخالق ، ولاستوائهم فى التبعات والمسئوليات ، فى المجتمع الذى يضمهم ، أمام القانون . .

وعرفت المساواة السياسية أيضا ، بمفهومها المقارب لمضمون الاصطلاح الحديث ، طريقها واسعا ممهدا إلى الحياة . فلم يغفل الامام ذكرها وهو يتقدم بمنهاج عمله ، أو بيان حكومته ، إلى الناس . . ولم يخف ما تعنيه دلالتها ، وما نعرفه اليوم من كنهها الحقيق ، المتمثل لنا فى حق الشعب الكامل ، بغير ترخص ولا انتقاص ، فى المشاركة — بالإرادة الحرة ، وعلى تكافؤ تام بين جميع أفراده وطبقاته — فى رسم مصيره من خلال اختيار الحاكم ، وتوجيه سياسة الدولة وشؤونها العامة بالرأى والمشورة . فمن غير هذا السبيل لا ثمة حاكم شرعى ، ولا حكم مشروع .

ولا مجال هنا للمطابقة بين أشكال الحكم « الشعبية » السائدة اليوم ، وبين الشكل الذى ابتدعه الإسلام ، ونهجه الإمام ، فى ذلك الزمان البعيد . . فالقيم قد لا يغيرها تغاير الصور والتراكيب . والمعانى قد لا تختلف باختلاف العبارات والأساليب . وإنما العبرة بالجوهر لا بالقشرة . وباللب لا بالإطار . وما نظم الحكم ، على تباين الضروب والمظاهر ، إلا وسائل إلى بلوغ غاية تتفق عليها كافة المجتمعات ، هى الخير العام حسبما ترتأيه نظرة كل مجتمع — وفقا لأوضاعه الاجتماعية ، وعناصر تكوينه ، ومقوماته الحضارية ، وما تتأثر به أفكار بنيه من ظروف المكان والزمان ، ويتطلعون إليه تحت تأثير العرف والتقاليد — علت بهم هذه النظرة إلى ذروة السلطة الشعبية العامة ضمانا لتحقيق رغبات الأمة ، أو هبطت بهم إلى مستوى السلطة الفردية إيمانا برعايتها حقوق المجموع . .

ومع ذلك ، فالمقرر — الذى لا يمكن إنكاره ، أن « الشورى » أصل فى الاسلام ، أقامت الدولة سياستها على عماده ، احتذاء بمسلك الرسول ، صدرا من تاريخها المبكر ، على تفاوت فى التطبيق بين الامتثال والتعديل ، وبين السهولة والتعقيد بحسب دواعى التغير السريع الذى صاحب تطورها من جماعة ، إلى مدينة ، إلى إقليم ، إلى دولة مترامية الحدود والأطراف تشتمل فى وعائها الكبير على الكثير المتعدد من الشعوب والأقاليم .

ومن المسلم به كذلك أن ثمة سمة ظاهرة لاختيار الإمام كانت بها خلافته أدنى إلى شعبية القيادة وثمة سمة مثلها لحكمة كان بها أدنى إلى شعبية الحكم ، بمفهوم تعبيرنا المعاصر . . وكلتا السمتين تفردانه بما لم يكن لمن تقدموه ولحقوا به من الخلفاء ، وتميزان عهده بما لم يتح لما قبله وبعده من عهود .

فليس بين المسلمين ، آنذاك ، شخص كان أقرب إلى قلوبهم وأحب إليها منه ، لسابقته وفضله وصهره وصفاته إلى التى تعز فى قرين ، إلى جوار ميلهم إليه ، عطفا ونصرة ، لما أصابه من هضم حقه فى ولاية الأمر ، ثلاث مرات . . وليس أمثل ذكرا فى خواطر الناس إلى الآن منه إذا عرضت الألسن لسيرة البطولة عند مختلف الأمم والشعوب من أقدم العصور ، حتى ليوشك اسمه أن تحفه القداسة

أو يكون له ، بأهون تقدير مكان الصدارة بين شوامخ الأبطال الذين خلدتهم جلائل الأعمال ، وصورهم خيال الأساطير ! . .

تفرد فى شعبية القيادة ينطق به أسلوب الاختيار الذى جاء به على رأس الدولة ، بالإرادة الحرة الخالصة للشعب الإسلامى ، على امتداد أراضيه ، ممثلا إذ ذاك فى قوى الثورة العامة التى اجتاحت الأمصار ، آخر عهد عثمان ، مطالبة بالتغيير . . فلم يأت عن بيعة « خاصة » — كبيعة أبى بكر — أدلى بها صفوة أهل مدينة الرسول ، من الأنصار والمهاجرين ، ثم أقرت بها ، بعدهم ، بقية المسلمين إقرارا إن يكن عن رضا فليس يخلو من مظهر المتابعة والانقياد إن لم تكن له هيئة الإذعان والتسليم . . ولم يأت عن بيعة « وصية » كبيعة ابن الخطاب — خصه بها الخليفة الأول ، بتقدير رأيه وحده ، دون غيره من آراء . . ولم يأت عن بيعة « ثلة » — كبيعة عثمان — حصرت بها الإمرة فى ستة نفر ، لا تخرج عنهم ، ولهم وحدهم الحق المبرم فى انتقاء أحدهم كأمير . . ولكنه إنما جاء عن إجماع ، أو ما هو أدنى إلى الإجماع ، بالإرادة العامة للأمة ، ممثلة فى أهل المدينة ووفود مصر والبصرة والكوفة وهى ، حينذاك ، أمهات البلاد والأمصار ، وموئل أصحاب الرأى ، ودعاة الإصلاح والتغيير .

وتفرد فى شعبية الحكم التى تجعل للحاكم نفس ثقل المحكوم ، فى ميزان الواجبات والحقوق ، بغير تمييز ولا فضل مظهر يقبلان عليه من خلال هيبة المنصب ، وسطوة النفوذ ، ويرفعان قدره على الأقدار ، ورأسه على الرءوس . . .

إلى هذه المساواة الكاملة بين الإمام وبين رعاياه ، يشير فى بيانه ، فيقول :

« . . . إنما أنا رجل منكم . لى ما لكم ، وعلى ما عليكم . . . »

فإذا ارتضى ، إلى جوار هذا — اختيارا وطوعا كما خبرناه — أن يكون أقل نصيبا ، فى مطالب العيش والمنافع المادية ، مما يتاح لعامة رعاياه ، فليس فحسب ولوعا منه بالتقشف ، ونزوعا إلى التقشف زهدا فى الدنيا ، ورياضة النفس وقمعا لجماح الرغبات . بل هو أيضا حسه الإنسانى المرهف قد حدا به أن يعيش معيشة إدقاع ، ليكون أسوة ، فلا تضيق حياة الفقر بعد هذا بمحروم ! . .

وإذا قصر حق الأمة فى الشورى على أمورها التى لم تعرض لها أحكام القرآن ، ولم تتناولها سنة الرسول ، فليس ذلك تضييقا على حرية الرأى ، وامتهانا لها ، بل هو الالتزام الواجب بالدستور العام ، والتنظيم الذى لابد منه لتلك الحرية صيانة لها أن تعبث بها شهوة الكلام فتغدو فوضى ، ترتع بها ثرثرة الألسن بلغو القول ، وسقط الأفكار ، ويسود فيها الادعاء والافتراء ..

وقد أراد على أن يقى قومه مغبة هذا الانحراف عن حدود حرية الرأى ، والخروج على مفهومه ، فحذرهم أن تستخفهم شهوة الحديث وشغفهم البالغ بالنقد إلى المبادرة لمعارضة الحاكم فيما يرى أو يفعل ، معارضة قد تثير ثائرة الشعب عليه لا لا ابتغاء حق ، ولا لاجتناب باطل ، وإنما ولوعا بممارسة هذه الحرية على أى وجه ، تأكيدا لذواتهم ، وإظهارا لوزنهم فى مضمار الحياة العامة ، ودورهم فى سياسة الأمور . .

قال :

« . . . . امضوا لما تؤمرون به ، وقفوا عند ما تنهون عنه . ولا تعجلوا فى أمر حق نبينه لكم ، فإن لنا عن كل أمر تنكرونه عذرا . . . . »

ومدلول قوله ، بظاهره وباطنه ، أنه دعوة عامة ، لكافة أبناء الشعب ، أن يعنوا الفكر فى كل « مشروع قرار » تمده السلطة الحاكمة ، ويتناولوه بالمناقشة الواعية قبل إقراره ، أو إنكاره . . فهو هنا لا يمنع المشورة ، بل يريدها على بصيرة . ولا يأبى النقد ، بل يشاء له النهوض على أساس راسخ من الإحاطة السليمة بكل دقائق المنقود .

غير أن هذا الأسلوب القويم لممارسة حرية الرأى — على المستوى الشعبى العام — لم يرض فئة من العلية ، رأت لنفسها فضلا على من عداها من المواطنين يرتب لها — دونهم — حقا خاصا يمنع الحاكم أن يبرم أمرا إلا أن تشير ثم تشاركه الإبرام ! . وها هم أولاء ينقمون عليه ما ينبغى أن يحمد له ، وينكرون منه ما يجدر أن يكون موضع إقرار ، ويعيبونه بما يجب أن يكون مثار إكبار .

ثم لا يكتمون فى نفوسهم العيب والنقمة والإنكار ، بل يشيعونها فى الناس خلافا له وحربا عليه . . .

ويأتيه خبر هذه الحرب المعجلة وما مضت إلا ساعات على إعلانه المساواة الكاملة بين الناس :

« يا أمير المؤمنين . انظر فى أمرك ، وعاتب قومك : هذا الحى من قريش . فإنهم قد نقضوا عهدك ، وأخلفوا وعدك ، ودعونا فى السر إلى رفضك . . لأنهم كرهوا الأسوة ! . . »

فإن حق للإمام أن يعجب لتحولهم السريع عنه ، ويغضب لانتقاضهم المفاجىء عليه ، فالبشر كافة أحق بالعجب والغضب ، لأن هذه القلة منهم — ما بلغ مبلغ اعتزازها بأنفسها ، واعتدادها بأقدارها — قد دفعتها أثرتها إلى إنكار حق كل من عداها ، من أبناء الإنسانية ، فى المساواة التى كفلتها الطبيعة والشريعة للإنسان . .

٢

الحرب بينهم وبينه كانت حربا على المبادئ ، قبل أن تكون حربا على النفوذ . ما أن جاءته ولاية الأمر حتى أشعلوا النار . الشرارة الأولى لهذا الحريق لم تكن بنت اليوم . . كانت كامنة فيهم : جمرة فى الرماد ، منذ سنين . كانت هاجسا فى خواطرهم ، يشغل أمنهم ، ويملك عليهم آفاق السلوك والتفكير ، والإمام — بعد — ناء عن الحكم يخشونه أن يقرب منه ، ويسعون بكل جهدهم ليمنعوه أن يضع قدمه على أول طريق السلطان . .

أولئك وهؤلاء كانوا من حذر بلوغه الإمرة على سواء . . خصمه الذين فى صفوفه ، كخصمه الذين احتوائهم عدوه ، خافوا جميعا سليقته الصافية وشيمه البيضاء ، وخطرات ذهنه الملتزم بحدود الكرامة الإنسانية كما رسمتها الفطرة السليمة وأكدها الاسلام . . الأولى أسرعوا فمالوا ، من البدء إلى جانب الشام حيث أعجلهم الجشع ، وراودتهم الدنيا الأموية عن نفسها تعرضها لهم ، فى قمة الفتنة والزخرف ، بضاعة تأخذ القلوب والأنظار : رخيصة بدرهم ، وفيرة بقنطار ! . . والأولى بادروا إلى الالتفاف حوله ، قد استخفهم الرجاء وهم يوقنون الغلبة على دربه ، فلا عليهم إذن من التمهل قليلا إلى ساعة الفصل ، وإنها لقريب ، وإنها لآتية بالانتصار ولا بد أن يثمنوا على الانتصار ! . .

فأما خصمه من فريقه الذين توهموا وشك النصر ، واستقصروا فى أخيلتهم ، أمد الكفاح ، فقد غرتهم نظرتهم ، لأن ذلك الأمد قد طال . . الأمانى التى غرسوها فى أرضه بدت لهم ، بعد حين كجذع بلا جذور ! . . وليالى الانتظار الرتيبة لم يطلع لها صباح ! .

وأما خصمه من عدوه فشأنهم شأنهم ، اليوم وأمس ، على نفس الحال . . غزيه دائما يغذى جشعهم ، ويربى شهوتهم ، ويعد لهم فى النفع ، إبان المحن التى تعتصره ، وإبان اليمن الذى يواكبه ، بما يشاء وتشاء لهم نزوات الطمع

أو شطحات الأحلام . إدناء واستحقاق . مناصب وعمالات . أعطية وقطاعات . . وكلما مضى الوقت نثر لهم من وفاضه مزيدا من المصانعة . من الرياء . أو الجاه ، أو الأموال حسبما تهوى الأنفس ، حتى تزاحمت على إناثة الـكلاب ! . .

ولا عجب أن يتعلقوا بدنياه ولاعجب أيضاً الايرعووا عن التدلى فى أغوار باطله إلى القاع ، لبلوغ قاربهم ، لأن فعلهم مسوغ مفهوم بمعيار الطبيعة البشرية التى تأتمر فى سلوكها بأمر الغريزة الفجة ، وتستجيب لنداء الأجساد قبل نداء الأرواح . فالاشتهاء أقوى عليها من التعفف ، والهبوط أيسر دائما من الصعود . . ولا ضير من بعد على أحد منهم — وعذره حاضر — إن هو أسرع إلى هذا الطريق الوبىء وله أسوة فى نفر غير قليل ، من قادة الرأى فى البلاد ، سبقت خطاهم خطواته على نفس الدرب . كثرة منهم ذوو سابقة إلى الاسلام ، وعلم بالدين ، وصحبة مع الرسول ، وبلاء فى الجهاد ، ونظرة ثاقبة عند تفحص الأمور ، ومكانة علية بين قومها لا تـكاد تدانيها المـكانات .

وكيف لا وتلك فئة بلغت الشأو فى رجاحة العقل ، وطيب الذكر ، ورفعة الشأن ، ولها فى بناء مجد أمتها ماض مشهود ؟ . أم الناس نسوا منزلة هاتيكم النخبة القرشية ، وعلوها بينهم بالأصول والأحساب ؟ . . أم الذاكرات غضت عنهم وفيهم صفوة من الأعلام ، أئمة المجيرة ، ورواد الايمان ؟ . أم الأعين عشيت وغم عليها أن تتبين شخوصهم وإن منهم بقية أهل الشورى وإن عهدها بهم قريب ؟ .

بل كانوا جميعا كألسنة اللهب فوق أرؤوس الربا وقمم الجبال . أعين السادة وأعين العامة تتعلق بهم إذا طرأ خطب أو حزبت شدة ، كما تتعلق الأنظار بكل شعلة أوقدت على علم فى متاهة الفلاة ، يشيم عندها أخو الصحراء ما يروى من ظمأ ، ويشبع من جوع ، ويؤمن من خوف بعد طول تجواله الضال فى سهول الرمال . .

كلا ما غابوا إلى الآن عن بال . . الأعوام التى انقضت بعد مولد الإسلام لم تطمس سيرتهم . والفترة القصيرة منذ إمرة الامام ، لم تمح موقفهم منه ، عندما أعلن عن المساواة . ومظهر « البطولة » — الذى تحملهم إياه موقفهم ذاك ،

ورفعهم فى نظرة قريش عامة ، وسادتها خاصة ، وكل من رأى ، غير هذه وهؤلاء الصواب عين الصواب فى تناديهم بتمييز العرب على من عداهم من الشعب ، وفى دفاعهم عن « قدامة » النظام الذى ابتدعه ابن الخطاب لتقسيم العطاء فى الناس — كان مظهرا فياض السنا ، متلألئ البريق ، لا يسهل أن تعشو عنه الأذهان .

فأى بطولة تلك فى البطولات ؟ . .

بطولة تناولتها نقائض التقدير بحسب اختلاف المعايير من الخصوم إلى الأنصار ، فأثارت العجب كما أثارت الإعجاب ، والإنكار مع الإكبار . .

نظر إليها ، بعين خصومها المعارضين ، فإذا هى على طرف ، أو على حافة هاوية ، يكاد أصحابها أن يترددوا فيها ، حتى لقد قال فيهم قائل ، ينعتهم بآية من كتاب الله :

« . . . لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون . . . »

وصور موقفهم من الإمام وانتقاضهم عليه ، إذ رأى وجوب المساواة بين كافة المسلمين على غير تباين وبغير تمييز فكانت الصورة المنقولة إليه ، مرسومة بالحروف :

« . . . لما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا ، واستثاروا عدوك ، وعظموه . . . فرقة للجماعة ، وتألفا لأهل الضلالة . . . . »

فرأيهم إذن ، بهذه النظرة المعارضة ، رأى العناد والجحود لا رأى الإنصاف والتعقل تجاه ما أذاعه على من سياسة الاصلاح ، ودواعى المراجعة والتغيير للأوضاع القائمة وهى عندئذ خطأ شائع أو صواب مهجور . وبطولتهم المتحولة غريبة فى البطولات ، لانها تفتقر إلى عناصر البطولة الأصيلة ، بقيمها الرفيعة ، من مروءة واستقامة وتضحية . فهى بطولة الأنانية والاستئثار . . التى تنكر « الغير » لأنها لا تؤمن إلا بالذات . . التى تستملك بالوضع ما جاءها بنفع . . التى تنفرد بالكسب وتوزع على سواها الخسار . . التى تتذرع بكل الذرائع ، وتتعلل بكل الاسباب ، ليتسنم أصحابها الرءوس ، ويركبوا الرقاب . . التى تقبض

ولا تنفق ، تحوز ولا تبذل ، تكتنز ولا تعطى ، تأخذ من غيرها لتثرى ويفتقر ، لتسمن ويهزل ، لتتخم ويجوع ! . .

ونظر إليها ، بعين أعوانها المؤيدين ، فإذا هى على الطرف الآخر النقيض ، فوق أعلى قمة ، يكاد أصحابها أن يبلغوا بها الشأو الذى لا شأو بعده لتطلع إنسان ، حتى لقد بدوا لنصيرهم حماة حق ، يذودون عنه أن يهدر ، أباة ضيم يدافعون عن كرامة قومهم أن يمتهنها جبروت السلطان . .

فكأنهم ، إذ يجابهون الحاكم ذا الحول والسطوة — هم العاطلون آنذاك من كل قوة إلا قوة الرأى الشجاع — دعاة مبدأ لا يبالون فى سبيله أن يقتحموا الهول دفاعا عنه ، وكفاحا لنصرته ، وإن أيقنوا أنه الدفاع المفلول الذى تشيل به كفتهم والكفاح الخاسر الذى لا غناء فيه . . فهم إذن . بوضعهم هذا فى ساحة فداء ، وبمنزلة شهداء ! . .

ولا عليهم أن يروا ما يرون ، معارضين أو مؤيدين ، فلا قيد على التفكير . ولهم ، كغيرهم ، حق التعبير . ولا حريجة على الناس أن يختلف بينهم الرأى فيما يعرض لهم من الأمور ، لأن الاختلاف أشبه بهم من الاتفاق ، والتغاير أدنى إليهم من التماثل . تلك نتيجة طبيعية مؤكدة لتعدد زوايا النظرات إلى الأمر الواحد ، بسبب تباين عناصر الرأى ومكوناته من فرد لآخر ، وقدرات النظر على الإحاطة بجوانب هذا الأمر والنفوذ فيه إلى ما وراء سطوحه الظاهرة نحو قاعه البعيد . .

لكنهم يعارضون فإذا هى المعارضة التى تشى بالنية المعقودة على الخلاف قبل التمحيص ، وبالانتقاض دون موجب له تقتضيه مبادىء النقد السليم للموضوع المعروض . .

ثانى أيام بيعة الإمام ، نراهم يجتمعون ويجمعون . ونسمعهم يلومون ويتهمون . فلا نسمع ولا نرى غير زمرة كأنما جمعها النفع الخاص فأبت إلا أن تدعو له ، وتؤلب حوله ، وتثير ثائرة من تستطيع لعلها أن تحتفظ لنفسها بمزاياها الطبقية المجحفة بالجمهور ، وتستبقى حقا تقليديا احتازته ، سنين طويلة بغير حق ، وهو يوشك هذه الساعة أن يدير لها ظهره ، ليبدأ أولى خطواته على الطريق عائدا إلى ذويه ! . .

يطالبون عليا بما دعاهم إلى موقفهم ، فيقولون بلسان زعيم لهم من سادة فريق الأعلام ، وكأنما قد أرادوا أن يتملقوا فيه صلة الدم ، ووشيجة القرابة :

« . . . نحن إخوتك ونظراؤك من بنى عبد مناف . ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال أيام عثمان . . . »

ولاء تجارة ! . سلعة تعرض وثمن يقبض ! . . فهل هى بيعة ، أم هى بيع وشراء ؟ . .

ويبلغونه ، مرة أخرى ، دعواهم ، فيقول له زعيمان آخران ، صاحبا سابقة إلى الإسلام :

« . . . أعطيناك بيعتنا على ألا تقضى الأمور ولا تقطعها دوننا . وأن تستشيرنا فى كل أمر ولا تستبد بذلك علينا ولنا من الفضل على غيرنا ما علمت . . فأنت تقسم القسم ، وتقطع الأمر ، وتمضى الحكم على غير مشاورتنا وعلمنا . . . »

أفهذا ما تبيحهم إياه الشورى مراجعة للحاكم بالرأى ومعاونة له بالنصيحة ؟ . أم هو مشاركته الحسم واجتزاؤهم بنصيب من الحكم معلوم ؟ . . أم هو حجر على الإمام ووصاية ما يريدون ؟ . .

فإذا استفسرهم الإمام سر خلافهم له ، ضربوا ، هذه المرة ، فى الإفصاح إلى مداه ، كاشفين عن نواياهم ، كأنما قد آثروا المجاهرة على المداورة ، والمواجهة على الالتفاف ، بلوغا إلى طلبتهم المنشودة من أقصر طريق .

يصارحونه بغير التواء :

« . . . خلافك عمر بن الخطاب فى القسم ! . إنك جعلت حقنا فى القسم كحق غيرنا . وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا ، وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا ، وظهرت عليه دعوتنا . . . »

تلك إذن هى القضية ! . .

ثمن قيامهم بنشر الإسلام ، وإعلاء كلمة الله ! . .

قسم عمر ! . .

ولا تعلة غير هذه التعلة يمكن أن تجتمع عليها مثل تلك الزمرة الذين لا تربطهم إلا كبرياء السيادة ، ثم يختلفون ، بعد هذا ، فيما يدخل فى تركيب طباعهم وما جبلوا عليه من سلائق ، وباين بينهم من نزعات ! . .

فهم سادة فى قريش بلا نزاع . وهم سادة بين العرب أجمعين بأصلهم القرشى الذى يعرفه لهم ، ويجلهم به كل أصيل فى الجزيرة العربية من أى قبيل . وهم سادة بالتراث التالد البعيد ، أو بالتراث الطارف الجديد . .

زمرة كهذه تضم ، إلى من تضم من نابهى الذكر فى أمتها ، أمثال طلحة ابن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم من أجلة قريش فى تلكم الآونة ، لهى زمرة خليقة — وإن تفرقت فى الصفات والخلال — أن تجتمع على اعتزازها بمكانتها فى المجتمع ، وعلى كل ما يوحيه الاعتزاز من مظاهر البروز أو ملامح الامتياز . .

فلقد عرف لأفرادها هؤلاء ، كما عرف لأسلافهم قبلهم ، فى عهود الجاهلية المنقضية ، شأن مرموق ، لم يرتفع لشأوه فى الجزيرة مقام . كانت لهم ، فرادى أو مجتمعين ، عراقة الأصل ، أو نبل النسب ، أو جاه الغنى ، أو سطوة الرياسة ، أو وضاءة المكرمات ، أو فخار الوظائف الشرفية كالرفادة والسقاية واللواء . . حتى إذا جاء الإسلام لجب كل شرف إلا شرف الانتساب إليه ، وانضما عنهم مفاخرهم الموروثة ، لم يتضع لهم منزل ، ولم ينقص مقدار ، لأنهم قد أثيبوا على اعتناقه إياه عزة خيرا من عزة ، وفخارا أعلى من فخار إذ غدوا به وإنهم لأصحاب سابقة إلى الإيمان ، أو هجرة مع الرسول ، أو دعوة إلى الهدى ، أو بلاء فى سبيل الله ، أو مشورة للخلفاء . .

على أن هذه المفاخر المعنوية القديمة التى كانت عادة تجشمهم البذل ، ما لبثت أن ترجمت ، بدخولهم فى الإسلام ، إلى مال مقبوض يضيف إلى شرف الذكر قوة الثراء ! . . فقد استحدث عمر بن الخطاب ، باجتهاد رأيه إبان ولايته الأمر ، نظاما للقسم رفعهم فى حساب العطاء درجات ودرجات فوق غيرهم من جمهور الأمة بعد

أن كانوا وإياهم ، أيام البعثة النبوية وطوال خلافة الصديق ، على سواء .. ثم جاء عثمان فسار على سنة سلفه فى الاجتهاد ، فأبقى على وضعهم الاقتصادى الممتاز ، وزاد عليه ، أحيانا عديدة ، إلى أنصبتهم المصرية المفروضة ، ألوانا أخرى من عناصر الدعم المادى ، فى هيئة منح وهبات وقطاعات وأعطيات ، أولاها من شاء حسبما ارتأى تقديره وشاء ..

ولا مثار هنا لمناقشة حق الحاكم — بل حق أيما امرىء من الناس — فى أن يجتهد الرأى عندما تعرض له مسألة تتطلب الحسم ، فذاك معترف به بغير مراء ، وله بعد هذا ، إن أخطأ أجر وإن أصاب أجران ، كما يقال . ولا مدعاة أيضا لإثارة الجدل حول حق الحاكم فى المنع أو المنح ، فى الحرمان أو فى السخاء ، لأنه الحق الذى ينفسح فيه مرمى النظرات ، وتختلف الآراء من نقيض لنقيض بين المعارضة والتأييد ، ثم لا يخلو — مع التشيع فى مساندته — من أثر ولو ضئيل لاتهام صاحبه بانسياقه مع عاطفته ، أو بغلوه فى التقدير ، إن لم يكن بالمحاباة والانحياز ! ..

فإذا رأت تلك الزمرة فى بيان على أنه نازل بمكانتها فى أعين قومها ، سالبها مناط فخرها الذى تعتز به بينهم سمعة وثروة ثم ضاقت به أو أنكرت قبوله ، فذاك هو السلوك الذى لا يستغرب لأنه أليق بطبيعة البشر ، وأدنى إلى خلائقهم التى تتحفز — بحكم تكوينها — إلى الدفاع الغريزى عن الميل للتفوق فضلا عن الميل للاقتناء . وإذا قبل مثل هذا الدفاع ممن كانوا بالجاه ، وألفوا العيش فى أطايب الحياة من أشباه مروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وطلحة ابن عبيد الله ، فإنه لا يرفض أيضا من عبد الله بن عمر وإن كان — دون جمعهم — صاحب ورع وزهادة ، لأنه عندئذ ليس دفاعا عن نشب الدنيا أو مظاهر الامتياز ، بل هو الدفاع الخليق بابن بار بأبيه ، متشيع لرأيه ، معتز بتراثه ، وفى لذكراه ! ..

لكن الاجتهاد ما كان ليكون فى سنة مقررة أو نص معلوم .. وقد وضع عمر نظام قسمه باجتهاد رأيه الخاص ، مندفعا إليه بكل طاقته التحررية التى تراها دائما وهى تحاول أن تحكم العقل ، وتملى نظرته الطليقة المتفحصة على نظرة

المتابعة والتقليد . . فقديما عرف عن ابن الخطاب أنه كان يراجع رسول الله في غير تحرج ، ولا يمتثل توجيهه — كشأن سواه — امتثال التسليم ، بل امتثال التفهم والاقتناع ، ثم حالفه التوفيق في أمور . . وقديما عرف أيضا إعماله الفكر ، ومطالعته الصديق بالرأى الذى يعارض ولا يتقبل نظرة الحاكم الملزمة بخضوع التابع المتبوع . وأبلغ من هذا وذاك في شجاعة المواجهة ، التى لا تصدر إلا عن فكر متحرر ، وذهن نقاد ، أنه كان يراجع نفسه فيما يرى غيره أنه من المسلمات ، فكان يتبصر في شئون دينه كما يتفكر في شئون دنياه قبل أن يقر وينقاد ، حتى لقد أثر عنه أنه كان لا يتردد ، كلما نظر إلى الحجر الأسود ، عن الجهر بقوله : « إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك ! » — فلا حيلة له هنا إلا التسليم ! . .

بفكره الطليق المتحرر ، وذهنه المتفحص النقاد ، أجال عمر نظرته في القسم ، حين ولايته خلافة المسلمين ، فرأى أن يجئ بنظام له جديد على غير ذلك الأساس التقليدى الذى كان يلتزم المساواة في التوزيع . . ولا عيب عليه أن استحدث ما دعاه الوضع إلى الاستحداث ، فتغير الزمن والظروف قد يحمل مقدمات التطور . والتطور ، عادة ، يستوجب التغيير . ولا عيب أيضا ، من وجهة المنطق ، أن يرفع أو يخفض الأنصبة المستوية ، مميزا بين الناس على قدر فضل بعض على بعض في حساب السلوك ، وبمعايير المبادرة والاقتدار والعمل والإجادة ، تقديرا منصفا للهمم ، وتقييما عادلا للنشاط ، وجزاء وفاقا للأداء . . فليس من سارع إلى الإسلام مبادرا كمن تخلف عنه إلى حين وليس من دخله طائعا كمن دخله وهو مقهور . وليس من حارب له كمن حارب عليه . وليس الصريح في انتسابه إليه كالصيق . ولا المؤمن كالمدهن . ولا المهاجر كالطليق . .

ومع هذا كله فعوامل التغيير التى رأى عمر فيها سببا لاستحداث نظامه لم تكن غائبة قبل الاستحداث . . فهى هى إبان عهد الرسول لم يزد عليها بعده جديد . وهى هى في خلافة أبى بكر الصديق . وهى هى التى أشار ابن الخطاب على سلفه — صدر إمرته — أن يتخذها سبيلا إلى المراوحة بين الأعطية بالزيادة والنقصان بحسب الأقدار والمنازل ، فرد أبو بكر مشورته ، وأبى إلا أن يظل الناس ،

كالم، فى القسم سواء .. فإذا رأى الخليفة ، بعد انتهاء عهد صاحبه ، العدول عن نظام لنظام ، فإنها الرؤية التى تبدو للمتأمل كأنها اجتهدت بغير موجب للاجتهاد والعدول الذى كان التزام السنة المقررة يغنى عنه ، إذ هى أحق بالبقاء ، وأولى بالاقتداء ! . .

بأهون الفروض ، وبأرفق الظنون ، لا يبعد أن يقال عن أولئكم الزمرة « الممتازة » أنها رأت الحق فى قسم عمر الذى عاشوه سنين عديدة ، أربت على العشرين ، طوال حكم عمر وخلافة عثمان . فإذا هم تشبثوا به ، واشتشمروا النضاضة فى العدول عنه ، فلهم العذر المبرر ، وإن لم يكن العذر المقبول ، لأن الناس، عامة، خليقون بأن يشق عليهم الخروج مما ألفوه .. وإذا هم أبوا دعوة على التى تعيد المساواة فى العطاء — وهى عندهم مورد ثراء ، وتسلخ عنهم مظهر فخار — فإباؤهم هنا هو « رد الفعل » النفسى لتلك الدعوة المفاجئة ، أو الدفاع « الفطرى » الذى تفرزه الغريزة ذيادا عن القنية ، وحماية لتفوق الذات . .

لهم إذن ، من هذه الوجهة ، العذر الذى قد يسوقه معتذر ، تبريرا لانتفاضتهم المعارضة للإمام ، فإذا هو العذر المتعسف ، الذى يشبه الأسف ، ويقارب الاعتذار ! . . ولهم تبريرهم الذى قد يساند موقفهم ، ولكنه التبرير القائم على التمحل والاحتيال ليس القائم على الحجة والتدليل ! . . وما نظنهم قد علموا الحق فى جانبهم علم يقين ، بل خالوه ، ثم أطمعهم الأمل أن يلتووا — بحركتهم تلك — بعلى عما قدر وقرر إلى ما قدروه وأرادوه ! . .

فكأنه التهديد ، مسلكهم هذا ، أو هو التلويح بالتهديد ، من قريب أو من بعيد ! .. أما هم فقد تهامسوا بشجوهم . وأما هو فقد طالعهم بعزمه الذى لا رجعة فيه . . فإذا هو ينطلق إلى المسجد مع الصباح يحدث الملأ ، ويومئ فى طرف من حديثه المبين الصريح إلى أولئك الذين استمرءوا مواضيهم ، وازدهوا بعنازلهم ، واستمرأوا أن يشمنوا على الإيمان ، مؤثرين أن يظلوا على خطأ شائع على أن يفيئوا إلى صواب مهجور ! . .

يقول ، وعجبه منهم ، يتقد فى الكلمات :

« ... يا معشر المهاجرين والأنصار .. أتمنون على الله ورسوله بإسلامكم ! .. بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين .. »

ثم يبصر وإنه ليحذر :

« .. ألا إن هذه الدنيا التي أصبحتم تمنونها وترغبون فيها ، وأصبحت تغضبكم وترضيكم ، ليست بداركم ، ولا منزلكم الذي خلقتم له .. فلا تغرنكم فقد حذرتموها .. فأما هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثرة . وقد فرغ الله من قسمته .. »

حجة لا تثبت أمامها حيلة وإعذار لا ينهض له اعتذار . فلا منّ على الإيمان يقبضه إنسان من إنسان . ولا رخصة لأحد فيما قضى به وأبرمه الله ..

فإذا فرغ من بيانه هذا للناس ، دعا إليه بخاصة القوم الذين يناوئونه في القسم ، ويتململون لميزتهم الطبقية بما وضعه ابن الخطاب ، يذكرهم ما أنسوه ، أو ما يريد بعضهم أن ينساه .

يخاطب زعيميهم ، صاحبي السابقة ، وإنهما لأدنى إلى الرجوع ، وأحق بالإقرار ..

يقول :

« ... قد وجدت أنا ، وأنتما ، رسول الله يحكم بذلك ، وكتاب الله ناطق به ... وقد عاسبق إلى الإسلام قوم ، ونصروه بسيوفهم ورماحهم ، فلم يفضلهم رسول الله في القسم ، ولا آثرهم بالسبق ... والله سبحانه موف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم .. »

وتلك نظرة الله والرسول .

وتلك هي النظرة التي عليها قد عزم الإمام لأنها تحقق العدالة الشاملة ، كما جاء بها الإسلام . بلا تمييز لفرد على فرد ، ولا لطبقة على طبقة وإن اختلفوا بالمكانات والأقدار في حساب طاعة الله ، وحسن البلاء ، وسابقة الإيمان — دع الأحساب والأنساب ! .

ما هو إذن بتغيير هذا الذى طالعهم به على ، وشاء حملهم عليه وإن كرهوه .. بل هو الحق المهجور . تقويم الخطأ . تغيير التغيير .. هو الخروج بالأمة من كزازة قاعدة « خاصة » إلى رحابة قانون عام يستوى فى ظله الجميع .. والعدول عن اجتهاد لم يكن له من موجب يدعو له ، إلى سنة مقررة ، ونظام مشروع ..

حق العتيق والعسيق لهما حقهما فى القسم كالأحرار والأصلاء ، لأن الأمة بطبقاتها سواسية . فثمرة الجهد فى المجتمع سواء إذن بين أهله . وناتج العمل مردود على كل من عمل بذهنه أو بعرقه بغير تفرقة ، بدرهم فما دونه « ولو كان عبدا حبشيا مجدعا » كما يقول الإمام ..

ولا مراء . فقد أقبل الناس ليقتسموا ، ثانى أيام إمرة على ، استجابة لأمره . فقال لكاتبه أبى رافع :

« ابدأ بالمهاجرين فنادهم ، وأعط كل رجل حضر ثلاثة دنانير . ثم ثن بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك . ومن يحضر من الناس كلهم : الأحمر والأسود ... »

وعندما سأله صاحبه سهل بن حنيف :

« يا أمير المؤمنين .. هذا غلامى بالأمس ، وقد أعتقته اليوم ؟ .. »

أجابه على الأثر :

« نعطيه كما نعطيك » .

فإذا أبت قريش وسادتها ، كتلكم الزمرة ، هذه العدالة الشاملة ، فهو الإباء الذى ينبغى مقابلته بالإباء ، لأنه يستند إلى زهو الاستعلاء ، ولا مكان له فى شرعة ترى الناس كافة فى الحق على مكانة سواء .

٣

سخط الأسرة في القسم لم يتبدد من نفوس كثرة غالبة من أنصار النظام العمرى بعد قرار الإمام .. لم تنقضه الحجة الدامغة التي تجب بها السنة المقررة كل اجتهاد .. لم يزل خطره على المساواة الاجتماعية الواجبة بين أبناء الأمة الإسلامية ، ولا على الإنسان — عامة — كما ينبغي أن تكون حياته الخلقية سوية ، أو تكون الحياة إنسانية .. شجرته ظلت فارعة صلبة الجذع . ضاربة الجذور إلى أبعد عمق . عصية على الاقتلاع ..

الشهور الطويلة من إمرة على ، التي مضت منذ بيان التعديل ، وأصبحت في عداد السنين ، لم تستطع أن تغير الناس وإن ظن أنها كانت كفيلة بالتغيير . فالأعوام التي عاشوها في ظل النظام الذي غيرهم وزادت على ثلث جيل ، كانت عمرا من الإلف مكن لذلك النظام في الثبوت والاستقرار .. جعلت منه تقليدا مرعيا ، له قوة التقاليد ، فضلا عنه كقانون موضوع .. نحلته من سيرة صاحبه وهيبته ما يشبه القداسة .. أقامته دعامة راسخة للحياة الاجتماعية ، وأساسا من أسس الهيكل الاقتصادى ، وعنصرا من عناصر الاتجاهات الفكرية في الأمة ، قر في أذهان الكثيرين أن هدمها خليق بأن يؤدى لا محالة إلى الإخلال بتوازن هذه الحياة .. أحالته عادة سائدة انتزاعها شديد وإن خالفت السنة المقررة ، والمنطق السليم ، واستقامة العدالة ، لأن العادات قليلا ما تستجيب للحجج والبراهين ..

حتى محنة « الجمل » التي أودت في حينها ، بطائفة غير قليلة من زعماء أصحاب الامتيازات ، ومزقت وحدة دعاة التفاوت « الوضعى » في الأعطيات والحظوظ ، لم يكن بوسعها رد النظرة الطبقية إلى جادة الصواب .. قضت حقا على نخبة من الطبقة الممتازة ، كقوة سياسية مناوئة لها وزنها في ساحة الصراع السافر ، ولكنها لم تستطع أن تقضى ، بحال ، على التمييز كفكرة عششت في

خواطر جمهرة المؤمنين بالفوارق ، الكافين بالاستئثار ، الطامحين إلى استعادة ما فوته عليهم الإمام من حقوق مكتسبة بقوة القانون ولو بعد حين . .

ولم يكن عسيرا على هذه الفكرة البقاء ، كما لم يكن عسيرا عليها التزود يوما وراء يوم ، بما يكفل لها كل أسباب النماء والاستفحال . .

ولا غرو . . فالذين نجوا من الصراع الحربى ، غدوا بعده وهم أشد تشبثا بما غلبوا عليه وحيل بينهم وبينه بإعلان على ثم بقوة السلاح . والذين كفوا عن ذلك الصراع أيديهم ، ونأوا بنفوسهم عن المشاركة فى هذه الفتنة الأولى ، لم يكونوا قد اعتزلوا الخلاف — من البدء — إيمانا منهم بصحة مذهب الإمام فى التقسيم ، بل إيثارا ، لا مناص عنه ، للتريث الذى يجنبهم الهالك ، ويفسح لهم فرص التدبير . . ومن وراء هؤلاء وأولئك ، كان ثمة جمع غيرهم من المنتفعين بنظام عمر ، لا ينبغى إسقاطهم من الحساب ، يعيشون فى صفوف على ، على ولاء له وتأييد ، وعداء لخصمه ولدد ، وهم لا يملكون — أمام كر الأحداث ، وتوالى حركات الانتقاض والتمرد على السلطة الشرعية — إلا البقاء حيث هم ، والكفاح تحت راية الإمام ، بلوغا لهدف كبير قبل هدف صغير ، أو تقديما لصالح الدولة العام على صالحهم الخاص ، حتى يتحقق السلام ويستقر النظام .

ثم صبت مشاعر الأنفس الزيت على النار ! . .

بيان أمير المؤمنين ليس ، فى حقيقته ، مجرد إلغاء قسم وإثبات آخر عودا إلى الوضع الأصيل بسيادة المساواة الشاملة فى التقسيم . ولا مصادرة مشروعة لما أصابه قوم من ذوى الحسب والمكانة من قطائع وأموال فى عهد عثمان بأية حجة وتحت أى عنوان . لم يكن وسيلة لإثراء بيت المال بالنزول بأنصبة « الخاصة » التى فرضها عمر ، إلى الحد الشرعى الذى عمل به فيهم رسول الله . . ولا كان أيضا سبيلا لهذا الإثراء باستعادة « الهبات » والأحباس العينية والمالية التى أخذها من ذلك البيت — بغير حق ، وتمييزا — ذوو الحظوة لدى ابن عفان . ولا كان كذلك ابتغاء تسخير فائض العطاء ، المتخلف بعد خفض الأنصبة الممتازة إلى المستوى الموحد ، فى زيادة أعطية عامة الناس . .

لا بهذا ، كله أو بعضه ، من أمثال هذه الأساليب ، كان أمير المؤمنين يرجو من الأسوة بلوغ تلك الأهداف ، بل لغيرها من المقاصد والغايات . . فمهمة بيت المال حتى ذلك الحين لم تكن قط الاغتناء والامتلاء على حساب الأعطيات والأفياء ، ولا تكديس الأموال إظهارا لقوة الدولة من خلال وفرة الثراء . بل كانت تلك المهمة ، في المقام الأول ، أشبه شيء بوظيفة الجدول الجارى الذى يستقى من النهر ليبث ما يستقيه فيما حوله من أراض وزروع فيهبها مادة الحياة والخصب والنماء . فلقد كانت الأموال ، على اختلاف الأنواع والأشكال ، من نقود ومعادن ومتاع ورياش ، تتدفق على حاضرة الدولة الإسلامية الظافرة من شتى البقاع والأصقاع ، فلا تكاد تودع بيت المال إلا لتفرز ، وتحصى ، ثم توزع عطاء على المسلمين . . ولقد أثر ، فى ذلك الحين ، أن القيم الظاهرة أو الخفية لهذه المودعات ، سواء أكانت قيمة جمالية أم فنية أم تاريخية ، لم تكن شفيعا يمنع توزيعها أو يجيز اكتنازها والإبقاء عليها ، اعتزازا بروعتها ، أو تخليدا لذكرى احتيازها ، حتى لقد قطع بساط كسرى — وإنه لآية من آيات الفن تفوق كل إعان — ووزع كغيره من عروض الأموال اتقاء أن يستبيح حاكم لنفسه الحق فى حجب أى نوع من المال عن مستحقيه بأية حجة ، وتحت ستر التقدير . وقد علم ، كذلك ، أن الإمام كان يراجع ما فى بيت المال ، كل جمعة ، ليفيء ما لعله جد عليه ، أو فضل منه بعد القسم ، على المسلمين ، ولو كان إبرا أو خيطا أو مزقا من إهاب وقماش وما دونها من سقط المتاع وأهونه غناء ونفعا للناس ، ثم لا يهدأ باله حتى يكنس الدار ، ويصلى فيها وهى خاوية ركعتين لله ، شكرا وحمدا على أن أبرأ ذمته ، وأدى كل ما تحت يده لكل ذى حق فيه . . ثم ثبت ، بعد هذا ، أن خفض حظوظ الطبقة الممتازة فى العطاء ، نتيجة لإقرار المساواة الكاملة فى القسم بين الخاصة والعامة ، لم يضف شيئاً مذكورا إلى نصيب الفرد العادى من أبناء الشعب ، وما كان ليضيف ، بعد أن تبين لنا أن كل واحد من أولئك وهؤلاء لم يصب — عقيب إعلان على ، وتطبيق الأسوة لأول مرة فى عهده — إلا ثلاثة دنانير . .

فما هو إذن ذلك الغرض الذى سعى إليه أمير المؤمنين . بهذه الاسوة ،

ما دام قصاراها ألا تغل فائدة مادية على المواطن العادى ، أو تضيف شيئا ذا بال إلى دخله الذى كفلته الدولة بما انتقصته من أنصبة الأشراف ؟

ليس فى المقام الاول ، لأجل توفير فائض مال ، يحقق نفعا ماديا للعامة ، ويستخدم لرفع مستواهم المعيشى ، كان سعيه ذاك . . بل لأجل إفاءة الشعور على كافة المواطنين ، أبيضهم وأسودهم ، شريفهم ومشروفهم ، باستوائهم الكامل أمام الدولة فى مال الله كاستوائهم الكامل أمام الله . . فالمساواة بينهم فى المال العام تعبير عملى عن نظرة الدين لأنه إحياء لسنة نبوية ما كان ينبغى أن تحول أو تزول . . وهى إيحاء بليغ ، من الوجهة الاجتماعية قبل الاقتصادية، إلى رفض الإسلام لذرائع التفرقة بين أهله ، وإلى ضيق مجتمعه عن ضروب المفاضلات التقليدية والوضعية أن تعيش فيه . .

لا مكان فى المجتمع الإسلامى لأية مفاوتة اجتماعية بين أهله ، تميز طائفة على طائفة ، أو إنسانا على إنسان ، وإن استمد هذا التميز مبرراته وأسبابه من علائم التفوق ، ومظاهر الفضل التى تتمثل فى الاعتزاز بالعنصر ، أو الطبقة ، أو الثروة ، أو الجاه ، أو النسب ، أو صراحة الأصل ، أو سطوة السلطان ، أو سابقة الإيمان . . فتلك كلها عروض طارئة على تكافؤ النوع البشرى طبيعة وفطرة ، وعلى تماثل آحاده حيوية وخلقة . أوجدت تباينا مصطنعا بين أبناء هذا النوع المتوحد ، لأنه التباين الناشىء عن عوامل خارجة عن كنه الإنسان ، والمتعلل بذرائع موقوتة ليس لها استقرار ذلك الكنه وثباته ، تتغير قوة من طرف لطرف ، وقيمة من بيئة لبيئة ، وتختلف فيها النظرة بين فرد وآخر ، ثم تتذاءب بأوضاع المجتمعات تبعا لتداول هذه العوامل المتغيرة عليها ، وسيادة بعضها دون بعض على الأذهان ، فإذا هى عندئذ مجتمعات عنصرية أو طبقية أو طائفية أو « رأسمالية » أو على أى شكل مماثل أو مغاير لهذه الأشكال ، نتيجة لازمة لتأرجح موازين السلطة فى كل مجتمع من طرف لطرف، ومن عامل لآخر ، بسبب تبدل أساليب التفكير ، وتواتر الأزمنة والعهود ، وتطور الأعراف والتقاليد . .

فإذا نظر ، من بعد ، إلى النظام الذى فرضه الإمام — من خلال صفته

الظاهرة التى تشير إلى وظيفته الاقتصادية ، وباعتبار أنه تعديل يتناول حدود الموارد المالية للأفراد – أوشك ألا يخفى عن خاطر أحد أنه العلاج اللائم الذى كان لابد منه فى موضعه وميقاته ، إذ هو الضرورة المحتومة التى قضى بها واقع الحالة الاقتصادية فى الدولة إذ ذاك . .

علاج حاسم لم يكن ثمة ما يغنى عنه لمجابهة وضع لامناص من تغييره ، إذا ما أخذ حق الشعب الإسلامى ، لوحدة ، فى الحسبان ، وإذا ما روجعت رواسب الماضى ، وعرف دورها فى الطغيان على الصالح العام . . توجيه العدالة كما توجيه المنفعة . ويدعو إليه ما بدا من الخلل فى الهيكل الاقتصادى ، وفى النظام الاجتماعى على السواء . .

ولا ريب . . فتزايد القسم ، بنظام عمر ، من حصة بنسبة مائتى جزء — صعودا درجيا — إلى حصة بنسبة عشرة آلاف ، تنحصر بينهما الحدود الدنيا والحدود القصوى لعطاء الفرد ، ثم توالى سريان هذا النظام نيفا وعشرة أعوام ، قد أديا إلى حفر هوة عميقة بين الدخول الفردية زاد فى عمقها غورا اقتدار أصحاب الأعطيات الكبيرة على تثمير فائضها لتنمية ثرواتهم ، وافتقار من دونهم من أصحاب الأعطيات الصغيرة إلى ما عسى يكفيهم الحاجة ، أو يرد عنهم ضائقة الإعسار .

رضائخ عثمان ، من قطائع وأموال وأحباس ، وغيرها مما كان الخليفة الشيخ يفيئه طوال عهده ، على ذوى الحظوة عنده ، لقرابتهم ، أو لنفوذهم ، أو لبلائهم ، أو لهذه وتلك من تعلات ، قد أسهمت — إلى جوار ذلك الارتفاع الفاحش لأعطية المتازين — فى استشراء الثراء وتفاقمه فى جانب من المجتمع تفاقما جعل المال دولة فى فرقة من خاصة القوم وعليتهم ، تستطيل به على سواها من المواطنين ، ويسعها معه أن تظل زمانا ليس بالقصير مطلقة اليد ، إلى مدى بعيد ، فى السيطرة على الحركة التجارية ، أو على الاقتصاد القومى للبلاد ، وتوجيهه الوجهة التى تخدم آرابها ، وتزيدها ثراء على ثراء . .

ما خلفه القسم العمرى ، وخلفته الرضائخ العثمانية ، كان حريا ، بغير جدال ،

بأن يبت فى النظامين الاجتماعى والاقتصادى للدولة من آفات الخلل وعوامل الاضطراب ما كان خليقا بأن يدفع أيما حاكم يحرص على نظافة الحكم ، وصالح الشعب ، واستقامة الأمور ، إلى المبادرة بالتغيير . . فلا استقرار لحياة مجتمع مع تخلخل نسيجه . . ولا ثبات لاقتصاده مع وجود جراثيم الاستغلال . وإذا كان الإمام قد بادر عندئذ إلى التغيير المنتظر ، فقد فعل ماتطلبته طبيعة الظروف والأوضاع . وحتمته دواعى المراجعة والعلاج . وليس عجبا إذن أن نراه يعيد القسم سيرته الأولى على سنة الرسول وخطة الصديق أنصبة متساوية لكل الناس . وأن يصادر القطائع والأموال التى أبيحها ذوو الحظوة ويردها إلى بيت المال حقا عاما للأمة جميعا ، لا هدايا أو هبات المحظوظين .

فإذا لم تكن هذه هى المبادرة المطلوبة التى يجمل بعلى أن ينهض بها فى هذه الآونة ، كرجل دولة ورجل دين ، فأى مبادرة سواها كان خليقا به إذن أن يقدم عليها استجابة لمنطق السياسة ، ومنطق الأخلاق — قبل منطق الإسلام — ليقيم الحق ، ويمنع الانحراف ، إلى جوار دعم العدالة الاجتماعية لتمارس وظيفتها : تكافؤا بين كل أبناء الشعب ، مع حماية الثروة القومية أن تغدو ثروة خاصة تغذى الاستغلال ، وترفع قلة من الثراة على رقاب كثرة من المحرومين ؟ . .

ذلك ضوء على مسلك الإمام . .

وهو تفسير تفرضه وقائع التاريخ ، وشواهد الحال ، كما يؤدى إليه الاستقراء ، لبيانه الجرىء الذى جاء ثورة على النظامين الاجتماعى والاقتصادى القائمين فى البلاد آنذاك . . .

ولقد يبدو هنا أن فى مسايرة هذا الذى وقع ، منذ أكثر من ثلثمائة وألف عام بمعاييرنا الحالية ، وإخضاعه للنظرة الحديثة — التى نراها اليوم تربط السلوك السياسى لقادة الدول والشعوب بالأوضاع الاقتصادية السائدة فيها حتى لتجعله نتيجة مترتبة عليها — ما يمثل تعللا يحل فى غير أوانه ، فيخرج بنا عن روح العهد ، ويجاوز خصائص الوقت الذى عاشته الأحداث ، حتى لتغدو المسايرة ضربا معتسفا من المبالغة فى التصوير ، والغلو فى الاستقراء . .

لقد يبدو هذا فإذا هو – بشكله — زعم مقبول ، ووهم يخامر الأخيلة ، ثم لا يلبث — بجوهره — أن تأباه حقائق الحياة فتمتهنه العقول إلا ما كان منها يتعلق بالهيئة دون المضمون ، متعللا بظواهر العروض دون بواطن الأصول، ومعولا على صور الأسماء لا على دلالة المسميات ، وآخذا بتاريخ مولد الألفاظ وهو يهمل تاريخ نشأة المشكلات . . فأما والتعبير اللغوى يتطور بتطور الزمن ، والكلمات فى أية لغة كالخلايا فى البنية الحية ، بعضها يضمر ويموت ليتخلق بعده غيره جديد . . وأما والظلال تتراوح دائما ، بتراوح النور ، بين القصر والطول ثم لا يغير اضطرابها هذا من حقيقة الأصول ، فلا وجه إذن لغلواء ! . .

فما لا يمكن الاختلاف عليه أن ما اصطلح عرفنا الحاضر على تسميته « الاقتصاد القومى » ليس وقفا على عصرنا الحديث . بل قد كان ، بلا شبهة من شك ، واقعا يعيش فى حياة المجتمعات الإنسانية الغابرة قبل مئات عديدة من السنين معروفا لها بخصائصه ، ماثلا بمعناه تماما كسواه من عشرات الأوضاع والقيم والمبادىء التى كانت تخالط الأفكار ، وتحيي بدلالاتها فى دنيا الناس ، ثم ألبست أخيرا أسماءها المستحدثة ، كالعدالة السياسية ، والعدل الاجتماعى ، وشعبية الحكم ، والعنصرية ، والطبقية ، والطائفية ، والإقطاع ، والاستغلال ، وسيطرة رأس المال ، إلى أشباهها ونظرائها من مختلف الأسماء . .

بتقرير الأسوة فى العطاء ، مشى الإمام أولى خطواته على الطريق المؤدى إلى كبح جماح دخل الفرد ، ووضعه فى إطار محدود يلائم بينه وبين دخول غيره من الأفراد . وبمصادرة القطائع والهبات والأحباس أكد أن المال مال الله ، وأن وظيفته خدمة المجموع ، وأنه وهو عام أدعى أن تكون له قدسية تمنع عنه عبث الأهواء ، وسوء التقدير ، وسرف الإنفاق وما إليها من عوامل تحيله قنية خاصة ثم وسيلة للاستغلال . وبظهور هذين القرارين ، بدأت مرحلة من إصلاح اقتصادى كان لابد من بدئها لتصحيح الأوضاع القائمة ، وحماية الثروة القومية ، وكفالة حق الشعب ، كل الشعب ، فى معيشة متسقة ، لا يتجاذبها من طرفها فحش الثراء ، ومن طرفها الآخر عسر الإدقاع . .

..

وواضح بالنظرة العابرة ، دع التأمل وإمعان الفكر ، أن الهدف من وراء قرارى الإمام هو تيسير الحياة لعامة الناس فضلا عن الأخذ بالقيم الاجتماعية التى تدعو لتحطيم حواجز التفاوت الظالم بين الأفراد ، وعن امتثال القيم الخلقية التى تأبى إفساح السبيل أمام الاستغلال والانتهاز والابتزاز تحت ستار حق الملكية الفردية أو حرية تثمير المال . .

فخطة الإمام كانت بلا شك ، حين سوت فى القسم ، اتجاها نحو ردم الهوة العميقة بين الفقر والثراء بما تحققه من التقريب بين الدخول . . وكانت كذلك ، إذ صادرت جانبا ضخما من الثروات الكبيرة ، مسيرة إلى امتصاص فائض تلك الثروات وغل يدها عن تثمير المال الخاص إلى مدى يحد من طغيانه فى الحياة العامة ، وسيطرته على ثروة البلاد . . ثم كانت ، بعد هذا وذاك ، أداة لتخفيف عبء المعيشة عن كاهل المواطن العادى بما لها من أثر محتوم فى خفض أسعار السلع ، وقمع سعار الغلاء ، نتيجة للإقلال من النقد المتداول فى الأسواق بالملاءمة النسبية بين القدرات الشرائية لمختلف الأفراد . .

ولا ينبغى هنا أن يظن أن الإمام قد أبرم قراره وهو عندئذ لا يعدو أن يكون الرجل الخيالى الكلف بالمثاليات ، المشغوف بالمبادىء والمجردات . إنما قد أبرمه وإنه ، إلى جوار مثاليته المشهودة ، هو الرجل الذى يعيش فى واقع الحياة ، محيطا بظروف شعبه ، عارفا بأوضاع مجتمعه ، عليما بالدواعى العملية وحقائق الحال الداعية للتغيير . .

بمثل هذا حدثتنا الأحداث فى عصره وقبل عصره بوقت طويل . . فلغير المتاجرة بالألفاظ أو ادعاء الإصلاح ، أعلن عمر بن الخطاب فى أخريات أيامه كم ود أن يطول به الأجل ليضع نظاماً «يأخذ به من فضول أموال الاغنياء ما يرده على الفقراء» . . ولغير استجلاب الشهرة وتملق رضاء الجماهير ، راح أبو ذر الغفارى — وهو العازف عن الدنيا منصبا وسمعة وثروة — فى زمن عثمان ، ينذر الأغنياء ، ويدعوهم إلى تسخير ثرواتهم المكتنزة فى التخفيف عن ذوى المسغبة والحاجة من مواطنيهم ، لأن ما اقتنوه من المال ليس ملكا خاصا لهم ، بل هو مال الله ، وحق لعباده أجمعين هم أمناء عليه ، موظفون لإنفاقه فيما يصلح

شأن الناس ويرد عنهم الحرمان . . ولغير الأهواء الخاصة ، أو الرغبة الظالمة في تغيير خليفة بخليفة ، وعهد بعهد ، نشبت الثورة على ابن عفان ، وقضت على حياته ، كما قضت على سلطانه وسلطان بطانته وذويه وهم عندئذ رءوس الطبقة المترفة ، التي اجتمعت لها إلى قوة النفوذ سطوة الثراء . .

ليس بغائب عن الأذهان ما قد بلغه الثراء بين طبقة من الأمة ، أو فريق من العلية المحظوظين فيها ، من استفحال أخل كل الإخلال بالتوازن الاقتصادي بينهم وبين غيرهم من جمهور المواطنين ، وعمق الفرقة الاجتماعية التي تفصل الخاصة عن العامة ، حتى غدا الوضع نعمة غامرة في جانب ، تتقلب فيها قلة ممتازة ، عيشها الترف ، ولعبتها المال ، ونقمة مدمرة في الجانب الآخر ، تعبث بكثرة مقهورة ، حياتها الشظف ، وعملها الحرمان ! . . فإذا ناء جهد جمهور الشعب عندئذ تحت وطأة المعيشة وقد أعوزته الوسائل لممارسة الحياة كما ينبغي أن تليق بإنسان ، ثم ترامت شكواه مما يكابد من الضيق حتى انتهت به إلى ثورة على حكم عثمان ، فذلك هو الطريق الطبيعي لسير الحوادث والانفعالات ، والمحنة المفترض حلولها قبل وقوعها بسنوات . . وإذا كان الادعاء بتجني الثوار قد لقي صدى في بعض الأسماع ، وجرت به على الصحائف بضعة أقلام ، فأي مدعاة إذن كانت خليقة بتحريك السخط ، وإثارة الجماهير ، إن لم تكن لقمة العيش هي المدعاة ؟ . .

من خلال ما مر من وقائع ، وما تناثر من أحاديث . منذ أواخر أيام عمر إلى بدء عهد الإمام ، لا يفوت المتأمل أن يتنبأ بسلوك الثوار ، ثم يبرر هذا السلوك إن لم يسانده بالتأييد وهو عندئذ آمن من العثار . .

فالفوارق المالية بين الدخول والموارد ، كالفوارق الاجتماعية بين الطبقات والأجناس ، كانت وسيلة لغرس عوامل التفرقة النفسية بين الناس ، وإثارة مرارة في صدورهم فعلت فعلها في تنافر أحاسيسهم ، وانفصال بعضهم ، شعوريا ولاشعوريا ، عن بعض حتى انشطر مجتمعهم شطرين : طائفة منه تستمرئ الحال وترتع فيه فهي متنعمة به ، وطائفة تبرم به لأنها مغلوبة عليه . واحدة عالية قادرة محسودة ، وأخرى راسبة عاجزة حاسدة . . قلة تملك وتستمتع بالحياة ، وكثرة لا تكاد تعرف طعم الحياة

تنافر فى المشاعر ، وتناقض فى الأوضاع ، يعلو بهما مستوى المعيشة بأناس إلى القمة ، ويهوى بغيرهم إلى القاع ، ثم تلتهب على آثارها الأحقاد . ولا غرو . فالأسعار ترتفع ، والغلاء يستشرى كما لم يعهد أحد ، فيشق على عامة المواطنين احتماله . والسلع الضرورية تعز على كثرة الناس ، لا لندرتها أصلا فى الأسواق ، بل لمبادرة الطبقة القادرة — من ناحية — إلى احتيازها ، انتفاعا بها ، أو استغلالا لها بالاحتكار ، والافتقار الكثرة — من ناحية أخرى — إلى القدرة على الشراء .. وكفى هنا أن يقال إن النخلة ، وهى طعام العربى ، كانت تباع بألف دينار ، ليبين إلى أى مدى كانت جمهرة الأمة تتسقط قوتها على عناء .. وكفى أن تذكر سيرة فئة ليست بقليلة من خلاصة الخاصة أصحاب الحظوة أو ذوى النفوذ فتذكر لهم ثروات تجاوز خيال الخرافات ، من سبائك الذهب ، وفاخر القصور ، وأصائل الجياد ، وقطعان الإماء والعبيد . .

هذه الفوارق لم تكن مجرد صور فردية التقطها بعض الموتورين لاستغلالها نكاية فى الحكم القائم ، وإثارة للسخط عليه ، بل قد كانت ظاهرة عامة فى المجتمع الإسلامى ، يعلمها كلا طرفى التناقض الاجتماعى ، وإن أغضى عليها طرف إغضاء استمراء ، ويرم بها آخر برم إنكار . وفيما بين الطرفين كانت قلة مستبصرة من الألى يتعمقون الظواهر ، ويستكنهون الدلالات ، تعيش فى قلق من الغد ، وخشية من المصير الذى ينذر الأفق به ، فلا تكف عن الإيماء إلى الخطر المنتظر ، وإلى الدعوة إلى ضرورة المبادرة بالإصلاح فما كانت البيئة النفسية للشعب الإسلامى آنذاك إلا تربة صالحة لاستنبات الحسد الذى يثمر الحقد والتباغض بين الناس .
ولا كان الوضع الاجتماعى المختل إلا مؤذنا بالانهيار أو مشفيا على الانفجار .
وما كان الحرمان فى يد الكثرة الغالبة من الأمة إلا سلاحا خفيا يهم أن يضرب ضربته ، عسى أن يحصل كل عان محتاج ، عنوة وقسرا ، على ما كفله له الإسلام من مقومات الحياة الكريمة حقا مشروعا ما دام الوفاق والسلام عجزا عن تزويده بهذا الحق ، وما دامت الفئة القادرة الثرية قد بخلت به ، بل ابتزته عن سوء نية أو سوء تقدير . .

ولم يكن تجاه على — كحاكم ورجل دولة ، دعه إماما ورجل دين — إلا أن

يسارع إلى العلاج وإن كان كيآ يوجع من استمرأوا من قبل مزايا تلك التفرقة الاجتماعية، أو استرخوا لما ألفوه من أوضاع . فهو لا يجهل حقيقة الحال. وهو قد شام بوادر التذمر طرفا من عهد عمر ، ثم عاش فتنة السخط طوال عهد عثمان . وهو قد رأى حصاد الانفصال النفسى بين الشعب وحاكمه ، وبين العامة المحرومة والخاصة الثرية ، ممثلا فى الثورة الهوجاء ودم الخليفة الصريع . فإذا التفت فور امتلاكه السلطة إلى مقابلة الأمور بالحسم ، فلا معدى له ، بحال ، عن الـكى وقد استفحل الداء ولا حيلة له إلا أن يندفع بكل قوته نحو التغيير . . وإذا كان ثمة من يدعى أن ما فعله الإمام لمجابهة الموقف ليس سوى جانب من خطة سياسية بارعة يهدف بها إلى كسر شوكة خصومه ، وتقليم أظفار قوتهم ، بلوغا إلى القضاء قضاء مبرما على نفوذهم الذى أفاءه عليهم سلطان المال وهيبة التقاليد ، فذاك ادعاء تنقضه نظرة الدين ، ونظرة العدل الاجتماعى ، ونظرة الواقع الاقتصادى فى تلك الآونة ، لأنها كلها تحتم التغيير العاجل الحاسم ، ولا تدع سبيلا إلى إرجائه أو المهاودة فيه . .

ولو أن الإمام وزن لأنصاره بميزان ووزن لمخالفيه بميزان وهو يطبق سياسته فى المال ، لاتسعت الحجة لمثل هذا الادعاء . . ولـكن الرجل لم يقصر قراره بمصادرة القطائع والأموال المهداة على أولئك الخصوم ، بل شمل به كافة المنتفعين بغير استثناء . ولم يقل أحد إنه ، حين سوى فى القسم بين المسلمين ، قد أعفى أصحابه من التسوية فتركهم وأنصبتهم المقدورة منه وإن كثرتهم — على خلاف خصومه — لمن ذوى الحظوظ الباذخة فيه ، إذ هم من آل الرسول الأمين ، وأصحاب الهجرة ، ورجال السابقة إلى الإيمان ، وأجلة الأنصار ، وكلهم بهذا من أوائل المميزين فى العطاء بشريعة عمر بن الخطاب . .

خطوة محتومة تلك التى خطاها الإمام حينذاك ، كان حريا به ، وبأى حاكم سواه ، أن يبدأ بها عهده ، ما دام يعيش ظروف زمنه ، ويتنفس أحداث مجتمعه ، ويستشعر أحاسيس أمته وهو يدرك إدراك واع خبير حقيقة الدوافع والأسباب التى حركت مواجد الناس ودفعت بهم إلى التبرم بماضيهم والثورة على ما فيه . . فالوضع الاجتماعى كان فى حاجة ملحة إلى التصحيح ، تحررا من استفحال

العصبية ، أو تخفيفا من الضغط الطبقى الذى تمارسه ، وخلاصا من استبداد قلة من أبناء الأمة بالكثرة الغالبة فيها تحت ستار الامتيازات المالية المقننة أو الجاه التقليدى الموروث . والوضع الاقتصادى كان أيضا فى حاجة ملحة إلى تعديل يعيد توزيع الثروة الأهلية ، أو يعيد تنظيمها ، على أساس جديد يحرر المال من أنانية الخصوصية ، ويخرج به إلى رحابة العمومية ، لينأى — إلى حدود مقبولة — عن متناول الجشع الفردى ، وسوء استغلال حرية التملك ، ولينهض بوظيفته الأصيلة الحقة التى تهدف إلى صالح الجماعة ، فلا يصبح سلاحا فى أيدى فئة من المواطنين ، دون كافتهم ، تحركه كيف شاءت لاستذلال الناس وتسخير قوامهم وقدراتهم لنفعها الخاص عن طريق استرقاق الأرزاق . .

وإذا كانت هذه الخطوة فاتحة السير إلى تطبيق مبادئ العدالة بجانبيها الاقتصادى والاجتماعى تطبيقا عمليا لا يقف عند حافة التشدق بالألفاظ ، فقد كانت الخطوات التى تلتها على الأثر تعزيزا لهذا التطبيق ، وتثبيتا لأقدامه على الطريق . فما عتم الإمام ، كما عرفنا من قبل ، أن مضى شوطه ، حثيثا ، إلى رسم الإطار السلوكى الذى ينبغى أن يتحرك المجتمع فى نطاقه ، ليعيش كل أهله معيشة إنسانية كريمة . . ولو أننا تتبعنا ما وضعه من قواعد ، وما فرضه من أوامر لتنفيذ هذه القواعد ، لتبدى لنا إلى أى مدى قد أسهم ، بالرأى والنصيحة والقدوة والسلطة ، فى تطوير النظم على النحو الذى يكفل الموازنة بين الطبقات من ناحية ، وبين الأفراد من ناحية ، لتصبح الحياة خليقة بأن يحياها كل أبناء الأمة وهم على وفاق وارتضاء إذ هم على تكافؤ واكتفاء ، ما دامت لا تعضل ببعضهم فتضيق به وتشق عليه ، وتخف على بعضهم الآخر خفة تفسح له فى التجبر والطغيان . .

وتأمل النظم التى جسدها الإمام — ولا نقول وضعها — فى ذلك الحين ، وكانت المرآة المجلوة الصافية التى انعكست على صفحتها الرائقة مبادئ الإسلام وقيمه ، لا يسوغ أن يحمل امرءا على الزعم بأنها لا تزيد عن مجرد وسيلة مؤقتة لتخفيف عبء المعيشة عن كاهل عامة الشعب أو طبقاته الفقيرة ، بل ينبغى — إنصافا — أن يقال فيها ، وبغير مجاوزة لدقة الوصف وصدق التعبير ، إنها نظم رائدة فى مجال الإصلاح الاجتماعى إذا ما نحن اكتفينا منها بجانبها هذا دون

طرفيها الاقتصادى والسياسى اللذين هدفا : فى طرف إلى تصحيح مفهوم المال وتقويم وظيفته ، وفى الآخر إلى تحرير الرأى والإرادة بتحرير لقمة العيش وتخليصها من سيطرة الاستغلال .

ولا جدال فى أن ذلك الاتجاه الجديد ، الذى أوضحه ونحا إليه الإمام ، قد سبق النظرة الحديثة بمئات عديدة من السنين حين رسم دور الدولة فى رعاية أبنائها ، وأوجب عليها كفالة حقوقهم الإنسانية الأساسية كفالة فعلية ، لا تقوم على شعارات لفظية ، رنانة الجرس ، منمقة البناء ، بل على الدعوة الجادة المقترنة بالتطبيق . .

فالمجتمع الإسلامى ، كحقيقته ، وفى نطاق نظم ذلك الاتجاه ، مجتمع من الإخاء والمساواة والكرامة . لكل عضو به دور تلتقى فيه الحقوق بالتبعات لتتفاعل وتثمر العمل الإيجابى المجدى الذى يؤدى إلى منفعة الأفراد وصالح المجموع . وأبناؤه كافة فى رحابه متساوون ، بلا تمييز أمام قواعد تشريعه ، لأنهم « إما أخ فى الدين ، وإما نظير فى الخلق » فلا وجه إذن لتباين واختلاف يترتب عليهما تفرقة وتفضيل .

وجمهور العامة من بنيه — عندما تحتم الضرورات الاحتكام للمفاضلة — أولى لدى الدولة بالرعاية من بقية الطوائف ، إذ هم كثرة الأمة ، وقاعدة دولتها ، وصلب قدرتها ، لأنهم « عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء » . . ولأن « سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وسخط الخاصة يجحف برضا العامة » فالكثير إذن له التقديم على القليل . .

والرعاية الخليقة بأن ينالها الشعب من السلطة الحاكمة ، هى تلك التى توفر له أسباب الأمن ، وأركان الحرية ، والمقومات الرئيسية لعيش كريم على نحو ما نسميه اليوم بالتحرر من الخوف ، والتحرر من الجهل ، والتحرر من المرض ، والتحرر من التعطل ، وأمثالها من مقررات ومبادىء تحملها كفالة الحريات السياسية ، والضمان الاجتماعى ، والتأمين الصحى ، وأمثالها من الأساليب التى تدرأ غوائل الحرمان — بتعدد صوره وشمول معانيه — عن كل مواطن ،

فتوفر له طلاقة الرأى ، وحرية الحركة ، وحق العمل ، والإعالة ، والعلاج وغيرها من ضروب البذل والمعونة التى تهيء له حدا لائقا للمعيشة لا يخل بكرامة الإنسان . « فلكل على الوالى بقدر ما يصلحه » حقا مقدورا لا نزاع فيه ، ولا عدول عنه ، سواء أكان عملا ما يصلح المرء ويقيم شأنه أم كان إعانة .. وعلى الحاكم أن يرصد من مال الدولة ماينفقه على من قبله « من ذوى العيال والمجاعة » تخفيفا عليهم من ثقل الكلفة ودفع الكوارث . وهو مسئول أيضا عن غيرهم من مواطنيه الذين ينوءون بالحياة بسبب طبيعة الفوارق المالية والاجتماعية التى لا يخلو منها أى مجتمع ، ونتيجة لتفاوت القدرات والمستويات الطبيعية لدى الأفراد . فعليه أن يرأب صدوعهم ، ويسد مواضع الخلات فيهم ، ويغطى عجزهم أو ضعفهم برواتب تقسم من بيت المال لهم ولأمثالهم من أبناء الطبقة الدنيا الألى حرموا العمل أو القدرة عليه ممن « لا حيلة لهم » فى ذلك ، كالمساكين والمحتاجين ، وأهل البؤس ، والزمنى ، أصحاب العلل والعاهات ، ضمانا لمعاشهم ، وتمكينا لهم فى التداوى والعلاج ..

تلك إطافة عجلى بأسس النظم التى اختطها الإمام لمجتمعه ، وأدخلها ، بسلطان الحكم ، فى حيز التنفيذ . وهى لا ريب سابقة لم يكن لها فى العالم ، قبل الإسلام مثيل حتى احتذتها أخيرا ، فى القرن الحاضر ، وبعد ألف وبضع مئات من السنين ندرة من المجتمعات الإنسانية الحديثة فى قلة معدودة من الدول الثرية المتقدمة التى أكرهتها الثورات الدموية وحركات التناحر بين الطبقات — فيها أو فى سواها — على أن تعرف لرعاياها حقهم عليها كبشر كما عرفت حقها عليهم كسلطة . ففرضت من مالها للمتعطل والطفل والشيخ والعاجز والعليل . ومع ذلك فشتان بين عمل المضطر المكره الذى يمليه ضغط الظروف القاهرة بقوة الصراع وبين عمل الطائع المختار الذى ينبعث عن نظرة إنسانية عميقة ، وحس مرهف ، ووعى محيط ..

ولا حاجة بعد للقول بأن مقومات نفاذ أى قانون أو نظام لا بد فيها من اجتماع ضمان إيجابية العمل بتقريره إلى الاطمئنان لسلبية الانحراف بتقليم أظفاره ، أو تلازم الحفز والردع ، والتحليل والتحريم ، درءا لعوامل الاختلال عن ذلك

النظام ، وتحقيقا لاعتدال ميزان السلوك ، وكفالة لاتساق خطا المجتمع عليه . . فإفصاح أى قانون عما هو مقبول لا جدوى منه إن لم يقترن بالإفصاح عما هو مرفوض . وتقرير ما هو محظور ضرورة واجبة كتقرير ما هو مباح ، لأنهما معا يعكسان الطبيعة البشرية بجانبي الشر والخير فيها ، أو جانبي الخطأ والصواب ، ويلائمان بين خلائق الإنسان التي يستقيم شطرها بوحى الضمائر النقية ، وينحرف شطرها بنزغ النفوس الأمارة بالسوء . . ومن ثم فلم يغفل الإمام إبراز النواهي والممنوعات التي يتأكد بها استواء السلوك بلوغا إلى سلامة التطبيق . فلا محاباة في حق مقرر ، تزيدا وسخاء . ولا ترخص في حد مانع ، رياء ومصانعة . . لا اختيار لمن يتولون الأمور العامة « إلا بالاختبار » . لا استئثار لأحد « بما الناس فيه أسوة » أكفاء ، من حقوق ومنافع ، ما بلغ شأوه من النفوذ والجاه . . لا إنصاف إلا بانتصاف الحاكم « لله والناس » من نفسه وأهله وخاصته وكل من له هوى من الرعية فيهم كانتصافه من غيرهم من الجمهور وعرض الناس ، إقرارا وتسليما باستوائهم أجمعين ، وتطبيقا منزها لسيادة القانون . .

مبادىء وعموميات اندرجت في سياسة الإمام لمجتمعه ، وترجمت إلى خطط وأساليب تنفيذ ، تعبيرا عمليا عن شريعة الله ، وإدراكا واعيا منه بأن الزيادة على الحق والمبالغة فيه كالانتقاص منه ، كلاهما خليق بأن يؤدى إلى اضطراب المعايير واختلال النظام العام . . فالمحاباة — كمثال — ترجيح متحيف ، أحرى بالظلم أن ينبت في تربتها ، ويترعرع ، ويفرع إلى غاية السموق . . هى ، في حقيقتها ، تطفيف للكيل في جانب ، يقابله إخسار في الآخر ، استجابة لدواعي خاصة تنبعث عن الميل المغرض للذات أو الأهل أو الصفوة المقربين من الصحاب والأتباع ، فتجانب الحق مستهينة بالعدالة . . وهى مجلبة للفوضى ، مفسدة للحاكم والمحكوم . . وهى البريق الخلاب الذى يستهوى الأنفس الضعيفة والضمائر المريضة فتطير إليها على أجنحة الملق والنفاق . . وهى الطريق المنفتح إلى غير حد معلوم أمام كل مفتقر لمقومات الاقتدار ، كلف بالمظهر ، ولوع بالنفوذ ، منهوم للاستغلال . .

من خلال هذه القواعد انبثقت لأمير المؤمنين بيانات وتعاليم نشرها على

مجتمعه ، تحدد المحظورات تحديدا واضحا كما حدد قبلها الممنوحات . . فالمنح والبذل لذوى الافتقار والإعسار كان لا بد أن يقابلهما التقييد والمنع لأصحاب الاقتدار واليسار ، ملاءمة بين الكفاف والترف ، وتضييقا على الانتهاز والاستغلال ، وضمانا لحياة معيشية لا تطغى الغنى ولا تفدح الفقير . . فهو يرفض أن تثرى الدولة على حساب إعواز أبنائها بغالاتها فى تقدير الخراج . . وهو يسقط حقها فى جباية دينها على المواطن إن كان اقتضاؤها هذا الدين يجيئها عن طريق « بيع كسوة شتاء أو صيف ، أو دابة يعتمل عليها المدين » . وهو يمنع احتكار السلع « لأن رسول الله منع منه » درءا لاستغلال الجشعين وحماية لجمهور المستهلكين . وهو يضع أسسا للبيع والشراء سمحة بموازين عدل ، تحدد لكل سلعة سعرا مناسبا ، « لا يجحف بالبائع والمبتاع » على نسق التسعير الجبرى الذى نعرفه الآن . .

وكيفما كانت نظرة بعض طبقات الأمة ، من رجال التجارة ، وأصحاب النفوذ وذوى الثراء ، وزعماء العصبيات القبلية والسياسية إلى هذه النظم والأساليب التطبيقية التى وضعها الإمام ، فقد كان ، فى حدود القرآن وتحت ضوئه ، ذلك الحاكم الذى استطاع — تفاعلا مع الواقع — أن يترجم شرائع الإسلام إلى أسلوب عمل ميسر ، تجرى الحياة اليومية لمواطنيه على سننه . كما كان ، بلغة عصرنا الحديث ، رائدا على طريق الحكم الشعبى بمعناه الذى يهدف — عن إدراك سليم لحياة رعاياه ، وبوعى إنسانى مرهف — إلى تسخير طاقات الدولة وقدراتها : مالا وجهدا وتنظيما ، فى إقرار آدمية الناس ، وتوطيد كرامتهم ، وتحقيق مطالبهم المادية والمعنوية من أقرب وجهة وأقوم سبيل . . ولا جدال فى أن أية محاولة كاشفة أو فاحصة ترمى إلى تعقب خطاه على هذا الدرب الطويل لن ترى قط أن عمله ذاك مسبوق ، أو تجد له نظيرا ، فى عصره وفيما قبله من عصور ، بمثل نفس الشمول . . بل لتوشك أيضا ألا تجد خطاه متبوعة أو محتذاة إلا بعد مسافة من الزمن شاسعة ، امتدت لعدة مئات من السنين ، لهثت عليها أنفاس البشرية ، وتعثرت أقدام المصلحين والدعاة المكافحين للحق وللحريات العامة ، قبل أن تهتدى إلى مساره ، وتلحق بآثار غباره . .

وهين أن يفكر امرؤ فى التغيير . وعسير أن يشرع فيه . ولكن الأعسر الأشق أن يحمل الناس على قبوله لأن البشر ، فى كل زمان ومكان ، عبيد ما ألفوا ، أعداء ما جهلوا ، ذوو نفور مركب فى خلائقهم من المستحدث الجديد . وإذا كان الامام ، لقاء عمله هذا ، لم يوف نصيبه العادل الحق من تقدير معاصريه وغاله منهم كافة ، فى الأغلب الظاهر ، جحود ونكران ، فذلك موقف منتظر لا غرابة فيه ، قد كان عنده خاصتهم وعامتهم : الأولى ضيق عليهم وأخذ منهم ، والأولى أفسح لهم وأعطاهم ، على سواء متحاذين . .

لا عجب .

فالخاصة من الثراة وذوى الحول ، قد آذتهم نظمه ، وشقت عليهم أساليبه ، لأنها انتقصت مما كانوا ينالونه ويرونه حقهم بغير نزاع ، ونزلت معه بأقدارهم. الاجتماعية المكتسبة أو الموروثة إلى دون ما يرتضون وترتضيه لهم نزعة الاستعلاء .

والعامة من المستضعفين وذوى الحرمان ، قد فاتهم فهم التغيير المستحدث وغمت عليهم حكمته البعيدة الرامية إلى الملاءمة بين وحدات المجتمع ، والتنسيق بين مختلف القدرات المعيشية لطبقاته وإن أتاهم بخير معجل ما كانوا لولاه بالغيه . فهم بطبيعة حياتهم الرتيبة التى تواترت — بهيئتها تلك — أعصرا طويلة ، لا يكادون يفكرون فى التغيير . . وهم ، بفعل وضعهم الاجتماعى المضغوط ، وطاقاتهم المادية المحدودة ، لا يقدرون عليه وإن فكروا فيه . . وهم بهذا وذاك أدنى إلى أن يكونوا أهيب لكل جديد ، أبعد عن التطلع إليه ، كأنما عيونهم معصوبة بالقديم لا ترى سواه ، وكأنما مستقرهم هو ذلك الولاء الأعمى لتراثهم الاجتماعى الذى جعلهم أسارى مذهوبى الحول ، يعيشون عمرهم فى ربقة كل مألوف متواتر كدمى جامدة بلا إرادة تتلعب بهم الطبقة العالية المقتدرة التى لها عليهم — نتيجة لصولة التقاليد الموروثة — حق الانصياع والطاعة بحكم وصاية المشيخة القبلية ، أو هيبة عراقة الأصل ، أو قوة سطوة النفوذ ، أو قدرة سلطان المال . . .

فإذا كانت استجابة عامة الناس فى المجتمعات لمنطق المألوف المتوارث فيه من التقاليد والعادات تبدو — بنظرتنا الحاضرة — التزاما ذليلا بأوضاع سقيمة ، وخضوعا مستكينا لواقع واجب التغيير ، فذلك ما لا نحسب قد دار بخلد مجتمع تلك الأيام ، وما لا يخلق بغيره أن يدور . فمجتمعهم عندئذ ، فى معظم صوره وأشكاله ، مجتمع أسرى الطابع والسكنه ، أصله قبائل وعشائر ووحدات ، يلتئم نسيجه بوشائج من الدم ، وصلات من النسب ، وعلاقات من التبعية والاستلحاق والولاء هى التى تربط بين أفراده ، وتتحكم فى سلوكهم ، وتحدد لهم طرائق العمل والتفكير . وكلها ، كما هو معلوم ، عرى اجتماعية وثيقة ، يعسر التحلل منها ، ويتعذر فهمها ، لأنها تقوم على أساس عاطفة بشرية بعيدة المنابت ، غائرة الجذور فى النفوس ، قد فطروا عليها من النشأة ، وأشربوها — إيمانا واعتيادا — هى إحساسهم الطبيعى بالبنوة للكبير ، واعتقادهم الراسخ بضرورة طاعته وتوقيره . .

وليست هذه وحدها هى كل أسباب وقوفهم غالبا حيث هم ، دون حركة جدية إلى الأمام نحو التطور ، تشبثا بالماضى أو جمودا عليه . بل قد يفوقها ويسبقها ، فى استغراقهم لذلك الماضى ، تدلى الوعى الشعبى فى هذا العهد الغابر إلى مستوى دون ما لعلنا نرى الآن عليه أقل شعوب الأرض حظا من الإدراك العام لحقوق الأفراد وحقوق الجماعات ، بجوانبها الاجتماعية والسياسية ، قبل السلطة التقليدية الوصية التى تسوس الوحدات الاجتماعية عادة بسلطان العرف ، أو السلطة الحكومية الرسمية التى تسوسها بسلطان القانون . .

فما لاخلاف فيه أن العالم آنذاك لم يكن وحدة إنسانية متسقة ، أو سائرة إلى الاتساق ، على غرار ما نعرفه الآن أو ما نرى أنه موشك أن يكون وأن شعوبه كانت كالوصائل المقطعة ، تفصل بين بعضها وبعض مسافات واسعة من الأبعاد الأرضية والزمنية ، تعرقل اتصالها ، وتعوق تلاحمها العضوى ، فتؤخر تفاعلها ، ثم تحول ، إلى مدى بعيد ، دون تبادل الآراء ، وتلاقح النظرات والأفكار . .

وما لاينكر أيضا ، أن المجتمع العالمى ، إلى ذلك الحين ، لم يكن يمثل فى

حقيقته سوى أعداد من تجمعات شعبية إقليمية ، قد تناثرت على سطح الدنيا ، أحدها هنا ، وغيره هناك ، إن يكن لكل تجمع منها ذاتيته المستقلة أو خصائصه المميزة ، فإنها كافة كانت مفتقرة إلى المحور الفكرى العام الذى تدور آحادها حوله ، سابحة فى فلكه ، ومؤمنة فرادى ومجتمعة بقيمة دوره فى حياتها كمسار موحد يحدد اتجاه السلوك البشرى العام ، أو كمناخ مشترك تعيش فيه وتتحرك وتنمو حقوق الإنسان . .

وما لاجدال فيه بعد ، أن ذلك الجزء من الوطن الإسلامى الكبير ، وهو المجتمع العربى — بحدوده الإقليمية المعروفة الذى كان آنذاك بؤرة التغيير ومركز إشعاعه — لم يكن ينفرد بما يكاد يغاير خصائص مجتمعات ذلك العالم الممزق القديم ، كما لم يكن أيضا ، فى صلاته الإنسانية والفكرية بما حوله من القريب والبعيد ، إلا أشبه بالأرض التى يعيش فوقها أبناؤه ، حتى ليمكن القول إنه كان ، مثلها ، جزيرة ! . . جزيرة اجتماعية منتحية ، يوشك أن يفصلها عما يجاورها من المجتمعات البشرية المعاصرة بحر لجى واسع من العزلة والانقطاع . .

هذه الصورة الوصفية لحال شعوب العالم فى ذلك الأوان ، تهم أن تضع أمام المتأمل مرآة تنعكس على صفحتها هيئة الوعى الشعبى — أو بدقة التعبير مدى قصوره — فى نفس الفترة الزمنية بعهد الأحداث فى دولة الإمام . . ولقد يكون ثمة من الخلاف بين حالة الوعى بها وبين حالته فى سواها من بقاع الأرض ما لعله يلفت النظر أو يحمل على التدبر والتفكير . ولكنه ، مع ذلك ، هو الخلاف الذى يفارق بين الأصل والظل ، وبين القوام والخيال ثم لا وجه معه للمفاضلة بين أحدهما والآخر من ناحية السمت الكلى أو الشكل العام .

لا سبيل ، فى الحق ، للمفاضلة بين الوعى الشعبى فى المجتمع العربى وبين أضرابه فى غيره من المجتمعات القائمة ، النائية أو المتاخمة ، التى لم تكن بعد قد غزتها العقيدة الإسلامية وإن كانت المفاضلة أحرى بأن تقدمه إلى مكان الصدارة ، وأن تختصه دونها كلها بالترجيح .. لا سبيل ولا وجه أو نكون إذن قد انسقنا إلى تقديم نظرى لفظى يقوم أساساً على « الفكرة » دون أن يقوم على تحقيقها ، وإلى ترجيح شكلى مظهرى قصاراه الاستناد البحت إلى « النظرية » مع إغفال تطبيقها كل الإغفال . .

ثم ما هو ثابت مؤكد من سبق الدين الإسلامى إلى ارتياد مجالات حقوق الإنسان ، سياسية واجتماعية ، سبقا لم يباره فى مضماره ولا لحق بغباره غيره من الأديان والفلسفات ، فإن العبرة فى نضج الوعى الشعبى بهذه الحقوق ليست بانتظامها فى نصوص ، ولا بنشرها فى تشريع ، بل بمقدار إدراك الناس لحقيقتها وانفعالهم بحكمتها ، واستجابتهم لفحواها ، وشوقهم إلى مراميها ، ومبادرتهم الجادة إلى العمل على تجسيدها كأسلوب حياة . .

ولا يعنى هذا ، بطبيعة الحال ، أن كل ما اتصل بتلك المجالات من تعاليم الإسلام كان دبر كل الأسماع ، خلف كل الأبصار ، مفصولا ما بينه وبين كل العقول والأفهام بحجاب . . كلا . ولكنه يعنى أن النفوس وإن علمته لم تشربه . وإن أشربته لم تمتصه . وإن امتصته لم تتمثله إذ كان عندئذ فوق قدرتها على الامتصاص ! . . كما يعنى أيضا أن قلة من بين الناس ، غير مذكورة الأثر والعديد ، هى التى أملها قدرته حق قدره ، ووعته كما ينبغى أن تعيه فخالط — وسيلة وغاية — دماءها وقد استنارت بصائرها ، واهتدت أذهانها ، واستضاء أمامها الطريق .

كل هذه حقائق لا يجدر أن تغيب عن البال فى سياق التأمل والتحليل . ولا يحسن بعابر الحقيقة أن يمر بها ثم لا يفطن لها كمعالم تدلنا على قصور طاقة المفكرين إذ ذاك عن ملاحقة مسيرة التغيير الاجتماعى التى أعدها ونظمها القرآن . . وهى معالم بارزة الدلالة ، عظيمة التأثير فى تعويق الوعى الشعبى وشد خطواته إلى الوراء . وهى ، فوق هذا ، بضعة من عوامل غيرها معرقلة إن لم يحصرها جميعا الإحصاء فلا أقل من أن يوردها التمثيل . .

فلم يكن غريبا ، كمثال ، أن يتأخر الوعى العام بحقوق الإنسان « المدنية » عن الظهور — وبخاصة فى الجزيرة العربية — أثناء ذلك الطور المبكر من تاريخ الدولة الجديدة التى خلقها الإسلام ، وهى بعد مشغولة بدواعى الإعداد ومقومات البناء . . ولم يكن — كمثال آخر — مغايرا لطبيعة حركة التطور ، وهى عادة تسير على مهل ، أن تعوز الوعى الشعبى القدرة على مواكبة الأحداث

الجارية التي كانت عندئذ تطفر ، بل تطير بجناح .. ولم يكن كثالث — مخالفا المنتظر في مثل البيئة الاجتماعية القائمة ، التي تستمسك بالقديم ، وتخاص المألوف ، وتنفر من الجديد ، أن يعجز هذا الوعي عن فرض نفسه على حياة الجماهير .. ولا عجب ، فقد كان الناس في تلك الحقبة ، في شغل شاغل عن أمور دنياهم بحرصهم الدائب على ترسيخ العقيدة الدينية الجديدة في نفوسهم ، وتنمية غرستها الروحية الغضة .. ثم شغلهم ، على الأثر ، واجب الدفاع لدرء الأخطار المتحفزة من كل حضارات العالم القديم للانقضاض على دولتهم الناشئة ، وعلى الدين الذي اعتنقوه .. ثم وكلوا ، من بعد ، بالجهاد في سبيل الله لنشر راية الإسلام عالية ، ترفرف ديباجتها بالنور وبالمعرفة على عالم تلك الأيام الضال .. ثم فاجأتهم ، ولما يفرغوا من أداء رسالتهم المقدسة ، غوائل الانقسام الداخلي ، وعوادي الحرب الأهلية ، التي شبها الخلاف والتنازع ، تحقيقا للمآرب الشخصية ، وبلوغا إلى جاه السلطان ..

هكذا تحالفت على الوعي الشعبي ، في تلك الفترة المتقدمة من أطوار تكوين الدولة ، عوامل عديدة متباينة من الأوضاع والأحداث : بيئية وعالمية ، نفسية ومادية ، أصيلة ودخيلة ، ألزمته البقاء طويلا ، وإلى مدى ليس بمنتظر في نطاق ماضيه المتهالك العتيق ، بعيدا عن إدراك دواعي التطور واستيقان جدوى التغيير ..

فقد قصر المفكرون وقتذاك ، عن الخروج بأذهانهم — بالسرعة الواجبة — من عزلة الحياة الدينية ، المجزئة بالاهتمام بالشعائر والعبادات ، إلى ضجيج الحياة الدنيوية وما يعج فيها من قضايا فكرية ومشكلات إنسانية عنى الإسلام بها عناية كبيرة ، وأبرزتها نصوصه القرآنية ، في وضوح وترابط ، وهي تطرحها كثيرها من آيات الله ، أمام التأمل . فلم ينجب العصر مفكرا حاول أن يخصب الفكر الإسلامي ، في مستهل عمر الدولة ، بما كان خليقا بأن يثريه من أقباس الإشعاعات الفكرية التي ألقاها القرآن على هذه القضايا والمشكلات . لم يتح لأحد من الأُلى تدارسوا كتاب الله ، وتعمقوه ، أن يلهم نظرة محيطة برأى الدين في الإنسان من حيث هو محور الوجود على الأرض . وفي فطرته من حيث هي

العامل المشترك الثابت الذى يسوى بين آحاده . وفى التجمعات البشرية المتناثرة على وجه الدنيا من حيث هى مجتمع إنسانى واحد ، ووحدة عضوية متكاملة ، شرقت أو غربت بأفرادها وجماعاتها المسافات والأبعاد ، وفرقت بينها العصور والآماد . ومع ما لعلنا نراه قد تواتر على ألسنة فريق من أعلام الإسلام حينذاك من ذكر بعض هذه المسائل ، فإن حديثهم عنها لم يجاوز أن يكون مجرد ترديد لا تأمل ، وإطافة لا إحاطة ، وإيماء لا استقصاء . . فقد مضت الحقبة وما تقدم امرؤ خلالها من أصحاب الرأى بنظرة شاملة فى أمهات المسائل الإنسانية العامة ذات الأثر فى تطوير حياة الإنسان ، وتوكيد كرامته ، وتوجيه سلوكه إلى الخير المشترك لمجتمعه العالمى الكبير ، كقضايا الحريات ، والحقوق المدنية ، ووظيفة المال ، ونحوها مما لا يزال يشغل الأذهان إلى الآن . .

بهذا القصور الفكرى ووجه الإمام . وبعوامل تخلف الوعى حوصر طوال عهده ، وحوصرت معه دعوته التى كانت تهدف إلى تفتيق أذهان الشعب ، وخلق نوع من الرأى العام المستنير يستطيع أن يهضم وسائله التطبيقية المؤدية إلى تثبيت دعائم القيم الإنسانية ، الخلقية والاجتماعية ، وتحويل المثل الفكرية من عبارات إلى أسلوب حياة . ولئن بدا للكثيرين من معاصريه أنه كان عندئذ أشبه بمن يدور فى فراغ ويحرث فى الماء ، فنظرتهم تلك لم تستطع أن ترده عن موالاة الدعوة ، خطابة وكتابة وتشريعات ، آونة بالتوجيه والإرشاد كلما لاحت له من الناس بارقة إصغاء ، وآونة بالنذير والتحذير ، كلما ثنوا عنه الأعطاف ، وصموا الأسماع ، وأسلموا نفوسهم ذليلة للتغافل ، أو استكانوا لجهالتهم العمياء .

وهل كان يهدأ أو يكف ، وإنه ليعلم ، يقينا ، أنه ينطق عن حق ، ويعمل للغد ، ويفتح آفاقا من السلام والأخوة والنور أمام الأجيال لبناء عالم جديد ؟ . .

٤

كل ما تحرك على رقعة الأرض الإسلامية الفسيحة من أمور وأحداث وفواجع ، إلى عهود طويلة مقبلة استغرقت عمر أجيال ، هو وليد ضحالة الوعى الشعبي بمطالب التقدم ، وغرس قصوره عن الاحاطة المدركة بدواعى التغيير ..

كان الإمام عندئذ يعيش فى « الغد » المتوثب ، والأمة كلها ، خاصة وعامة إلا ندرة غير مذكورة القوة والتأثير ، تعيش فى « الأمس » الراكد . . كان يسبح مندفعا إلى الأمام نحو الأمل المرجو على تيار التطور ، وكانت تقف جامدة بغير مبالاة ، على الشاطئ المهجور . . كان يدعو ولا تسمع . يعمل ولا تقتدى ، يجبل من تراب طينتها البشرية ممزوجا بالجهد الدائب ، والتجربة المستنيرة . وتعاليم الدين الهادية ، قالب الإنسان الأمثل الجديد ، لعلها تتشكل فيه . فإذا هى بعد طول الحرص والبذل والمعاناة ، تلفظ القالب ، وتكاد تحطمه ، وتحاول — بالغفلة الضالة والجهالة الرعناء — أن تعيد مرة أخرى إلى الحياة هيكل إنسان واقعها الأجوف العتيق ! . .

وتلك شيمة البشر على الدهر : نفور من التغيير ، وتشبث بالماضى ، ونزوع إلى الجمود . .

ولقد طالما عانت البشرية من هذه الطبيعة المعوقة تخلفا عن استشراف الفجر ، وتأخرا عن مواكبة النور ! . . كم جهد قادتها على مدى الأعصر ، وفى شق الأرجاء ، لتقويم خطا أبنائها ، عن طريق تنقية الروح والارتفاع بالنفس ، وتهذيب القيم الخلقية والاجتماعية ، والتسامى بأنماط السلوك ارتقاء بالفكر وبالعمل ، بالنظر وبالتطبيق ، من أجل إعادة صياغة حياة الإنسان ، فى نطاق الطور الزمنى الذى يعيشه ، لتكون حقا حياة إنسان ! . . كم طلع منهم على الدنيا ، مع كل جيل ، مكافح هنا ، ومناضل هناك ، وترددت لهم فى ربوعها المترامية دعوات وصيحات ! كم مشوا على الشوك ، وفتتوا الصخر ، وحرثوا الأرض القاحلة بالأظافر ، ليبذروا فيها حبات الفكر المتألق ، ورووا تربتها الجافة الخشنة بقطرات العرق والدماء ! .

ومع ذلك فلم يكتب للكثرة الغالبة من أولئك الرواد أن يشهدوا الخضرة تغطى الجدب ، ولا أن يروا — وهم أحياء — ثمرة ناضجة قد استوت على ساق !.. حتى أصحاب الرسالات من الداعين بدعوة السماء ، قل منهم من عاصروا أوان القطاف .. إنما مضوا عن الدنيا والبذرة المغروسة ما زالت تحت أطباق الثرى نواة . أو نبتة واهنة تفتقت عنها نقطة رخوة من التربة الصماء . أو عودا عاطلا من الورق والنوار . أو برعما لما يتفتح عن زهرة . أو ثمرة فجة لا تطاب الاجتناء .

لكنهم غرسوا ، وتركوا الحصاد للأجيال . وضعوا المعالم على الطريق . سبقوا زمنهم فعاشوا فى الأمل ، وعملوا له ، ومهدوا لمن بعدهم أن يقطعوا الشوط المرسوم عندما تحل اللحظة المرتقبة وتهتدى البصائر وتستنير الأذهان ..

من هذا الرهط الفارس الذى سبق عصره كان الإمام . إلى نحو الغاية التى ابتغوا واقتضتهم الجهد جهادا والدعوة مكابدة سدد خطواته . فليس كمثله فى البشر ، بعد الرسل ، من غرس قيما علية ، ورفع مثلا سامية ، ودعا وعمل لكى تكون الحياة حقا وعدلا وفضيلة .. وليس كمثله ، بين الشهداء من قوبل جزاء صنيعه بالتغافل والجحود والعدوان ..

فكأنما كان غريبا فى قومه ، أو كان منهم فى دنيا سوى دنياه .. كأنما كان ينطق بغير لغتهم ، ويدعو لغير حقهم ، ويسعى إلى غير خيرهم ، ويضرب الأمثال لأفئدة غلف ، وآذان صم ، وأعين ملؤها ظلام !..

ولم ترده أبدا عن الكفاح للحق بالحق مظاهر انصراف قلوبهم عن أسلوبه ، ولا بوادر جمود عقولهم دون ملاحقة ما يريد .. وأنى له أن يكف عن استرساله فى رسالته الإنسانية وإنه لمسئول عن غدهم كمسئوليته عن يومهم ، وعنهم كمن غيرهم من الأمم الشاهدة والأجيال المستكنة فى جوف المستقبل .. وإنه كذلك لموكول بغسل طواياهم ، وشحذ وعيهم ، وتفتيق أذهانهم المستغلقة لتطل ، من خلالها نفوسهم الحبيسة وراء أسوار المألوف على الأفق المشرق الجديد !..

طويلا طويلا ظل فيهم يبلغ ويبين . يذكر ويعذر . يحذر وينذر وإن كاد

لا يلق لديهم إلا أصداء جوفاء . . كلهم كان يسمع ، وقلة كانت تنصت ، وندرة نادرة كانت هي التي تتأمل أو تستوعب أو تستجيب وإن بدت جموعهم الحافلة — رياء أو مصانعة — كأنما كانت له على طاعة ، ومن دعوته على استيثاق . .

غير أنه لم ينخدع قط بما أغرقوه فيه من عبارات الموافقة والارتضاء . . لم يضلله شعوره . لم يخنه فيهم ذكاء قلبه . لم تغرر به سجيته النقية الصافية التي تشف على الإلهام . . فملامح الاقتناع والانقياد التي طالما زيفتها الألسنة ، ورسمها الادعاء المنافق على وجوههم بالألوان ، لم تكن لتستطيع أن تحجب عنه الكثير الجسم أو القليل النزر من طواياهم الخفية ونواياهم المستسرة وإنه ليستشفها ، سافرة مفضوحة ، من خلال ما قدموه ، حياتهم معه ، من سوابق الفعال وشواهد الخصال . .

ما كانوا ، مع استخفائهم ، متحجزيه بتظاهرهم المزخرف ولفظهم الحلو عن معرفة ما يكنون وله فراسة ثاقبة واضحة تقشع الغياهب كأنما هي شعاع ، ونظرة نقادة نفاذة في أغوار الأنفس ومجاهيلها إلى أعمق الأعماق كأنما هي سطعات إلهام تضيء الغيوب . فلو أنه شاء لما أعوزه أن يكشف لكل امرئ منهم عما سبره في ضميره ، ولا أعجزه أن يرسم صورا نابضة من المستقبل القريب أو البعيد وهو بعد نطفة غير مخلقة لم تتمخض عن جنينها الليالي ، ثم يوشك ، مع هذا ، الا يخطئ الرسم والتقدير ! . .

وليس هذا ، بحال من الأحوال ، تقحما على غيب الله . ولا هو بانتحال لقدرة غير بشرية تجاوز ملكات الإنسان . لكنه استشفاف دقيق للتكوين النفسي لكل فرد منهم . واستقراء واع لطبائعهم التي تنم عنها صفاتهم أجمعين . ورحلة مستقيمة في منطق الأمور والأحداث — على ما يند عنهم من خلجات المشاعر وطرائق التفكير وأنماط السلوك — إلى النتائج الحتمية المنتظرة التي تؤدى ، لا محالة ، إليها المقدمات ، تماما كما تشير الأرقام إلى الحصيلة النهائية لأية مسألة حسابية ، مهما بدا من غموضها ، إذا أحسن فيها استخدام دلالة العلامات والرموز ! . . أفيعضل إذن به أن يتعرف خفاياهم ، ويستقصى نواياهم ، فيشارف غدهم ، هو الذى خبرهم ، وأحاط بعالم عصره وأسراره وبتياراته السياسية

والاجتماعية الظاهرة والخفية ، ثم ألم بدقائق ميولهم ونزعاتهم من خلال الأقوال والأعمال ، ومن ثنايا الصفات والخلال ؟ . . وكيف يفوته أن يكتنه المجهول ، أو ما يحسب معاصروه أنه مجهول ، وطريقه إليه واضح ممهد ، تسدد خطاه على نهجه حاسة مرهفة حادة الاستنباط والاستدلال ، يسندها علم راسخ لم يتح قط لامرىء سواه فى الناس ، قد اختصه به الرسول ؟ . .

فيما سلف من أحاديثه ، أنذر رجاله ، مرارا مرارا ، بغلبة معاوية على الأمر ، وانتهاء أعنة الدولة إليه . . ولم يكن ، إذ فعل ، آخذا بتنبؤ أو راجما بغيب وتلك فعالهم وفعال عدوهم ماثلة له ، فيها الغناء كل الغناء عن التنبؤ والادعاء . . فهل عسير عليه بعدها أن يتوقع زوال الملك الأموى القاهر بعد فترة من الزمن ، كما توقع قيامه ، وإن هو إلا دولة أسست على باطل ، وتذرعت إلى الحياة والبقاء بالزيف والخداع والظلم والبطش والإرهاب ، وكلها ذرائع وأساليب من الزبد والجفاء والهباء عمرها بلا ريب قصير ؟ . .

بريشة استنباطه ، صور لهم ما يصيبهم من بنى أمية ، ومن دولتهم الآتية ولما تضع قدمها على عتبة التاريخ . فإذا هو يرسم ما وقع فعلا بعد سنين لأنه كان وحده الخليق بالوقوع . . وإذا تصويره لا ينحرف عن جادة الحقائق المقبلة ، لا بقيد شبر ، ولا شعرة ، لأنه لم يحد عن منطق الاستدلال السليم الذى يستقرىء من سلوكهم مايؤدى إلى هذه النتيجة المحتومة بغير احتمال للمفارقة أو الاختلاف . وإذا كلماته هى القول الفصل الذى ينبثق من خلال الخصائص المميزة لواقعهم وواقع عدوهم ، والرأى القاطع الذى تعبر عنه النظرة المحيطة الشاملة بما هو حادث ، المهتمة المتأملة فى الملامح الكلية للوقائع ، والصفات الجامعة للنزعات ، دون الاهتمام بالاستغراق فى التفصيلات . .

كان مما قال :

« ... والله لتجدن بنى أمية لكم أرباب سوء من بعدى . . »

وكان منه :

« . . لا يزالون حتى لايدعوا محرما لله إلا استحلوه ، ولا عقدا إلا حلوه . .

وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا دخله ظلمهم ، ونبا به سوء رعيهم . . وحتى يقوم الباكيان يبكيان : باك يبكى لدينه ، وباك يبكى لدنياه . . . . »

فما عدا قوله الصواب وكيف يعدوه ، وإنه للقول الحقيق بالتحقيق والجدير بالتصديق لأنه لا يرجم بغيب ، ولا يستند إلى أحداس تتذاءب بها شطحة الخيال . بل المعبر بدقة المنطق ، وإحكام الاستدلال منطلقا بغير عوج من شواهد الحال إلى حوادث الاستقبال .

ولا مجال هنا المراجعة والجدال . . فقد صدقه الزمن . وتابعته على نظرته الأيام . وكفى شاهدا مؤديا إلى رأيه الذى ارتأى مسلك رأسهم معاوية معه . ثم دليلا مؤيدا له مسلك من تلا العاهل الأموى من خلفائه وإن سيرتهم ، من قبل ومن بعد ، فى الأمة ، وفى آل بيت الرسول ، لشهادة عيان تغنى عن كل تدليل وبرهان ! . . وإذا كان الهوى والكذب والزيف والبغى والحيف والإرهاب ، وكل ما يوهن الحق ، ويعز الباطل ، ويركب الناس بالعنت والمشقة والإكراه ، لا تستطيع مجتمعة أن تديل دولة وتطوى سجلها من الوجود ، فأى السياسات والسير غيرها إذن كفيل بأن يطوى ويديل ! . .

سيرة موسومة ، تواترت حلقاتها متصلة على صفحة الأرض الإسلامية ، أعواما وأعواما ، مذ رنا الأمويون — عسفا وبغيا — من خلال أطماع معاوية وأحابيله إلى استلاب السلطان ، حتى اللحظة التى تهشمت فيها شوكتهم ، وانطفأت جذوتهم مستحيلة إلى رماد . . وإذا كان الإمام قد دمغ حكمهم قبل أن يقوم ، فلا عن ترة نراه فعل شفاء لغليل . ولا لإثارة الشعب عليهم نزولا بأقدارهم واستزادة لنفسه من الأنصار . . . بل هى كلمة حق دله عليها استقراؤه المحكم للأحوال الجارية تحت سمعه وبصره . وبيان صدق صارح به الناس قبل أوانه ، سابقا به رأى المستيقن المتحرز وظن المتردد المستريب . . وهل يمكن أن تكون الأمة ، فى عهده وبعده ، قد خلت من أفراد ، كثروا أو قلوا ، كانت تراودهم الخشية من الغد وهم يتأملون ذرائع معاوية فى صراعه على السلطة ، ثم أساليبه فى تدبير الحكم ، أو يتفحصون سلوك من خلفوه ؟ . . أم يمكن أن تكون أيضا قد عقمت أن تنجب نفرا توقعوا سوء العاقبة ووبال المآل لدولة كتلك سارت على

مثل هذه الذرائع وتوسلت بنفس الأساليب فى سياسة الرعية والأمور ؟ .

أدنى إلى المحال ألا تختلج خواطر القوم ، طوال ما يقارب قرنا هو عمر الدولة الأموية ، بما قد يهيج الوساوس أو يحرك الشكوك فى استقامة نهجها ثم يؤدى بعد هذا إلى الوصول — بالترجيح والاحتمال — لما عسى أن ينتظرها ، عاجلا أو آجلا ، من مصير غير كريم . فلا عجب إذن أن يسبق على غيره من أمته إلى استشفاف هذا المصير . ولا أن يتوقعه لها بعده كثيرون . ولا أن يستيقنه أيضا أناس كفوا — بحكم ارتباطهم بها وولائهم لها — عن المجاهرة به ، إشفاقا منه ، وإيهاما لأنفسهم بأنه بعيد ، أو أنه لن يكون ! . ودائما يستدنى المرء فى باله المحال المرغوب ، ويستبعد التفكير فى المحتمل المكروه . .

سئل أحد شيوخ بنى أمية ، عقيب سقوط دولتهم بأيام :

« ما كان سبب زوال ملككم ؟ . . »

فأجاب ، وهو عندئذ لا حاجة به ، ولا جدوى عليه ، لو أوهم نفسه بما لن يكون بعد أن كان :

« جار عمالنا على رعيتنا فتمنوا الراحة منا . وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا ، وخربت ضياعنا ، فخلت بيوت أموالنا . . ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا . . وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم عدونا فظافروه على حربنا . . وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا . وكان استتار الأخبار عنا أوكد أسباب زوال ملكنا » .

وذاك هو الجواب الذى لا قول بعده لزار غاضب على الدولة الأموية ، طاعن فيها وفى رجالها حكاما وعمالا وبطانة ، لأنه جمع لها من المناقص : الافتقار إلى العدل ، وإثقال كاهل الناس بالخراج ، وابتزاز الأموال العامة ، والتكالب على المنافع الشخصية ، والتلهى عن تدبير شئون البلاد ، وإهمال رعاية الجند ، والإغضاء على المظالم ، والجهل بما يدور حولهم من أمور . . وهو الشهادة التى نطق بها لسان أموى فتدمغ أهله من المثالب والأوزار بما قد لا يفطن لبعضه

العدو والغريم ثم يجدر ، مع هذا ، أن يأخذها سامعها بغير حذر لأنها تجيء عن هو أميل — بحكم القرابة — إلى كتمان ما عسى أن يسمه كتمانه من مساوىء ذويه ! . وهو ، إلى كل ما احتوى ، إيماء كأنه إفشاء ، وتلميح كأنه تصريح ، وإعلان عن تواتر الأخطاء والعيوب ، والنقائص بمختلف جوانب السياسة الأموية ، تباعا وعلى مدى طويل ، فى سلسلة متصلة الحلقات ، لأنه ليس مما تسيغه العقول أن تكون كل هذه الزلات والرذائل قد وقعت دفعة واحدة ، فى ساعة ، أو يوم ، أو عام ، ثم حطت فجأة أمام الشيخ الأموى فانتبه إليها وهو مبغوت ! . .

شهادة تتمثل لنا وثيقة تجريم وتأثيم تدين بنى أمية على ما اجترحوه ولكنها تتبدى أيضا ، من خلال السطور ، كأنها صحيفة تبرير . . فالشاهد ، وإن أسهب فى تعديد أسباب الانهيار ، يحاول جاهدا أن يبرىء ساحة أهله ، فيلقى بالتبعة على من عداهم ، ملصقا كل مساوىء الأمويين بأعوانهم من العمال والوزراء وأهل الخراج . . وتلك محاولة ، إن تكن جدا وحقا فيما لعله يخال ، فهى حجة عليهم وعليه لا لهم ولا له ، لأنها عندئذ الغفلة التى لا تعفى من التأثيم . وإن تكن مراوغة ، وإنها لكذلك ، فكفاها زيفا طبيعة الحكم الفردى الذى اختطه عواهل الدولة ، واستأثروا فى ظله بكافة أسباب السلطان .

بل هى المراوغة التى لا تخدع أحدا ولو لم يعش فى نطاق سلطانهم ، ولا عرف حقيقة سيرتهم ، ولا شهد مظاهر سلوكهم ، ولا عانى مما أبرموه أو نقضوه . . وها هو ذا ملك النوبة لا تجوز عليه الحيلة حين أراد أحد الأمويين أن يسوق إليه نفس التبرير . .

كان هذا عندما انطوت صحيفتهم بمصرع آخر خلفائهم ، مروان بن محمد . . فقد تمزق جيشهم . وهلكت كثرة من أمرائهم ، وشرقت البقية الباقية منهم وغربت تضرب على غير هدى فى الآفاق إلى مأمن هنا أو ملاذ هناك يحفظ عليهم الحياة . . إذ ذاك انتهى الفرار بعبد الله بن مروان ، ولد الخليفة الصريع ، إلى أرض النوبة يلتمس فيها النجاة . .

وعلم ملك النوبة بنزوله فأمر رجاله أن يكرموا مثواه ثم أقبل عليه يزوره

بعد أيام فى وفد من أصحابه ، قضاء لحق الضيافة والتكريم .. فما أن رآه عبد الله ، حتى هب لاستقباله ، يتنحى له عن صدر المجلس ، ويدعوه للجلوس . .

لكن الملك آثر اقتعاد الأرض العارية ، مخليا لضيفه مكان الصدارة . فلما عجب عبد الله ، وسأله :

« ما منعك من القعود على الفراش ؟ . . »

كان الجواب :

« إنى ملك . وحق للملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأى نعمه متجددة عنده . وقد رأيت تجدد نعمة الله عندى بقصدكم بلادى ، واستجارتكم بى ، بعد عزكم وملككم ، فقابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع والتواضع . . »

فكأنما خدشت هذه الكلمات بعض كبرياء عبد الله ، أو كأنما حركت أشجانه ، فأخلد إلى الصمت وهو لا يكاد يجد ما يقول .

أما الملك فقد أغضى مليا . رأسه مائل على صدره . وعينه ملتصقة بالتراب . ووجهه الأسود اللامع لا تبين منه إلا جبهة مغضنه ، قد انعقد فيها ما بين حاجبيه كأنه يدير فيها — على مهل وعناء — فكرة شغلته تحاول أن تجد لنفسها طريقا إلى شفتيه . .

ثم انتبه فجأة وبادر ضيفه :

« أيها الأمير . لماذا شربتم الخمر وهى محرمة عليكم فى كتابكم ودينكم ؟ »
فهزت المفاجأة عبد الله . . ولكنه عالك جأشه بعد هنيهة ، وأجاب :

« اجترأ على ذلك عبيدنا بجهلهم . . »

قال الملك :

« فلم وطئتم الزروع بدوابكم والفساد محرم عليكم فى كتابكم ودينكم ؟ . . »

« فعل ذلك أتباعنا وعمالنا جهلا منهم . »

« فلم لبستم الحرير والديباج والذهب وهو محرم عليكم فى كتابكم ودينكم ؟ . . »

« استعنا فى أعمالنا بقوم من أبناء العجم كتاب ، دخلوا فى ديننا ، فلبسوا ذلك اتباعا لسنة سلفهم ، على كره منا . »

عندئذ لاح طيف بسمة على وجه الملك ، وهو يطرق برأسه ، ويقلب يده ينكت فى الأرض . ثم ما لبث أن قال بلهجة حاول أن تخفى سخريته :

« عبيدنا وأتباعنا وعمالنا وكتابنا ! . . كلا ! . ما الأمر كما ذكرت . . ولكنكم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم . وركبتم ما عنه نهيتم . وظلمتم فيما ملكتم . فسلبكم الله العز ، وألبسكم الذل . وإن له سبحانه فيكم لنقمة لم تبلغ غايتها بعد . . »

وانتفض واقفا يقول :

« أيها الأمير . إنى لأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم بأرضى فينالنى معكم . »

ثم أردف بهدوء كهدوء السكين لو غاصت عندئذ بطعنة مصمية فى قلب الأمير المذهول :

« . . الضيافة ثلاث ! . . اطلبوا ما احتجتم إليه ، وارتحلوا عنى »

وغادر المكان .

٥

كما كاشف رجاله ببزوغ نجم معاوية ، وارتفاعه فى أفق الحكم ، أنبأهم أيضا بانهيار الدولة الأموية ، بعد شوكة وعز وطغيان ، وسقوطها بعد حين صريعة تحت أقدام أعداء لها ، أشداء لا يرحمون . .

شريط من الصور الحزينة القاتمة ، مرسوم بالدم ، كان يمر دائماً فى باله ، على تعاقب زمنى — محددا ملامح الفواجع التى لن يلبث أن ينجاب شر الأيام — ما أكثر ما عرض منه أمام الآذان والأفهام . فكم تحدث إليهم عن محن الغد ا. كم أفصحت لهم عبارته عن مآسيهم المقبلة ، ومآسى أمة كانت ، على ضوء حاضرها القريب المشرق ، تنتظر عهودا من المحبة والوئام والسلام ! . . كم أعلن لهم إعلان يقين عن مصاير خفية توشك أن تقع فتمزق الأمن وتزلزل اليقين ! . .

لكنهم ، تهاونا وغفلة ، استقبلوا أحاديثه تلك بغير احتفال ، بعضهم لوى عنها سمعه وهم يحملونها على محمل الحدس والتخرص . وبعضهم أدارها فى خاطره ثم ظنها من قبيل المبالغة فى الزجر والتحريض . . وعندما لاح لقلة منهم أن تشيم من خلالها ما أشاع فى نفوسها خوف المستقبل ، أسرفوا فى تقدير مراميه ، وتقديره ، إلى أبعد مما تحلم العقول أن يشطح إليه خيال . .

حتى حين استشعرت كثرتهم فى سلوكهم بوادر تنبىء ، بالهيئة والمضمون ، عن استغراقهم فى تخاذل هو التقهقر والانحدار ، وفى سلوك عدوهم خطرا يزحف ظلوا على غير مبالاة كأنما كانوا يحاولون درء المصير المنتظر بالاختباء خلف طمأنينه نسجوها من خيوط عنكبوت ! . .

يقول لهم وهو ينذر بمحنة قادمة ، توشك أن تعم أمتهم على يد خصم عنيد جائر ، يعمل ويجهد ويسهر ، وهم فى طمأنينتهم الزائفة نيام :

« . . يظهر أهل باطلها على أهل حقها ، حتى تملأ الأرض عدوانا وظلما وبدعا ، إلى أن يضع الله عز وجل جبروتها ، ويكسر عمدها ، وينزع أوتادها . .

ألا وإنكم مدركوها ، فانصروا قوما كانوا أصحاب رايات بدر وحنين تؤجروا .
ولا تمالئوا عليهم عدوهم فتصرعكم البلية ، وتحل بكم النقمة ... »

لكن إفصاحه هذا لا يثير فيهم نخوة لأنه الحقيقة التي بدت لهم حينذاك كرجمة الظن ، والنتيجة التي يريحهم أن يلبسوها ثوب الأوهام ! . .

ويزيدهم بيانا وكشفا حتى لتهم كلماته ، وهي ترسم حالهم الحي ، أن تجسد المستقبل بعده خفاقا بنبض اليقين :

« مكنتم الظلمة من منزلتكم ، وألقيتم إليهم أزمتكم ، وأسلمتم أمور الله في أيديهم ، يعملون بالشبهات ، ويسيرون في الشهوات . . وأيم الله لو فرقوكم تحت كل كوكب لجمعكم الله لشر يوم لهم ! . . »

ولا يكفيه أن يعلمهم عاقبة ثبوط همتهم ، ومآل عسف عدوهم ، بل ينزع عن مجهول الغد سترا آخر يطلع عليهم النعمة المحيقة وقد جلاها عن الأمة قوم شداد صلاب ، يركبون بني أمية بالقهر والخزي والمذلة : حتى ليتمنى رجالها ، في كبوتهم لو لم ينازعه أسلافهم حقه ، أو يناصبوه العداء . .

يقول :

« .. ثم يفرجها الله عنكم . . بمن يسومهم خسفا ، ويسوقهم عنفا ، ويسقيهم بكأس مصبرة ، لا يعطيهم إلا السيف ، ولا يلبسهم إلا الخوف . فعند ذلك تود قريش ، بالدنيا وما فيها ، لو يرونني مقاما واحدا . . لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطونيه . . »

وصدق فيما قال . .

فلقد آن ، من بعد ، موعد هذه الأمنية الأموية التي أججها الندم من زواجه بخشية المغبة حين أزفت الآزفة ، وداهمهم البلاء ، ولم يعد لهم من دونها كاشفة ووقاء ! . .

يومذاك كان مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ، قد نزل بالزاب ، يتهيأ لحماية عرشه وعرش آبائه من انتفاضة الشعب التي تزعمها العباسيون . كان

فى عدة قوية من مائة ألف فارس من رجاله ، على مائة ألف فارح يرتبهم ، وينظم مواقفهم ، ويعد نفسه وإياهم لخوض معركة المصير ..

وأشرف من مقر قيادته يرمى بعينه على جحافل أعدائه . يا لهذا السواد الذى يملأ الأفق أمامه ويكاد يحجب الشمس عنه ! . . أمن كثرة عددهم وكثافة الصفوف ؟ .. أم تلك عمائمهم وأعلامهم السوداء هى التى تنشر الظلام ؟ أم هذه الأسراب من الغربان التى تتابعت تحوم على كثب منهم ، وتدانيهم ، حتى غدت تلتحم بمقدمتهم ، وتؤلف مع جموعهم المنتشرة مثل ستارة من دجنة نقبت ضياء النهار ! .

وتشاءم مروان ، وتلفت حوله يسبح بنظرة متوجسة فى صفوف جيشه اللجب ، وهو يهمس بصوت أسيف :

« إنها لعدة . ولا تنفع العدة إذا انقضت المدة ! . . »

وأردف ، وبصره يومئ إلى أعدائه ، كأنما ليبرر توجسه :

« أما ترون رماحهم كأنها النخل غلظا ! . . أما ترون أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع الغمام السود ! . . أما ترون إلى السواد قد اتصل بالسواد ! . . »

ثم مال على أذن رفيق له يسأله :

« من صاحب جيشهم ؟ . . »

أجاب الرجل :

« عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس . . »

فهل لسعه الاسم بشواظ نار ؟ . .

لقد صاح وهو مبغوت :

« ويحك ! .. أمن ولد العباس بن عبد المطلب ؟ . . »

« نعم . . »

فأحنى رأسه كالمضيع ، وقال :

« لوددت والله أن على بن أبى طالب مكانه فى هذا الصف ! . . »

فتعجب رفيقه :

« يا أمير المؤمنين . . أتقول هذا عن على مع شجاعته التى ملأ الدنيا ذكرها ! . »

« نعم . . إن عليا مع شجاعته صاحب دين . وإن الدين غير الملك . . »

لكنها الأمنية التى لم يعد لها اليوم مجال . فقد مضى ذلك الذى كانوا يأمنونه لأنه يعف عما لا تجيزه شهامة الفروسية ، ومروءة الإنسانية ، وسماحة الخلق ، من البغى والنكال ولو بخصم مسرف غاية السرف فى الحقد والبغض والعداوة .

وكأنما برزت لمروان بوادر نهايته ، فبعث على الأثر برسالة إلى عبد الله ، يستأمنه فيها بعض استئمان . .

كتب إليه :

« يا ابن عم . . إن هذا الأمر صائر إليك . فاتق الله واحفظنى فى حرمى . . »

فإذا جواب عبد الله :

« . . إن الحق لنا فى دمك . وإن الحق علينا فى حرمك . . »

ومع ذلك فلا الحرم أفلت من معرة الامتهان ، ولا الدماء أهرقت بميزان ! بل اندفع غول الانتقام يعيث فيهم دمارا وقتلة وغيلة ، لا يكاد يرده رادع عن سرفه . .

وكم من صور للانتقام ! .

. . جىء بإحدى بنات مروان ، بعد مقتله بيومين فى مصر ، إلى أحد رجال أعدائه ، فإذا هى ترعد كورقة ذابلة يتقاذفها أعصار . . حتى إذا مثلت بين يديه ، بدا أمامها كمن يحاول أن يذهب عنها الروع ، فقال يخاطبها بنبرة رقيقة :

« لا بأس عليك أى بنية . . »

فنفس نفسها بعض اطمئنان ، وقالت تنفس عما تحسه من قلق واضطراب :

« وأى بأس أعظم من إخراجك إياى حاسرة ولم أر رجلا قبلك قط . . »

ابتسم لها وقال فى هدوء :

« اجلسى . . »

لكنها ما كادت تفعل ، حتى رمى فى حجرها برأس أبيها مجزوزة من عنقه قد تجمدت عليها الدماء . .

فهل هو الهلع ، أم الرعب ، أم القسوة الفاحشة ما طفر بالفتاة من مقعدها تصرخ وتصيح ؟

أما الرجل فلعله ما أحس إلا بنشوة الشماتة تملك عليه مشاعره ، وهو يشهد نتيجة فعلته ، حتى لقد قال لمن استفسروه سر غلظته التى لا تدانيها غلظة الوحوش :

« فعلت بها فعلهم بزيد بن على . . لما قتلوه جعلوا رأسه فى حجر زينب بنت على بن الحسين . . »

* * *

... وأدخلت بنات مروان وحرمه ونساؤه إلى صالح بن على وهن بعد النكبة مهيضات مفجوعات . فتقدمت منه كبرى بنات الخليفة الصريع تحاول أن تستثير شفقته ، عسى أن يكف عن بقية أهلها بعض النكال . .

قالت له مسترحمة :

« يا عم أمير المؤمنين . حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه ، وأسعدك فى أحوالك كلها ، وعمك بخواص نعمه ، وشملك بالعافية فى الدنيا والآخرة . . نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسعنا من عدلكم ما وسعنا من جوركم . . »

فغضب لقولها الذى عرضت فيه بجور الدولة الجديدة ، ورد وهو يزأر :

« إذن لا نستبقى منكم أحدا ! . . »

ثم والى حديثه وسبابة يمناه تعد على أصابع يسراه :

« . . إنكم قتلتم إبراهيم الإمام . وزيد بن على ، ويحيى بن زيد ، ومسلم بن عقيل . وقتلتم خير أهل الأرض : حسينا . وإخوته . وبنيه . وأهل بيته . .

وسقتم نساءه سبايا — كما تساق ذرارى الروم — على الأقتاب إلى الشام . . »

وكانت الدماء تفيض من تحت جلد الفتاة كلما أحصى وعدد ، وثنيتاها تكادان تقضمان سفلى شفتيها من أسف على مابدر من كلامها الذى أثار ثورته . حتى إذا رأته يلقف بعض أنفاسه اللاهثة ، أسرعت تستدرك لعلها تصلح ما أفسدته من مزاجه وتهدىء قليلا من غضبته المندلعة .

قالت على خوف وندم :

« يا عم أمير المؤمنين .. فليسعنا عفوكم إذن ! . »

فكأنما فتحت بقولها فى فؤاده الصلد ثغرة إلى الرجاء ، لأنه عهل هنيهة ، ولم يلبث أن قال :

« أما هذا فنعم »

* * *

... ومشت إحدى نساء بنى أمية إلى سليمان بن على ، وهو عندئذ بالبصرة يمعن فى قتل آلها الأمويين ، كأنما يتلهى بقتلهم للمتعة وإزجاء الفراغ . . فلما جمعها مجلسه ، قالت تحاول أن تكفه عن متعته الدموية :

« أيها الأمير إن العدل ليمل من الإكثار منه ، والإسراف فيه . فكيف لا تمل أنت من الجور وقطيعة الرحم ! . . »

فلم يزد الأمير على أن أجابها فى غير مبالاة مذكرا بعلك ذويها :

« سننتم علينا القتل لا تنكرونه   فذوقوا كما ذقنا على سالف الدهر »

وأطرق لحظة مد بعدها إليها بصره وأردف :

« يا أمة الله ! . وأول راض سنة من يسيرها ! »

* * *

. . وعندما جىء برأس مروان لأبى العباس السفاح ، سجد وأطال . ثم نهض من سجوده وقال يخاطب الرأس المقطوع ، وومض الفرحة لا يغيب عن محياه ، وجرسها الراقص لا يختفى من حديثه :

« الحمد لله الذى لم يبق ثأرنا قبلك وقبل رهطك ! . . الحمد لله الذى أظفرنا

بك ، وأظهرنا عليك ! .. ما أبالى والله متى طرقنى الموت وقد قتلت بالحسين ألفاً من بنى أمية ، وأحرقت شلو هشام بابن عمى زيد بن على كما أحرقوا شلوه !..»

والتهبت عيناه بحمى شماتته وهو يتمثل :

«لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهم جمعا ترويني ! . . »

وحول وجهه إلى القبلة يسجد مرة ثانية . ثم اعتدل وقال :

« أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواطع فى أيماننا تقطر الدما

إذا خالطت هام الرجال تركتها كبيض نعام فى الثرى قد تحطما ! »

* * *

صور وحشية . أم هى صور إنسانية تكشف عن ضراوة البشر ، وترديهم فى وهدة القسوة والعنف إلى أبعد الأغوار ؟

بل هو الثأر ، دائما ضربة بضربة ، ونكال بنكال يتعاقب جانباه على أديم الدنيا حيثما كانت فى ربوعها معالم للحياة البشرية ، واختلط هواؤها بزفير إنسان . وقد تعاقب الجانبان على الأرض العربية ، كما يتعاقب ليل ونهار . وتعثلا فى الصراع الهاشمى الأموى ليبرزا لنا — إلى جوار طبيعة البشر البشمة ، انقطاع أنفاس الظلم والظلام ، مهما طال الأمد ، واستمكنت القوة ، وبعد الرجاء ، وصبرت عليهما الأيام . .

إنها الحكمة الداهرة ، والظاهرة المتكررة التى تتجدد على اطراد بين الآن والآن ، فى كل زمان ومكان ، لتؤكد أن الطغيان لا محالة إلى انتهاء وإن حرص ذووه — غفلة أوصلفا — أن يمكنوا له فى البقاء . . فتلك بديهية البديهيات التى يتناساها كل طاغية ، عن اغترار واستكبار ، ولا سبيل لدولة أولإنسان إلى نقضها مهما أفسح لأيهما فى الفرعنة والتجبر،لأنها القانون الطبيعى القاهر الذى يفرض نفسه على حركة الحياة ليحفظ لميزانها الاعتدال . . فما تعرف الدنيا الإطلاق . وما لشىء بها أو لأمر أو لأحد دوام . . إنما إرادة الله قد قضت بالمراوحة فى الوجود بين النقائض، وبالمداولة بين الأضداد كالنور والظلمة، الأصل والظل ، القوة والمقاومة ، الفعل ورده ، الصوت وصداه ، ليبتلى الناس ويختبر سلوكهم أإلى الخير أم إلى الشر ، وإلى الخطأ أم إلى الصواب ، لتتحقق عدالة الجزاء . .

واقد أسلف الإمام إلى بنى أمية النذير وهم من بعد فوق بر الأمان أقدر عندئذ على كبح الأنفس أن تتقحم بهم فى المهالك ، وتخوض ، بدفع الأطماع ونزغ الشهوات ، بحارا من الدم تفضى بهم بعد حين إلى عادية الثأر المنهوم . . فأفلحوا لو ارعووا ! . . وسلموا لو فهموا ! ، . ولكنهم فى غمار الأمانى استغلقت منهم العقول وانطمست الأفهام ، فغاب عنهم مآلهم المحتوم الذى نشره أمامهم دون إخفاء . .

أما قال لهم :

« . . ألا وإن لكل دم ثائرا ، ولكل حق طالبا . وإن الثائر فى دمائنا كالحاكم فى حق نفسه وهو الله الذى لا يعجزه من طلب ، ولا يفوته من هرب . فأقسم بالله ، يا بنى أمية ، عما قليل لتعرفنها فى أيدى غيركم ، وفى دار عدوكم . . » ؟ .

قال .

ووقع ما قال بعد السنين الطوال .

وكان الواقع هو النتيجة التى لا معدى من حلولها ، عجل بها الزمن أو تأخر ، ترتيبا على ما اجترحوه . . كان القضاء اللازم ، والقدر الداهم ، الذى حذروه وأغفلوه . . كان ثمن الطغيان . .

وضربة بضربة . ونكال بنكال ! . .

٦

لم تكن قط انتفاضة بالغضب لحق ، ولا انتفاضة بالثار لدم ، كتلك الثورات التى تفجرت من بعد فى دولة بنى أمية ، على مراحل حياتها ، وفى مختلف مواضع نفوذها ، طلبا لحق على ، وانتقاما لدماء آله ، وهى تنشر فى جنباتها الذعر والموت والدمار .

وكم لهذه الثورات من دوافع . ولموقدى نيرانها من ذرائع . ولأهلها من أولياء وأنصار ! . لكنها مضت لغايتها ، بغير تردد ، تطوى سجل عدوها وتمحو آياته . بعضها بداعى القرابة . وبعضها بحكم الولاء . وبعضها صدى للندم . وبعضها عن ادعاء . .

وكيفما كان من أسباب تلك الحركات القاصمة ، وحجج مثيريها ، فقد قطعت الشوط المنتظر ، وغطت الأرض الأموية بالأشلاء ، غير مبالية أن تقصد فى العنف ، أو تميل — عمدا أو عفوا — عن جادة القصاص المقبول إلى أقاصى النكال والبطش والمثلة وهى تضرب ، ما وسعها ، بسلاح السخط والحنق ، لتشفى غيظها ، وتبرد نارها ، فتسقى عدوها من نفس كأسه المرة التى طالما أترعها فى جبروت سلطانه واستكباره لخصومه الهاشميين ، ثم تقهره قهرا على احتسائها وامق بقاياها إلى الثمالة ! . . ولا عجب ! . . فلا هوادة فى حقد ، ولا تحرز مع ثأر . فثورات الجماهير عادة بلا عقول ولا قلوب . وحركات المد الانتقاضى الغاضب لا يكاد يردها عن انتشارها الجامح جزر إلا أن تبلغ مداها ، وتحقق أربها ، لأنها دائما جموح حرون كاندلاعة الحريق ، أو اندفاعة العواصف والأعاصير .

وحقت هكذا قولة الإمام ، مع الأيام ، فى الظالم وفى المظلوم .

ففى المشرق ، إن هى إلا فترة من الزمن قصيرة ، لا تكاد تذكر كعمر دولة حتى كان آخر الخلفاء الأمويين مروان « الحمار » يذرع الأرض من الموصل ،

إلى الشام ، إلى مصر ، عبر الفلوات والأنهار ، وهو يفر بجنده من أسياف الهاشميين من بنى العباس، أبناء عم رسول الله ، فرار الحمر المستنفرة أمام قسورة ، ثم لا يجد لنفسه منهم جنة إلا حينه . .

وفى المغرب ، إن هى إلا فترة أخرى عقب هذه حتى انقصف فرع البيت الأموى بالأندلس بعد طول عز وصولة ، ثم ديست معالمه ، فى إفريقية ، تحت أقدام هاشميين آخر من أبناء الحسن بن على ، سبط النبى ، هم بنو حمود ...

ولم تكن جحافل الثوار آنذاك هاشمية خالصة تضم آل الرسول وحزبهم الذين طالما ألهبتهم سياط الأمويين . بل قد لقيت الثورات عونا قويا من كثير من العناصر الشعبية البعيدة ، بوضعها الاجتماعى ، عن مجال الصراع بين البيتين الكبيرين اللذين انحصرت فيهما زعامة العرب ، شرفا ونبوة ، ورنت إليهما فى اضطرابة الحوادث الأنظار . . كانت عناصر شتى ، من الألى لا هوى لهم فى السياسة ، ولا مطمع يرجونه من وراء التغيير إلا أن يرجحوا كفة على كفة ، ويرفعوا جانبا على آخر . منهم العاطف . ومنهم الحاقد . ومنهم أكثر من أولئك وهؤلاء باحث عن المغامرة يتسقط الحياة التى يرتضيها وتحلو له من أغوار برك الدم على رنين التحام الحراب ! . . وإذا كانت دعوة الدعاة قد طفقت ، عاما وراء عام ، وجيلا فى إثر جيل ، تستجيش كل حاقد على الحكم الأموى ، موتور منه ، لتستزيد من الأنصار ، فإن الجانب الأكبر من الجماهير التى انخرطت فى صفوف الثوار ، وأشهرت فى وجه بنى أمية سيوف الانتقام ، لم يكن يشدها ، فى الأغلب ، إلى هذا الانخراط إلا إحساسها بإنسانيتها ، ووفاؤها للطبيعة البشرية التى تدفع المرء دائما ، حنوا ورقة ، إلى الانعطاف للمحروم المظلوم ، والانحياز إليه ، انتصافا له من ظالميه ، إذ يكاد يرى نفسه ذلك المحروم المظلوم ! . وهل فى السواد الأعظم من الناس أحد لا يسيطر عليه شعور غلاب بأنه فريسة حرمان وظلم ، لم ينل فى الدنيا حظا يكافئ قدره وملكاته ؟ . .

ودع عنك أيضا تلك الزمر الكثيفة التى التحقت بصفوف الثورات الهاشمية وفاء دينيا لذكرى رسول الله قبل ولائهم سياسيا لهذا أو لذاك من آل بيته الذين تنادوا بحقهم فى ولاية الأمر بحكم وشائج القربى وصلات الدم . . ودع عنك

عدم تلك الزمر الحانقة من الأعاجم أبناء فارس الذين رأوا فى انتصارهم آل البيت إحياء لنظريتهم القديمة التى تربط بين الحكم وبين العقيدة فتجعله حقا لهيا ، ليس أحد أولى به من ذوى القداسة ، فليس أجدر به إذن من الأئمة آل بيت الرسول . .

طوائف شتى ، لأسباب شتى ، تضافرت على ضرب حكم الأمويين ، وتقويض نفوذهم الباقى حتى سوته بالتراب . . وصور شتى ، بألوان شتى ، من القهر والذل والعذاب . طاردت ذويهم وأذاقتهم النكال . . وليس كل ما أصاب خليفتهم الأخير ، والكثرة الكثيرة من أمرائهم ، من قتلة ومثلة ، هو نهاية مطاف الكارثة التى حلت بهم ، إذ قد امتدت الفواجع أعواما عدة بعد ذهاب ريحهم كقوة سياسية ذات خطر ، واستتباب الأمر لبنى العباس . . فما أكثر من قتل وصلب ! . وما أكثر من قضى حياته حبيس السجون !.. وما أكثر ما هدمت دور وأحرقت قرى على من فيها ومنهم من الأتباع ! . . بل إن منهم من نبش عن قبره ، وأخرجت جثته البالية لتحرق على ملأ الناس ! . .

فظائع إن يكن أسرف فى تلوينها التهويل ، وأغرق فى ابتكارها الخيال ، فإن بها ، لا ريب ، لمحات صدق تنبئ عن الكوارث التى أحاقت بالأمويين ، وأطبقت عليهم — أمراء وأتباعا — من كل جانب ، تحاصرهم بالوبال والدمار ، ويغمرهم بطوفانها الهادر كل حاقد ومنافق وموتور . . فكم لقوا من الدولة الناشئة . ومن أشياعها الثائرين . ومن طوائف مختلفة من الجماهير التى تحركها غريزة القطيع للاندفاع مع تيار التنكيل الذى أطلقته النقمة أو مع سكرة الانتصار ! . .

حتى بعد أن هدأت هونا غضبة بنى العباس ، وخفت عندهم شهوة الانتقام ، لم تعدم البقية الباقية من الغرماء المقهورين ممن أفسح لهم عندئذ فى النجاة والحياة ، أن تتحرك إليها ، من هنا ومن هناك ، عوامل الدس والحسد والبغضاء ، لتملأ الدنيا عليها تحريضا ، وتعيد من حول جموعهم وأفرادهم تأريث النار ! . .

ولقد جرى من هذه الكوارث المفظعة على ألسنة الروايات والشائعات كثير وكثير . .

قيل . .

. . . . دخل مرة مولى لبنى هاشم ، على أبى العباس السفاح ، وقد ثبت ملكه ، واستقرت دولته ، فإذا هو يرى عنده فريقا من أمراء الأمويين ، قد أمنهم الخليفة ، وأوسع لهم فى مجلسه بعد أن اتسع لهم عفوه ورضاه . .

وغص المولى . لم يطق هذا المظهر من الصفاء والألفة يقوم بين صاحب الأمر ومن كان بالأمس يطاردهم بأسياف نقمته . . فأسرع يسل عليهم لسانه ، مقبلا على الخليفة بشعر يثيره ، ليوقظ فى نفسه وحش الانتقام الذى نام ! . .

أنشد يقول من بين ما قال :

« يا ابن عم النبى ، أنت ضياء استبنا به اليقين الجليـــا
جرد السيف ، وارفع العفو ، حتى لا ترى فـــوق ظهرها أمويا
لا يغرنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا
قطن البغض فى القديم وأضحى ثابتـا فى قلوبهم مطويا ! . »

فما هو أن فرغ من شعره ، حتى كان سم تحريضه قد سرى فى قلب السفاح ، فغير وجهه ، وحرك حقده ، ودفعه يطرق هنيهة كالنادم ثم يرفع وجهه ليقول :

« خلق الإنسان من عجل ! . . »

وأردف يتمثل :

« أحيا الضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبيد وللآباء أبناء ! .. »

والتفت نحو غلمانه وقد اشتعل فى نظراته الشر ، يومئ لهم إلى جلسائه الأمويين :

« خذوهم ! . . »

فقتلوا ! . .

***

وقيل :

. . . . نزل مولى آخر للعباسيين على عبد الله بن على وعنده طائفة من بنى أمية قد صفح عنهم ، ودعاهم بمجلسه إلى سمط طعام مد لهم ولمن حضره من أصحابه .

فما أن وقعت عينه على المشهد ، حتى تغير ، كما تغير رفيقه الآخر ، وأسرع ينفث دسيسته ، وينفض الرماد عن الجمر ! . .

أنشد محرض الأمير :

« لا تقيلن عبد شمس عثارا   واقطعن كل رقلة وغـــراس
ذلها أظهر التودد منهـــا   وبها منكم كحد المواسى ! . .
أنزلوها بحيث أنزلهـــا الله   بدار الهوان والإتعـــاس
واذكروا مصرع الحسين . .   . .   »

وراح يعدد شهداء بنى هاشم . .

فذكر عبد الله ما كان أنسيه ! . . وإن هى إلا لحظة حتى شدخت رءوس ضيوفه الأمويين بالعمد ، وبسطت عليهم البسط ، ومدت فوق جثثهم المهشومة — وإن ببعضها لبقية حياة — موائد الطعام ! .

* * *

وقيل وقيل ، غير هذا كثير ، بمنطق الصدق أو بسرف التهويل .

نكال ما بعده نكال ليس يخلو من معالم الحقيقة وإن أغرق فى الانسياق للخيال ! .. ومع ذلك فهو ، على أى نحو يه كان ، حصاد ما زرعت دولة الأمويين فى عنفوان طغيانها من دم وخراب . وهو جنى مر لما غرسته فى النفوس من إحن وعداوات . . ولقد توشك المبالغات أن تلقى بأكثف الظلال على ما سلف من مظالم الحكم البائد حتى لتنحله من صنوفها ما لم يقترف ، ولكننا نوشك ألا نرى أيضا عهودا فى تاريخ الإسلام قد شهدت ، على طول المراحل ، مثل ملامح الشطط فى القسوة والعنف التى أبداها ذلك الحكم لمنافسيه ، حقدا عليهم أو خوفا منهم . ولا مثل فعل أساطينه بالشعب ، الذى دان لملكهم واحتوته قبضتهم ، بلوغا إلى تغيير مشاعره نحو الهاشميين عامة ونسل فاطمة خاصة ، وانحرافا بتأييده إلى الجانب المضاد . .

أبدا لم يدع بنو أمية سبيلا إلى إشاعة البغضاء على خصومهم إلا طرقوه تأمينا لدولتهم التى قامت على ادعاء حق لا نصيب لها فيه إن لم نقل قامت على الاغتصاب ! . . فبكل ما وسعتهم الدعوة والحيلة والإكراه حاولوا القضاء على خصومهم ، كقوة

قيادية ، فى مجال السياسة ، لها وزنها فى تنبيه الأفكار وتحريك الجماهير ، أو كسيرة عطرة ، فى مجال العواطف ، تتعلق بها الخواطر وتهفو إليها القلوب . تذرعوا بكل ذريعة : محظورة أو مشروعة . توسلوا بكل وسيلة : كريمة أو لئيمة . . بالكلمة والسيف . باللين والعنف . بالوعد والوعيد . بالإحسان والحرمان . بطمس الحقيقة . بتشويه القيم بتدليس الأنباء بتزييف الأحداث. بابتداع أمور ووقائع لم تتنسم الحياة . بما قد يستطاع أن يجمل — بلغة يومنا — فى عبارة « غسل المخ » بمختلف أنواع الإلحاح فى المغالطة والتمويه ، دحضا لحجج غريمهم عليهم ، وفضا لأنصاره من حوله ، واستهواء خادعا يستجلب لهم مزيد من التبع والحلفاء .

والحديث فى هذا الوجه يطول وإن بوعد ما بينه وبين الإحصاء وأخذ فيه على طريق التمثيل . . لكن قصة واحدة قد تغنى عن كلا السبيلين لأنها أبلغ تعبير يستطيع أن يرسم نتيجة « حملة الكراهية » التي شنها بنو أمية على الإمام وذويه كما قد لا يرسمها مثله تعديد الصور ، والإفاضة فى استقصاء الشبيه والنظير . . . .

وهذه هى القصة . .

ارتحل رجل إلى الشام يجول فيها ، فلفته أن أحداً من أهلها — على كثرة من عرفهم ، ومر بهم ، وسمع منهم — لا يتسمى باسم على أو حسن أو حسين ، أو ينادى به غيره ، وإنما تفشو فيهم أسماء : معاوية والوليد وزياد ، وأمثالها مما يحمل أهل الأسرة الحاكمة ورجال الدولة . .

وعجب . . وهل كان لظاهرة كهذه أن تشيع فى أمة على صدفة شيوعها ذاك الذى بلغ الإجماع ؟

ثم قاده ذات يوم عطشه إلى شامى ، ببعض الطريق ، ليستسقيه . .

فما كان أشد عجبه حين سمع الشامى ينادى أبناءه ليلبوا طلبه :

« يا على ! . . يا حسن ! . . يا حسين ! . . »

عندئذ لم يملك المسافر أن سأله :

« يا هذا .. إن أهل الشام لا يسمون بهذه الأسماء ! .. »

قال صاحب الماء :

« صدقت .. إنهم يسمون أبناءهم بأسماء الخلفاء .. »

« وأنت ؟ .. »

« كرهت ذلك ، لأن أولئك إذا لعن أحدهم ولده أو شتمه فقد لعن خليفة. أما أنا فقد سميت أولادى بأسماء أعداء الله ، فإذا شتمت أو لعنت فإنما ألعن أعداء الله ! .. »

إلى هذا الحد بلغت حملة الكراهية الأموية من « غسل المخ » بغضا لأمير المؤمنين ونبيه .. وإلى نحوه من الغلواء أمعن الأمويون بعنفهم وقسوتهم فى التنكيل بعقبه وآل بيته ومن شايعهم من الناس .. فأما وهذه هى قوة « الفعل » فمن الطبيعى أن تناظرها قوة «رد الفعل» حين يتاح الانتقاض .. ومن الطبيعى أيضا أن تستشف النتيجة المنتظرة لهذا الارهاب الطاغى قبل وقوعها . ويستشعرها كل متأمل كان حينئذ مع بنى أمية أو عليهم ، من خلفائهم وأمرائهم وسادتهم أو من عرض الجمهور .. وإذا كانت الرؤى والأحلام ، فيما تحدثنا العلوم النفسانية العصرية ، تفصح فى نوم المرء عن أحاسيسه المكبوتة ، فتعكس أحيانا شعوره بالذنب ، وتعبر أحيانا أخرى عن المخاوف أو الآمال ، فليس من شك تحت هذا الضوء فى أن رؤيا سليمان ابن هشام بن عبد الملك ، أحد أمراء الأمويين ، صارحته بما كان يكمن من شعوره بذنب ذويه ، وصدقت فى إفصاحها له عن خوفه المكبوت من مصيرهم المنتظر ! ..

.. يقول العلاء بن رافع مؤنس الأمير :

« إنى لمع سليمان ، وهو يشرب تجاه رصافة أبيه .. وعنده الحكم الوادى يغنيه .. .. »

وتمضى القصة ..

يجيد المغنى ما شاء . ويشرب سليمان ما شاء . ويشرب معه رفاقه حتى يسكروا جميعا ، ويتوسدوا أيديهم كالغفاة النيام من فرط الشراب .

ثم يحس العلاء كأن يدا قوية عنيفة تحاول تحريكه . فينتبه مذعورا على الأمير وهو يهزه متعجلا وقد بدت فى عينه نظرة وجوم . .

وبغت الرجل ، وقال :

« ما شأن الأمير ؟ . . »

قال سليمان كالهامس ، يقص رؤياه :

« . . . رأيت كأنى فى مسجد دمشق ، وكأن رجلا على يده حجر ، وعلى رأسه تاج أرى بصيص ما فيه من الجوهر ، وهو رافع صوته بهذا الشعر :

أبنى أمية قد دنا تشتيتكم وذهاب ملككم وليس براجع
وينال صفوته عـــدو ظالم كأسا لكم بسمام موت ناقع »

فصاح العلاء :

« أعيذ الأمير بالله من وساوس الشيطان الرجيم ! . . هذه أضغاث أحلام . . »

وأطرق الأمير مليا وقد استغرقته أفكاره . فلما أن رفع وجهه ، كانت ملامحه كابية ، وكان فى عينه سهوم . وكان ثقل التشاؤم يكاد يهوى بحروف كلماته قبل أن تلتئم عبارة مكتملة ، وهو يقول لرفيقه :

« يا حميرى . . بعيد ما يأتى به الزمن قريب ! . . »

* * *

وكان حقا قريبا ذلك البعيد الذى عنت أحلام قومه غيابه وراء خط العدم لا تطلع به عليهم الأيام . . فقد وقع . لم تحل بينه وبين سقوطه عليهم كسفا ما اصطنعوا من حذر ، وما أعدوا من قوة ، وما ساروا به من البطش والعسف والإرهاب فى الناس ، تسكيتا للأفواه ، وغلا للأيدى ، ولبا للعقول والأفهام .

ولم ينفعهم كذلك الذكر الذى طالما جرت بهم أحاديث على وهو يحذرهم المغبة ، وينذرهم سوء المآل . . وهل كانوا ليذكروا وإن بوارق الاطماع لتغشى منهم

العيون وتغلف الأفئدة وتوقر الأسماع ؟ . . وإنه لعدو أولى بهم ألا يحملوا كلامه على محمل الجد بل على محمل التمويه والإيهام ؟ . . وإنهم ، إبان ما عدد من نذره ، كانوا على أول الطريق إلى تسنم قمة الصولة ، ودونها — فى حسبانهم — يقصر شوط غيرهم ، وتنبهر أنفاسه ، ولو حاول أن يطير إليها على جناح الخيال ؟

وكيف لا ، وها هم أولاء يرون أصحابه اللصيقين به ، العاملين لنصرته — فيما تبدى لهم وللناس — لا يكادون يلقون بالا إلى هذا الذى قال وردده يوما وراء يوم فى المقال تلو المقال ؟ . . بل تحذيره إذن تخويف لأولئك وحث لهؤلاء ، ونذيره إذن من قبيل الدعوة المثبطة هناك والمحرضة هنا عسى أن ينال ببلاغة الكلام وصرير الأقلام ما فاته أن يناله فى ساحة الوغى وحومة الصدام ! . .

٦

لو أنهم أصغوا إليه ، فلربما تغير لهم الوضع ، واختلف بهم المصير ، ومشى التاريخ معهم على غير نهجه الذى ساروه ، ووعته لنا بعدهم بطون الأسفار . .

لكنه القدر اللازم ، حين يبدأ خطواته ، لا يرده شيء عن الانطلاق . والقضاء الدائم ، لا تغني عن وقوعه حيطة . بل الحيطة دائماً تكون له ولا تكون عليه ، لأن العيون تعمى ، والبصائر تنطمس ، والعقول تذهب وتقدير الأمور — بداية وغاية — تضطرب معاييره ، فيهول المرء عندئذ مايهون ويهون عليه ما يهول ، فإذا هو يحذر ما لا ينبغي الحذر منه ، وتسوقه الغفلة — آمنا — إلى الانزلاق نحو المحذور المقدور ! . .

وتلك خلاصة قصته معهم ! . . يبصر ، فكأنما غير ذوى بصر . ويردد ، فكأنما لغير ذوى سمع ! وهم ، من دونه ، يظنون الأمان فيما لا أمان لهم فيه . ويرون الخوف فيما لاخوف عليهم منه . . وبين اليقين والشك قد اختبل سلوكهم، يميلون لليسار حين يقصدون إلى اليمين ، ويعمنون فى الشك وهم يحسبونه اليقين .

لا عن جهالة فعلوا ، فقد علم . ولا عن ظن ، فقد بين . ولكنهم قوم كانوا على اعتداد تعالوا به إلى حد الاغترار . فلم يتعبد لهم طريق التصديق . إنما كلفوا بالمراجعة ، فأسلمتهم إلى المكابرة ، فوقعوا فى الشدة ، فمالوا إلى التكذيب . . ولا غرابة أن يكون هذا ديدنهم ، لأن الجبلة البشرية مركوز فيها إنكار مالا تعرف ، واستبعاد ما يغم عليها فهمه أو تبريره . وقد كان ما يحدثهم الإمام عنه أحياناً — حثاً وتحذيراً — من غوامض الغد وأسراره ، أبعد من امتداد نظرتهم القاصرة ، وأكبر من إحاطة علمهم المحدود . .

كالأُلى يخطف البرق أبصارهم فلا يرون إلا الظلمة وإن أنار ، كانوا لا يستطيعون رؤية الحقيقة فيما يقول ، فيحملهم عماهم على التكذيب ، ويقودهم جهلهم إلى الإنكار . تماما كدأب المشركين والمنافقين الأولين مع محمد ، نهرتهم

رسالة السماء فرأوها دعوة إلى الصبوة لا دعوة إلى الهداية ، ورأوه معها كشاعر وكاهن وساحر ، ولكنهم لم يروه قط كرسول !.

وكذلك الإمام .

فى رجاله كثر من كذبوه . . فكلما أفصح لهم عن حدث مكنون لما يتفتق الزمن عنه ، أو أومأ إلى أمر من الأمور المغيبة عن عقولهم ، افتروا عليه ، وألصقوا به الادعاء . . بعضهم ، عن حماقة وجهل ، جاهروه بالتكذيب فى غير تحرز . وبعضهم خبأوه تحت الألسنة ، نفاقا ومراءاة ، وإن طالما أفحمهم أجمعين بما لم يكن لهم معه محيص عن التصديق . .

فكأنما نسوا ما مر بهم من شواهد صدقه وإنها لناطقة بأبلغ بيان ، ماثلة أمام العيان ، ثابتة فى الأخلاد والأذهان ليس يسع الأشهر القلائل التى تقضت أن تطمس منها الكثير ، بل اليسير . .

وكم تبلجت لهم الأمثال ! .

فتنة الخارجة مثل .

مصارع أهل النهروان مثل .

قصة المخدج ذى الثدية مثل .

وألوان عدة من أنباء المغيبات جرت تحت أسماعهم على شفتيه حديثا وأحداثها ما زالت خلف ستر الزمن لم ينسج منها خيطا ، ولا صاغها القدر فى حروف . .

ولم يكن يرجم بظن، ولا يستقرئ النجوم ، ولا يلتجئ للكهانة وهو يرمى بعينه إلى ما وراء المعلوم المنظور ليأتيهم بشذرة من المجهول المستور . . .

إنما كان ينطق عن حق لا شبهة فيه ، لأنه كان عندئذ يطلعهم على بعض علم محمد الذى اختصه به من دون الناس ، وهو ليس بالذى يفترى على الرسول . .

وقد سمعوه يقول :

« . . إذا حدثتكم عن رسول الله فهو كما حدثتكم ، فوالله لأن أخر من السماء أحب إلى من أن أكذب على رسول الله . . »

لكنهم لم يرعووا عن تكذيبه وإن كانت لهم في سيرته — لو عقلوا — ما ينأى بهم عن هذا الافتراء المدحوض . .

وجادلهم في نظرتهم المنحرفة مرة فقال :

« . . بلغني أنكم تقولون : على يكذب . . قاتلكم الله ! . . فعلى من أكذب ؟ . . أعلى الله ؟ . فأنا أول من آمن به ! : . أم على نبيه ؟ . . فأنا أول من صدق به ! . . كلا والله ! . لكنها لهجة غبتم عنها ، ولم تكونوا من أهلها . . . »

ثم أتبع ، وهو يعجب ويأسف لافتقارهم — فكرا وروحا — إلى النفس الشفافة التي تحس ، والعقل اللماح الذي يدرك بعض ما كان يومىء إليه من علمه المكنون :

« . . . ويل أمه كيلا بغير ثمن ، لو كان له وعاء ! . . ولتعلمن نبأه بعد حين . . »

ليس بالثمن كان يدعوهم للشراء من كنوز حكمته . ولا بالقطرة كان يقتر في كيله لهم من أفياض معرفته . إنما كان يسخو عليهم غاية السخاء مما وعى من نعم ربه وآلاء صفيه رسول الله من شذور هادية من العلم الإلهي والنبوي لا مقطوعة ولا ممنوعة . غير منتظر جزاء يجزونه إلا أن يتفهموا ما يطالعهم به ، أو يفسحوا لبعضه جانبا في القلوب والصدور ، عسى أن ينفعهم ذكره في حياتهم هذه الخاملة الجاهلة ، الجامدة الجاحدة ، المغلقة المغلقة ، التي يحيونها وهي لا حياة ! . .

كانت دعوته :

« ها إن بين جنبي علما جما لو أجد من يحمله ... »

فلا هم أقبلوا ، ولا هم نهلوا . . كأنما قد أبوا عليه أن يرفدهم بما لدنه ، وأبوا على أنفسهم أن تغتذى بنوره ، حتى بدوا قلوبا من صخر صلد عسير عليها أن تتشرب ما يتنزل لها ، حلالا طيبا ، من ماء عذب يذهب عنها قحولتها ، ويهبها النضرة والخضرة والنماء ! . .

ولم يكف عنهم نداءه . كلما حانت لحظة لتبصيرهم خف مشوقا مهموما يحث ويستهوى ، مجاوزا معهم دور « التاجر » العارض سلعته أمام العيون إلى دور « الدلال » المتلهف على ترويج ما عنده من بضاعة بكل ما يسعه من أساليب الإغراء ووسائل الاستهواء ، لعله هكذا يجتذبهم للإقبال عليه قنصا لفرصة سانحة ما كانت لتتكرر لو أنه طوى متاعه ورحل عن السوق ! . .

أهاب بهم ، ذات يوم ، ليحرك فيهم رغبات التطلع الدفينة تحت ركام التغافل وقلة المبالاة .

كان مما قال :

« . . . . اسألونى قبل أن تفقدونى ! . . فوالذى نفسى بيده ، لا تسألونى عن شئ بينكم وبين الساعة . . . . . . إلا أخبرتكم . . ولو قد فقدتمونى ، ونزلت بكم كرائه الأمور ، وحوازب الخطوب ، لأطرق كثير من السائلين ، وفشل كثير من المسئولين . . وذلك إذا قلصت حربكم . . . . وكانت الدنيا عليكم ضيقا ، تستطيلون أيام البلاء عليكم حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم . »

فلم تنل إهابته هذه من اهتمامهم شيئا ، لأن علمه — فيما بدا — كان سلعة غريبة عليهم ، خليقة بأن تبور فى سوق جهالتهم الجهلاء ! . .

ثم خطر له أن يكرر عليهم نداءه ، مرة أخرى ، ممنيا نفسه أن يجد بينهم سميعا يقبل ، ومنصتا يتأمل ، وإن كاد ليوقن تماما أنهم مستقبلوه بالتكذيب الموغل فى الضلال ، والافتراء قبل الإمهال المستند إلى المكابرة والادعاء .

قال :

« . . . . والله لو أمرتكم فجمعتم من خياركم مائة ، ثم لو شئت لحدثتكم من غدوة إلى أن تغيب الشمس ، لا أخبرتكم إلا حقا . . ثم لتخرجن فلتزعمن أنى أكذب الناس وأفجرهم . . . . »

ولئن نطق حديثه هذا بمنطق الآيس من صلاح أمرهم ، الذى يرى الخير فى أن يكف عنهم دعوة قصاراها أن ترتطم بأسماع صماء ، وقلوب عليها أكنة ، فإنه لينبئ أيضا عن علم سابق بمسلكهم قبل أن يكون ، وبصدقه القاطع الذى

شاء لهم غيهم واستكبارهم وضيق أفقهم أن يغشوه دائما بأقذع الشبه وأنكر الظنون . .

ولا جدال ، فقد حدثهم فصدق ، وسمعوه فكذبوه ، حين وقف ، عقيب وقعة النهروان ، يذكر لهم أطرافا من الغد المجهول . .

إذ ذاك خطبهم خطبة مستفيضة ، نحا فيها إلى الإيماء دون الإفصاح ، وإلى التلميح بدل التصريح ، وهو يشير إلى ما سوف يركب القوم من أخطار تهول ، ومن كوارث تزحم أيامهم ، ولا تزال تأخذ منهم ، وتثخن فيهم ، حتى يقيض الله لهم من يناديه الإمام من وراء ستر الغيوب :

« . . . . يا ابن خيرة الإماء ! . . متى تنتظر ! . . أبشر بنصر قريب من رب رحيم . . ألا فويل للمتكبرين عند حصاد الحاصدين ، وقتل الفاسقين عصاة ذى العرش العظيم ! . فبأبى وأمى من عدة قليلة ، أسماؤهم فى الأرض مجهولة ، قد دان حينئذ ظهورهم . . . »

ثم يلفت الناس إلى ما يدخره الزمن لهم من سوء المآل ، وإنه ليقصد فى إخبارهم بعض القصد ترفقا بهم أن يفترسهم الجزع ، وخوفا عليهم أن يضلهم الافتتان :

« . . . . لو شئت لأخبرتكم بما يأتى ويكون من حوادث دهركم ، ونوائب زمانكم . وبلايا أيامكم ، وغمرات ساعاتكم . ولكنى أنضيه إلى من أنضيه إليه مخافة عليكم ، ونظرا لكم ، علما منى بما هو كائن وما يكون من البلاء الشامل . . »

لكنه لا يمنع نفسه أن يحذرهم العقبى المخوفة ، فيصف لهم تلك التربة التى تنبت الأهوال المنتظرة ، وذلك الأوان الذى يحصدون فيه جنى ما تبذر أيديهم ، لعل منهم من يقلع عن غى سلوكه ، ويحد من غلواء ضلاله ، تخفيفا من غضب الله عليهم واستفاءة لرحمته وعفوه :

« . . . . ذلك عند تمرد الأشرار ، وطاعة أولى الخسار . . . . ذلك عند ظهور العصيان ، وانتشار الفسوق . . حين لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله فى

سمائه .. حين تسكرون من غير شراب ، وتحلفون من غير اضطرار . وتظلمون من غير منفعة ، وتكذبون من غير إحراج ، تتفكهون بالفسوق ، وتبادرون بالمعصية . . قولكم البهتان . وحديثكم الزور ، وأعمالكم الغرور . . . . »

حتى إذا ختم كلامه ، بنبرة الأسيف الحزين ، رمى ببصره إلى بعيد ، كأنما إلى القدر المكتوب :

« . . . . عند ذلك لا تأمنون البيات . . ويا له من بيات ما أشد ظلمته ! . . عند ذلك تقتلون ، وبأنواع البلاء تضربون ، وبالسيف تحصدون ، وإلى النار تصيرون . . فيا عجبا كل العجب من جميع أشتات ، وحصد نبات ! . . سبق القضاء ! . . سبق القضاء ! . . »

هنا لم يعدم من بين جمهورهم الحاشد غاليا فى الحق والقصة غلوا يصحب الجهل ويركب الشطط ، يقول :

« أشهد أنه كاذب على الله ورسوله ! . . »

فما كان ذلك من هذا الآثم بغريب . بل الغريب حقا أن أحاديث الإمام عن الأمور المغيبة كانت تدفع الناس من أقصى اليسير إلى أقصى اليمين . من المغالاة فى الإنكار والتكذيب إلى حد التكفير ، إلى المغالاة فى التأييد والتصديق إلى حد التأليه .

فى يوم قال لهم ، كاشفا عن علمه لعله أن يثير فيهم فضولا يدفع بهم إلى الاعتراف من معينه :

« . . . . لو كسرت لى الوسادة ، لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وبين أهل الفرقان بفرقانهم . وما من آية فى كتاب الله أنزلت فى سهل أو جبل إلا وأنا عالم متى أنزلت ، وفيمن أنزلت . . »

فإذا كان هذا القول خليقا بأن يحرك عجبهم ، فلا عجب معه وإنهم ليعلمون انه ارتوى من علم رسول الله . وإذا كانت الدهشة قد تؤدى إلى الشك فما كان

أحرام بأن يستنبئوه ما شاءوا ليقطعوا الشك باليقين . . لكنهم لا بهذه ولا بتلك أخذوا ، بل جنحوا إلى المغالاة فى شأنه من نقيض إلى نقيض ! . .

بعضهم أنكر فقال :

« يا لله وللدعوى الكاذبة ! . . »

وبعضهم أيد فقال :

« أشهد أنك رب العالمين ! . . »

٧

على مشقة عاش بينهم الأشهر الطويلة الأخيرة محاولا جهده أن يبلغ بهم غايتهم وغايته ، وهم في أسلوبهم ذلك من التفكير والسلوك .. إذا دعا تغافلوا . وإذا حث قعدوا . وإذا حذر راوغوا وإذا أومأ إلى مصير لا يرضاه ولا يرتضونه يوشك الغد أن يتكشف عنه انحرفوا في تقدير إيمانه إلى أقصى اليسرة فهو كاذب ، أو أقصى الجنة فهو إله تفتحت له مغالق الغيوب ! . . فلاهم يقنعون منه بالتلميح الذى أيدت بعضه الشواهد الماثلة والأحداث التى جرت أمامهم تحت السمع والبصر . ولا هو كان يسعه أن يزيدهم بيانا فيكشف لهم ، بالتصريح السافر ، ما قد اؤتمن عليه من أسرار .

وبين ضيقه بجهلهم الجاحد لعلمه الذى تبلجت لهم منه آيات ، وصدقته — من قبل ومن بعد — الأمثال ، وبين حرجه من المبادرة إلى إفصاح هو موقعهم لا محالة ، في فتنة مضلة ، مضى يعالجهم ما استطاع . . .

ولم تره قط تهاون في إبراز النذر الحربية بأن تحملهم على التراجع عما صدروا فيه وإن عبر بالإشارة التى تجزى الجزاء كله عن المكاشفة المفضوحة ! . فليس مأمورا بأن يهتك الحجب ويزيح القناع . ولا بمقدوره أن يأخذ بأقدامهم أخذا فيضعها على الطريق الذى ينفرون من ولوجه . ولا أن يلقنهم ويضع على أطراف ألسنتهم كلاما يقولونه ، كأنهم قردة أو ببغاوات ! . . فما جدواه وجدواهم من صفوف متراصة تزحم الطريق ثم لا تسير ؟ . وما يفيده ويفيدهم من قول أجوف يرددونه ولا يقترن به إيمان يترجم حروفه إلى أفعال ؟ . . بل إن مقتضى سوقهم على هذا النحو فيه ما ينضو عنهم الإرادة ، ويجردهم من ملكات التفكير ، ويفقدهم جزاء العمل الذاتى ، حتى ليلغى دورهم في الحياة ككائنات عاقلة ذوات إدراك ، ثم ينفى عنهم التبعة ، ويرفع التكليف وما هو بمرفوع عنهم لأنه العبء الذى ينفرد الإنسان بين كافة الخلائق بحمله ، ومعيار الحساب الذى يوزن به سلوكه فترجح كفته إلى الثواب أو تشيل إلى العقاب . .

أشبه بحالهم فى هذا المقام ، فيما حدثنا الذكر القدسى ، حال بنى إسرائيل حين أهاب بهم موسى :

« . . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . . »

فما دفعتهم دعوته إلا إلى التملل ، ولا حملهم نذيره إلا على التبوط . .

قالوا :

« يا موسى ، إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . »

فلما قيل لهم ، إغراء وعدة :

« . . ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . . »

أصروا على تمردهم الزنيم :

« ياموسى ، إنا لن ندخلها أبدا ، ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون ! . . »

ذاك أشبه بحالهم معه . .

أما حاله معهم ، فأشبه أيضا بحال موسى حينذاك من بنى إسرائيل ، وقد تقطعت به الوسائل . وتعزقت الأسباب ، دون عطفهم على غايته :

« رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . »

فلولا أن أثارة من أمل كانت لا تزال تومض فى ظلمة يأسه كجمرة بها بقية من حرارة وهى تحت الرماد . . ولولا إحساس أمين بتبعته أمام ربه وأمام الأجيال كتبعة كل ذى رسالة عليه البلاغ ، لنفض من الأمر يديه ، وتركهم وما يشاءون . .

لكنه بقى وما نذر له نفسه ، ثابتا فى الميدان . . يحارب بالتبصرة التغافل ، وبالتذكير الاستهانة ، لعله أن يهز فى أعماقهم شعورهم بإنسانيتهم ، ويبعث فى كل منهم حيا الإنسان العاقل للدرك الذى دفنوه تحت تواكلهم ، ليعيش حرة

أخرى دوره الحق الذى هيأته له طبيعته ، وعيا عاملا وعملا واعيا ، لا يعرفان سلبية الجمود . .

قال لهم ، كأنما ليحرك هممهم ، ويذكر كلا منهم بذاته ، كقوة حية عاقلة عاملة ، لها ملكاتها المميزة ، وإرادتها التى لاينبغى أن تترك لتصدأ ، أو تهمل فتموت :

« . . وايم الله ، لولا أن تتكلوا فتدعوا العمل لحدثتكم بما قضى الله على لسان نبيكم . . »

وتلك غاية ما يمكن أن يصل إليه تكريم إرادة الإنسان ، وتحرير سلوكه ، ليعملا « اختيارا » بوحى مشيئة صاحبهما وتفكيره الخاص دون قهر أو إجبار . .

وكما حرص على توفير هذه الحرية لأصحابه ، وحثهم على ممارستها ، فقد كان دائما يعمل على أن تسير فى طريقها المأمون ، بهداية التقدير السليم الواعى ، الذى يستند إلى منطق التعقل ، ولا ينحرف مع شطحات الأخيلة المخمورة . وإذا كان بعض رجال أمير المؤمنين ، كما شهدنا ، قد انطلقوا على غير السنن الطبيعى الخليق بأن تقودهم إليه أحاديثه ، فغالوا فى تقدير وضعه إلى تأليهه ، وأمعنوا فى إيمانهم به إلى غاية المروق ، فما يستطاع أن يقال إن تفكيرهم هذا كان نتيجة لازمة لإيماءاته بين الفينة والفينة إلى أحداث « غدوية » كانت حينذاك خافية عنهم ثم ما لبثت حتى أيدتها لهم الأيام .

ليس هذا بمستطاع . بل محال المحال الذى لا يطوله التوقع ولا يدانيه الاحتمال . . فمن المرفوض المردود أن تكون « إيماءاته » تلك علامة لقداسته الربانية التى أقامها عليه قومه عن ضلال . ومن الخطأ أى خطأ أن تتخذ ذريعة لتسويغ العذر لأولئك المارقين الغالين . . وكيف لا ، وهذا رسول الله ، قد أخبر قبله فأكثر الإخبار عن الغيبيات ثم لم يدع له أحد من أصحابه نفس الإدعاء ؟

أقرب إلى الصواب أن يقال إن أولئك الرجال ترسبت فى نفوس بعضهم بقية من عقائد قديمة لم تكن ترى أى ضير فى اجتماع الطبيعة الإلهية إلى الطبيعة البشرية فى إنسان رفعته مكانته فى عيونهم مكانا عليا فقدسوه . أو دفعت بعضهم

الآخر تقاليدهم السياسية ، المنحدرة فيهم من خلال تراث ماضيهم إلى تأليه الحاكم ، وإعزاء نسبه إلى السماء أخذا بنظرية الحق الإلهى للملوك فى حكم الشعوب . أو دعت فريقا ، غير أولئك وهؤلاء ، دواع من الحقد تحركها اتجاهات شعوبية أو قومية ، إلى الكيد للإسلام والمسلمين ، بإشاعة أمثال هذه الفكرة المنكرة فى الدين الغالب الجديد . . ولا غرابة فى هذا ، لأن رقعة الدولة الإسلامية قد راحت تتسع ، فى تلك الآونة ، لاشتمال كثير من البقاع التى تضم أمما وأجناسا شتى ، منها ماورثه العرب فى الفتوح ، ومنها ما كان له تراثات وفلسفات ثقافية وعقيدية وسياسية ترى التثنية ، والتثليث ، والقداسة الإلهية لصاحب الأمر والسلطان . .

وكأنما لم تغب كل هذه العوامل الضالة المضلة عن الإمام ، وهو يومئ لرجاله بعض الإيماء إلى الغيبيات ، كما حمله موقف من مواقفهم على انتهاج هذا السبيل ابتغاء التحذير . . فكم طالما صارحهم ، وهو يحدثهم أحاديثه الإيمائية ، أنه ناقل عن الرسول . وكم طالما ، فوق هذا ، أقصر وأقل من أمثال تلك الأحاديث ، محاولا أن يكتم عنهم ، وسعه ، ما يستشف أو يقدر أو يعلم عن صفيه رسول الله من أسرار النفوس والزمان ، خشية أن يفتتنوا به ، ويدعوا له العلم بغيب لا يدعيه ، قد أكرهته الظروف على التلميح بطرف منه عسى أن يكون فى ذلك بعض ما يرجو لهم من صلاح . .

إن نبع العلم النبوى الذى لا ينضب كان ، لا ريب ، غير محجوب عن الإمام بحال . بل كان هو الأثير به ، منذ طفولته ، دون صفوة أصحاب رسول الله وخاصة أهله . يستقى منه . وينهل حق الارتواء . ويراجع محمدا فيما قد يستسر ويلهم من الأمور ليزيد بهذه المراجعة معرفة . فإذا لم يفد على من معين النبوة الفياض — وهو الذى كان « ولدا » لمحمد ، صفيا له ، لصيقا به ، قد أوتى ما أوتى من ذكاء القلب ، وصفاء النفس ، وحدة الذهن ، وتوقد المواهب والملكات — فأى امرئ غيره كان أولى بأن يفيد ؟ . .

ومع ذلك فلم ينفعهم التحذير ولا الإقصار . .

قال لهم ، من بعض كلام له ، يعرض فيه عليهم علمه لانتفاعهم ، وهو لا ينسى ، مع العرض ، تحذيرهم الافتتان :

« . . سلونى . . فوالله لا تسألونى عن فئة تضل مائة ، أو تهدى مائة إلا أنبأتكم بناعقها وسائقها . . ولو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت . . ولكن أخاف أن تكفروا فى برسول الله . . والذى بعثه بالحق ، واصطفاه على الخلق ، ما أنطق إلا صادقا . ولقد عهد إلى بذلك كله . . وما أبقى شيئا يمر على رأسى إلا أفرغه فى أذنى . . »

ومع ذلك افتتنوا ! . .

صدقت فيهم فراسته . تحقق ما كان يقدره منهم ويخشاه عليهم . ضل منهم من ضلوا وغاصوا فى الكفر من القدم إلى أعلى الهام ! . .

طائفة ادعت له النبوة ! . .

طائفة خففت الادعاء ، فتنادت بأنه شريك الرسول فى الرسالة ! .

طائفة قالت أخطأه جبريل عند تنزله من رب العرش ، فنزل دونه على محمد ابن عبد الله ! .

طائفة جأرت بأنه هو الذى بعث محمدا رسولا من لدنه إلى الناس ! .

طوائف عدة أخر ، سدرت غاية السدور فى المروق والضلال ، منها ما زعمت له الحلول ، وما ادعت له الاتحاد فى الله ، وما رأته الله ! .

قال له قائل منهم :

« أنت الله ! . »

وقال فيه شاعر لهم :

« إنما خالق الخلائق من زعـ ـزع أركان حصين خيبر جذبا
قد رضينا به إماما ومولى وسجدنا له إلها وربا »

وأنشد فيه شاعر آخر :

« ومن أهلك عادا وثمودا بدواهيه

ومن كلم موسى فوق طور إذ يناديه
ومن قال على المنـــبر يوما وهو راقيه
سلونى ، أيها الناس . فحاروا فى معانيه »

وكم من قائل ومن أقوال ، ذهبت بهم وبها الأعصر على إدبار وجاءت بغيرهم على إقبال ! . . فإذا هم جميعا ضلال من ورائه ضلال . وإذا هو بالأواخر يمتحن فى سيرته وفى ذكراه . وبالأوائل يمتحن فى حكمه وفى صبره ، يحملهم على « الـكفر » به طوعا أو عنوة ، فلا يرتضون — لجاجة فى العناد والغى — إلا العصيان ، باسم الإيمان ! .

فما كان أعجب أنصاره حينذاك من حزب العراق ! . . لاهم عبدوه كإله فأحسنوا العبادة وأطاعوه . ولاهم عاهدوه كإمام فوفوا بالعهد ونصروه . . إنما عايشوه أجمعين على رياء ونفاق ، وحالفوه بالخلاف والشقاق . . الألى قدسوه كان تقديسهم إياه ترانيم جوفاء ، وتراتيل خرقاء ، قد تظهر الخشوع بالسجود والركوع ، ولـكنها لا تبرز الطاعة بالولاء والأداء . كأنما أمنوا من « الرب » وهم يعصونه ، بطش عذابه ، وثوقا برحابة غفرانه ! . . والألى بايعوه على النصرة كإمام ، خفروا الذمة ، ومزقوا الموثق ، مخلدين لدعة هى الضعة ، وآملين فى سلام هو الاستسلام . فإذا هم حين الدعوة أسود كلام ، وحين البأس ثعالب ونعام ! . .

الفصل الخامس

١

بكل الحسرة فى القلب . بكل المرارة فى الفم . بكل الأسى فى العين . بكل الاستهانة والاحتقار والزراية تقطر من حروف كلماته وهو يعصر عنها شفتيه كما يعتصر الباكى الدموع من مآقيه ، ارتقى الإمام المنبر ، على ضجر وملالة ، ليحدث تلكم الجموع الزاخرة أمامه عددا كالموج ، الهشة فى خلده وزنا كالكلأ الذابل ! . .

بدأ فقال :

« ما هى إلا الكوفة أقبضها وأبسطها ! . . »

وأطبق أصابعه وأطلقها مرة فمرة فمرات ، فما انطبقت ، فى كل مرة ، إلا على خواء ، ولا انبسطت إلا عن خواء . . وهل الكوفة حين ذاك من الدولة المريضة ، الآخذة فى التداعى ، إلا كقطرة من بحر طام ، إن هو جف فليس بالقطرة بعد غناء ؟ . .

ثم صوب نظرته إلى البلدة الماثلة له فى أشخاص رجالاتها المجتمعين حياله ، وأكمل فى ازدراء :

« . . إن لم تكونى إلا أنت تهب أعاصيرك ، فقاتلك الله ! . . »

فلقد برم بها وبهم .

برم بهذه الكوفة . . وهان شأنها عليه . .

إنها الحاضرة الضخمة التى تتصدر غيرها من البلدان والمدائن الخاضعة لحكمه ، وتقودها إلى هدفه على الطريق . . ولكنها أسوأ قدوة ، وأذل عنوان .

وبرم بقومها ، وهان شأنهم عليه . .

إنهم خلاصة الأقوام من مهاجرين وأنصار وأهل الأمصار ، الذين والقوه

على وحدة أمتهم ، وأخرجوه من المدينة للجهاد حربا على الانقسام . . ولكنهم مالبثوا أن نسوا الهدف ، وخانوا الموثق ، وهبت خلافاتهم عليه كالأعاصير . .

مسلك عجيب غاية العجب أن يروموا الوحدة من غيرهم ، ثم ينقسموا على أنفسهم مثل هذا الانقسام ! . .

على أن العجب قد يخف هونا حين نعلم أن الخلاف كان مركزا فى خلائق فئة فيهم غير قليلين ، عسير عليهم التحرر منه لأنه محال انتزاع الطباع . فهم بحكم بداوة بعضهم ذوو عناد غال ، ومراس شديد . وبحكم انحدار بعضهم من ثقافات فكرية معقدة ، كالثقافة الفارسية ، أو تأثرهم بها ، ذوو نظر فى الأمور يدفعهم إلى البحث عن البواعث والمقارنة بين النظرات . ومن التزاوج بين العناد والمقارنة ، ينشأ الترجيح والجدل واختلاف الآراء . ولقد ذهب أسلوبهم هذا فى التفكير كل مذهب إلا إلى يسر الطاعة وسهولة الانقياد حتى وصفوا على لسان كثيرين بأنهم أهل شقاق وشغب وميل إلى اصطناع الصراع . ولعل كلام الحجاج عنهم أدنى الكلام إلى الإفصاح عن خصائصهم ، وإن هو أمعن بتعبيره — نكصم أعماه لدده — فى الإقذاع . .

قال لهم مرة :

« يا أهل العراق . . يا أهل الشقاق والنفاق ! . إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم وإن أمنتم أرجفتم . وإن خفتم نافقتم . لا تذكرون حسنة ، ولا تشكرون نعمة . . »

فعسير بلوغهم مبلغ الرضا بما يكون . .

واستنكر خلافهم عليه وإن كان حريا منهم ، فى حقيقة الأمر ، بأعتى الخلاف . .

« هل استخفكم ناكث ، أو استغواكم غاو ، أو استفزكم عاص ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع ، إلا اتبعتموه وآويتموه ، ونصرتموه وزكيتموه ؟ . . هل شغب شاغب ، أو نعب ناعب ، أو زفر كاذب ، إلا كنتم أشياعه وأتباعه ، وحماته وأنصاره ؟ . . »

وعجب لعنادهم الذى لا تثنيهم عنه مرارة التجربة ، فقال :

« . . . ألم تزجركم المواعظ؟ . . ألم تنبهكم الوقائع ؟ . . ألم تردعكم الحوادث؟ . . »

وكيفما كان إقذاع الحجاج بن يوسف الثقفى لهم فى الهجو ، وغلوه فى فحش الوصف ، فقد كانوا قوما خليقين بأن يعضل سلوكهم بأيما حاكم وضعته الأقدار منهم بمكان قيادة ، بسبب شكيمتهم الذهنية الوعرة . . فلكل حجة عندهم ناقض . ولكل خلاف يمارسونه تبرير . . وإنهم ليتذبذبون دائما بين الرضا والسخط حتى ليتفتت الرأى بينهم ، وتتشعب السبل ، فيغم عليهم الخطأ كما يغم الصواب . ويتأرجحون بسلوكهم بين المعارضة والتأييد حتى لتتعطل قوائم النتيجة ويصيبها الشلل أو يصيبها الاضطراب نتيجة لهذا التجاذب الذى يشدها من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين . . وفيما سلف من ألوان سلوكهم مع الإمام ما يكشف هذه الطبيعة فيهم فإذا هى آخر الأمر تردد عن العمل ، وإحجام عن الإقدام ، وسلب بدل إيجاب . أو هى ردة مباغتة عن المعهود ، ونكصة على العقب إلى الوراء بعد انطلاق . أو هى شطحة مع المغالاة تتنكر لكل تعقل ، وتعمى عن كل واقع ، وتمعن فى الشطط إلى أقصى الأبعاد . .

وفيما بدا اليوم له منهم أيضا مثال مقيت . . فلقد تثاقلوا عن النهوض للجهاد معه ، وللذود عن بلادهم التى راح معاوية يتخطفها بغاراته الإرهابية وينتقصها من الاطراف . . فعلى ما وضح لهم من سياسة خصمهم ، وانتهاجه فى حروبه الجديدة سنة تسوم أرضهم الخوف والدمار ، وتزعزع ثقة ناسها فيهم ، فقد ركنوا إلى الدعة والتثاقل كأنما استمرأوا هذا الإذلال . . وهاهم اليوم والغارات الأموية تدوس ذمارهم ما شاء هواها ، قد بلغ بهم تماوتهم أن قبعوا فى ديارهم غير آبهين لصيحات على كأنما لا يعنيهم الأمر ، وإنهم ليعلمون علم اليقين أن الإرهاب الوحشى يخترق حدودهم بالحرق والقتل والنهب من الشمال إلى الجنوب البعيد .

فهل يغنى الآن عنهم النذير ؟ .

بل إنما عليه البلاغ . .

وبالمرارة يقول :

« .. أنبئت بسراً قد اطلع اليمن . وإنى والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم ، باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم . وبمعصيتكم إمامكم فى الحق وطاعتهم إمامهم فى الباطل . وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم . وبصلاحهم فى بلادهم وفسادكم .. »

ولو شاء لعدد من خطل سلوكهم فأكثر .. لكنه رأى أن يقصر . وهل جدوى من الإكثار ؟ ..

لكنه رفع كفيه نحو السماء يبتهل :

« .. اللهم إنى قد مللتهم وملونى ، وسئمتهم وسئمونى . فأبدلنى بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بى شرا منى ! .. » .

وليستجيبن الله ! ..

فكأنى بهم قد اضطرب فى جنوبهم شىء من القلق لهذا الدعاء الذى هز فيهم مشاعر صدئة ، وحرك مخاوف نائمة تحت أطباق كثيفة من الاستهانة والغفلة والاستهتار . لكنها هزة خدرة لم تجل الصدأ ولم تذهب أدرانه ، وحركة فاترة ما كانت لتوقظ النيام ! ..

أما قائد الحملة الإرهابية المدمرة ، بسر بن أبى أرطأة فقد مضى شوطه إلى غايته المرسومة ، وفى باله ، مع كل خطوة يخطوها ، أن ينفذ أمر عاهله معاوية حرفا بحرف وأن يزيد من عنده لو استطاع فى النكال والعذاب والخراب التى خرج لها من الشام بفرقة الدمار ..

واستعاد بسر فى باله خطة معاوية وهو آخذ على الطريق :

« سر حتى تمر بالمدينة ، فاطرد الناس ، وأخف من مررت به ، وانهب أموال كل من أصبت له مالا ممن لم يكن دخل فى طاعتنا .. فإذا دخلت المدينة فأرهم أنك تريد أنفسهم ، وأخبرهم أنه لا براءة لهم عندك ولا عذر ، حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم .. ثم سر حتى تدخل مكة ، ولا تعرض فيها لأحد ، وأرهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة ، واجعلها شردات .. حتى تأتى صنعاء والجند ، فإن لنا بهما شيعة ، وقد جاءنى كتابهم .. »

ثم استعاد شعار هذه الخطة ، كما وضعه له ابن أبي سفيان :

« . . . . اقتل شيعة على حيث كانوا ! . »

وعلى هذا انطلق قائد العدوان . .

سار حتى نزل بدير مروان . ثم مضى على طريق المدينة ، كلما نزل على ماء عنف بأهله ، وشرد جمعهم ، وركبهم بكل ألوان العنف والإرهاب ليخلوا بينه وبين ما يريد ، يستبيح من أموالهم ، وينال من متاعهم ، ويتخذ إبلهم وخيلهم مطايا لرجاله تنقلهم مرحلة حتى يقع على ماء آخر يتزود منه بعطايا جديدة ، ويدع هذه تضرب فى البيداء . .

وبلغ مشارف المدينة وسيرته المرعبة قد سبقته إليها طليعة ! . . فإذا بقضاعة تخف إليه قرب مداخلها تتملقه لتأمن شره فتنحر له ولأصحابه الجزور . . وإذا أبو أيوب الأنصارى ، عامل البلدة ، يفر بنفسه من بطش الطاغية ، وماله ولا لها ، رده من أهلها يحميها ويحميه . .

وانعقدت فى سماء مدينة الرسول سحائب الدخان بعد قليل منبعثة من ألسنة النار . فقد أشاع بسر الحريق فى الدور كما أشاع الهلع فى الصدور . . أحرق دار أبى أيوب ، ودار ابن رافع ، ودار زرارة ودورا غيرها كثيرة لتكون عنوانا موجزا يفصح به عما يدخر للسكان يغنى عن كل بيان . . وعندما دخل المسجد ، وارتقى المنبر وتحته قد تنكست رءوس الناس ، خوفا وخزيا ، تلا وهو يحمل نبراته التهديد والوعيد :

« ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها لباس الجزع والخوف بما كانوا يصنعون . . »

وأردف :

« . . وقد أوقع الله تعالى ذلك المثل بكم وجعلكم أهله . . . . لم تشكروا نعمة ربكم ، ولم ترعوا حق نبيكم ، وقتل خليفة الله بين أظهركم فكنتم بين قاتل وخاذل ، ومتربص وشامت . . . »

وشتم الأنصار :

« . . يا معشر اليهود وأبناء العبيد ! . . أما والله لأوقعن بكم وقعة تشفى غليل صدور المؤمنين وآل عثمان . أما والله لأدعنكم أحاديث كالأمم السالفة ! »

ثم حمل الناس على الدخول قسرا فى طاعة معاوية ، لا يؤمن منهم جمعا ولا قوما على حياتهم إلا أن يبايعوا ويبايع زعيمهم معهم . فإن غاب ذلك الزعيم ، جعل قومه كفلاء بإحضاره إليه ، أو يهدر دمهم كافة ! . .

. . . قدم عليه شيوخ المدينة يبايعون ، فأرسل بصره فيهم متفقدا ، وقال :

« مالى لا أرى جابر بن عبد الله ؟ . . »

فالتصقت الألسنة بالحلوق ! . . وهل منهم من يشى بعقره ؟ . .

لكن ابن أبى أرطأة التفت إلى قوم جابر يتهددهم :

« يا بنى سلمة ! . . لا أمان لكم عندى أو تأتونى بجابر . . »

فانتشر القوم على الأثر ، خشية الوعيد ، يسعون فى فجاج البلدة ، وإلى حيثما ظنوا أنهم واقعون على صاحبهم بمنأى بعيد عن بطش السفاح .. حتى إذا وجدوه راحوا يناشدونه :

« ننشدك الله يا جابر لما انطلقت معنا فبايعت ، فحقنت دمك ودماء قومك ؟. إنك إن لم تفعل ، قتلت مقاتلينا ، وسبيت ذرارينا . »

واستنظرهم الرجل الليل . فلما أمسى خرج خفية من مخبئه يترقب حتى دخل على أم سلمة زوج الرسول لعله أن يلتمس عندها فرجه من ضيقه . .

وقالت له السيدة ، بعد أن أصغت لحديثه :

« يا بنى . . انطلق فبايع . . احقن دمك ودماء قومك ، فإنى قد أمرت ابن أخى أن يذهب فيبايع ، وإنى لأعلم أنها بيعة ضلالة . . »

وكما فعل بسر بالمدينة فعل بعدها بمكة والسلب والخراب والقتل تسعى على الطريق إليها بين يديه . فإذا هو يدخلها وهى توشك أن تكون خاوية . إذ خرج منها عاملها قثم بن العباس . وتنحى عامة أهلها ينأون عن الهلاك المقبل .

ولم تبق منهم إلا قلة من ذوى الحسب ، استبقت إليه تستقبله ، وكأنما ظنت أن لها من أحسابها جنة دونه . . فما أن أقبلوا عليه حتى ابتدرهم بفحش القول وأقذع الشتائم ، ثم عقب يقول :

« أما والله لو تركت ورأيي فيكم لتركتكم وما فيكم روح تمشى على الأرض!. »

فأسرعوا يضرعون إليه :

« الله الله فى أصلك وعترتك ! . . »

غير أنه رمى ضراعتهم وراء ظهره ، وكأنما لم تخترم كلمة منها أذنيه . . ومضى عنهم إلى البيت يطوف وهم وقوف بالباب وكل زفرة نفس تلقطها صدورهم المضطربة تكاد تقول لهم : أنا الأخيرة ! . .

وجبههم بعد الطواف ، بشماتة واستعلاء :

« الحمد لله الذى أعز دعوتنا ، وجمع أنفسنا ، وأذل عدونا بالقتل والتشريد . . هذا ابن أبى طالب بناحية العراق فى ضنك وضيق ، قد ابتلاه الله بخطيئته ، وأسلمه بجريرته ، فتفرق عنه أصحابه . . . . »

ودعاهم للبيعة لمعاوية فسارعوا ، لأن إباءها فى كفة ، ورءوسهم فى كفة ! . .

وعندما هم بأن يبرح بعد بضعة أيام ، رمى وجوههم بمزاج من وعيده وصلفه :

« يا أهل مكة ، إنى قد صفحت عنكم . . فإياكم والخلاف ! فو الله إن فعلتم ، لأقصدن منكم إلى التى تبيد الأصل ، وتحرب المال ، وتخرب الديار ! . »

وغادر مكة إلى بقية الرحلة .

٢

دهاء كرياء . أو رياء كدهاء . لم يعدم أيهما أهله وبسر يمشي بهوله على أرض دولة الإمام من الرأس إلى الذيل ، ناشراً عليها الخراب كالضباب . . لم يعدم . ولا كان ليعدم وفي الناس آنذاك مثل المغيرة بن شعبة . فهذا العملاق الثقفي الأعور الذي وسعه أن يصانع الفرعين بالعراق وبالشام ، ويصانع الأحداث المضطربة منذ فار المرجل وانفجر البركان ، لم يعضل به أن يستقبل طاغية الإرهاب بما يرضيه . .

كتب إليه ، إذ علم بخرجه من مكة قاصداً إلى بلدته الطائف :

« . . . . بلغني سيرك إلى الحجاز ، ونزولك مكة ، وشدتك على المريب ، وعفوك عن المحسن ، وإكرامك لأولي النهى ، فحمدت رأيك . . فدم على صالح ما كنت عليه ، فإن الله لن يزيد بالخير أهله إلا خيرا . جعلنا وإياك من الآمرين بالمعروف ، والقاصدين إلى الحق . . . . »

فهل من عنوان أفصح بيانا عن سبق بلدته بالولاء للقادم وصاحبه ، من هذا الكتاب ؟ . . وهل ثمة حاجة ببسر ، بعد ، إلى ممارسة الإرهاب ؟ . .

بل إنها كوثيقة طاعة كما أنها رسالة استئمان ، ما كان ليعنف معها بسر بأهل الطائف ، أو يسير فيهم كنهجه الذي انتهج في مدينة الرسول والبلدة الحرام . . فلقد كفاه أعور ثقيف مشقة انتزاع الولاء بالعنف وبالسيف ، وجاءه به هدية حتى لشعر الطاغية عندئذ أنه جدير منه بالتقدير . .

لذلك التقيا لقاء صديق بصديق ، وافترقا فراق حليف وحليف . فما كاد بسر يظهر حتى خف إليه المغيرة ، وخلا به يتناجيان . .

وقال بسر لضيفه يختم الحديث :

« صدقتنى ونصحتنى . . »

وخرج المغيرة معه ، فى اليوم التالى ، فشيعه ساعة ، ليسلمه إلى الطريق للجنوب . .

ومن عجب أى عجب أن الحملة الإرهابية الأموية لم يشهر فى وجهها سلاح ، ولا قوبلت بكلمة إباء ممن أخذتهم ببطشها المهين ، لا من خاصة أو عامة ، ولا من حكام أو محكومين ، طوال رحلته المشئومة حتى نزل بصنعاء ، كأنما الناس قد خلت نفوسهم عندئذ من الحمية التى تحمش على الذود عن المال والدار والآل . أو كأنما مسيرة الدمار قد سبقت إليهم بالذعر طليعة تشل منهم الجوارح ، وتخدر العقول ! . .

فلقد انحدر الوحش بحملته الرهيبة فأوغل فى الانحدار بها قوة مدمرة من الشام إلى المدينة إلى مكة إلى أرحب إلى صنعاء إلى جيشان ، مجتاحا مخاليف اليمن وإماراته ما شاء الاجتياح ليكر عائداً مرة أخرى إلى صنعاء . فإذا هو فى انحداره ذاك لا يكاد يمر بحاضرة ولا بادية ولا أهل ماء تلمسوا الرى والكلأ فى فجاج الصحراء إلا صب عليهم العذاب . يقتل ويحرق ، وينهب ويسلب ، ويدمر ويخرب ، مفظعا فى غاراته كل الإفظاع حتى ارتفع عدد ضحاياه إلى ثلاثين ألف قتيل وإذاهو يصل فى انحداره إلى أسفل درك يمكن أن تهبط إليه إنسانية بشر من الخسة والغدر ، والعنف والتنكيل ، لم يرده وازع من خلق أو دين عن انتهاك حرمة ، أو هتك أمان ، أو النزو على أعزل ، أو نحر شيخ كبير ، أو ذبح طفل صغير ، أو الفتك بالزمر والجماعات وإن لم يبادروه بعداء ، وإن استقبلوه بالهدوء أو الاسترضاء . .

. . . . فى نجران قتل عبدالله بن عبد المدان وولده مالكا ، وكل جريرتهما أن الأب كان صهرا لعبد الله بن العباس عامل الإمام على صنعاء . .

. . . . فى صنعاء حين آب إليها بعد بطشه بأهل المخاليف المجاورة ، قتل مائة شيخ من أبناء فارس ذنبهم لديه أن امرأة من بنى جلدتهم ، قيل إنها آوت إلى بيتها طفلى عبيد الله . .

من مأرب قتل وفدا بأكمله بعث به أهلها ، ليعلن له عن طاعتهم ، ويطلب منه الأمان . .

ثم دع بعد هذا من قتل من شيعة على ، زمرا عدة ، سواء من كان قد كف عن لقائه ، أو من حاول أن يدرأ حملته بالسلاح . . فقد راح يتعقبهم فرادى وجماعات فى الدروب والدور ، وفى المدن والبيداء ، لا يقع منهم على فريق أو فرد إلا أعمل فيهم سيوف الإفناء . .

غير أن سلوك هذا الطاغية السفاح إن يكن أعلم بشىء يصمه أبد الدهر ، ويذهب به على الأعصر مثلا للوحشية والخسة ولؤم الطباع ، فذلك فعله بطفلى عبيد الله . فلقد علم وهو يبعض طريق عدوانه ، أن الصغيرين وأمهما عند رجل من بنى كنانة ، فتحركت على الأثر شهوته للدم ! . .

هب من لحظته بين جمعه الكثيف إلى الكنانى يضرب عليه بابه ، ويطلب إليه تسليمه الغلامين . . وريع الرجل وأيقن الشر فى ثياب بسر وتحت عمامته فما كان ليقدم كل هذه المسافة الطويلة وهو يضمر غير ما عهد القوم فيه منذ مخرجه المشئوم من أرض الشام . .

وعلى الفور طالع رجل بنى كنانة الطاغية وجمعه بسيفه فى يده ، وقد وقف دونهم فى فجوة الباب . وعجب بسر . وغضب واشتعل حنقه حتى غدا وجهه من غيظه بلون الرماد . فكيف يجترىء امرؤ فرد عليه ، ويعترض مشيئته ولو بلفظة لسان ، فضلا عن السيف الذى التمع من غمده ، هو الذى عنت له جباه الجموع وذلت أمام صولته ؟ . .

صاح بالرجل يهدر :

« ثكلتك أمك ! . . والله ما كنا أردنا قتلك . . فلم عرضت نفسك للقتل ؟ . . »

لكن الكنانى لم يبال منه ثورته ، ولا لهجة وعيده المبطنة بالأمان ، بل رد عليه فى إباء :

« والله لأن أقتل دون جارى ، لهو أعذر لى عند الله والناس . . »

وشد منفردا ، وهو حاسر ، على الطاغية المتنمر وأصحابه الذين تحلقوه كالسور ، وهو يرتجز :

« آليت لا يمنع حافات الدار
ولا يموت مصلتا دون الجار
إلا فتى أروع غير غدار ! . »

وراح يضرب فى الجمع الحاشد ، لا يدرى أين يقع منهم سيفه ، حتى نالوه ومزقوه . .

هنا خلا الطريق أمام السفاح لغرضه ، فتهلل محياه ، وسالت بسمة مقيتة على جوانب شفتيه كلعاب الثعبان ، ثم أمر بالطفلين فقدما بين يديه ، وذبحا ذبحا كما تذبح الشياه . .

كلا ! . . ما هى بقسوة طاغية . ولا هى ضراوة موتور . . ولا هى لوثة مجنون هذه الفعلة الشنعاء . . بل هى القسوة والضراوة واللوثة جميعا قد تفجرت من قلب صلد ، لا يعرف الإيمان ، كتفجر الحمم من بركان ! . . إن الناس عندئذ من الحادث شهود كغياب .. الأعين جمدت ، لا ترى من ذهول . . الآذان ملأها طنين الدوار . . القلوب كفها هلعها عن الوجيب . الحلوق قاب الغثيان ! . . وعندما بدرت أول بادرة للحياة بين هذا الوجوم ، كانت إحدى الكنانيات هى التى حركت صفحة السكون والآسن ، إذ صاحت فيمن حولها ، بصوت خنقته حشرجة بكائها ، تقول فى استنكار :

« هذه الرجال يقتلها ، فما بال الولدان ! . . »

والتفت نحوها بسر وفى نظراته نار . .

لكنها لم تأبه ، ومضت تتم ما بدأته ، بغير اكتراث ولا احتفال ، وعينها ثابتة على السفاح لا تريم :

« . . . والله ما كانوا يقتلون فى جاهلية ولا إسلام ! والله إن سلطانا

لا يشتد إلا بقتـــل الزرع الضعيف ، والشيخ الـكبير ، وقطع الأرحام لسلطان سوء ! . . »

وكأنما لقي حديثها صداه في نفوس غيرها من الـكنانيات فهددن بالتقريع كما هددن بالنواح ، لأن ابن أبي أرطأة لم يجد له عندئذ مخرجا مما وضعنه فيه إلا أن يجابههن بالتهديد :

« والله لهممت أن أضع فيـكن السيف ! . . »

فردت المرأة تتحداه :

« والله إنه لأحب إلي إن فعلت ! . . »

٣

عى عن الجواب على تحدى المرأة الـكنانية ، فلم يعقب . وما كان ليحسن التعقيب فى ذلك الموقف لو أنه أراد . ومضى عن مشهد الصريعين الصغيرين ، وهما على الثرى غريقين فى الدم ، وحنقه الصامت يصرخ فى الناس بلغة ملامحه الخرساء ! . فإذا هو ، من خارجه ، فى نظرة الأعين الرائية : « بسر » . . وإذا هو ، من داخله ، فى نظرة الغد القريب : « مجنون » ! .

فما كانت سيرته الشنعاء فى ضحيتيه هاتين ، وقبلها فى عشرات الألوف من ضحاياه ، إلا بادرة لوثة ، أو خطوة واسعة على طريق الجنون ! ..

وما لبث القدر غير قصير وقت ، ثم كشف الغطاء عن غده المخزون ، فـكشف جنونه المدخر للعيان . .

وإذا كانت لعنة الإمام ، من بعد ، قد أصابته وحقت فيه فلأنها اللعنة التى سبحت على تيار الشواهد الماثلة من سلوك السفاح إلى النتيجة المنطقية التى كان لابد أن تـكون . .

لقد استمر ابن أبى أرطأة ، بعد أن نفض يديه من حملته ، يعيش بين الدماء والأشلاء ، وعلى الـكر والفر فى أحلام وهمه وخيالات رؤاه ، قاتلا حارقا مدمرا ، لا يستطيع العودة ثانية إلى حياة السلام . .

كانت صحيفة ذهنه قد تشبعت بالدم . فلا موضع فيها لفـكرة سواه . .

كان يحارب أشباح ضحاياه . .

إنها دائما تتراءى له . تطبق عليه من كل جانب . تطارده موتورة فى اليقظة وفى المنام . فلا يلوذ منها إلا إلى سيفه ، كما كان يفعل إبان وعيه ، يقاتل به ، ولا يكف عن الصيال به بين الأشباح النازية عليه ، فى وضحة نور ولا فى عتمة ظلام . .

لـكنه كان عندئذ سيفا من خشب ، يضرب ضرباته الصلية فى الهواء . .

فحين ألحت عليه اللوثة ، واستشعر الخطر الذى جسمه له شعوره بجرمه ، كان يهذى ويصيح بمن حوله :

« أعطونى سيفا ! .. أعطونى سيفا أقتل به ! .. »

وحين أعياهم أن يعيدوه لرشده المسلوب ، ويكفوه عن الهذيان ، وضعوا فى يمينه السيف الخشبى ، وقدموا له وسائد لينة تمثل فى ذهنه أعداءه الموهومين ، ليثخن فيها ما شاء . .

أما لعنة الإمام التى أصابت بطل الإرهاب ، فكانت ضراعة توجه بها إلى السماء ، حين بلغته السيرة الدموية التى جرى بها ابن أبى أرطأة فى قوم آمنة ، عزل من السلاح . .

دعا ربه آنذاك :

« اللهم إن بسرا باع دينه بالدنيا ، وانتهك محارمك ، وكانت طاعة مخلوق فاجر آثر عنده مما عندك . . اللهم فلا تمته حتى تسلبه عقله ، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار ! . . »

وصدقت الدعوة . .

فكأنى ببسر ، لو عقل عندئذ ، لأدرك أنه إنما يدفع جزءاً من ثمن وزره الذى أنساه القدر إياه ! بل كأنى به قد عقل من قبل وهو خارج لغارته فأدرك أنه لا بد مؤد ثمن عدوانه الوحشى بعد أشهر أو بعد سنوات . . فما يمكن أن يقال إنه أغار ، فقتل وأحرق واستباح ، مسرفا فى اقتراف كل ما اقترف من أبشع ألوان العذاب والنكال ، وهو لا يدرى أنه يأتى بفعله ما تأباه أعراف الناس فى الكهوف والمغاور ، وفى الجبال والغابات ، فضلا عن شرائع السماء . . فلعله حين مخرجه لحملته تلك ، قد خرج إليها وهو مخمور الفكر ؛ مسحور العقل ، بما صبه العاهل الأموى فى أذنيه من استهواء . ولعله لو أفسح له ، يوم بعثه ، فى تدبر أسلوب تنفيذ حملته ، لحارب حربه كمقاتل شريف ، ينضح عن مبدأ يعتنقه ، ويناضل له ، كيفما كان قرب مبدئه هذا أو بعده عن الخطأ أو الصواب ، فى رأى سواه . .

غير أنه انزلق إلى أسفل درك من الخسة والغدر ولات حين صعود ! . .
وإنه ليتم فعلته ، ويعود فى هيئة ظافر ، ويحظى فى مجلس سيده بمكان صدارة وموضع تكريم ثم لا تخلو حياته ، بين يوم ويوم ، فيما نخال ، من لحظة تأمل يفئ فيها إلى ما سلف من « بلائه » الضارى تنفيذا لأمر صاحبه ، فلا يملك ، وهو يقرأ بالفخر صحيفة نصره ، إلا أن تمتلىء خياشيمه برائحة الدم والجيف والدخان ! . . ولا يملك أيضا إلا أن تتقزز نفسه من مشاهد الضراوة التى تناثرت تحت قدميه وفى أعقابه كما يتناثر الغبار فى إعصار ويثور ، فيغشى الأفق ويحجب النور . .

ما أحسب الرجل ، فى بعض لحظات الخلوة الهادئة — التى يثوب فيها المرء عادة إلى إنسانيته ، صافية منقاة من آثار نزواته العارضة ، وأهوائه الرعناء — إلا قد كابد وخزة ألم ، وشرق بغصة ندم ، على ما فرط منه خضوعا لأمر ابن أبى سفيان بتأثير قوة الإيحاء ، وبراعة الاستهواء ، وفتنة الإغراء والإغواء . .
بل ما أحسبه إلا قد لام نفسه فأثقل عليها باللوم حتى ناء بما يحمل ، ثم ود لو استطاع أن ينفض بعض عبئه عن كاهله المثقل ، ويلقى به — تخففا أو تنصلا — على كاهل الرجل الذى حمله إياه . .

وكان . .

فقد اجتمع عبيد الله بن العباس ، وبسر بن أبى أرطأة ذات يوم ، بمجلس معاوية بعد أن خلا وجه الخلافة للعاهل الأموى ، وانفرد فى الدولة بالسلطان وحركت هيئة بسر مواجع عبيد الله وذكرته رزأه الفادح فى صغيريه ، فالتفت الخليفة يلومه وهو يومىء بنظرة مقت وسخط وازدراء إلى السفاح . .

قال :

« أنت أمرت هذا اللعين السيىء القدم بأن يقتل ابنى ! . . »

فبغت معاوية . ولكنه أسرع ، بنبرات معتذرة ، ينكر التهمة ، ويغسل يديه من جريرتها الشنعاء :

« ما أمرته ! ولوددت أنه لم يقتلهما . . »

وعلى الأثر هاج بسر .

يا لهذا الداهية الزئبق الرواغ ! . .

من إذن قد أمر وهو الذى دبر للحملة ، ورسم الأسلوب ، وحث بسرا أن ينهب المال والمتاع ، ويحرق الدور والزروع ، ويحصد النفوس والأرواح ؟ . . من الذى دفعه إلى مطاردة شيعة على أينما وجدهم بالهلاك الذريع ، واجتثاثهم من الأصول والجذوع والفروع ؟ . .

وما ابنا عبيد الله فى ضحاياه ؟

أوليسوا شيعة ؟ . . فهم إذن أولى بالقتل قبل من عداهم من شيعة الإمام لأنهم بعض أهله . والإمام قبلهم أولى بالقتل لو أمكنته منه الظروف . أم ترى ، لو فعل ، كان معاوية بعدها يلحاه ؟ . .

ومع ذلك فقد ملأت الفرحة قلب العاهل يوم عاد بسر من حملة الدمار ، كما لم تملأ فرحة قلب إنسان .. خف يستقبل قائده الذى مشت أنباء نصره بين يديه . وخف القائد إليه بهدية الدم التى اعتصرها له من حياة ثلاثين ألفا من الناس ! . قال له بسر مبشرا يومذاك :

« أحمد الله يا أمير المؤمنين أنى سرت بهذا الجيش ، أقتل عدوك ذاهبا جائيا ، لم ينكب رجل منهم نكبة . »

فابتسم معاوية من راحة ومن خيلاء ، وهو يقول معلنا عن رضاه عليه لإنفاذه أمره فى إحكام :

« الله قد فعل ذلك لا أنت ! . . »

لكنه الآن ، وفى حضرة عبيد الله ، ليس يكفيه أن يجحد الجاهد جهده ، وطاعة المأمور ، بل يروقه كذلك أن ينكر أنه هو الذى أمر بما كان . .

وهال بسرا من أميره هذا الكنود . وحز فيه أن يبوء وحده — بلسان المدبر الفعلى للذبحة الوحشية ، والآمر بها خدمة لآرابه — بكل الإثم ، وخشى

الجريرة ، وسوء السيرة وما كان ، فى الحقيقة ، سوى أداة صماء فى يد العاهل حركها فانطلقت حين شاء لتلتهم من شاء . .

وكأنما عاده بعض ندمه الذى كان يستشعر فى لحظات تامله المادىء وفيئه إلى انسانيته المصفاة من نزوات الهوى وفتنة الإغراء ، فصاح حانقا بالعاهل السكنود :

« اقبض سيفك ! قلدتنيه ، وأمرتنى أن أخبط به الناس ، ففعلت . . حتى إذا بلغت به ما أردت ، قلت : لم أهو ، ولم آمر ! ... »

ورمى إليه بالسيف الذى شهد كل مشاهد السفح والعدوان . .

ولعله ، بعد ثورته هذه ، لم يهز سيفا بيمينه يخبط ويضرب ويحارب ، إلا ذلك السيف الخشبى الذى كان يخبط به الوسائد ، ويضرب فى الهواء والفراغ وهو يحارب أشباح ضحاياه ! . .

٤

بدأ الإرهاب البسرى الدموى بشرارة صغيرة تطايرت من صنعاء . .

كانت كلمحة من طرف عين . . كلمة برق خاطفة . . كومضة جمرة خابية دفنها الرماد . .

لكنها ما لبثت أن غدت نظرة ثابتة الحلاق . . طليعة عاصفة هوجاء . . حريقا مسعورا مسعر الأوار . .

فلو أن عبيد الله بن العباس قد اصطنع الحكمة ، أو مارس الحزم ، لجنب الناس والبلاد كل ما أثارته تلك الشرارة المتهافتة من كوارث ، وما سببته من ويلات.

. . . . عتب الإمام ، بعد غارة ابن أبى أرطأة ، على سعيد بن نمران ، عامله على « الجند » أنه وعبيد الله لم يقاتلا بسرا حين سار مسيرته المشئومة إلى صنعاء فاجتاحها وغيرها من البلاد والمخاليف ، وفعل بها وبأهلها الأفاعيل ، دون أن يهز أيهما سيفا فى وجه الطاغية . . فدفع سعيد التهمة عن نفسه ، وقال :

« قد والله قاتلت . . ولكن ابن عباس خذلنى ، وأبى أن يقاتل .. و .. »

واندلعت النار . .

فلقد كانت بصنعاء طائفة من شيعة عثمان ، تعيش بها فى استخفاء ، وهى تعظم قتله ، وتكتم أمرها عن الناس ، وتتبدى أمام الأعين على ولاء للإمام ، حتى تحين لها فرصة تجمع خلالها كلنها ، وتلم شعثها ، وتعلن الانتقاض . .

وجاءها الزمن بما تروم . فالأنباء تترى تباعا عبر الجزيرة ، من الشمال إلى الجنوب ، عن اضطراب الأمور فى دولة الإمام . . الخلاف يستشرى من أصحابه بعد صفين . . والحرب تقع فى النهروان . . ومصر تضيع من ابن أبى بكر . . وغارات أهل الشام تطأ الأطراف . . والانقسام يقع فى صفوفه حتى ليتفرق رجاله عن طاعته إلا بشقشقة الألسن التى لا تغنى شيئا فى دفاع ولا هجوم . . حتى إذا

شامت عثمانية صنعاء أن اللحظة التي طال انتظارها قد حانت ، سارعت إلى خلع بيعة على والتنادى بثأر عثمان . .

وبلغ فعلهم عبيد الله بن عباس ، وهو عندئذ عامل الإمام على اليمن ، فآثر اللين والأناة على الشدة والحزم وهو يحسب أنه قادر بهذه السياسة أن يعيدهم إلى الصواب .

بعث إلى فريق من وجوههم ، فجاءوه .

وسألهم سر التذمر :

« ما هذا الذى بلغنى عنكم ؟ . . »

فلم يخشوا أن يصارحوه :

« إنا لم نزل ننكر قتل عثمان ، ونرى مجاهدة من سعى إليه . . »

فلولا أنهم يشعرون بقوتهم لأخفوا عنه ، ودفعوا التهمة المريبة التى تأخذهم بنقض البيعة ، والخروج على شرعة الولاء . .

وكأنى به وبهم قد حاورهم وحاوروه . ولعلهم أسرفوا عندئذ فى المكابرة والعناد . وعسى أن يكونوا قد أبوا الفئ إلى الطاعة ، والإقلاع عن دعوتهم التى تؤدى إلى انقسام الأمة ، ووقوع الفتنة ، لأننا لا نلبث أن نجده قد أمر بهم فحبسوا درءا لشغبهم ، ومنعا للخلاف أن يذيع إذا غابوا عن العيون ، وخلا منهم الميدان .

لكنه لم يصب التوفيق . فما كانوا وحدهم جند الفتنة ولا كان خروج من عرفه منهم بصنعاء على واجب الطاعة إلا كمثل إماءة خفية ، أو « كلمة سر » تدعو سواهم من العثمانية المتوارين بها وبغيرها إلى مباغتة أولى الأمر فى الإقليم بالوثوب عليهم وهم غافلون عما يدبرون . . فإن هى إلا أيام حتى تحرك الرسل والرسائل بينهم وبين رفاقهم لإنشاب الثورة وأمسكت الشرارة الواهنة بالهشيم !

وكذلك وقع ما ظن عبيد الله أن لن يقع . .

التأم جمع فريقهم بصنعاء ، واشتد خطره ، حتى خافهم العامل ، فأغضى عنهم ،

وقبع ورجاله الثابتين على العهد ، بلا حول ، يرقبون ما يكون . .

وفاجأ حزبهم بالجند عاملها سعيد بن نمران فاستولوا على السلطة ، وأظهروا أمرهم ، وأبعدوا سعيدا عن البلدة . .

ثم انضم عثمانية صنعاء إلى عثمانية الجند ، قوة موحدة ، شديدة الأيد ، تستطيع أن تؤثر فى تحويل الأحداث . .

ثم التحق بهم قوم آخر لم يكونوا على رأيهم ، ولكنهم أرادوا أن يمنعوا الصدقة ولا سبيل لهم إلى ذلك إلا بالشغب ، والخروج على النظام العام .

ثم كتبت عصابتهم تستعدى معاوية على الحكم الشرعى القائم ، فأوفد حملة الإرهاب .

أما عبيد الله بن العباس فقد ظل ، طوال هذا ، على تردد ، لا يكاد يقطع فى أمرهم برأى إلا أن يجمع لهم أنصاره ثم لا يناجزهم . . أو يشاور بعض صحبه . أو يكتب إلى الإمام بالكوفة ينبئه الخبر ، وينتظر منه أن يشير عليه بما يفعل معهم ، كأنما قد أيقن أن الجمع والمشاورة والكتابة مغنية عنه ، أو أن الزمن قد تجمد وكف عن دورانه فلا خوف من تغير الظروف ! .

كان من أحاديثه مع رفيقه حاكم الجند ، سعيد بن نمران :

« . . لقد اجتمع هؤلاء ، وإنهم لنا لمقاربون . فإن قاتلناهم لا نعلم على من تكون الدائرة . . »

فرد سعيد :

« إن ابن عمك لا يرضى منى ومنك بدون الجد فى قتالهم . . »

لكن ابن عباس أجاب :

« لا والله ! . . ما لنا بهم طاقة ولا يدان . . فهلم لنكتب إلى أمير المؤمنين ، نخبره بخبرهم وفدحهم ، وبمنزلهم الذى هم به . . »

وكتبا إليه :

« . . إن شيعة عثمان وثبوا بنا . وأظهروا أن معاوية قد شيد أمره ، واتسق له أكثر الناس . وإنا سرنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين . وذلك أحمشهم . . فعبأوا لنا ، وتداعوا علينا من كل أوب ، ونصرهم علينا من لم يكن له رأى فيهم ،

إرادة أن يمنع حق الله المفروض عليه . وليس يمنعنا من مناجزتهم إلا انتظار رأى أمير المؤمنين . . »

وعجب منهما لهذا التردد الذى ترك الشرارة تتطاير لتسعر الحريق . . ثم دعا إليه يزيد بن قيس الأرحبي أحد أشياخ اليمن فى صفوفه :

« ألا ترى إلى صنع قومك ! . . »

قال يزيد ، وما زالت بنفسه بقية من أمل أن يفيء بنو إقليمه إلى الرشاد :

« إن ظنى يا أمير المؤمنين بقومى لحسن فى طاعتك . فإن شئت خرجت إليهم فكفيتكهم . وإن شئت كتبت إليهم فتنظر ما يجيبونك . . »

غير أن حسن الظن لم يصادف أهله . .

كتب الإمام لعامليه :

« . . قد علمت أن نخب أفئدتكما ، وصغر أنفسكما ، وشتات رأيكما ، وسوء تدبيركما ، هو الذى أفسد عليكما من لم يكن عليكما فاسدا ، وجرأ من كان عن لقائكما جبانا . . »

وبعث إلى أولئك الخارجين بكتاب مع رجل من همدان :

« . . بلغنى تجرؤكم ، وشقاقكم ، وإعراضكم عن دينكم ، بعد الطاعة وإعطاء البيعة . . فإذا أتاكم رسولى فتفرقوا إلى رحالكم . . فإن لم تفعلوا فاستعدوا لقدوم جيش جم . . يقصد لمن طغى وتجبر . . فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد . »

لقد أعذر من أنذر !

وقرئ عليهم كتابه ، فى ملأ وجهرة .

لكنهم تلبثوا بالرسول لا يجيبونه بشيء ، كأنما يديرون أمرهم بينهم ليروا الرأى . . وما كانوا كذلك . فإن هى إلا مراوغة ، وتربص بالوقت ما وسعهم عسى أن تجيئهم الأيام القلائل القادمة بما ينتظرون .

ففى تلك الأثناء كان كتابهم ، الذى أرسلوه خفية إلى معاوية ، على الطريق . .

وعندما تعجلهم الهمدانى ردهم على رسالة الإمام ، وألح فى التعجيل ، اصطنعوا حيلة جديدة لمط المدة ، والاستثناء بكلمة الإمام الفاصلة فيهم أن تأتيهم قبل أن تتضح لهم الأمور . .

أصغوا له :

« إنى تركت أمير المؤمنين يريد أن يوجه إليـــكم يزيد بن قيس الأرحبى فى جيش كثيف فلم يمنعه إلا انتظار جوابكم . . »

فأظهروا الانصياع :

« نحن سامعون مطيعون إن عزل عنا هذين الرجلين . . »

ثم شيعوه ومعه طاعتهم المشروطة . .

وما يضيرهم منها ، قبلها الإمام أو أباها ، وإن رسوله لن يبلغ مشارف الـكوفة إلا ونجدة معاوية المأمولة تطوى إليهم الأرض طيا فى سجل العذاب والإرهاب ، منحدرة كالسيل الهادر من الشام ! . .

ولقد صح حدسهم .

بسر يقبل . . يعصف بالحجاز . . يطغى على البيداء . . يبلغ من اليمن قلبها والأطراف . . يسلب الأموال والرواحل . . يدمر الدور والرحال . . يحرق الزروع والأحياء . . يذبح الشيوخ والأطفال . . يقتل الأبرياء والعزل . . يعشى بالملاك على البلاد والناس . . ثم يأخذ البيعة لعاهله بسن حسامه . .

والـكوفة أيضا تتثاقل . . كدأبها ظلت هامدة . . تعيش فى نوم . . تنام فى تماوت . . الأعين حسيرة . . الأسماع صماء . . البصائر مطموسة . . القلوب غلف . . الأيدى شلاء . وفى جنباتها تتردد صيحة الإمام ، تحريضا وتذيرا : أنبئت بسرا قد . . . » فلا تخلف إلا أصداء يبتلعها الهواء . .

وبكل الحسرة فى القلب . بكل المرارة فى الفم . بكل الأسى فى العين ، عقد الإمام لجارية بن قدامة السعدى على كتيبة من ألفى رجل ، اجتمعوا له بعد أيام طويلة من الدعوة والاستنهاض ، ومن المطل والمراوغة ، ومن التملل والاعتذار . .

وخرج جارية من السكوفة محاولا أن يسبق الزمن ما استطاع عسى أن يلتق بالسفاح . . مضى يتنسم الأخبار ويقفو الآثار ، وهو ينفض البلاد والبيد نفضا ، وينقب فيها تنقيبا عن غريمه الذى كان لا يكاد ينشره جبل إلا لتطويه وهدة ، وتظهره بلدة إلا لتخفيه مفازة . وكانت له على كل مكان بصمات من الويلات . .

ومع ذلك فلم يلتقيا . .

وأين اللقاء وإنه بحملته الرهيبة لمثل حصاة بين صحراء من الرمال ! . .

وكيف أيضا ، وبسر ، ما إن علم بمقدم كتيبة السكوفة حتى جعل لأقدام حملته أجنحة تطير بها فى الأودية كما تطير فى الجبال ! . .

الطاغية السفاح آثر الفرار من اللقاء . ذابت على الفور جسارته الزائفة التى نسجها اقتحامه الوحشى للأقاليم والبلدان . . تبخر اعتداده بقوته وطغيانه وما التقى بعد إلا باسم مطارده دون سلاحه . . وراح يستخفى بعد طول ظهور فى المجامع والناس . . يعرج عنة ثم لا يكاد حتى يياسر . يهبط ثم لا يلبث أن يعلو . يتأخر حين يظن أنه يتقدم . يسرع حين يحسب أنه يريح . يلتوى بعد اعتدال ، ويرجع بعد إقبال . .

ومن ورائه دائما كان جارية . لا يكاد يعلم بوجه مضى إليه ابن أبى أرطأة حتى يخف إليه عسى أن يسبق الزمن إليه . . لم يهاود فى سيره . لم يقف لراحة . لم ينفض عن رجاله قط وعثاء شقة قطعوها وإن طال بهم عليها السرى والسير . لا يلتفت إلى مدينة مر بها ، ولا إلى أهل حصن إلا إن أراد الاستنباء . ولا يعرج على مكان إلا أن أرحل بعض أصحابه وتقصيهم الزاد ليتزود لهم ، أو تسقط بعض مطاياه ليأمر الراكب من جنده أن يعقب الراحل . .

غير أنه لم يصادف غريمه . . غنم بسر السلامة بالفرار . وترك وراءه باليمن وصنعاء شيعة عثمانية مضيعة ، غرها بقوته ، وغرتها الأمانى ، ثم انتبهت فجأة من حلمها لتجد نفسها بلا رده يحميها كجزيرة معزولة وسط بحر من العداء ، فهرعت بأرواحها إلى الجبال . .

وعادت السكينة . وانطفأت النار . .

أما بسر فكان قد بلغ الشام ناجيا بأفراد حملته وما يكاد ! . . فقد تواثب عليهم فى طريق العودة أناس كان مجرد ذكر اسمه أمامهم حين مجيئه يشلهم عن الوقوف لمقاومته ، بل التفكير فى الوقوف . . فلقد هان الآن أيما هوان. وملكه من خوف لحاق جارية به ذعر مجنون كان يرده عن الدفاع أو استرداد ما يسلبونه إياه من ثقل ومتاع . وهل فى وقته فسحة إلا للهروب ؟ . .

ومع ذلك فقد استطار الطاغية المذعور فخرا بما فعل حين ضمته حدود الشام ، فسمعناه يقول لماهله الأموى ، يوم استقبله ، فى خيلاء صلف مغرور :

« . . إنى سرت فى هذا الجيش ، أقتل عدوك ذاهبا جائيا ، لم ينكب منهم رجل نكبة . . »

لقد فخر بنصره ، إن سمى نصرا ما يصيبه أى قاطع طريق ! . . وما له لا يفخر وقد أنفذ بعثه ، وأنجز مهمته ، وأرضى أميره ، وكتب لنفسه فى سجل الدولة المقبلة سطورا حمراء من البلاء فى سبيل تشييدها على دعائم من الجماجم ، بمداد من دم ! .

« تم الجزء الثامن »

رقم الإيداع ٤٢١٤ / ١٩٧١

مطبعة الحرية - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤٤٠

الإمام

عَلي بن أبي طالِب

الجزء التاسع

تأليف

عبد الفتّاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان

بيروت

الفصل الأول

١

مرة أخرى رأى نفسه بذات الموقف ، كيوم ابن أبى أرطأة حين عاث بالبلاد إلى صنعاء . كيوم النعمان بن بشير فى عين التمر . كيوم ابن مسعدة الفزارى فى تيماء . كيوم الضحاك بن قيس على واقصة وطريق الحاج . كهذه وغيرها من أيام الغارات الأموية التى استباح فيها رجال معاوية الأرواح والأموال والحرمات .

لكنها الآن غارة مجاورة . . ليست موغلة فى البادية إلى الأعماق . ولا مفرقة فى الأطراف . ولا مساحلة مع البحر إلى الغرب أو إلى الجنوب . . إنما هى منهم على كثب . كأنما على مرمى سهم . كأنما على قيد نظرة . كأنما على مد مسمع لو كانت لقومه أعين ترى وآذان تسمع ! . .

بعد قليل من عودة جارية من مطاردة بسر ، وعلى مسيرة قصيرة من الكوفة التى غدوا بها مثل قوقعة مغلقة حبستهم صدفتها عما يدور خارجها من أحداث ، ومن جد العمل ، ومن حركة الحياة ، ضرب معاوية ضربته الجديدة ، بيد الغامدى ، فى الأنبار . .

ليست حربا إذن ما يريده الماهل بهذه الغارات التى يسيرها إليهم بين فينة وفينة . . ليست حربا معلنة كما كان قديما العهد بالحروب يتصاف فيها الفريقان المتناجزان ثم يبدأ اللقاء . ليست أيضاً تسلل سرايا الاستطلاع . ليست أيضاً تربص كمائن المباغتة . ليست أيضا مناوشة كتائب لتشغل الجيوش ، وتفسد عليها خططها ، أو تعوق قدرتها على التقدم أو الالتفاف . . إنما كانت ضربات انتقامية أعادت إلى الحياة ثانية أساليب قطع الطريق على المسافرين ، وانقضاض القبائل على بعض فى ساعة غرة ، إدلالا بالقوة ، أو رغبة فى السلب ، أو تفردا بالماء ، أو استجابة لدواعى الثأر والانتقام . .

ولقد نجح الماهل الأموى حقا فى هذا المجال . وجال فيه مستمرئا مرعاه ! فهو يعمل وإنه لوشك أن يكون حر التنقل ، مطلق اليد ، مفلوت العنان ،

يعيث ويعبث على هواه . وهو يعمل وإنه لموقن أنه لن يلق فى سبيله من المقاومة ما يحمله على الإقلاع إذ يأس رجاله النأى بأنفسهم عن مواطن النزال والصراع . . لا حريجة . لا قلق . لا خطر عليه . فما أثيب غارة بغارة — إلا فى النادر الأقل الذى يغفل — فيردعه عن الاستمرار أن يذوق طعم ما سقى سواه ! . . وماخسر فى حملاته تلك شيئا ذا بال لأنها كانت توجه دائما إلى الأمنة العزل من السلاح . .

ذلك أسلوب فى القتال أخذ به معاوية فى غير تحرز ، وبلا خشية أن يكال له منه صاع بصاع . وكيف لا وهو الأسلوب الذى لا يقبل الإمام أن يباريه فى ميدانه تعففا أن يصيب الأبرياء ، والتزاما بقواعد الفروسية الكريمة وتقاليد الحرب المشروعة التى تحرم الغدر ، وانتهاك الحرمات ، والفتك بالشيوخ والصغار ، والتصدى لغير الجنود ، وفى غير ساحات الوغى ، إلا بعد إعلان ، والنزو الباطش على السكان الآمنين . .

ولا ينبغى هنا أن ينحى باللوم على الإمام لأنه يرعى مبادىء الأخلاق ، وأصول السلوك القتالى النظيف مع من لا يؤمن برعاية خلق أو حفظ فضيلة . . فالسرقة ، مثلا ، إن استباحها السارق من المسروق لا يمكن أن يقترفها مسروق شريف ولو تعويضا لحقه المسلوب ، والخطأ لا شفاعة لتصحيحه بخطأ آخر مهما كانت الدواعى والمعاذير . وإذا كان على قد حاول جهده — وعلى الرغم من تثاقل رجاله عن المبادرة إلى الردع — أن يضرب تلك الغارات الأموية الغدارة الفرارة ، فضربها كان لقاء جند بجند ، وسلاح بسلاح . ولم يكن قط من سياسته أن يحذو نفس حذو غريمه فيغير . .

إنما كانت سياسته الثابتة أن يشنها حربا صريحة على معاوية ، شاملة عامة كصفين ، يلتقى فيها وإياه فى احتكام إلى قتال مشروع . فما يفض النزاع بينهما — فى رأيه — غارة أو عدة غارات قصارى شأوها ضربات قد تجرح ولكنها لا تميت . وما يغير من الموقف بينهما أن يسلب مال ، أو يحرق زرع ، أو تهدم دور ، أو يقتل نفر من « المدنيين » من هنا أو من هناك . . فما أتباع معاوية ، فى حقيقة الأمر ، سوى ذيل بغير حول ، أفيقطع الذيل ويدع رأس الثعبان ؟ . .

« إحياء صفين » هو العمل الذى كان دائما محور تفكيره ، وجوهر دعوته وتبشيره بين رجاله ولا عمل يحسم الأمور سواه . .

ومع ذلك فالغارة الجديدة عرض خطر لا بد له من علاج سريع .. وها هو الآن ، وقد جاءته عنها الأنباء ، يخف إلى الناس ليهبوا لنجدة المنكوبين . .

وقف على المنبر يخاطب الجموع :

« . . إن أخاكم البكرى قد أصيب بالأنبار . وهو معتز لايخاف ما كان ، واختار ماعندالله على الدنيا ، فانتدبوا إليهم حتى تلاقوهم . فإن أصبتم منهم طرفا أنكلتموهم عن العراق أبدا ما بقوا . . »

وتلبث ينظر ما لعله قد عرا القوم من هـذا الخبر الذى أتى به إليه علج من أبناء البلدة التى اجتاحتها الغارة ولم يأته به رسول من قبل صاحب المسلحة أو عامل الإقليم ، وما كاد يقضى على سالفتها باليمين غير قليل . . أفقد أحيط هنالك برجاله ؟ . . أم عصف بهم ؟ . . أم بلغ من كثرة المغيرين أن أخذوا على الناس بها طريقهم إلى الكوفة فلم يعد فى مقدور أحد من ذوى السلطة من عماله وأعوانهم النفاذ من بين « سور » الاعتداء الكثيف ؟ . .

عوامل كلها خليقة بأن تثير القلق ، وتحرك الاهتمام ، وتدفع السامع إلى الانفعال الفورى بالخبر المفاجىء ومجابهة دلالته الخطرة بعمل سريع ، لأنه عندئذ خبر يحمل فى طواياه النذير بتهديد الكوفة نفسها التى لا تقع عن موطن الغارة إلا على مبعدة بضع مراحل قد تغرى العادين بالتقدم إليها إن أمنوا خلو الطريق . ومن يدرى أن قوات الغامدى ليست مقدمة لغزو عام ؟ .

وتلفت يطالع الوجوه . .

فلو أنه نظر عندئذ إلى صحيفة بيضاء لم يعش عليها قلم بسطور أو بكلمات ، فلربما كانت أكثر تعبيرا من السحن الماثلة أمامه صفوفا وراء صفوف ! .. ما من رجل وخزه النبأ اللاسع فانتفض انتفاضة ملسوع . ما من أحد انطلق لسانه ، يوحى شعوره قبل وحى تفكيره ، بكلمة أو سؤال . لا لفظة إنكار . لاعبارة تعليق . لا همسة توجس . لا حركة اضطراب أو اكتراث .

وعاود التفرس عجبا فى الملامح الآسفة الراكدة . . لاحت كأنما قد اكتست من الجمود أقنعة سوداء كـكسف من ظلام كثيف فى أمسية شتاء أطبقت فيها قبضتا الليل والغيم على الأفق فاختفت النجوم ! . . أفهم أصنام ؟ . . أم هم موتى ولا يسمع الدعاء من فى القبور ؟ . .

وفى هم واصب وصمت حزين ، غادر المسكان فى هدوء . .

مضى على وجهه يهيم ، بعيدا عنهم ، إلى خارج بلدتهم الناكثة الغادرة ، العاصية الجاحدة ، يحمل قدميه على المسير إلى النخيلة وما يدرى امرؤ إلى ما يسير ، وفيم السير إلى ذلك المعسكر المهجور ؟ . . أيلوذ منه بمثل صومعة يخلو بها مليا إلى همومه ؟ . . أم يريدها قطيعة وعزلة عن أولئك الخاملين الهامدين ؟ . . أم لعله أن يجد فيها بقية من أعوان يؤازرونه على الكفاح ولو كانوا حفنة لا تغنى عنهم أنفسهم شيئا حين قتال ؟ . .

اثنان أو ثلاثة من أشراف البلدة الذين خلفهم بالمسجد انتبهوا من غشية جمودهم على خروجه ، فأسرعوا خطاهم إليه ، يحاولون رده عن الطريق . لا معدل لهم عن رجوعه . غيابه سيملأ حياتهم بالفراغ . لا بديل للكوفة وأهلها دونه وإن هم خالوا أنه يحس ، بملء شعوره ، أن هجره إياها ، ونفض يديه من أمرها ، وقطيعته رجالها ، هى له الخلاص مما يعانى ، وخير بديل . وأسلم سبيل . .

وهتفوا به يترضونه ، ومن ورائهم تقاطرت عليه الزمر والحشود . .

قالوا له :

« ارجع يا أمير المؤمنين . . »

لكنه لم يبال دعوتهم . وهل هى إلا ، كغيرها من أحاديثهم له ، جوفاء ؟ .

وعادوا يناشدونه ، ويعدونه :

« ارجع ، ونحن نكفيك . . »

فابتسم ساخرا وقال :

« ما تكفوننى . ولا تكفون أنفسكم ! . . »

٢

ظلوا به حتى أعادوه إلى منزله بالكوفة ، على كره وضيق . يبيت مهموما ، ويصحو مهموما ، وقد أيس منهم اليأس الذى يفرغ الصدر من الثقة ، ويدفع المرء إلى تلمس الراحة فى الخروج من حياته إلى الانتظار إن لم يكن إلى الشرود . .

وظل بهم يشهد ما يكون منهم ، بعد الذى أبدوه من ندم طالما بدر منهم مثله ، وهو يرقب ما لعلهم فاعلوه فى المحنة القائمة ، ويسائل نفسه : أيستنيمون ، أم يهبون ! . . أيدركون أم يحمقون حتى ينتهى أوان الخروج إلى الغارة الأموية بالمقاومة والردع ، أو ملاحقتها بالمطاردة والتأديب ؟ . .

أيام قلائل انقضت منذ غضبته تلك وهو يرقب الأمور بعين ساهمة ، ويستقبل الأخبار بقلب ممرور . .

مظاهر الاهتمام ، فيما يخال ، تتجمع على الملامح ، رويدا رويدا ، كقطرات العرق التى يفرزها الجهد ، لحظة فلحظة ، لتغمر وتنثال قدر ما تعمل السواعد وتنشط الأوصال . . ضوضاء الحركة تملأ المدينة وهى تنبثق من وقع الخطا ، وخبط الحوافر ، وجرجرة الإبل ، وصهيل الأفراس . . جرس النبرات يتعالى على ضجة التنقل ، متناديا بالدعوة والتحريض ، ومختلطا بالقعقعة والصليل . . أفهذه يقظة جادة ، أم هى يا ترى فرقعة جوفاء ؟ . .

وكانت المحنة أيضا تندلع من كل خبر كألسنة النار ! . . الويل يزيد . الخطر يدنو . القلق يكبر . الخوف يسرح من تخوم المواقع التى اجتاحها إعصار الغارة ليغمر ما حولها من البلدان ويطرد الناس أمامه إلى أى ملاذ آمن ، أو مهجر بعيد ، يقيهم الموت والعذاب والتشريد . وهل ثمة اليوم ملاذ أو مهجر هو آمن لهم ، وأبقى عليهم ، من أرض الشام موطن أولئك الذين يأتمرون طائعين ، ويخرجون مسرعين ، ويغيرون قادرين ، ويرجعون موفورين ؟ . .

.. .. يقول معاوية لصاحب غارته سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى ، بعد أن رسم له طريق الحملة ، ولقنه أساليبها ، ونصحه بما يحقق له الانتصار المأمون :

« . . . . ثم أقبل إلي ، واتق أن تقرب الكوفة . . واعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة .. إن هذه الغارات ، يا سفيان ، على أهل العراق ترعب قلوبهم ، وتفرح كل من له فينا هوى منهم ، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر . . . . »

فيصدق الواقع رأيه . إذ نزعت هذه الغارة ، كمثيلاتها ، من أهل العراق كثيرين كانوا على طاعة علي ففروا بأرواحهم إلى ذلك الملاذ الأمين .

. . . ويقول أيضاً ، كشفا عن سياسته الكرارة الفرارة ، وسيرته بها في أعدائه ، وجدواها المؤكدة على مطامعه :

« . . .. واقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك . واخرب ما مررت به من القرى . واحرب الأموال ، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل ، وهو أوجع للقلب .. . . »

فيصدق الواقع رأيه ثانية ، لأن هجرة العراقيين أمام الغارات جمعت في وعائها أولئك الهاربين بجلودهم خوفا على النفس ، إلى أولئك الهاربين بمتاعهم حرصا على المال .

. . . ويقول أيضاً لأهل الشام ، حين قر عزمه على إنفاذ بعث سفيان ابن عوف بن المغفل للإغارة على الأنبار والمدائن وما يدانى الكوفة إلى مدى غير بعيد :

« أيها الناس ، انتدبوا مع سفيان » .

فيصدق الواقع رأيه في أصحابه ، قبل صدقه في حالتيه هاتين ، فيخلصون له الطاعة ، وينزلون على أمره ، ويخفون سراعا إلى إلهاب النار ، وإشاعة الدمار .

يقول ابن المغفل ، وهو يتحدث عن أثر دعوة معاوية عندئذ في الناس :

« . . . . فو الله الذى لا إله غيره مامرت ثالثة حتى خرجت في ستة آلاف » .

ثم يقول عما حدث بعد عودته ، نتيجة للحملة المغيرة :

« . . . . فما لبثنا إلا يسيرا ، حتى رأيت رجال أهل العراق يأتوننا على الإبل هرابا من معسكر على . . »

هذا أمر أولئك ، وذلك أمر هؤلاء . . استجابة وطاعة ، لقاء مطل وعصيان . مبادرة وتأهب ، أمام تردد وتثاقل . تسرع وكر ، مقابل تهاون وإحجام .

على أنهم أخيرا ، غادروا الكوفة ثمانية آلاف بقيادة سعيد بن قيس ، يأخذون على شاطىء الفرات فى طلب سفيان . .

كانت غارة ابن المغفل الغامدى قد قامت ، آنذاك تمامها ، وبلغت من الأرض التى داستها الغاية التى شاء لها عاهل الشام وشاء أسلوبه الفذ فى القتال أن تبلغها من العزل الأبرياء . . مضى بها قائدها منحدرا من الولاية الأموية بغير تمهل ، جادا خفيفا إلى التدمير ، حتى طالعه ماء الفرات داخل الحدود العراقية فلزمه إلى بلدة هيت . . لكن خبره فيما بدا ، كان قد سبق خطاه إلى أهلها الأمنة الذين لا يملكون ردءا من دونه ، فخشوا أن يغشاهم الإرهابى بقواته المغيرة ، ولم يروا عاصما لهم منه إلا عبور النهر إلى الضفة المقابلة ، فرارا بالعمر ، عسى أن تحاجز شريعة الماء بينهم وبين الموت الزاحف . .

ودخل ابن المغفل ورجاله البلدة بعد قليل ، فإذا هى فارغة كفلاة ، هامدة كمقبرة ، خرساء الحركة والصوت كأنها لم تحفل قط ولم تتردد بجنباتها أنفاس . . كانت الدور خاوية والطرق مهجورة ، والسكون المطبق على أطرافها وقلبها لا يشى بظل إنسان ! . .

وخلى العدم الذى فرشه الفراغ على هيت بينها وبين المغير فمشى عليه بجيشه العاصف مشية إعصار ، يهدم هنا ، ويدمر هناك ، ثم يدهس ويجتاح ما استطاع ليضيف إلى صورة الخواء فى إطارها ألوانا من الخراب !

ثم اخترقها إلى صندوداء لعله أن يشفى فيها غلة نفسه المنهومة بالدم ! . . لكنه — لغيظه — لا يلتقى بهذه الفريسة الجديدة إلا بآثار فرار . . فقد هجرها أهلها كسنة رفاقهم أهل أختها هيت ، ففاتوه . وتركوها له دمية من خزف بين يدى طفل نزق يتلهى بتحطيمها كيف شاء ! . .

حينذاك كان النذير بمسير الحملة واقتلاعها معالم العمران أينما انطلقت بها الأقدام قد بلغ مسامع ابن حسان البكرى صاحب مسلحة الأنبار . . الغارة تنساب إليه كثعبان . الدمار يخف بجناح . الموت يوشك أن يقتحم عليه الباب . . لكنه لا يرى الفرار .

بجنان ثابت وقلب ركين ، تدبر الأمر تدبر المؤمن بانتهاج ما يجب لا بطأطأة رأسه للظروف . . إن عمله ليس الهروب . وإن دوره لهو حماية الأرض التى يقف عليها مابقى سيفه فى يمينه ، وما حملته قدماه . . وإن خلقه ، وشممه ، ويقينه لتأبى جميعا عليه أن يذل لصولة الإرهاب فيفر كغيره من الذين فترت عزائمهم من اعتلاء قمة الكفاح وآثروا الانزلاق للسفوح ! . .

كان فى قلة من أصحابه قليلة يعلم أنها لا تغنى شيئا أمام كتائب المغيرين . . ولكنه يعلم أيضاً أنها تستطيع أن تصبر ما استمسك بالصبر . تثبت للعادين طرفا من ليل أو آونة من نهار . ترد عليهم ضرباتهم بضربة أو بضربات . وإذا لم يكن لها سبيل إلى النصر ، فإنها لاشك قادرة على أن تصيب من القوم ، فتقتل من تقتل ، وتجرح من تجرح ، وتموت وهى قائمة على ثراها ، ودونه ، ليعلم العدوان أنه لا يفلت أبدا بغير قصاص ، عظم أو هان ، ثم لا يقال بعد هذا إن البكرى ورجاله خانوا واجبهم ، وخذلوا أميرهم ، وثبطوا عن أداء دورهم الوطنى ، وسلكوا أمام عدوهم المدل بالصولة والبأس مسلك جبناء ! . .

ولقد أثار ما ذاع من التزام ابن حسان الوقوف فى وجه الغارة المقبلة ريبة المغير ، وأفسح أمامه رقعة الحدس والتخمين . فما ألف الغامدى ، حتى لحظته هذه ، من أمثال الرجل فيما طرق من مواقع وبلدان ، قبل الأنبار ، غير الفرار . . ما خف إليه صاحب مسلحة أخرى بالمقاومة . ما اجتمع نفر فى طريقه يسده عليه . ما جال بخاطر امرئ أن يعترضه بكلمة إباء فضلا عن إشهار سلاح . . فأما وهذا هو عزم البكرى . فإنه إذن فى جيش كفء يحميه . أو قد أعد فأحسن الإعداد للقاء أو قد بث كائن المباغتة والانقضاض . أو هو واثق أن أمدادا من أهل الكوفة على الطريق !

وتوجس الغامدى . . ومضى ينساب بقواته صوب البلدة على حذر وتمهل . ليكاد يشم فى الجو رائحة تربص ! . . كأنما فى كل ركن كمين ! . . كأنما الظلال ستر لجند كثيف ! . . بل إنه ليخرج من الحذر ليدخل فى الخوف ، ومن التمهل إلى تجميد السير . ومن كليهما معا إلى رهبة تملك عليه أمره حتى ليلح ذهنه وأمنه عليه بالرجوع ! . .

فيما يحس ، لا ضير عليه لو أنه آثر الإياب وها هو الخطر يرنو بعين إليه ، ويشير بأصبع ، ويتحرك بثبات . . أليس إذن قولا أجوف ماترامت به إليه الأنباء . أليس خدعة افتفاضة القوم للدفاع . ليس وهما ما جرى بظنه وتقديره عن الإعداد أو السكائن أو الإمداد . . وإذا كان ثمة الآن ما يؤيد حدسه فهو هذه المبادرة التى دفعت البكرى للخروج بقواته إلى مشارف البلدة سميا عاجلا للقاء . .

وسمر الغامدى فى موقعه أقدام رجاله ! . . كف عن التقدم . ووقف ينفض بالنظر الحذر ما حوله من معالم . ثم أرسل نفرا من أعوانه طليعة تتلصص وترقب وتستنبئ حسبما يسعهم أن يقفوا له على ما قد يغير من حدسه ، أو يؤكد تقديره ، فيستيقن حقيقة الأمور . .

ولم يطل به الانتظار . . أقبل نفره عليه بعد قليل بغلمان من أهل الأنبار ، لعلهم كانوا بأطرافها يلعبون لاهين عن الخطر وعن غارة المغير . فما أن رآهم ، حتى راح يحاول معهم حيله ، عسى أن يخلص منهم إلى بعض ما يفيده عن قوة الدفاع . .

وسألهم :

« . . وكم بالقرية من أصحاب على ! . . »

فاختلفت الإجابات .

فتية قالوا :

« عدد رجال المسلحة خمسمائة . »

وزادت طائفة :

« لكنهم تبددوا ورجعوا إلى الكوفة »

وقدر فريق :

« قد يكون مائتين . »

وبين هذا التفاوت ، وقع الغامدى على ما يطمئنه ، لأنها الحامية التى لا تبلغ من عديد رجاله ما يجعل لها قدرة على المقاومة ، وإن قاومت فليس لها طاقة بالثبات ، وإن ثبتت فلا إلى تفرق ونصر . . ومع ذلك فقد بدا الرجل مشفقا على أصحابه ونفسه من المعركة المنتظرة . مترددا عن هجوم طوفانى كاسح يمحق القوة الصغيرة . متريثا بساعة الفصل ما استطاع .

آثر الغامدى الهوينى فى السير . . فتت اللقاء . كتب جنوده كتائب متعاقبة كالأمواج ، ثم راح يرميها إلى حفنة المدافعين عن بلدتهم كتيبة من بعد كتيبة ، لا تكاد إحداها تصيب شيئا من عدوه إلا ارتدت لتملأ فراغها على الأثر كتيبة جديدة .

لم يدع للحامية الصغيرة فى الراحة . ولا فى التقاط الأنفاس . كان يداول عليها جيشه اللجب صفا وراء صف ، ليثلم سلاحها ، وينهك قوتها ، ويجعل منها فريسة سهلة المصارع ، ويأمن أن تبقى له إبان الاحتدام ، طال أو قصر ، قوات ضخمة مدخرة تقية الغرة إن انشقت البلدة ، أو تفتقت مشارفها ، عن نجدة خبيئة . .

ومع ذلك فلم تكن فى البلدة عندئذ نجدة مخبوءة بعد أن تفرق معظم جندها إلى الكوفة . ولم يكن ثمة مدد أيضا على الطريق من ناحية الكوفة وقد تراخى أهلها وتصاموا ، كعادتهم ، عن دعوة الجهاد . ولم تكن حامية القرية ، إلى جواز هذا وذاك ، خمسمائة من المقاتلين . ولا كانت مائتين . بل قد كانت دون الرقمين لا مراء ثم لم يخف منها إلى اللقاء غير نصفها ، أو أقل ، عند بدء القتال . أما بقية رجال رباطها الموكول إليهم الدفاع عنها فقد استسلموا ، من اللحظة الأولى ، إلى التنحى عن واجبهم مؤثرين السلامة ، حين ظهر لهم من كثرة المغيرين وعدتهم ما أيقنوا معه أن ليس فى الاشتباك إلا الهلاك . .

تعللوا وهم يبرحون :

« ما لنا بهم طاقة . »

ولم يغالوا . فجموع الغارة، في الحق ، كانت خليقة بأن تهول مثل هذا النفر الذين يزنون الأمور بقيمة النتائج القريبة المنظورة ولا يزنونها بنظافة المسلك وسمو الغاية . . كان المغيرون يغطون الأرض . يملأون الأفق . على صفوفهم المتراصة الكثيفة تلمع الأعين لتمتم ، وتمتم اتلمع من دهشة وبهر . حشودهم من خيول وجنود لا يكاد يحتويها ظن ولا تخترقها نظرة . إذا مضت سيوفهم تصلصل فرعود وكتائبهم تسير فطوفان . .

لكنها ، مع هذا كله ، لم تسكن لترهب ذا يقين ! . . ولئن راحت تهجم مستمرة بيأسها وقوتها ، بعددها وعدتها على ابن البكرى ، فإن مدها كان يرتفع لينحسر ، وموجها كان يندفع لينكسر على صخرة ثباته وصبره .

بنفره القلائل وقف صاحب مسلحة الأنبار في وجه السيل المتدفق الذي جره عليه ابن المغفل الغامدى ليجتاح البلدة . . لم يرح لحظة يده . لم يرحم نفسه. لم يدع فرصة لقوات خصومه العارمة لتثبت بمكان . . قاتل الموت ، ليقتل أو يقتل ! . . كان كزوبعة مجنونة ! . . سلاحه يتأرجح ويدور . وقدمه تتوثب وتطفر . والأرض تحته تنطوى وتنتشر فإذا هو هنا وهناك ، مرة أمام عدوه ، ومرة خلفهم ، وفي كل مرة عصى على التناول ، عزيز على الحصار ، كأنه زئبق لا تستطيع أن تطبق عليه كف أو تثبت أصبع ! .

لكم طاردوه ، وكم أطبقوا عليه ! . . غير أنه كان دائما يستطيع الإفلات ، ويعدل وضعه ، ليكر عليهم بخفته ، فإذا هو وراءهم يطارد ، وإذا هم أمامه ، بحشدهم ، مطاردون ! . . مرارا عديدة كان يقلب الفر كرا ، والدفاع هجوما . ومرارا عديدة كان ينتزع المبادرة من أيديهم، ويقتحم عليهم مواقعهم فيجليهم عنها وينفضهم نفضا عما اجتازوه أو احتلوه من أزقة ودروب . .

ثم حانت أخيرا لحظة الخاتمة الحزينة التي كان لا بد أن تحين . . فلا مناص للزوبعة بعد ثورة من سكون . . وللجمر بعد تسعر من خمود . . وللنبع بعد تدفق من نضوب . .

تعاقب الصراع أوهى القوة الصغيرة . شيوع الجراح فيها أوهن المدد ،

واصطفاق السلاح أثلم العدة . والإعياء الذى بثه فى رجالها تواصل القتال ودوام التنقل ، وسرعة الطراد ، قد جمدت منهم المفاصل وخدرت الأوصال . . وها هو ابن المغفل ، إلى جوار هذا كله ، ينهز هذه الساعة فيجيش فرقة من مائتى راجل ، خفافا أعفياء . لم ينل بعد من أحدهم جهد الصراع ، ولا تغبرت أثوابهم بغبار الميدان ، ليدفع بهم فى وجه القلة المناضلة ، مؤيدين بكتيبة فرسان .

وتفكر البكرى . . .

ثم حزم أمره على الفور . .

الستار لا محالة سينسدل . . والنهاية مقبلة تسرع . والشهادة تخايله برضوان الله . .

والتفت يخاطب أهل بلدته خطاب مؤمن مستعين ، وكلماته تسبح إليهم على لهثاته :

« من كان لا يريد لقاء الله ، ولا يطيب نفسا بالموت ، فليخرج من القرية ما دمنا نقاتلهم . . فإن قتالنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب . . »

ثم وجه حديثه إلى الثلة الباقية من جنوده :

« . . . . ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار . »

عندئذ لباه ثلاثون فى السلاح، ما إن صفهم حتى استبق وإياهم ، على طمأنينة وبشر إلى الهجوم على حشود أعدائه ، ليلتقى بهم لقاءه الأخير . .

وكان يتلو من التنزيل، وسيفه يضرب ويدور ليفتح ثغرة فى سور العدوان :

« ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا . . »

وخاض ورفاقه الموت ! . .

٣

لم يفتر عن الإمام همه . .

أينما سار أو أقام ، كانت الكآبة تظلل محياه . . العبسة على جبينه . . السهوم فى عينيه . . الألم قد شق خطوطا عميقة فارقت بين القسمات . . أما نفسه فمجروحة ، وأما قلبه فثقيل . .

وكان الصمت دائما طريقه ، والحزن رفيقه . إذا صحا فالعلقم ملء فيه . . وإذا رقد فعلى شوك . وإذا مشى فعلى جمر . . أيامه ولياليه موصولة بخيوط كثيفة من الندم والضجر ، ومن الأسف والوجوم . .

والأنباء ، إلى هذا ، لا تزال تترى عليه من الأنبار . جوفاء حينا كأنها الفراغ ، تثير من القلق بقدر لحظات الترقب والانتظار . ثقيلة حينا — كوقر الآثام على قلب النادم — بما تحتوى من فواجع . .

وكان الهدوء أيضا ، حوله فى كل مكان . . السكوفة ساكنة لم تتغير بها الحال . آمنة الحركة كبركة عفنة ! . . باردة العاطفة كالجليد ! . . هامدة الانفعال كالموت ! . . لا بادرة فيها لتأثر بما دار هناك ، على مراحل دانية منهم . أهلها فى طمأنينة . . البال رضى ، والنفوس هادئة ، والقلوب فى مواقعها ثابتة ، كأنها لا تعرف الوجيب . .

لكأنما الأمر لا يعنى القوم ! . . كأنما هذه المحنة على تخوم بلدتهم تقع بعالم غير عالمهم ، بعيد بعيد ، لا تطويه المراحل ولا تبلغه الأسفار ! . . كأنما الأخبار قصة مروية ، تنقل لأسماعهم حدثاً باليا أغفى طويلا فى سفر التاريخ ! .

لا مبالاة ! . .

ومع ذلك فقد أفلتت من أيديهم فرصة الثأر . ذهب مع الريح جهد حملة التأديب . . فالمعتدى الإرهابى آب إلى أرضه وهو ملء جلده ! . . فى يساره

هوانهم ، وفي عينه انتصاره ، لم تطأ الحملة ظله . ولم تلحق بغباره . لم تصب من رجاله موقع قدم وهم ينطلقون آمنين بثمار الحقد : بالأسلاب والغنائم ، وبالزهو والشماتة إلى الشام . .

أخفق سعيد بن قيس ورجاله في اللحاق بالمغير . . الأيام التي بددها تثاقل الكوفة قطعت خيط الاتصال بين السابق والمسبوق . وسعت الشقة وأطالت الطريق ! . . وعندما انتهى من أولى مراحل الحملة ، وأصبح وجنده يلازمون ضفة الفرات ، كانت الغارة قد بلغت أربها ، وحملت سلبها ، وغسلت يديها من دماء ضحاياها ، ثم قفلت راجعة من الأنبار . .

ولم يكن أمام سعيد بن قيس حينذاك إلا أن يلقف الريح ليشم أين المغير ! . وما كان ليعلم عن يقين وقد خلت الأرض من آثاره ، ونضبت الأنباء ، وكادت المناطق المحيطة لا تشي له إلا عن هجرة الناس بعد هجرة ، وفرار في إثر فرار ، نجاة بالأنفس والأموال أن تطولها سطوة العدوان كلما خطر للغارات الأموية أن تدوس ثرى العراق بالعذاب ؟ . . ومع ذلك فقد قر في روعه أن يحاول الصعود للشمال بدل انحداره للجنوب إلى الأنبار ما دام قد فاته أوان الانحدار . . وما يدريه ؟ . . فلعل الغامدي ما زال يرجع الهوينى إلى إقليمه بثقة الآمن لا بخشية الطريد . . لعل النجاح الذي أصابه حين المجيء قد أغراه بالاستزادة من النهب والسلب حين الأوبة فقصر خطاه . . لعله شاء أن يريح بجيشه الظافر هنا أو هناك ، بهذه المفازة أو تلك ، جماما من تعب السفر ومشقة القتال . .

كيفما كان من صحة حدسه أو اضطراب تقديره ، فقد آثر سعيد الاتجاه من فوره إلى عانات . فهي بموقع يعترض الطريق إلى الشام . . وهي تداني هيت ، وتكاد تتوسط المسافة من الأنبار ، ضحية الغارة ، إلى الرقة منفذ المغيرين إلى أرض العودة ملاذهم للنجاة . فإذا بلغها قبلهم فإنه إذن لقاء الثأر . وإذا بلغها وقد فاتوه ضاقت الشقة بينه وبينهم وربما وسعه أن يلحق بهم ، أو بمؤخرتهم ، وهم بعد خارج الحدود الأموية لم يجتازوها إلى نطاق الطمأنينة . .

لـكنه خشى ، إن هو سار إلى بلدة عانات بكل رجاله ، أن تثقل كثرة نفره ووفرة عتاده قدرته على متابعة العائدين . فلا بد إذن من التخفف . لا بد من قوة صغيرة ، سريعة الحركة ، لا يعوق من انطلاقها إلى عدوهم كالسهم، وعلى الفور، ما يعوق انطلاق جيش كبير مثل جيشه ، لا تتأتى له القدرة القتالية الفعالة إلا بعد درس ودقة وإمعان فكر لرسم خطته ، وترتيب كتائبه ، وحشد معداته ، وتخطيط مسالك تموينه وتزويده ، إلى ما نحوها من أساليب معقدة ومتشعبة يستغرق إنجازها وقتا ليس باليسير .

وعلى الأثر حزم سعيد الرأى ، فسرح إلى مظنة سير الغارة الراجعة فرقة من جنده ، عليها هانىء بن الخطاب الهمدانى ، أمرها أن تعجل نحوهم ، طاوية الزمن عدوا ، عسى أن تلحق بمؤخرتهم ، وتعرقل انسحابهم إلى مأمنهم حتى يخلص هو إليهم ببقية جيش التأديب . .

وخف هانىء إلى ماندب له ، آخذا على شريعة النهر وجيرته ، من عانات، مصوبا إلى الشمال نحو مشارف الرقة . ثم انفلت منها غربا حتى دخل أدانى أرض قنسرين ، وهو ينفض الربا والوهاد والربوع والزروع ، ومن ورائه انطلق سعيد بن قيس ببقية الجيش لتكون حشوده جنة لتلك الطليعة السريعة ، ومددا لا ينضب لو نشب قتال .

غير أن العدو كان قد فاتهم ، وأوغل . فدخــــل الشام . وحط رحاله . ووقف قائده سفيان أمام طاغيتها يقص عليه من أنباء غزاته المظفرة ما هز بالبشر عطفيه . .

وقال له معاوية أنذاك ، مترجما عن رضائه :

« كنت عند ظنى بك ! . والله لا تنزل فى بلد من بلدانى إلا قضيت فيه مثل ما يقضى فيه أميره ، وإن أحببت توليته وليتك ، وليس لأحد من خلق الله عليك أمر دونى . . »

وآب الغامدى لمأمنه فأصاب التقدير . .

وآب سعيد إلى الكوفة مقهورا بإخفاقه ، مهزوما ولا هزيمة ، يرتد على حسرة ، ويمشى على كمد وتثاقل وهو يقود وراءه ثمانية آلاف شمثا مغبرين من طول السرى والسير ، وسرعة الجرى والمطاردة ، وكأنما يجر خلفه ثمانية آلاف ذيل الخيبة ! . .

٤

الحسرة التى رافقت سعيد بن قيس الهمدانى وجيشه ، طوال الطريق للعودة المريرة ، لم تكن وحدها هى التى أشاعت كل هذه الكآبة فى أفق الكوفة . . كان فى الجو معها قلق مكتوم ، وصمت واجم ، وفراغ أجوف ملؤه الإحساس بالضياع . .

وكانت الحياة ، بالبلدة الأولى فى الدولة ، مثل ليلة حزينة ، مطها الهم والسأم إلى غير نهاية . . ضريرة بغير نجم . آبدة بغير فجر . سوادها وشيه ظلمة ، وظلامها حشوه سواد . . والناس فى دجاها الكثيف كالأشباح . . يهيمون . يلهون . يعملون . يعيشون فى رتابة ثقيلة ثم لا أثر ، بعد ، للهو والعمل والعيش يمس القلب ، أو يحرك العاطفة ، أو يثير الشعور والأوصال فيغير الصورة الماثلة بنبضة أو انتفاضة ، لأنها كلها حركة فارغة إلى غير هدف ، خامدة بغير روح ، كأنها خيالات منام ، ورؤى أحلام ! . .

ومع هذا كله فكم حاول الإمام أن يهز الصورة ليحرك النائم ! . . ليس هذه اللحظة وحدها مد يده ليوقظ الشعب الوسنان . . ليس أمس الذاهب . ليس باقى الأمسيات المواضى ، القريبة أو البعيدة ، التى تقضت ، منذ نشطت الغارات وانتشر الخطر ، وهو ينقض عليه الفراش عسى أن يقلق مضجعه ، ويفتح جفنيه المطبقين على سحر الحذر ، وراحة التواكل . .

طويلا طويلا ، منذ سنين ، ظل قائما على رأس نائمه ، يضج بالحركة وبالتذير . وكثيرا كثيرا كان يرج استرخاءه لعدى سنوات لم تغمض عينه . لم يهدأ لسانه . لم يكف لحظة عن محاولة نفض الهمود عنه ، وبعث الحياة فى جسده الجامد يقظة واعية تسمع وترى ، وتدرك وتعلم ، وتعمل وتجد خلاصا من الرقدة المستكينة ، ونهوضا إلى مجابهة التبعة ، ومبادرة لصنع المصير . .

منذ سنين وهو يقض على هذا الشعب النائم مرقده . بالدعوة . بالصيحة .

بالضجة . . بكل ما يحمل عضوا على الحركة ، ويقهر عصبا على الانتفاض . . بكل ما يحفز الهمة ، ويثير الغيرة ، وينخس الضمير ! . .

لكن الكوفة ظلت الكوفة . مستكينة ، كعهدها ، للاسترخاء . مخلدة إلى التهاون ، وغارقة فى النعاس . حتى صليل السلاح قرب مشارفها ، وصهيل الخيل ، وصرخات العذاب والنكال ، لم تمسح عن عيونها المغمضة فتور النوم ! حتى الفشل الذى لازمها شهورا عديدة ، مرة بعد مرة ، وهى تختنق فى الأعماق بغارات الإرهاب ، لم يحرك فى نفوسها شيئا من الحمية ، غضباً للكرامة ، وثأرا للدم !

بغير أثر من انفعال ، مضت الكوفة ، على عادتها ، تعيش حياتها اليومية ، رخية رتيبة ، بلا مبالاة . . بغير أنة من ألم لما هو واقع . وبغير دمعة من ندم على ما فات . وبغير مسحة من خشية مما هو آت وإن تعاقبت عليها التجاريب المرة وتوالت النذر تلوح لها بالوبال . . لا شىء يهم . لا خطر يثير . لا بلوى تسكرت كأنما القوم ، فيما تبدى ، قد فقدوا السمع والبصر ، وعدموا الحس والشعور ، وحرموا القدرة على التقدير ! . .

امرؤ فرد كان وحده يحمل الهم كله . يحس وحده . يفكر وحده . يقدر وحده . يدبر وحده ، وهم من حوله حلقة من التيه ! . . فلقد أعضلوا به أيما إعضال ، وشق أمرهم عليه أيما مشقة ، حتى لضاق صدره وانقبض قلبه ، وعانى من خيبته فيهم من الألم والحزن والحسرة ما كان يقتله مرة فى كل لحظة من ليل وهنيهة من نهار . . ولقد أسأمه منهم ، إلى حد الغثيان والتقزز ، ذلك الفراغ الأجوف الذى حاصروه به فى كل آن ومكان ، حتى لأسقمه ، وجرى بالمرض حثيثا فى جسده الموصوب . .

ويوم عاد سعيد من الرحلة الخاسرة ، لم يكن ثمة بالكوفة الحزينة إحساس إلا بالعار . . بذلك التخاذل المهين الذى كأنما أهلها قد راقهم طعمه ، فعاقروه كالخمر ، وداوموا عليه مداومة إدمان ! . . بتلك الاستكانة الذليلة لتجبر

معاوية وصلفه ، وعدوان غاراته الرهيبة ، استكانة رفعت هيبة عدوها فى أعين الناس ، ومرغت شرفها فى التراب ! . .

ولم يكن لها خلاص إلا فى انتفاضة من النوم ! . . فى هبة يقظة تقطع التردد فى إرادة تعزم ، وحزم يحسم . . حتى أولئك الذين استمرأوا الدعة لم يسعهم — فى دخائلهم — أن ينكروا أن الحرب الشاملة هى وحدها دواء الداء ، والعلاج الذى لا علاج غيره لهذا الضيم الذى أصابهم من أهل الشام ، وذهبت به بلدتهم المنكوبة مثلا فى الأعصر لارتضاء الهوان ! . .

وتحقق يومذاك ما ألفه القوم فى طوايا الشعور وإن هم أطبقوا عليه الشفاه . فقد خرج عليهم الإمام ذابلا حائل اللون ، عليلا مبهور النفس ، من سقم وسأم ، ومن كدر وهم ، وهو يجر رجلين لا تكادان تقويان على حمله ، وقد استند بإحدى ذراعيه إلى الحسن وبالأخرى إلى الحسين ، حتى إذا انتهى به سيره إلى باب السدة المفضية إلى المسجد ، وتمهل قليلا ليخف عنه بعض جهد الحركة . .

وعندما هدأ صدره ، وخفت من حوله لغط الجمهور ، وأرهفت له المسامع ورنت الأبصار ، راح يتحدث إلى الجمع الحاشد بصوت ثابت النبرات ، حاسم للقاطع ، وإن كان واهن الرنين . .

قال مما قال :

« . . . إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه . وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة . . فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء . . وأديل الحق منه . . وسيم الخسف ، ومنع النصف . . »

وكان يضغط على الكلمات كأنما يمهلها قبل أن تبرح شفتيه لتخرج بأحرفها ومعانيها وهى ملء فمه ! . . وكان يقرن دائما كل كلمة بنظرة معبرة حارة يكاد الشرر أن يتطاير منها إلى الملامح الشاهدة . وبين الكلمة والنظرة رباط من الضيق نسجه غضب مكظوم غطى جبينه المريض بعقدة كبيرة من العبوس ! .

وانثنى من وعظه اللائم ذاك إلى ما طالما سلف أن أفصح لهم عنه ، ودعاهم

إلى امتثاله . إلى تذكيرهم بسياسته المرسومة التي يرى اتباعها مع معاوية وحزبه ، واحتذاءها أسلوبا مستقيما وفعالا ، لا عوج فيه ولا بديل عنه ، لحسم الموقف ، وردع التمرد ، وقتل الفتنة ، يبلغ بهم النصر ، وينقذ الشرف ، ويحقق الوحدة ، وينشر العدل ، ويضمن الاستقرار . .

أردف معرجا على سياسته إحياء صفين ، فقال :

« . . . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، وسرا وإعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا . . فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات ، وملكت الأوطان . . . »

وعرض بإشارة عابرة إلى غارة سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي على الأنبار وما أصاب الناس فيها من نكال وأصابهم هم من عار . . وهل هي إلا مثل من أمثلة عدة لتخاذلهم ، ونتيجة محتومة لاختلافهم عليه ، ومظهر من مظاهر استهانة عدوهم بهم استهانة تورث الكمد ، وتعقب الحسرة في قلب كل حر ، حتى « لو أن امرأ مسلما مات بعد هذا أسفا ما كان ملوما ، بل كان به جديرا » كما قال . .

ثم جمح غضبه كما لم يجمح به قط من قبل ، فثار على الزمن الذي جعله لقى بين أيديهم ، وعلى الصلة التي ربطته بهم ، وعلى هوانهم الذي سجل لهم سيرة في سجل الحوادث صحائفها سود ، ومدادها كنود وجحود ، ليس فيها على كثرة الأسطر إلا أحرف من المكابرة إذا التأمت ألفاظا فهي عصيان وتمرد ، وإذا جرت عبارات فهي تثاقل وتردد ، وإذا تكشفت دلالات فهي خور وجبن عن نصر الحق وحماية الحرمات ! . .

يصيح بهم وكلماته الملتهبة كالشواظ تكاد تحرق أنفاسه :

« . . . قبحا لكم وترحا ! . . صرتم غرضا يرمى . . يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون ! . . إذا أمرتكم بالسير إليهم في الصيف ، قلتم : هذه حمارة القيظ أمهلنا يسبخ عنا الحر ! .. وإذا

أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء ، قلتم : هذه صبارة القر أمهلنا ينسلخ عنا البرد ! . كل هذا فرارا من الحر والقر ؟ . . فإذا كنتم من الحر والقر تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر ! . . »

ثم اخترقهم بنظرات ثاقبة حادة :

« يا أشباه الرجال ولا رجال ! لوددت أني لم أركم ، ولم أعرفكم معرفة — والله — جرت ندما ! . . قاتلكم الله ! . . لقد ملأتم قلبي قيحا ، وشحنتم صدري غيظا . . وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش : إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب . . لله أبوهم !! وهل أحد منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما مني ؟ . . لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وها أنذا قد ذرفت على الستين . ولكن . . لا رأي لمن لا يطاع ! . . »

وخلف مكانه وهو يطوح رأسه إلى الوراء ويهز كتفيه من برم ويأس ، ويصفق كفا بكف من حسرة وأسف ، كأنما كان ينفض عبثهم عن كاهله ، وينظف من أمرهم يديه . .

٥

لو تحدث الصمت عندئذ لكان أبلغ دلالة عنهم من الحسر . ولو تحرك لكان أشد نكاية فيهم من السيف ! . فالسكون الذى حاصرتهم به عبارات أمير المؤمنين لم يكن بغتة عى . ولا وجمة خزى . إنما كان صعقة ضربت عليهم الخزى والخواء ، وجردتهم بمرارة صراحتها الحادة ، من معالم الحياة فبدوا كتماثيل ! . .

على ملامحهم الظاهرة ران الجمود في قلوبهم سرح الحزن . بضمائرهم عربد الندم . . وفى دخائلهم الخفية كان هذا كله يؤجج ثورة باطنة لأنفسهم على أنفسهم راحت تعتمل كالبخار المكتوم ! . .

كانت الحسرة تنهش الصدور . وكان الشعور بالإثم يجرى فى الدم . . فما من ذنب إلا أورث صاحبه حسرة وإن لم تدم إلا كلمة خاطفة . وما من مذنب ، مهما غلظت أحاسيسه ، أو تحجرت مشاعره ، يستطيع أن يجتاز الحد الفاصل للفضيلة عن الرذيلة دون أن يحس باجتيازه ، ولا أن ينسى — بينه وبين نفسه — ما قد قارف من الإثم وإن هو حاول ، جهارا وعلانية ، أن يبرره أو يتناساه . .

لكن الإقرار بالجرم ثقيل ثقيل على النفوس . كريه كريه إليها إلى ما فوق قمة الطاقة وجهد الاحتمال . . وخجل المرء من الخطأ الذى يرتكبه ، عادة يدفعه إلى محاولة إخفائه عن العيون . ودائما يحمله على تبريره إن هو كشف وشاع . وأحيانا يسرقه إلى العناد إصرارا وادعاء بأنه صواب . ونادرا ما يهديه إلى الاعتراف ! . .

وذاك ما جرت عليه الكوفة ، هذا اليوم ، بعد سماعها الخطاب . .

واحد من رجالها ثقل عليه بمفرده ما قد فرط من مواطنيه ، شهورا عديدة متعاقبة ، فى حق أميرهم من التخاذل والعصيان ، فدفعه ندمه ، أو دفعته شجاعة الرأى وأمانة التعبير ، أن يجاهر بالإقرار بخطيئتهم ، ثم يسلم نفسه إلى التوبة . .

بقلب مكدود ، وعين دامعة ، ونبرة مرتجفة من الأسى والحياء ، تقدم جندب ابن عفيف الأزدى يقول للإمام :

— « يا أمير المؤمنين .. إنى وأخى هذا كما قال الله تعالى : رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى .. فمرنا بأمرك ، فوالله لننتهين إليه ولو حال بيننا وبينه جمر الغضا وشوك القتاد ! .. »

فابتسم الإمام لجندب وأخيه عبد الرحمن بسمة حائلة اللون ، ندية الرضا والتقدير ، وأجاب :

« وأين تقعان مما أريد ! .. »

ورد طرفه عنهما إلى الجمع الحاشد ، فإذا هم حينذاك كتلة من الوجوم والشرود ! .. بلقع من الجود ! .. لكأنهم فراغ ! .. كأنهم من كثافة الصمت ظلام وظلال ! .. كأنهم من خوائهم أطياف سراب ! .. فأما الأرض التى شغلوها بقاماتهم ، فهى من فرط السكون الأجوف قد حاكت مقبرة موحشة ، رءوسهم بها معالم اللحود ! ..

وهم أن يرجع عنهم ، كما جاء ، مطبق الفم ، هابط القلب ، ثقيل الخطوات يزحف على ضيق .. ولكنه رأى أن يراجع عزمه ، ويقهر رغبته ، ويعاودهم — مرة أخيرة — بجرعة من الدواء ! ..

أشار إلى الحارث الأعور الهمدانى فهمس له . ثم انطلق بعد الهمسة يعود .. وامتثل الرجل الأمر فهب فى الناس ، حين مبارحة الإمام ، ينادى بصوته الجهير :

« أيها الناس ! .. أين من يشترى نفسه لربه ، ويبيع دنياه بآخرته ؟ .. أين من يشترى .... »

وتكرر النداء .

وترددت أصداؤه فى جنبات المكان إلى أبعاد ومسافات وجرس العبارات يلازم خطوات العائد نبرة بحركة ، ومقطعا بوقع حتى بلغ على من البلدة منزله ،

وبلغت الدعوة من القوم الأسماع .

وعندئذ انثنى الحارث يخاطب مدعويه :

« . . . أيها الناس ! . . أصبحوا غدا بالرحبة إن شاء الله . ولا يحضر إلا صادق النية فى السير معنا . والجهاد لعدونا . . . . »

غير أن الغد الذى أقبل كان كالغائب عن النداء ! . . فما استجاب سوى نفيرة من القوم قليل نفذت الدعوة من آذانهم إلى قلوبهم ، فآمنوا بغايتها ، وبايعوا لربهم ، وصدقوا العزم على الولاء والخروج للجهاد . .

من الكوفة كلها انطلق إلى الرحبة ذلك الصباح دون الثلثمائة من أهلها الجم فى عدة القتال . . لو أنها كانت عند ذاك دعيت إلى نزهة لإزجاء فراغ ، لما بخلت بعدد يفوق أولئك بضعة أضعاف ! . . لو أنها خوبلت بعرض تافه من عروض الحياة ، وإن كان دراهم معدودة ، ولم تخايل بالجنة ، لخفت إلى ذلك العرض بالآلاف ! . . فأما والهدف الآن الشرف ، والرحلة فى الحق ، والغرض الله ، فليس لها إلى المبادرة بالعمل سبيل ! . .

وبمبن ملؤها التهكم والازدراء ، طاف الإمام بالحفنة الماثلة حياله ، يقيس أبعادها نفرا ودلالة . ثم يصرها فى نظرة وانية وهو يقول :

« لو كانوا ألفا ! . . »

وما كان الألف يغنيه . ولا كان ضعفه أمثالا عدة ليفعل شيئا فى اقتاء حربى شامل . ولكنه ، على أى حال ، العدد الذى قد يومئ — فى أول أيام الإعداد والتجهز — إلى عقد العزم وصدق النية ، ويبشر بسيل من الجند خليق بأن يتدفق على الرحبة خلال أيام . .

وأقبل عليه إذ ذاك بضعة من العلية وسادة الزمر يلقون بزخرف من القول بين يديه ظاهره ولاء وطاعة وباطنه تمرد وثبوط . . جاءوا إليه يخفون بألوان من الحجج شتى ، تبيحهم التخلف ، وتمنعهم السير للقتال وإنهم ليعلمون ، لاريب ، أنها وسائل تمويه وتعلل ، حروفها اعتذار ومغزاها عصيان ..

ولم يجد خيرا من أن يتلو فيهم من قول الله ما سلف أن تلا محمد فى أمثالهم من العصاة :

« وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله . . . . »

وامتد بعد هذا ترقبه الحشد المنتظر ..

أيام ثقيلة طويلة مرت عليه وهو ينتظر ، كلما طلع عليه منها يوم بما يحرك الأمل تلته أيام بما يثير القنوط . فالقوم ، فيما يلوح وكما اعتاد ، لا يأخذون الأمر مأخذ الجد ، ولا يرون غضاضة فى التثاقل والاسترخاء لأنهم لا يكادون يحسون حقا فى حقهم الذى دعاهم إلى النهوض فيه ، ولا باطلا فى باطل عدوهم الذى يريدهم القضاء عليه ، لفرط ما ألفوا من التخاذل والخور والاستكانة .. وهل من حريجة على من ضمرت فيهم مضغة الحية ، ونضب نبع الاعتزاز ، وخمدت جذوة الضمير ؟ ..

وكذلك انطوت سلخة من عمر الإمام ، فى هذه الآونة التى اختتمت عهده ، كان فيها يتطلع ولا مطلع ، ويأمل ولا مأمول .. فالهم مطبق عليه كالضباب السكثيف يطمس المرائى ويكتم الأنفاس . والوقت ثقيل كالطود ، طويل كالدهر ، ممتد كالأبد بغير انتهاء وإن لم يجاوز — بلغة الأرقام — أياما قليلة وساعات . ومع ذلك فقد بدا الزمن عندئذ وقد اجتمع له الضدان : الخفة والثبات . فهو آنا راسخ لا يسير حين يراوده الرجاء فى غد يبزغ عليه بحال سوى الحال . وهو عادة خفيف يطير ، يتسرب من بين أصابعه كالماء ، أو يتبخر فى الهواء . وفرص الحسم تفلت تباعا منه ومن العراق الشهر بعد الشهر ، واليوم فى إثر اليوم ..

ولم يطاوعه صبره على مغالبة ضيقه ، ولا تماسكه على كتم حزنه ، فاكتسى محياه السأم ، وملأ قلبه الغم ، وشرق حلقه بالمرارة .. ولكنه نشط ، مع كل ما يعانى ، إلى القوم لعله أن يبلغ منهم الساعة ما لم يبلغ فى الليالى الطوال . وراح يبث فيهم دعاته ليجتمعوا له ، ويسمعوا منه صيحة النذير الأخير ..

والتأمت حوله كثرة منهم ذلك النهار من شتاء عام خلافته الخامس ، والجو

يومذاك قر ، والهواء من برودته له فى الأجساد وخز الإبر ، وعلى السماء من جهامة الغيوم كثل الكآبة التى تغشى محياه .. فما أن أصغوا له ، حتى وقف يلقى إليهم بما بقى فى وفاض أحاديثه الذى استنزفوه ! ..

خطبهم فكان من خطابه أن قرنهم بالأنصار عند البعثة النبوية وإن جاوز العدد العدد ، وخالف الفعل الفعل ، وجرى القرينان فى صحائف التاريخ وهما ضدان ! ..

قال :

« .. .. أما بعد ، أيها الناس ، فوالله لأهل مصركم فى الأمصار أكثر من الأنصار فى العرب وما كانوا يوم أعطوا رسول الله أن يمنعوه ومن معه من المهاجرين حتى يبلغ رسالات ربه إلا قبيلتين ، قريبا مولدهما ، ما هما بأقدم العرب ميلاداً ، ولا بأكثرهم عددا ، فلما آووا النبي وأصحابه ، ونصروا الله ودينه ، رمتهم العرب عن قوس واحدة .. تحالفت عليهم اليهود . وغزتهم القبائل قبيلة بعد قبيلة . فتجردوا لنصرة دين الله ، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل ، وما بينهم وبين اليهود من الحلف . ونصبوا لأهل نجد وتهامة ، وأهل مكة واليمامة ، وأهل الحزن والسهل . وأقاموا قناة الدين ، وصبروا تحت حماس الجلاد ، حتى دانت لرسول الله العرب .. .. »

وأضاف مؤكدا أن بأيديهم الآن من الحول ما لم يكن لأقرانهم أولاء :

« .. .. وأنتم اليوم فى الناس أكثر من أولئك ، ذلك الزمان ، فى العرب .. .. »

فمن عجب أن يبوء بالاعتراض والمراجعة بمثل هذا الحديث الذى يكشف للقوم عن بعض موطن القوة فيهم ، فيندفع أحدهم — بعادة المكابرة والجدال المعروفة عنهم — يفترض ، ويقول :

« ما أنت بمحمد . ولا نحن بأولئك ! .. »

فغضب على لحمق الرجل ، وصاح يزجره :

« أحسن سمعا تحسن إجابة ! . »

ثم وجه إلى الجمع لومه .

« . . . . ثكلتكم الثواكل ! . . ما تزيدونني إلا غما . . وهل أخبرتكم أني محمد ، وأنكم الأنصار ؟ . . إنما ضربت لكم مثلا . وإنما أرجو أن تتأسوا بهم . . »

وكأنما حلت هذه المقابلة بين أمس واليوم عقدة الألسنة ، فانخرط القوم في نقاش متشعب مضى بأحاديثهم أفانين شتى . منهم من يقارن . ومنهم من يفارق . ومنهم من يستعيد من الأمثلة والذكريات ما يؤيد جانبا أو يخالف آخر ، وكلهم مع هذا يوشك ألا يلقف أنفاسه حتى تشابكت الأصوات ، وتمزقت العبارات ألفاظا ومقاطع وحروفا متناثرة تداخل بعضها في بعض فغدت ضوضاء لا تكاد تنقل إلى سمع السامع غير الإبهام ! .

ومن بين سورة هذا التشويش ، انطلق صوت عال يحاول أن يرتفع فوق الضجيج :

« ما أحوج أمير المؤمنين اليوم وأصحابه إلى أصحاب النهروان ! .. »

وكانت القولة ، بلا ريب ، الماحة إلى حقيقة تلقى على قائلها والذين معه — من حيث لم يشأ ولم يريدوا — ظلالا كثيفة من الاتهام . فهي ترميهم بتفرق الرأي ، واختلال النظام . وهي تدمغهم بالهبوط والتثاقل . وهي تدينهم بالافتقار إلى الجد وإلى سرعة البت في الأمور ، وكلها — مهما اختلفت النظرات — صفات لم يكن عليها الخوارج الذين كانوا أرباب صلابة وحسم وعزيمة ما كان أجداها على أهل الكوفة في هذا المقام . .

وتزايدت الهمسات والهمهمات . وعمت الضوضاء . وخيم اللغط على أفقهم كأنما انعقد فوق رءوسهم سحابة ! . . وصرخ رجل من بين الجمع بأعلى صوته وقد أثاره الضجيج :

« استبان فقد الأشتر على أهل العراق ! . . أشهد لو كان حيا لقل اللغط . ولعلم كل امرئ ما يقول . . »

هنا بلغ الضيق بعلى غايته فزأر غاضبا يصيح بالناس :

« هبلتكم الهوابل ! . . أنا أوجب عليكم حقا من الأشتر وهل للأشتر عليكم من الحق إلا حق المسلم على المسلم ؟ . . »

فسرعان ما ذر غضبه الهيبة فى الأعين ، والأسف فى الصدور ، ففاء القوم من اللغو إلى الجد ، ومن العبث إلى الرزانة . وأخذ اللغط المنتشر فيهم ينحسر ، رويدا رويدا ، عن المكان حتى ذابت الضوضاء فى السكون . .

وعلى الأثر خف حجر بن عدى الكندى ، وسعيد بن قيس الهمدانى إلى الإمام يزجيان إليه معذرة الجموع ، ويعرضان باسمها ، عليه الامتثال والخضوع .

قال أحدهما :

« لا يسوءك الله ، يا أمير المؤمنين . . مرنا بأمرك نتبعه . . »

وأردف الآخر :

« مرنا ، فوالله ما نعظم جزعا على أموالنا إن فقدت ، ولا على عشائرنا إن قتلت فى طاعتك . . »

وبدا كلهما ومن حولهما الندم على ما فرطوا فى حقه . . وبانت الرغبة جلية فى استعادة ثقته التى بددتها الأيام ، فى كل لمحة عين ، وكل همسة لسان ، وكل حركة جارحة ندت عن الحشد الماثل جموعا وأفرادا ، أصحاب زعامة أو من عرض الجمهور ، حتى لقد رد الإمام فى هدوء : .

« تجهزوا للمسير إلى عدونا . . »

وغادرهم ومعهم التوبة ، ومعه الرضاء . .

غير أن أمسية يومهم هذا لم تعر إلا وقد شهدت قادة الرأى وشيوخ العشائر فى لقاء مع على بداره . . توافدوا عليه مؤكدين الولاء ، موثقين العهد ، يعلنون

عزمهم على الجهاد . . فلما أن أيقن منهم ، هذه المرة ، الجد وصدق النية ، عقد مجلس حرب راح يقلب وإياه وجوه الرأى فى الموقف ، ويناقش الظروف والأوضاع ، بلوغا إلى أمثل طرائق إحراز النصر . .

وانتهى الإمام ، بعد المدارسة والمشاورة ، إلى قرار . .

قال لأصحابه المجتمعين :

« أشيروا على برجل صليب ناصح ، يحشر الناس من السواد . . »

لم ير الآن أن يدع مهمة حشد المقاتلة ، وأسلوب الإعداد ، كسابق العهد إلى كتب منه يبعث بها إلى عماله . بل أراد أن يضع الأمر بين يدى رجل واحد ، أمين كفء ، يهابه أهل العراق ، ويسمعون له ، ويؤمنون باقتداره .

وتفكر الجمع مليا ، ثم قال سعيد :

« أشير عليك ، يا أمير المؤمنين ، بالناصح الأريب الشجاع الصليب : معقل بن قيس »

فارتضى الإمام الاختيار :

« نعم . »

ووجه الرجل من فوره .

فإن تكن الكوفة ذاقت الندم ، ليلتها تلك ، فلعل كثرة فيها نامت قريرة بين ذراعى الشعور بالعزة ، لأول مرة منذ يوم صفين . . وإن تكن سهدت فسهرت إلى مطلع الفجر ، فشاغلها عن الوسن إذن حديث موصول عن الغد القريب لم تهدأ عنه الأفواه ولا فرغت منه الأسماع . . فالحرب كانت على كافة الشفاه . . والحماسة والرهبة تنازعتا القلوب : من ناشطة وثابطة ، وراسخة ومذعورة . . واللقاء الحاسم المنتظر كادت تطير به أشواق المتعززين وأحداس المتخاذلين غدوة وروحة ، وأوبة وجيئة من أرض الوقعة المجهولة إلى مهاد الأحلام ! . .

أما الإمام فمساه قد بات ردحا من الليل غير قصير وهو يسبح بفكره بين

أمس واليوم ، بين حديث ليلته وأحاديث ما قبلها من الأمسيات ، فلا يملك إلا أن يتأرجح بهذه المقابلة الفكرية بين اليقين والشك ، وبين التصديق والإنكار تجاه ما ظهر بالاجتماع من متابعة وطاعة وانصياع .. أقد صدقه قومه النية ، حقا ، بعد روغان؟ . أأخلصوا له الولاء بعد خذلان ؟.. أم هي فورة حمية عارضة لن تلبث أن تخفى — تماما كالزبد : هيئة تهول وجوهر جفاء ؟ .. أم مهاودة هي . أم مخاتلة ، أم رياء ؟ ..

ما كان عجبا أن يقابل بين سلوكهم الماضي وسلوكهم الحاضر .. وأن يتساءل إذ يقابل . وأن يحذر كما يطمئن ، ويتشاءم كما يتفاءل .. وإذا كان قد بدا لهم ، وهم يبرحون داره أمسيتهم هذه ، أن جأشه هدأ ، وباله قر ، وقلق الأشهر الثقيلة الماضيات استحال فى فؤاده طمأنينة ، فتلك نظرة منهم لم تسبر بعد غوره ، ولم تبلغ مد بصره .. لكن فيهم . بلا ريب ، طائفة حسبت جلستهم الأخيرة قد انتزعت له من الزمن أمنية عمره . وخالت الأيام القلائل المقبلة آتية له ، لا محالة ، بلحظة دانية ، يذل فيها جند الشيطان لجند الله ، فتنكسر شوكة الباطل ، وترتفع راية الحق ، وتمحو آية النور آية الظلام ..

واستضاء محياه بلمحة سلام ..

قدر القوم أم شاءوا لسوف تجرى بغير مشيئتهم الأقدار ! ..

وابتسم .

فثمة لقاء غير هذا اللقاء الحربي ، الذى تخايلهم به الظنون والأحداس ..

ثمة قبله لقاء مودة كان بينه وبين رسول الله تبينت له فيه الخفايا ، وتكشفت الحجب ، وتجلت الأسرار ..

ثمة عند أفق الغيب فاجعة مروعة ، ونهاية حزينة .

ثمة هامة مفلوقة ، ولحية مخضوبة ، وقطرات دم مهراق ستنتظم سطورا حمراء تسجل الختام ! ..

الفصل الثاني

١

إلى هدفهم أنشط معقل .

لم يهدأ ظله ! . . كان عرق كالسيف . يطوى المراحل كأنه نظرة . يعبر التخوم كأنه طيف .. فى النور سار يرتاد الليل ، وفى الليل أسرى ينشد النور . ومن الخصب ، إلى الجدب ، إلى حينما شام نصيرا قادرا أن يحمل السلاح ، كانت لهفة الشوق تسبق خطواته إلى فجر النصر .

الخلص الأوفياء من أصحابه ، رجال الإمام ، عاشوا حياتهم ، أيام رحلته ، بوقع أقدامه كأنما كانت خطاه لقلوبهم الواجبة نبضات !.. ولا غرو !.. فالأمل معه . والحشود المعبأة فى عدة القتال توشك أن تكون ملء الأحلام . والعمل الجاد ينتظر عودته من السواد . وإذا كانت الغاية المرتجاة قد تجلت تخايل الظنون والعيون ، فما أصلب الهمم ، وما أنسب الوقت ، وما أيسر الانطلاق !.. وما دام أفق الأحداث قد أطلع الآن لهم فرجة تبعث ضياء على مواطئهم يؤمن السير ، فهذا الشعاع الندى بشير إذن بالشروق .

لا تردد الآن .

فمن خلال النقاش الذى دار بينهم بمنزل أمير المؤمنين ، تحدث الأسف فأفصح ، وتكلمت التوبة فأبانت ، ودبر العزم فأبرم . معقل استشعر ، كرفاقه ، فى الصدور الثقة ، وقرأ على الوجوه التصميم . من كل فرد شهد ذلك المجلس ، تبين الندم على ما فات . رأى هدى بعد غى ، وهمة بعد ثبوط ، وصلابة بعد استرخاء . وهذه الرغبة فى تغيير واقعهم الخامل التى صورتها العبارات الملتهبة ، وجسدتها الملامح المشدودة ، أنبأت عن نزوع مشوق إلى الجد الصارم ، وحماسة متحفزة للقاء الحاسم الأخير ، يؤكد كلاهما انعقاد رأيهم على صدق الولاء ، وقوة الإرادة ، والثبات فى القتال ، والصبر إلى الظفر أو إلى الموت !

الآن استبانت النيات . عُرفت الوجهة ووضحت المعالم . خلصت الأنفس من الخور فنفضت التواكل . تجردت القلوب من الهوى ففاءت إلى الحق ، ومن الخوف فارتبطت باقه . لاح أعوان الإمام وقد أجمعوا على الطاعة ، وفى الطاعة اتساق التفكير . ومن اتساقه وحدة كلمة ، ووحدة أسلوب ، ووحدة تنفيذ لا تستقيم بدونها الأمور .

غير أن البصيص المنبعث إليهم من خلال فرجة الظروف كان كاللاهث ! . . واهنا يترنح كأنما من إعياء ! . . ذابلا يتأرجح كأنما من دوار ! . . شاحبا كأنما انبهرت أنفاسه ! . . كان يتلصص آونه فى تردد ، ويزحف أخرى على تثاقل . يتسلل فى خشية ليتوارى من استحياء . . نادرا كان يتوهج . أحيانا كان يومض . غالبا كان يختنق بين الغيوم .

وكيف لا ؟ . . وما تلك إلا معالم لا تفوت التأمل ، وحقائق تطفو على الجدل والإنكار . . فالوضع القائم ، بكافة جوانبه السياسية والاجتماعية ، مهتز مائع . والمعوقات التى تعترض سبيل التغيير ليست قليلة . وخيط المبادرة إلى العمل الناجح متشكك ، بل هو ضائع من الأصابع . والظلمة المنتشرة حول البلاد والعباد ، وعلى البصائر والأخلاد ، كسف تعلو كسفا ، وأطباق فوق أطباق .

تل من المشكلات !

ركام هائل من رواسب الماضى وأخطائه تجمع طوال السنوات الأربع المنقضية ، عسير الآن كل العسر على الفئة الأمينة المناهضة للركود ، المتوثبة للتغيير ، أن تزيحه أو تفتته ، أو تخترق كتلته الصماء الصلبة لتنفذ منه إلى المستقبل المضىء . . كان عقبة ضخمة دون روع التمرد ، وكسر شوكة الانقسام رأبا للشدخ الذى فتحته الأهواء فى جدار الوحدة الإسلامية وشطرت به الشعب شطرين . كان قوة ضاغطة أو معرقلة ، لطاقات الفكر ، وقدرات الإنجاز تحاول وأدها وكتم حركتها كلما همت بالظهور ، أو تعثيرها وشدها إلى الوراء كلما همت بالانطلاق . . كان

صدا ، فيما حديديا أمام تقدم العمل القومى الذى يتوق إلى إقامة مجتمع سليم على قواعد من قيم الإسلام ، ودولة قوية على أسس من وحدة النظام . .

وتتعدد بلا ريب مظاهر الأمراض والأسقام التى دبت فى جسد الأمة الإسلامية الناشئة تعيث فيه ، وتشيع بنسيجه الجديد الجروح والقروح . وتتعدد أيضا الأسباب والعوامل الباعثة لكل هذه العلل والأدواء . . ومع ذلك فما من داء ، مهما كان — كرأى الفئة المتطلعة إلى الإصلاح بين صفوف الإمام — يعضل أمره على العلاج . وما من دواء إلا أثمر وحقق الشفاء إن هو كان وليد وصفة بارعة ، وجاء فى أوانه ، ثم اقتحم على العلة وكرها قبل الاستفحال . وإذا تكاثرت الأمراض على عليل ، وأخذته نهكتها ، كان أوبل الأدواء فيها وأشدها خطرا عليه من سواه ، هو الأولى قبلها ببراعة الطبيب ، وأحقها بالمداواة . .

بهذه النظرة كانت الشام ، بوضعها ذاك ، علة العلل وآفة الآفات . فهى تمثل فكرة الانفصال عن الدولة الأم ، وتكاد توحى بها لغيرها من الولايات. وهى رائدة التمرد على سلطة الحكم الشرعى ، وموقدة ناره خارج حدودها الإقليمية فى كل مكان ماوسعها أن توقد أو أن تقود . وهى بخروجها على النظام العام شاغل للدولة أى شاغل أن تفرغ للعناية بأحوال الشعب حق العناية . وهى بموقعها الجغرافى المتطرف ، حائل دون ولى الأمر المسئول والذين معه من دعاة الإيمان أن ينفذوا سياستهم العقيدية بنشر الإسلام فيما يجاوز تخوم هذه الولاية « الأموية » من أرض الروم . وهى بعد هذا وقبله ، بؤرة الأضواء الذاتية والمطامع الشخصية التى تستعبد الأنفس لعروض الدنيا وزخارف الحياة ، وتستذل القلوب للمغريات والمغويات فتوسع الهوة بينها وبين الله !

بغير الحق استحكم سلطان الشام . وبغير سيرة الإسلام سار فى الناس وساس . وإذا كانت شعائر الدين وطقوسه بقيت هنالك قائمة لا تهدر ، ومناسك العبادات وصورها ظلت فى إطارها المألوف من مظاهر التقدير ، فليس الدين ،

فى حقيقته ، مجرد قشرة أو طلاء . ليس مجرد شعائر وطقوس ، وحركات وإطارات ، بقدر ما هو قيم ومبادئ وأسس ، تنسق معا ، وتؤلف باتساقها خطة سلوكية متكاملة تربط علاقة الإنسان بالله بعلاقة الإنسان بالإنسان فى خيط واحد هو الإيمان .

ومن البين أن معاوية بن أبى سفيان قد حاول ، طوال سنوات عمله على الشام — إبان خلافة الإمام ، وقبلها على السواء — أن يتألف حوله الأهواء ، ويجتذب الرغبات ، عسى أن يضيف بها إلى نفره نفرا ، وإلى قوته قوة ، وإلى فترة حكمه الموقوتة بها قليلا أو كثيرا من الأعوام . ومن البين أيضا أنه استطاع ، مع الأيام ، أن يجنى ثمار محاولته فيضم إلى وجاره كل متطلع لنفع ، راغب فى حظوة ، مفتون بنفوذ . .

ولا يكاد يجاوز الواقع إلى بعيد أو إلى قريب أن يقال إن عاهل بنى أمية قد غدا ، بطريقته « الأموية » تلك ، وهو قبلة للنهازين ذوى الأطماع ، يحطون عندها الرحال ، ليوقدوا الشموع ، ويحرقوا البخور ، إن لم يعفروا فى ترابها الجباه !.. ولا مغالاة أيضا أن يقال إن الشام غدت عندئذ ، بصاحبها ، وهى سوق كبيرة للرق « الخلق » تروج فيها تجارة الذمم ، وتؤمها قوافل « عبيد » الأوطار مقبلة عليها من كل صوب ، لتعرض بها سلعها الآدمية ، وتبيعها نفوسا وضمائر ، مثقالا بدرهم ، وقنطارا بدينار !..

ولم يعرف قط عن الرجل ، وهو يسعى لاحتياز السلطان ، أنه كان — فى انطلاقه إلى هدفه — يتحرج أن تنحرف به وسائله عن جادة السلوك السوى أو تخرق شرعة السجايا الكريمة ما دام الانحراف والخرق كلاهما أو أحدهما مبلغه وطره !.. فالوسائل كلها مطاياه . والمطايا جميعها نظائر وأشباه . أى وسيلة كأى وسيلة . وكل أسلوب ككل أسلوب . السوى المشروع من الفعال والأقوال كالملتوى والممنوع . والنظيف المألوف كالمريب والغريب . والمقبول كالمردود . فالعبرة عنده بالنتائج لا بالمسالك ولا المقدمات . والنتائج هى التى تبرر

الذرائع وتقر الأسباب . . فسواء لديه إن هو اعتلى الخف ، أو ركب الحافر ، أو انساب على ذات شراع !. سواء ، فى شرعه ، عدل أم ظلم ، صدق أم مان ، أوفى أم خان ! . . سواء كل المطايا والمراكب، وكل المثالب والمناقب ، وكل الدروب والطرقات ، ما أمن أن يبلغ من خلال أيها أغراضه .

العصى على معاوية بن أبى سفيان — سليقة وطبيعة — كان أن ينطلق إلى هدف له على خطة مستقيمة ونهج سليم ، فيصارح ويواجه ويجابه ثم يمضى بغير التواء . واليسير أن يسير إلى ذلك الهدف ويراوغ وهو يبدو كمن لايبتغيه ، فيموه ويلتف كما يفعل ثعبان . تلك طاقة خلائقه التى ركزت فيه وادعى بها أصحابه له الدهاء ، وبعــد النظرة ، وحسن السياسة ، وسعة الحيلة وما إلى مثيلاتها من قدرات ثم تابعهم كثيرون ، يومئذ وإلى الآن ، على نفس الادعاء . ولو أنهم تعمقوا دوافعه وسبروا طباعه ، وعايروا ملكاته بعيار عدل لبدلوه صورة بصورة ، وأوصافا بأوصاف . ولو ترسموا خفايا النزعات التى جسدت سلوكه ، لقطعت الدلالات بتغيير أسماء هذه الملكات ، ولما أعيى الكثرة ولا القلة منهم أن يصفوا العاهل الأموى — منصفين غير متجنين — بما هو أهله من نقائض ما أسبغوا عليه من نعوت وصفات .

ولا حرج هنا على الواصف كما لاحيلة للموصوف !. فلم يكن ابن أبى سفيان إلا ابن أبى سفيان ! . . لم يكن إلا نفسه ! . . فما كان مستطيعا ارتضاء الخروج من جلده ليشق سبيله مستقيمة معتدلة إلى ما يريد . ما كان أعسر على طبيعته ، وعلى اقتداره كذلك ، أن يعيش غير حياته . أن يتخير غير أساليبه . أن يقصر سعيه على الطرائق الأمينة . أن يلاقى غريمه وجها لوجه ، لقاء الأنداد الأكفاء ، والخصوم الشرفاء فى ساحة وغى أو فى معرض جدال ..

ولقد أنبأت عن كل هذا الأحداث ..

فطوال السنوات الأربع الأخيرة ، التى قضاها فى اختلافه على الإمام ، كان معاوية — فى صراعه على السلطة — كمن يقدم رجلا ليؤخر الثانية . كالواقف

السائر . كالمتحرك فى فراغ ! . . كان يقارب ولا يقترب . يشاغب ولا يحارب . يطرق ويوالى الطرق ولكنه لا يقتحم الباب . ومن خلال معالم سلوكه ، كانت النظرة المتأملة لا يفوتها أن تراه يأمل فى الغد وهو مشفق منه . ويتطلع إلى المستقبل وهو ينتظره ولا يسعى إليه . كان كأنما يروم أمرا يقع فى نطاق أحلامه ثم يعلو فوق قمة احتماله . ويهفو إلى نصر يعلم أنه لا يظهر إلا فى رؤى خياله ! . فأما محاولاته العدائية التى سخر لها نفسه وحزبه ، جهده وكيده ، سلمه وشغبه ، فلم يكن يطمع — بعد درس صفين — أن تصبح فيصل النزاع بين على وبينه ، فتجيئه بالنصر ، بقدر ما كان يتخذها وسيلة لإيهام الناس بنديته لغريمه ، ثم بتفوقه عليه ، ثم باقتداره ، لا محالة ذات يوم مقبل ، على تحقيق أطماعه العريضة باحراز النصر .

٢

لعب معاوية بسلاح عصره ! .

لكي يبدو الرجل وهو الأقدر ، كان عليه أن يبسط كفه فلا يقبضها ، وأن يشهر سيفه فلا يغمده .

كان هذا هو منطق الأوضاع .

ففي زمان « انقلابي » كزمانه ، أخذت النفوس فيه تنحرف عن الجادة ، المثل الروحية تتهافت ، القيم تنتكس ، الجباه تعنو للدنيا ، والقلوب تبتعد عن الله ، لا يكاد فصل الخطاب يصبح لغير المادة في نظرة الجمهرة الكبرى من الناس ، وعند وزن المزايا وتقدير الأشخاص . للمادة وحدها ، ممثلة في دعامتي القوة : السيف والمال .

وقد أتقن معاوية ، حقا ، استخدام هذا السلاح ، أو هو أتقن كل الإتقان « المناورة » به إذا ما تحدثنا بلغة الألاعيب والحيل ، وقسنا الوسائل والغايات بذلك المقياس . .

بالسيف ، ممشوقا ، خايل العاهل الأمـــوي معاصريه ، أولياء وأعداء ، ليخطف إليه نظرات عيونهم بوهج الشفرة المصقولة ، فلا يرى أحد في الحلبة سواه .

وبالمال ، مبدورا ، اشترى النفوس ..

وبهما معا اجتمع له — بمقياس زمانه — شرف البطولة الحربية ، وشرف السخاء والأريحية ، ولا شأو فوقهما لطالب شهرة ، أو لساع لسلطان .

نفذ معاوية إلى غريمه من خلال « الماديات »

واستعدى عليه الغرائز والشهوات ، والأهوال والمخاوف ، والرغبات والأطماع ..

وكان « بارعا » فى النفاذ « بارعا » فى الاستعداء .

فحين نعرض — بخاصة — لأعماله أثناء عام الصراع الأخير ، نراها سلسلة متصلة الحلقات من التمرد ، تهدف بدءا ونهاية إلى الإيهام بأنه ، فى مجال ذلك الصراع ، هو الأقدر الأنفع ، الأدنى إلى النصر ، الأقوى على الأمر ، الأولى بولاية الناس ..

ولا نعنى بهذا أن غاراته الحربية وحدها — كما فى عرف كثيرين — هى التى دفعت به إلى مكان الصدارة ، وهيأت له ، فى خواطرهم ، أسباب الترجيح .

ولكننا نعنى أنه أخرج كل ما بجعبته . لعب بكل ما فى يديه . ناور بكل أساليبه التى يدخلها أنصاره فى نطاق الدهاء والحذق، ويضعها من عداهم فى صفوف الاحتيال والتزييف ..

على أى حال ، بدت فعاله آنذاك كلعبة سياسية ماهرة ، متقنة الإعداد ، متسقة الخطوات ، مضمونة الغاية بما انبنت عليه من جهود محشودة ، وانطوى فيها من مكر ذكى ، وزودت به من توقيت محسوب ، إلى جوار إحكام الربط — فى مجال تنفيذها — بين الدقائق والجزئيات بما يحقق انتظام التحرك ، وتعاقب المراحل فى تسلسل منطقى وموضوعى سليم إن لم يؤد بصاحب اللعبة إلى النجاح ، فهو مؤد ، لا محالة إلى اقتناع الناس بجدارته بالنجاح ، ثم بحتمية وصوله ، مع الأيام، إلى النجاح ..

مناورة بارعة ، بغير مراء ..

بارعة فى حساب « الوصولية » التى تستبيح ما لا يستباح ..

وبارعة فى اعتبار « السياسة » بمفهوم أحدث اصطلاح ..

أو هى بارعة بمفهوم « المكيافيلية » التى وضع معاوية أسسها ، وأرسى قواعدها ، قبل أن يخرج إلى الوجود ، بعدة قرون ، أبوها « غير الشرعى » الذى تنسب إليه الآن ! ..

ولا غلواء ..

فها هو صاحب الشام ينتهج إلى غرضه أى سبيل وإن أهدر فيه كرامة الإنسان والإنسانية ، وامتهن مبادىء الأخلاق ، وتنكر لكل شريف من تقاليد الحرب والسلام ..

يرسل جنوده لتغير على أطراف غريمه فتحصد الأرواح ، وتنشر الخراب ، وتنهب المال ، وتنتهك الحرمات ، فلا يكون قصاراها إلا ترويع الآمنة الأبرياء ، وقتل العزل من السلاح بغير ضرورة قتالية ، ودون إعلان حرب على خلاف ما جرت به شرائع القتال المرعية فى ذلك الأوان .

ويستميل إلى جانبه رجالا من علية القوم من أعوان على ، أو من معتزلة الخلاف المشبوب بين حزبه وحزب العراق فإذا هو — حين يستميلهم — إنما ينصر المثالب على المناقب ، ويسود النقائص على المكارم ، لأنه لا يبلغ أربه إلا فى عبيد المآرب ، ولا يبلغه فيهم إلا من خلال أوضع الخلال ، وبإحياء العصبية ، وإنعاش الغرائز ، وإضراء الشهوات .

ويكيد لمن يناهضونه ولا يتبعون سبيله من قادة الرأى وذوى النفوذ فى الأمة الإسلامية ، فلا يتحرج ، وهو يبرم كيده ، عن « ابتداع » الأخبار ، وقلب الحقائق ، وتزييف الوقائع ، ونشر الشبهات والأكاذيب .

حلقات من الأساليب وحلقات ، تواترت فى سلسلة طويلة من أفاعيل معاوية عام الصراع الأخير ، ما نراه كان يرمى بها ، حين أطلق أجناده ، أن يغزو أرضا ليملك ، ويحارب جندا لينتصر . وحين ألقى دعاواه ، أن يدحض باطلا بحق ، ويمحو خطأ بصواب ، ليقنع اللائذين بغير ظلاله باستقامة نهجه ، وشرف مقصده ، وعدالة مسعاه ..

كلا ..

بل هو قد فعل ليحمل الناس ، شاهدهم وغائبهم ، دانيهم ونائيهم ، على الاقتناع بأن أبى سفيان وابن أبى طالب سيان . ندان فى ميدان ..

ثم فعل ليبدو فى العيون والخواطر البطل الجلد والخصم العنيد، الأصبر من غريمه على موالاة النضال، الأثبت فى مواقع القتال ..

ثم فعل ليعلم من لم يعلم أنه الأخلق بالنصرة، الأحق بالتأييد، لأنه قبلة كل قاصد، وملاذ كل لاجئ، ورجاء كل راج، يأمن فى رحابه الخائف، ويعز المستعين، ويفخر النصير والمعين ..

ثم فعل ليروه أولى سائس فى الدولة المريضة بسياسة الأمور، وأقدر ربان على قيادة السفينة إلى شاطىء الأمان ..

ثم فعل، أخيرا، فعل المتفضل، الذى لا يبخل بالجور على صالحه الخاص فينزل عن بعض ما يملك لمن لا يملك، ويسخو ببعض حقه المضمون على خصمه المضيع من أجل حقن الدماء، وإشاعة السلام ..

تلك مراحل من المكر الخبيث، سلكها معاوية فى خيط واحد فى أخريات عهد الإمام. أعدها بمهارة، ونظمها بحذق، ومارسها باقتدار. لبسها التمويه لتجوز على الناس، فإذا هى تجوز آنذاك لأنها جاءت فى أوان طغيان المظاهر على القيم، وطوفان الزخارف على اللباب، وغلبة المادة على الروح. وإذا هى تجوز إلى الآن على كل من يتخطف المعالم ولا يتعمق الأغوار، ويبهره بريق القشرة فلا يجاوزها إلى ما تغشى من الحقائق الخفية المستترة من الخدع والأكاذيب بألف ستار وستار.

ونجح الداهية المخادع حيث كان ينبغى له أن يخيب إذا ما عويرت وسائله بعيار الحق والفضيلة. وفشل غريمه الأمين حيث كان ينبغى أن ينجح لولا نكسة القيم وتهافت الأخلاق.

٣

كانت غارات الشام — مع تردد العراق عن مقابلتها بالرد الرادع — أكثف أقنعة البطولة الأموية التي تقنع بها معاوية محياه لتخفي عن الناس بعض ملامحه الحقيقية المهزوزة ، وتبرز لهم منه الصورة الأسطورية البراقة التي عمل طويلا على تلوينها لتلفت إليه الأنظار ! .. كانت أقوى وسائله لاجتذاب الإعجاب .. كانت أبلغ حججه ، وأدمغ براهينه لنشر الإقناع ..

ونجحت الحيلة فيما أراده لها صاحب الحيلة بأيسر الجهود ، وأبخس الأثمان .

فقد لعبت تلك الغارات الوحشية دورها المرجو ببراعة ، كاملا متعدد الشعب والأفانين ، متقنا مضمون النتائج والغايات .

فهي سيف إرهاب .

وهي مـــورد مال .

وهي عنوان بأس .

وهي مطية اشتهار .

وهي ، بهذا وأمثاله من ميزاتها وخصائصها، مجلبة رعية ، ومصيدة أنصار ! ..

ولا غرابة . لأن العرق النافر ، والعضلة المشدودة ، والصيحة المدوية ، وغيرها من معالم العنف والبطش والتجبر ، خليق بها أن تبدو للعواطف البشرية الغريرة كأنها دلالات تفوق وقوة ، أسرع إلى إثارة عجب الأنفس وإعجابها ، وأقدر على استمالتها وكسبها من سماحة الحق التي تتحدث ، عادة ، إلى العقول بالجرس الهادئ الذي لا يعرف الضجيج ، وبالنطق الرصين الذي لا يعرف التهويل ..

فتلك طبيعة الطبول ! .

ومع أن معاوية قد استطاع بهذه الغارات أن يلبس غير ثوبه ، ويجاوز مداه في الاقتدار .. وأن يرتاد الأرض « العلوية » من الشمال للجنوب ، يطأ منها ويقتحم ماشاء متى شاء .. وأن يغصب أهلها العزل الأمن والراحـــة والمال ثم يتخذ بعضهم رعية موالين بعد أن يحملهم الرعب الزاحف ، في ركاب قواته المغيرة على هجرة الوطن والأهل لياذاباقليمه الذى لم تحاول قط أن تنوشه جنود العراق ، وفرارا من بطشه الضارى إليه ! .. مع هذا كله فقد ظل الرجل المستأسد وفى نفسه من الإمام شيء لم يشفه منه تلاحق ضرباته ، وشدة سطواته ، وما حققت له غاراته الإرهابية المدمرة فى حومة الـكر من « نصر » وفى أعين الجماهير من تقدير ..

فيما تخال ، كان يحرج كبرياء ابن أبى سفيان — وهو يجهد جهده ليبدو الند الـكفء للإمام — أن يحس بافتقاره إلى مثل حنـكة غريمه الحربية فى مجال قيادة الجيوش بساحات القتال ، وإلى مثل شجاعته البطولية التى بزت كل ما عرف من شجاعة الأبطال عبر التاريخ ، فى الغابر وفى الحال .. فلعله تمنى بكل قلبه لو أنه ماثل عليا فى هذا الميدان ، وعادله بنفس الميزان ، فإذا هو لا يبلغ بأمنيته هذه غير حلم حالم ، ووهم محموم ! .. ولعله طمع أن يقع لنفسه — ولو فى أحاديث خلصائه — على كلمة تنم عن تمرسه بالحرب ، وقوة جأشه عند اللقاء ، فإذا هو لا يقع بطموحه ذاك ، على حرف واحد من حروف الـكلمة المرتجاة يقرنونه بسيرته وإنهم فى سيرة غريمه ، فى هذا المضمار ، لينشئون الطوال وينظمون القصار ! ..

إلى القدرة القيادية فى حومة الوغى ، وإلى ثبات الجنان عند الالتحام ، كان الرجل يفتقر بعض افتقار أو عساه كان يفتقر أشد افتقار ! .. وبحصيلته المقدورة من كليهما كان عليه محالا من المحال أن يطاول الإمام .. فما خاض على بن أبى طالب معركة قط ، منذ صباه ، إلا شق لنفسه طريقا فى أعدائه بسن حسامه ، ومشى إلى النصر على جماجم خصومه . ولا صاول قط ، فى موقع نزال ، فارساً له فى سجل الفروسية مآثر ، إلا صرعه وجرعه حتفه ..

بهذا وهذا تحدث عنـــه إلى عالم البطولة منطق الوقائع كما تحدث إقرار الأشخاص .. وإذا كان عاهل الشام قد نجا بجلده فى صفين ، فبغير شجاعته وبغير حنكته الحربية كانت حينذاك نجاته ، وإنما بالجبن ثم بخدعة التحكيم . وإذا كان قد طالما نعم فى ذلك الأوان بثناء الأعوان والبطانة ، فقد كان يعلم أنه الثناء الذى لا يستطيع أن ينفض عنه إحساسه بالمهانة ، لأنه فى الحقيقة ثناء منافق ما له من سبيل إلى الحظوة لديه إلا أن يقرنه بغريه إن لم يقدمه عليه . أو هو ، فى أقل القليل ، ثناء رفيق رقيق شاء ، بزخرف الحديث ، أن يهون عليه وطأة ذلك الشعور بالقصور ..

حتى بعد أن آلت الخلافة إليه ظلت معرة تخلفه عن الإمام فى مجال الطعان تلاحقه وتطل عليه ! . . طاردته فى كل سكنة خلا فيها إلى نفسه مع الذكريات . وطالعته من كل لمحة من لمحات ذلك الماضى جرت بمجلسه على لسان . وخايلته مع كل كلمة أطلقها عليه خصم ثائر فى ساعة غضب ، أو حليف ساخر فى مقام تندر .. وما نطن أذنيه إلا بقيتا ، إلى آخر لحظة من لحظات حياته، وهما مليئتان بعبارة صدق مريرة خاشنه بها — فى معرض حوار — وليه ورفيق حيله عمرو ابن العاص وإنه لأقدر امرئ على ابتداع الرياء لو شاء ، وأخلق خاصته بإسماعه أعذب الثناء ..

. . . فلقد طاب لمعاوية يومئذ أن يداعب صاحبه ، إبان خلوة ، فقال له :

« يا أبا عبد الله .. لا أراك إلا ويغلبنى الضحك » .

فسأله :

« بماذا ؟ »

« أذكر يوم حمل عليك أبو تراب فى صفين ، فأزريت نفسك فرقا من شبا سنانه ، وكشفت سوأتك له . »

وعلى الأثر عاجله عمرو :

« أنا منك أشد ضحكا . إنى لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحرك ، وربا لسانك فى فمك ، وغصصت بريقك ، وارتعدت فرائصك ، وبدا منك ما أكره ذكره لك » .

فتنصل الماهل :

« لم يكن هذا كله ... وكيف يكون ودونى عك والأشعريون ؟ . . »

غير أن ابن العاص كان أعرف بزيف هذه التعلة ، فأجاب :

« إنك لتعلم أن الذى وصفت دون ما أصابك ! . لقد نزل بك ودونك عك والأشعريون ، فكيف كانت حالك لو جمعكما موضع الحرب ! . . »

فبهت معاوية . ما كان أغناه عن هذه المداعبة التى وضعته حيث يكره ، وأثابته سخرية رفيقه ، وذكرته مالم يكن يحسب أن يذكر بعد أن لفت الحادثة المهينة فى غلاف كثيف من مداهنة أعوانه وكادت تتوارى خلف ستر النسيان .

لكنه ما لبث أن استرد جأشه . .

فما هو بالذى يصيبه الحسر وله من ذخر لباقته ما ينجيه !. على الفور استعان مقدرته على المداورة ليدارى خزيه ، فاستضحك كمن لايبالى . وأقبل بكل وجهه على محاوره ، ثابت النظرة ، يقول فى هدوء :

« يا أبا عبد الله ! . إن الجبن والفرار من على لا عار فيهما على أحد . . »

وحسم الحوار بهذا الإقرار ! . .

أبدا لم ينس معاوية ، عمره كله ، خفة وزنه فى كفة الشجاعة ، ولا ضآلة قدره فى قيادة الجيوش ، كلما رأى أن يقيس نفسه بالإمام ، بل يظل الإمام ! . . هو لاينكر ، وإن ود الإنكار . ثم يقر وإن كره الإقرار .. ولاضير عليه من هذا النقص ، ولا عار كما قال ، ماظل نقصه سرا بينه وبين نفسه يجتره فى خفاء لا يهدر خيلاءه ، ولا يجرح كبرياءه . . لكن الضير كل الضير ، والعار كل العار أن تلوك مهانته الذكريات ، أو تتندر بها الشفاه بينما القزم المستقر فى إهابه يحاول

جاهدا أن يمط رقبته ، ويشب على أظافر قدميه ، ليشمخ بأنفه مفاخرا وكأنما أوهم الناس أن رأسه ارتفع حقا إلى ما فوق مستوى رأس العملاق ! فأما وقد لوت غاراته إليه الأعناق ، وبهرت الأعين ، وشغلت الخواطر ، فلير الجماهير إذن — رأى واقع — أن النصر الذى حازه له مغيروه فى مخاليف اليمن ، وبلاد الحجاز ، وعلى مشارف العراق ، إنما كان من تدبيره ، وصنع يديه ؛ وليس لقادة الغارات من أصحابه فيه دور مذكور غير دور الأدوات !.. وأن الحنكة الحربية التى مارسوها بتلك المواقع المشهودة ، وعلى ذلك النحو من النجاح المؤزر إن هى إلا من وحى فكره ، ونتاج كفايته . . وأنه يستطيع ، لو شاء ، متى شاء ، أن يقتحم على عدوه عرينه ويفعل تحت سمعه وبصره ما بدا له أن يفعل ، وهو مدرك لما يفعل ، عامد إليه ، قادر عليه .

بهذا أراد أن يبدو للناس عسى أن يرفع فى اعتبارهم قدره . عسى أن يطمس معرته . عسى أن يمحو من أخلادهم ما قر فيها طويلا طويلا من افتقاره إلى مثل شجاعة ابن أبى طالب ، ومثل تمرسه بالحرب ، ومثل اقتداره على القيادة . . فما أن فرغ بعض قادته من بعض غاراتهم على أطراف على ، وثبت له تقاعد عدوهم عن مبادرتهم بالردع ، حتى عقد عزمه على السير بنفسه إلى مواطن غزوه سير محارب جلد ، وقائد مغوار ، يتحدى الأخطار ! . .

وفعل .

فقبيل ختام السنة التاسعة والثلاثين للهجرة بقليل — ومد الغارات الأموية العدوانية قد سرح على السهول والوديان ، وارتفع إلى الحزون والبقاع . وسيرة الهول الذى نثرته فى المواقع المضروبة قد ذاعت فى كل مكان من المناطق «العلوية» تنشر الهلع ، وتعصر الأفئدة ، وتحرق المدامع ، وتخرق المسامع — خرج العاهل الأموى من قاعدة حكمه دمشق على رأس حملة عسكرية كبيرة ، ذات كثرة وأيد من النفر والسلاح ، يؤم بها التخوم الدانية إليه من بلاد العراق .

وتلفت الأمس يتابع رحلة الثأر للكرامة ، وغضبة معاوية لكبريائه

المجروحة ! . . إن الرجل ليطير الآن بجناحى باشق يتهيأ للانقضاض . . ملء قلبه ثقة واثق . وبيمينه بأس جبار . في الجو حوله رائحة الحرب . الأرض تحته تهتز باعتزازه . هو كالمعصم وجنده السوار . والنقع الثائر من خطا الأقدام وحركة الحوافر يؤلف غمامة كثيفة من الضباب تكاد تخفى عن العيون معرة جبنه يوم صفين . .

وصعد بجيشه إلى الشمال حتى بلغ أعالى الفرات . ثم يامن به نحو الشرق حتى وصل إلى مجرى دجلة . . فلما أن بلغ برزخ الأرض بين البحرين ، انحدر قليلا إلى الجنوب ، وحط رحاله وأجناده قرب الموصل على الماء . .

فكأنه كان يشرف من قمة عالية على الماضى والحاضر . .

على مسافة غير بعيدة من معسكره ، كانت مدينة « نينوى » حاضرة آشور ، تزهى بمجدها الخالد الذى كانت تضرب به يومئذ فى قاع التاريخ إلى عمق ألفى عام ، وظلت تخايل ، بعنفه وجبروته ، عالم ذلك الزمان عدة قرون . . ومن خلال الجبال ، تحت ظلال شواهق الشجر ، كان دجلة ينساب فى واديه إلى مصبه البعيد فى الخليج ، تتوالى معالم الأحداث على ضفتيه . فها هنا يلامس القادسية التى شهدت سقوط فارس بحسن بلاء ابن أبى وقاص وصدق جهاده لنشر الإسلام. وفى انحداره منها يعرج على النهروان ليعيد للذاكرات مصارع الخارجة على يد الإمام . . ومن بعدها المدائن التى هم سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى أن يجتاحها بغارته لولا أن ثبت لآلافه الستة حسان البكرى فى ثلاثين من رجاله استشهدوا معه فى الأنبار . .

مراحل من التاريخ تصل بين أمس واليوم ثم تنطلق مع رحلة النهر الجارى كأنما إلى غد مقبل سوف تنجاب عنه الغيوب . . ومعالم من البطولات تطل من الغابر السحيق والقريب على دجلة وهى يانعة نضرة ، وإن تعاقب عليها زحام الأعوام واستطالت عهود الآماد ، كأنما النهر الدافق كان يرويها بمائه لتبقى دائما حية فى الخواطر ، تذكرة للغافل ، وعبرة للذاكر . .

فإن يكن ابن أبي سفيان قد استبد في باله ، بمستقره هذا وهو مشرف على مدينة الموصل ، بعض صور البطولات الماثلة لخياله من وراء الضفاف ، فذاك أحرى إن كان مثله منهوما بالبطولة ، مشغوفا بالمجد ، نزاعا إلى العلياء . . وإن يكن ، حين إشرافه ، قد أعاش نفسه في إطار إحدى هذه الصور البراقة كما تعيش شرنقة الدودة في غلافها الحرير ، فذاك أدنى إلى اتجاه أحاسيسه ، أولى بحالته النفسية الجديرة بأن تنشط خياله ، وتلهب آماله . .

وماله لا يفعل وقد تقضت عليه بضعة أيام ، ندية كريح الشمال ، رخية كهداة الجبل ، فوق الأرض « الملوية » عند تلك المدينة وهو على طمأنينة كأنه ببعض أعماله ؟ . . لقد أقبل شوطه الطويل من دمشق إلى مكانه هذا فيما بين النهرين عبر الجزيرة ، وما تصدى له في انطلاقه مناجز . . وأقام هناك ما أقام ، في غير موطنه ، متحديا عدوه ، فلم يغب به المقام ، ولم يهتز بنان — دع السنان ! — في وجه تحديه . . ثم ارتأى أن يطوى الرحلة ويعود بالحلة ، فإذا هو آمن في الغربة ، آمن في الأوبة كأمنه في الخروج ، لم يعكر عليه إقامته معكر ، ولا اعترض رجوعه معترض ، ولا لاحق خطواته الوئيدة الواثقة مغير . . أفلا يحق له الآن بعد هذا أن يفخر ، ويفخر بفخره مريدوه ؟ . .

بلى ! . .

أم ليس في الناس ، هنا وهناك في العراق والشام ، من تسامع من بعد بهذه المغامرة البطولية فأكبر في العاهل اجتراءه إن لم يكن قد قرنه — في الشجاعة — بشريعه ، وقومه كتقويعه ؟ . . أم لم تكن عاقبة حملته له ، نوعا من نصر وقدرا من ذكر ، يعمران ما سلف من هوانه ، ويرجحان بميزانه ؟ . .

بلى ولا جدال ! . .

وكيف لا وإنها حقا لمعركة ، كتب له فيها الظفر ، وإن يكن خاضها بلا سلاح ، وكسبها بغير قتال ؟ . .

فقد اقتحم فيها على غريمه حدوده . مشى الخيلاء فوق سلطانه . أوطأ خيله عرينه . عسكر فى حرمه . بث بأرضه طلائعه . حرك فرقه وسراياه . وقف فى الأهبة والدربة يتحدى اللقاء ، وهو ثابت القدم ، جلد الفؤاد ، مرفوع الرأس ، فإذا الصباح ينسخ الليل ، وإذا الليل يغشى الصباح ، يوما وراء يوم ، ولا شىء يأتيه من جانب العراق بما ينم عن انتفاضة الليث الجريح ، القابع فى السكوفة ، ثائرا لحرمه المستباح !

٤

أوشك معاوية أن يبلغ ثأره . .

بعد قرابة ثلاث سنوات ، غائمة مضطربة ، لاح للناس واضح المعالم . بدا في هيئة منتصر . لعل الوصل الصامتة غيرت صورته . أبرأت جراحه . ردت عليه كبرياءه التي ضيعها « هلمه » فوق أرض صفين . .

وحق لهم . .

في اعتبارهم يسعه الآن أن يشد قامته . أن ينصب عوده . أن يتلع جيده . أن يضع أنفه على قمة رأسه ! . .

وحق له . .

فطائفة منهم غير قليلة ، بدا لعيونها وقد قارب غرضه . طائفة أخرى عادلته به . وطائفة غيرها رفعته عليه .. ولا خلاف ، في هذه النظرات المتراوحة ، بين قومه وقوم خصمه ، أعدائه وأوليائه ، لأن الوثبة الأخيرة العالية ، التي وثبها من بضعة أيام ، بهرت أعين الأمة جميعا ، على تباعد المسافات ، وسرقتها ، وحولتها إليه ! .

بين الرجلين المتصارعين راح يتأرجح رأى الجمهور . مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك . مرة هنا ومرة هناك . . تدانى التقدير بعد تفاوت . . استوى الميزان بعد انحراف . تساكنا وإن يكن هو ، دون الإمام ، قد اجتذب الخواطر إعجابا به أو عجبا منه ، ترنو إليه مستطلعة . تتسقط أخباره . تتلقف همساته . تترقب حركاته وسكناته ، كأنما تتوقع أن يفاجئها ، بين لحظة ولحظة ، بجديد . .

بل الأمل فيه ، إلى جوار هذا ، قد ربا في الشام . والتوجس منه قد زاد في العراق . والأحداث المجهولة المتوارية خلف الأفق واقفة على أهبة ، تنتظر الخطوة التالية التي عساه أن يخطوها ، لتلحق بذيله ، وتسير وراءه إلى حيثما يعتزم أن يسير . .

ولا غرابة . . فالعمل المثمر الفعال ملء جعبته ، والقول الحاسم الفصل على طرف لسانه ، والمبادرة بكليهما أو بأحدهما ، بين أصابعه كمثل خيط يتلعب به ، لو شاء شده أو شاء أرخاه ! . .

تغير الموقف . .

تبدل ظاهره ، فبدأت صفحته الرتيبة تضطرب . وتبدل باطنه ، فبدأت القدر تفور ! . .

ولم تكن الغارات الضارية وحدها هي التي غيرته . فإن هي إلا كالمد يعتور البحر ساعة أو بعضها ثم ينحسر فإذا هو يكاد لا يترك شيئا وراءه إلا الجفاء . . ولكن الموصل ، في الأغلب ، هي التي قلبت المعايير ، أو كانت نذيرا بالانقلاب . . فهذه « المعركة » الخرساء التي لم ينطق بساحتها سيف ، ولا فتح جرح فاه ، لوت بيدها الماهرة الدربة أفكار الناس ، وقهرت الزمن على أن ينحرف بركبه عن مساره الطبيعي ليرتاد حلقة أخرى من مراحل الكفاح . .

فبانتهاء موقعة صفين ، انطوت صحيفة « المواجهة الحربية » بين الفريقين ، لتفتح بعدها في سجل الصراع العلوي الماوي صحيفة أخرى من الركود المتحفز ، أو « السلم المسلح » الذي كانت تفصح أحيانا عن عنفه بضعة انتفاضات قتالية تمثلت في غارات هدفها ، فيما يلوح ، إسدال ستر كثيف يدارى هزيمة الجيش الأموى في تلك الوقعة ، والإعلان في صخب وتوار عن القدرة القتالية للشام . . فالأسلحة ، خلال هذه الفترة الراكدة من الصراع لم تصمت الصمت كله في كلا الجانبين بعد أن جمدت حركتها الناشطة خدعة المصاحف . لم تقر في القرب لتصدأ وتنام ولم تدفنها الأغماد . وهدنة التحكيم المفروضة على الفريقين لم تقف الحرب ، ولم تجيء بالسلام . . ومع ذلك فالحرب القائمة إذ ذاك — إن سميت حربا — لم تكن تزيد عن تراشق من بعيد ، أو معارك جانبية لم يتح فيها التقاء الخصيم بالخصوم لقاء الالتحام الذى من شأنه أن يمحص القوى ، ويحسم الموقف ، وينهى النزاع . .

أما « معركة » الموصل فهى ثالثة المراحل وختام الرواية، لأنها تمثل الخروج بالصراع المشبوب من ساحة الحرب المادية أو التقليدية إلى ساحة الحرب المعنوية أو النفسية بتعبيرنا الحديث . ولا يعنى القول أن هذا النوع من النضال لم يألفهمن قبل ولم يمارسه الفريقان ، لأنه فى حقيقة الأمر يلازم عادة صراع السلاح ، ويسبقه ، وينفرد دونه كثيرا فى الميدان . ولكنه يعنى أنه فى هذه الفترة الثالثة لم يكن تبعا للحرب العسكرية وعونا لها ، بل كان ذا اليد الطولى الذى تسنم ذروة الصراع وترك لغيره من ألوان المناجزة أن يرسب فى القاع ! . .

ولقد يوشك امرؤ أن يرى فى السير إلى الموصل بادرة جرأة يثاب عليها معاوية مثوبة تقدير حين يحسب هذا السير فى عداد المغامرات . . فالمغامرة تنبئ عن اعتداد المغامر بنفسه وصلابة شكيمته . . وتصدى صاحبها للإقدام على القيام بها يعبر عن اجترائه على ما يكاد يعتبر من قبيل الخوارق . . واقتحامه طريقها الشائك يعلن عن جسارة تستهين بالخطر الماثل أو المتوقع ولا تبالى من النتائج إلا أن يثبت بها ذووه عن كرامته سيان عنده نجح فبلغ غاية شوطها أو قتل ببعض مراحلها مادام رافع الرأس ، ثابت القدم ، شاكى السلاح . . يوشك الرأى هكذا أن ينحل عاهل بنى أمية خير صفات المغامر العنيد الذى يثور لشرفه، ويناضل لتأكيد كبريائه لولا أن طبيعة مجازفة الموصل، وموقتها، وعمرها، وما يحيط بها من ظروف تنأى جميعا بالرجل عن هذه الصفات ، وتخرج بإقدامه عليها ، وممارسته إياها ، من حدود النية المعقودة على العمل الجسور ، إلى حيز العزم المبيت على التمويه الخداع ! . .

شواهد الحال تفصح بغير مواربة عن هذه الحقيقة التى لا سبيل إلى إنكارها لمتأمل يتعمق واقعها المعلوم . . فالعاهل المدل إبانها باقتداره ، المستعلى بعدها بفخاره ، كان راسخ اليقين — يوم تحرك بحملته صوب الموصل — أنه آمن أى خطر كل الأمن حين السير ، وحين المكث ، وحين الرجوع على السواء ، ما شاب يقينه عندئذ ظل من شك ، ولا طارت به أسرع مخاوفه وأعصى ظنونه إلى توقع التمام . .

كان لا ريب واثقا أن خروجه إلى البلدة الموغلة فى الشمال ، أبعد عن علم أعدائه ، بل تصورهم ، لأنه خروج بغتة مغلف بالتكتم ، مستتر بالإخفاء ، تراد به مفاجأتهم وأخذهم على غرة كغرض سواه من الغارات التى كان يفرقها هنا وهناك لترهب العراق ..

كان أيضا على بينة أن غريمه فى شاغل عنه ، وعن ضرباته السريعة الفرارة ، بعصيان أصحابه فى الكوفة له ، وتقاعدهم عنه .. فلا وجه إذن للخشية أن يبادر على إلى الخروج لملاقاة الحملة وإن مشت أنباء بهذه المبادرة لأنها عندئذ الأنباء الخليقة بألا تبلغ سمع المغير إلا وقد فرغ فعلا من رحلته ، وعاد موفورا إلى الشام ..

كان موقنا ، كذلك ، ألا معدى للإمام — لو افترض أن رجاله أطاعوه ، واعتزم الرد بحملة مضادة — عن تعبئة جيش لجب ، لا يستغرق جمعه وتسليحه وتنظيمه يوما أو بضعة أيام ، بل مدة طويلة ، تفوق أضعاف الوقت الذى تقضيه الحملة الأموية من ساعة مخرجها إلى لحظة عودتها إلى قواعدها بأمان ..

وإذا اقترن هذا كله بطول المسافة الممتدة من الكوفة إلى الموصل طولا يبلغ مئات الفراسخ ، وبالمدة التى لا تقل عن بضعة أسابيع ، ويمكن لجيش الدفاع — الذى قد يظن زحفه من الجنوب — أن يصل فيها إلى مكان الاشتباك المنتظر بالشمال البعيد ، وبعشقة اجتياز عقبات كئود تفرضها على ذلك الجيش طبيعة أرض تتراوح تضاريسها بين لين الوديان ، وقفر الصحراء ، ووعورة الجبال والهضاب ، ومواقع المجارى النهرية المعوقة للسير . . إذا اجتمعت هذه العوامل معا أمام الخواطر ، بدا لا جدال للمتأمل الذى يتعمق الأمور أن احتمال التقاء الغريمين ، فى تلك الفترة بميدان وغى يصطرع فيه جيشان ، إنما كان ضربا من الخيال والمحال ، وأن معاوية حين خرج من دمشق برجاله فى السلاح والعدة ، إنما كان واضحا فى باله أن حملته رحلة تمويه لا حملة حرب ، وأن جنوده الذين قادهم لوجهته رفاق نزهة لا رفاق قتال ! ..

كلا لم يعن معاوية قط أن يستدرج غريمه إلى معركة بالموصل يعيدها إلى الحياة

مرحلة المواجهة الحربية التى ختمتها صفين وأسدلت عليها الستار . . ولكنه كان يعى ، عن حساب وتدبر ، أن ينشط الحرب النفسية ، ويبلغ بحدتها وعنفها مالم تكن بلغته من قبل فى ذرا التمويه ، إيهاما لعامة الأمة ، ولكل من تبهرهم القشور والمظاهر ، ويجتذبهم قرع الطبول ، أنه الند العنيد الذى يبز خصمه فى مجال القوة العسكرية ، والكفء القادر الذى يستطيع ، دونه ، فى مجال البراعة السياسية ، أن يبادىء ويبادر ، ويسعه التحكم فى الأحداث وتصريفها على النحو الذى يرضيه ولا يباريه إنسان فيه . .

ويفصح لنا تاريخ الحقبة الماثلة عن نشطة هذا التمويه المعاوى وقدراته ، بأكثر من أسلوب من أساليب البيان والتعبير . .

فالتلويح بالتفوق العسكرى ، فى صورة هجمات مفاجئة ومتعاقبة ، مع تباعد مواقع الهجوم — كالغارات الإرهابية — توحى بالاجتراء على سلطة الدولة ، وفى صورة غزو شامل يحتل المناطق ويقتحم الحدود ولو إلى حين — كالزحف على الموصل — يوحى بتحدى هذه السلطة : وكلاهما تعبير عن الإدلال بقوة الغازى أو المغير ، كفيل بأن يحمل الناس على الاعتقاد بعجز الحاكم « الشرعى » عن حماية الرعية كعجزه عن حماية الحدود ، ويضعه فى تقديرهم غير حقيق بالطاعة التى بايعوه عليها ، وبالمنصب الذى وضعوه فيه . .

وإظهار انفضاض نفر من عمال الحاكم على الأقاليم عنه ، أو طائفة من صفوة خاصته ، اعتزالا له أو انحيازا إلى خصمه ، تعبير يشعر الجماهير بتقلص ظل نفوذه ، ووشك تهاويه ، وإشراف سفينة خلافته على الغرق إذ بدأت تهجرها الفيران ! .

والعدوان على مظاهر السلطة التي ينفرد بها رئيس الدولة من دون رعيته وعماله وولاته ، وعلى الحقوق والقرارات المكفولة لوظيفته الرسمية ، ابتزازا لبعضها ، ومقاسمة له فى بعضها الآخر ، فيه اجتراء على على هيبته كصاحب الرأى والأمر فى الدولة ، لا يغض فقط من شأنه ، ولا ينال من إحساس الناس بالولاء له ، بل هو يشير ، بأهون تقدير ، إلى انشطار الحكم بين أميرين :

أحدهما يسنده حقه التقليدى ، والثانى يسنده جبروته العدوانى ، ثم يوشك هذا أن يميل بالظنون إلى ترجيح دحرة السلطة الشرعية المتبوع الفاضل أمام الصولة الطاغية للتابع المفضول ..

هذه العوامل هى التي شكل منها معاوية حملة التمويه ، وتقدم بها إلى ساحة الصراع ليغرر بالشعب الإسلامى ، ويدفعه أو يدفع سواده الأعظم إلى الإيمان باقتداره على الأمر دون غيره . . وإذا كان الناس خدعوا آنذاك بهذه التمثيلية ، وجازت عليهم حيلها التمويهية الزائفة فأخذوها مأخذ الجد وأدخلوها فى حساب الحقائق ، فمن العجب أن تظل إلى الآن مسيطرة على أذهان من باعد الزمن بينها وبينهم بالقرون العديدة وكان أجدر بهم أن يتحرروا من قوتها الاستهوائية ، بعد أن تبددت ريح « جوها » الخاتل ، وأفسح لهم فى تناول مظاهرها وخفاياها بالتمحيص والروية ..

٥

الصورة التاريخية الشائعة عن طبيعة الفترة القصيرة التى اختتمت خلافة الإمام بها خطوط عديدة من الأضواء والظلال ، تبهم المعالم ، وتشوش الحدود ، فتعجم التعبير عن الحقيقة لأنها تخلط رصانة الصدق برعونة الخيال !.. بعض هذه الخطوط ثقيل كثيف ، وبعضها الآخر خفيف شفيف . وبين هذه وتلك يوشك النظر أن تبهره آنا سطعة التألق فتعشيه ويوشك آونة أن يرده تراكم العتمة حسيرا لايرى ما حياله . والرسوم والألوان تهتز على الأثر وتختلط حتى لتضل الأعين فى تبين العلائم المميزة لسمات الوقائع والمفصحة عن ملامح الأشخاص .

هكذا خفى من حقيقة الأصل ، الذى تنقله لنا الصورة الشائعة ، الكثير والكثير..
ولا مبالغة قط فى تصورنا لهذا التقدير . .

فلقد أسرفت ، فيما نخال ، طائفة كبيرة من قدامى المؤرخين ، فى اعتمادها على ما تضمنته حملة التمويه الغاوية من وقائع مكذوبة ومدسوسة كحقائق تاريخية لا تعتورها الشكوك ، كما جازت على معظم جماهير تلك الأيام كدلالة وحيدة مؤكدة على اقتدار صاحب الشام اقتدار تفوق على غريمه ، وكمدخل طبيعى ممهد يجتازه غير منافس إلى نصر حاسم مضمون يفضى به ، بلا محالة ودون عوائق ، إلى أريكة السلطان .

ثم أسرفت ، من بعد ، طائفة غيرها من محدثى كتاب السير والتراجم فى انقيادها — عن متابعة أو عن اقتناع — لهذا الرأى التاريخى القديم الانقياد الذى لا يؤيده إلا رونق السطوح والظهور ، وخلابة الطلاءات والقشور ! .

ولا ضير قط على أولئك وهؤلاء — فيما ارتأوا — ماغمت عليهم الحقائق ، وخفيت عنهم الجذور بسبب كثافة الظلال أو بهرة النور ..

ولا ضير ثانية إذا ما أعوزتهم وسائل الكشف والتحرى ، وشق عليهم الغوص فى مجاهيل الأنفس ، وتعرف دوافع السلوك ..

ولا ضير أيضا إذا لم تشرد بهم نظرتهم هذه فتجور على أقدار صفوة مختارة من أنقياء الضمائر ، ورواد الحق ، منكرة نقاوتهم ، ملوثة سمعتهم ، خائضة فى سيرهم بما يقدح فيهم وإن خالف القدح كل واضح ومشهور من أخلاقهم وسلائقهم ، وعارض كل غالب ومشهور عنهم من وقائع التاريخ .

كل هذا مقبول مغفور إلا أن يجور على اتساق التفكير . فأما والمنطق يجافيه ، والروية لا تحجب الرؤية ، وطبائع الصفوة المفترى عليهم معلومة لا يكاد ينكرها إنسان ، وسوابق سلوكهم منشورة تحت تأمل العيون والأذهان ، فإن جهدا يبذل فى استقراء الشيم والسجايا ، ومعايرة الحاضر بميزان الماضى ، وفحص المزعوم فى ضوء المعلوم ، لأجدر بأن يوضع فى الحسبان قبل التصدى للقطع فى أمرهم برأى إن يكن ظاهره يعتذر عنهم بألا مناص من رضوخهم لمنطق الواقع القاهر ففحواه توحى للعقول خيانتهم واجبهم المفروض ! ..

كشطحة القدامى من المؤرخين كانت شطحة المحدثين فى تناولهم لهذه الفترة المتأخرة من إمرة الإمام ، سواء فى تقويمهم للحوادث أو تقويمهم للأشخاص .. ومن التأول الذى قد لا يدانى الانصاف ، أن تعزى نظرتهم إلى سوء النية والأولى بها — اتقاء لشبهة التجنى عليهم — أن يقال إنها لم تكن محيطة ، وأن تنسب إلى الخطأ العفوى إن لم يكونوا ، بدورهم ، من ضحايا التضليل ! .. ولا غرابة . فليس من المستطاع فى هذا المقام إغفال قدرة معاوية على إحكام التمويه بتزييف الوقائع ، وتلفيق الأخبار ليلبس الأكاذيب طيالسة الصدق ، ويرسم الحقائق بهيئة أباطيل .

كم هكذا فعل الرجل ، طوال عمره ، وهو غير متحرج أن يظلم ويجور ! .. ثم زاد وأوغل ! .. ثم غالى ، على الأيام ، فى كل هذا الذى جبل عليه من التواء ماكر ، وفاء لنفسه ، وتعبيرا عنهـــا ، وكيدا سيئا للإمام خلال السنة الختامية ، فأناخ بزيفه وزوره على عقول الناس .

ولقد نعرض بعض عرض لكشف مما بدر منه فى هذه الفترة من الفعال والأقوال ، فإذا هو يبلغ بكيده الغاية ، وبالإيهام أبعد مداه . . بين عامة مناصريه لا نكاد نعرف واحداً لم تجز عليه أخاديعه . . وبين جمهرة معاصريه لا نكاد نقع إلا على قلة قابلت بالريبة أساليبه . وبين أساطير مناوئيه لا نكاد نجد امرأً سلم من رشاش احتياله المسموم . ومن وراء أولئك كلهم تقف الأجيال ، وقفة حيرة بين ومضات الحق وشطحات المؤرخين . .

والأمثلة ماثلة .

فحين نتصفح « كتاب » الداهل لا نلبث أن تطالعنا فى هذا « الباب » صفحات يستهل بها نشاطه الخاتل بكبرى أكاذيبه ، وهى تحميل على تبعة قتل عثمان . . ثم تتلو بعدها قصة ختله بعض الناس فى أمر قيس بن سعد بن عبادة حين كان عاملا على مصر للإمام . . ثم يتدرج صعوداً من ختل الجزء إلى ختل الكل ، فيغرر بالأمة جمعاء فى بضع وقائع وبضعة أفراد . ثم يستنهض غرسه بهذه القدرة التمويهية التى تجيد طمس الحقائق فيخدع التاريخ ! . .

حلقات متصلة وثيقة ، ونطاق مشدود محكم من الأساليب المريبة التى تبدأ بالكذبة المراوغة وتنتهى إلى التلفيق المحبوك ! . .

ومع ذلك فليس هذا تجاوزا للإسناد ، ولا تجنيا على الرجل ، بل هو استقراء له منطق ، وإتهام له صريح . .

وإذا سيق الاتهام فلا بد من تحر ، وإذا ألصق الجرم فلا بد من دليل . وسيرة معاوية ، فيما نظن ، حافلة أمامنا بصور شتى من الشبهات التى تؤكدها البراهين . .

ولا نحاول هنا أن نحصى تهمه ، أو نعدد مزالقه ، فنتناول هذا الجانب الخلقى من حياته العامة تناول إحاطة وتفصيل . إنما نرى أن نلم به إلمام تنويه وتمثيل تحاميا للإطالة بغير ضرورة ، واكتفاء عن الإسهاب بالإشارة ، ما دام القليل يغنى عن الكثير . .

على هذا الوجه من تتبع أساليبه يحق أن نقول إن « بصمة » من بصماته يعثر عليها منطبعة فوق صحيفة مزيفة من وقائع التاريخ هى خليقة بأن تثير بعض الشك فى بقية الصحائف إلا أن يقطع بصحتها التمحيص . وأن التقاط صورة لهذه البصمة تضاهى بها لعلنا قد نقع عليه من آثار أصابعه فوق غيرها مما يحتوى سجله ، هو طريقة مأمونة للاستيثاق . وإن انطباق هذه ، من بعد ، على تلك ، كلها أو بعضها ، هو الدليل القاطع الأمين الذى يؤثم ويدين ..

عند هذا وتنقشع الظلمة ، ويسطع النور يهتك الغشاء ويكشف المستور .. يبيد الظن ويبرز اليقين ! ..

وها نحن أولاء ، عودا إلى الوراء ، نفتح من سفر معاوية صحيفة واقعته مع قيس بن سعد بن عبادة ، عملاق الأنصار ، وصاحب مصر من قبل على ، فإذا هى البيان الثبت الذى يأخذ العاهل الأموى بجريرة التلفيق دون سبيل إلى المجادلة أو التأويل ، لأن الواقعة ، بشهادة الإجماع ، وليدة تفكيره ، وبدلالة الموضوع برهان تجريمه ..

.. .. إذ ذاك كان قيس بن عبادة قد استقامت له الأمور فى أرض النيل ، طاعة له كحاكم للإقليم ، وولاء لعلى كرئيس للدولة ، فأصبحت مصر ، بوضعها هذا قوة عسكرية وسياسية ومادية فى ميزان الصراع على السلطان ، تشكل خطرا داهما جديدا على الشام يضاف إلى الخطر الداهم الأصيل الذى يشكله العراق ..

ولا شك فى أن متاخمة الخطرين معا للمنطقة الأموية ، كانت خليقة بأن تقض على معاوية مضجعه ، وتهدد مطامعه ، وتعجله عن سياسة التريث التى لزمها من بدء الثورة على عثمان ، ترقبا لما عسى أن تسفر عنه فتنة البصرة من نتائج كان يأمل أن تكفيه أمر الإمام ..

واستلهم الرجل طبيعته للخلاص مما هو فيه ، فبادر على الفور إلى التلفيق !.

وما له لا يفعل وإنه لأدنى أسلحته إليه ، وأسلسها فى يده ، وأقطعها نصلا فى وقت كانت تسوده المبادىء الدينية والقيم الخلقية على نحو ظاهر وإلى مدى

غير قصير !.. إن نفوذه ها هنا بأرضه لآفل ، وإن أمله ، من بعد ، فى دولة أموية لقطوع . وإن الدائرة لا محالة عليه لو أنه أملى فى الوقت لغريمه بعض إملاء فرغ له ، أو تحركت مصر إليه وتحرك العراق معها فأصبح منهما بين شق رحى تطحن قوته ، وتسحق أحلامه ، وترمى بها وبه جميعهم نفاية وأشلاء إلى الذكريات !..

هب إلى العمل ، فحاول أن يشترى العملاق ..

ثم أذاع فى الناس عنه أنه مسالم له ، لا ينبو به ، ولا يطالعه بعداء ..

ثم دعا جهرة أهل الشام أن يأمنوه ويولوه الاطمئنان ، لأنه له شيعة ، يعينه سرا ، ويحسن له النصيحة ..

ثم زيف كتابا دسه على عيون الإمام ، بالشام والعراق ، مهره بمثل خاتم عامل النيل ، يعلن فيه ، صراحة ، ولاءه لمعاوية ،ويعده النصرة على على ، وتزويده بما يشاء من رجال ومال لقتال قتلة عثمان ..

واقعة معلومة أجمع عليها الرواة ، ولم تكن قط موضع ريبة عند كافة كتاب السير ، قدامام ومحدثيهم ، من كان معاوى الهوى أو علوى التشيع على السواء .. وكتاب مدون مقروء ، سجلته الصحائف فى كل مرجع من المراجع وسند من الأسناد ، لا شبهة فيه .. ووثيقة معتمدة ، عليها « بصمات » معاوية جلية ، تشهد عليه بمجافاته أمانة العرض ، وبترخصه فى المحظورات الخلقية ، وتؤكد اجتراءه على الحق والناس والتاريخ ، وتلصق به جرم التلفيق ..

ولقد نجح العاهل فيما توخاه من التغرير ببعض الأمة ، بعض الوقت ، حين أوقعها على هذا الكتاب المدسوس . وبلغ بكيده حينئذ مالم يكن بالغا بسلاحه ، فتخلص من قيس ، وأفقد أمير المؤمنين أحد جناحيه ! .. ولكنه نجح أيضا ، إن صح هذا التعبير ، فى إبقاء ظلال كثيفة من الشكوك على كل حادث يعلم له دور فيه ، ويحسب الأكثرون أنه واقعة صدق تثبت حقيقة فى غنى عن التمحيص ! ..

الفصل الثامن

١

ليس يستغرب فى هذا العام الأخير من خلافة الإمام ، أن يهب معاوية إلى العمل ، بكل طاقته ، لتغيير تيار التاريخ ، منتهزا الفرصة السانحة التى أتاحها له الاضطراب السياسى المهيمن على أرض على ، والقلق النفسى المستأثر بنفوس رجاله . فما من بيئة أصلح عندئذ للحرث والغرس واقتطاف الثمار ! . . وما من وقت أنسب له من هذه الفترة المشحونة ، من قبل السكوفة ، بالتردد والانتظار ! وإذا كان قد حاول من قبل ، فأحر به أن يبادر الآن إلى الضغط بكل ثقله ، مجردا على غريمه أقوى حملة نفسية فى مقدوره أن ينظمها ويهجم بها ، عساها أن تجيئه بفصل الخطاب ! .

وقد فكر فيما يمر حوله ، وأمعن الفكر ، فإذا الظروف كأنما تناديه . . ثم أرسل النظر إلى بعيد وقريب ، فإذا الأحداث تتلاحق دراكا ، وتتدافع عجلى إلى مسرح الحياة تدافع جمهور مذعور من باب ضيق هو المنفذ الوحيد للنجاة . . ثم أعد ودبر ، فإذا إعداده وتدبيره يتجهان ، هذه المرة ، صوب الشرق ؛ حيث ترامت الحدود بعيدا عن السكوفة ، وما يقاصيها من ولايات وأعمال . .

وأصاب الوجهة فيما يخال ونخال ! . .

فثمة بهذا الشرق الفسيح أطراف شتى ، يراها نأت عن قبضة السلطة المركزية فى حاضرة الدولة بعض النأى حتى لتوشك ، إن تمردت ، أن تأمن سطوة البطش وقهر التأديب ولو إلى حين . . وثمة بقاع رق فيها سلطان غريمه كرقة الثوب البالى الذى لا يعصى على التمزيق . . وثمة مناطق ما زال بها أثر من ثورة ، تشتعل يوما وتسكن يوما ، ولكنها لا تنطفىء لأنها تستمد دائما زيت وقودها من إحساس أهلها بقومياتهم الأصلية التى أرادها الحكم العربى ، منذ الفتح ، على الذوبان فى « القومية » الإسلامية الجديدة . .

بعيدا عن الكوفة رمى معاوية ببصره فساحت به أطماعه فى الأصقاع الشاسعة ، الممتدة شرقا من شاطىء دجلة ، موغلة فى العراق الفارسى ، وفى فارس القديمة المملاقة نحو هضاب الأفغان . . فهذه الأنحاء الرحبة ، بما تضم من أراض جبلية وعرة ، وتؤوى من شعوب عنيدة حرون ، أولى من غيرها ، فى اعتقاده ، بجهوده ، وأدنى إذن إلى خضد شوكة الإمام سواء انفصلت عن حكمه أو دخلت فى طاعة الشام . .

ليس حقا يستغرب ، فى هذه الآونة المضطربة ، أن يعقد العاهل الأموى رجاءه على الشطر الشرقى من الدولة ، عسى أن يستكمل به سلطانه المنشود . . فالأمور قرت له بالغرب أيما قرار . الشام أخلصت له الود وأسلمته الزمام كما لم تمحض قبله ودها ، ولم تسلم مصيرها وأمرها حاكما من الحكام . ومصر وما يليها من إفريقية دانت له بالخضوع ، وضبطها ابن العاص . وعلى بن أبى طالب قد هدأ ، مغلوبا بثبوط أصحابه وتخاذلهم ، عن الزحف إليه . . وبهذا كله قد أمن الرجل على نفسه وإقليمه الخطر الغربى ، كما أمن مغبة المواجهة العسكرية بينه وبين الإمام إذ باتت الآن أشبه برؤى خيال . .

وليس أيضا من قبيل طوارىء المصادفات أن يجند كل جهوده الهدامة ، وينيخ بها على المشرق كيدا ختالا يكفيه ما كان دائما يخشاه من ملاقاة عدوه فى ساحة قتال ، ويلتوى بالناس فى نواحيه عن الطاعة المشروعة التواء يحقق له فى نهاية المطاف استصفاء المشرق كاملا لنفسه ، أو انتزاع جزء منه يدين بالولاء له من خلال استمالة بعض العمال .

آثر معاوية ، كما نحسب ، سياسة الختل عن إيمان بها عميق ، يستقيه من طبيعته . وعن تجربة عمليه ناجحة ، مارسها ، ورجحتها على ما عداها فى ميزان السياسات . . جرب الحرب فخذلته صفين حتى لقد نجا منها وما يكاد ! . . وجرب الفتنة المسلحة فى البصرة فجرعته الخيبة ، وذهب بها عميله الحضرمى فى الغابرين . . وجرب الغارات يسرحها ضارية إلى شتى البلاد ، فلم تنفعه ضراوتها ، لا هى حازت له سلخة أرض تزيد فى رقعة ملكه ، ولا هى أتته بطاعة إلا بمقدار

نفثة ضباب لا تلبث أن تذوب فى أول شعاع ، بل كان قصارى قليلها إرهاب ، وكثيرها هروب ! . .

أما الختل فمأمون مضمون . . وليد سليقته . رهن يديه . هين عليه أمره ، طويل باعه فيه ! . . وتلك الولايات العديدة المترامية نحو المشرق ، النائية عن بنان الحكم الشرعى ، المضطربة بالفتن والثورات ، إن هى ضاقت بإحدى حيله ، فما هى ضائقة بغيرها مما استوعبته جعبة المحتال ! . . فلعله أن يجدى فيها ادعاؤه ما ليس له وما ليس فيه . أو يفلح التغرير بالجماهير . أو ينجح ابتداع العمال . أو ينفع ، دون وسائله هذه أو معها ، أسلوب التلفيق ! . .

وكانت فارس أقرب الفرائس إليه . .

هى دانية الدنو كله من مد ذراعه ومرمى أطماعه وإن كانت على مبعدة مراحل طويلة من الفراسخ تشق على الركاب والركبان . .

دانية ببعدها الساقى عن قلب الدولة البعد الذى يخفف عنها قبضتها فيدعها طليقة الحركة فى مجابهة النظام العام ، تطيع حين تشاء ، وتتمرد حين تشاء . .

دانية بوعورة المسالك والطرقات المفضية إلى مدنها وكورها المنبثة على المرتفعات الصخرية وبين شواهق الجبال ، لو أرادها صاحب السلطان على امتثال أمره وكانت تؤثر الإباء . .

دانية بتحفز رجالها ودهاقينها للخروج على الحكم القائم عند أول بادرة تغريهم بالخروج ، ليصلوا ما انقطع من ثوراتهم المتكررة التى ما فتئت تتفجر منذ الفتح الإسلامى على مدى عمر جيل ، يخمد بعضها هنا ليشتعل بعضها هناك . .

دانية ، فوق هذا وقبله ، بصاحب أمرها وعاملها زياد بن عبيد بن فلان ، أو زياد بن أبيه كما تسميه روايات ذائعة شاعت فيها صبغة الخيال شيوعها فى الأساطير . . !

هذه العوامل المرجحة كانت حقيقة لاريب آنئذ بإغراء عاهل الشام بهذا

الشطر الشرقى من الأرض العلوية ، الذى ارتسم أمام أطماعه النزاعة إلى التوسع الإقليمى ، ونفسه المنهومة بالاستئثار والاحتياز ، فى هيئة قنيصة سهلة ، لا تلبث أن تخر تحت قدميه ، مغلولة الحول مهيضة الجناح ، لو أنه بادر إليها برحلة صيد ، أحكم خلالها نصب الشراك ! . .

لكنها اليوم ليست رحلة صراع أداتها سلاح ، بل هى رحلة على دعوة ، سلاحها حروف وكلمات ! . .

وبادر . .

خير هذه العوامل المرجحة ، فى يقينه ، وأحراها بجهده ، وأسهلها مأخذا كان زياد بن أبيه ، قائد كتائب التأديب التى دفع بها عبد الله بن عباس من البصرة نحو المشرق لتخمد الفتن الناشبة ببعض أعمال فارس ، وترد أهلها إلى حظيرة النظام . .

. . . . . كانت فارس طوال الحقبة الإسلامية القصيرة ، دائبة التمرد ، تسكتب فى تاريخها ، بالعنف وبالدم ، صفحات من الاضطرابات ، تهدد أمن الدولة ، وتدفع البلاد ووحدتها إلى حافة خطر لا يدرأ شره غير امتشاق الحسام .

فخلال سنوات خلافة الإمام — كمثال — لم يكن يهدأ العصيان مرة فى جانب من هذه الأصقاع ، إلا ليتبجس كتبجس الحمم من البراكين ، فى جوانب أخرى مرات . .

فى أول أعوام عهده ، قيل إنه سير خليد بن طريف إلى خراسان . .

فى العام التالى بعث جعدة بن هبيرة إليها بعد عودته من صفين ، ثم خليد بن قرة مرة أخرى ، فيما تومىء إليه الروايات ، فمضى فى حرب أهلها وقد كفروا ، وحاصر نيسابور حتى أدلوا إليه بالسلام . .

مع ذبول شعلة السنة التالية ، زلزلت فارس بثورة عنيفة على الحكم العلوى وعلى الدين ، ارتبط فيها الخريت بن راشد بن ناجية ، ومن غادر الكوفة وإياه من قومه انتقاضا على سلطان على ، بحلف دموى مع العلوج والمسيحيين وقطاع

الطرق ومانعى الزكاة ، أشاع الخوف والقلاقل والفساد فى جنباتها ، بدءا بالأهواز وانحدارا مع الجنوب إلى أقصاه عند البحرين . .

فى نفس العام علت ألسنة اللهب فعمت النار الإقليم ، حتى غلب أهله على الأمر فيه ، وأخرجوا عاملهم سهل بن حنيف ، وخلا لهم وجه الأرض يملأونها بالفوضى والاضطراب . .

فى السنة التاسعة والثلاثين للهجرة ، غدت الأمور على شفا هاوية إن لم يهرع بحزم الحرب وحنكة السياسة ، إلى إنقاذ هيبة السلطة الشرعية ، وإعادة رفع الراية الإسلامية فوق ربوع تلك البلاد ، والوقوف دونها ودون الكفر والانفصال . .

هنا دعا الإمام إليه ابن عباس من البصرة ، ألصق أرضه بالإقليم الثائر، يبادله الرأى . . ثم جمع صحبه ليشيروا عليه بامرىء ماهر قادر قوى يستطيع أن يوليه هذا الشطر من الدولة ، ليحسم الأمور .

قال جارية بن قدامة :

« ألا أدلك ، يا أمير المؤمنين ، على رجل صليب الرأى ، عالم بالسياسة ، كاف لما ولى ؟ . . »

فسأله على :

« من هو ؟ . . »

« زياد . »

وأقر ابن عباس الترشيح :

« لعلى أكفيك به فارس . . »

فبعث زياد . .

ولم يكن هذا اختيار فلتة أعجلهم إليه الوضع الحازب ، بل كان اختيار بنظر

وحكمة له من ماضى المرشح المختار ، وصدق بلائه وصفاء ولائه ما يقضى به ، ويضمه فى مقدمة الأولياء الأكفاء . .

فلقد عُلم اعتزال زياد معركة الجمل ، حتى لقد أدهش الإمام اعتزاله ، إن لم يكن أثار غضبه ، فعتب عقبها على عبد الرحمن بن أبى بكرة ، وقد جاءه فيمن جاءوا لبيعته بعد النصر . .

قال له يستفسره ويلحاه وليس فيمن قدموا عليه للبيعة زياد :

« وعمك المتربص القاعد بى ؟ . . »

فاعتذر عبد الرحمن :

« والله يا أمير المؤمنين إنه لك لواد ، وإنه على مسرتك لحريص ولكن بلغنى أنه يشتكى . فأعلم لك علمه ، ثم آتيك . . »

وتبين أن الرجل مريض .

قال الإمام :

« امش أمامى ، فاهدنى إليه . . »

فلما بلغاه ، رأى الإمام فى وجهه السقم ، فدعا له . . وأراده على البصرة ، فاعتذر . فاستشار فيمن يوليه . .

قال زياد :

« رجل من أهل بيتك ، يا أمير المؤمنين ، يسكن إليه الناس ، أجدر أن يطمئنوا إليه ، وينقادوا له ، وسأكفيكه . . »

فعمل برأيه ، وولى أمرها ابن عباس . .

لباقة وصدق نصح وإنكار ذات ، اجتمعت له مع الولاء لترتفع به فوق الظنات . .

. . . وسلف أيضا منه ، قبل هذه الواقعة بأعوام ، ما يسمو به بين الساسة ،

إلى مكانة مرموقة لا يكثر فيها النظراء . . بعثه عمر بن الخطاب ، إبان عهده ، لإصلاح فساد وقع باليمن ماله غير داهية فطن صليب الإرادة ، فنهض بالأمر كخير ما يكون النهوض ، وعلى خير ما ينبغي أن يفعل متمرس أريب ، حتى لقد رضى عمر عنه كل الرضاء ، وأشاد به الناس ، وأنطق الله عمرو بن العاص ، داهية الدهاة ، بكلمة حق لا يند مثلها من أنانى مثله يكاد يحتجز لنفسه ، من دون الأكفاء ، كل صفات التفوق والاقتدار ! . .

قال :

« لله أبو هذا الغلام ! . . لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه . . »

وسمعه أبو سفيان ، فقال بلهجة المفاخر :

« أبت المناقب إلا أن تظهر فى شمائل زياد . . »

ثم مال إلى أذن ابن العاص ، كأنما يساره :

« أما والله إنه لقرشى . ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك . . »

وكان على على مقربة منه ، فى مجلس عمر ، فدفعه همسه إلى سؤاله :

« من أى بنى عبد مناف ؟ . . »

« ابنى »

« كيف »

فخافت الرجل من صوته :

« أتيت أمه سفاحا فى الجاهلية . . »

وعندئذ قال له عمرو :

« فهلا تستلحقه ؟ . . . »

فأومأ بعين مذعورة إلى ابن الخطاب ، ثم همس :

« أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على إهابى ! . . »

ونصحه على :

« مه يا أبا سفيان ! . . فإن عمر إلى المساءة سريع . . »

وانطوى مذ ذاك نسب زياد عن الجهر إلا من كلمة عابرة تند صدفة على لسان ثم لا يكاد مدلولها فى الأذهان يعلو من وهدة الادعاء إلى قمة الحقيقة التى لا يطولها ارتياب . .

... هذا القائد الصليب القوى .. الذى كان موضع فخر أبى سفيان ، وهيأته ملكاته للمجد ، وشقت حداثته وهو بعد فى مقتبل عمره عن رجل عظيم ، وأجاد لعبة الحرب كما أجاد لعبة السياسة فى فارس الثائرة وفى ثوارها الأشداء حتى دان أهلها له ، ثم حمدوه ، ثم قرنوا سيرته فيهم ، لعدله وحكمته ورحمته ، بسيرة سيد أكاسرتهم أنوشروان — كان لا ريب خليقا به ، فى رأى معاوية ، أن يكلف غاية الكلف بالعلياء ، ويعد آماله الحبيسة بصدره إلى بعيد بعيد وراء آفاق عمله المحدود . . فلو أحسن له الماهل الدعوة ، وأحسن أيضا الأمنية والاستهواء . لكان أقرب إلى طبيعة الأشياء ، وأشبه بحكم المنطق السليم أن يلتقم زياد « الطعمة » فيصغى له ، وينعطف إليه ، وينخرط فى صفوفه بكل ما تحته من عمل وما قد يسمه ، بشهود قدرته ، أن يحوز من بلاد وأعوان ، مادام مآل هذا الانخراط انتفاع المدعو من خلال نفع داعيه ! . .

وأسرع بنيه . .

فى تقديره كان لا يشك لحظة واحدة فى نتيجة دعوته . . فصاحب فارس لابد معجل إليه الجواب بعودة البريد . . والجواب — بحساب السليقة المعاوية النهازة والمنهومة إلى المزيد — لابد قادم بالقبول ، لأن القبول هو السلوك الوحيد المتوقع منه الذى لا يعلى سواه الطموح ، ولا يكون غيره من أخ لأخيه . ولا عجب ، فهما لأبى سفيان ، وأولى بأن يتشابها فى النزعات والميول ، وأن يتعاطفا فى المسرة ، ويتحالفا لتحقيق الرغبات . . وليس القريب كالغريب ، ولا الدماء ماء ! . .

غير أنه أساء التقدير . .

فقد استعصى زياد على الإغراء . . كان أعظم فطنة من أن يخدع ، وأصعب مراسا من أن ينقاد . . بدا كأنما حقر خدعة مغويه ، ونبا بعرضه الخسيس كل النبو فأغلظ له فى الجواب . وبدا العاهل كأنما استيأس فأرسل إليه بالوعيد بعد الوعد ، وبالترهيب بعد الترغيب ، وإن لم ينس أن يلوح له بالإمهال وفاء لحق النسب المشبوه ! . .

كتب معاوية إليه :

« . . . . غرتك قلاع تأوى إليها ليلا كما تأوى الطير إلى وكرها . . وأيم الله لولا انتظارى بك ما الله أعلم به لـكان لك منى ما قاله العبد الصالح : فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ! . .

تنسى أباك وقد شالت نعامته إذ يخطب الناس والوالى لهم عمر »

فـكان جواب زياد أن صعد المنبر ، وأخذ يفضحه على الملأ ، بخطبة قال فيها :

« . . . العجب من ابن آكلة الأكباد ، ورأس النفاق ! . . يهددنى وبينى وبينه ابن عم رسول الله ، وزوج سيدة نساء العالمين ، وأبو السبطين ، وصاحب الولاية والمنزلة ، فى مائة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان . . أما والله لو تخطى هؤلاء أجمعين إلى ، لوجدنى أحمر مخشا ضرابا بالسيف . . »

وكتب إلى الإمام ينبئه الخبر فى صحيفة بعث معها بكتاب « أخيه » ! . .

أما زياد فقد ألقت له فارس القياد لا تخاشنه ولا تختلف عليه . وثبت هو بما فيها ومن فيها على الولاء لعلى ، ثم الوفاء لذكراه بضع سنوات . . حتى بعد أن آلت الخلافة لمعاوية غير منازع منذ عام الجماعة ، بقى العامل الأمين على العهد ، معاديا لمعاوية ، خارجا على سلطانه . ولولا أن رأى الأمة ، إلا ندرة ، أولته الطاعة ، وعلم ببيعة الحسن وبنى بيته وأهل العراق له ، وسعى أمير المؤمنين إليه يتألفه بالـكتب وبالوفادات ، لاستمسك بعدائه ، ولربما وقع منه ما يغير مسيرة التاريخ . .

وأما الإمام فقد اطمأن لرجله ، وأكبره كما حذره ، فى خطاب كان بعض ما فيه :

« . . . إنى قد وليتك ما وليتك وأنا أراك لذلك أهلا . . وقد علمت أن معاوية كتب إليك يستذل لبك ويستفل غربك ، فاحذره . فإنما هو الشيطان يأتى المرء من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله . .

وقد كان من أبى سفيان ، زمن عمر بن الخطاب ، فلتة من حديث النفس ، ونزغة من نزغات الشيطان ، لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث . المتعلق بها كالواغل المدفع ، والنوط المذبذب . . »

وأما معاوية فقد طعم من محاولته هذه مثل الحنظل . وأيقن أن الاستهواء للالتواء بمثل زياد إلى ناحيته لا يفيد . وأن أولئك الذين استصفاهم على لنفسه وقربهم ، وأدناهم ، هم صفوة خلصاء كالصفاة صلابة ، وكالجبل ثباتا ، وكالأفق شموخا ، لاينثنون . وليس لزخرف إغوائه إليهم سبيل . .

٢

فى التجربة « القيسية » بمصر ، نجح معاوية ، واقتلع قيس بن سعد بن عبادة عملاق الأنصار من عمله على النيل . . ولـكنه فى التجربة « الزيادية » بفارس ، تحطمت أدواته وباء بالإخفاق .

أخطأه التوفيق . أساء اختيار الوسيلة وهو يحسب أنه أجاد حين وضع « أخاه » فى غير البوتقة المناسبة يوم شاء احتواءه بالإغراء . . فلقد كان أحرى به أن يعلم علم يقين أن نجاح أى تجربة رهن بالملاءمة بين طبيعة العنصر وطريقة العلاج ومناخ التجريب وصلاح الأداة . . أما هنا ، فالعنصر معدن لا يتأثر بالنار خليق به أن يستعصى على الانصهار ! . .

كان زياد العنصر الصايث العسير . .

وكان الاستهواء المغوى الأداة . .

وكان معاوية هو المجرب الذى بدا كأن قد غفل عن الحقائق الأولية المفترض — علما وبداهة — توافرها قبل أن يبدأ أولى خطواته وإنه لأولى بأن يذكرها لو أنه استشار سليقته ، وطابق خصائصه النفسية على خصائص زياد . .

فهما أخوان ، فيما ادعى وادعى قبله أبو سفيان ، فهما إذن شبيهان . النظرة كالنظرة . والطباع كالطباع . والنزعات والميول كالميول والنزعات مع فارق هنا وفارق هناك على نحو ما يكون الاختلاف بين الإخوة ، بل التوائم ، فضلا عن الأشباه . .

لـكنه لم يراجع طبيعته الخاصة قبل الإقدام ، ولم يضعها أمامه نبراسا يهديه فضل الطريق .

ولو أنه فعل لأدرك أن فيه — لا محالة — من أخيه سجايا وسمات ، وفى أخيه من صفاته غير قليل . .

فهو صلب الشكيمة عنيد لايسهل أن ينقاد فليس بدعا أن يكون زياد ذا عناد.

وهو ليس بالغرير الذى يخلبه المظهر دون أن يغوص فى الباطن إلى القاع ، بل هو اليقظ الواعى الذى يقع بذهنه وعينه على الهنات الصغيرة كما يقع تماما على المعالم المميزة ، فلا يفلتها من حسابه ، وتهديه نظرته الناقدة اللماحة للولوج من خلالها إلى معرفة أقدار الأشخاص ، وقيم الأشياء . فأشبه به إذن أن يحرص على مكانته أن تمتهن وتذل ، وعلى قيمة ما فى يديه أن ترتخص وتنتقص ، وأشبه من بعد بزياد — بنفس الميزان — أن يكون على شاكلته وإن يكن الحرص هناك ، فى حالة العامل الأموى ، حرص أثرة وولاء للذات ، والحرص هنا ، فى حالة العامل العلوى حرص إباء ووفاء . .

وهو أيضا صاحب طموح ، شغوف بالمجد ، ومولع بالاستزادة من أسباب الحياة . يتطلع دائما ، فيما وراء الأفق المرئى ، إلى رحابة أفق الآمال .. فلا غرابة إذن أن يتأبى زياد عن الانحياز إليه وإن أفسح له فى رقعة النفوذ وشأو السلطة بجواره إلى غير حدود . فلأن يقال قانع خير من أن يقال جشع ، ولأن يقال عف خير من أن يقال خائن . . لا غرابة أن يرفض الفىء إلى ظله بدلا من فيئه لظل الإمام لأنها الصفقة الخاسرة بالثمن البخس . . فليس الذى هو أدنى كالذى هو هو خير . ليس الباطل كالحق ، ولا معاوية كعلى ، ولا الاستظلال بظل صنى رسول الله إلا الجاه الذى لا يطوله جاه ! . .

لو أن معاوية أدرك هذا — وكان أولى به إدراكه — لما أقدم على التجربة، وجنب نفسه مهانة الفشل وصدمة الخزى من إغواء زياد . . ربما كان يغير الأداة . . ربما كان يبدل طريقة بطريقة . . ربما كان يعيد مع العامل العنيد التجربة القيسية التى أجدت عليه من قبل اقتلاع العملاق من ضفاف النيل فيدس له عند أهل العراق بالتلفيق . .

خواطر لعلها لم تعزب عن ذهن معاوية وقد أتته أنباء فارس بموقف صاحبها منه ، وخطبته فيه على ملأ الناس . وبما تضمنته كلمة الإمام ، واللغط الذى أشاعته

كلتاهما وتناوله بالإقذاع والسخرية فى الجموع والمحافل ، على ألسنة الجمهور . .
ومع ذلك فليس هو بالذى يحنى رأسه أمام الإخفاق . لن يقبع فى الظل وينام .
ولن يدع الأمور تجرى على غير هواه . وإذا كان قد فاته الآن أن يلتوى بابن أبيه إلى صفوفه ، ووجب عليه — لكيلا يفتضح — ألا يقاربه بخطة جديدة فى هذا الوقت الذى تعلقت بهما فيه الأنظار ، فليس يسعه أن ينفض يده من المشرق ، ويدع الإمام ثابت القدم فيه على أرض صلبة وفى أمن موفور .

كلا لن يهدأ إلا أن يرج هذه النواحى عليه بضربة مدمرة ، تثير فيها العواصف أو تفجر البراكين . . فلا بعيد أمام سعى . ولا محال مع حيلة . .
ولئن شطت عنه فارس بيقظة زياد ، وصلابة خلقه ، ورسوخ عناده ، واستقامة وفائه ، فإن البصرة الآن أدنى قطافا إلى عينه ، وأقرب مسافة إلى الكوفة ، وأنأى سواها من الأمصار عن مظنة الاختلاف على على أو العبث بسلطانه . فلو عصف بها فإن عصفه هو المقص الذى يبتر ثانى جناحى غريمه بعد بتر الجناح المصرى .
وهو المفاجأة التى تبغته وتدعه كشلول . وهو البؤرة التى تعكس على ما حولها من بلاد شعاع الانتقاض فلا تسلم معها الكوفة الدانية من النار ! . .

ويشرع فى دسيسته الجديدة . .

على خلاف ما ينتظر ، اختار معاوية فريسة له ألصق الناس بالإمام ، وأقرب أهله إليه ، وأخاص الخلصاء الذين لا تربطهم به روابط الولاء السياسى وحده ، بل صلات الولاء الروحى الوثيقة الذى جعله منه أحب تلامذته ، وأوعاهم لعلمه ، وأحرصهم على استيعاب نظراته فى الدين والحياة ونقل تراثه الفكرى الخالد ، نقيا ، عبر الأجيال . .

اختار الداهل الخاتل لتجربته التدميرية المقبلة « عنصرا » ليس كالعناصر التى تناولها ، قبل يومه هذا ، بالمحاولة والتجريب . اختار امرأ هو من على ابن أبى طالب بمنزلة الحواريين من السيد المسيح . ينهج نهجه ، ويسير سيرته ، ويستقى من فيضه كمثل استقاء الجدول من النهر الكبير . . وإذا كان معاوية

— ذهابا مع شطحة أمانيه — قد شط فى اختياره حتى لأوغل إلى آخر المدى ، فإنه الشطط الذى يحمده ولا يخشاه ، لأنه لو أثر ، بالغ لا محالة بالأمة الإسلامية جميعا ، بكل أرض وفى كل عصر — بتأثير النتيجة « الأسطورية » المذهلة التى سيسفر عنها — غاية الشطط والارتباك فى تقديرها للأمور والأشخاص ، ودافع بها إلى غيابة من الظلام والوساوس تضل فيها عن التمييز بين الباطل والحق ، الخطأ والصواب ، الزيف والصدق ، الشك واليقين . .

وحسبه هذا ، فهو ما يرجوه . .

أما الفريسة فكانت عبد الله بن عباس . .

وأما الدسيسة فكانت التلفيق .

وتتعدد أمامنا الروايات عن « الحادثة » موضع البحث ، التى نراها حيلة من حيل ابن أبى سفيان ، أو واحدة من تجاريبه ، ويراها غيرنا حقيقة تاريخية صادقة عاشت على أرض الواقع المستيقن بغير شبهة من شك ، أو مجال لجدال . . فلقد قل من أغفلوها من رواة التاريخ ، أو أنكروها ، أو أخذوها مأخذ ريبة . وكثر أولئك الذين أوردوها كواقعة ثابتة ، ومن رتبوا عليها النتائج أو تناولوها بالتعليق ، حتى لتوشك القلة أن تكون ندرة لا يلتفت إليها وتوشك الكثرة أن تبلغ حد الإجماع .

ومع ذلك فالصواب لا يكون دائما فى جانب الكثرة ، كما أن الخطأ لا يكون دائما مع النزر القليل . بل من الإسراف فى حسن الظن ، إن لم يكن فى الغفلة ، أن يوزن الحق أو الباطل بميزان « عددى » يرجح أحدهما على الآخر بثقل كثرة الرواة والأتباع . . إنما يجدر ، فى مقام كهذا ، بالراوية ما يجدر بالناقد ، فيضع فى حسابه ظروف الحادث ووقته ، والخاسر به والمفيد منه ، مع المعالم النفسية والخلقية لمن عاش فيه من الشخصيات أو أعاشتهم القصة المرواة . ثم لا يمكن أن تكتمل الصورة ، بعد هذا كله ، جلية واضحة ، إلا بعد تأمل واع فى الجو

العام للواقعة مثار الخلاف ، ومعايرة دقيقة لكافة احتمالات الخطأ أو السلب ، واحتمالات الصواب أو الإيجاب . .

على هذا النحو يستطاع فرز الصدق عن الكذب فى كل رواية تواترت عبر الأعصر على الألسنة وفى الأسفار ، وامدها عمرها الذى أخلق القرون بهالة من القداسة جعلتها من المسلمات . . وبنفس الميزان نعاير ما نسب إلى عبد الله ابن عباس من اعتزاله ابن عمه أمير المؤمنين فى السنة التاسعة والثلاثين الهجرية ، سنة التمويه المعاوى الذى لمس بعصاه السحرية بعض الوقائع كما لمس بعض الأشخاص فإذا هى وهم جميعا ، على صفحات التاريخ المكتوبة غير ما كانوا فى واقع الحياة . . ولا نريد تعجل النتيجة فنقرر زيف حادثة الاعتزال أو نراها من ابتداع الخيال . ولكننا لا نستطيع أيضا أن نتطلع إليها بمعزل عن سوابق معاوية فى نفس هذا المجال لأننا عندئذ إنما نهدر « الجو » النفسى بكل ما فيه من دوافع ونزعات لها أكبر الأثر فى توجيه السلوك الإنسانى الذى يخلق الوقائع ويرسم مسيرة التاريخ . وقد يؤدى بنا هذا الإهدار إلى خطل التقدير ، فنظلم الصدق المطلوب ، أو نظلم النص المكتوب . .

ونبدأ من البداية . .

تقول الروايات . .

أصاب ابن عباس من بيت مال البصرة مالا لا حق له فيه ، فلما انتهى الخبر إلى على غضب أعظم الغضب ، وأراده على رد ما أخذ فأبى ، ثم خرج بهذا المال من البصرة ، معتزلا عمله ، قاليا لابن عمه ، ناقما عليه ، فأقام بالحجاز ، ينعم بما أصاب . .

والقصة هكذا تقدم لنا ابن عباس فى غير صورة ابن عباس ! . . فهى بما تضمنته من نصوص تنزل به فى حمأة السقوط إلى أبعد قاع . وهو بها الخائن الذى كأنما حرص على أن تجتمع فيه كافة الخيانات . خائن دينه الذى ينافى السلوك المزعوم ،

ويضعه بحكم التنزيل ، فوق قمة التحريم . خائن وطنه فى أحلك الظروف التى تتطلب تضافر جهود كل أبنائه ، عمالا ومواطنين ، مسلمين وغير مسلمين ، لوقايته من التردى ثانية فى وهدة الانحلال التى تحفرها له النكسة المادية ، المغلبة للشهوات على المبادىء والقيم الإنسانية ، بعد أن انتشله منها الإسلام . . خائن ولائه للنظام وعهده للإمام . خائن حق مواطنى البصرة عليه بالتخلى عن عمله كما يتخلى الراعى عن القطيع ويدعه للذئاب . خائن ماضيه ، وتراث آبائه ، وشرف البيت النبوى الذى ينتسب إليه ، ويمثل بمنزلته منه الرجل المأمول الذى تتطلع إليه أنظار الأمة الإسلامية بعد على وولديه سبطى الرسول . .

ليست هذه قط بصورة ابن عباس ، ولا يمكن أن تكون وإن استطارت بها الأخبار ، وتعدد الرواة ، وجرت فيها أقلام المحدثين والقدامى من كتاب السير والتراجم بالتعليق أو بالتعليل . . فما هى جديدة ، فيما نخال ، بالتصديق أو بمسحة من التصديق إلا أن يكون هذا تجنيا على روية التفكير . إذا قيست الواقعة بسببها المعلوم المتواتر ، لكان أحرى بها أن تنهار من الجذور كالصرح الباذخ الذى يبنى على رمال . وإذا هى وزنت بما فطر عليه ابن عباس من طبيعة ، لما كان لها فى كفة الميزان إلا كمثل ثقل الهباء . وإذا هى فحصت فى ضوء ما اشتهر عنه من خلال : دينا وخلقا وعقلا ، وكلها خليق بأن يكفه عن الدنايا ، لحق ظلمتها إيمانه ، واستقامة خلقه ، ودقة نظره فى الأمور الدقة التى تورث الحذر والتبصر ، وتهب إحسان التقدير . .

شتى ألوان الافتراض التى قد تخطر ببال كمحاولات لتفهم واقعة الاعتزال ، كفيلة أن تمضى بنا ، وبأى إنسان ، فى طريق مسدود . . فالواقعة أشبه بشطحة خيال . وسببها أدنى إلى عبث خيال . فإن قيل من بعد ، عسى الاعتزال قد وقع بين العامل وبين أمير المؤمنين نتيجة تباين نظرتين ، أو تعارض سياستين ، فأين فى بطون تلك الأقاويل المروية ما لعله يشير ، من بعيد أو من قريب ، إلى باعث الجفوة الفكرية التى أثارت الخلاف ؟ .

لو ثبت هذا فظهر باعث كيفما يكون ، لما كان عجيبا أن تدب الفرقة بين على وابن عباس ويقع على أثرها الاعتزال ، ثم لا لوم ولا تثريب على المباين المعتزله أخطأ بفعله أو أصاب .. فالرأى عادة — أى رأى — هو اجتهاد رائيه . والاجتهاد ثمرة عوامل عديدة : نفسية وموضوعية ، تحرك الذهن وترسم له نهج التفكير . وقد يتغلب بعض هذه العوامل على بعض ويؤثر فى الرأى ، ويطبعه بطابعه ، أو يشوب سلامته منحرفا به عن السواء . ومع ذلك فحق للرائى ، بغير نزاع ، أن يعمل بما رأى ما دام على ثقة منه واقتناع به ، إلا أن يتبين له وجه الحق فى سواه ..

لكننا لا نجد هنا اختلافا فى السياسات ولا رأيا فرق بين الصاحبين ، لأن موضوع الاعتزال المزعوم بديهية لا تقبل اجتهاد الرأى وتباين النظرات .. فخلاصة القصة ، بإجماع الروايات عامل غاصب لمال مغصوب ، المال مال عام ، والعامل موظف عام ، والولاية على كليهما للسلطة الشرعية الممثلة فى الإمام ، بحكم الدين وبحكم القانون . فإذا لم يكن للسلطة أن تسائل الغاصب ، وتسترد منه المغصوب ، فأى دور لها غيرها التزامه فى مثل هذا المقام ، لردع المعتدى ، حماية لحقوق الجماعة ، وحفظا لهيبة النظام ؟ . .

ما من امرىء يسعه أن يرى ، بالنظرة العابرة العادية أو بالنظرة المدققة التحليلية ، فى واقعة الاعتزال المعروضة أمامنا على نحو مانقلها الرواة ، غير حادث سرقة أو جريمة اختلاس .. وما من امرىء أيضا يسعه ، مهما أوتى الحجة وفصل الخطاب ، أن يمارى فى طبيعتها ، فيغير من وصفها هذا بوصف سواه ، يخرج بمفهومها عن فحوى النظرة الصريحة لعامة الناس ، وإن كان الفاعل ابن عباس ، أو كان الرائى هو ابن عباس ! .. ولئن حلا ، قديما وحديثا ، للمؤرخين والمعقبين أن يوردوا فيها الأقاويل والتهاويل ، ويكثروا التعليق والتأويل ، محاولين تصويرها فى هيئة انفضاض عن الإمام من أقرب الناس إليه ، وخروج على طاعته ، ومقاومة سلبية للسياسة التى ينتهجها فى تدبير أمور الشعب والدولة ،

فهذه هى المحاولة التى تضع الاعتزال — من ناحية النظر الجدلى — فى نفس مكانه من المهانة والابتذال ، لأنها لا ترجح رأى المعتزل الهاجر أو تبرر سلوكه ، ولا تنال من نظارة المعتزل المهجور وسلامة تصرفه . بل هى ، قبل هذا كله ، المحاولة التى تشق على نفسها بالتبرير أو بالتمذير حيث لا موجب لالتماس المبررات والمعاذير ، لأنها تسير إلى غير غاية ، وتدور فى فراغ ، جريا وراء وهم خادع وأكذوبة مفتراة ! . .

٣

الذين عنوا ، من كتاب السير والتراجم ، بتناول « اعتزال » عبد الله بن عباس عليا بالرواية والتحليل ثم نظموه في سلك الواقع ، لاح كأنما جمعوا له من دقائق الحواشي وتفصيلات الأخبار ما يستطرد به على السطور في تسلسل منطق سليم ، وترابط حدثي محكم ، ونسق عضوى محبوك ، حتى لتبدو الصورة بألوان كثيفة صارخة ، وتبدو الحبكة في الحدث المزعوم ، وهى حبكة صناعة لا حبكة طبيعة . .

ولا ندعى أنهم نحلوه غير ما ذكر عنه ، أو قيل فيه . ولكننا نحسب أن الدقة في رسم القصة ، على هذا النحو المنقولة به ، من المبالغة والإغراق ، تكاد تحمل على الشك فيها أصولا وفروعا ، لأن الحقائق الحية في غنى كل الغنى عن مثل هذه الحبكة « الفنية » التى لا تتوافر عادة على مسرح الحياة وإن توافرت في المسرحيات ! . .

ومع ذلك فإن ما اجتمع لهذا الحدث المزعوم من المغالاة لإظهار صدقه وتأكيد وقوعه — بكل شاردة أو واردة عرضت له من قريب أو من بعيد ، وبكل ما وقعت الأعين عليه فوق الأسطر من كلمات والتقطته الأسماع في الهمسات من شائعات ، وبكل صورة ذهنية أو لفظية له — يكاد يميل بنا بعيدا عن مسيرة التاريخ . .

فلقد أغرقوا أجمعين في إبراز الاعتزال من خلال وقائع وجدليات لا تدعو لها طبيعة « الفعلة » التى أنشأته وما هى ، بظاهرها وباطنها ، سوى جريمة اختلاس لا يمكن بحال أن تحمل الجانى — وفى مواجهة شواهد الإدانة وقرائن الإتهام — إلا على الاعتراف والإقرار ، وقد تحمله على الإنكار أو محاولة الإنكار . ولكنها ، قطعا ، لاتدفع به في مهامه من الجدل والحوار

هو أول من يعلم أنها لابد مشددة عليه النكير مفضية به لا محالة ، بعد طول اللجاج والمكابرة ، وفى نهاية المطاف ، إلى حسر أبلغ من الاعتراف ! . .

والصورة المنقولة إلينا عجيبة . .

فالروايات تكاد تجمع بغير اختلاف ، على عامل سالب ومال مسلوب . ثم تتفق على جدل مكتوب يثيره سالب المال فى رسائل لا يكون قصاراها أن تنفى جرمه أو تبرئ ساحته ، بل كأنما تؤكد للناس ، بخطه وألفاظه ، اعترافه بالإثم غير متلوم وإقراره الصريح بالوقوع فيه ! . . ثم تتضافر معا على تصوير الآثم سادرا فى غلواء من الجدل المكابر والمكابرة الجدلية إلى الحد الذى يقلب فيه الأوضاع فيقف من قاضيه موقف القاضى ويزج بالإمام فى قفص الاتهام ! . .

تصور للأمور غير مقبول . ودفاع عن النفس غريب ، ابن عباس أكيس من أن يسوقه ولو كان حقا التوى بالمال . .

لكن مستيقنى الصدق فى القصة « المرسومة » لا يريبهم فيها ما هو غير مقبول معقول اكتفاء بالمروى المنقول ولو أمعنوا النظر لطالعتهم فيها ثغرات تكاد تجعل بناءها ينقض من أصل دعاماته ، وتهوى بها فى هاوية الخرافات . . أقوى شواهد صدقها لديهم ، البنية اللفظية للخطابات التى زعم أنها تدور حول السرقة والاعتزال وبعث بها الإمام إلى ابن عباس . فأسلوبها اللغوى ، فيما يرون أسلوب على . وعباراتها تومئ إلى ابن عمه الإيماء المعبر الذى يغنى عن الإفصاح ، وليس كهذه وذاك دلالة أقدر على إبراز حادث الاعتزال كحقيقة تاريخية ثابتة لا تقبل الجدال . .

قيل . . .

كان مما كتبه الإمام إلى ابن عباس ، وقد عرف أمر نزوه على مال البصرة بغير حق :

« . . . بلغنى عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك ، وعصيت

إمامك ، وأخزيت أمانتك . . بلغنى أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك . فارفع إلى حسابك . . . . »

ومما كتب :

« . . . . إنى كنت أشركتك فى أمانتى ، وجعلتك شعارى وبطانتى . ولم يكن فى أهلى رجل أوثق منك فى نفسى . . . . فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب ، والعدو قد حرب ، وأمانة الناس قد خزيت . . قلبت لابن عمك ظهر المجن ، ففارقته مع المفارقين ، وخذلته مع الخاذلين ، وخنته مع الخائنين . فلا ابن عمك واسيت . ولا الأمانة أديت . . . . »

ومنه أيضاً :

« . . . . أيها المعدود كان عندنا من أولى الألباب ! . . كيف تسيغ شرابا وطعاما وأنت تعلم أنك تأكل حراما ، وتشرب حراما ، وتبتاع الإماء ، وتنكح النساء من أموال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين ، الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال ، وأحرز بهم هذه البلاد ؟ . . فاتق الله ، واردد لهؤلاء القوم أموالهم ، فإنك إن لم تفعل ثم أمكننى الله منك ، لأعذرن إلى الله فيك ، ولأضربنك بسيفى الذى ما ضربت به أحدا إلا دخل النار . . ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذى فعلت ، ما كان لهما عندى هوادة . . . . »

هذه الصور اللفظية هى التى تؤكد ثبوت حدث الاعتزال ، بدلالة الأسلوب وإشارة الخطاب ، فى رأى كل من حكم بالثبوت . .

وليس ثمة من وجه لاعتراض معترض على هذا الرأى الذى استند إليه الرواة، وتعلق به الملفقون من بعد وهم يلصقون جريمة الاختلاس بابن عباس ، ويسلكونها حقيقة واقعة فى نسق التاريخ ، ما دام الأسلوب ينم عن الكاتب ، وعباراته تومىء إلى المخاطب ، وسياق الكلام يؤكد الاتهام المزعوم . . لا وجه ، حقا ، للاعتراض على حكم ، الاتفاق عليه يشبه الإجماع ، إلا أن يبقى لنا ما قد

يهز أسبابه ، وينقض أركانه ، فيطعن فيها وفيه بالبطلان ، أو بالقصور على أقل تقدير . .

والقصور والبطلان نراهما معا حاضرين فى جانبي القضية المعروضة : جانب الشكل وجانب المضمون . .

أما الشكل ، فإن أسلوب الإمام نهج من صياغة الكلام بليغ مبين ، يسحر العقول ويستهوى الأسماع ، تناول به صاحبه كل خاطرة ، وطرق كل موضوع مما يلم بالدين والحياة حتى غدا مدرسة فكرية ولغوية لذوى الآراء وأئمة البيان تتلمذت فيها قديما الأجيال ، وما فتئت إلى اليوم قبلة يؤمها كثيرون . . فإذا هى أغرت غيرتها ، وخلفت وراءها أناسا يحتذون حذرها ، فليس من العجيب الغريب أن نجد فريقا ممن نشئوا فى ساحتها ، وارتووا من ينابيعها يسعهم — انطباعا أو محاكاة — أن يمثلوا طرائقها المعروفة فى التفكير والتعبير . .

وإذا كان تقليد أسلوب على ليس بالمحال على البلغاء الموهوبين والمتمرسين ، وبخاصة فى العصور المتقدمة التى بلغت اللغة فيها شأو الازدهار ، فإن أمامنا أيضا ظاهرة ، ينبغى ألا نغفلها من الحساب ، لأنها تؤيد إمكان التقليد ولو بعض التأييد . . فقد جاء فى استهلال إحدى رسائل الإمام المزعومة لابن عمه عبارة سلف ورودها — بالكلمة والحرف — فى كتاب له إلى مصقلة بن هبيرة عن واقعة مماثلة التوى فيها ابن هبيرة بما لم يكن له فيه حق من أموال المسلمين واستحق به اللوم من على فى خطاب قال فيه :

« . . . بلغنى عنك أمر ، إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وعصيت إمامك . . . . »

مقال كمقال . واستهلال هو نفس الاستهلال .

فإن قيل إن الكاتب — أى كاتب — لا يسلم من تكرار بعض العبارات بين وقت وآخر ، وكلام وكلام ، فمن الممكن أيضا أن يقال إن مطابقة العبارتين إحداهما السابقة للأخرى اللاحقة لم تكن عفوا بل نتيجة محاكاة أريد بها ضمان

اقتناع القارىء والسامع بأن كلا الكتابين من مصدر واحد هو الإمام . وليس بمجهول أن حادث ابن هبيرة كان قبل حادث ابن عباس فلا عجب إذن إن أخذ الكتاب المدون إلى هذا الأخير بشبهة التقليد . .

وكما أن محاكاة أسلوب على تقع فى نطاق الاحتمال والإمكان ، فكذلك لايبعد أن تقع أيضا عباراته المؤمئة إلى شخص مقترف الاعتزال فى نفس النطاق . فما ينكر أحد ، أو يجهل ، أن لغة العرب قد درجت على مخاطبة الغريب — كالقريب — بصور أسلوبية عديدة تشيع فيها ألفاظ التعاطف والتقريب ، اجتذابا لمشاعر المخاطب ، أو تقديرا وتدليلا له ، أو ولوجا إلى نفسه من أوسع باب وهو باب العتاب الرقيق . فكم قيل « يا ابن أم » . . وقيل : « يا أخى » وقيل « يا عم » وقيل وقيل إلى غير هذه وتلك من ألفاظ لا تعبر عن حقيقة الصلة الأسرية ، ولا تزال منها إلى الآن فى لغتنا اليومية أشباه يفسر بقاؤها التزامنا قواعد المجاملة وأدب الخطاب . .

ثم ندع الخوض فى الشكل إلى الموضوع ، فماذا عسانا نرى فيه ؟ . . بأعلى صوت تنادى الشواهد بأن الواقعة ، جملة وتفصيلا ، حكاية هازلة أدنى إلى أن تكون أحق بالتندر والسمر فى حلقات السمار وسهرات المتندرين منها إلى رواية جادة خليقة باهتمام المؤرخين والمعقبين . .

من خلال وثائقها الدعاة ، تبرز صورة لابن عباس ما هى قط لابن عباس ، لأنها تجمع من نقائض صفاته وأضدادها ما لا يسرح إلى مثله سوى خيال محموم تتخبطه الأوهام . فيها الغفلة والغرة . وفيها الحمق واضطراب التفكير . وفيها الغدر والخيانة . وفيها كل ما يخالف طبيعة العامل المفترى عليه ، ويخرج به عن أدب الدين وناموس الأخلاق . .

ومن خلال الحقائق المقررة ، تنبو الحكاية المزجاة عن سياق التاريخ وخطه المستقيم ، لأن المقدمات فيها تجافى النتائج المترتبة عليها ، والمسببات تعارض الأسباب . .

فلقد أبى الدعون — فيما نسبوه لابن عباس — أن يرفع إلى أمير المؤمنين حساب ما تحت يديه من مال البصرة وإن كان ليعلم حق العلم أن رفع الحساب حجة له تدرأ عنه الشبهات ، وحبسه حجة عليه تلصق به التهمة . ومع ذلك فقد ارتأوا له مالا يرتأيه عاقل يحسن التقدير . . ثم زادوا فالوا به إلى الاستعلاء ، محاولا التنصل من تبعة الالتواء بما اؤتمن عليه ، ومدعيا لنفسه حقا خالصا فى ذلك المال أكثر مما أخذ وإن كان لوقنا كل اليقين أنه وغيره فيه سواء دون تمييز ، إذ هو رجل من المسلمين له مالهم ، وعليه ما عليهم ، وحقه فى المال كحق أى الرجال .

.. .... أبوا فى الأولى ، حين طالبه أمير المؤمنين بما بلغه عنه ، فلم يدفع التهمة ، ولم ينقضها بدليل . بل اكتفى بنفيها ببضع كلمات لا تغنى السائل ولا تعنى المسئول .

دبج كتابا كان كل ما جاء فيه :

« إن الذى بلغك باطل ، وأنا لما تحت يدى أضبط وأحفظ ، فلا تصدق على الأظناء . . »

فإذا هو المستخف المستهين . .

. . . . وأبوا فى الثانية ، مكابرة وعنتا ، حين ألح عليه الإمام بطلب الحساب ، فأجاب :

« أتانى كتابك تعظم على ما أصبت من بيت مال البصرة . ولعمرى إن حق فى بيت المال أكثر مما أخذت . . »

فإذا هو الصلف المستكبر .

ثم زادوه غيا وغرة ورعونة ، ففارق عمله وتوجه إلى مكة بالمال المسلوب ، جهرة وعلى ملأ ، حتى ضج أهل البصرة غيرة على مالهم ، وهموا أن يبطشوا به . فما ارعوى وثاب ، ولا رد ما اغتصب ، بل امتنع منهم ببنى هلال أخواله ، وشطر الناس فى المصر شطرين متناجزين : فريق عليه برأى الحق ، وفريق معه بحكم العصبية ، يتداعون جميعا إلى السلاح حتى لتوشك الحرب الأهلية أن تحرق البصرة لولا أن تدارك عقلاء القوم الكارثة قبل أن تندلع النار . .

ومع ذلك فانطفاء الفتنة ، وظفره بالمال الحرام ، لايقعده فى مكة عن الإمعان فى لجاج الاعتزال . . وإنما تجيء له نظرته المنحرفة — أم نظرة الرواة ؟ — أن يؤجج لهيب الخصومة بينه وبين على فينصب نفسه قاضيا يحاكمه ، ويناقشه الحساب ! . .

كتب إليه على يحاول أن يهديه :

« . . . . من العجب أن تزين لك نفسك أن لك فى بيت مال المسلمين من الحق أكثر مما لرجل واحد من المسلمين ، فقد أفلحت إن كان تمنيك الباطل ، وادعاؤك ما لا يكون ، ينجيك من المأثم ، ويحل لك المحرم ! . . وقد بلغنى أنك اتخذت مكة وطنا ، وضربت بها عطنا ، تشترى بها مولدات مكة والمدينة والطائف ، تختارهن على عينك ، وتعطى فيهن مال غيرك . . فارجع هداك الله ، إلى رشدك . . واخرج إلى المسلمين من أموالهم . فما قليل تفارق من ألفت ، وتترك ما جمعت . وتغيب فى صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد فارقت الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، غنيا عما خلفت ، فقيرا إلى ما قدمت . . »

فلم تحركه — بروايتهم ! — العظة ، هو التقى النقى ، بل أمعن فى الظلام ، بحماقة معتوه ، وغفلة غرير ، إلى محاولة مفضوحة تأخذ الإمام بجريرة جرم ابن عباس نفسه أول من شارك فيه ؟ . .

كان جوابه العجيب :

« أما بعد ، فإنك قد أكثرت على . ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلها ، وذهبها وعقيانها ولجينها ، أحب إلى من أن ألقاه بدم امرىء مسلم ! . . . . » .

خطأ بخطأ ، أو جريرة بجريرة ، فلا لائم إذن ولا ملوم لأنهما كليهما فى الإثم سواء ! . . وكأنما نسى ابن عباس — أو بأصدق تعبير ، من لفق حكاية الاعتزال ودسها عليه وعلى التاريخ ، أنه بهذا الدفاع الخبيط ، يقر على نفسه بجريمة السرقة من حيث أراد إثبات غثاثتها إذا هى قيست باقتراف على إراقة دماء

المسلمين ! . . وكأنه نسى أيضا أن دفاعه يجمع عليه الجرمين معا ، لأنه شارك إمامه القتل والقتال من أول لحظة امتشق فيها الحسام ! . .

لكنه السياق الذى جمحت روايات الرواة فيه بلا روية كالطرائد المذعورة ، تضرب على غير هدى ، فتنقلب وتضطرب ، وتتعثر وتكبو ، وتتجاوز فى تخبطها الضال مجال الخيال إلى مجال الخبال ! . .

وها هو يبعث إلى الإمام ، حين رآه يعاود تذكيره حق الناس وحق الله ، برسالة وعيد :

« . . . . لئن لم تدعنى من أساطيرك ، لأحملن هذا المال إلى معاوية يقاتلك به ! . . . . »

ومن العجب أن يتهدد ويتوعد وهو الحقيق بالوعيد والتهديد .. ومن العجب أيضا أن يسكت على عليه ، ويقبض عنه يد السلطان التى تستطيع أن تناله بالعقاب أينما كان ولو لاذ بأبعد مكان . . فعلى كثرة ما ورد فى واقعة الاعتزال من أقاويل ، وما لهثت الروايات وراء التفصيلات ، تقف ألسنة الادعاء عند مكة خرساء . فلا نحن نسمع عن رسول من لدن على بلغها لمحاسبة ابن عمه . ولا نحن نعثر على كلة واحدة إلى عامله عليها ليلاحقه بالحساب . . وما كان الأمر عليه باليسير ، ولا بالذى يغفل عنه لو قد وقع — فعلا — من ابن عباس ما يستحق المؤاخذة والعقاب بل الإعذار والعتاب . إنما كان أولى به ، وأهون عليه . فإذا قيل : إن لياذ مغتصب المال بالبلدة الحرام ، وفيها قومه وأهله الأدنون ، كان عاصما له من المساءلة والردع ، فإن أولئك القوم هم كذلك أهل أمير المؤمنين ، فهم ألصق به وشيجة ، وأحرص على امتثال أمره ، وأقرب إذن إلى أن يكونوا معه على ابن عمه الخارج عليه . ثم لا عاصم أيضا فى منكر ، ولا جوار لأثيم ..

غير أن الاقتضاب ، فيما يلوح ، كان أليق كنهاية لهذه الحكاية — التى تفوح من سطورها رائحة الافتعال ، وتشيع فى صفحاتها بصمات الادعاء والتهويل — من النهاية الطبيعية التى يرسمها منطق الحقائق ، وخلائق على ، وسجايا

ابن عباس ! . . فليس أيسر على الزاعمين من اقتضاب السياق ، ولا أسهل من إسدال الستار قبل الختام ، لأن بحسبهم أن يبلبلوا الخواطر ، ويوزعوا الاتهامات ، ويشيعوا الريبة فى سمعة هذا وقدرة ذاك . .

ومع هذا كله ، فاختلاق حادث اعتزال ابن عباس يكاد يكون الراجح وصدقه هو المرجوح حين نلقى بنظرة متأملة على وقائع الحقبة المعاصرة ، من خلال النصوص التى نقلنها ، وما ورد فى ثناياها من آراء . .

فكثير من الذين ذكروا الحادث ، كواقعة تاريخية كثر رواتها إلى ما يشبه الإجماع ، أوردوا معه روايات آخرين وإن كانوا قلة ، تنفى وقوعه ، وتقرر بقاء ابن عباس على عمله بالبصرة لم يبارحه إلى يوم مصرع الإمام . . وغيرهم طائفة لم يذكروا شيئا عن الاعتزال وأغفلوه ، وفى الإغفال بطبيعة الحال ، دلالة على عدم وقوعه خليقة بأن تشكك فى رواية الذين أثبتوه . . ومنهم أيضا من نسبه إلى عبيد الله بن عباس ، لا إلى عبد الله . ولعلهم إذ فعلوا ، قد دفعهم إلى هذا فرار عبيد الله من اليمن أمام بسر بن أبى أرطأة ، وما عساه قد اقترن بالفرار من احتمال خروجه — كعادة الفارين من الخطر — بكل ما استطاع حمله من مال إمارته خشية عليه أن يقع طعمة سائغة فى يد العدو المغير . .

هذا الاضطراب الظاهر فى الروايات ليس فحسب خليقا بأن يحمل على تقبل القصة المعروضة بالحذر والحيطة ، بل هو يحمل أيضا على الشك فى صدقها ، ثم يدفع من بعد إلى نفيها النفى القاطع إذا ماتبدى من سلوك أبطالها ، فى مراحلها العديدة ، ما يناقض خلالهم المأثورة ، ويخالف فطرتهم المفطورة ، ويباين مألوف تصرفاتهم ومشهودها : ما عرف منها قبل الحادث المزعوم ، وما عرف بعده على السواء . .

وقد كان من الجلى ، فى الحدث المروى ، أن به من التناقض بين السلوك الواقع وبين السلوك المنتظر من صاحبه ، ما يؤكد أن الفعل ليس الفعل ، أو الفاعل ليس الفاعل ، لأن صدور هذا التصرف من هذا المتصرف هو المحال الذى

لا سبيل إلى حدوثه فى واقع الحياة . فالقضايا المنطقية لا تجيء نتائجها عفوا وخبط عشواء . ولكنها تسير بقانون دقيق فتترتب على مقدمات بذاتها — لاسواها — لا تتحقق إلا بها ، فإن ثبتت الأولى ثبتت الثانية ، وإن تغيرت تغيرت حتى ليمكن أن يقال إن لها صفة الاستقرار . . والأفعال سلوك لا ينشأ بذاته . بل ينبنى على مقومات شخصية الفاعل متفاعلة بظروفه ، فهى نتائج منطقية تتكرر دائما ولا تتغير ، ما ثبتت المقومات وهى الأشخاص . وابن عباس ، على هذا الأساس كمثال ، ليس من يسرق ، ولا من يخفر ذمته وينكث عهده ، ولا من يخون أمانة الله والناس ، لأن السرقة والنكث والخيانة نتائج منطقية محال ترتبها على المقدمة الماثلة ، وهى شخص الفاعل المفترى عليه ، بمقومات شخصيته من فطرة ودين وأخلاق وتكوين نفسى ، كفيلة كلها بأن تعصمه من التردى فى حمأة مثل هذه الموبقات . . فإذا قيل ، فى رواية أو روايات ، بصدور هذه الكبائر الفاحشة منه ، واجتماعها فيه فذاك هو النتيجة التى تناقض المقدمة . أو هو اجتماع ضدين معا كالماء والنار ، ولا يجتمع ضدان فى آن ، لأنهما لا يأتلفان ! . .

وبعيد عن التصور كل البعد أن تقع الجفوة التى شهدنا بين ابن عباس وأمير المؤمنين حتى تصل بالعامل إلى حد اللدد والتوعد ثم لا يتحرك معاوية ليستغل هذه الفرصة التى أتته طائعة ، وتهيأت على غير انتظار . . فلقد عهدنا العاهل الأموى يجهد الجهد كله ، ويركب الشاق والعسير لاستهواء أصحاب على ، وهم بعد فى ولائه ، اجتذابا لهم ، والتواء بهم عن غريمه الحقيق بالولاء . . ومع ذلك فلم نره هنا يحاول استمالة ابن عباس وإنه عندئذ لأطوع للميل إليه ، وأسلس قيادا ، بعد أن باين الإمام . .

إلى هذا كله لم تخل السير من مواقف مشهودة لابن عباس تعلن وفاءه لابن عمه ، واعتصامه بطاعته ، وحرصه بعد موته على تمجيده ونشر فضائله التى طالما حاول أعداؤه أن يواروها التراب . وقد علم أنه كتب من البصرة ، بعد

مصرع الإمام ، إلى معاوية يقرعه ويقسو عليه . وعلم أيضا أنه كان لا يتحرج من مشاقته والعنف به ، على مسمع جلسائه ورجال دولته بعد اقتعاده إمرة المؤمنين ، خائضا فى مثالبه ، معددا مناقب على ، حتى لقد كان الرجل لا يكاد يخاص من سوط لسانه إلا أن يداريه ويسترضيه . فإذا كانت هكذا الحال فأين الجفوة وأين الاعتزال ؟ . .

كلا لم يخرج ابن عباس على طاعة على ، ولا اعتزله ، ولا التوى عمال . بل قد ظل مواليا له ، حافظا عهده فى خلافته . وفيا له ، ناصحا عن ذكره بعد موته . ثم تابع سيرته هذه مع الحسن فأسرع إلى بيعته ، ووقف بالكوفة يسانده ، وقاد مقدمته حين عزمت الكوفة على غزو الشام ، ولم يلق بطاعته إلى معاوية إلا بعد أن ألقى بمثلها إمامه الجديد ابتغاء السلام . .

٤

إن لم تكن بصمات أصابع ابن أبى سفيان هى المنطبعة على حكاية الاعتزال ، فبصمات من هذه تكون ؟ . .

ترجيح جانب العاهل الأموى مقبول ممكن ، بدلالة سابقته فى التلفيق . وبشهادة أنه وحده الذى يفيد من القطيعة المنتظرة ، نتيجة للدسيسة ، بين ابن عباس وأمير المؤمنين . وعلى أساس انتفاعه ، معنويا ، من أثر القصة المختلقة فى الناس كشائعة تثير الخواطر ، وتبلبل الأفكار ، وتوحى إليهم أن انفضاض ولى حميم ، لصيق الصلة بالإمام كابن عمه ، إيذان ببدء انهيار سلطان على ، وذهاب دولته ، وإعلان عن الدولة الجديدة البازغة ، يلفتهم إلى التعلق بأذيال الشام .

ومع أن هذا الترجيح معقول ، فإن أمانة العرض لا تتيح لنا القطع بصحة الافتراض ولكنها كذلك لا تتيح لنا نفيه النفى المطلق الذى يعدوه . . إنما الأميل إلى الحق أن ننكر الاعتزال كحقيقة تاريخية وقعت ، وأن نثبت مظاهره ومعالمه كحكاية حيكت ، بقلم ما ، فى يوم ما . . والفرق لاريب واضح بين مايحدث وبين ما يكتب . ثم لنا فى إنكار حدوث الحادث سند معتمد فى خلائق ابن عباس ، وفى التسلسل المنطقى للتاريخ . . كما أن لنا فى الإقرار بوجود الحكاية كحكاية ، سندا معتمدا من الرسائل والخطابات التى نقلها الرواه . .

ولا تناقض فى هذا التأرجح من النفى إلى الإثبات ، ومن اليسار إلى اليمين . ولا تفسير إلا بفرز الصحيح من الزائف ، والصدق من التمويه . .

فالرواية ثابتة مروية ، مصوغة فى السير بالحروف والكلمات والعبارات . ولكن ما ترويه من وقائع ، وما تقدمه من أسانيد ، هو المرفوض المدحوض الذى لم يكن ولم يولد ، ومن ثم فإنه لم يدب بقدمين على أرض التاريخ . .

فإذا كان معاوية قد برىء من تلفيقها — ولا نكاد نراه ! — فلعل صنيعة للأمويين قد ابتدعها خياله .. ثم مشى بها لسانه فى الندوات والمحافل ما شاء ، لتفرض نفسها على الأذهان بقوة الإلحاح ، ثم لتتسلل إلى صفحات الأحداث الصادقة التى لها ثبوت اليقين ..

أو لعل امرأ من شيعة بنى أمية ، فى عصر لاحق ، هداه إليها تفكيره ، فأذاعها لتكون وسيلة شائقة سهلة ، يستطيع بها أن ينال من قدر شيخ بنى العباس خفضا من هيبة بنيه الذين حطموا الملك الأموى ، وأقاموا دولتهم على أنقاضه . ولا نظننا بهذا التقدير نميل كثيرا عن جادة الصواب وتاريخ الدول الإسلامية المتعاقبة لم يسلم قط من عبث خصومها العابثين بسيرتها ، وبسمعة أساطينها ، من خلال تشويه الحقائق ، وتزييف الوقائع ، واختلاق الأخبار ..

كيفما كان من وضع القصة ، فهى صورة لما تطالعنا به روايات الفترة من محاولات الخداع والتمويه التى اصطنعها معاوية ، وزاد تمرسا باصطناعها فى العام الأخير من خلافة الإمام . فقد كثر منه فى هذه السنة الأخذ — كما أسلفنا — بالأساليب التى تضعف من شأن على ، وتهون أمره ، أو تظهر له من الضعف والهوان ما ترتع فيه الأخيلة والظنون .. وبرع فى طريقته تلك البراعة التى تبدى الأكاذيب فى هيئة حقائق ، وتبدى الحقائق فى هيئة أكاذيب . ثم جرى فى هذا كله على سياسة التدرج التى تنتقل بالرأى العام خطوة بعد خطوة ، ومرحلة وراء مرحلة لتلوح للناس غايته التى يهفو إلى بلوغها وكأنها النتيجة الحتمية لتطور الأمور ..

فمن عجب أن تستهوى أساليبه هذه الكثيرين ، وتلقى منهم الإكبار الذى يضعه على قمة البراعة السياسية والاقتدار كرجل دولة مرموق ، حتى لنجدهم يشيدون بهذه البراعة كفضيلة تحسب له ، وتسلكه فى زمرة الدهاة والساسة العظام ، لا كنقيصة تحسب عليه ، وتنزل بمقامه العلى كصحابى ، وكصهر لرسول الله . والرأى هنا ليس للحوار ، بل هو تقرير ، لأن المبادىء التى تضعها الشرائع

على اختلاف النوع والزمان والمكان ، ترمى إلى بناء الإنسانية الفاضلة على أساس الإنسان الفاضل . . فإذا نظرنا إلى الدهاء على أنه القدرة على التكيف لمواجهة طوارئ الحياة ، وتطويعها لمصلحة جماعة من الجماعات أو شخص من الأشخاص ، فإنها القدرة التى لا ينبغى إذن أن تسير إلى هدفها فى غير طريق المبادئ المشروعة ، وإلا نزلت بقيمة الانسان فى عمومه ، وبقيمة صاحبها ، الذى سخت نفسه ، إلى وهدة سحيقة من السقوط لاينبغى أن يهبط إليها إنسان ، لأنها عندئذ تخرج به عن حدود الخلق الرضى والسلوك القويم والمبادىء السليمة التى أفرزتها الإنسانية خلال فترات التأمل والصراع الفكرى ، ورسمتها الأديان ، وما فتئت — طوال مراحل الحياة البشرية — تنادى باعتناقها متون الشرائع الموضوعة على اختلاف نظرات الدعاة والوضاع ، وتباين المواقع والبيئات ، وتجهد الجهد كله لحمايتها بسطوة الضمير أو ببطش القانون . .

فالقيم المثلى مثلى على امتداد الزمان والمكان . وهى دائما غاية وأسلوب . والمجتمعات بشتى صورها ، وبفارقهنا فى الحضارة أو بفارق هنك، تعمل فى كل حين على ترسيخها فى القلوب والأذهان، وتنشيطها بالدعوة التى تهذب العقول وتثرى الأفكار ، وبالقدوة التى تترجم المتون إلى أفعال . . والمجردات الفاضلة ، من أمانة وصدق ومروءة وعفة وشمم وإيثار وما إليها من معالم السلوك السوى هى وحدها ، وبغير جدال، طريق البشرية إلى التسامى عن حضيض الحيوانية التى تعوزها القدرة على تفهم القيم الروحية والمعنويات ، فلا تكاد تدرك غير الولاء للذات ومفارقة الشهوات ، كما لا تكاد تعرف غير لغة الضباع والذئاب ووحوش الغاب . وإذا كان معاوية قد هفا إلى تسنم أريكة الحكم فى الدولة الإسلامية ، وجند «دهاءه» لاحتلاب السلطان ، فشأنه وما يهفو إليه ، لأن الطموح لا يعاب . وشأنه وما يصيب بجهده واقتداره من هذا السلطان أو أصاب . وشأنه وما يختار به غرضها المبتغى من أساليب . . ولكن الدهاء ليس الالتواء . وليس بالمناقص تبنى الأمجاد . وليس بإهدار القيم الرفيعة تضرب الأسوة لمن يريد الائتساء . .

فالحاكم أو الأمير فى حقيقة الأمر ، قمة التنظيم الشعبى فى كلا مجالى نشاط أمته : السياسة والاجتماع . وهو بوضعه ، هكذا ، قبلة كل الأنظار . وهو بفكره وقوله وعمله المثل الحى بين جماعته أو رعاياه الذى يحتذى للاقتداء . فهو إذن ، بكل ألوان سلوكه يقود مسيرة السلوك العام ، لأن حركة الحياة فى كافة المجتمعات تقوم دائما على ظاهرة التلقين وظاهرة التقليد ، وكلاهما ينحدران من الأعلى إلى الأدنى من الكبير للصغير ، ويتلقاها الخاصة والعامة — تلقائيا ودون اقتناع أو محاكاة — عن صاحب الأمر المرموق ، الذى تفترض له صفات التميز والاقتدار . وليس أحد فى أمة من الأمم أرفع قدرا ، وأسمى مكانة من رئيسها ، ولا أولى لها باحتذائها سلوكه : قوله بالاستماع ، وأمره بالانصياع ، وفعله بالاتباع . .

معاوية إذن ، حين يقول أو يأمر أو يعمل ، حقيق — كقائد لمجتمعه — إن تلتفت إليه الأذهان ، وتصغى الآذان ، وتهرع رعيته ، فرادى وجماعات ، إلى السير على نهجه فى المقول والمفعول ، بل فى المفترض والمظنون ، ولاء له ، أو تشبها به ، أو إيمانا منها بأنه يفكر فيجيد التفكير ، ويدبر فيجيد التدبير ، لأنه الأقدر على معالجة الأمور . . فلا عجب ، بعد ، أن يكون بحكم وضعه على قمة التنظيم الاجتماعى فى إمارته هو الذى يحدد للناس مناهج السلوك ويحملهم — أو يغريهم — بركوب هذا الطريق أو ذاك ، ويعيد تشكيل فكرهم وخلقهم وفقا لقوالب فكره وخلقه وما يستحدث من رأى ونظم وتقاليد . .

ولقد جبل الرجل قوالبه هذه ، فيما بدا ، من طين الذات ! . . من الأثرة . من النفع الخاص . من الالتواء الذى سماه رواة التاريخ دهاء وما هو بدهاء . من الخداع الذى سموه ذكاء وما هو بذكاء . من الأنانية التى سموها طموحا وما هى بتسام إلى العلياء ! . . فإذا تضعضعت فى نفوس الأمة ، من بعد ، مثليات المعنويات ، وعز وجود الإنسان الفاضل أو ضاع فى الغمار ، وتمرغت القيم الروحية والخلقية فى وحل الماديات ، فالعقبى إذن جيل من الناس صاغه على تلك الشاكلة المنحرفة ، وانحدرت منه — على نفس غراره — سلسلة الأذيال !

كلا ليس بمحمدة ، بل هو نقيصة ، ذلك الدهاء الذى ادعاه الرواة لعاهل بنى أمية ، ولونوا به صورته ، وعطروا ذكره ، ونقلوا لنا من خلاله حياته العامة كعلم بين الساسة العظام . . ولئن كان الرجل قد شاء أن يبنى لنفسه ملكا فلقد كان أولى به — وفاء للإنسانية ، وحفظا لشرفها ، وحرصا على تطورها إلى الارتقاء — أن يبنيه على الفضائل ، أو يدع الأمر لمن هو أقدر على إقامة البناء . . ولئن كانت الخصومة قد لجت بينه وبين على ، فإن الفىء إلى الحق كان أحق بأن يفض النزاع . . لكنه أبى إلا أن يحتل ويموه ويحتال لتكون النتيجة على ما يهوى وكما شاء ، أحسن لجيله ولما بعده من أجيال أو أساء !

ويوشك المرء أن يتردى فى حمأة رذيلة من الرذائل فلا يكاد ينجيه من التردى إلا أن يشق على نفسه بشدة الأخذ والقمع كما يشق على الراكب ترويض دواب نافر حرون ! . .

فالرذائل — عادة — شهية ، خفيفة على النفس ، طريقها معبد قصير . والفضائل — عادة — مريرة ، ثقيلة عليها ، طريقها وعر طويل . . والمستمسك بالمبادىء العلية أو بدينه ، كالقابض على الجمر ، كما قد قيل . وإذا كان معاوية ، وهو الفطن الكيس الأديب اللبيب ، « أعقل » من أن يخدع ، فلقد كان أولى به أيضا — لسابقة إسلامه — أن يكون « أفضل » من أن يخدع ويجنح إلى الانحراف . ولو أنه حاسب نفسه قبل أن يقدم على ما أقدم عليه ، لتوقى هذه المزالق ، ولنظر كنظرة غريمه إلى الحياة ، ولوعى مثل حكمته التى أدلى بها ذات مرة لابن عباس وكانت دائما له شعارا يرفعه فوق الرءوس . .

تلك الحكمة الخالدة تقول :

« ما قربك من الله يباعدك من النار . وما باعدك من الله يقربك من النار ، ولا خلاف فى صدق هذا الشعار . .

لكن الهوى يميت القلوب ، ويطمس البصائر ، ويعمى الأبصار » .

ومع هذا فلا غرابة فيما اقترف العاهل الأموى من « أخطاء » لو أنه وزن بميزان المفتونين بهذه الحياة ! . . فالناس ، إلا ندرة ، يقبلون بشغف هو النهم

على مالا تبيحه أصول الأخلاق ، أو تجيزه قواعد الشرائع ، لأن كل ممنوع مرغوب . ولأن المنع حرمان وتجويع ، والمزاولة امتلاء واشباع . ولأن ثمرة الرذيلة لذة حسية أو معنوية عاجلة يستمتع بها المرء فى حياته الماثلة ، سواء بإرضاء شهوة الجسد أو بتحقيق مغنم مطلوب . أما الثمرة الحقة للفضيلة فتتمة مرجاة ، وجزاء مؤجل إلى عالم بعيد محجوب ! . . .

فلعل معاوية قد شاء أن يتعجل اللذة ويسبق القطاف ! . . لعله آثر اختيار الطريق القصير ! . . لعله أنسى ، فى إبان افتتانه بالسلطان وموجدته على الإمام ، ذلك العالم البعيد المحجوب .

وكيفما كانت نوازع الرجل ودواعيه ، فقد استمرأ المنهل الذى رآه يرويه وانحرف بكل عزمه عن المثليات الفضلى إلى خطته يتابع السير عليها بثبات وتصميم ، يتبع الخطوة الخطوة ، ويقطع الشوط بعد الشوط ، غير متحرج أن يدوس من القيم الإنسانية ما يدوس . فبحسبه أن يتم رحلته ! بحسبه أن يبلغ غايته وإن خالف المشروع ، وقارف الممنوع ، واستباح ما لا يباح ! بحسبه ولاء لنفسه أن يرتفع بها فوق الأعناق ولو على حطام الأخلاق !

ثم آن له ، بعد هذا أن يكمل سلسلة تمويهه ، فيقطع من الخطة إلى هدفه مرحلة جديدة . .

هذه المرة اتجه وجهة من نوع آخر فى عرض نفسه على الناس . وجهة لا يقصد بها إلى رجل بذاته من خاصة على وأوليائه تلويه عنه . . ولا إلى بلد من البلدان أو إقليم من الأقاليم يثيره ويؤلبه على أن ينفض عن غريته فيلتحق بحدوده ، ويزيد فى ملكه . بل لقد طار إلى ماوراء الأمانى وحلق فى سماء حلمه الموعود الذى يحتوى العباد والبلاد ، فاستبق بكيده يسرع إلى مجمع شعوب الإسلام وملتقاهم بلعبة ما كرة من الاعيبه خليقة بأن تأخذ العقول والعواطف بمثل السحر ، ويسرح أثرها على الدولة سروح النار فى الحطب الجف ، لتحتويها جميعها وتطويها طيا من القلب والأطراف . . .

وجه معاوية ، هذه المرة ، لعبته إلى موسم الحج الذى يمثل المؤتمر السنوى الإسلامى

العام ، ويأتيه الحجيج ، على الأقدام والضوامر ، مندوبين شعبيين عن مواطنيهم من كل جنس ولون ، في كل أرض أظلها علم الإسلام وكادت تضم في رقعتها المنبسطة — من خليج الهند ناحية الشرق ، إلى بحر الظلمات ناحية الغرب — نصف عالم تلك الأيام ..

فكأني بتلك الأفواج الحاشدة ، التي اجتمعت في رحاب الله ، وعند بيته الحرام ، قد أخذتها دهشة غامرة وهي ترى يزيد بن شجرة الرهاوي يعلن نفسه أميرا على الموسم من قبل معاوية ، ثم يحاول أن يقيم للناس حجهم ، ويؤمهم في مناسكه ، وما ظنوا لحظة ، ولا عهد غيرهم قبلهم في المواسم السابقة ، أن يكون أمير الحج من قبل امرئ غير علي بن أبي طالب ، أمير المؤمنين ، وصاحب الولاية الشرعية على الدولة ، وعلى البلدة الحرام .

فما الذي غير مألوف الأوضاع ؟ . . .

إنهم لغير ملومين لو شط بهم التساؤل وذهبوا كل مذهب مع الظنون . .

أقد غلب معاوية على الأمر ، فصار له تعيين الأمراء ؟ . .

أم اقتسم وغريمه مظاهر الإمرة في هذا الوطن ، عن اتفاق ، لهذا عام ولذلك عام ؟ . .

أم تقلص نفوذ علي عن الحجاز كما تقلص من قبل عن مصر بعد الشام ؟ . .

أم اقتحم ابن أبي سفيان على الإمام عرينه ، إذ استشعر منه الضعف ومن العراق التخاذل ، فتحداه في حماه ، وهو موقن بعجزه عن التصدي للتحدي ، وعن ردعه لرده إلى حيث ينبغي أن يكون ؟ . .

ما ترى معاوية ، بفعلته هذه كان يرمي — فعلا — أن يؤمر ابن شجرة على الموسم ، ولا كان يعتقد قط أن سيتاح لرسوله القيام بما ندب له ودونه عسكة عامل لعلي وأنصار ، إن يكونوا بعيدين عن قاعدة حكمه بالكوفة ، فهم بلا مراء أشد قوة بوطنهم ، وأعز نفرا ممن عسى أن يكون له هو من أنصار . .

لكنه أقدم على ما أقدم ليعلم الحجيج ، وليعلم بعدهم من وراءهم من مواطنيهم ، بمختلف البلدان فى الأقطار الإسلامية المترامية ، أنه صلب العود ، قادر على مناوأة خصمه ، وعلى اقتحام حماه فى أى وقت يشاء . . أما أن يحال بين مندوبه ابن شجرة وما أوفد له ، أو أن يثور النزاع بينه وبين قثم بن عباس عامل الإمام على مكة ثم يتفق الناس على رجل آخر سواهما لإقامة الحج حسما للتنازع أن يؤدى لقتال فى الشهر الحرام ، بالبلدة الحرام ، فإن هذا وذاك ليسا مما يهم معاوية ، ما دام قد بلغ غرضه من التمويه على من شهدوا الموسم ، وضمن ذيوعه من بعد — على ألسنتهم — فيمن يلونهم من الشعوب . .

وقد فطن على إلى هذه المكرة المنكرة من معاوية ، وأدرك سوء أثرها فى الناس فندب رجاله لرد ابن شجرة عن مكة . غير أنهم كدأبهم وعدوه . ثم مطلوا بالوعد . ثم ما زالوا يمطون فى التسويف والمطل حتى سد دونهم بمنطقه وتحريضه كل سبيل إلى المراوغة فخرجت فئة منهم لما أرادهم له ، على رأسهم معقل بن قيس ، يطيرون جنوبا إلى الحجاز . .

لكن خفة الحركة ، وسرعة السرى ، وحث السير لم تغنهم غير قليل . فقد ذهب جهدهم كله مع الريح . بلغوا هدفهم بعد انفضاض الموسم ، وعودة الأمير الدعى إلى الشام . ولم يكن كل ما جنوه سوى بضعة نفر من أصحاب الرهاوى وقعوا أسرى ، فساقوهم أمامهم إلى الكوفة . .

وليس بمقطوع به ، وإن يكن أدنى إلى الرجحان ، أن هذه الحركة التمويهية تركت أثرا فى نفوس الناس ، نال من حزم الحكم الشرعى القائم ، وشكك فى اقتداره على مقاومة القوة المنافسة له ، المتربصة به لتقضى عليه . . ولعلها أيضا أن تكون خدشت هيبة الإمام . بل لعلها هيأت الأذهان ، على أوسع مدى فى طول الرقعة الإسلامية وعرضها، لتوقع غلبة معاوية عليه واحتلابه سلطانه لو امتد الوقت ، وسارت الأمور على نفس النسق الذى توهم الكثيرون — بفعل التمويه — أنه الطريق الطبيعى للأمور . فعلى ما هو معلوم من حق على على الأمة قاطبة بحكم البيعة،

ومن علو قدره عند المسلمين بمنزلته من رسول الله ، ومن قربه إلى قلوب الكثيرين بمآثر خلقه الكريم ، وأخبار بطولته المترددة ، منذ شبابه ، على ألسنة الشعب كالأساطير — مع هذا كله فقد كانت العواطف والصلات المعنوية والروحية سلعة لا تكاد تلقى حظها من الرواج في سوق العلاقات الإنسانية في المجتمع كما ينبغي أن يلقى من التقدير والتأييد كل نبيل وشريف . بل قد كانت أهون عندئذ أثرا في النفوس من مظاهر القوة الباطشة . وأخف وزنا من بهرج الجاه وبريق المال . وأخفت صوتا من دوى التهليل وضجيج التضليل . .

ولقد احتكر ابن أبي سفيان — فيما لاح للجماهير — سوق السطوة المادية ، واجتمع له من وسائل الترويج كل ما يضمن لبضاعته الإقبال . . فإذا هو عرض الآن إحدى سلعه ، فإنها خليقة لا محالة بأن تروج !

ولم يتردد عن الإقدام . . فالسوق ظمآنة للشراء . والسلعة لديه حاضرة . وسليقة التاجر في دخيلته ، تؤكد له أن الصفقة لا بد مدرة عليه أحش الأرباح .

وبادر على الفور يتقدم إلى الناس بأحدث سلعة ، وأقدرها على الاستهواء . .

ما أن خلت السنة التاسعة والثلاثون من الهجرة ، ودخلت السنة الأربعون حتى حسر الداهل الأموى كم الساحر عن لعبة جديدة ، وقرع أكبر طبوله !. إنه الآن يستطيع أن يجتذب كل الأفئدة . ويلفت كل الأنظار . ويملأ كل الآذان برنين صاخب يتعالى جرسه ، ويتوالى صداه في الآفاق حتى لا يسمع سواه . .

وكان ما أراد . .

فلم يكد يمضى بعض العام حتى أخذت ألسنة الناس تتهامس ، هنا وهناك ، بأنباء هي أشبه بالمحال منها بالحقائق ، تنفغر لها الأفواه من دهشة ، وتذهل العقول . . ولكنها ، مع هذا ، هي المحال المطلوب المحبوب ، والخرافة التي تهفو الأنفس أن تراها مجسدة تخطر على واقع الحياة . .

وعلا الهمس الخافت إلى لفظ مسموع . . وتوالت الأنباء رويدا رويدا ، في

إعلان بعد إسرار . . وتقبلت الجماهير المتطلعة كل كلمة تلقفها بالبشر ، وكل معنى تومىء إليه بالترحيب .. فثمة مايشير إلى كتب تطير من الشام إلى العراق وكتب تجرى من العراق إلى الشام . ثم ثمة مايؤكد أن الفريقين يتراسلان . ثم ثمة مايشف عن وفاق قريب ، وعهد جديد من الود والصفاء ، يلتقى فيه الأعداء المتناجزون بالسلاح لقاء إخوة متحابين . . يعيد الطمأنينة ويحقن الدماء . .

وعندما انقضى بعد هذا مثل مايقطع البريد من دمشق إلى الكوفة ، ومن الكوفة إلى دمشق ، كان قد ذاع خبر الصلح بين على ومعاوية ، بوضع الحرب ، ونبذ الخصام ، وإعادة السلام فى ديار الإسلام باقتسام السلطان بينهما ، لعلى العراق ولمعاوية مصر والشام ..

٥

علم الناس ، بعد قليل ، أن الدعوة إلى السلام ولدت بالشام ، ثم حبت إلى السكوفة ، ثم قامت على قدمين لتأخذ وجهتها إلى مختلف الأرجاء ، ثابتة الخطا ، حثيثة الحركة ، مشدودة القوام ، تطرق المحافل ، وتدخل الدور ، وترتاد الدروب والطرقات هنا وهناك ، حتى أصبحت ولا شاغل غيرها يشغل تفكير الجمهور . . .

وحين يذكر السلام تستيقظ المشاعر ، وتنشط الأحاسيس .. فالعيون تتألق بعد إعتام . والشفاه تبتسم بعد عبوس. والأفئدة تطفر نشوانة وقد راحت تنجاب عنها غواشى الحيرة والقلق ، وأثقال الهموم والأحزان التى تفرضها ويلات الحرب، وتنشرها على الفكر والقلب والجسد كسحائب التراب والضباب التى تثيرها الأعاصير . حتى الكلمات والعبارات تصدح كالترانيم . . فالحرب موت والسلام حياة . الحرب خوف والسلام أمن . الحرب ظلمة والسلام نور . والأمن والنور والحياة هى غاية الإنسانية فى كل زمان ومكان ، ومنتهى رجاء كل إنسان ..

وحين تصدر الدعوة إلى السلام من قوى قادر ، أو يلبيها وهو لا يعسر عليه أن ينال بالقتال كل ما يريد ، ثم يرد نفسه عن السير لهدفه خائضا فى الدم ، فإنها إذن منة منه يسخو بها على عدوه سخاء الكريم المتعفف . وإنه إذن لسخاء الذى لا يدانيه جود ، ولا يوفيه ثناء ، لأنه السخاء بالحياة ..

وكان معاوية ، كما لاح للناس ، البادئ بالدعوة ..

فقد جاء فيما نقلته إلينا الروايات من أخبار .

« .. .. لما لم يعط أحد الفريقين صاحبه الطاعة ، كتب معاوية إلى على :

أما إذا شئت فلك العراق ، ولى الشام ، وتكف السيف عن هذه الأمة ، ولا تهريق دماء المسلمين . .

ففعل . وتراضيا على ذلك . فأقام معاوية بالشام بجنوده يجبيها وما حولها . وعلى بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده .. .. »

هذا الذى ذاع فى تلك الآونة ، ونقلته إلينا الروايات المدونة بعدها بوقت طويل أو قصير ، كان خليقا بلا أدنى ريب أن يحمل طائفة غير قليلة من الذين عاصروا مولد الخبر على أن يروا فى ابن أبي سفيان القوى المتعفف عن القتال ، السخى المتكرم بالسلام ، إذ بمقدوره مغالبة خصمه والانتصار ، آخر الأمر ، عليه . ولكنه آثر، كرما منه ونكرانا لذاته ، الانتصار على نفسه ليحقن الدماء ..

ولا لوم ، بطبيعة الحال وفى حدود الشواهد الطافية فوق سطح الظروف ، على أصحاب هذه النظرة أن يتعلقوا بنظرتهم هذه لأنها الرأى المنتظر القبول بعد ما خامر معاوية عقولهم بكل تلك الأساليب البارعة التى أظهرته صاحب الحول المتحكم فى توجيه الأمور . ولا لوم كذلك إن رأوا فى الدعوة منفذا لخلاص على مما هو فيه بعد أن أطبقت عليه الأحداث ، وسدت دونه كل منافذ الغلبة على الشام .. فإذا دعا معاوية للسلام ، فهى دعوة سماحة . وإذا لبى على الدعوة ، فهى تلبية ضرورة . وشتان بين إسماح القادر المسيطر وقبول المكره المضطر فى موازين التقدير . . .

على أن خبر هذه الدعوة السمحة ، وما تلاها من صلح أعقبته هدنة ، لا يكاد يسلم من مظنة الظانين وريبة المستريبين . . فهو أشبه بما ذكر قبله عن خبر اعتزال عبد الله بن عباس . وهو يحمل فى دخيلته عوامل تقويضه وإن لاح من خارجه راسى الأسس على منطق الحوادث ، قائم البناء بسند الرواة . بل الأولى أن يوصف بأنه أوهى من ذلك ، وأقل تماسكا وقدرة على الثبات أمام هبة من هواء الحقيقة ، إذا ما روعى قياس صدقه بعدد أولئك الرواة أو بصيغة الروايات . .

ففيما ورد عنه فى الأسناد المقولة ، ذكر هذا الخبر آنا بإطناب قد ينبىء عن قيمته كواقعة تاريخية هامة لا ينبغى ذكرها دون إفاضة وتفصيل . وذكر آونة

ثانية باقتضاب لعله أن يوحى إلى قارئه بالشك الذى قد يمس إنكار الناقل واكتفاءه فى إيراده بالإشارة الهشة التى تفيد الإهمال أو مايشبه الإهمال .. وإلى هذا الاقتضاب وذلك الإطناب ، لم ترد عنه كلمة واحدة فى سير أخرى أغفلته كل الإغفال ، كأن لم يقع ، أو كأنه من لغو القول وسقط الكلام الذى لا يستحق عناء الاهتمام . .

وما نحب أن نتناول هذه الهدنة المدعى قيامها بين الفريقين بالمناقشة ، لأن المناقشة أحرى بأن تطرل فيما لا طائل منه ، وأولى بأن تعود إلى نقطة البدء التى تحرك منها ابن أبى طالب يوم اختير لإمرة المسلمين .. فالهدنة ، كما هو ظاهر ، تقوم على صلح عرضه معاوية وقبله الإمام . والصلح يقوم على اقتسام الدولة بشطرها شطرين مستقلين : لهذا الرجل العراق ، ولذلك الرجل الشام . والقسمة — كمجرد فكرة — لا توافق الاتجاه الجديد الذى خطه الإسلام ، ودعا به إلى التأليف بين الناس ، على تعدد الأجناس والمواطن ، وتوحيدهم : فرادى ومجتمعات ، بلم الشعث ، وجمع الشتات ، عن طريق محو الفوارق ، ورأب الصدوع ، ورتق القطوع المعنوية والمادية ، وليس إلى التجزئة والتقسيم ، أو التفريق والتمزيق . ومن اليسير أن ترى السياسة الإسلامية الخارجية التى وضع محمد قواعدها — فى إطار مفهوم الدين الجديد — قد نهضت ، منذ عهده ، على أساس — أمة واحدة لا تتحقق لها وحدتها المنشودة إلا بتوحيد العقيدة ، وتوحيد الإنسان ، وتوحيد النظام العام ، فلا وجه إذن ، من بعد ، لارتضاء التقسيم ، أو السماح بالانقسام . .

كذلك ليس بمقبول من الإمام ، ولا هو بمعقول ، أن ينقض مبدأ توحيد الأمة — الذى شرعه دين الله ، وبدأ صاحب الرسالة السماوية تحقيقه — إذا جاز له أن يحيد عنه ، أو يخالفه ، كتقليد سياسى موضوع سار عليه أسلافه الخلفاء . فاستمساكه بسنة رسول الله ، اقتداء به فى كل أمور دينه ودنياه ، يؤكد أنه خليق بأن يرفض فكرة التقسيم . وانطباعه على امتثال المبادئ ، وإصراره على الثبات بموقفه منها ، دون تحول أو التواء مهما كانت الظروف والأحوال ، يؤيد تشبثه دائماً بآرائه . وسلوكه ، من قبل ، شاهد على الالتزام والثبات شهادة لاتدع سبيلا

لمتأول أن يبرر قبوله الصلح المزعوم على أساس التقسيم بحتمية رضوخه لضغط الأحداث أو تغير الأوضاع . .

فالمسألة إذن مسألة إيمان وليست بمسألة اجتهاد . وربيب الرسول أولى الناس باتباعه ، وأخلقهم باحتذاء أسلوبه فى نصرة ما يعتقد أنه حق ، ولو كره العالم كله ، ووقف له بالمرصاد . . وكأنى به كان يعمل بوحى ذلك الشعار الذى أعلن عنه محمد يوم جاءه عمه محاولا أن يثنيه عن الاستمرار فى تبليغ رسالة الإسلام ، خشية عليه من بطش قريش . .

محمد قال إذ ذاك لعمه :

« يا عم . لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه . . » .

وعلى قال لأصحابه حين لمس منهم التبوط عن قتال معاوية وجنوده الذين انفضوا عن الجماعة ، واقتطعوا الشام :

« . . . ويحكم ! . . اخرجوا معى ثم فروا عنى ما بدا لكم ! . . فوالله ما أكره لقاء ربى على نيتى وبصيرتى . . » .

وقال لهم مرة أخرى :

« . . . لئن لم تخرجوا معى بأجمعكم إلى عدوكم فتقاتلوهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم . . . لأسيرن إليهم ولو لم يكن معى إلا عشرة ! . . »

وقال وقال ، حتى كثر فى خطبه وأحاديثه ما قال من هذا القبيل ، الكثرة التى تغنى عن التدليل ، ولا تدع مجالا للجدل والتأول فى صلابة عزمه ، وصدق إصراره على القتال لتثبيت الوحدة حتى رمقه الأخير . . .

ولا يغيب عن البال أيضا كيف وقف بسيفه دون الانقسام عند أول بادرة بدرت من طلحة بن عبيد الله وحليفه الزبير بن العوام . . . فلقد أبى عليهما مشاطرته الحكم مع بقاء وحدة الدولة ، يوم جاءاه يقولان :

« ... بايعناك على أننا شريكاك ... »

فلم يأخذ مظهر المرض الذى يحمل العون ولا يخالف الوفاق والألفة ، لأن الشركة سبيل ممهد إلى الخلاف ، وفيها ما يهدد الوحدة القائمة بما لها من شكل الانقسام إن لم يكن بما لها من معناه . . .

وأبى أيضا أن يوليهما أمر المصرين : الكوفة والبصرة ، اتقاء ما عسى أن تدفعهما إليه شهوة الحكم من انفراد كل واحد منهما بمصره ، واقتطاعه من جسد الدولة دويلة مستقلة . . . فما أن اقترح عليه ابن عباس الرأى حتى رفضه ، وقال :

« .. ويحك ! ... إن العراقين بهما الرجال والأموال . ومتى ملكا رقاب الناس استمالا السفيه بالطمع ، وضربا الضعيف بالبلاء ، وقويا على القوى، بالسلطان . . »

ثم ما لبث أن ثار إلى سيفه ، حين بلغته الأخبار بتعبئتهما الجنود والحشود لانتزاع البصرة ، ودعا الناس للجهاد ، وهو يشير إلى الخطر الدائم المنتظر من حركة الرجلين :

« إن فعلوا هذا ، فقد انقطع نظام المسلمين .. »

وكما لم تكن حرب الجمل بينه وبينهما وسيلة لتوطيد سلطانه الخاص ، بل للإبقاء على الوحدة السياسية والإقليمية ، وحماية بنائها من التصدع ، وعقدها من الانفراط ، فكذلك كانت صفين . وكذلك كان كل فعل فعله ، وكل مسلك سلكه ، وكل دعوة دعا بها ، منذ اختير لإمرة المؤمنين ... وإذا كان قد أبى ، فى مستهل عهده ، أن يثبت معاوية عاملا من قبله على الشام ، فإنه الآن أخلق بألا يرضاه رئيسا مستقلا لدولة جديدة ، تنسلخ من الدولة الأم ، قصارى وجودها أن يخلق نوعا من التنافس مع الأصل الذى تفرعت عنه قد يؤدى لسبب أو آخر ، إلى التنازع على السيادة . ومآله فى كلتا حالتي الوئام والخصام ، أن يكسر

شوكة المسلمين ، ويضعهم فى مواجهة العالم الخارجى شق بعد إذ هم جميع . ويطمع فيهم الأعداء المتربصين بالإسلام . .

والغريب بعد هذا ، أن الخبر المنقول عن الصلح بين الإمام وابن أبى سفيان — أياً ما كان منطلقه — يحمل فى ثناياه من عوامل تقويضه ما يغنى الغناء كله عن جهد يبذل من خارجه لتقويضه ! . . فهو يبرز فى وقت لا شواهد فيه تومئ إلى احتمال وقوع أى وفاق إن لم تكن كل الشواهد تشير إلى بلوغ الخلاف المدى الذى لا مناص معه من الاحتكام للسلاح . . وهو يجافى طبيعة معاوية كل المجافاة لأنه كلف بالعلياء ، متطلع دائما إلى ما وراء الافق ، قد كافح على السلطان وهو بعد عامل منزوع من عمله ، فلا يعقل أن يقف دون إتمام الشوط بعد أن ملك الشام ، وانتزع مصر ، واضطرب العراق على غريمه الاضطراب الذى يأمن هو معه كل عادية على أحلامه وإنه ليكاد يرى تحقيقها على مد ذراع . وهو يمشى فى الروايات جنبا لجنب وعلى خط واحد ، مع أحداث ثبت وقوعها ، وأجمع على صدقها كافة الرواة ، بينما هى تناقضه وتنفيه . . . وكفى أن نقول ، بيانا لهذا التناقض ، أن ما جرى بين الغريمين من وقائع وأمور بعد إبرام الصلح ، يخالف كل المخالفة ما زعم أنهما تعاهدا عليه ونقلت نصوصه لنا الروايات حتى ليوشك المرء فى هذا الضوء أن يقرر ، وهو سالم من الخطأ ، أنه لم يكن ثمة اتفاق على الإطلاق ! . .

٦

جاء الصلح ، فيما تقول بعض الأخبار ، بعد أربع سنوات طويلة من الخلاف والصراع ، فإذا هو يأتى فى غير أوانه إذا ما حاولنا الربط بينه وبين ما سبقه من أحداث . وإذا هو يكاد ألا يأتى إذا ما أحسن استقراء ما عاصره منها وماتلاه ! .

ولكنه ورد فى عدة روايات ، مع اختلاف كثير أو قليل فى التفصيلات . .

وقيل بوقوعه فى السنة الأربعين .

وكان مكانه من السياق التاريخى فى أول العام بافتراض ، أو فى منتصفه على أبعد احتمال . .

وتجمع المصادر التى أوردته ، بإسهاب أو فى بضع عبارات مختلفة الدلالات ، على أن الرجلين تعاهدا على وضع الحرب حقنا لدماء المسلمين . وعلى انفراد على بالعراق ومعاوية بالشام . وعلى ما يتبع هذا وذاك من وجوب احترام الحدود الفاصلة بينهما فلا يقتحمها أيهما على الآخر بغزو أو غارة أو تسلل عسكرى له ، ظاهرا أو باطنا ، شكل الاعتداء أو معناه .

بهذا يعم السلام . .

فإلى أى مدى تراه استطاع — إن كان حقا قد وقع — أن يثمر السلام ؟ . . وإلى أى جانب يقف : فى صفوف الحقائق الثابتة ، أم فى صفوف الأخبار المدعاة ؟ . .

من خلال الحوادث السابقة عليه وامتدادها المعاصر له ، ثم التى تلته وجاءت لاحقة بإبرامه ، نراه قد نبا عنها ، وبدا فى عواصفها الهائجة كعود جاف أولى بأن ينقصف — لا أن يثبت — من لحظة مولده ، أمام أول خطرة من خطرات النسيم الرقيق فضلا عن ثورة الأعاصير ! .

وفى ضوء شروطه الملومة ، الناشدة للسلام ، نراه — من أول لحظة إلى آخر شوط — لم يمنع النزاع بالسلاح ، ولا الصراع بالكلام ، كأنما قد أريد له أن يزيد فى تسعر النار . أو قد أبرم لينقض وكان لكى لا يكون . أو لم يقم أصلا فى غير أخيلة الادعاء ! . .

والشواهد تغنى عن الجدال .

فلم يكن العام الأربعون عام سلام وإن استهل باتفاق الصلح المزعوم . . بل الثابت أن يوما واحدا من أيامه لم يطلع له نهار يشعر الناس بالطمأنينة والأمن ، ولا عسعس ليل يحملهم على الظن بقرب انطفاء لهب الصراع المشبوب بين من قيل بتعاهدهما على كف الحرب والفىء للسلام .

من بدئه إلى منتهاه كان العام عام نزال أو تشرع للقتال ، على أوسع مدى ، وإلى أبعد الحدود . . فلقد سالت الدماء خلاله من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حتى لم يكن يسلم من رشاشها مكان عبر الصحراء من حدود الشام إلى جبال اليمن إلى ما يدانى ملتقى القلزم بالخليج . وعلى امتداد هذه المسافة الشاسعة فى محاذاة البحر ، مع انحراف ملامسة أو انحراف إيغال نحو الداخل ، انتشر الإرهاب والقتل والنهب والتحريق والدمار بالمدينة ومكة والطائف ونجران وأرحب ومأرب وصنعاء وجيشان وغيرها من مخاليف اليمن وبلاد الحجاز . ولم ينقشع هذا البلاء عن مواقعه إلا بانقضاء العام ، أو بالتحديد ، بعد مقتل الإمام .

وقصة هذا البلاء الدامى نرويه لنـــا ، على وجهه الذى علمناه ، غارة بسر ابن أبى أرطأة العامرى التى انطلقت منطلقها ذاك بأمر معاوية فى أوائل العام الأربعين ، وكان يراد لها — برغبة بعض خاصة الماهل — أن تتضاعف قوتها الحربية أضعافا عديدة لتكون حربا شاملة يقودها معاوية ضد العراق . فقد روى عنها على لسان عبد الرحمن بن مسعدة الفزارى أنه قال :

« لما دخلت سنة أربعين ، تحدث الناس بالشام أن عليا يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه . . فقمت فى نفر من أهل الشام إلى الوليد بن عقبة فقلنا له :

إن الناس لا يشكون فى اختلاف الناس على على بالعراق ، فادخل إلى صاحبك فمره فليسر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم أو يصلح لصاحبهم ما فسد عليه من أمره . . . » .

وتمضى الرواية فإذا معاوية لا يقبل الرأى ، خوف المخاطرة بلقاء على . والاكتفاء بالغارات الإرهابية التى تنال من عدوه ولاتنال منه. وإذا الوليد وأصحابه من الدعاة إلى الحرب العامة ، لاترضيهم سياسته ، حتى ليعلن الوليد عن غضبهم ، ساخرا من أميره :

« أشرنا على معاوية برأينا أن يسير إلى الكوفة فبعث الحسين إلى المدينة . فمثلنا ومثله كما قال الأول : أريها السها وترينى القمر ! . . » .

وتحدد لنا بعض المراجع الأجنبية موعد غارة بسر على الحجاز واليمن بوقت متأخر من نفس السنة يبعد بها عن بدايتها ، ويدانى منتصفها أو يجاوزه بقليل . . فقد ذكرت هذه المراجع « أن العام الأربعين من الهجرة ، فتح على على بابا جديدا من العسر والهموم ، إذ ما كاد موسم الحج يوشك على الاقتراب ، حتى بعث معاوية قائدا من قواده قاسى القلب ، ذا شجاعة ، هو بسر بن أبى أرطأة ، فى ثلاثة آلاف مقاتل إلى الأراضى المقدسة ، لإخضاع أهلها ، وحملهم على الإدلاء له بالبيعة والولاء . . . . . »

والثابت بالرواية الأولى ، ومن خلال ما تومئ إليه ، أن الغارة ما كانت لتقع إلا بعد شهر أو اثنين من بدء العام . أو فى الربع الثانى منه على الترجيح . . فالنص يقرر أنه . « لما دخلت سنة أربعين ، وتحدث الناس بالشام أن عليا يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه » . . ثم يدلنا على أن الحديث يعلو ويذيع حتى يبلغ أسماع خاصة العاهل وذوى الحظوة لديه ، كاشفا عن رغبة مواطنيهم فى معاجلة على قبل أن يستقيم أمره ويسترد سيطرته على رجاله . . ثم ينتقل بأولئك الخاصة إلى صاحبهم ، يطلعونه على الأنباء ، ويعلمونه اتجاه الرأى العام فى ولايته ، ويحثونه على انتهاز الفرصة السانحة قبل أن تفوت ، بالمبادرة إلى

قتال غريمه . . ثم يرينا انقسام الرأى بينهم وبينه ، هم إلى الحرب الشاملة وهو إلى الحرب المحدودة . ثم ينتهى بنا ، بعد جدل وحوار ، ومراجعة وإصرار ، إلى إنفاذ معاوية الغارة . . فإذا وضعنا فى حسابنا أن التفكير فى شن حرب عامة وجهتها الكوفة ، أو غارة إرهابية وجهتها الحجاز واليمن ، لا يمكن أن يكون وليد يوم وليلة ، أو بضع ليال وبضعة أيام ، لخطورة الحرب الشاملة من ناحية ، ولضرورة مماراة احتمالات النجاح والفشل ، من ناحية أخرى ، فى غارة تقطع الجزيرة العربية كلها من أقصى الشمال إلى أبعد مناطق الجنوب .. وإذا قرنا بهذا كله ، المشاورات والمقابلات ، وجهد التأهب والإعداد ، لتبين لنا أن أشهرا من العام لا بد قد تقضت قبل أن يخطو بسر إلى مقصده أول خطاه .

والثابت من الرواية الثانية ، أن الغارة الإرهابية على الحجاز واليمن ، قد وقعت فى النصف الثانى من نفس العام . بشهادة ما ذكرته عن بعضها عندما أوشك موسم الحج على الاقتراب ، وبدلالة ما درج الناس عليه ، فى ذلك الزمان — الذى يشق فيه السفر أيما مشقة على الحاج ، رجالا وركبانا — من التأهب للسير إلى بيت الله الحرام قبل موعد الحج بشهور . .

والروايتان ، فى إطار ما أسلفناه ، تتفقان على حدوث الغارة الوحشية فى موعد يتلو بداية العام الأربعين بأشهر تقل فى إحداها وتزيد فى الأخرى . ولكنهما تؤكدان وقوعها بعد هذه البداية بوقت ليس بالقصير . .

غير أن الرواية الثانية تلوح أولى من الأولى بالترجيح ، لأنها أقرب إلى الاتساق مع السياق الزمنى للحوادث المعاصرة ، وأدنى إلى التزام خطه السليم .

فلا خلاف ، فيما نعلم ، بين جمهرة المؤرخين ، قدامام ومحدثيهم ، على انطلاق حملة مضادة من الكوفة سيرها أمير المؤمنين بقيادة جارية بن قدامة السعدى لتأديب المغيرين . ولا خلاف أيضا على قيام جارية بتعقب بسر ورجاله فى مراحل رحلتهم التدميرية ، مرحلة مرحلة ، وموقعا موقعا على امتداد الجزيرة العربية لم يرده عن التعقب إلا تيقنه أنهم فاتوه ، فكر راجعا على آثارهم لعله أن يصلح

ما أفسدوه . . ومن المعلوم ، بعد هذا ، أن قائد الحملة الأموية حرص على تثبيت البيعة لعلى فيما مر به من بلاد . فلما بلغ فى أوبته مكة قافلا من مطاردة غريمه ، وأراد أهل البلدة الحرام على العودة إلى طاعة الإمام بعد إذ أخرجهم منها بطش بسر كارهين ، فوجىء بهم يسألونه فى تردد وحيرة :

« ولمن نبايع ؟ . . »

وتوجس خيفة من قولهم جارية . .

لمن ؟ . .

لكن همسهم طالعه بما يخشاه :

« قد هلك أمير المؤمنين ! . . »

فألقى به النبأ المشئوم فى وهدة من الوجوم . وطوح به مع الحزن والذهول واليأس حتى لغاب عنهم وهو شاهد ، وغابوا عنه وهم حضور . . وعندما استطاع أن يثوب إلى بعض رشده ، كان كل ما أسعفه به بيانه أن قال :

« لمن بايع له أصحاب على . »

فبايعوه على الأثر للحسن بن على أميرا المؤمنين بعد أبيه ، وكانت قد ترامت إليهم ببيعته فى الكوفة أخبار . .

والمتواتر المشهور أن الإمام لقى مصرعه على يد قاتله الآثم فى رمضان . والنادر المهمل أنه قتل فى ربيع الآخر من نفس العام . والبون بين الموعدين كبير ، ولكنه لا يغير ، بطبيعة الحال ، من اطراد الحوادث ، ولا ينفى وقوع غارة بسر قبل هذا أو قبل ذاك .

وحين نأخذ بالحساب القصير فى تحديد موعد المصرع بربيع الآخر ، نجد الغارة ، لا محالة ، قد وقعت قبله — على أقل تقدير — ببضعة أشهر ، تكاد تقرن مخرجها من الشام بمولد هلال السنة ليتحقق إمكان التقاء ميقات عودتها بميقات مصرع الإمام ، كما هو ثابت فى الأسناد . .

فأين إذن موقع اتفاق السلام من العام ؟ . .

الغارة سابقة .

والاتفاق لاحق .

الغارة ترجع بدءا إلى مستهل السنة . وتذرع ذهابا وجيئة ، مسافة تقدر بمئات عديدة من الأميال ، وزمنا يصل إلى بضعة أشهر لاتقل عن ثلاثة . ثم تبلغ مأمنها ، بعد الأوبة ، مع مقتل الإمام .

والاتفاق يبرم ، بزعم زاعميه ، فلا نجد له فسحة في سياق الزمن إلا إن افترض إبرامه قبل الغارة ، أو افترض بعد انتهائها ، فإذا هو ، بأول الافتراضين لا بد أن يقع في السنة التاسعة والثلاثين ، وبثانيهما لابد أن يقع بعد مصرع أمير المؤمنين ! . .

وكلا الافتراضين مرفوض لا يستقيم بإجماع الرواة وبداهة العقول . .

وحين نأخذ بالحساب الطويل عن تحديد موعد المصرع في رمضان ، كقول عامة رواة السير ، نرى الغارة لابد قد وقعت في النصف الثاني من العام ، مؤيدة صدق الرواية الأجنبية أو قربها من الحقيقة قربا لا تدانيها الأخرى فيه . . فليس بمعقول أن تكون حملة جارية التأديبية ، التي خرجت لرد بسر ، قضت ثمانية أشهر أو نحوها في تعقبه وتكون غارة بسر ، على أساس نفس التقدير ، قد استغرقت مثل المدة أو ما يزيد عليها بأيام لو اعتبرناها خرجت في بدء العام . . ليس هذا بمعقول لأنه يخالف المعروف عن طبيعة الغارات من التزامها شعار : « اضرب واهرب » القائم على المباغتة ، العامل كل آخذيه في نطاق خفة الحركة ، وانتهاز الفرصة ، وسرعة الانقضاض والفرار تلافيا للمواجهة والاشتباك . .

بهذا الاستقراء يكاد يقع في مجال المحال أن الغارة والحملة اللاهثة في أعقابها قد حدثتا في مستهل العام ، بحكم ما تفرضه طبيعة الغارات من سرعة خاطفة تختزل الوقت الذي تستغرقه أيما ، وتضغطه ضغطا شديدا إلى أصغر حجم وفي أضيق حيز لأنها في الحقيقة سباق مع الزمان والأحداث . ويكاد يقع في مجال المعقول ،

إن لم يكن فى مجال الحقائق ، أن تكونا حدثتا حول منتصف سنة أربعين ، بعده أو قبله بقليل ، بحكم معاصرة موعد عودتهما ليوم مصرع أمير المؤمنين .

فمتى إذن — فى هذا الضوء — يمكن أن يقع اتفاق السلام الذى قضى بكف الحرب ، ومنع الغارات ، واقتسام الدولة شطرين آمنين فى ظله بين الرجلين ، لهذا العراق ولذلك الشام ؟ . .

فى نفس الضوء ، يوشك تاريخ إبرام الصلح — إن كان حقا قد أبرم ! — أن يتحدد فى النصف الأول من السنة ، وقبل بعث غارة بسر ، لأنه ما كان مستطاعا أن يبرم إلا وعلى ابن أبى طالب بين الأحياء ! . . وفى شعاعه ، أيضا ، يوشك الصلح ألا يكون قد وقع لأنه لم يمنع وقوع ما أبرم ليمنع وقوعه ، وهو الغزو بجيش أو غارة على أرض أحد طرفى الاتفاق ! . .

أم قد أبرم لينقض على الأثر ، وما جف مداده أو انفض أشهاده ؟ . .

إذن لأشارت إلى نقضه الروايات التى جرت بذكره ، ولسجلته فى صحائفها استكمالا للحديث عنه ، لأن واقعة نقضه أخلق بأن يشار إليها ، وأحق بالظهور والتعليق ! . .

أم قد يقال ، فى معرض إثبات قيامه والتدليل على إبرامه ، إنه تم وغارة ابن أبى أرطاة قد غادرت الشام ، فلم يتح منعها عن السير ؟ . .

أم النية انعقدت على إصداره ، ثم اتفق بعدها على تنفيذه ، والغارة ما زالت فى الطريق ، ليكون كافا لما وراءها من غارات اعل معاوية أراد قبله تسييرها إلى العراق ، فتكون هذه الغارة — فى عزم ابن أبى سفيان — آخرة الغارات وخاتمة العدوان ، ويكون الاتفاق فاتحة عهد من السلام بين الفريقين حقيق بأن يؤتى ثماره ، وينجب آثاره لولا مصرع الإمام ؟ . .

لئن قيل هذا أو قيل ذاك ، فكلاهما اعتراض مرفوض ، وتدليل مدحوض ، لأنهما ما كانا ليمنعا معاوية عن رد بسر عن الاستمرار فى فظائعه برسول يوفد

إليه ببعض الطريق . ولا أن يغنما عليا من المطالبة بهذا الرد بحق ما شرطه الاتفاق . ولهما في طول الفترة ، التي قضتها الغارة فسحة لالتقاء الرسول بالمغير . وانما في إنكار قيام الصلح سند من إغفال الرواة للنقض ، ومن السياق الزمني للأمور . .

على أي فرض من الفروض ، لا يثبت قيام الصلح ولا يستقيم . إن قيل قد تم قبل الغارة ، فكيف قامت ومنعها وأمثالها مشروط فيه ؟ . . أو قيل بعدها فكيف أبرم ، والإمام عند ذاك قد قتل وأصبح ذكرى للذاكرين ؟ .

بل الأولى — بداهة — ألا يكون ! . . وهل يمكن أن يكون وموعده المدعى واقع بين قوسين : غارة تنقض شرطه ، ومصرع يمنع إبرامه ، وكلا الحدين كفيل بأن يلفظه من نطاق الحقائق الثابتة إلى ضياع الزعم المشبوه ؟ . .

الفصل الرابع

١

كالحوادث السابقة على الصلح المزعوم ، والمعاصرة لادعائه ، كانت أيضا الحوادث اللاحقة به تنفيه وتمنع وقوعه إلا أن يكون أمنية خالجت بعض الأنفس التواقة إلى السلام وجسدتها الأخيلة . أو فرية مختلقة نسجتها الأهواء والمطامع وأريد بها الإيهام . .

ولا حريجة على المتمنى وإن شط به تمنيه إلى ما وراء الممكنات سدورا فى الخيال حتى المحال . . بل الحريجة على المختلق الذى يشرد العقول فى تيه التضليل . إذ الفرق بينهما هو الفرق بين الرغبة المخلصة النقية والنزوة المغرضة الخبيثة ، أو بين الماء والسراب ، والصدق والرياء . . .

ولكن معاوية ، فيما أفصح سلوكه ، يأبى إلا أن يسير على السنن المعوج فى قيادة الناس وفى معالجة الأمور ، لأنه جرب الاختلاق والالتواء ، وعرف أن السياسة — كتلفيق وتمويه — هى الطريق الممهد الميسور للوصول إلى القلوب والعقول فى زمان راج فيه النفاق ، ولم يتورع الناس ، خلاله ، عن بلوغ مآربهم من أى سبيل . . وما يضيره ؟ . . إنه ليعمل بوحى عصره ، ويفعل أفاعيله من وراء ستر كثيف ! . . فإن هو جازت أساليبه التمتية على معاصريه ، وهى أولى بأن تجوز ، فقد بلغ بها ما يتمناه ، وغدا فى عيونهم وهو الداهية المحنك الأريب . وإن كشفت طائفة منهم الزيف الذى صدقوه — ولسوف لا يكشفونه إلا بعد حين — فأين الدليل الذى يلزمه الفرية ، ويأخذه بالتمويه ؟ . . ثم لات عندئذ حين نكوص عما قد وقعوا فيه ! . .

ونتطلع إلى مسار الحوادث الجارية طوال عهد الإمام ، فيدلنا ترابطها على استمرار النزاع ، دون انقطاع ، بين على ومعاوية . ثم لانعدم ، مع هذا ، أن نسمع عن صلح بينهما ، تسير به أخبار وتمتلىء صحائف ، يحاول زاعموه

والروجون له أن يقحموه على السياق الزمنى ، ولا منفذ له منه أو فرجة فيه ، إلى تيار التاريخ ..

وهذا تناقض لا ريب مريب ! ..

فلم يفتر العداء بين العراق والشام يوما واحدا منذ ادعى معاوية لنفسه ولاية دم عثمان ، وجاهر بالعصيان ، وإن بدا الصراع كأنما استحال إلى نوع « سلمى » — لو صح هذا التعبير — أثناء هدنة التحكيم . ولم يلبث ، بعد فشل الحكومة ، أن عاد سيرته الأولى : حربا مشبوبة ساخنة حينا ، وباردة حينا ، بتعبير مفهومنا الحديث . . وعندما لاح لمدعي الصلح — وليس لدعاته ! — أن يخامروا به أفكار الناس ، كانت الأيام مشحونة بالخلاف ، وكان انتشار موجات المد الحربى والسياسى بين الفريقين ، خليقا بأن يغرق اتفاق السلام لو شىء له أن يسبح ضد التيار ! ..

وكانت أعنف مظاهر هذه العداوة بارزة فوق سطح الظروف فى العام التاسع والثلاثين ، والعام الأربعين ، كما لم تبرز من قبل منذ صفين . متصلة فى إحكام وتلاحق كحلقات سلسلة ، أو كإبل قافلة ، ذيل كل جمل فيها مربوط بخطم الذى يليه ! . فقد أطبق معاوية بغاراته على العراق وما وراءه من دولة غريمه ، يفرقها هنا وهناك . بعضها يجتاح الأطراف ، وبعضها يشارف الكوفة ، وبعضها يعبر الفرات موغلا فيما بين النهرين إلى دجلة ، وبعضها يمضى من الشام منحدرا من أقصى المناطق المتاخمة شمالا للجزيرة العربية عند ساحل بحر الروم ، إلى أبعد حدودها الجنوبية عند التقاء القلزم بالخليج . . وعنفت هذه الغارات عنفا بلغ غاية القسوة والإرهاب قرب نهاية أول العامين لتمد عنقها إلى العام اللاحق دمارا ونكالا أدنى إلى ما علمنا ، من بعد ، عن وحشية التتار . . ثم تكاثرت وتلاحمت مزدحمة فى سيرها على خط الزمن ، ومتداخلا عمر بعضها فى عمر بعض ، لا تكاد واحدة تهم بنفض اليدين من مهمتها الدموية حتى تكون أخرى غيرها قد خاضت الدم وأشاعت الخراب . .

ومع أن اضطراب الأمور فى العراق على على فى تلك الآونة ، كان الدافع الذى أغرى معاوية بشن الغارات ، فلقد كانت الغارات نفسها المحرك الأول لحمية رجال الإمام ، وحافزهم على الجد فى رد العدوان ، وإن طالما تثاقلوا ، وتوانوا ، ففاتهم ردع المغيرين فى أغلب الأحايين . لكن وخز الأشواك يدمى ويؤلم ، وتوالى الطرق يوقظ النيام ! .. فما لبث أولئك المتوانون أن ثابوا إلى الرشد بعد غفلة ، وانتبهوا على واقعهم الذليل بعد تخاذل ، فهبوا يحاولون إصلاح ما أفسده عليهم الثبوط .. فعندما كان سعيد بن قيس الهمدانى قد كر راجعا إلى الكوفة ، بعد محاولته تعقب سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى فى غارته التى شنها على الأنبار ، كان بسر قد بدأ غارته الوحشية على الحجاز واليمن ، حتى لأوشك مخرج هذه يلتحم بعودة تلك ، فيجتمع على أهل العراق ، فى وقت واحد من قسوة الغارتين ، ومن مهانة سكوتهم على الضيم ، ما أثار فيهم غضبة لكرامتهم دفعتهم إلى الإصغاء لدعوة الحرب الشاملة التى ظل الإمام طويلا يدعوهم إليها كدواء لا دواء غيره لردع معاوية ، وتثبيت هيبة الحكم ، وإقرار وحدة البلاد .. وعندما كان جارية بن قدامة السعدى ما زال بعد فى طريق أوبته من مطاردة بسر ، كان معقل بن قيس التميمى قد فرغ من المهمة التى ندبه لها أمير المؤمنين لحشد الناس من السواد جنودا بجيشه تأهبا لغزو الشام .. ولو أملى حينذاك لعلى فى أجله أياما معدودات ، لنشبت الحرب لا محالة بين الفريقين ، ولتجرع معاوية من عنف القتال ومر الهزيمة ما كان حريا بأن يتجرعه من قبل فى صفين لولا خدعة المصاحف ، ومهزلة التحكيم ..

غارة ابن المغفل الغامدى على الأنبار فى سنة تسع وثلاثين ، وغارة ابن أبى أرطأة العامرى على الحجاز واليمن فى سنة أربعين ، كادتا تلتحمان كحلقتى سلسلة ، أو كجملى قافلة ذيل أولاهما مربوط بخطم الثانية ! .. وحملة سعيد بن قيس لتأديب أولى الغارتين ، وحملة جارية بن قدامة لتأديب الأخرى ، قد التحمتا كذلك التحام هاتيك ، ثم اتصلتا معا فى نسق زمنى واحد بمصرع الإمام ..

هذه حقيقة تاريخية لامرية فيها ، ثابتة في السير والأسناد . وسلف من الإشارة إليها وإيرادها ما يغني عن الترديد . .

فما أن آب سعيد إلى الكوفة ، بعد أن فاته ابن المنقل ، حتى رأى الإمام يحث الناس على قمع الغارات الأموية ، التي تناثرت على وجه الأرض ، واجتثاث أصلها من الجذر ، بضرب معاوية بن أبي سفيان في عقر داره قضاء لا قضاء غيره على العصيان والعدوان . . ثم رآه يعاود الحث والتحريض ، آنا في يأس وغضب وضيق ، وآنا في أمل ولين وتصبر ، حتى اجتمع رأيه ورأيهم — وغارة بسر لا تزال في الطريق — على بعث معقل بن قيس التميمي للسواد ليحشر الناس جيشا كثيفا لمهاجمة الشام . . وما أن أنفذ معقل مهمته ، وعاد بالكتائب المحشودة إلى الكوفة في العدد والسلاح ، حتى سمع بها خبر مصرع أمير المؤمنين ، تماما كما سمع به جارية في مكة ، وهو عائد من حملته التأديبية على بسر ، إلى العراق .

تحدثنا السير :

. . . واستشار على أصحابه في رجل صليب ناصح ، يحشر الناس من السواد . فأشاروا عليه بمعقل . فدعاه ووجهه . . « فسار . فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين . »

وتحدثنا أيضاً :

. . . وسار جارية حتى أتى نجران . « وهرب بسر وأصحابه منه . واتبعهم حتى بلغ مكة ، فقال : بايعونا . . فقالوا : ولمن نبايع ؟ . . قد هلك أمير المؤمنين » .

من هذا الاستطراد يبدو بجلاء أن حلقة العداء الدموي بين الشام والعراق كانت تطبق من كل جانب ، لا على أول العامين الأخيرين وحده من حياة الإمام ، بل على كليهما معا ، إطباقا لم يدع فيهما ثغرة هدوء ينفذ السلم من خلالها إلى مرافقة الأحداث العنيفة التي صبغت لياليهما وأيامهما بصبغتها الحمراء ! .

ويتبين أيضا أن الحالة النفسية التي كان في إسارها أهل العراق آنذاك يعصى عليهم وهم يكابدونها أن يتقبلوا اتفاق سلام ، أو ينزعوا إلى الحديث عنه أو التفكير فيه وصدورهم عندئذ مفعمة على عدوهم ضغينة ، ونفوسهم مشحونة بدعوة الحرب الشاملة ، وأكفهم مشدودة على الأسنة المشرعات تحفزا للثأر والانتقام . .

ويظهر كذلك أن الإمام ، كالعهد به ، ما كان ليرتضى الاتفاق المزعوم في تلك الآونة التي جاءته أخيرا وبعد صبر وعناء عما كان يسعى إليه ويعمل له ، فقد نفض أصحابه عنهم التراخي ، وفاءوا إلى الانصياع لأمره موحدي الكلمة عاقدي العزم على القتال ، هو الذي كان يتوق دائما لتوحدهم واجتماع رأيهم ولا يرى بديلا عن الحرب لحسم الأمور ولو سار وحده إلى لقاء أعدائه بلا نصير . .

فكأني ولا سلام ! . .

كأني ولا احتمال لسلام على أي وجه من الوجوه في ذينك العامين وإن سودت به صحائف ، ولغطت ألسنة ، وأكثرت فيه الروايات والرواة ! . .

فما من مكان قط لإبرام صلح ، أو احتمال إبرامه . لأن سنة تسع وثلاثين الهجرية كانت غنية أفحش الغنى بالغارات الأموية، متخمة أشد التخمة بكل مثيرات الحفائظ وموجبات الأحقاد ، لم تتح فيها فرصة لالتقاط نسمة ندية من نسمات الثقة والطمأنينة بين الفريقين ينفثها الأفق الملتهب بالفظائع والأهوال . ولأن سنة أربعين لم تكن غير امتداد عدواني لسابقتها ، نشر النكال والعذاب فوق دولة علي إلى أبعد المسافات ، وراح ينفخ في نار الخصومة المتقدة ويزيدها اشتعالا إلى يوم مصرع الإمام . .

جو قاتم عبوس من البغضاء والعداوة يحرك حمية الثأر ، ويغرى بالانتقام للكرامة والدم ، ويخمد أنفاس الثقة في نوايا هذا الفريق أو ذاك ثم يقال عن مولد السلام المزعوم فيه ! . . فمن أين يكون ؟ . . وكيف ينشأ ويقوم ؟ . . ومتى يحين له أن يدرج ليحيي على أرض الشوك والدمار والنار والعداء مستحكم ،

والجروح تتسع ، والدماء تنهمر ، ومعاوية ورجاله من أهل الشام مستمزون بخايل النصر التى تطالعهم ، يوما وراء يوم ، فى كل خطوة يخطونها ، وعلى كل موقع يطأونه وقد أخذت الأمور تسير وفق أهوائهم على الطريق الذى رسموه ؟

لئن كانت خلائق الإمام ، والجو النفسى للعراق ، والوقائع الجارية فى تلك الآونة ، والظروف المحيطة بمولد الاتفاق المدعى ، سواء المعاصرة له والسابقة عليه ، قد تضافرت كلها ، كما رأينا ، على إنكار وجود الصلح ، فإن الحوادث اللاحقة بموعده المزعوم تؤيد إنكاره كل التأييد ، وتقطع السبيل على احتمال قيامه ولو كافتراض عارض ، أو كفكرة طارئة إن تكن خطرت ببعض الأخلاد ، واحتوتها أحشاء الزمان حينا لتتخلق جنينا يضج بالحركة والانتفاض ، فقد خمدت لا محالة بعد ساعات ولم يكتب لها الظهور إلى النور ! . .

فبحسب هذا السلام أن عاش بين السطور ليكمل أسطورة التفوق المعاوى ، ويسكر الناس بخمرة وهمها القرون الطوال ! . . ولكنه لم يدب على أرض الواقع ، ولا عاش بين الحوادث السيارة تاريخا حيا يتأثر بها ويؤثر فيها ليؤدى دوره كوسيلة لتغيير الأوضاع القائمة عند حلوله ، وإعادة رسم صورتها كما ينبغى لدوره أن يكون . وليس أيسر ، بيانا لانعدام أثره الفعال ، وتأكيدا لانتفاء وجوده ، من أن ما جرى بعده وأعقبه إنما كان امتدادا طبيعيا — بغير شية من التغيير — لحركة الصراع السياسى والحربى التقليدية بين معاوية والإمام .

فلقد مات على ، فإذا موته لا يحسم النزاع ولا يغير الأوضاع .

ولقد اطمأن معاوية بهذا الموت ، فإذا اطمئنانه لايقعد به عن موالاة المجالدة والصراع . .

إنما نسمع أن الإمام لا يكاد يستقر فى لحده حتى تهب الكوفة إلى السلاح لتصل ما انقطع بسبب مصرع أمير المؤمنين ، وتسير جنودها التى حشدها معقل ابن قيس من السواد بأمر على ، لتمضى فى الأهبة إلى الشمال لاجتياح الشام . .

ونسمع أن معاوية قد أخذ حذره ، فحشد حشوده ، وانطلق بها صوب الجنوب للقاء القوة الغازية ، وحماية أرضه أن يقتحمها جيش العراق . .

ثم لا نسمع ، مع هذا ، أن أحد الفريقين قد لوح للآخر بعهد الأمان أو حرمة الهدنة التى فرضهما عليهما ميثاق السلام المزعوم ! . .

وينطلق جيش الغزو العراقى ، أربعين ألفا ، بايعوا عليا قبيل مصرعه على الموت أو النصر ، على طلائعهم قيس بن سعد بن عبادة ، وعلى مقدمتهم عبد الله ابن عباس ، وعلى قيادتهم العامة وإمرة المؤمنين الحسن بن على خلفا لأبيه . .

وينطلق معاوية بن أبى سفيان من مستقره نازلا بجيش الدفاع الشامى إلى بلدة مسكن ، معسكرا بها ، ومتأهبا للقاء . .

ذاك ثابت مستيقن بغير خلاف .

ففيم إذن كان الانطلاق ؟

وعن أى دلالة يسفر تشرع الفريقين للقتال . . .

بل قد انطلق الجيشان لأن طبيعة السياق الحدثى ، وظروف الواقع ، والجو النفسى كلها تحتم الالتحام . ولأن التأهب والسير كليهما مرحلة من مراحل الصراع الذى استمر سنوات بين العراق والشام ولا سبيل إلى حسم تياره إلا بحرب شاملة تفض النزاع وتقر الأوضاع . . وهل كان الجيشان ليتعبئا ، ثم يمضيا على طريق الصدام المسلح لو كان الفريقان قد تهادنا حقا واتفقا على صلح ادعى زاعموه أنهما أبرماه وتواثقا فيه على كف الحرب ، وتأمين الحدود ، وحقن الدماء ، وإفاضة السلام ؟ . .

كلا ولا شبهة ! . .

فلا دلالة أبلغ فى نفى إبرام الاتفاق من هذه الدلالة . ولا خرافة أبعد عن التصديق من هذا الصلح وإن أكثرت فيه الروايات وأطنب الرواة ! . .

٢

بين حشد الجيش العلوى وتكتيبه تأهبا لغزو الشام وبين مخرجه من الكوفة زحفا إلى أرض صفين ، عالم فسيح من الأمل والعمل ، ومن المحن والأحزان ، ومن الفكر والذكريات . .

الأيام الأوائل من هذه الفترة القصيرة كانت كلها كيوم واحد . ممتزجة مندمجة . بغير معالم تميز أحدها عن الآخر كأنما اختزلت جميعها ، بنورها وظلمتها ، فى نهار وليل . . ليس فيها أمس وليس فيها حاضر . لا غابر ولا ماثل . بل هى غد يملأ الخواطر ويشد الأنفس المتحفزة شوقا إليه ليحييها معه فى إشراقة صباحه التى لم يلدها الزمان ! . .

والجموع المائجة ذهابا وجيئة ، فى رحاب الحاضرة العراقية وعلى مشارفها الدانية والبعيدة ، كانت كلها كرجل واحد . كأنها حزمة من دم ولحم وعظام ، ودأب وعرق وحركة ، وصبر وتطلع وتفكير . . ليس فيها كبير ولا صغير . لا سيد ولا مسود ، ولا كهل ولا يافع . بل عزمة واحدة فى رأى واحد لعمل واحد يبنى الغد المأمول المجهول . .

والخلجات فى الصدور خلجة . والأفكار فى العقول فكرة . والمشاعر أنداد ، والظنون أمثال . .

والحياة بعد هذا نشيد . والأعصاب أوتار . والخفقات إيقاع ؟ . .

حتى الإمام نفض يومئذ ملله وانخرط مع القوم فى التيار . شارك الناس ما هم فيه . تنفس الجو الذى تنسموه ، فرأى بنظرهم ، وسمع بسمعهم ، وتحدث بهم وعنهم كمثل الصوت والصدى والصورة والخيال ! . . أما مخايل السقم التى لازمته قبيل فورة الحمية الراهنة بضعة أيام ، فقد كانت كعارض من جفاء الزبد

ما لبث أن ذاب فى اضطرابة الماء بعد أن أخذت معالم الألم والقلق تنقشع عن ملامحه لتخلى مكانا لبسمة رقيقة بدأت تنتشر على محياه ! . .

ولم يكن قد استرد كل عافيته . ولكنه استرد ثقته فى رجاله ، وراح إيمانه بهم يسرى حرارة وقوة فى عروقه كدم جديد ! . . ولم يكن تحرر من كل شكوكه ، ولكن بشائر التغيير التى طالعته بها عزائمهم كانت كطلعة الفجر الخليقة بأن تبدد بقية الظلام . . وعندما التمعت أمام عينيه النصال والسيوف كالمرايا تطرح عن صقالها أشعة الشمس تحت قدميه وتغسل الأرض بلألاء النور . . وعندما خفقت البنود والأعلام فوق رءوس الجنود ترقص نشوانة على وقع ريح الشتاء . . وعندما مدت الخيل أجيادها إلى الأمام وهى تصهل وتفحص الرمل بحوافرها كأنما تهيب بالفرسان أن يرخوا لها الأعنة للانطلاق . . إذ ذاك تمثلت دورة الزمن بهذه الدنيا فى خاطر الإمام حكمة تقبس من الماضى لتضىء الغد ، وتعتصر التجربة لتسق العمل ، وتأخذ من الموت لتهب للحياة ! . .

إذ ذاك وقف بين الكتائب الحاشدة المتأهبة للقتال ، يحدثها بعظة الليالى ، وعبرة الأيام ، وسنة الموت التى يستوى فيها جميع الأحياء : أتقياء وأشقياء . وقصة الفناء بالوجود والخلود بالفناء ! . .

فيقول :

« عباد الله . .

لو أن أحدا يجد إلى البقاء سلما ، أو لدفع الموت سبيلا لكان ذلك سليمان ابن داود الذى سخر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة . . فلما استوفى طعمته ، واستكمل مدته ، رمته قسى الفناء بنبال الموت . . . »

ويقول :

« أيها الناس . .

إن لكم فى القرون السالفة لعبرة . .

أين العمالقة ! . أين الفراعنة ! . أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين ، وأحيوا سنن الجبارين ! . أين الذين ساروا بالجيوش ، وهزموا بالألوف ، وعسكروا العساكر ، ومدنوا المدائن ! . . . »

ويقول :

« أيها الناس . .

إنى قد بثثت لكم المواعظ التى وعظ بها الأنبياء أممهم ، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم . .

ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا ، وأقبل ما كان مدبرا ، وأزمع الترحال عباد الله الأخيار ، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى . . . »

وتحمله الذكرى إلى ماض عله ، وعلمه الناس ، مشهود لبضعة من الصفوة آثروا مر الحق على حلو الباطل ، وغصص المنية على زخارف الحياة . . فإذا بقلبه يضطرب بين جنبيه كجناحى طائر يهم أن يطير . وإذا بصوته يختلج على خفق لهاته كتردد الصدى فى كهف أجوف . وإذا بملامح محياه تلين . . وببصره يغيم حتى لتوشك أن تحتجب عنه المرئيات وراء سحابة رقيقة من الضباب . .

ويقول وقلبه هو الذى يقول :

« أين إخوانى الذين ركبوا الطريق ، ومضوا على الحق ! . . أين عمار ! . . وأين ابن التيهان ! . . وأين ذو الشهادتين ! . . وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية ، وأبردوا برءوسهم إلى الفجرة ! . . . »

ثم لا يلبث دمعه الذى حبسته ساعة مآقيه أن ينفلت من بين جفنيه ينهمر ويفيض ، حزنا عليهم ، وشوقا إليهم ، وتقديرا لهم ولمآثرهم التى غدت حلية للمآثر فيطلق عنان شجوه ، ويبكى فيطيل البكاء . .

وتتعلق به الأنظار وهو يحاول أن يتجلد فلا يلبيه الجلد، ولا يسعفه جفناه .

وتتعلق به الأذهان وفكره مشدود إلى أولئك الأحبة الأعزاء من الأجلة الراحلين . وتتعلق الأسماع بشفتيه وهما تندان فى مهل عن حديثه الخافت الحزين وهو يسرى على هدأة الصمت التى لفت المكان :

« أوه على إخوانى ! . . الذين قرأوا القرآن فأحكموه ، وتدبروا الفرض فأقاموه ! . . أحيوا السنة . وأماتوا البدعة .. .. دعوا إلى الجهاد فأجابوا . ووثقوا بالقائد فاتبعوه . . . »

فلله مامن امرئ بين الجمهور الماثل إلا قد امست النبرات الوالهة على أوتار فؤاده فغلبته عندئذ العبرة ، وأخذته الحسرة ، وطوحت به لوعة الأسى والحنين إلى ذلك الماضى القريب المشهود ، تطوف بصوره ، وتسترجع ذكراه ..

. . . . . .

صورة عمار .

عمار بن ياسر مولى بنى مخزوم . .

. . الذى بادر إلى الاستجابة لداعى السماء ، والإسلام بعد كلمة لا تجسر أن تنطق بها الأفواه . . .

الذى عذب فى الله أفظع العذاب وأقساه — والمسلمون بضعة مستضعفة ، والكفر جبروت طاغ ، ودين الله خيط رفيع لا يكاد ينفذ من بين أطباق الظلمة الروحية — فتفتق بطنه ، وتكسر أضلاعه ، ويشفى به نكال أعداء الله والرسول على الهلاك وهو صابر على الأذى ، مستمسك بالإيمان . .

الذى هاجر إلى الحبشة فرارا بعقيدته ، وأبلى فى بدر دفاعا عنها ، ووقف يوم اليمامة وهو جريح يقاتل أشد القتال غير مبال تفوق العدو وتكالبه ، ويهيب بأصحابه المجاهدين ألا تأخذهم الرهبة ، أو تردهم وقدة القتال عن الاقتحام :

« يا معشر المسلمين . . أمن الجنة تفرون ! . هلموا إلى ! . . أنا عمار .. »

.. الذى ثبت مع الحق ، وحارب عليه كأعنف ما تكون الحرب ، وأصلب ما يكون الثبات يوم صفين . . بفروسيته بز فروسية الفرسان الشبان . . وبحماسته

فاق حماسة الفتية البواسل وهو عندئذ شيخ واهن نيفت به أعوام عمره على التسعين . .

. . الذى كان فى الجهاد يستهين بالحياة ، ويطلب الموت . وشماره فى الوغى دائما ، دائما : « الجنة تحت الأسنة » . .

.. الذى قال فيه رسول الله سيد المؤمنين ، وقمة الإيمان : « ملئ إيمانا إلى أخمص قدميه » . . وجعله قرينا للحق لا يفترقان ، حتى ذكر فى حديث مرفوع أنه وصفه بقوله : « لن يفارق الحق حتى يموت » . . أو . . « يزول مع الحق حيث زال » . .

. . . . .

وصورة أبى الهيثم .

مالك بن مالك بن التيهان . .

. . الرائد من رواد الإيمان القلائل الأول ، الذين غرسوا بذرة الإسلام فى المدينة ومحمد ما زال بين قومه بمكة فى نطاق من الويل والعذاب والتكذيب .

. النقيب من بين النقباء الاثنى عشر ليلة العقبة ، الذين بايعوا رسول الله أن يكونوا حوله كالسياج ، يمنعونه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم ، ويكونوا له أهله وجنده ، وتلامذته وحوارييه . .

. . الفدائى من الزمرة الفدائية الأولى من أصحاب محمد الأوفياء لعهده وذكراه ، الذين اعتنقوا بعد موته حق على ، ودعوا إليه ، وأعلنوا تأييده والدفاع عنه يوم تجمعوا فى فضاء بنى بياضة عسى أن يعيدوا تراث رسولهم إلى بيته بعد أن خرج إلى تيم ببيعة الصديق . .

. . . . .

وصورة ذى الشهادتين .

خزيمة بن ثابت الأنصارى . .

. . أحد أصحاب بدر التى أعزت المسلمين ونشرت نور الإسلام . .

.. صاحب راية بنى خطمة من الأوس يوم الفتح يوم قهرت مكة ، وأذل الشرك ، وردت قدسية البيت الحرام خالصة لله .

.. الرجل الذى جعل له رسول الله شهادته ، من دون الناس ، كشهادة رجلين من المسلمين ، وفاقا لثقته الراسخة فى صدق رسوله حين اختلف محمد مع سواء بن قيس على فرس اشتراها منه ثم جحد ابن قيس الشراء . . فقد شهد خزيمة على البائع وأيد المبتاع ، فلما أن سأله رسول الله :

« ما حملك على الشهادة ولم تكن حاضرا معنا ؟ .. »

بادر بلا تردد يقول بوحى سجيته النقية :

« صدقتك بما جئت به ، وعلمت أنك لا تقول إلا حقا . . »

وعندئذ كانت القولة النبوية التى رفعته ، فى مجال الشهادة ، على سواه :

« من شهد له خزيمة ، أو عليه ، فهو حسبه » . .

. . زمرة من الصفوة المختارة من صحابة الرسول ، وأولياء الإمام ، ورواد الإسلام ، قد تلاحقت عليهم الحتوف ، وتخطفتهم المنايا وهم على الحق ثابتون ، لم تزل لهم قدم ، ولم تهن عزيمة ، لأنهم كانوا على موعد مع الله يستعجلونه أن يحين ! ولأنهم كانوا على وصية صاحبهم ، أبى الحسنين ، التى ألقى بها إلى ذوى السمع والبصر من رجاله ، يوم قال :

« . . . بادروا المعاد . وسابقوا الآجال . . . فأنتم بنو سبيل ، على سفر من دار ليست بداركم ، وقد أوذنتم منها بالارتحال . . »

وفرغ على من خطابه بعد قليل ، ثم التفت إلى الحشد ، ينادى فيهم بأعلى صوته :

« الجهاد الجهاد عباد الله ! . . الجهاد الجهاد ! . . ألا وإنى معسكر فى يومى هذا . فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج . . » .

وهل كان منهم أحد يتخلف عن هذه الدعوة الكريمة ؟ . .

كلا والله ! . .

وترددت فى الفضاء أصداء مدوية بصوت الجموع ، وهى تهدر بالدعاء :

« الجهاد الجهاد ! . . »

فلقد انعقدت العزائم . وخلصت النيات . واستبان السبيل . . فهذه الجنود المحشورة من السواد ، جاءت تحمل رءوسها على أكفها مهرا رخيصا لرضوان الله . .وهل هى إلا رحلة قصيرة على الطريق الذى يرويه الدم ، وتظلله الأسياف ، ليبلغوا ، كما علمهم عمار ، غايتهم المرتجاة ، يوم قال :

« الجنة تحت ظلال الأسنة » ؟ . .

٣

فى الشمال .. فى المغانى الخضر بأرض الشام .. فى مجانى دمشق الفردوسية التى خلفها الروم ، كان معاوية والذين معه من الفئة الباغية — التى قتلت عمار ، واحتزت رأسه ، وأهرقت دماء خيرة إخوانه البدريين من صفوة صحابة الرسول — قد أعدوا عدتهم ، وكتبوا كتائبهم ، وهموا بالسير إلى رحلة بغى ثانية ، زاحفين بالحشود الزاخرة صعودا إلى الأرض الموعودة لملاقاة على بن أبى طالب ، مرة أخرى على ثرى صفين ..

صفين كبرى جديدة رأى القوم أن يشدوا إليها الرواحل ليثأروا لأمسهم الراحل الذليل . ليستردوا الشرف المسلوب . ليضربوا الضربة التى يحسبونها كفيلة بقلب الميزان .. على نفس الموقع الذى شهد خزيهم ، وأوشك أن يرى دحرتهم وعاهلهم عندئذ قدم على الأرض وقدم فى ركاب فرسه يهم بالفرار منذ ثلاثة أعوام ، أرادوا النزول ..

أمثلا بمثل تقودهم حمية الانتقام إلى نفس البقعة التى لعبت بهم عليها الهزيمة ؟ أم تيمنا بالنجاة التى أهدتها إليهم الصدفة ، فرق ترابها من قبل على يد ابن العاص ؟ أم اعتزازا بعلمهم كل موطىء فيها ، وكل حصاة على ثراها ، علم تجربة يقيهم المفاجآت التى قد تخطفهم لو أن عدوهم استدرجهم إلى القتال على موقع غيرها لم يطأوه ؟ .

أيا ما كانت نظرتهم ، وكانت نواياهم ، فقد تهيأوا للانطلاق إلى صفين .. وكانوا على ثقة . أو كانوا على طمأنينة وأمل توقعا للقريب المنظور ..

بغير ونى نشطوا إلى العمل .. النفوس والأرض الأموية كلها تضج بالرجاء والانفعال والحركة .. المكان يهتز بالوقع والصليل . الجنود تنتظم . السلاح يرهف ليبتر . المطايا تسوم لترتحل . الضغائن تغمز لتثور . الحماسة تشحذ لتشتعل .. ومن

وراء أولئك أحلام اليقظة عريضة كالأفق ، لامعة كالأشعة ، راقصة كالحبب المتوثب على سطح كأس ملأنها خمر لذة تهيج شهية نشوان ! . .

ولم تكن المسافة بعيدة . . دون هدفهم بنان تشير . وقدم تتحرك . . ومثل أصبع من الطريق لا تطول على خف أو حافر ، ولا تشق على فارس أو راجل . فليس الذى يشغلهم هو السير . ولا نأى الغاية . ولا القوة التى يعلمون أنها لابد مقبلة من الجنوب على ضفة الفرات للانضمام . . تلك كلها أمور مقدورة مرقوبة . معلومة محسوبة . لم يغب أيها عن البال . . ولكن الذى يشغلهم الآن هو نفاد الصبر . فراغ جعبتهم من القدرة على التمهل . البرم بالانتظار . . ولو خلى بينهم وبين ما يريدون لانفجرت رغباتهم المضطرمة فى صدورهم على الفور قتالا ناجزا يحسم الأمر ، ويعجل النصر ، ويجمع الأمة على امتداد الديار واختلاف العناصر مع الشام . .

لا طاقة لهم بالتريث : هذا الذى يجمد الدم ! . وكيف يطيقونه والقطاف دان والثمرة شهية تسيل اللعاب ! . فالظروف مهيأة . والدنيا معهم . وساعة الفصل التى أعدوا لها شهورا طويلة من الجهد والكفاح والحيلة ، قد اقبلت أخيرا عليهم بكل ما هفوا إليه وانتظروه . .

ليس أيسر الآن من وقعة على هذه الأرض يجابهون فيها عدوا أحنى ظهره التثاقل ، وأوهى عزمه التوا كل تحت أمير ولاء صحبه له بلاء ، وطاعتهم عصيان . إن الأمل الآن أمامهم مفتوح ، والظفر مستباح ، وتلك القوات المقبلة عليهم من العراق بعد قليل أدنى أن تكون ، فيما يقدرون ، كإبل النحر قد تزاحمت على سكين الجزار ! . .

ولا مبالغة من ناحيتهم فى هذا التقدير . . فابن أبى طالب هو الذى وصف رجاله بهذا الوصف بعد أن خاب فيهم رجاؤه وما كان إلا ليخيب . . ليسوا — برأى تجربته ومعاناته — بجنود وغى ، ولكنهم حشود غوغائية كالقطعان . . الآدمية المدركة الأبية فى جلودهم تخلت عن مكانها للبهيمية الغريرة الذلول .

والعقول المستنيرة الواعية ذابت فى الغرائز المطموسة العمياء . فما هم رجال كالرجال يجمعهم الخطر ، وتحمسهم الأنفة . ويحفزهم توق الاستذلال إلى الاستبسال دفاعا عن الكرامة ، وحماية المصير ، وذودا عن الدمار .. تطويهم المحن ، وينشرهم الخوف ، وتلمهم النزوات الدنيا ، كأنهم ماشية . . كأنهم سوائم وأنعام . كأنهم — بنص حروفه — « أشباه إبل غاب عنها رعاتها ، كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر » كما يفعل قطيع مذعور ضال ! .

وما هم أيضا بأصحاب قتال . . لا همة تدفعهم إلى انتضاء سيف . لا غاية ، مهما غلت ، تحثهم على بذل قطرة واحدة من دم . لا أرب لهم فى تنضير شجرة الحياة الإنسانيـة الـكريمة التى لا تورق ولا تثمر إلا بعرق الأباة ودماء الأحرار . . إنهم دائما من خوف الموت فى موت ، ومن الحرص على السلام فى استسلام ومن الـكثرة الحقيرة الذليلة كأنهم هباء بلا أثر ، أهون من قلة ، وأقل من نفر ، لا يرام صاحبهم سوى دراهم خسيسة تغنى عن ثقلها ووفرتها بضعة دنانير ، حتى لقد قال لهم : « لوددت أن معاوية صارفنى بكم صرف الدينار بالدرهم ، فأخذ منى عشرة منكم ، وأعطانى رجلا منهم » . . لأن ما يعول عليه هو القيمة لا الـكمية . الـكيف لا العدد . النوع لا المقدار . .

لئن خطر عندئذ لأهل الشام أن سيرهم إلى صفين أشبه برحلة للترفيه منه إلى زحف لقتال ، وأن النصر لا محالة معقود لهم ، وطوع أيديهم ، فذلك ليس بغالاة خيال ، لأنه النهاية الطبيعية المحتومة لهذا الصراع كما تدلهم عليها أحاديث على ، وأعمال رجاله ، ويؤدى إليها تسلسل الحوادث وشواهد الحال ..ومن الخطأ أن يظن أنهم أسرفوا فى التفاؤل ذاهبين مع الاطمئنان إلى أبعد مدى ترسمه الأوهام ما دام فيصل الحـكم فى الأمور هو القياس القائم على نتائج التجربة ، المتعمق دلالة التصرفات ، المتتبع مسار الظروف الممتدة والوقائع الماثلة بالنظرة المحيطة الواعية ، والاستقراء المنطقى المتسق ، والرأى الخالص السليم .

ومع ما قد جد ، فى الجانب الآخر ، عند أدانى الفراتين ، من تغير فى الانفعال ،

وتبدل فى السلوك ، فقد كان معاوية وأصحابه أولى بأن يروا فى هذه الصورة الجديدة للعراق مجرد ألوان سطحية تناولت القشرة ولم تتناول الجوهر . لكأنها سحابة عارضة مآلها الإقلاع ! . لكأنها زبد وجفاء !. لكأنها انتباهة طارئة من غفوة لا يلبث أن يمتورها التثاؤب ثم يغزوها استرخاء النوم !. بل هى كصحوة المحتضر لحظة النزع والموت عادة صحوة توشك بعنفوانها أن تتحداه ، ولحظة النزع غالبا ما تلوح كأنها قمة الحياة ! .

وحق لهم هذا التفكير .. فكم طالما هبت الكوفة على ضربات الشام التى كانت تنصب على رأسها كالمطارق ونفضت عن نفسها آثار التخاذل والاستكانة . كم طالما غضبت لشرفها المهين . كم طالما زأرت وملأت الآفاق بالزئير والهدير ثم لم يكن قصارى ما تسفر عنه ضجتها العالية ، فى أكثر الأحايين ، إلا ما يشبه المواء ! . .

ولقد عاش معاوية وقومه الخلاف الذى كان دائما ينشب بين على وأصحابه ، وبينهم بعضهم وبعض طول تلك السنوات . . عاشوه معيشة تحقق لا تصور ، وعيان لا خيال .. فى إطار الأخبار التى كانت تتوالى عليهم من الكوفة على ألسنة الرواة ، عاشوه . فى كتب العيون والجواسيس . فى حركة الأحداث .

فلم يكن يخفى عليهم هناك شىء يقال .. ولا فعل يفعل . ولا نية تعقد على أمر لأن جمهرة شيعة الإمام آنذاك كانوا أكلف الناس بالمناقشة والمجادلة ، وبالمراجعة والحوار ، لا يخفى لهم سر ، ولا يحكمهم حذر . . فما تكاد تعرض لهم مسألة ، جلت أو هانت ، تبيح العلانية ، أو تحتم الإسرار ، إلا قلبوها — جهرة — على أوجه الرأى ، وعايروها بميزان المنطق ، وإن تشعبت أمامهم بها سبل التقدير والتبرير بمقدار اختلاف مرامى النظرات وتعدد صور المعاذير بين أصحاب الآراء فى الدقائق والتفصيلات ، تبعا لتعدد مذاهب التفكير ، وميول الأمزجة ، واقتدار العقول . وإن خرجت بهم أيضا المسائل المعروضة بهذا النقاش المبلبل العريض من حدود الحرص والتوقى ، التى تفرضها ضرورات

الإخفاء والكتمان ، إلى رحابة المهاترة واللجاج والمكابرة التي تفضى دائما إلى الإفشاء والإعلان .

وقد عاش معاوية أيضا وقومه الوقائع الجارية ، تافهة وخطيرة ، التي ملأت الأعوام الثلاثة الأخيرة ، معيشة مكابدة ومعاناة . فشاركوا في صنع الأحداث . أو وضعوا لها خططا أو خطة ترسم الاتجاه والمسار . أو اختلقوا منها ما شاء لهم الاختلاق وشاءته سياستهم النافرة أبدا من التزام قانون الاخلاق . القائمة دائما على ابتداع الأسباب وادعاء المقدمات إيهاما بحتمية النتائج والمغبات . المستندة ، من قبل ومن بعد ، إلى تحليل الذرائع ، وتبرير الوسائل للوصول إلى غاياتهم ، المعلنة والمستترة ، من أقصر طريق أو أنكر طريق ! .

بل قد قطعوا فعلا الشقة المرتقبة ، وبلغوا الآن — أو بلغ صاحبهم — نهاية الطريق .

ففي يوم قائظ الحر من أيام الصيف ، قبل بضعة أشهر من سيرهم هذا إلى الميدان ، رأى الداهل الأموى أن الأوان قد آن ليسل أحدث أسلحة دهائه ويقتحم به مجال السلطة الشرعية على غريمه اقتحام ند على ند ، وقرين على قرين إن لم يكن اقتحام منافس خطير قادر على منافس مفضول مغلول . فما أن أجال رأيه بخاطره ، واستنهض عزمه ، حتى وضع الحلقة الأخيرة في سلسلة التمويه . خرج على الدنيا بقناع جديد . طالع الناس بأعجب الاعيب التي حفظتها لنا صفحات التاريخ . نصب نفسه ، تحديا وافتئاتا ، أميرا المؤمنين ! .

تم هذا التنصيب في صفر من سنة أربعين .

وحدث في بيت المقدس ، مدينة القبلة القديمة ، ومهبط الأنبياء ، وأرض الإسراء ، كأنما لينحله صفة القداسة التي أعزت المكان .

وكان هو النتيجة الطبيعية الخليقة بأن تتقبلها ، بغير غرابة ولا استهجان ، عقول جمهور كبير من المسلمين سبق إلى علمهم ما أشاعه الداهل قبيل أشهر قليلات ، من وقوع صلح مزعوم بينه وبين غريمه ، اتفقا فيه على إعادة السلام

إلى الامة ، واقتسام الدولة بينهما شطرين ، لكل شطر منهما كيانه السياسى الخاص ، وسيادته المكتملة ، ووحدته الإقليمية ، وحـــدوده الآمنة ، وأميره الذى يسوس الأمور ..

وامتلأ ابن أبى سفيان، لا ريب ، فخرا وزهوا وهو يشهد الناس يومئذ بالشام يصفقون على يده بالبيعة ، ويعاهدونه الولاء والطاعة ، ويسلكونه — بلقبه الجديد — فى خيط واحد مع خلفاء رسول الله وقادة الدولة الأوائل : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ..

وما له لا يزهو وقد حاز أخيراً أربه، وارتقى قمة أطماعه؟ . فتقديره أصاب . وتدبيره أثمر . وادعاؤه الحـــق فى خلافة المسلمين — بحكم خرافة تفوقه ودهائه — قد توفرت له الآن صفة « الشرعية » التى كان افتقاره إليها يباعد ، إلى حد كبير ، بينه وبين عواطف الجماهير ..

غدا الآن أميراً « ثانيا » للمؤمنين ..

وجمع بحركته المسرحية ، هذه هيبة الشكل والهيئـة إلى قوة الفعل والمضمون ..

وأصبح وخصمه على استواء ..

واكتسب شرعية الولاء ..

وليس ثمة من تلوم أحسبه ، فيما يلوح ، من هذه اللعبة الهازلة ، الساطية على الحق ، العادية على الواقع ، المجافية لطبيعة الأوضاع كل مجافاة ، المخالفة لقواعد الاستخلاف أبين اختلاف ..

ليس ثمة من تلوم أحسبه معاوية ، وهو يظهر مشاركته عليا فى الحـكم ، إلا أن يكون مسيلمة باليمامة قد استشعر التلوم وهو يدعى النبوة فى حياة الرسول ، ثم يعلن على الناس مشاركته فى الرسالة السماوية ، ثم تبلغ به صفاقته وضراوة

افترائه على الله والحق أن يكتب كتابا إلى محمد يعلن فيه اقتسامه وإياه عالم تلك الأيام بينهما على استواء كاقتسام معاوية الآن الدولة الإسلامية مع الإمام !

أنذاك كتب النبي الكذاب :

« من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله .

سلام عليك .

فإني قد أشركت في الأمر معك . وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم لا يعدلون . »

فكان الجواب الذي تلقاه ، وما من جواب أخلق بأن يتلقاه في مثل هذا المقام إلاه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . »

فكأنما الله شاء أن يظهر في حياة على دعى كما ظهر في حياة الرسول أدعياء !

وكيفما كان الأمر ، فبحسب معاوية أن أحكم خدعه ، ولعب لعبته ، وحقق مشتهاه. أما أن الأمة الإسلامية كلها ، بكافة شعوبها ، وبإجماع أمصارها إلا الشام .. وأما أن البيعة تعاقد بين على وبين المسلمين بعهد الله ، لا يحلها إلا صاحبها أو الذين بايعوه . . وأما أن تحلل طائفة منها شاركت فيها هو المروق . . وأما أن حق ابن أبي سفيان في نقضها منقوض ، إذ هو لم يدخلها ، وبقاؤه خارجها يعزله عن جماعة أهل الإسلام ، ويدمغه من البدع بالتمرد على النظام العام . أما هذا كله وأمثاله من أسانيد تفسيق موقفه ، وبطلان بيعته ، فليس له عنده أي اعتبار ! .

على أن ضرورات الإنصاف تقضي هنا بأن يقال إن الرجل وأصحابه ، حين

انطلاقهم ذاك من مواطنهم إلى صفين الثانية تأهبا للقاء ، كانوا أكثر من عدوهم إلماما بحقائق الأمور فى إقليمهم ، وفى غيره من الأقاليم سواء بسواء ، وأقرب منهم إلى تبين ما فى الصورة العامة للظروف والأوضاع من الظلال والأضواء ، ومن الخفايا والمرئيات . كما كان هو أيضا — وبلا نزاع — أوثق بالذين معه ، وبما فى صدورهم وأخلادهم وأيديهم ، من غريمه أمير المؤمنين بمن اتبعوه ، وبما أعدوه ، وبما أسروه أو اعتزموه .

تلك حقيقة لا تغيب عن بال .

ومع ذلك . فلا ينبغى أن يعنى هذا — بحال من الأحوال ، إلا من قبيل الافتراض المجرد — أن حزب الشام كانوا أدنى من حزب العراق إلى إحراز النصر ، أو أجدر به منهم فى المعركة المنتظرة لو قد كتب للحرب أن تندلع ، خلال الأيام القليلة المقبلات ، على أرض الوقعـــة ، وأتيح للسهام أن تترامى ، وللسيوف المشروعات أن تصول وتجول . بل هو يعنى أنهم قد أحاطوا فاستكملوا الإحاطة ، وقدروا فأحسنوا التقدير ، ودبروا فأجادوا التدبير قبل السير إلى الصراع المرتقب ، وعلى النحو الذى يجب أن يكون . أما نتيجة المعركة الحربية القادمة كالحال فى غيرها من المعارك — فإنها : إلى جوار عوامل الإحاطة والتقدير والتدبير ، رهينة بحنكة القائد ، ودربة الجند ، وسرعة الحركة ، ومبادهة العدو بما ليس فى حسابه ، واليقظة المرهفة لاقتناص السوانح الطارئة على غير توقع ، مقترنة بالقدرة الفائقة على المبادرة الخاطفة إلى إعادة التشكيل ، وتغيير المواقع وتعديل التوقيت ، وبالوعى الكامل لمقتضيات الالتفاف والمباغتة والانسحاب ، وفاقا — من ناحية — لما لعله قد يجد ، بدواعى المناورة والدفاع والهجوم ، على سير القتال من مد وجزر ، وضغط وتجمع ، وشراسة وهوادة . وعلى صفوف المقاتلة ، من ناحية أخرى ، وحشودهم الممتدة فى مختلف أرجاء الميدان من تخلخل وكثافة ، واضطراب وفرار ، وتركز وانتشار .. فتلك كلها ، وغيرها من أمثالها ، ميزات ترجع إلى عبقرية القيادة ، وتنبع من رهافة الحاسة القتالية ، وتتطلب شدة التمرس ، بالأساليب الحربية .. ولا يكاد معاوية وأساطين قواده من

التابعين ، وإن ذاع شأنهم كأصحاب وغى ، يبلغون منها بعض مبلغ الإمام .

وترانا نحسب ، مع وجود هذه الاحتمالات المؤثرة في صياغة النصر والهزيمة، أن العاهل الأموي وأعوانه كانوا أحرى بأن يستشعروا الطمأنينة إبان السير إلى اللقاء الموعود ، استنادا إلى تفوقهم النسبي في مجال الممكنات المادية المتاحة ، وفي إطار الظروف السياسية المواتية ، وتحت أفق الجو النفسي الهادئ الذي يعيشون فيه . .

فهم من الوضع القائم ، يقفون بقدم ثابتة على أرض صلبة لا تنهار . . نظامهم بالشام متسق . وكيانهم مستقر . ورأيهم واحد . وعزمهم مشدود . ورعاياهم في كل بقعة من إقليمهم بنيان مرصوص . العاهل والجيش والشعب معا في رباط . وخطوط نقل المدة والميرة إلى جنودهم قصيرة . . والجبهة الداخلية ، بتعبيرنا المعاصر ، مدد لا ينفد معينه لتزويد كتائبهم على خط القتال بالقوة والتأييد، وجدار واحد لا ثغرة فيـــه يحمي ظهورها أن تتسرب إليها عوامل القلق والتخاذل والانتقاض .

أما الآخرون فبذور الفتنة كامنة فيهم ، كأنها الجمرات تحت الرماد، وإن بدوا الآن على تعاطف واتفاق . . جمعهم شراذم من النحل . ورأيهم أشتات من الأفكار . منهم الغالون لعلي ، والمبغضون له ، وقد دفعهم إلى صفوف أنصاره الرياء . . ومنهم الموالون له طاعة عن ثقة فيه وإيمان بقدرته وحكمته ، والملتزمون جانبه عن متابعة له انسياقا مع تيار الرأي الغالب في العراق دون اقتناع خشية من جمهرة الأشياع . ومنهم المولعون به إكبارا لمقامه ، والغالون في حبه إلى التقديس . . ومن وراء أولئك وهؤلاء ، خلف مقاتلته المتهيئة للزحف معه إلى اللقاء ، زمر شق من الخارجة مندسة هنا وهناك بين الشعب إن يكن فرق بينها تضارب الآراء فقد جمعها على حربه العداء . وطوائف عدة من العثمانية ، كأنها الخروق في ثوب الأمة ، تعج بها البصرة واليمن والحجاز . وعناصر كثيرة لا يحصرها الإحصاء من الشعوبية الغالية في بغض العرب ، الموتورة من الإسلام ، الحالمة بعزها القديم قد

تناثرت عند أطراف دولته ، وأحاطت بحدودها القاصية كالإطار .. وكلهم جموع زاخرة ماكرة ، غير مأمونة الهوى والسلوك ، يتربصون به وبحكمه سانحة للإفلات من الولاء والطاعة ، وللمسارعة إلى الثورة والانتكاس .

وكذلك ينطلق معاوية ورجاله إلى ساحة المعركة التي تجنها الايام ، فإذا هو راضي النفس ، مرفوع الهمة ، ثابت الخطا ، وطيد اليقين .. لا يشغله شاغل عن توقع النصر . لا شيء يمنع انطلاقه . لا عقبة تعترض طريقه . لا قلق ينتاب جنوده . لا خطر يهدد مؤخرته . لا غيمة في الأفق تحجب عنه إشراقه غده المأمول ! .

أخيراً أينعت أحلامه . الشمس في يمينه والقمر في يساره ! قدره معه . جنده معه . شعبه معه . الدنيا معه ! .. وعندما يواجهه غريمه بعد أيام على الثرى المتعطش للدماء والأشلاء ، فلن يواجه عندئذ عاملا من عماله تمرد على سلطة الدولة وخرج على واجب الولاء .. ولا طالب ثأر — يدعو بحق وشيجة القربى ، وولاية الدم الحرام المسفوك — للاقتصاص من قتلة عثمان .. ولا متطلعا للإبقاء على وضعه القديم الموروث منذ عهد ابن الخطاب ، واليا على الشام كغيره من ولاة الأمصار وحكام الأقاليم .. ولكنه سيواجه هذه المرة الند الصلب ، والشبيه المجلى ، والقرين الذى لا يطاوله في القوة الحربية والنفوذ السياسي وولاء الرعية قرين !.

سيواجه الخصم العنيد الذى اختاره قومه ، بإجماع الرأى في نصف الدولة ، خلفا لذلك الذى خلعه التحكيم ، وانقسمت الأمة عليه ، وتفرقت شيعته عن هدفه ، واضطربت بأرضه الفتن والخلافات ..

سيواجه الآن « معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين » ! ..

٤

إلى مرتقى أحلام نومه ويقظته حمله الزمان . . إلى أبعد من مرمى ظنه . . إلى أرفع من قمة وهمه . لى أروع من بدع خياله ! . .

حلق فى الجو بغير جناح . .

تسنم السحاب . وأمسك النجم . وأطل من سقف سمائه على الدنيا تحته ، فإذا هى كلها ، بخيرها وشرها ، بصدقها وزيفها ، بجبروتها وضعفها فى محيط نظرته . .

كتقديره تسير الأمور . . بإشارته يأتمر الناس . وعلى مقتضى مشيئته الصلبة تتخلق الأهواء ، وتتحرك العزائم ، وتتواتر الوقائع السيارة فى العالم الإسلامى : غرساً وثماراً ، وبدءاً ونتيجة كما تتحدر مياه السيول من أعالى الجبال نحو السفوح ، هادرة ثائرة ، لتنتشر فوق صفحة السهل المنبسط ، وتصطرع وتتدافع ، حتى تشق لنفسها فى أرضه اللينة قنوات وأخاديد ، لا تلبث أن تلتئم ، بعد حين ، فى مجرى واحد هو نهر إرادته الفردية الذى تسبح أطماعه على تياره الدافق إلى هدفه البعيد . .

أو ليس أمير المؤمنين الجديد ؟ . .

بلى !

وهذه صورة نفسية له ، أولى بها أن تطابق شعوره ، وترسم آماله ، وتنقل وضعه المنتظر من مرحلة الادعاء إلى مرحلة الحقيقة النابضة بالحياة .

ولا عليه أن تكون .

ولا عليه أيضاً أن يهضمها « ويتمثلها » لتجرى فى عروقه مع الدم ، وتعيش فى خلده مع الأفكار ، معيشة يقين لا معيشة ظنون . .

فالدولة قبضته بعد قليل . . جناحها الغربى مطوى بيمينه . وجناحها الشرقى عند أطراف بنانه ولا ينقصه لامتلاكه إلا أن يقبض أصابعه . .

إنه اليوم ، وهو يهم بأن يخطو أولى خطواته نحو مشارف صفين ، واثق أن الموقف قد تغير عما كانت عليه حاله من بضع سنين . .

أصبح صاحب اليد العليا فى معترك الأحداث .

لعبت حيله وأخاديعه ذلك الدور الذى أرادها على أدائه ببراعة وإتقان . .

بلغ بدعواه شأو الإبهام ، عبثا بالعواطف ، والتواء بالأفهام ، وتضليلا للرأى العام . .

كان هذا سبيله الذى اختطه،طوال سنوات السعار الذى انتابه نهما بالسلطان، فإذا هو أخيرا — بفعل أساليب المخاتلة والتدليس — فى أعين الكثيرين ، الكفء لولاية الأمر ، الخليق دون سواه بالاستخلاف ، إذا ما وزن صلاحه لسياسة شعوب الإسلام باقتداره على ضبط الأمن ، وإقرار النظام ، وتثبيت الحكم فى « دويلة » الشام . . وإذا ماقيست جدارته بمنصب الخلافة بمظاهر تفوقه على غريمه المتمثلة فى إحكام قبضته على أزمة الأمور . وفى سيطرة على توجيه الأحداث وفى كيله الضربات المتوالية لأعدائه فى عرينهم غارات رهيبة مدمرة متى شاء ، وكيف شاء، وأين شاء وفى احتوائه رعاياه وأنصاره بالطاعة والولاء، واجتذابه مناوئيه ومخالفيه بالمصانعة والاستهواء . .

وكيفما كان نكر الوسيلة وعوج الطريق ، فقد سار شوطه غير متلوم ، ودانى هدفه وهدف آبائه وذويه الأمويين المتطامين ، شهوة وطمعا ، على مدى أجيال ، إلى ابتزاز شرف السيادة الاجتماعية والسياسية بين قومهم من منافسيهم التقليديين : الهاشميين . . وإذا كان محمد بن عبد الله مذ اختصه الله بالرسالة ، قد أعجزهم منافسة . . وقطع عليهم — لفترة غير قصيرة — طريق الأمل فى تحقيق حلم العمر . . وآلى آله وخاصة بيته الأدنين الذين عزروه ونصروه ، فى أحلك أيام كفاحه ، شرفا دينيا ودنيويا لا يطول شأوه من البشر أحد : أموى

أوغير أموى ، فإن معاوية الآن يوشك أن يكون وحـــده وريث هذا التراث النبوى ، وصاحب الدنيا والدين فى الدولة العريضة الجديدة ، التى تضم قريشا : هاشميين وأمويين . . وتضم العرب : عدنانيين وقحطانيين وقضاعيين . . وتضم رعايا الإسلام ومعتنقيه : شعوبا شتى ، وأجناسا عدة ، انتشر أبناؤها على صفحة عالم ذلك الزمان شمالا وجنوبا من مواطن الصقالبة إلى أرض النوبة وغربا وشرقا من ديار البربر فى إفريقية إلى بلاد المغول فى الصين .

إن هى إذن إلا جولة على ثرى الوقعة القابلة يملك بعدها معاوية الإمرة ، ويملك الأمر ، بالشمال واليمين . فالنصر مهيأ . والطريق مفتوح . والأعنة بين أصابعه . والحوادث له مطايا ذلول .

فما للناس لا يكادون يفقهون أنه ليس بالـكثرة وحدها تـكون القوة ! . . ليس بالمال وحده يكون الغنى ! . . ليس بالسيف وحده يكون الانتصار ! . .

لو أنهم تبينوا حقائق الحياة ، لأدركوا أن هذه كلها قبض الريح . زخرف وزيف . قشور وطلاء . عروض ومظاهر لا تغنى شيئا عن الألباب والجواهر ، كأنها الغيمة تستر ساعة ضوء الشمس ولـكنها لا تمحوه . . فإنما القوة القادرة ، قبل أن تـكون وفرة فى النفر والنصير ، طاقة روحية تفجرها الغيرة على الحق . وإنما الغنى الباذخ ، قبل أن يكون قنية من الذهب والفضة ، إحساس القلب بالامتلاء بما عند الخالق لا بما عند الخلق . وإنما الانتصار الحاسم ، قبل أن يكون إراقة للدم وبطشا بالخصم ، قهر للنفس أن تحيد — طمعا وشهوة — عن طريق النور .

ولئن كان معاوية ، وهو فى أوج اعتداده بما خلص إليه ، ظن أنه شارف ، بجبروت الـكثرة والثراء والسلاح ، حد الغلبة التى تضمن له اجتيازه ذلك «الحق» الذى ادعاه ، وأخذ نفسه بالسعى إليه سنين عددا ، فإنه إذن ، بنظرة المثل الرفيعة ، لم يحسن الحساب . . فطاقة القوة لا تقاس بالحجوم والأعداد . وذخر الغنى لا يتقوم بالدرهم والمثقال . وقيمة الغلبة لا تقدر بامتلاك رقاب العباد وانتزاع الحدود والبلاد . . ذلك لأن طبيعة الحق تنزه عن الهوى ، وتجرد من

الطمع ، وعزوف عن الباطل ، وتعفف عن العدوان . وما نرى العاهل فى هذا المجال إلا قد مال ، وعدل عن كل أولئك ليحقق دعواه . . ذلك لأن كنه النصر أنه نبع الإيمان ، ورهين الصبر ، ومنطلق الإنصاف ، وقرين الثقة بما فى يد الله . وما نرى معاوية أيضا قد أراد التزام هذا السبيل ، أو استشعر هذه المعانى استشعار يقين . .

ولقد ناضلت البشرية طويلا ، عبر عمرها على الأرض ، لتفرق النور من الظلمة ، والخير من الشر ، والعلم من الجهل ، والعدل من الجور ، والهدى من الضلال عسى أن تجعل من العالم مكانا خليقا بأن يعيش فيه الإنسان معيشة إنسان ! . . فعمدت بالحكمة فى نظرات المفكرين والفلاسفة ، وبالدين فى دعوات الأنبياء والرسل ، إلى ترويض الغرائز ، وتهذيب الطباع ، وكبح الشهوات ، وتنشيط الملكات ، دحرا لمتمة الجسد أن تطغى ، وحفزا لرقة الروح أن تشف . ودفعا لقوة العقل أن تسود ، ليتحرر البشر من بقايا البهيمية الكامنة فيهم ، والسيطرة أبدا عليهم من خلال نزغ الأنفس وشطط الأهواء . .

وعسير بلا ريب على جهد البشر بلوغ مثل هذه المرتبة العلية من الكمال ، وإن كان بلوغ بعضهم إليها ليس بمحال . ولكن السعى إليها مطلوب ، لأنه الواجب الذى يفرضه عليهم كافة فرض عين ، لا معدى لأحدهم عن التزامه ، الإيمان بالله ، والولاء للإنسانية ، والوفاء بمتطلبات الحياة الكريمة . . ولأن الدربة والممارسة والحرص على إجادة الأداء كفيلة ، آخر الأمر وبمرور العصور والأجيال ، ببناء الإنسان الأمثل ، وتحقيق الارتقاء المأمول . .

ولا ينبغى أن يجول بخاطر ، فى مثل هذا المقام ، أن ابتغاء هذا المطلب المنشود أو السير إليه ، يعنى ، على أى وجه من الوجوه ، إغفال العوامل المادية أو إهدار أثرها فى تشكيل مصاير الناس . أو أنه يرمى إلى التجرد الخالص من الغرائز والميول البشرية تجردا يفصل بين الإنسان وبين مقومات عيشه على هذا الكوكب ، وينضو عنه « آدميته » ، وينتقل به إلى طبيعة « سماوية » جديدة .

فذاك هو الخيال الذى يناظر المحال . . إنما يعنى أن يخرج الإنسان من ظلام البهيمية ، ويتحرر من طغيان شهواته ، ويكبح غرائزه الدنيا ، وينمى إرادته ، ويجعل المادة وسيلة لا غاية ، ويصبح سيدا لنفسه لا عبدا لها يتحكم فيها ولا تتحكم فيه ، ليغدو كيانا متزنا من العاطفة والعقل ، وقواما عادلا من البدن والروح . . وحين نتصفح ذخر الحكمة الذى تركه لنا الإمام هداية وشرعة وأسلوب حياة نقع فيه على صورة واضحة المعالم والقسمات لهذا النموذج الأمثل للإنسان الذى ظل دائما حلم البشرية ، ومناط أمل المصلحين ودعوات الدعاة . .

فى وصفه لهذا الإنسان يقول الإمام :

« . . . ترى له قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وإيمانا فى يقين ، وحرصا فى علم ، وعلما فى حلم ، وقصدا فى غني ، وخشوعا فى عبادة ، وتحملا فى فاقة ، وصبرا فى شدة ، وطلبا فى حلال ، ونشاطا فى هدى ، وتحرجا من طمع . . يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل . . . »

ويقول :

« . . . يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر . . . إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره ، لم يعطها سؤلها فيما تحب . . قرة عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى . . الخير منه مأمول . والشر منه مأمون . . . »

ويقول :

« . . . يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه . . لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب . . يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه . . لا يدخل فى الباطل ، ولا يخرج من الحق . . نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة . . . »

ويقول :

« . . . بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة . . ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة . .

ليس تباعده بكبر وعظمة ، ولا دنوه بمكر وخديعة .. .. »

بهذا الناموس الخلق أخذ الإمام نفسه حتى استكأنما صبها فى قالبه . أو كأنما كانت مثله ومبادئه مسرى خطواته . . منطلق سلوكه . . أسلوب حياته الذى له يمتثل ، وعليه يسير ، وإليه يدعو كافة الناس أن يسلكوه أو يعيشوه إذ هو الأسلوب الأوحد الذى يجعلهم يدخلون دنياهم من باب الآخرة ، ويغنمون آخرتهم من طريق دنياهم . به تخشع الجوارح ، وتصفو القلوب ، وتعز إنسانيتهم فلا يصدر الفرد منهم فى قول أو فعل إلا عن ضمير خالص ، ونية نقية ، وإرادة متجردة عن الهوى والزيغ ، وهو يذكر الله فى علانه وسره ، وفى جهره ونجواه وكأنما يراه . .

وليس بعد مثل هذا المسلك القويم مسلك ، ولا مثل هذه النقاوة النفسية نقاء . . فأن تذكر الله فإنك تعاينه ، وأن تعاينه فإنك تعرفه . وأن تعرفه فإنك تقدره . . وأن تقدره فإنك تشكره . وأن تشكره فإنك تحبه . وأن تحبه فقد بلغت منه سبحانه أقرب مكانة إليه : مكانة الرسل والأنبياء . .

ولقد قيل مرة لرسول الله :

« قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فلم تقوم الليل ، وتتعب نفسك ؟ . . »

فقال :

« أفلا أكون عبدا شكورا ! . . »

وأثر عنه حكاية عن الله تعالى :

« إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى . وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه . وإذا تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا . وإذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا . وإذا مشى إلى هرولت إليه . . »

وتلك مرتبة من الإيمان بذى الجلالة الإلهية تخلص صاحبها من نزوات نفسه ،

وتمحض الناس خيره صرفا وهو لا يخشى من امرىء لوما أو يبتغى مثوبة ، لأنه عندئذ يرقب فيهم ربه ، ويرجو وجهه ، فلا يخرجه غضبه على بعضهم من الحق ، ولا يدخله رضاه عن آخرين فى الباطل . . وفى هذا اللون من السعى إلى الله ، حبا له ، وعرفانا بذاته ، يقول الإمام :

« لم أعبده خوفا ولا طمعا . ولكننى وجدته أهلا للعبادة فعبدته . »

ويقول أحد العارفين :

« لست أرضى لنفسى أن أكون كأجير السوء ، إن دفعت إليه الأجرة رضى وفرح ، وإن منعها سخط وحزن . . وإنما أحبه لذاته . »

لكن معاوية ، فيما بدا ، كان ذلك الأجير الذى أراد أن يثمن من الخلق على فعله ويغلى له فى الثمن المبذول وإن هو أيقن تمام اليقين أنه يدلس بسلعته المغشوشة على المشترين ! . فهو واثق أنه يموه على الناس فيتقن التمويه . . وهو عالم أن بضاعته خليقة ، لو عرضها عارية فى سوق الحق ، أن تبور . . وهو موقن أنه يدعى الإصلاح ويسعى إلى نقيضه . يظهر الألفة ويبتغى الخلاف . ينادى بالانتصاف ويروم الاعتساف . .

بغير ما يبطن كان يمشى فى القوم ، بقوله وعمله ، مذ تبدت له طلعة الإمرة تطل عليه وتخايل عينيه من بين غيوم الأحداث التى انتهت بمصرع عثمان . . فما لاحت له فرجة ينفذ من خلالها إلى الفتنة ، بلوغا إلى تحقيق أطماعه ، حتى نشط غير متلوم إلى إشعال النار . .

انظره كيف بادر عندئذ إلى طلحة بن عبيد الله يثيره على على ، ويحاول أن يلويه عن الوفاء بالبيعة التى سلفت منه للإمام . .

كتب إليه يحرضه على السعى لاجتلاب الحكم من على استجابة لرغبة أمة لها هوى فيه ! . ثم يعده النصرة من لدنه لبلوغ أمر هو به حقيق لمزايا يكاد ينفضل بها غريمه ابن عم الرسول الذى وسده الناس طائعين سدة السلطان . . يقول فيما كتب :

« .. .. إنك أقل قريش وترا ، مع صباحة وجهك ، وسماحة كفك ، وفصاحة لسانك . فأنت إزاء (من تقدمك !) فى السابقة ، وخامس المبشرين بالجنة ، ولك يوم أحد وشرفه وفضله . . فسارع رحمك الله إلى (ما تقلدك الرعية من أمرها !) مما لا يسعك التخلف عنه (ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به !) . . فقد أحكمت لك الأمر قبلى . والزبير غير متقدم عليك بفضل . وأيكما قدم صاحبه فالمقدم الإمام . . »

وانظره أيضا كيف يوغر صدر الزبير على ابن خاله فيضعه منه بمقام خصم مناجز ، وند كفء ، ثم يكاد يعليه عليه بصفات تحرك فى صدره الاعتزاز والكبرياء ، وتثير فى نفسه الأثرة ، وتهتاجه للدد العداء . .

كتب له :

« .. .. إنك الزبير بن العوام ! .. ابن أبى خديجة . وابن عمة رسول الله وحواريه وسلفه ، وصهر أبى بكر . وفارس المسلمين . . سبقت لك من رسول الله البشارة بالجنة . وجعلك عمر أحد المستخلفين على الأمة . . . .

فاعلم ، أبا عبد الله أن الرعية أصبحت كالغنم المتفرقة لغيبة الراعى . وسارع ، رحمك الله ، إلى حقن الدماء ، ولم الشعث ، وجمع الكلمة . . وشمر لتأليف الأمة . وابتغ إلى ربك سبيلا ، فقد أحكمت الأمر على من قبلى لك ولصاحبك على أن الأمر للمقدم . ثم لصاحبه من بعده . .

جعلك الله من أئمة الهدى ، وبغاة الخير والتقوى . . والسلام . »

ولا حاجة هنا للخوض بالتفسيق أو بالتجريح فى هذا الكلام الذى زوقه عاهل الشام ، لأنه فى الواقع مثخن بالجراح ، ناضح بالحقد والتمويه والمغالطة كالإناء الشفيف لا يستر ما فيه . . وكفا بنا ، بيانا لافتئاته على الحق ، شهادة صاحب لمعاوية من ذويه لم يلهه ولاؤه لآله الأمويين عن المجاهرة بالحقيقة الواضحة التى أغمض العاهل عنها عينيه ثم شاء بادعائه أن يعمى عنها الأبصار . .

ذاك سعيد بن العاص .

وكان معاوية قد كتب إليه — فيمن كاتب من الزعماء مثيرا فيهم الأحقاد والمواجد على الإمام — يحرضه ويستجيش حمية الجاهلية العمياء ، ويشعل فيه نزعة العصيان ، انتقاما لزوال دولة أهله بقتل عثمان . .

قال له فيما قال من كلام طويل مسموم :

« . . . إنكم يا بنى أمية عما قليل تسألون أدنى العيش من أبعد المسافة ، فينكركم من كان منكم عارفا ، ويصد عنكم من كان لكم واصلا ، متفرقين فى الشعاب تتمنون لمظة المعاش ! . .

إن أمير المؤمنين عتب عليه فيكم ، وقتل فى سبيلكم ففيم القعود عن نصرته والطلب بدمه ، وأنتم بنو أبيه ، ذوو رحمه وأقربوه ، وطلاب ثأره ! . .

فإذا قرأت كتابى هذا ، فدب دبيب البرء فى الجسد النحيف ! . . وسر سير النجوم تحت الغمام ! . . واحشد حشد الذر ، فقد أيدتكم بأسد وتيم . . »

فإذا بسعيد بن العاص لا يندفع فى التيار ! . .

إنما يرتفع بنفسه عن هذه الدعوة إلى الباطل ، فيخالف المنتظر من أموى مثله . ثم يرد على العاهل المتجنى بجواب يدفع الكيد والمكائد ، ويدفع البغض والمبغض ، ويدين التحريض والمحرض ، يقول فيه ، داحضا الادعاء :

« . . أمرتنا بطلب دم عثمان ، فأى جهة تسلك فيها أبا عبد الرحمن ! . . ردمت الفجاج ، وأحكم الأمر ، وولى زمامه غيرك ! . . .

ألا فدع عنك مناوأة من لو كان افترش فراشه صدر الأمر لم يعدل به غيره ! وهل نحن إلا حى من قريش ، إن لم تنلنا الولاية لم يضق عنا الحق !
إنها خلافة منافية . . .

وهبنى أخالك بعد خوض الدماء تنال الظفر ، هل فى ذلك عوض من ركوب المأثم ، ونقص الدين ! . . . . »

ثم ختم خطابه :

« . . . أما أنا فلا على بنى أمية ولا لهم . أجعل الحزم دارى ، والبيت مسجدى ، وأتوسد الإسلام . . فاعدل أبا عبد الرحمن زمام راحلتك إلى محجة الحق . . فلبئس العاقبة الندامة . .

والسلام . . . »

غير أن هذه الكلمات الصادقة ، المتحدثة بالحق . النابعة من الحقيقة ، الداعية إلى العدل ، لم تلق عندئذ ولا من بعد صدى فى نفس معاوية ، لأنها لم توافق هواه . . فماله حينذاك وللحق والعدل وهو يسعى لإشباع نهم أطماعه ؟ . . وماله وإياهما الآن وقد جاءه الزمن أخيرا بحلم آبائه ، وأقبلت عليه الدنيا ، وبات وهو المالك لأزمة الأمور ؟ . .

كتقديره تسير الأحداث . بإشارته يأتمر الناس . على مقتضى مشيئته تتواتر الوقائع السيارة فى العالم الإسلامى : غرسا وثمارا ، وبدءا ونتيجة . . بيده وحده مصير خصمه، يبسطها فترتخى ليمهل لو شاء ،ويقبضها فتعتصر ليقضى لو شاء ! . .

الفصل الخامس

١

صحيفة سعيه المتصل الجاهد ، وكفاحه المستمر الدءوب ، حين تجمل أعماله وأساليبه ، ويوجز عمرها الطويل إبان مراحل تاريخه ، تكاد تجمعها بضع عبارات لا تزال ترن فى سمع الزمن كالطبل ، وتتردد لها فى جوانب الدنيا من وراء الغابر البعيد إلى اليوم أصداء تهمس للناس :

« حاول وحايل . . ثم غامر وقامر . . ثم خايل وخاتل . . ثم مكر وغدر . . ثم قدر ودبر . . ثم عزم . . ثم حسم . . ثم بلغ بالمداورة والرياء ما لا تبلغه نجابة ولا ذكاء . . »

ذالك سجل مفتوح ! . .

ففى كل خلة من خلاله ، وفعلة من فعاله ، لمحات نفاق وآثار دهان ، تخدع الأعين ، وتخلب الأسماع ، فتستهوى الخصوم كما تستهوى الأشياع من كل ناء بعيد أو دان قريب ، ومن كل غافل غر أو لبيب أريب . .

سمة فى خلقه لم ينكرها عليه منكر ، سواء الشانىء المباين والصديق الصدوق . .

ولا مغالاة . .

فقد وصفه بها عبد الملك بن مروان أحد خلفاء بيته الأمويين الذين سودهم ملكه ورفعهم على الرقاب . وصفه ذات يوم خطب فيه الرعية من فوق منبر دمشق وهو يشير بحديثه إلى الذين سبقوه على عرش أسلافه عواهل بنى أمية : عثمان بن عفان ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وولده يزيد ، فكان أن قال :

« أيها الناس . .

إنى والله لست بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون . . »

فأنطقه الله بالصواب سرا من حيث لم يشأ أو من حيث شاء . وصدقت قولته رأى التاريخ وحقيقة الحال . .

وكيفما كان مرمى كلمة ابن مروان : مدحا سيق فى قالب ذم دلالة على دهاء معاوية ، أو قدحا قصد به إلى فضح ريائه ، فقد كان سلوك الداهل ، مثل زجاجة ينضح دائما بهذا الذى قيل فيه . .

خلال السنين المنقضية ، منذ خلف أخاه يزيد بن أبى سفيان عاملا على الشام بدا كأنما اختط لنفسه سبيل المراءاة والتمويه وقد جعل همه وقصارى سعيه أن تظل هذه الأرض أبدا أموية ، لاتخرج من ملاك سلطانه وسلطان آله الأمويين، أفضت إمرة المؤمنين إلى هذا الرجل من صحابة رسول الله ، أو إلى ذاك . .

موه على عمر بن الخطاب حين حاسبه على استكثاره من الحرس والبطانة ، والتزامه مظاهر الملك وأبهته على خلاف ما جرت به عادة الحكام المسلمين من التقشف والزهادة فى ذاك الحين ، مبررا سلوكه بأنه إنما عمد إلى ماعمد إليه رغبة فى رفع شوكة الإسلام أمام أعين أعدائه وجيرانه الروم ، وبلوغا إلى إرهابهم وكسر طمعهم فيه إذ هم قوم درجوا على المظهر ، يبهرهم البذخ ، وتخيفهم علائم القوة التى توحى بها فخامة السلطان . .

وما كان إذا ذاك إلا الحريص على توفير كل أسباب المنعة لحكمه بما أحاط به نفسه من الأعوان والحرس والجنود . .

وخلال السنين الحازبة، منذ اضطربت الأحوال فى الدولة على عثمان بن عفان، واتسعت الهوة بينه وبين شعبه، بدا كأنما اختط أيضا لنفسه سبيل المراءاة والتمويه وقد استخفته الأطماع إلى أن يخلف عميد البيت الأموى على إمرة المؤمنين . فهيأ نفسه ، وشحذ ملكاته ، وحشد كيده ، وحفز مكره ، وأثار دهاءه ، وجند ادعاءه ، ولم يترك وسيلة عادلة أو ملتوية إلا استعانها ، ليحيل الدولة الإسلامية كلها قطيعة له ولذويه . .

موه على عثمان أنه وحده دارىء الخطر عنه ، وحامى حماه ، بخيله ورجله حق

لقد سير من الشام جيشا ربض عند مشارف المدينة إعلانا عن صدق مقصده ، وحتى لقد حسب الناس أنه لا بد مقتحم البلدة على من بها من الثوار ، وآخذ فيها ، لصالح قريبه المحصور ، بناصية الأمور ..

وما كان إذ ذاك إلا المتربص بالأزمة أن تشتد ، وبالثورة أن تتسعر ، وبالخليفة أن يقتل ، لينعم هو من بعده بتراثه ، ويغمس قلمه فى الدم المسفوك ليكتب صك ميراثه ! . .

وخطأ بلا ريب فى حق صاحب الشام أن ينسب إليه حسن النية فيما أتاه حين جهد جهده لابتزاز الخلافة ، وفعل أفاعيله لبلوغ السلطان ، فذاك هو الخطأ المحض الذى لا تقره الحقيقة ثم لا تغتفره أيضا ملكات ابن أبى سفيان ! .

فلقد كانت نفسه هدفه . وختله أحب أساليبه . وسبيله إلى الطرق الجانبية ملتويا معها حيثما التوت وأينما عشش الظلام أعلم معالمه النفسية وأبرز سجاياه التي بغيرها تنتقص شخصيته ، ويعسى وكأنه ليس معاوية الذى تصوره لنا فعاله ، ويضعه سلوكه فى إطاره المعلوم ! . . فلا عن الطموح وحده سار إلى الإمرة سيره . . ولا عن الإحساس باقتداره — قبل غيره أو دون غيره من الأقران — على سياسة الناس والأمور ، انتهج نهجه للكفاح . . ولا عن طلب لدم ابن عفان المقتال جالد بالقول والسلاح . . ولا عن إيمان بحق لنفسه فى الخلافة نازع الإمام . . بل قد قاوم ونازع ، وجالد وحارب وإنه لعالم كل العلم أنه لا ينطلق على خطة سوية لغرض عادل ، وأنه إنما كان يفتات ولا يفتات عليه ..

وليس هذا مجرد تكهن أو استنباط ينفذ إليه مستقرىء أخباره . ولكنه الحقيقة التى لا يتحرج أن يعلنها أو يخفيها عن الأذهان والمسامع هو ولا أصدق خلصائه ولاء له ، ولزوما لطريقه . . .

فذاك ثابت مشهور . . .

قيل له مرة فى معرض معارضة أو استفسار بعد أن ظفر بغاية غاياته ، وأفضت إليه إمرة المسلمين وقد غاب وجه الإمام :

« حاربت من تعلم ، وارتكبت ما تعلم .. »

فلم ينف عن نفسه علمه بانخراطه فى الخطأ ، وارتكابه للمعصية بمعاداته عليا فى سبيل بلوغ سدة الحكم ، بل قد أكد التهمة ، فقال :

« وثقت بقوله تعالى : إن الله يغفر الذنوب جميعا .. »

وسئل ابن العاص وهو يحتضر على فراشه الدنيوى الأخير ، ودموعه عندئذ تسيل من ندم ، أو من خشية ساعة الحساب على ما قدمت يداه :

« لم تبكى ؟.. أجزعا من الموت ؟.. »

فكأنما قد حضره على الأثر ما أسلف . فأيقن لحظة الرحيل أن ما فات فات ولا رجعة فيه ؛ وأنه قد أقحم نفسه — بمحض اختياره ومن أجل مغنم مشبوه زائل — فى مزالق من الريب والشكوك ولات هذه اللحظة حين مناص من ترديه فى قرار سحيق ..

وقال :

« لا والله ! . . . إنى كنت على ثلاثة أطباق ليس منها طبق إلا عرفت نفسى فيه ..

كنت أول أمرى كافرا ، فكنت أشد الناس على رسول الله ، فلو مت حينئذ وجبت لى النار . .

فلما بايعت رسول الله ، كنت أشد الناس حياء منه فما ملأت منه عينى قط ، فلو مت يومئذ قال الناس : هنيئا لعمرو ! أسلم وكان على خير أحواله ، فسرحوا له بالجنة ..

ثم تلبثت بعد ذلك بالسلطان وبأشياء ، فلا أدرى على أم لى .. . »

ومع ذلك فقد اختار الرجلان ، دون تلوم ، سبيل الضلالة المعروف ، أو سبيل الشبهة التى تفضى لا محالة إلى ضلالة ، قصرت المسافة أو طالت ، وجل المطلوب أو هان ..

ومضى معاوية شوطه إلى هدفه البراق المرموق ، على متن أساليبه ، فى روية وصبر وإصرار . .

ثم حالفه زمنه ، فإذا هو ، أخيرا ، يحس بالأرض سهلة تحت خطاه . . بلا عوائق . ولا وعورة . . ولا صخرة هنا أو كثيب هناك يعترض أيهما طريقه ويعرقل انطلاقه ، فيطيل الشقة أو يزيد المشقة . . بل لقد كان منها كمن على ذات شراع تنساب به انسيابا فوق ماء ساكن ، تحت جو صفو ، وفى رعاية ريح معتدلة رخاء . .

وكيف لا ؟ . .

فها هو الآن بر الأمان . .

ها هى الغاية قيد البنان . .

ها هم الناس يأتمرون بمشيئته ، والأمور تسير كهواه . . والمصير يتخلق على مقتضى تخيله ، وفى إطار الصورة التى رسمتها نواياه . .

غير أن الذى كان فى الحسبان لم يكن ، وما لم يكن فى الحسبان هو الذى كان !

لم يضطرب به الماء .

لم ينثقب تحته القارب .

لم يتمزق الشراع . .

لكنه حرم ، لا ريب ، لذة اقتطاف ثمرة حقده وكيده بيمينه وإنها متعة ليس يعدلها عند حاقد متاع ! . .

فالحوادث لم تسر كتقديره وإن كانت الثمرة المحرمة سقطت ناضجة فى حجره بغير عناء .

والنتيجة لم تكن كما هوى وإن بلغت به ذروة مناه . .

القدر الذى حالفه طويلا ، وكان يشهد اعتداده بنفسه ، وبما هو ضامن به انتزاع النصر من قبضة غريمه ، سخر منه ! . فوت عليه غرضه . . غل كفه إلى عنقه وهى تمتد للجولة الأخيرة ثم تركه بلا حول ولا مشيئة فى تحديد المصير الذى ظل واثقا أكبر الثقة ، بضعة أشهر ، أنه وحده القادر على أن يصوغه للإمام . .

فمن وراء بضعة أيام ، كلجة الهدب من عمر الزمن ، تسللت أصابع المجهول إلى ما قر بخلد هـذا المعتد الواثق وثبت فى روعه ثبوت الحقيقة المستيقنة تعبث به ، وتعيث فيه . . تمحو وتطمس . تعدل وتبدل . تنقص وتضيف . .

بين جمعة وجمعة تغيرت الصورة . خبت أضـــواء ، وكثفت ظلال ، وحالت ألوان . .

وإذا كان للشماتة طعمها الحلو فى قلب حاقد ، فإن معاوية المنهوم للاشتفاء من على لم يسغ منها إلا مثل حسوة من كأس مترعة ، أو مثـل لعقة على طرف لسان . .

فـكأنما أجهض الشماتة ! . .

وإذا كانت للنصر فرحه تسكر ، فنصره الذى أصاب لم يدر رأسه ، ولم يهز بالنشوة عطفيه ، لأن البلية التى أحاقت بعدوه اللدود لم تسكن من صنع يديه . .

فـكأنما النصر لقيط ! . .

فعندما شاملت حشود العراق من الكوفة ، مغربة إلى ساحة الوغى الملومة عند صفين ، وقد عقدت العزائم على خوض الحرب ، لم تسكن تعلم ، ولا تحلم ، أن لن يحدث لقاء وقتال . .

وعنـدما شرقت جيوش الشام من دمشق ، مشاملة إلى أرض الوقعة وقد تحرقت شوقا للنصر الموعود ، لم تسكن تعلم ، ولا تحلم ، أن لن يكون نصر ولا هزيمة . .

الآلاف التى صمدت من الجنوب ، والآلاف التى انحـدرت من الشمال ، للاحتكام إلى السيف فى وقعة أخيرة فاصلة ، تفرق الغلبة من الدحرة ، وتأخذ الموت من الحياة ، كتب لها ألا تريق قطرة دم .

الألوية التى عقـدها معاوية لأعوانه عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ، وأبى الأعور السلمى ، ومن على نهجه من حشوه ، وأصحاب حربه ، وذوى الحظوة لديه ، إنما عقـدت لتحل ، وتنبرت لتطوى فى بضعة أيام ، بعد مسيرة قصيرة ، ودون التحام .

الألوية التى عقدها أمير المؤمنين لصفوة خاصته وخلصائه الحسين بن على ، وقيس بن سعد ، وأبى أيوب الأنصارى ، وعبد الله بن عباس ، ومن إليهم من حزب الله وأصحاب رسوله ، رفرفت حينا على الرءوس باعتزاز ، ولـكنها ما لبثت سوى قليل ثم نـكست الهام كأنها شموع أصابها عارض من ريح عاصف ، أطفأ شعلتها ، ووكلها للظلام . .

ولم يكن الإمام هو الذى أغمد السيوف ، وطوى الأعلام . .

ولم يكن عاهل الشام هو الذى أرسل الريح لتطفئ الشموع . .

لغيرهما كليهما كانت تلـكم الـكف التى لبسها القدر قفازا ، ودفع بها من وراء ستر الأيام لتغير ما قر فى الخواطر ، وثبت فى الأخـلاد ، وبات كاليقين أن يطلع — لولاها — على الوجود ما سلف أن أكدت الوقائع الجارية حتمية حدوثه ، وأنبأت عنه المقدمات كنتيجة لازمة ليس عنها محيص . .

تلـكم الـكف التى حولت المجرى ، وقلبت الأوضاع ، وبوأت الحق مكانة البطل ، والبطل مكانة الحق ، لتقـدم لابن أبى سفيان — من حيث لم تشأ ولم يجل لها فى خيال — نصرا هينا رخيصا ، لم تـكن قط فى حساب إنسان إلا شرذمة ضالة من بضعة أفراد . .

وكانت — من جهـة — أدنى إلى أن تـكون علوية الرأى والتشيع منها إلى أن تـكون أموية الهوى والنزوع . .

كانت أيضا غير صلبة الأصابع ، غير شديدة القبضة ، لم تكد تتمرس بخشونة الوقائع . ولا أطبقت على سلاح .

كانت رخية طرية كأنها نسمة الصبا ، رقيقة شفافة كشعاع من نور ، ناعمة ملساء لها ملمس الحرير . . خلقت لتهز المهد ، وتداعب الورد ، وتدغدغ الوليد ، وتأسو من شكاية الجروح ونسكاية الآلام ، وتختضب بالحناء ، لا أن تزلزل الطمأنينة ، وتلعب بالخناجر ، وتجهز السموم ، وتخطف الأرواح ، وتختضب بالدماء ! . .

فهي كف حسناء . .

كف عروس جلت فتنتها ، وألقت بهاءها ، وهيأت نفسها لليلة الزفاف . .

كف قطام ، فتاة تيم الرباب الحلوة ، ذات الشأو في ميعة السن ، ونضرة الرونق ، وطغيان الحسن التي دونت لها أسطر طوال في سجل الجمال . .

ولئن عرف ، قديما وحديثا ، أن المرأة ، بغريزة الأمومة ورقة الأنوثة ، هي التي — عادة — تنجب الحياة ، وتثمر الحب ، وتنشر الحنان ، فلقد عرف كذلك أنها بوحشية الحقد وضراوة البغضاء ، هي التي — في أحايين ليست قليلة — ترهف القسوة ، وتقتل الأمل ، وتنضر الموت . .

ولئن عرف أيضا أن المحنة التي تردت فيها الأمة الإسلامية آنذاك ، حاضرا وغدا ، كانت من نتاج نبتة غرستها هذه الفتاة في تربة الجهل والكراهية والعصبية المفتونة العمياء ، ورونها بالدم ، فلقد عرف أيضا أن الشجرة الملعونة التي ترعرعت إنما تفيأ ظلالها معاوية ، وجنى ثمرها ، وإن أرادت له قطام ، وعملت جاهدة ، أن يكون هو بعض الجنى ، وإحدى فرائس ثلاث يحشها منجل الحصاد . .

فقطام تيم الرباب هي التي تعهدت الغرسة ، ورعت نموها ، وآلت جذورها السقيا ، حتى إذا صلب عودها ، وأينع فرعها ، ونور زهرها ، وطاب ثمرها ، كان ابن أبي سفيان هو الذي قطف من حيث شاءت له أن يكون من بين المقطوف ! . .

وقطام تيم الرباب هى التى وضعت الرواية ، وأحكمت حبكتها ، وهيأت مشاهدها ، وحركت شخوصها على مسرح المأساة الساخرة أو المهزلة الفجعة . . حتى إذا أوشكت أن تتم فصولا ، وكاد ينزل ستار الختام ، جاءت النهاية على غير ما اشتهت وأعدت ، وبخلاف ما كان يوحى به ، وينبغى أن يؤدى إليه السياق ! . .

رمية من غير رام ! . .

مشيئة القدر لا مشيئة قطام ! . .

لكنها قصة طويلة . .

مأساة اختلطت فيها المهزلة بالفاجعة . السخرية بالجد . المفاجأة بالإعداد . الشماتة بالحسرة . الضحك بالبكاء . . قاعها دعرة . . ووسطها نقمة . ورأسها طمنة . .

بمكة كان مستهل مشاهدها عند رفع الستار . .

بالكوفة كانت ذروة الأداء . .

بدمشق دوت قهقهة الشيطان تعلن الختام . .

عديدة المواقف والانفعالات . وئيدة الخطا على درب الأحداث . قطعت الشوط فى نحو عام . .

طويلة طويلة فى عمر الأحزان . .

٢

حدث هذا ذات يوم ساخن من ذيول الربيع .. حشوه جمر ، وقشره رماد . باطنه خطر ، وظاهره أمان . .

وكان من نحو عام .

والمكان مكة .

والزمان الموسم .

النهار ، يومئذ ، راكد الحركة ، رائق الأفق ، هامد النفس ، مشتعل النور . .

الشمس حريق .

الشعاع ألسنة لهب ، وسياط نار ، تلعق الأشياء ، وتجلد الأحياء . .

الجو ضبابة رقيقة ، رمادية اللون ، متسقة الصفحة ، من الوهج والغبار . .

الهواء ، من شدة الحر ولفح قيظه ، دخان وبخار . .

والحجيج إلى بيت الله قالت كثرتهم إلى المضاجع ، فرارا من وقدة الظهيرة . . طوائف منهم تستروا بالرحال ، يسمرون أو يريحون . . بقيتهم الباقية تفرقوا فى أروقة المسجد وأبهائه ، زمرا وفرادى ، كأنما يحاولون تلقف نسمة رطبة ، تنفثها السقوف المروشة وظلال الجدران . .

الألسن فى الحلوق تضطرب لاهثة . . الأفواه جافة . الشفاه ذابلة . الجفون مثقلة . الأهداب مشدودة إلى الخدود والوجنات . .

الأحاديث شهيق وزفير .

الرؤى أمام الأعين المغفيات أشباح . .

لا مَعْلَمَ فى البناء المقدس الفسيح لانتفاضة الحياة يوشك أن يطالع أى مقبل عليه ، من بعيد ومن قريب ، غير تذاؤب الظلال واهتزاز الأضواء . تتفرق وتتراكم ، وتتباعد وتتلاحم . . ترق هذه هنا لتكثف هناك . وتجلو تلك عن

جانب لتنتقل إلى آخر . ويتقلص منها ما يتقلص ليمتد قرينه وينتشر كلما هوّمت الشمس التى أسأمتها وحشة الوحدة ، وأعياها طول الترحال ، وهى تمشى الهوينى ، فى تردد وحذر ، على الأفق المحترق ، بخطاها الوسنانة . .

أينما وفد وافد ، فى تلك الآونة ، على حرم المسجد ، أجنه منه فىء . . وأينما طاف بصر ، بشتى نواحيه ، ملأه من خمود من فيه فراغ . وأينما أصغت أذن سمعت الجمود . .

عند حد الرؤية ، من وراء سبحات الضوء وخطرات الظل ، كانت تتراءى ، بين فينة وفينة ، شخوص عديدة مبعثرة ، خرساء الوقع كأنها أطياف . إن تبرق لحظة فى وهج النور ، فلتذوب على الأثر فى شهبة الظلال . .

بالساحة القريبة من بيت الله ، على قيد مسافة غير قصيرة من بابه الكبير ، وفى ساعة الزوال ، اضطربت الخطا بثلاثة رجال . أمامهم البيت ، ومن خلفهم الصحراء . جمعتهم غاية ولكنهم تفرقوا على الطريق . . وبدوا عندئذ كثلاثة خروق تناثرت فى ثوب النور ! . .

لكأنما كانوا يدبون الخفاء ! . . لكأنما كانوا يمشون على ريبة ! . . شخوصهم تتسلل نحو المسجد ، متنائية ، فى تمهل ثقيل ، كمن يسيرون على شوك ، أو يحسبون الخطوات . . خيالاتهم الزاحفة فى آثارهم كأنما تشدهم إلى الوراء . . أقدامهم تحتهم تتحسس مواقعها فوق الرمل . . عيونهم تسبقهم ، بنظرات قلقة متلصصة ، وهى تدور حولهم فى مختلف الأرجاء . .

ولاحوا ، لمن قد يفطن لهم ، بضمة أعصاب ! . . فالحواس يقظانة . والملامح مشدودة . والأعين حادة . والآذان مرهفة . والأنوف مشحوذة . وكل حركة تند منهم إنما لتلقف مظنة ، وتلمح خلجة ، وتلقط همسة ، وتشم رائحة المجهول ! . .

وكان مقصدهم ملاذا من المسجد ، حرزا آمنا ، يكنهم من تطفل الأنظار . . وكان ملاذهم مسرحا يعرضون عليه أسرار نفوسهم ، وخبء صدورهم ، وغوامض فكرهم ، عارية مكشوفة لا تبدو سوأتها لمن عداهم من الناس ! . وكان مشتهاهم الذى نذروا له الدم والجهد والتدبير الدائب تغيير الأوضاع .

وعندما دلفوا من بين مصراعى الباب ، متفرقين ، واحدا بعد الآخر ، ولفظهم وهج الضياء إلى عتمة الظلام ، أووا إلى بقعة نائية من المكان ، عمياء خرساء ، لا تشى بهم ، فلا تطلع عليهم فيها عين ، ولا تسمع منهم أذن ، ولا ينقل عنهم لسان . .

وجلسوا يتسارون . .

كانوا هضيمى الوجوه ، نحيلى الأجساد ، معروقى الأوصال ، تكاد جلودهم تشف عما تحتها من فرط الهزال . . نتأ فيهم العظم ، وحال اللون ، وخف اللحم ، فغارت الأعين من سهر القيام ، واسودت الجباه من كثرة السجود ، وضمرت البطون من سغب الصوم . .

وظلوا ساعة ، بخلوتهم تلك ، فى حديث موصول ، يلم بالنفس والصحب والأمة ، وبالولى والعدو ، وبالأمس واليوم والغد ، متباين العواطف ، متلون الجرس ، مختلف النبرات . يرق مع الحزن ليرتجف بالغضب . ويذوب فى الندم ليشتعل بالحقد . ويسرح مع الأمل ليغزو المستحيل ، وكأنما لا تنطق به الألسنة بل تنطق الأعصاب ! . .

كانت جلسة نارية حمراء ، اصطرعت فيها العبارات والأفكار وإن بدت هادئة قد اختفت جذوة ثورتها تحت رماد المخافتة والمناجاة . . خلالها ترجمت الوقائع إلى عبر ، وجسد الرأى فى عمل ، وسبحت بهم ذكرياتهم فوق موجات أصواتهم منسابة مع تيار الزمن فى موكب حافل اجتمعت به مشاهد الحاضر ، بصور الغابر ، بأحلام مستقبل مأمول مجهول .

رحلة طويلة من الخلجات والمشاعر ، ومن الرؤى والخيالات .

فالحال الآن على غير ما يرتضى هؤلاء الرفاق أن يكون . . النفوس شتى . القلوب هواء . الدين غريب . العمل ضلال . الحياة تنافر وعداوات ، والأمة أشلاء . .

والوضع بالأمس محنة الإسلام وأهـل الإسلام ، أجج نارها التحكيم ، وعجزت الدعوة الهادية : « لا حكم إلا لله » أن تثوب بالعتاة والجبابرة ممن يمسكون بزمام الأمور إلى جادة الصواب . بل لـكأنها حفزتهم على الغـلو في الطغيان — عنتا واستكبارا — حتى وقعت النهروان . .

والغد المنتظر ضياع . . صفحة فارغة مطوية أخلق بها أن تـكون امتـداداً لما قبلها من الأخطار والمساوىء ، إن لم تتح لها اليد القوية التى تنتزعها من براثن الجمود لتنشرها ، ثم تسطر فوق ديباجتها ميثاق التغيير . .

هكذا تبين للثلاثة الطريق . .

وأخيرا التفت أحدهم إلى رفيقيه ، بعد إمعان فـكر ، يخاطبهما بصوت هامس خفيض كأنما يضن بكلماته أن تسمعها شفتاه . .

قال :

« لو أننا شرينا أنفسنا لله عز وجل ، فأتينا أئمة الضلال ، وطلبنا غرتهم ، وأرحنا منهم البلاد والعباد ، وثأرنا بإخواننا الشهداء بالنهروان ! . . »

فتأمل قوله الآخران .

وساد هنيهة صمت مطبق ، ذاب فيه الهمس ، واختنقت الأنفاس . وران خلاله على الوجوه الذاوية هدوء جامد تصلبت به الملامح ، وقست القسمات حتى غدت كأنها سيوف مشحوذة ، أو سهام مسنونة تهم بالانقضاض أو الانطلاق . .

ثم تقابلت العيون على ترقب وتأهب . .

ثم تحفزت النظرات . .

ثم تفجرت الفـكرة . .

وما لهم لا يفعلون هذا الذى طالعهم به الرفيق ؟ .

إنه لرأى ما كان ينبغى قط أن يغيب عنهم ، وعن أصحابهم الخارجة ، كل هذه الشهور . . فهو الفـكرة الصائبة . وهو العمل الميسور . وهو الخطة الحرية بأن

ترفع عن الأمة الغمة ، وتقشع الكابوس ، وتقضى فى يوم ، بل ساعة ، بل لحظة واحدة موقوتة محسوبة ، على أولئك القادة الذين تسنموا ذروة السلطة ، وملكوا المصاير ، وفرقوا الأمة ، وعبثوا بالدين ، وابتزوا حق الله ! . .

ذاك هو المنفذ الوحيد إلى الخلاص . . إلى تصحيح الأوضاع . إلى ترويق العقيدة ، وتطهير النفوس ، وتنقية العقول ، وتقويم الأفكار ، وتحرير الناس .

وعلى الأثر بدا الرفاق الثلاثة كأنما قد اختزلوا فى واحد . الفكرة واحدة . والنية واحدة . والهمة واحدة . والسبيل الذى عليهم اجتيازه هو هذا الذى لا محيص عن انطلاقهم فيه خفافا سراعا وقد رفعوا علمهم القديم بعد سقوط ، ونشروا شعارهم الأصيل بعد طى ، ليحيوا دعوتهم الأولى التى أنبتتها أرض صفين ، ويبعثوها من مرقدها عند النهر ، حيث قاتلت عليها جماعتهم من قبل ، وتبعثرت حروفها ومعانيها مع أشلائهم بين أثناء النهر ، وتحت تراب الضفة الدامية ، فى قبور مضيعة مجهولة ، حفرها لهم ، منذ عامين ، سيف الإمام . .

بتلك الخلوة المستترة ، فى البلدة الحرام ذلك اليوم من الموسم ، تحركت نزعة التآمر ، وبدأ أول تدبير فى تاريخ الإسلام لإقامة الحكومة الفوضوية ، أو حكومة الجمهور ، التى لا ينفرد فيها بالإمرة إنسان ، ولا طبقة ، ولا حزب ، ولا نفر قليل أو كثير من الناس ، مهما علت بهم الثروات ، أو ارتقت الأحساب ، أو سمت الأجناس . . فإنما الأمة كلها — فى مذهبهم — الأمير ، والأمة أيضا الرعية ، والحكم لله . .

لقد علم أن هذه الجماعة المتآمرة الآن قد سلف من عصبتهم الكبرى نفس رأيها هذا قبل وقت غير قصير ، لم تكتمه عن الأذهان والآذان . ولم تتوان عن الترويج له بين الخاصة والعامة من أبناء الشعب الإسلامى على ألسنة فريق من دعاتها وأئمتها المفتونين الذين أتقنوا المجادلة واللجاج ، وولعوا بالتأويل والتخريج ، وقد استخفهم أن كانوا عبدة زاهدين يطيلون الصلاة ، ويكثرون الصيام ، ويقومون وينامون على تلاوة القرآن . .

ولقد علم أيضا أن مذهبهم ، الذى نجمت لهم فكرته حين اضطربت الأمور بصفين وارتفعت المصاحف على أسنة الرماح بنداء التحكيم ، قد ترامت به الأخبار فى أنحاء الدولة ، ووجد بها السميع والمجيب حتى استشرى بين الناس كاستشراء النار ، وقويت به شوكة أصحابه قوة غدوا بها فرقة ذات خطر فى مجال السياسة ، لا يحمد طغيانها على الدولة والدين ، وعلى الفكر والحريات . .

وعلى كثرة ما كذبتهم الأدلة ، وحذرتهم الأحاديث ، وأسرف الإمام لهم فى البيان والتبيين ، فقد ظلوا ورأيهم ، لا يرعوون عما صدروا فيه . . فلم تردهم حجة ، ولم يكفهم سلاح . . وإنما ازدادوا تشبثا به ، وإصرارا عليه ، مندفعين على مزالقه إلى القاع الذى ليس تحته قاع . مجروفين بعصبيتهم الدينية إلى ما يفارق الدين ، ويخالف القرآن ، ويجانب السنة ، ويناقض العقل ، وتأباه ، قبل هذا كله ، إنسانية الإنسان . .

. . . ذات يوم صاح رجل من عصبتهم المفتونة فى وجه على :

« لا حكم إلا الله ! . . »

فلم يثر به . بل ترفق له فى المقال عسى أن يشفيه برفق البرهان مما هو فيه ، ثم يهدى به من وراءه — من الداعين بدعوته — إلى جادة الصواب . .

أجاب فى هدوء :

« كلمة حق يراد بها باطل ! . . »

ثم استطرد :

« نعم ، إنه لا حكم إلا لله . ولكن هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا لله . . »

والفرق بين المفهومين على غاية الجلاء . فالإمرة إدارة وسياسة ، والحكم قدر وقضاء .

وأكمل يبين لهم ، بعبارة ميسرة ، لا يشق إدراك مضمونها على إنسان :

« . . . إنه لابد للناس من أمير ، بر أو فاجر . . . يجمع به الفيء . ويقاتل العدو . وتأمن السبل . ويؤخذ للضعيف من القوى . . . »

. . . وجاء فى الأثر أن الإمام قال :

« لما أنزل الله سبحانه قوله : (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) .. علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله بين أظهرنا . فقلت : (يا رسول الله ، ما هذه الفتنة التى أخبرك الله بها ؟) . . فقال : (يا على ، إن أمتى سيفتنون بعدى) . . »

ثم قال الرسول :

« إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين ، كما كتب على جهاد المشركين . . . »

وقال :

« . . . تقاتل حينئذ على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله . . »

. . . وشاع فى الناس ، تلك الأونة ، من أمثال هذه الأقاويل والأحاديث ما إن وعته عصابة الخارجة أصحاب الجباه السوداء ، لعدل بها عن عنتها واندفاعها فى الاستكبار . . فكم من مرة جهد الإمام أن يستفيئهم إلى الحق ، بالحكمة والموعظة الحسنة . بالكلمة الموجزة . بالخطبة المستفيضة . بالمنطق المبين ، بالحجة الدامغة . بالقول الفصل . بالترغيب وبالترهيب . . وكم من مرة نقل إليهم ، على ألسنة صحابه الأدنين ، العارفين القرآن ، الحافظين سنة الرسول ، مايقطع الشك باليقين . . وكم من مرة لاين وصادق ، وصبر وصابر عسى أن يؤوبوا إلى جادة الله ، وإن بدوا كأنما اختاروا لأنفسهم أن تضرب فى الغى إلى الأغوار . .

عن الفتنة لم يلوهم منقول ولا معقول . لم تغن عنهم تقواهم . لم تكفهم النذر ، فقد اشتبهت عليهم الأمور ، وعميت منهم البصائر ، وانطمست الضمائر ، والتاثت العقول . . فالدنيا كلها على خطأ وهم وحدهم على صواب . الأمة فى الضلال

وعصبيتهم فى الإيمان . الإسلام كما ينظرون . والقرآن كما يتأولون . . ولن يقر لهم قرار ، أو تسكن ثائرة ، إلا أن يحملوا الناس قاطبة ، فى الدولة الفتية المريضة ، على انتهاج نهجهم ، واعتناق مذهبهم ، بصهرهم أجمعين — رأيا وعقيدة — فى مصهر مبدأهم السياسى الجديد ، وإن ركبوا إلى ذلك أخشن السبل وأوعر المسالك ، من عنف وقسوة واغتيال . .

وها هم الآن ، أولئك الرفاق الثلاثة ، المتسترون بالظل ، يبدأون الرحلة الوبيلة . . فلا مناص من العمل فى الظلام . من الدبيب كالنمل . من التسلل كالثعابين ! . . لا معدى لهم ، فى المقـــام الأول ، من انتزاع سلطان الله من الإنسان ! . . من القضاء على الحـكام ! . . من الخوض إلى الهدف فى بحر من دم ! . .

وقال أحدهم لصاحبيه :

« أنا أكفيكم على بن أبى طالب . »

وقال الثانى :

« وأنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان . »

وقال الثالث :

« وأنا أكفيكم عمرو بن العاص . »

وعندما اهتزت شخوصهم المعتمة من مكمنها الخفى بذلك الركن من بيت الله ، وأخـــذت تتناثر مرة أخرى فى الساحة القريبة كثلاثة خروق فى ثوب النور ، كانت نطفة المؤامرة قد غدت مضغة تهم أن تتخلق ، لتغدو جنينا لن تلبث الفتنة الحبلى أن تلفظه إلى الدنيا وليدا خبيثا حينما يجيئها المخاض ! . .

٣

تواثقوا بمكة .

واتعدوا لرمضان .

وحددوا يوم الفصل بالساعة واللحظة .

وتعاهدوا على الوفاء بما نهضوا فيه . لا ينكل أحدهم عنه ، ولا يلتفت وراءه ، إلا أن يقضى وطره ، فيقتل رجله الذى صمد إليه ، أو يقتل دونه . .

وكان الموعد ليلة القدر . .

وكانت الساعة صبيحة الجمعة ، لحظة إقامة الصلاة . .

فقتل ولاة الجور — فى مذهب تلكم العصبة — قربة إلى الله . وأحرى القربات وأعنها ما يتقرب به فى المواسم المباركة الشريفة ! . .

ثم تفرقوا إلى المواقع .

تسعة أشهر طويلة كان لا بد للرفاق الثلاثة أن يقطعوها إلى غايتهم على انتباه وحذر ، فى ترقب ممض ، وسكون آسن ، وانتظار ثقيل . بصدور مغلقة الأبواب والمنافذ ! . . بملامح راكدة . بعيون مرتخية . بشفاه مزمومة ! . . فإن تبدر منهم حركة فقد تفشى . وإن تند خلجة فقد تشى . وإن تلمع نظرة فقد تفضح . وإن تفلت همسة فقد تنم . .

وسرهم ، مع هذا ، لا يكاد يقر له قرار ، أو تهدأ ثائرة ، فى سجنه الذى أودعوه إياه بين الضلوع . . بل إنه لينتفض ويضطرب ، ويعوج ويهيج كوحش انتزع من رحابة الغاب أو فسحة الفلاة ليحبس فى قفص يحرمه حقه الطبيعى فى الحرية ، ويحول بينه وبين الانطلاق فى الحياة وفق هواه . .

فبقدر ما كان حرصهم على حصر السر بحرز حريز ، فى قرار مكين ، ينكمش

فيه بعيدا عن توجس الظنون وتجسس التخمين ، بقدر ما كان ذلك السر يتمرد على الأسر ، ويضيق بالضيق الذى سجن فيه ، تمرده على القوة القاهرة التى ألزمته الانزواء . . وبقدر ما كانت هذه القوة تضغطه لينكمش ، بقدر ما كان يجهد هو ليتنفس ، عسى أن يحطم محبسه بتمدده وتمطيه ! . .

وتلك طبيعة الأسرار . . يحصرها الصبر ، ويطويها الأسر . ثم لا تلبث أن تستمد من ذاتها المتمردة القلقة كل مقومات القدرة على التوثب والانتشار فى سجنها الصغير بالصدور ، حتى لتوشك أن تملك على التنفس كل منفذ ، وتملأ فراغ الجوانح إلى حد الاختناق ! . ثم لا تلبث أن تنتفخ وتتضخم . . ثم لا تلبث أن تفور فى الدخائل وتثور ، كفورة البراكين الغاضبة وثورة البخار المكتوم ، حتى لتوشك أن تفجر النحور ، وتشق الأسحار ! . .

وتلك لا شك مشقة مضنية معجزة أن يحمل الرفاق سرهم حبيسا مكبوتا كل هذه الشهور وهم آمنون تمرده وعصيانه . . لا يخافون أن يؤودهم حمله . . ولا يخشون تبجسه من مكمنه الضيق . . ولا يعضل بهم أن يحكوه أو يكتموه . .

بل المشقة العسرى الأدهى ، والبلاء العياء الأمر ، أن يرتاب بعضهم فى بعض وقد تفرقوا على الوقت والمسافة ، كل فرد بموعد وفى طريق ، بغير رقابة عليه من رفيقيه ، أو من رفيق ! . فما كان أحراهم بمعاناة الارتياب ومكابدة الشك مع مثل ذلك الفراق الطويل ، لأن القلق من طبيعة النفوس . ولأن الزمن يبلى الثقة . ولأن الانتظار يغذى الوساوس . ولأن السر ، وهو وراء شفتى الفرد ، سيف مغمد ، فإذا جاوزهما فسيف مشهور ، مصلت على عنقه قبل سواه أو دون سواه . .

لا فكاك إذن لأيهم من قبضة هذا السر المتحفز الذى جاوز شفتين اثنتين إلى ست شفاه ! . . لا طمأنينة ولا أمان . . أم لا ، فمن منهم الذى يضمن الآن أن يبقى على العهد — مع طول القلق والمعاناة — صاحباه ؟ . . من منهم الذى يؤمن أن يصبر على ثورة السر هذا أو ذاك ؟ . . أن يثبت لضغطه الشديد ؟ . . أن لن

يمينه السكتمان ؟ . . أن لن يتباهى فيدل بما اعتزم عليه ؟ . . أن لن يتهاون فيزل بعبارة أو بإشارة ؟ . . أن لن يضعف فيتهاوى ويخور ؟ . . أن لن يتلوم ويتأثم من خوض الدم ، فيكشف — بدفعة ندم ، أو بخلجة خوف — عما يضمر ، فإذا هو يأسف فيعترف أو يشى فيخون ؟ . .

لكنهم ، فيما بدا ، استطاعوا اجتياز الامتحان العسير . ارتقوا فوق الندم والتأثم ، وفوق الخوف والضعف ، وفوق الرياء والمباهاة . . ظلوا وما هم عليه من تماسك ، طوال رحلة الزمن والمسافة ، وقد أخذ كل امرئ منهم نفسه وعقله وقلبه بغض البصر عن خيالات الشك التي تراوده في زميليه ، وزكم الأنف عن تشمم روائح الخيانة . . فما لهم محيص عن نبذ الارتياب . ولا عن الثبات . ولا عن إتمام شوطهم هذا الذى بدأوه من ساعة أن بارحوا البلدة الحرام ، لأن اندفاعهم إلى الأمام أيسر لهم من التقهقر إلى الوراء ، إذ كانوا ، فى حقيقة الأمر ، ينزلقون فلا يستطيعون الارتداد ! . .

طوال أشهر الترحال والتنقل ، بين منازل الحضر ومضارب الرعاة عبر المياه أو على رمال الصحراء ، لم يكن يند عن أحد منهم ما قد عسى ينم عنه . . كانوا يسيرون كالأشباح ، يتسللون كالثعابين . يحومون فى الظلام كالخفافيش . ينخرطون فى غمار الجمهور الغافل عنهم مجهولين غير معلنين عن سوامهم بكلمة واشية عن رأى ، أو خلجة مضطربة فى قسمة ، أو سمة مميزة فى لباس . . كانوا حريصين على مخالطة العامة ، ومجانبة من لهم هوى فى مذهبهم أو اهتمام من نوع ما بسياسة الأمور ، ما استطاعوا سبيلا إلى المجانبة ، بعدا بأنفسهم عن مواطن الظنون والشبهات . . وعند ما بلغ عبد الرحمن بن ملجم مشارف الكوفة ، وهم البرك ابن عبد الله أن يدخل دمشق ، وأوفى عمرو بن بكر على الفسطاط ، كانت المؤامرة تمضى على ظلالهم بالخطا المتئدة ، والقدم الثابتة ، والعين الحذرة ، على طريق الغدر والغيلة إلى نقطة النهاية ! . .

فكأنى بهم هبطوا المدائن الثلاث مع الليل الأسحم ، أو السحر الضرير ،

متسترين بالسكون والظلمة والاستخفاء كيوم خروجهم وأصحابهم سرا من الحاضرة العراقية متعدين للالتقاء بالنهروان . . وكأنما كانوا يستلهمون من حمية الثأر لصرعاهم المقدرة على الانطلاق . . وكأنما قد استعانوا على مشقة رحلتهم بما أكنت صدورهم المغلولة ، يستضيئون فى الأمسيات الليلاء بثأر الأحقاد . ويلوكون الكراهية دفعا للجوع . ويصحبون فى الوحدة الموحشة خيالات المأمول . .

غير أن ابن ملجم كان — دون رفيقيه البرك وعمرو — أولى الثلاثة بالحذر والتقية ، فدخل البلدة خائفا يترقب وفى ظنه أن العيون تأخذه من كل جانب . وحق له . فعهده بأهل الكوفة غير بعيد فى حساب الخواطر لا فى حساب الأيام . . وقصته بها جديرة بأن تظل ماثلة سنين عديدة فى الذاكرات لا تخلق ولا تغيب . وحديث أمير المؤمنين معه من المأثورات . . وإذا كانت زحمة الحوادث المولية قد طوت أمره عن الناس هذه الشهور الأخيرة ، فإن نظرة عابرة قد تقع عفوا عليه ، خليقة بأن تنضو عنه مسوح الخفية ، وتدعه عارى النية ، مهتوك السر ، على قمة الريبة . .

واهتز الرجل من أعماقه .

ليكاد يعاين افتضاح أمره فى كل ما يجرى حوله . . فى كل حركة تعرض ، وكل نظرة ترنو ، وكل همسة تبدر . . يكاد يحس — بكيانه كله — توجس القوم منه التوجس الذى يلتف عليه التفاف أفعى تضغط لتعصره ، ثم يلق به وبهمته الخبيثة وراء جدران صماء لامنفذ بها ولا ثغرة تتسرب منها مكيدته . . يكاد صبره ينفد ، وجلده يتمزق ، وعزمه يهن ، وقلبه يتهاوى عند موطئ قدميه . .

إنه ليجزع فيغرق فى الجزع حتى أذنيه . ثم يهلع فيذوب فى الهلع عقلا وعصبا وجارحة . ثم يملكه فزع غامر يشل تفكيره فإذا هو فزع المستكبر الصليب الذى لا يهده خوف الهلاك بل خوف الإخفاق ! . .

ولا لوم عليه عندئذ لو أحس الضياع . أو ذهل عن نفسه . أو اشتبهت عليه الأمور . أو مات من الحسرة فى كل لحظة مرة ، مع كل نفس يردده صدره ، وكل خطرة تمر بباله . .

فذاك أولى بأن يكون . .

وكيف لا ، وقصته مع الإمام تنفض عن جنباتها البالى كفن النسيان ، وقد انشق عنها قبر السنين، لتتجسد حية أمام باصرة خياله ، طوال يومه وليله ، سكونه وسيره ، نعاسه وسهره ؟ . . وحديثه وإياه لا يفتر عن الطنين فى أذنيه بمثل الزمزمة التى يملأ دويها أذنى محموم ؟ . . ومشهد لقائهما الذى انهتك فيه سره — وهو حينذاك مجهول له ، خفى عنه لم يجل له بعد فى خاطر — لا يبرح عينيه كأنما قد ارتسم بين جفنيه ؟

وطاردته الذكرى . .

إذ ذاك كان قد وفد ، فيمن وفدوا على أمير المؤمنين ، ليأخذ عطاءه . . فما امتدت يده حتى أمعن الإمام فيها النظر بلحظ خاطف ثاقب الشعاع ، صوب منه بعد هنيهة إلى وجهه ، وقال فى هدوء :

« ما يحبس أشقاها ؟ . . »

وكرر السؤال . .

ولم يفهم ابن ملجم . ولا فهم الناس الذين سمعوا ، إلا قلة من خلصاء الإمام أعادت الكلمات الحادثة إلى أذهانهم ذلك الحديث المأثور عن رسول الله ، الذى يعلمون أنه حدث به ابن عمه وصفيه منذ سنوات طوال .

فما أسرع ما تكر الذاكرات بالكثيرين إلى ذلك الماضى ، تسترد منه ذلك الحديث .

وتلتئم الخطوط ، وتتجمع الحروف . ويكتمل المنظر بما يحتوى من مرئيات ومن أصوات . .

محمد يسأل :

« أتعلم من أشقى الأولين ؟ . . »

وعلى يجيب :

« نعم . عاقر الناقة . »

فيسأله ثانية :

« أتعلم من أشقى الآخرين ؟ . . »

فيجيب :

« لا . »

عند ذاك يقول الرسول :

« من يضربك ها هنا » مشيراً إلى هامته ، « فيخضب هذه » مشيرا إلى لحيته . .

فهذا الحميرى ، طالب العطاء ، هو إذن ذلك الأشقى الذى أعلم الرسول عليا نبأه ، وقرنه فى الشقاوة بأشقى الأولين ، عاقر ناقة ثمود .

هذا هو الفاتك المغتال الذى أومأ إليـه الإمام بكلماته يوم طاف به طائف من علم محمد الغيب عن غيره من البشر ، فقال لبعض خاصته المجتبين ، الذين كانوا يشفقون عليه ، حين الحرب ، من خوض الحشود واقتحام السلاح ، غير آبه شيئاً بما قد يصيبه أثناء القتال :

« إنى لا أقتل محاربا ، وإنما أقتل فتكا وغيلة . . يقتلنى رجل خامل الذكر . . . »

والتفت العيون المذعورة بابن ملجم ، واسعة الحلاق ، حائرة النظرات . وتناثر فى الجو حوله رشاش الهمسات فى تساؤل واستفسار . .

لكن الإمام مال عنهم إلى الوافد المشبوه فنحه عطاءه الذى جاء له . ثم تمثل بيت شعر لعله أن يغنى عن التفسير :

« أريد حياته ويريد قتلى !

عذيرك من خليلك من مراد . »

هنا انبثق من البيت المروى مثل شعاع أضاء فى الخواطر ما قد غمض على الناس ، فى بدء ذلك اللقاء ، من كلام الإمام .. الآن رفع الغطاء ! .. برح الخفاء وانجاب الستر عن السر المسربل بالغيب فلا حاجة بهم إلى تعقب أمره أو تبين ملامحه من خلال غموض الإيحاء ! .. فطالب العطاء الذى أثار قلق القوم ، وحرك فيهم الشعور بالخطر ، حميرى من اليمن فيما يعلم نفر منهم غير قليلين ، نسبه إلى مراد أو هو حليف لمراد ، وعداده فى كندة أهل الأشعث بن قيس وذويه ..

وزلزل الخوف ، على الأثر ، قلوب الجمع الملتف بأمير المؤمنين وقد بدا لهم فى ابن ملجم المصير الدامى الذى يهم أن يتسلل خلسة إلى صاحبهم بالغيلة بعد حين يضمره الغيب ، فى ساعة من يوم مجهول ، بأرض سلام لا بساحة قتال ..

وأذهل أيضا الصفوة الخلصاء منهم ، أن عد الإمام للشقى فى الطمأنينة ، فيوفى له العطاء غير مانع ولا ضنين ، ويخلى بينه وبين الحرية ، بغير تحرز منه ولا عين عليه ، وإنه للعليم علم اليقين أنه عائد لا محالة إليه ، فقاتله فى غد إن لم يكن اليوم ، أو بعد شهر أو عام إن لم يكن هذا الشهر أو هذا العام ..

وقالت للإمام منهم طائفة رأت ضرورة تدارك المحنة المقبلة ، ومعالجة الأمر بالحسم ، توقيا لما يكون :

« فهلا تقتله يا أمير المؤمنين ! .. »

فابتسم بسمة هادئة لونتها أطياف من السخرية أو الإنكار ، وهو يعجب كيف فات وعيهم الناضج أن هذا الذى يطلبونه منه ، ويدعونه إليه هو قمة المحال .

وقال :

« فكيف أقتل قاتلى ! .. »

فسمع منهم الصمت ، ورأى الوجوم ..

لكنه شاء ألا يدعهم والحيرة ، وآثر أن يكفهم ، بمنطق العدل ، عن محاورته ليوصد الباب دون خوضهم بغير جدوى فى غمرة المغيب المجهول ، فأردف يقول :

« إنه لم يقتلنى . . فكيف أقتل من لم يقتل ! . . »

وهل من قصاص بغير جرم ، وعقاب ولا جريرة ؟ . .

وها هو الآن هذا الشقى : عبد الرحمن بن ملجم الحميرى ، طالع الأرض اليمنية ، حليف مراد ، لصيق كندة ، ثالث رفاق الاتفاق الدموى بمكة ، يقبل على الكوفة بعد غيابه عنها العديد من الأشهر ، وقد تخلقت فى نفسه النية الخبيثة التى كانت خافية حينذاك عن لمح خياله ، خبيئة فى طوايا ذهنه كالنطفة الهامدة التى لم تضطرب بعد بانتفاضة حياته . .

ها هو يقبل ليوفى نذره . ليقضى وطره . ليقتل الإمام . ليكتب بخنجره المسموم آخر سطر فى القصة التى لم تختتم يوم العطاء ! . .

٤

لصيق كندة الحميرى ابن ملجم ، كان يعلم أنه أحرى بأن يقع فى شرك الريبة ، إن لم يكن بين فكى الهلاك ، لو أنه لم يلتزم خطة الاستخفاء والمخالسة ، التى انتهجها منذ مبارحته البلدة الحرام ، كأحكم ما يكون الالتزام . . فلا أمان له فى إشباع نهمه إلى التعرف على ما يدور حوله بالكوفة . ولا فى تعمق ما يخالج الناس . ولا فى الغوص فيما قد تومئ إليــه ظواهر الأحوال التى يرى — بمبين شعوره وتصور حدسه — أن صروفها المتواليات راحت تتجمع فى جوانب الأفق ، أحيانا كالضباب ، وأحيانا كالسحاب ، منذرة بأحداث قريبة الوقوع . .

إنه لا يضمن ألا يتعثر فى نظرة مرتاب ! . . ألا يفطن إليه غريم ألا يتبين أمره أو ملامحه بعض أولئك الذين عرفوا سيرته ، وسمعوا برحيله مع أهل النهر ، وأدركوا سبب انتفاضه على الإمام ثم قد يشيمون الآن ما لا تحمد له مغبة فى أوبته هذه المريبة إلى بلدتهم بعد الاختفاء الطويل . .

لا معدى له إذن عن كف النفس عن محاولة استكناه الأسرار ، واستنباء الأخبار ، والتطلع إلى ما وراء كل مرئى ماثل ، ومنطوق مسموع وإن كان إحساسه المرهف بالخطر المحدق به أولى بأن يشحذ ولعه بالتقصى والبحث ليأخذ بالحذر ، أو يتعوذ بالطمأنينة .

أهون الشر عليه ، لا محالة ، هو أن يخلد ، ما وسعه الجهد ، إلى القبوع داخل إهابه ! . . الاعتزال فى قرقعة أفكاره ! . . التنائى عن هذا التيار الذى بدأ يضطرب بالحاضرة العراقية وأهلها فى تلك الآونة القلقة من تاريخ الإسلام ، ثم عسى لا يدرى أحد ، ولا هو يدرى ، أيهدأ تحدره المتواتر فيسكن أو يغيض ، أم يزيد تدفقا واندفاعا فيفور أو يفيض كطوفان ! . .

ذاك قصاراه . .

والكوفة آنذاك لم تكن هادئة . لم تكن رائقة الصفحة ذلك الرق الصافى

الذى ينم عما تحته فى القاع . . ولم تكن أيضا هادرة . ولا مطموسة معالم سطحها المتموج ، البادى أمام النواظر أو الخواطر ، كل الانطماس . . بل قد كانت تموج بالغدو والرواح . وتتذاءب بين الضجيج والسكون . وتمتلىء بالأخبار كما تمتلىء بالأحداث . لا تكاد تعرف الاستقرار . قلقة الكيان — هيئة وفكراً — تتململ كتململ موجوع لا يعرف ، أو يعرف إنسان ، أتنهكه علة تعركه حماها ، أم وجهه هذا الذى ينوشه عارض لا يلبث أن يزول بعد قليل . .

وضاقت عليه ، لاريب ، البلدة وهو فى ملاك ذلك الشعور الذى يطلع الخطر عليه من كل ناحية ، مع كل لحظة من نهار ومساء . . فبين كثافة خلائقها الذين يؤلفون مجموع السكان ، تكاد تغرقه النظرات . وتخنقه الهمسات . وتصرعه اللفتات العشوائية التى تنبعث بغتة — كانبعاث السيف حين يسل فجأة من غمده — من كل مقبل ومدبر من عابرى السبيل ! . .

ليكاد يحس أن الدنيا له بالمرصاد ، الجموع تتعقب حركاته أو تتربص بخطاه . المراصد مبثوثة فى طريقه . الشراك منصوبة تحت قدميه . . فى كل وجه يقابله عفوا بطريق ، مرقبان : عينان ! . . فى كل طريق مزلق إلى هاوية . . فى كل هاوية ينتظره هلاك . .

ما من مناص له من الانحياز عن هذا الزحام الخانق إلى منتأى بعيد ، تنعشه به نسمة هواء وتجنه فينة هدوء . ينزل منه بمقر آمن . ويأنس فيه إلى رفيق . .

لقد كان من قبل ، إبان الرحلة الطويلة من الحجاز ، يتجنب الناس ، ويلوذ بالوحدة ، ويصاحب الوحشة التى يخفف من وقرها عليه التقاؤه بأفكاره ، وانفساح الصحراء أمامه الانفساح الذى ييسر الانفراد . . ولكنه الآن فى المدينة المزدحمة غيره بالأمس فى رحاب الأرض الجرداء . ومع الجمهور الزاخر كالبحر الهادر غيره مع خواطره الوادة له ، المؤنسة لحاجات شعوره . . فالتجمع الإنسانى فى أى بقعة من الأرض يثير فى النفس غريزة حب الاجتماع . ووجود

الناس يغرى بالصحبة . وامتلاء السمع بالكلام يدفع اللسان إلى الكلام ! . .

وكان لابد له أن يختار ، فاختار . .

غامر بالتخفف هونا من قيد الوحدة الذى كبل به نفسه ، بعد أن ثقل عليه عالم الغموض المريب الذى يعيش فيه ، وجو الوحشة الخانقة الذى يطبق على صدره ، وطول الكتمان الذى يعييه . .

ولم يكن ثمة أمامه — إن نفض البلدة كلها طولا وعرضا ، دروبا ومشارف وأحياء ، أو خبر أهلها أجمعين ، مقيمين ووافدين — غير مأمنين اثنين ، هما أدنى إلى ألا يخاناه أو يشيا به ، وعيا فى قلبه المغلول للناس . .

فليس آمن له ، فى المدينة الكبيرة ، المليئة بالحركة ، المائجة بالجموع ، من منازل كندة ومن لحق بهم من بنى جلدتهم اليمنية من موال ولصقاء وأحلاف . وليس أكتم لأمره ، وأبقى عليه — بعد هذا الحى — من أطراف البلدة حيث لا يعدم أن يجد شراذم مبعثرة من ذوى رأيه وأصحابه الخوارج ، يعيشون فيها أشتاتا على استخفاء . ودون ذلك وتلك قد تطلع الأرض له الارتياب والخطر والتربص مناجل تحش مهمته لتذروها الريح ! . .

لا ريب قد كان عبد الرحمن يختلف حينا إلى مأمنيه هذين ، كلما أعوزه الاطمئنان ، وافتقد الصحبة ، واستوحش فضاقت دنياه باعتزاله الذى كان يحياه . . لا ريب قد مال مرة هنا أو مرة هناك ، متسترا بالظلمة ، متمسحا بالجدران ، عسى أن يلقى فى القوم من عساه يملأ عليه بعض الفراغ . . كان مفتقرا إلى تجديد الثقة بنفسه ، فى حاجة إلى تثبيت يقينه ، وليس له إليهما من سبيل سوى ألفة تشع عليه من دفئها ما يبدد برد ليل انتظاره الطويل . .

فلعله حينذاك كان يحاول أن يصطنع رفقة جديدة فى متعصب أو غرير إن لم يقع على صاحب أو صديق قديم . . لعله كان يلتمس العون والطمأنينة عند رئيس يمين ويجير . . لعله كان يجس النيات ، ويشم الاتجاهات ، وإن هو ظل دائما — كدأبه — ذلك الحذر المتوجس الذى يكتم أمره عن الجدد والقدامى

من الخلان على السواء ، طاويا عنهم ما تعاقد بمكة عليه مع صاحبيه ، مخافة أن ينزلق به لسانه فينتشر السر ويفسد التدبير . .

لكن الثابت الذى لاشك فيه أنه التقى بفريق من الخارجة ومن يرون مثل رأيهم الخبيط المضطرب فى الحكم والحكام . والتقى أيضاً بالأشعث بن قيس ، سيد كندة ، الذى له هوى معروف فى ضرورة تغيير الوضع القائم ، وله نشاط ، لم ينسه الناس ، كاد ينحرف به عن مؤازرة على كل الانحراف إلى ما يشبه العداء والخصومة وإن هو غطى سلوكه أمام العامة بقشرة ولاء ! . .

على أى وجه من الوجوه كان التقاء ابن ملجم بأولئك أو هؤلاء ، وكيفما كانت وسيلته للالتقاء ، فقد كان أسلوبه هو الأسلوب الطبيعى المنتظر ممن هو مثله من أصحاب الخطط السرية الذين يستوثقون لأنفسهم ولخطاهم الزاحفة إلى الهدف الخفى كل استيثاق ، باستقراء الملامح ، وتعمق السرائر ، واختبار الميول ، وتشمم رائحة الخبيء المجهول . . فلم يكن له محيص عن التلصص والتجسس ، وعن التلمس والتحسس ، عسى أن يدله فعله على سبيل أقصر إلى نهاية شوطه . أو ناصر أقدر على معاونته . أو متبصر أعلم منه بالمسالك وأعرف بحقائق الأمور والأحوال . أو رفيق طريق يستطيع به — فى أقل القليل — أن يرى من مكامن الخطر ومواطنه ما قد منعه تواريه واعتزاله الحياة العامة أن يراه . أو ولى وفى يحمى ظهره عند وقوع المخوف المحذور . .

وما يدرى أحد أسعى عبد الرحمن بن ملجم وقتئذ إلى الأشعث بن قيس أم سعى الأشعث إلى عبد الرحمن . ولكنهما التقيا بلا مراء . وكان اللقاء بينهما هو اللقاء الذى لابد أن يكون لأنه كوقوع الشكل على شكله ، واجتماع المردف برديفه ، إن لم يكن لقاء الاتفاق والمصلحة المشتركة بعد ماظهر ، منذ رفع المصاحف بصفين ، من انحراف الأشعث عن على بن أبى طالب ذلك الانحراف المشبوه الذى يماثل العصيان ، بل المناجزة ، بل الائتمار ! . .

فسيد كندة ، فيما دلنا عليه سلوكه ، متهم فى ولائه للإمام الاتهام الذى

لا يكاد يدع منفذا للاعتذار عنه بأى تبرير ، أو للمفاوتة فى دمغه بالانحياز عنه والممالأة عليه بين تقدير وتقدير . . فما يمكن الادعاء بأنه لم يختلف أثناء المعركة ، فى بعض فينات هـدوء القتال ، إلى بنى أصله اليمنية فى صفوف الشام ، يقابلهم ويحادثهم ، على عادة المقاتلة فى حروب تلك الأيام . وما نبرئ مقابلاته هذه من مشاورات كان يجريها مع قومه من حزب معاوية ، ومن وراء ظهر حزب العراق ، لكف الحرب وإعادة السلام . وما يخفى على أحد أن مشاوراته حينذاك كانت أدنى إلى أرب معاوية ، وأجدى عليه منها إلى سياسة على وغرضه وإن بدت كأنما ترمى إلى صالح المسلمين العام . وما يكتم التاريخ أن سلسلة أفاعيله من بعد كانت لها اليد الطولى فى الأخـــذ من جانب على والإضافة إلى جانب معاوية حتى انتهت آخر الأمر إلى قلب ميزان القوى بين الفريقين ، ثم تبديد حق الإمام . .

والسرد يطول . . ولكن الأشعث بن كندة ، كما ثبت كاليقين ، لاح كالسائر على خط مرسوم ، الساعى إلى هدف معلوم ، الدائب دأب العامد الحريص على فض النزاع المشبوب على غير ما رأى إمامه ، وبخلاف ما ارتجى العراق ، وكنقيض ما أجمعت عليه عزائم أولى الألباب العارفين بالله ، الداعين إلى سبيله ، العاملين على رفع شأن الفضائل والقيم الخلقية والدينية والاجتماعيـة للقرار بأوضاع الدولة والناس القرار الذى يعلى الحق ، ويمحق الباطل ، ويوحد الأمة ، ويقضى على النفـاق والشقاق ، وتستقيم به الأمور فى أرجاء أرض الإسلام — دينا ودنيا ، وخلقا وسياسة — كخير ما ينبغى أن تستقيم . .

آية ذلك ما اندفع إليه ، مذ ذاك ، من مبادرات عمرت بالجهد الدائب ، والسعى المتواتر ، والقول المثير ، مشى بها فى طريق وبدء من المشاورات والمناورات ليس قصاراها إلا أن تفسد على الإمام خططه ، وتضطرب بأموره إن نحن أحسنا بها الظن ولم نقل إنها تبييت مدبر ، وحلقات متصلة من الدسائس والمؤامرات . .

واحدة أنه علا بنفسه — زهوا وغرورا ، أو انحراف وخيانة ! — إلى ما فوق موضعه ، فادعى لها الولاية على الإمام ، وعلى صحبه الخلصاء ، وعلى جموع أهل العراق ، ثم على المسلمين كافة ، فخف من خلف أظهرهم أو كاد إلى مايشبه الاتفاق مع عتبة بن أبى سفيان على وضع الحرب ، أو على تسخير نفوذه لوضعها ، دون مشورة من ولى الأمر الشرعى ، وغير مبال ما لفعله هذا من أثر بالغ فى تمويق الخطا إلى الهدف ، وفى تمزيق وحدة الصف ، وفى الهبوط بمعنوية الجيش العراقى المنخرط حينذاك فى القتال بصفين إلى وهدة الوهن والتخاذل والانقسام..

يومئذ يصغى إلى ملق عتبة بن أبى سفيان الذى يثير فيه كلفه بالتفاخر ، ويغذى بألفاظه المنمقة المعسولة غروره ، إصغاء مقبل نهم نشوان ! . .

يقول عتبة :

« إنك رأس أهل العراق ، وسيد كندة ، ولست كأصحابك ! . . إنك حاربت عن أهل العراق تكرما ، ثم حاربت أهل الشام حمية . . . وإنا لاندعوك إلى ترك على ونصر معاوية ، ولكننا ندعوك إلى البقية التى فيها صلاحك وصلاحنا . . . »

فلا يأبى الدعوة المخذلة عن الحرب ، المرجحة لكفة الشام ، بل يتقبلها كمثل تقبل ظمآن ماء آسنا لاختيار له فى رفضه أو يموت ! . .

يجيب :

« . . . أما البقية فلستم بأحوج إليها منـــا ، وسنرى رأينا فيها إن شاء الله . . . »

ويعلم معاوية من أخيه بما كان من الرئيس اليمانى الكبير فيستبشر ، ويطمئن باله ، لأنه — وقد أيأسه وشق عليه أن يجتلب النصر من على بحد الحسام — يوشك أن يرى فلجه على غريمه وحزب العراق يأتيه يسيرا هينا من خلال استجابة الكندى المغرور لهذا التخذيل المموه بلون السلام ! . .

وأخرى نعلمها ويعلمها الناس ، عندما تسعر القتال فى معركة صفين ، قبيل نهايتها ليلة الهرير . .

فلقد أشرف القتال ، ليلتها ، على لحظة فصل تجلت بها للعراق بشائر نصر حاسم لاشبهة فيه ، كما بدت للشام نذر هزيمة ساحقة لامناص من تجرع مرارتها ، ولا سبيل معها إلا سبيل الاستسلام . ولكن الأشعث يلوح كالذى لا يرتضى هذه النتيجة ، ولا يحب أن تكون . فيسارع — طائعا وملهوفا ! — إلى تثبيط همة قومه المقاتلين فى صف على ، وتخذيلهم عن مواصلة القتال شبرا أو فترا إلى النصر المضمون ، كأنما قد هاله أن يعز الإمام ، وتسقط الراية من يد ابن أبى سفيان ! . .

ينبرى حينذاك إلى قومه كندة ، وهم بعد على ثرى الميدان ، لا يحثهم على الصبر والثبات وإنما يحرضهم على القعود والقبوط ! . . ولا يخوفهم الهزيمة ، بل يخوفهم الظفر الذى لاحت لهم معالمه ، وخفقت فوق هامهم أعلامه ! . .

يخطبهم فيقول :

« . . . قد رأيتم ، يا معشر المسلمين ، ما قد كان فى يومكم هـذا الماضى ، وما قد فنى فيه من العرب . فو الله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط ! . . ألا فليبلغ الشاهد الغائب إنا إن نحن تواقفنا غدا إنه لفناء العرب ، وضيعة الحرمات ! . . . »

* * *

وثالثة جاوز بها حدود الولاء إلى التمرد ، والمؤازرة إلى العصيان . .

فحين أكلت الحرب أهل الشام ، وأوشك الأشتر ببعض جنده أن يعصف بمعاوية فى فسطاطه ، واحتال عمرو بن العاص بالمصاحف تعوذا بها من الهزيمة ، وهم فريق من العراق أن يقعوا فى شرك الخدعة . . فى تلك الآونة الخطرة التى تقرر المصير ، وتفرق الحق عن الباطل ، والجد عن الهزل ، والنصر عن الهزيمة .

نصب الأشعث بن قيس الكندى نفسه — دون على ، وصفوة صحبه ، ورءوس جماعاته ، وقادة جيشه — وليا ناصرا للعبة الماكرة ، ومدافعا عنيدا عن العدو المخذول . .

عدى بن حاتم يقول للإمام :

« إننا أمثل من القوم بقية . وقد جزع القوم ، وليس بعد الجزع إلا ما تحب فناجز القوم ! . »

وعمرو بن الحمق يقول :

« والله ما نصرناك عصبية على الباطل . ولا أجبنا إلا الله عز وجل . ولا طلبنا إلا الحق . وقد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا معك رأى . . »

والأشتر النخعى يقول :

« إن معاوية لا خلف له من رجاله ، ولك بحمد الله الخلف ، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا بصرك . فاقرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله ! . . »

أما رئيس كندة الأشعث فيغضب الغضب كله لهذا الإجماع من رفاقه ، سادة الجموع وقادة الألوية ، على مواصلة القتال . . ثم يثور . . ثم يعنف لعلى فى الخطاب :

« .. ليس آخر أمرنا كأوله ! . . فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم ! . . فقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال . . »

ويمضى يؤلب الجيش العراقى ضد ما قد ارتأى أصحابه ، ويحرص على إطفاء نار الحرب ، والركون إلى الموادعة حتى تتنادى الكثرة بقبول التحكيم ، مخالفة الإمام . .

* * *

وغيرها أنكى وأمر ، تضيع على أميره ثمرة الكفاح ، وتهدم أسس النصر ، وتفسخ البقية الباقية من الأمل فى الاستقرار لأنها تقضى القضاء المبرم على الحكمة المنشودة من وراء الاحتكام لكتاب الله . .

فهو لا يدع التحكيم ، الذى جهد ليقوم ، يسير فى طريقه الطبيعى إلى ما يحقق

سلاما عادلا يشير إليه الواقع ، ويقضى به صالح الأمة ، ويرضاه حكم الله لأنه هكذا التحكيم الذى يكشف عن بغى الباغين ، ويدمغ سلوكهم بالمروق ، ويحملهم حملا على ما يكرهون من حكم القرآن . .

ولا مغالاة ، إذ أبى إلا حكما يرضاه وإن علته مشبوه الولاء للإمام ، أدنى إلى الغفلة عن القضية ، وأولى بتسليمها لمشيئة الغريم ! . .

يقول على :

« إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص . . وإنه لا يصلح للقرشى إلا مثله ، فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به . . »

لكن الأشعث يعترض الرأى وقد أخذته العصبية :

« لا والله ! . . لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة ! . . ولكن أجعله رجلا من اليمن . . »

ويختار أبا موسى الأشعرى . .

فيقول الأحنف :

« . . قد عجمت هذا الرجل ، فوجدته كليل الشفرة ، قريب القعر . . لا يصلح لهؤلاء القوم . . . . وهو رجل يمان ، وقومه مع معاوية . . . . »

ويعقب على :

« إنه ليس لى برضا . وقد فارقنى ، وخذل الناس عنى ، ثم هرب حتى أمنته . . . . »

فيأبى الأشعث :

« والله ما نبالي . . . . »

فيرشح الإمام آخر :

« فإنى أجعل الأشتر . . »

فيأبى ثانية أو ثالثة ، ويصر على أبى موسى ، ويظاهره فى الإباء والإصرار جماعة القراء الذين غدوا من بعد خارجة ، كأنما كان وإياهم على اتفاق . .

ويقع ما يقع فى التحكيم فإذا هو وفاق ما أراد أن يقع مكر صاحب الشام ، وغفلة أبى موسى ، وخيانة الأشعث . وعنت القراء ! . .

٥

ذلك الزاحف من مكة برسالة الموت ، استطاع — فى وكر الفتنة — أن يحقق ما اشتهت أحلامه السوداء أن يكون ! . .

بمسارب الكوفة المظلمة ، ومغاور الدسيسة ، جدد الصحبة مع نفر ذوى صلابة ومراس ، من الأولى على نفس مذهبه ، يكنون لعلى بن أبى طالب عداوة حمقاء مريرة ، ويرنو أمامهم المجنون إلى هدم حياته ، وتقويض عهده لنشر دعوتهم الوبيئة . .

وبين فلول الموتورين والمخدوعين ، وقع على بضعة غالية فى عصبية التفكير ، أنس منها إلى اثنين مفتونين ، عاقداه على النصرة واسترخاص الحياة ، من أجل إراقة الدم المستباح . .

وبديار تيم الرباب ، لقى من يؤجج شره ، ويلهب ثأره ، وينفخ فى ناره ، ويحفز نفسه المفعمة بالضغينة ، الملتاثة بالهوى ، حفزا شرها لا تهدأ له نهمة ، ولا تبرد غلة ، ولا يتراخى تصميم . .

وفى حى كندة ، فوق كل أولئك ، قابل الرئيس الذى يحمى ، أو يثير ، أو يشير . .

لكن القدر الموكل بالقلوب ، أوشك فى لقاء من تلكم اللقاءات أن يعد أصبعا إلى قلب المتآمر تلعب بوتر فيه فتقلب — لحين من الزمن — تفكيره ، وتعدل تدبيره حتى لكادت أن تدفع بخطاه بعيدا بعيدا عن المرمى الذى بيت النية على بلوغه بعدا شاسعا ثم أن يتحول بتيار التاريخ . .

ولم يكن هذا فى حسبان عبد الرحمن يوم بدأ رحلته الطويلة . ولا جال له فى بال وهو يرتاد المسارب والمغاور والأوكار انتجاعا للعون أو الرفقة أو النصيحة .

ولا يسرح ظنه لحظة قط إلى قوة فى الوجود — من شىء أو أمر ، من ناس أو حدث ، من إعداد فعل مدبر أو من صنع صدفة عارضة — تستطيع أن تعترض سبيله المرسوم ، أو تحرف خطاه عن السير عليه . .

غير أن القلوب قلب . والهوى جموح . والعواطف رعناء . .

وقريب إلى سجية البشر ، لا ريب ، بل بضعة منها ، أن يعرف المرء الحب ، ويذوق طعمه ، فينعم به أو يشقى فيه . وقريب أيضا — حين تلمسه عصاه السحرية — أن ينسى نفسه ، وينسى عقله ، وينسى ماضيه أو يكاد يذهل آونة عنه تطول أو تقصر كعمر نشوته ، ليتبدل على الأثر قلبا بقلب ، وشعورا بشعور . . ولا غرو ! . . فحين تلتفت القلوب تغمض العيون . وحين يأمر الهوى تلبي الجوارح . وحين تجيش الأحاسيس تأسن العقول . .

فتلك سنة الطبيعة فى الناس ، وضريبتها المفروضة عليهم لحفظ البشرية . .

وكان من قدر ابن ملجم أن عرف الحب ذات ليلة ساجية بالكوفة ، من ليالى الفرار والطراد والتسلل المستترة بالغموض ، اللاججة بالهمس ، المليئة بالأسرار . . فإذا هو إذ ذاك يبدأ رحلة جديدة . . يميل عن طريق التفكير الحذر إلى طريق العاطفة المفتونة . . يمر بالتجربة الإنسانية العذبة ، المتواترة فى حياة الإنسان كأنفاسه ، المتكررة عبر الأيام فى كل مكان . .

باللمسة الساحرة ، غدا المتآمر المغامر غير ما كان : إنسانا سوى إنسان ، وكيانا سوى كيان ! . . لكأنه خلص من كثافة البدن ومن عتمة المادة ! . . لكأنه ابن لحظته الحلوة التى أغرقته فى النشوة ! . . لكأنه ولد من جديد ! . .

فى عين من سوادها الداكن ليل الليل ، ومن بياضها الصافى صباح الصباح ، عاين الفتى قدره . وجد دنياه . عاش فترة من حياته شهية ندية هى الحياة ، أو هى حياة غيرها أخرى ، مفصولة تماما عن هذه الحياة . لا تكاد تمت للمألوف فى وجوده الأول ووجود الناس من شكول وأوضاع ، ومن نظرات وأفكار ، ومن ظنون وأحداس ، ومن سنين ولحظات ، ومن أغوار وأبعاد لأنها لا تخضع

لرأى الأعين ، ولا لمنطق العقول ، ولا لحكم الأحياز . . لا تفطن لما يدور في ذلك العالم الذى كان يجنه ويحتويه : عالم القلق والحذر ، والخوف والخطر ، والدس، والظلام . . لا تحسب من سنى عمره ، لأنها وحدها العمر والدهر والخلود . .

إلى دنيا أرضها زهر ، وريحها عطر ، وأفقها أمل ، وجوها صفاء ، نقلته نظرة وسنانة مخالسة من بين أهداب عيني قطام ، غيداء تيم الرباب . كانت الفتاة آسرة الحسن ، طاغية الفتنة . في لحظها خمر ، وفي لفظها سحر . رقيقة كقطرة الندى ، ريانة كأنفاس الفجر ، نضرة كالربيع . فما أن رنت إليه ، أول رنوة ، حتى أحس كأنما ذاب في النظرة العابرة الخفرة التى صادفته عن غير موعد ، وتسللت إليه على استحياء . .

وأدلت منه ، على الأثر ، طرف ذلك الغرض الذى دبر له ، ووهب نفسه ، وجاء من أجله يقتحم الشبهة والليل إلى مستقر هذا اللقاء . غاب عن فكره النذر، وعهد الثأر ، ورحلة الغيلة الطويلة من البلدة الحرام . غفل عن كل أولئك الزمرة من رفاق المذهب المفتونين الذين أقبل من وكره على جمهم الحاضر ليسمع منهم ، ويستطلع رأيهم ، ويعجم دخائلهم — دون أن تسقط لفظة من بين شفتيه قد تنمى به — عسى أن يستصفى فيهم فردا ذا عزيمة وبأس وكتمان ، يعاقده على المشورة والعون ، ويسير معه لمصرع الإمام . . ضاع منه ، في غمرة نشوته العاطفية ، ما قد سلف من حياته وفات ، ثم أوشك أن يضيع ما هو آت غير لمحة من رجاء عذب ألا يطلع عليه نهار أو يجنه مساء إلا وهو يحلق في سماء أحلامه الوردية مع قطام ! . .

إنه الآن غير ما عهد أن يكون . كأنما قد اغتسل بالنور ! . بدنه كله خدر ، وفؤاده كله وجيب ، وأنفاسه كلها لهاث . . كأنه صنع من صفاء ! . . كيانه ينطوى في نبضة تخفق . روحه يشع في نظرة تهيم . عالمه اختزل في فتاة ! . . وعندما طفا على سطح النشوة ، وعاد هنيهة إلى بعض وعيه ، كان قد نضا عن نفسه ثياب الضغينة وكسته العاطفة مسوح السلام ! . . .

ولم يقل لهم ما كان قد أعد ليقول . ولا جهد ليستدرج خواطرهم إلى ما يريد . ولا حاول أن يلق أذنيه إليهم ليعجم الأعواد . . ولكنه أخلد بينهم إلى صمت واجم كأنه ذهول وهم من حوله يحدثونه لو كان لأصم مسمع يعى أو يلتقط الألفاظ ! . .

ونفضته الأمسية ، من بعد ، إلى وكره الخفى ، ينفرد فيه بعرائس رؤاه ! . . وكان راضى النفس تظله السكينة . يسبح فى عاطفته على قارب نشوان . ويمشى بخيالاته على السحاب ! . وكان غير ما كان . خفيفا كالنسمة ، نقيا كالفجر ، رقيقا كأنه ظل ، شفافا كأنه شعاع ! . .

فكم من ليلة قضاها هناك ، بخلوته تلك مع الحب ، بعيدا عن الضغينة والناس وعوالم الظلام !.. كم من يوم أسفر صباحه عليه وهو فى حلمه الجميل الموصول !.. كم من لحظة أغلق فيها قلبه على نفسه ، كناسك بصومعة ، وأطبق أيضا جفنيه على صورة قطام ! . .

الليالى القليلة التى لعلها مضت عليه وهو فى هذا السراح الرفيق مع عاطفته الوليدة ، فتحت أمامه الطريق للتطهر ، ورققت شعوره ، ومسحت على فؤاده الصلد بالحنان . . خلال سويعاتها الناعمة ، عاش فى دنيا رحبة من رقة تنكر القسوة ، وحب لا يعرف الكراهية ، وسماحة توسع فى المغفرة لكل الخطايا ، ما جل منها أو هان . . ومن ثنايا أحاسيسها المحلقة ، كان ينبثق مثل نبع من ضياء لألاء ، سماوى السنا ، علوى السمات ، رحيم الشعاع . . وفى مسار فلكها الصافى المتألق ، كانت تسبح ، فى بروجها النورانية ، كواكب الأمل والدعة والطمأنينة . .

لكن هذا النقاء المنتشر حواليه ، لم يكن يسلم ، بين فينة وفينة ، من عصفة حيرة تهز الهدوء ، أو غيمة قلق تشوب الرجاء . . أحيانا كان ماضيه المغلول يلقى بظلاله الكثيفة على نور طريقه . أحيانا كان أمسه الآثم يحاول أن يعرقل حركته . أحيانا كان ما سلف من أوزاره ونواياه يكاد يشده للوراء — بعيدا

عن غده المرتقب الحلو — إلى ذلك الشر الظالم الذى ود ، بكل خلجات قلبه الذى لمسه الحب ، أن يودعه قبر النسيان . .

كالجرح القديم الذى يبدو من ظاهر الجلد كأن قد التأم ، كان فكر ابن ملجم ما زال ينغر بقيحه ! . . فى بعض آونات ادكاره ، كان يستعيد نذره وثأره . . مرارا عديدة كان كالذى يطربه خفيح الهمسات التى تبادلها بمكة مع رفيقيه . . مرارا أخرى كان يتذوق على شفتيه مثل النشوة وهما يرددان ، عن غير وعى ، قسم الانتقام لزملائه صرعى النهر . . مرارا غيرها كان يرى ، بعين تصوره ، دم فريسته يخضب كفيه . . ومن خلال مشاهد خياله ، كان يتابع ، بالرغبة والشوق والتلهف ، خطوات صاحبيه على طريق المؤامرة الدموى ، ليرى البرك ابن عبد الله وقد دخل دمشق ، وعمرو بن بكر وقد دخل الفسطاط ، ثم ليكمن على كثب من كليهما ، مشتعل الحقد ، متنمر النظرة ، يرقب كيف ينفذان حكم التآمر فى معاوية وابن العاص . .

من القسوة إلى الرحمة ، ومن الحقد إلى السماحة ، ومن الكره إلى المحبة . تأرجح الفتى لياليه تلك وهو فى ربقة محنة نفسية ، لا تكاد تهديه أين القرار . . ترجرج كأنه قطرة زئبقية ، تتدحرج بمنة ، أو تتدحرج يسرة ، ولكنها لا تثبت هنا كما لا تثبت هناك . . اضطرب كريشة حائرة فى مجال إعصار . .

غير أنه ، ذات أمسية ساطعة النجم ، صافية الأفق ، ريانة النسيم من أمسيات ذلك الشتاء ، أحس كمن أعدته هدأة الطبيعة المترفقة ، وملأت روحه القلقة أمنا وسكينة . فإذا بحقده يخبو ، وحيرته تسكن ، ونظراته الوحشية تلين . . وإذا بنفسه تخلص من درنها وخبثها ، كرة أخرى كساعة اللقاء ، كأنما اغتسلت فى أشعة الأنجم . . وإذا بقلبه القاسى الأغلف ينزع غطاءه الكثيف ، وينفتح ليستقبل الحياة . .

وعلى الأثر شهده ذلك المساء الساجى وهو يمضى إلى منبع عاطفته ، فى ديار تيم الرباب ، خفيفا كطيف . وكانت الليلة قمراء . والبدر فى سمائها النقية الشهباء

قد استدار كأنه كوة من النور تنفذ منها القلوب المتطهرة المنيبة إلى غفران الله ! .
وخيوط أشعته الندية الفضية قد نسجها الهدوء الوديع بردة شفافة تدثر الكون النائم ! . . وعندما بلغ مهوى قلبه ، كان يتوثب بفرحته ويطفر كطائر . . وكان أمله فى غد رخى هنىء مع قطام ، قد استهواه كما يستهوى السنا المتوهج فراشة ! . .

ووجدها كما توقع ، هناك . . ريقة الصبا ، رفافة الجمال ، ساحرة اللحظ ، ريانة الصدر ، نشوانة الأعطاف . . رقيقة كما ليس لرقة شفيف . ناعمة كما ليس لنعومة ملمس . حلوة كما ليس لحلاوة مذاق ! . .

ولم يفطن — ولا كاد — لمن أحاطوا بها من صحاب وآل . ولم يع لفظة مما عسام قد استقبلوه به من أحاديث . ولم يعرف أقصر به الزمن أو طال . فما إلى غيرها التفت خياله ، أو أصغى سمعه ، أو رنت عيناه . .

لكنه أدرك ، فى لحظة برقت فى أفق حياته كأنها ومضة شهاب ، أنها احتضنت غرضه الذى جاء فيه . شاع فى وجهها القبول ، وتلونت شفتاها بابتسامة رضا وهما تهمسان له فى دلال هو الخفر أو فى خفر هو الدلال :

« ما الذى تسمى لى من الصداق ؟ . . »

فأحس برعشة الانتشاء تسرى فى جسده ، كأنما قولها كهرباء ! . واختلج قلبه كعصفور . .

لكنه استطاع أن يجيب :

« احتكمى ما بدا لك »

قالت بنبرة مغردة :

« ثلاثة آلاف درهم . . . »

« لك ذلك . »

وزادت :

« وقينة . . . . »

« وقينة »

« وعبد .. .. »

« وعبد »

ثم ابتسمت تردف ورنين صوتها إغراء :

« وتقتل على بن أبي طالب ! . . »

فذعر !

رجته هذه المفاجأة المذهلة رجة عنيفة . عصفت به . أخذته منها مثل غشية حتى لكأنما الأرض تميد تحت قدميه ! .. كأنما قلبه اقتلع من بين جنبيه وطوحت به يد جبارة عاتية بعيدا إلى مجاهل الفضاء ! . . كأنما كان قوامه كبرج عال أخذ يترنح في ارتجافة زلزال ؟ . . فلولا أنه استمسك ، وشد عوده ، واسترد بعزمه الصليب جأشه المسلوب لانهار . .

ولم تكن هذه الدعوة التي دعته إليها حسناؤه منكورة منه ، أو غريبة عليه ، إذ قد كانت مرمى سعيه منذ قريب . ولكن الغريب الذي حرك عجبه ودهشته ، أن تصدر من الفتاة في لحظة كهذه مني نفسه أن تكون مطلع النور ، وفي مقام كهذا أولى بأن تشيع أنفاس السلام بأرجائه ، وتنضر الحياة ، ويصدح الهوى ، وترقص الأحلام ! ..

لكن غادة تيم الرباب بدت حينئذ كأن قد شاءت للشفاه العذبة أن تقطر السم ، وللرقة الحنون أن تخرج القسوة المدمرة ، وللحب أن يلد البغضاء ، وللموت أن يكون مهر الزفاف ! ..

ورمقها مليا في توجس وحذر وما يكاد يدرى أرامت أن ترده عن خطبتها فبادرته بهذا المطلب المعجز المحال ليطوى رغبته في قلبه وتنفض يديها منه . أم هي رأت أن تعبث به لتزيد ولهه . أم أرادت اختبار صدق حبه . أم قد آثرت أن تعلمه أنها كشفت عن سره فعرضت به في الحديث ؟

لقد كان يعرف ، بلا ريب ، أن بعض ذويها خروا صرعى على ثرى النهروان ، من عامين ، بسيف على ، أو بسيوف أصحابه ، جزاء وفاقا لما اقترفوه فى حق الأمة وحق الإسلام ، من انقسام عصيان ، وتبديل وتأويل ..

الأب والأخ قتلهما الإمام بحسامه فى المعركة الوحشية عند ضفة النهر . وربما العم أيضا وبضعة غيره أخر من خارجة تيم الرباب ، قد أوردهم نفس مورد الهلاك . . فكم قد أصاب من زمرة البغى والغلو يومئذ ، وكم قد أثخن وفرى فيهم حتى أذاقهم وبال أمرهم إلى الثمالة ، ووكلهم إلى الفناء ! . .

ومع هذا فما كان ابن ملجم لينكر — وقطام مثله ومثل سواه من الناس — أن الحروب أحرى بألا تغير القلوب ، لأنها فى حقيقة طبيعتها ، منافسة مشروعة بين أخصام ، ارتضوا بها ، طائعين ، الاحتكام لمنطق السلاح . . كان يعرف ، وتعرف هى معه دون مراء ، أن رحى القتال الدوارة تطحن كل من يدانيها ، لا تميز بين عدو وحبيب ، أو بعيد وقريب ، وأن مصارع قوم من هذا الفريق لا تكاد توغر على قاتلهم صدور أهلهم فى الفريق الآخر . . ففى صفوف أمير المؤمنين اليوم أولياء خلصاء ، كم جندل لهم فى حربه بالبصرة أعزاء . ومن قريش له إلى هذه اللحظة أتباع أوفياء ، كم أيتم منهم بقتله الآباء ، وأثكل بقتله الأبناء وفى ساعات صياله إبان المعارك المتواليات التى خاضها منذ عهد رسول الله . .

لكنه خايل مخايل الجد والصرامة والحقد قد مسحت ، بكف ملوثة غبراء ، على محيا الفتاة ! . . لمح لبؤة ضارية تطل من عينها الملتهبة ! . . رأى بنانها المخضوب ، وهى تومئ وتشير ، كأنها مخالب ، وأسنانها المنظومة ، وهى تحاوره ، كأنها أنياب ! . .

وكأنما أحب أن يسبر غورها ليستيقن ، فترفق لها فى الخطاب . . قال يهمس بصوت خفيض :

« لك جميع ما سألت . أما قتل . . . . »

فقطعت عبارته على الفور :

« وقتل علي ! . . »

« وأنى لى بذلك ! . . »

فسمعها تفح كالأفعى :

« تلتمس غرته ، فأنت إن قتلته شفيت نفسى ، وهنأك العيش معى . . . »

وبدا كالمضيع وهو يردد :

« إن قتلته ! »

فعاجلته تكمل :

« . . . . وإن قتلت فما عند الله خير لك من الدنيا . »

عندئذ ارتد ، فى طرفة عين ، إلى ماضيه الموسوم . . نقض تطهره . نضا عن نفسه ثوب النقاوة المستعار . اشتهى طعم الدم ، ولون الغدر ، ورائحة الكراهية ، فآب للظلام ! . .

قال :

« أما والله ما أقدمنى إلى هذا المصر ، وقد كنت هاربا منه لآمن أهله ، إلا ما سألتنى من قتل علي . . »

فالجرح القديم الذى بدا هنيهة ، من ظاهر جلده كأن قد التأم ، عاد ينغر بقيحه ! . .

٦

اتفقا على الخطبة .

واتفقا على الخطب ! . .

وخرج من لدنها ، تلك الليلة من رمضان ، وقت السحر ، ليعد العدة لإكمال المهر ! . .

وكان راضي النفس ، رخي البال . يخايله غد شهي بهذه العاجلة ، تنتظره فيه جنة الزواج ، كما يخايله غد أشهى بتلك الآجلة ، تنتظره فيه جنة الرضوان . .

وجنى الجنتين دان ! . .

وكان قلبه ، مع ذلك ، قاسيا كجلمود ، وهو يبرح دارها ومرتع هواه على موعد معها للقاء عاجل ، يطالعها خلاله بخاتمة خطواته التي عاهدها أن يسيرها ، خائضا في الدم ، إلى فرحة الزفاف ! . .

أما عوده فاشتد كالرمح واستقام . وأما عزمه فأرهف كالسيف وشحذ ، إذ انطلق غير متلوم إلى غرضه ، وقد زاد قوة وحدة بإغوائها المثير كما تزيد بماء التقسية وطيب النار صلابة الفولاذ ! . .

لا حيرة بعد ولا وحشة ولا هيبة على جادة الفداء ، فليس وحده الآن . . لا وقت للقلق ، أو التمهل ، أو التفكير ، فليس عليه أن يتلفت تلفت مضيع ، ليمشي مشية متردد ، ليعمل عمل هياب بعد أن عثر في نفسه على الهمة ، وتبين الطريق ، وأنس بالرفيق . .

في ذات أمسيته هذه ، وعدته الفتاة عونا تقدمه له في شخص رجل من قبيلها مطاوع جليد جسور ، يشد أزره ، ويحمي ظهره ، ويحقق به ما أراد تآمره وأراد حقدها الموتور أن يكون . .

كان قولها له حين قبلت عرضه وقبل ما سمته كصداق :

« أنا طالبة لك بعض من يساعدك على هذا ويقويك »

وبعثت من فورها إلى صنيعة لها من بنى تيم الرباب ، اسمه وردان ، فأرته الرأى ، وأمرته الأمر ، ودفعته إلى اللجة الهائجة فعام ! . .

ومن بضع ليال — قبل طائف الهوى الذى طاف به ، وأوشك فى لحظة صفاء أن يطهره ويلهمه التوبة — كان قد وقع على امرئ خارجى من « أشجع » توسم فيه جلدا وحمية ونزوعا مثله إلى المغامرة والعنف ، وتشبعا بالضغينة المذهبية العمياء ، فقربه واستصفاه . .

قال له حينذاك ، بعد أن سبر غوره ، يغريه ويمنيه :

« يا شبيب . . هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ . . »

فهفا إلى الدعوة المشوقة شبيب ، وأقبل بكل نفسه على عبد الرحمن :

« نعم . وما ذاك ؟ . . »

« تساعدنى على قتل على ! . . »

فانتفض الرجل يهب من مكانه كمن وخزه ، على غرة منه ، سن سيف ، أو لسعته حديدة محماة . .

وصاح فى إنكار :

« هبلتك الهبول ! . . لقد جئت شيئا إدا ! . . »

ثم استرد بعض أنفاسه اللاهثة ، ليسأل وهو مأخوذ قد اتسعت حدقتاه :

« وكيف تقدر — ويحك ! — على ذلك ؟ . . »

قال المتآمر بهدوء :

« نكمن له فى المسجد الأعظم ، فإذا خرج لصلاة الفجر ، فتكنا به ، وأدركنا ثأرنا ، وشفينا أنفسنا منه . . »

وما زال به ينفث في روعه ، ويهون عليه حق اختلبه فاستسلم وأجاب . .

بعد هذا لم يبق إلا القليل . .

ثبت العزم ، وتوطد اليقين ، وبدأت الفتنة تطفر ، واسعة الخطا ، على الطريق . .

اجتمعت الخيوط كلها في يد قطام . .

نضجت ثمرة الغيلة الشهية على غصنها الخبيث تنتظر الاجتناء . .

وفي أمسية ليلاء ، غشاها الغيم ، داف ابن ملجم وخدين غدره الأشجعي إلى موعد لقاء جديد . .

كان المكان المسجد الكبير . .

وكان الملتقى قبة فيه بناحية منه ، ضربتها على نفسها فتاة تيم الرباب تحتجب بها عن الرواد ، وقد قبع بقربها — ككلاب الحراسة — صنيعتها وردان . .

وأذنت ، فقابلها الرجلان . .

قال لها عبد الرحمن ينبئها الخبر الذي تهفو اسماعه ، وعينه على صاحبه شبيب :

« قد أجمع رأينا على قتل الرجل . »

فامتلأ صدرها بشهيق الراحة . وغمرت وجهها المتقنع بالحسن بسمة تترجم عما بقلبها من شماتة وبغضاء . .

ثم قدمت إليهما ثالث الثلاثة .

وعندما حزمت وإياهما الأمر ، وأحكمت التدبير ، التفتت لابن ملجم ورفيقه تختم الحديث ورنين فرحتها بنغم الكلمات ! . .

قالت وشفتاها تضغطان من الحروف :

« . . . فإذا أردتما ذلك ، فالقياني في هذا الموضع . . »

وانفض الاجتماع ..

ومالهم لا يلتقون هنا ثانية ليوثقوا خيوط تآمرهم ، ويتفقوا على إنفاذ مشيئتهم الاتفاق النهائى المبرم ، بهذه البقعة المباركة ، بالمسجد الكبير ! . .

فتلك القتلة التى يبغونها إن هى إلا — فى يقينهم — قربة إلى الله . .

وأحرى القربات ، وأولاها بالقبول ، ما يتقرب به فى أطهر الأماكن ، وأشرف الأوقات . .

وقد بدئ التفكير فى الغيلة المنتظرة ، بأقدس أرض فى البلدة الحرام . .

وليس أعون فى الكوفة من بيت الله موضعاً ومن ساعة الصلاة وقتا للاغتيال . .

وها هى أيضاً ليلة القدر المباركة تقترب لتدق الباب ! . .

والليالى القلائل الباقيات على الموعد تكاد تتسرب من بين أيديهم ، وتتبدد كبخار إلا أن يسبقوا الزمن بتوثب الهمة ، وسرعة البديهة ، والمبادرة إلى الاستطلاع . .

وعلى الأثر نشطوا يملأون فراغ الثوانى بالفكر والجهد والمعاينة ، منتشرين متفرقين ، ومجتمعين متلازمين وإنهم لأشبه شىء بأذرع أخطبوط رهيب ، تمتد لتتحسس ، وترتد لتتربص ، وبين انسيابها فى الامتداد ، وانكماشها فى الارتداد ، ينسج الوحش الضارى لفريسته المطمئنة شراك الهلاك ! . .

وحفظت الكوفة لا ريب ، لفترة قصيرة أو طويلة ، آثار أقدام ثلاثتهم على الرمل الرخو ، أو سمعت دقها على الأحجار والصخور ، وهم يجوبون نواحيها الدانية والبعيدة من هنا إلى هناك ، فى حركة لا تكاد تهمد ليعرفوا الواقع ، ويتبينوا المسالك ، ويكشفوا كشف يقين عن مكامن الخطر والعقبات التى لعلها أن تعترض سبيلهم لحظة الفرار بعد الانقضاض . .

وتراءت ظلالهم ، مرارا عدة ، فوق جدران البلدة الصماء ، وهم يدورون حول مسجدها الأعظم ، إبان فترات السكون والظلام التى تحتوى السكون فيما بين

غبشة السحر وظلمة الفجر ، يدرسون مداخله ومخارجه ، ويجوسون خلال ما يؤدى إليه ويتفرع عنه من دروب وطرقات ، وهمهم كل الهم أن يقيسوها بمقاييس التوقعات والاحتمالات ، فضلا عن مقاييس المسافة والوقت وذرع الخطوات . .

وشهدهم أيضاً ذلك البيت من بيوت الله ، يقضون به ليالى رمضان ، بطولها وعمقها ، فى قيام وقعود ، وركوع وسجود ، وهم بجوار السدة التي ألف أمير المؤمنين أن يدخل منها إلى موضع القبلة ليؤم الناس . لا يتخفف ثلاثتهم قط فى القنوت والتهجد ، ولا يهدأون أو يكلون ، كأنما ليس يشغلهم من أمور دنياهم شاغل عن الذكر والصلاة . .

ثم أقبلت ساعة الفصل ، وهى تجمع حولها ثوانيها ، منطلقة قدما لتطرق الباب ! . .

أشرقت ليلة القدر من عليائها على العالم تعلن للناس بدء عام جديد فى حياة الإسلام . .

عادت دورة الفلك سيرتها الأولى لتحيي البشرية — روحا وعقلا وعاطفة — فى ذكرى أخرى لمولد النور . .

فما بال قوم ، يحسبون فى المسلمين ، شاءت لهم أهواؤهم أن يسوءوا ، بالضلال والجريمة ، وجه هذا الموعد الأقدس الكريم وإنه ليعيد إلى قلوبهم وخواطرهم لحظة نزول القرآن الذى هو هدى ورحمة للعالمين ! . . مابالهم قد آثروا أن يبخسوه حقه من التقدير والتوقير وإنه للذى انتشل الورى وإياهم من وهدة الغواية إلى مرتقى الهداية ، وأخرجهم أجمعين من عماية الكفر إلى مشرق اليقين ! . . ما بالهم أبى عليهم العنت والجحود إلا أن يستقبلوه بالإثم والعداوة ، وبالسيف والخنجر ، وبالسم والدم ، وإنه لأولى بأن يستقبله أبناء البشرية قاطبة ، فى كل زمان ومكان ، بالذهن الصافى ، والصدر المفتوح ، والنفس الراضية ، والضمير النقى إذ هو مطلع المحبة والنور والسلام !

غير أن المتحيز لا يعيز.

العيون العمياء لا ترى الضياء ..

القلوب الغلف لا تحس نعمة الله . .

والسراب الخداع لا ينجب الماء . .

فلم يكد ذلك النهار الأيمن من رمضان يتضرج خداه بلون الشفق ، ثم تشيع دكنة الغسق فى صفحة أفقه ، ثم ينشق مساؤه عن سحر ليلة القدر ، حتى كانت زمرة البغى الموتورة قد تهيأت لاستقبال سماحته بالغدر ، ورحمته بالغلظة ، ورفقه بالعدوان ، فضمت جمعها على خبثها الفتاك ، ومضت خلسة — إلا عن أعين الكراهية الحمقاء — لتمد لوحش الانتقام الرابض فى مغارة دخيلتها ، عشاءه الأخير ! . .

فى بضع دقائق كاختلاجة الهدب غدوا على قدم ! . . حسناء تيم الرباب خلبتهم روحا وعقلا وجارحة بسحر رقاها المسيطر الأخاذ . . جنوبهم انتفخت بتخمة الضغينة . خواطرهم اكتحلت بسواد الإغواء . مسامعهم امتلأت بترنيمة الموت ! .. وعندما رأت قطام أنها أدركت فيهم الوطر ، وأنهم باتوا فى أصابعها عجينة لينة شكلتها كيف شاءت ، وأن لحظة الثأر تقبل بالخطا الحثيثة ، لفت صدورهم بعصائب من الحرير كثيفة مشدودة كأنها الدروع ، تقيهم الطعن . ودعت لهم . ثم دفعت بهم ثلاثتهم إلى المسجد الأعظم ، ليكمنوا به مقابل السدة التى لن يلبث أمير المؤمنين أن يخرج منها ، بعد قليل ، فى طريقه إلى القبلة ليؤم الناس بين يدى الله . .

وقعدوا هنالك هنيهة على جمر من القلق والتحفز ، وإن كادوا ، من جمودهم وتهافتهم ، لا يسمع لهم حسيس . كانوا مقوسى الجسوم ، مستتيمى الأعضاء ، خافضى الرءوس ، وقد أوشكت جباههم أن تلمس الأرض كمن فى سجود . ولكن انحناءهم كان انطواء الأفاعى ، وجلستهم إقعاءة الذئاب ، وعيونهم أعين الصقور ! .

وكما يفعل الزاهدون الأتقياء ، لاحوا كأنما تسبح أرواحهم فى عالم بعيد عن هذه الحياة . . وكما يخدع الحواة رائيهم ، أخفوا سيوفهم ، كالثعابين ، بين الثياب . . وكما ألفوا وألف الناس ، فى كل فجر ، أرهفوا السمع إلى وقع الخطا المستأنية التى توشك أن تجتاز الباب . .

وزحفت الثوانى بالثلاثة بطيئة نحو موعد الصلاة وهم جمود ، فى انتظار راكد ثقيل ، كأنهم حجارة أو أموات لولا أن شفاههم المزمومة كانت ، بين فينة وفينة ، ترتجف فلا يكاد أحد يدرى أعن رهبة اعترت أصحابها ، أم عن همس تبادلوه من وراء أسماع الناس ، أم عن تسبيح وتلاوة لبعض آى القرآن كان الارتجاف ! . . وأخذت وفود المصلين تتوالى تباعا على المكان ، فرادى وأفواجا ، ما شغلهم النوم ، ولا هم الدنيا ، ولا برودة الشتاء عن الحضور تلبية لداعى السماء . وكان المسجد الكبير — والفجر يهل بطلعته الناضرة على الكون — قد امتلأ إلى حافاته ، وانحشرت به الجموع الزاخرة حتى لبدا كأنما توشك أن تنبعج جدرانه ، وينفجر بنيانه لكثرة من فيه ! . .

وعلى حين خلسة من الأعين المطرقة إلى الأرض خضوعا لرب البيت ، والقلوب الذائبة فى الخشوع . والخواطر السابحة على ذكر الله ، انفلت عبدالرحمن من جلسته تلك بجوار رفيقيه يتسلل كالأرقم ، وينساب خفيفا فى هدوء وتؤدة إلى موضع بالمسجد هو أدنى قليلا إلى السدة ، وأبعد قليلا عن الزحام ، وأخفى قليلا ، فى تلك الساعة المفعمة بالقعود والقيام على انتباه الجمهور . .

وكان الأشعث بن قيس هناك ! . .

وكان الموضع المختار — أو المحسوب ! — أحرى المواضع بأن يفسح الناس فيه بعض الإفساح ، لأنه مجاز الإمام للدخول . .

وكان الرئيس الكندى أولى الزمر المحتشدة بأن يمثل حيث مثل من السدة ، دون أن يلفت وقوفه الأنظار أو يثير الارتياب ، إذ هو من علية القوم ، وقادة

الرأى ، ورءوس الزعماء المعدودين — كنظرة العامة — فى خاصة صحابة أمير المؤمنين . .

ووقف الرجلان هنيهة يتناجيان وما من امرئ عرف — على وجه التحقيق — آنذاك ، ولا من بعد ، فيما كانت هذه المناجاة . ما من أذن التقطت كلمة أو حرفا من سرهما الهامس . وما من عين فطنت إلى بعض فحوى الحديث من خلال ماقد عسى نمت عنه القسمات . . فقد التقيا وإنهما لفى مثل خلوة ، وتحدثا وكأنهما ولا سميع . وأبرما ما شاءا إبرامه وليس من يدرى أ كان اجتماعهما ذاك وليد صدفة ، أم بإيعازة خفية من الأشعث دعت ابن ملجم إلى اللحاق به ، أم عن اتفاق بينهما سابق دبرا فيه موعد اللقاء الذى حان الآن . .

كيفما كانت ممهدات هذا الالتقاء ، فقد أفلتت من بين شفتى الرئيس اليمنى ، أثناء الهمس ، عبارة قصيرة كشفت من دوره فى الفتنة المقبلة مالم يكن ليكشف ، لولا أن سرت كلماتها القليلات ، حتف رغبته ، إلى سامع لم يكن قط فى الحسبان . . كانت العبارة هى مفتاح سرهما المغلق ، الذى به رفع الغطاء عن ذلك المجهول الذى جهدا جهدهما كله ليخفياه ! . . كانت الوسيلة التى وضعت الحقيقة سافرة مكتملة أمام الأذهان إذ لأمت الظلال بالأضواء ، وضمت الجزئيات إلى الجزئيات ! . . كانت القلم الذى وضع بعداده — كما يقال — النقط فوق الحروف ! . .

ولا سبيل ولا حيلة ، فى حياة هذه العبارة ، إلى تصيد المعاذير لسيد كندة ، أو إحسان ظننا به ، وإن كان ماضيه الحافل الطويل كفيلا وحده بأن يسد على متلمسى الأعذار ، ومحسنى الظن ، ومختلق التبرير ألف سبيل وسبيل ! . . فثم سامع ، كما ألمعنا ، سمع — بملء أذنيه — ما قيل . . وثم راء رأى — بملء عينيه ! — ما حدث عقب النطق بتلك العبارة ، أو بفعلها ، وكعقبى لها ، فإذا المرئى لا يخالف المقول . . وثمة غيرهما شهود كثيرون وقعت الواقعة تحت أبصارهم ، ثم علموا من بعد بعبارة الأشعث ، فإذا هم عندئذ حيال قضية منطقية

محبوكة ، العبارة فيها مقدمة ، والواقعة نتيجة ، والرئيس الكندى ، بقرينة المقدمة ودلالة النتيجة ، شريك فى الجرم بالتآمر وبالتدبير ، أو بالتحريض وبالتأثير ! . .

الوقت حينذاك يؤذن بحلول موعد الفجر . وجمهور الناس يتأهبون للقيام . والحجاب المسدل على السدة يهتز لينجاب .. فقد بدرت من خلف السدة همسات حديث ، وحركة تشى بوقوع خطا خفيفة رتيبة وصوت هادئ يفيض يقينا ينادى : الصلاة الصلاة ! . .

وفى اللحظة التى بدأ فيها الإمام يجتاز الفرجة إلى المسجد ، ويهم أن ينخرط فى المصلين ، هتف الأشعث بن قيس ، بنبرة خاطفة عجلى ، ينبه صاحب نجواه عبد الرحمن :

« النجاء النجاء بحاجتك ! .. قد فضحك الصبح .. النجاء النجاء ! . . »

غير أن العبارة الهامسة لم تتبدد فى الهواء !.. خرقت أذن حجر بن عدى وهو عبر آنئذ بجوار الرجلين . سقطت نبرتها الملهوفة على قلبه كصاعقة شقته وفجرت فيه الريبة . .

وذعر حجر . وألهمته على الفور بديهته فوثب من مكانه إلى ناحية السدة ، وعلى ملامحه شراسة ، وفى عينيه لهب ، وبعروقه فداء ، عسى لو ترس بصدره أن يقهر الغدر ، ويمنع الكارثة . ويدرأ المصير المخوف . .

لكن وثبة القدر كانت أوسع من وثبته ذرعا ، وأسرع حركة إلى حياة الإمام ! . .

٧

من وثبة القدر إلى وثبة حجر ، مرقت لحظة ، كطرفة العين ، عمرها في الخواطر مديد طويل . . على حدودها تجمد الزمن ، وحاصرها بسياجه ، فوقفت حيث كانت بلا حراك . . مشلولة كبركة من ماء راكد . بعيدة الغور والمنتهى كالأبد الآبد . . ثقيلة الوقر كالشعور بالخطيئة ! . .

لكأنها دهر ! . .

لكأنها تيه من الضياع أوغلت فيه حيرة الحيارى ، فهاجت بها الوساوس ، وماجت الظنون ! . .

لكأنها طائف كابوس ألم بمخيلة حالم ، تمر خلاله أحداث في عقب أحداث ، وتتوالى أيام وراء أيام ، ويأتى أناس ويذهب أناس وما هى إلا قدر ومضة شهاب ! . .

فهل رجفت الراجفة ؟ . .

أم مادت الأرض ؟ . .

أم انقض البنيان ؟ . .

كانت « برهة » من الهول . . انهار فيها الهدوء ، وانشق الصبر ، وتهاوت الدعة ، وانفجرت السكينة . على أرضها انطلق يزحف الهرج . في جوها أخذت تعصف الرهبة من سمائها مضى يشع العذاب . . والناس إبانها ، من فرط ذهولهم ، جسوم بلا عقول ، وأشباح بلا أرواح . . كأنهم خيالات رجال . كأنهم ظلال ، تمتد لتنتشر ، وتتقلص لتنحسر ، ثم لا تعلم هى إلى أين ، ولا كيف ، تمضى وتعود . .

وبدت الأعين ، مرة ، كقطرات زئبق ، ترتجف وتترجرج ، أو تلف وتدور ، كأن قد راحت تبحث عن مرئيات ! . . وبدت ، مرة ، جامدة ثابتة الحملاق ، كصورة شاحبة لونتها باليهتة ريشة رسام ! . . وبدت ، مرة ، جوفاء سهوانة ، كأنما امتلأت بفراغ ! . .

ومن وراء أبشار هذه الجسوم الماثلة ، وفي دخائلها الخفية ، كانت تتلاقى لتجتمع أو تتلاحم لتصطرع عوالم من العواطف فيها الأشباه وفيها الأضداد . . فالجزع يلتئم بالرعب ليجثما على الصدور . والأمل يحالف الطمأنينة لينسجا طيف بسمة على الشفاه . . والأمن ينازع الخوف . واليأس يهاجم الرجاء . والتفاؤل يغالب التشاؤم . والإحساس المنذر بهمود الموت ينزو على الإحساس المبشر بحركة الحياة ! . .

وسادت الضجة المكان — قلبا وأطرافا — فغرقت أسماع من فيه في موج صاخب من الأصوات ، لا تكاد تميز فيها بين صياح وهينمة ، صراخ وأنين ، زئير وطنين ! . . ولاح كأنما قد تبلبلت الألسن ، واعوجت الأشداق ، وتململت الأفواه من قلق فتمتر النطق تعثرا ضعضع الحروف ، ومزق الألفاظ ، ولبس المقاطع ، وزلزل المخارج ، وشوش الجرس ، وأكل النبرات ، والتوى بالعبارات والجمل الالتواء الذي يذهب بها كل مذهب إلا إلى مقاصد المعاني أو مناهج السياق . .

باللهفة لهثت الأنفاس . وباللهث تقطعت أوصال الأقوال . وبرجع الصدى اختلطت الضوضاء . وعلى مواطىء الأقدام تبعثر الكلام . . والآذان ، في غمار هذا الضجيج الذي يخنق المكان ، كانت بين حائرة تائهة ، ووقراء صماء ، لا تستطيع أن تعي لمن الصيحة الداعية ، أو الكلمة الملبية . أمن هنا تجيء أم من هناك ؟ . . لمن الخطا التي تهرول مذعورة . ألآت أم ذاهب ، قادم أم هارب ، وإلى إقبال أم إلى فرار ؟ . . لمن الصرخة المدوية التي ترج الجدران ، وتشق الأصوات كما تشق الأصداء . أمن بين أنياب وحش أم من فم فريسة . أهي هتفة شامت أم نفثة مفجوع ؟ . .

كل هذا جرى في بضعة من لمحة . . في مثل ومضة برق لمعت من قلب غيمة لتنطفىء قبل أن تملأ العيون . . في لحظة بلا عمر ، كأنها اختلاجة الهدب . . ولكن طولها — من شقوتها — دهر ، وعرضها — من هولها — عذاب .

جمد الزمن على حدودها يحاصرها فوقفت ، حيث كانت ، بلا حراك ! . .

بدء بدايتها كان نداء أمير المؤمنين المنغم الرتيب إذ انساب من خلف السدة — قبل أن يظهر محياه — هادئا كالطمأنينة ، صافيا كاليقين ، يدعو الناس ، وقت الفجر ، لإقامة فرض الله :

« الصلاة الصلاة ! . . »

وبدايتها حين خطا الإمام بإحدى قدميه إلى المسجد ليعبر صفوف المصلين ، وقد بدا وجهه لهم من فرجة الباب ، ولسانه وقلبه ما زالا يعيدان :

« الصلاة الصلاة ! . . »

فما أن حلت البداية حتى حمت النهاية ! . .

فى لمحة انقلب الحال . .

كالصاعقة انقض ما كان . .

كأنما النهاية عاجلت البداية ، ونازعتها الموعد والموضع ، فوقعا معا ، فى نفس الآن . بنفس المكان ! . .

فلم يكد الإمام يهم بأن يتبع نداءه — البادئ مع أولى خطواته على أرض المسجد — بنداء آخر مثيل ، حتى ارتجت الأسماع ، وذهلت الأذهان ، وارتجفت القلوب . .

سمعه أصحاب أدنى الصفوف منه يستهل النداء . فما عبرتهم الكلمة البادئة إلى الصف التالى حتى سمعوه يردفها بما ليس فى حساب . . بما أرهف الأحاسيس ، بما أهاج الأحداس . بما صلب الملامح . بما جمد العيون . .

فجأة سمعوه ينتقل ، بالعبارة الرديفة ، من نداء لنداء . من دعوة لإقامة الصلاة إلى إهابة لشحذ الانتباه . من منطق واثق مطمئن إلى منطق مأخوذ مبغوت . من جرس ترنم ورنين إلى جرس تأوه وأنين . .

كان ما لفظه عندئذ بضع كلمات ، قطع سياقها اختلاف النبرات . . .

بدأ قوله ، بكل فيه :

« الصلاة الـــــ ! »

ثم مطه بنفثة ألمه :

« .. .. صلا ـــ اه ! .. »

ثم ختمه بهتاف جرحه :

« .. .. لا .. يفوتـــكم .. الرجل ! .. .. »

واقترن كلامه المبعثر ، فى ذات اللحظة ، بدقة ضربة ، وزعقة صائح ، وصرخة ملهوف ، وعربدة ضجيج .. تدافعت جميعها تتسابق ، عبر الصفوف والزحام ، إلى آذان الجمهور تسابقا حار فيه الإدراك . فما درى أحد من السامعين أيها كان السابق ، وأيها اللاحق ، وأيها اللابس القرين ..

فمن جواره طارت كقذيفة ، صيحة موتور حاقد ، من خلال أنياب عبد الرحمن :

« الحـــكم لله يا على ، لا لك ! .. »

وكان فيها دوى صاعقة ، وفحيح أفعوان ..

وقيد خطوة منه ، صرخت اللهفة قد انشق عنها صدر حجر بن عدى ، تفجع القلوب :

« قتلته يا أعور ! .. »

وكان فيها نواح ثـكلى يذبح وحيدها فى حجرها ، وحسرة فاد حرم شرف الفداء ..

وبين هذه الصيحة وتلك ، أو معهما ، أو قبلهما ، سمعت أصوات اختلط بها مثل صلصلة معدن ، وطرقة باب ، وخبطة فأس فى أرض صلبة ، وفرقعة بنان ..

فقد سلت من أغمادها سيوف ، وطاشت ضربة حسام لتقع فى عقدة البناء . وأصابت خبطة ما قد قدر لها أن تصيب . وتـكسرت عظام ..

روى الحادث ، بدءا ونهاية ، شاهد عاشه ، ورآه رأى العين ، هو عبد الله ابن محمد الأزدى . . فقال :

« إنى لأصلى تلك الليلة فى المسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر ، كانوا يصلون فى ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره ، إذ نظرت إلي رجال يصلون قريبا من السدة ، قياما وقعودا ، ركوعا وسجودا ما يسأمون . . إذ خرج عليهم على ابن أبى طالب الفجر ، فأقبل ينادى : الصلاة الصلاة ! فرأيت بريق السيف . وسمعت قائلا يقول : الحكم لله يا على ، لا لك ! . . ثم رأيت بريق سيف آخر . وسمعت صوت على يقول : لا يفوتنكم الرجل . . »

فأما بريق السيف الأول فضربة شبيب ، أخطأت ووقعت فى طاق الباب . وأما بريق السيف الثانى فضربة ابن ملجم ، أصابت ووقعت حيث شاء أن تصيب . . . .

وعندئذ انتكشت الصفوف .

كما يتفجر بركان ثائر ، تدفقت جموع المصلين كالحمم نحو السدة ، حيث كان الإمام ، وإنهم لينقبضون بالذهول ، وينتشرون بالذعر ، ويغوصون فى الجزع ، وينتفضون بخشية الغبة ، ضاربين إلى هدفهم بالساق والذراع كالذى أطاحت به عاصفة رعناء من حطام سفينة التقمها القاع ، فراح يسبح على غير هدى إلى شاطئ مجهول ، فى ظلام بحر لجى من القلق والضياع ، يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذ أخرج يده لا يكاد يراها ، فما يهتدى إلى بر آمن ، ولا إلى بصيص نور . .

طائف كابوس ! . .

الهول يسود . يحاصر المكان ، ويطبق على النفوس . .

القلوب بلغت الحناجر . .

اللهوات ملتصقة بالحلوق . .

الكلام شهقات . .

الأعين اعتلت قم الرءوس ! . .

وما من شيء ، إلى كل هذا ، يسعه أن يترجم عن الشاعر المضطربة مثل دمعة تنحبس ، ودمعة تنبجس ، واحدة يمسكها أن تفيض أمل يوهمها تلطف القضاء ، وثانية يرسلها فلا تفيض طغيان إحساسها بنزوله . .

ودهمت الناس ، فى هذا المعترك الحافل باصطراع العواطف ، واختبال الأصوات ، واصطخاب الضجيج ، صرخة أخرى هلوع ، أطلقها حجر بن عدى ، كسهم مسموم ، وكيانه كله يفترسه العذاب :

« قتل أمير المؤمنين ! . . »

فجمدت أنفاس الناس .

لكنه لم يكن قد مات . .

الذبالة ما برحت تخفق بومضات ضيلة .

الزيت لم يجف فى السراج .

فالذين خفوا ، على صرخة حجر ، إلى الإمام ، رأوا جسده ما زال زاخراً بفيض الحياة . . جبروت قوته البدنية لاح كأنما استطاع أن يعبر به الضربة المسمية بسلام . عتو قدرته على الاحتمال بدا كأنما ابتلع الآلام . جلده سخر بالمحنة . ولولا الدم الذى شهدوه يقطر من رأسه على وجهه ، على لحيته ، على صدره ، على ثوبه ، لما خامرهم شك فى أنه معافى ، وتحالوه على نحو ما طالما ألفوه . .

كان ثابت الجنان ، ركين البناء ، راسخ القدم ، مهيب الوقفة والهيئة ، وقد استند بظهره إلى الجدار ، وواجه بنظرته الجمهور . . قوامه مشدود . عيناه تلمعان . محياه منبسط القسمات ، شفتاه تلونتا ببسمة هادئة لعله آثر أن يرسمها عسى أن تخفف من جزع الناس . .

وامتدت يناه فى هوادة أدنى إلى سكينة الطمأنينة ، تتحسس الجرح الغائر الذى شق رأسه إلى الجبين ، ثم تنحدر منسابة على صفحة وجهه ، لتمر بلحيته التى أغرقتها الدماء . .

ولم يقل كلمة تنم عن قلق . ولا أومأ إيماءة تشى بضيق . . إنما لانت ملامحه ، وظهرت عليها علائم الارتياح وهدوء البال ، وهو يقرب يمنى كفيه من عينيه ، يحدق فيها بإمعان نظر وتأمل ، وقد زوى ما بين حاجبيه كمن يحاول أن يطالع — فيما صبغها من خطوط وبقع حمراء ، بضع كلمات سطرها القدر على راحته المخضوبة بمداد دمه المسفوك ! . .

وتهللت أساريره ، وقد برقت فى ذهنه الذكرى — من خلف السنين — كشعاع :

« ستضرب على هذه . . فتخضب منها هذه . . »

صدق رسول الله .

وماله لا يطيب نفسا ، ولا تترقرق الفرحة فى محياه ، وقد شارف ما كان يتمناه ؟ .

فى الليلة الماضية ، كأنما هفت روحه إلى محمد ، فرآه فى المنام . .

يقول الإمام ، شاكيا له :

« يا رسول . . ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد ! . . »

فيقول الرسول :

« ادع عليهم . . »

فيتجه إلى ربه :

« اللهم أبدلنى بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بى من هو شر منى . . »

ثم تحل به ، بعد ساعات قليلات ، هذه الضربة الفاتكة ، التى أوشكت أن تخرج الموت من الحياة . . فهو يرى فيها جسره العبور إلى من هو خير من كل أولئك الذين شاقوه ؟ . . هلا تكون بشيره بلقاء رسول الله ! . .

غير أن تلألؤ محياه كان كالوهج الذى يكشف ما حوله فيبديه باهتا تنتشر على جوانبه ، ومن ورائه ، الظلال . . فعلى وجوه الذين أحاطوا به تراءت

سحائب قاتمة من الحزن والألم ، ومن الندم والحسرة ، ومن الشرود والوجوم ..

بوجه ابن أبي الساج ، بدا مثل الشعور بالإثم ، إلى جوار بهتة مبهوت . . فهو الذى آذن الإمام ، من قليل ، بصلاة الفجر ، وخف يتبع خطواته إلى المسجد الكبير . . فلو أنه لم يكن آذنه ! . . لو أنه لم يكن دعاه للصلاة ! . . إذن لعله كان لا يخرج للناس خرجته هذه ، ولا حرج عليه لأنه ، كما يعلمون ، مريض منذ أيام . . لعله كان يتأخر عن موعد الفجر الدامى ، ويتقدم لإمامة المصلين سواه . .

بوجه حجر بن عدى امتزج الغضب بالألم ، والوجوم بالحسرة . . إنه لغاضب على نفسه ، ناقم منها ، يجرعها مرارة اللوم كما جرعته ، وجرعت الأمة ، غصص الآلام . . فما لقدميه خذلتاه ، فى اللحظة الفاصلة ، بل خانتاه ! . . ما لوثبته لم تقطع على القاتل الزنيم الطريق ! . . فلو أنه سبق سرعته ! . . لو أنه طار وإن لم يكن من ذوات الجناح ! . . إذن لترس عن الإمام ، فتلقى الضربة بيمينه . . برأسه . . بصدره . . بكل قلبه الممزق المفجوع ! . .

بوجه عبد الله بن محمد الأزدى ، سرح الشرود والضياع . . كيف نشطت عينه لترى وتسجل ، وشلت يداه أن تمنعا الكارثة ! . . كيف ركن إلى المشاهدة وذهل عن العمل ! . . فلو أنه هب من مسرح رؤيته بجوار السدة ! . . لو أنه تحرك عند اندفاع عبد الرحمن ! . . إذن فلربما كان يعرقل المجرم ، أو يطيش ضربته ، أو يخفف وقعها على هامة الإمام فيتأجل القضاء بعض حين ! . .

بوجه المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب غيظ محسور ، مغلول اليد ، مفلول الحد ، كم كان يود لو تركه ينفجر عسى أن يبرد ناره ، ويشفى غليله ! . . لكنه — امتثالا لأمر رسول الله — لم يكن يملك إلا كظمه ، وإلا معاناة ضغطه القاسى ، بوقره الخانق الثقيل ، على صدره ، وعلى فكره ، وعلى كل حاسة وجارحة فيه .. فلو أنه لم يكبح نفسه ! . . لو أنه مزق ابن ملجم بنفس سيفه الذى انتزعه منه ! .. لو أنه نهش لحمه ، ولاك جلده ، ومضغ عظامه ! . . لو أنه

مثل به ، وإن نهى — بأدب محمد — عن المثلة ولو بكلب عقور !.. إذن لكان هذا أشفى له ، وأذهب لبعض غيظه ، وأدنى إلى تفريج شيء من همه من اكتفائه بالانقضاض على الوحش ، وشل حركته ، وإسلام أمره إلى عدالة القانون ! . .

بوجه الحسن بن على ظل حزن مكتوم قد عاث بقلبه عيث إعصار جائح لم يدع منه غير فتات ، ثم عبث بملامحه ، فغير لونه ، وغور عينيه ، وحفر أخاديد عميقة فى جبينه وخديه قفزت بعمره إلى وهن الشيخوخة وإنه بعد لفى عنفوان الرجولة . . كان يحس فداحة الألم المضى الذى يكابده أبوه . ويشفق عليه من هذا الجلد الذى اصطنعه ، وقهر نفسه على احتماله ، ليخفف عن الناس وقع بلواه . ويدرك أن خطبه ، وخطب أمته فيه ، ليس مما تستطيع أن تصفه المشاعر ، أو يرسمه التعبير ، أو تتسع له رحابة العزاء ! .. قلبه يحدثه أن التفاؤل قد هاض ، والأمل قد تهاوى ، وطلائع الموت قد أخذت تضج ضجيجها ، بكل أيدها وقوتها ، لتسحق الحياة ، وإن هى إلا مثل خفقة ثم يخبو السراج ! . .

لكنه غالب دمعه الذى كان حائرا حينذاك فى مقلتيه ، ليبتسم فى وجه أبيه . . ثم دنا منه يحتضنه بذراعين مشى فيهما ، مع الحنان ، الارتجاف وهو يهم أن يعينه ليبرحا مسرح المأساة . فما كاد يفعل حتى أحس بالإمام يدفعه قليلا بإحدى يديه ، ويشير بالأخرى ناحية ، وقد بدا فى عينه بريق إنكار .

وتلفت الحسن ينظر هناك .

على منأى خطوات ، بجانب من المسجد غرق فى الضجيج ، شهد جموعا من المصلين يحيطون بابن ملجم ، وقد هاجهم الغضب والأسى ، يهزون عليه بما فى أيديهم ، ويركلونه إن وسعهم أن يحركوا الأقدام ، وينهشون لحمه بأنيابهم كالسباع . . وسمع أصواتهم الهادرة تعتوره . بما تستطيع ألسنتهم أن تقذفه من حمم الإقذاع . .

« يا عدو الله ! . . . »

« قتلت خير الناس ! . . . »

« أهلكت أمة محمد ! .. »

والمجرم يتهم صامت لا ينبس بكلمة .. جامد لا يدفع عن نفسه ، كأنما فقد الشعور . كأنما تحول لتمثال . ولا غرابة إن هو غاب عنهم بوعيه لأنه عندئذ يتبع خطوات رفيقيه إلى دمشق والفسطاط ، ليتم معهما بنصر كنصره إذ قتلوا رءوس الضلال ! .. ولا غرابة أيضا لو احتمل هذا البلاء الذى يصبه عليه الناس ، لأنه كان أحرى بأن يتلذذ بالتعذيب كما يتلذذ شهيد ! ..

وخف بضعة من رجال الإمام إلى تلبية إشارته ، فأنقذوا الجانى من سخط الجمهور . .

وعلى الأثر تحامل على على بقية عافيته ، وانطلق يجتاز السدة عائدا إلى غرفته يحف به نفر من الآل والصحاب . وعندما توسد فراشه ، تعلقت أبصارهم بوجهه وقفزت آذانهم إلى شفتيه . .

وسمعوا أنفاسه تتواتر فى رتابة وانتظام . .

ورأوا ملامحه قد كساها الهدوء . وعينيه تجولان فيهم هنيهة بنظرات ملؤها سكينة ورضا ، تشيع فى قلوبهم طمأنينة ثم تجاوزهم إلى ما وراءهم ، وهى تتلون بالحنين ..

فلعلهم عندئذ أحسوا بشىء من الأمن . لعلهم تطلعوا إلى غد يجيئه بالبرء ، ويجيئهم بما يقشع الغمة . لعلهم توسموا فى الصباح الذى يهم أن يسفر ، بشير رجاء . .

.. فأما الحسن فقد أنس غير ما أنسوا فى تلك النظرة الساجية المترحلة عبر النفر المحتشد حول الفراش . عبر الجرح والألم والأحزان . عبر دنياه ودنيا الناس .. ليوشك أن يتبينها تسبح إلى عالم غير منظور . تطير لمهوى الأشواق . تهفو إلى لقاء رسول الله .. وما كان الفتى ، بتصوره هذا ، راجما بظن ، ولا أسيرا لوهم . ولا سادرا فى خيال .. بل كان يستروح ذكرى ماثلة ، ويستعيد

كلمات ، ويستنبئ ماسمع مغزاه .. فقد روى له أبوه ، قبيل الصلاة ، قصه المنام ..

.. وأما النفر الملتفون بالجريح فقد أفلت منهم الرجاء الذى تلقفوه ، وتمزق الأمن الذى خالجهم ، وأناخ عليهم الروع الذى حسبوه ، منذ قليل ، قد انزاح حين رأوا أثير بن عمرو بن هانئ الطبيب ، يميل فيهمس بأذن الإمام بعد أن فحص جرحه :

« اعهد يا أمير المؤمنين . »

وحلق الكمد فى جو الحجرة ، مع اللهفة ، والإحساس بالضياع .. ولكن الإمام بدد الوجوم الثقيل ، إذ دعا بالقاتل ، فادخلوه ..

فقد امتلأ المكان بالهمسات .

ثم سرى صوت على ، رصين النبرة ، واضح الجرس يقول :

« النفس بالنفس. إن أنا مت فاقتلوه كما قتلنى وإن سلمت رأيت فيه رأيى. »

فكأنما تملكت نشوة النصر القاتل ، فقال فى شماتة وخيلاء ، وهو يعنى سيفه بالمقال :

« لقد اشتريته بألف ، وسممته بألف، فإن خاننى أبعده الله ! .. »

وكثر اللغط . وتشابكت عبارات . وسالت عبرات ..

ولكن الإمام حسم النزاع ..

فخرج الآثم .

وأمر بخروج الناس .

وأسلم قلبه إلى السكينة وهدوء البال ، ينفرد بأشواقه . فى انتظار لحظة القضاء ..

فلقد عهد عهده . وأدى ما عليه . وجالد الدنيا لينقى الأنفس ، وينشر النور .. وإن هو إلا يوم وبعض يوم ثم يكون لقاؤه بأحب الخلق ، رسول الله .

وعندما مالوا بجثمانه يوسدونه التراب ، كانوا يميلون عندئذ برجل يعز ، إلى أبد الدهر ، مثله في الرجال .. ربيب محمد ، وصاحب نجواه .. بحامل مشعل هداه . بقرين ابنته سيدة النساء الزهراء . .

وعندما سرى نبأ موته في الناس ، لم ير قط باكيا كذلك اليوم ، الذي دهم البشرية كلها بداهمة قاصمة ، أصمت النبل والشرف والمثل الرفيعة التي تعز الإنسان ، وأحرقت الأمة بنار لا يطفىء لهبها بكاء . .

وعندما بلغ الخبر مدينة الرسول ، وزلزلت به الأنفس ، أدارت أم المؤمنين عائشة فيما حولها عينا غائمة ، ثم نفثت بلهجة كأنها أنين :

« وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر ! »

ومسحت دمعة تحدرت على خدها وهي تقول :

« رحم الله أبا حسن ! . . »

فقد مسح الموت الخصومة ، وحسم اختلاف الأحياء . .

« تم بحمد الله »

مطبعة الحريّة - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤١٠

توزيع الهيئة العامة للكتاب
القاهرة - بيروت
المجموعة الكاملة ٤٠ ل.ل.